بسم الله الرحمن الرحيم

موســوعة

العلامة الشيخ التسخيري

المجلد الرابع

الحضارة

المعهد العالي للدراسات التقريبية

التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامي

سرشناسه	: تسخیری، محمدعلی، ۱۳۲۳-۱۳۹۹ Taskhiri, Muhammad Ali
عنوان و نام پدیدآور	: موسوعة العلامة الشیخ التسخیری / المعهد العالی للدراسات التقریبیة، التابع للمجمع العالمی للتقریب بین المذاهب الاسلامی.
مشخصات نشر	: تهران: مجمع جهانی تقریب مذاهب اسلامی، ۱٤٤ق.= ۲۰۲م.= ۱٤۰ -
مشخصات ظاهری	: ج.
شابک	: دوره:۷-۳۲۱-۱٦۷-۹٦٤-۹۷۸ ؛ ج٤: ۹-۳۲۷-۱٦۷-۹٦٤-۹۷۸: ۵۰۰۰۰۰ ریال
وضعیت فهرست نویسی	: فیپا
یادداشت	: عربی.
یادداشت	: فهرستنویسی بر اساس جلد دوم، ۱٤۰۰.
یادداشت	: ج. ٤ و ۷ و ۱۱ (چاپ اول : ۱٤٤۲ق.=۲۰۲۱ م.=۱٤۰۰)(فیپا).
یادداشت	: کتابنامه.
مندرجات	: ج.۲.التفسیر.- ج.۳. عقیده و تمدن.- ج.٤. الحضاره.-ج.٦.الاقتصاد.-ج.۷.الوحدة والتقریب.- ج.۱۱.الاصول والفقه
موضوع	: تسخیری، محمدعلی، ۱۳۲۳-۱۳۹۹ -- فهرست مطالب
موضوع	: Taskhiri, Muhammad Ali -- Concordances
موضوع	: اسلام -- مطالب گونه‌گون
موضوع	: Islam -- Miscellanea
شناسه افزوده	: پژوهشگاه مطالعات تقریبی
رده بندی کنگره	: BP۱۱
رده بندی دیویی	: ۲۹۷/۰۲
شماره کتابشناسی ملی	: ۸۵۱۱۸٤٤
اطلاعات رکورد کتابشناسی	: فیپا

هوية الكتاب

اسم الكتاب: موسوعة العلامة الشيخ التسخيري (المجلد الرابع) الحضارة

تأليف: محمدعلي التسخيري

التنظيم و التحقيق: المعهد العالى للدراسات التقريبية

التابع للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الاسلامي

مسؤول امور الطباعة و تصميم الغلاف: محمد تقي مهجور

المخرج: سيد محمد حسني زاده

ردمك الدورة: ۷-۳۲۱-۱٦۷-۹٦٤-۹۷۸ / **ج٤:** ۹-۳۲۷-۱٦۷-۹٦٤-۹۷۸ :ISBN

الطبعة الأولى: ۱٤٤۲هـ -۲۰۲۱م

الكمّية: ۱۰۰۰ نسخة

السعر: ۵۰۰۰۰۰ ريال

الناشر: المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية (طهران) - المعهد العالي للدراسات التقريبية (قم) - ص.ب: ۳۸۷۳-۳۷۱۸۵

بريد الإلكتروني: info.taqrib@gmail.com تلفكس: ۰۰۹۸۲۵۳۷۷۱۱۳۸۸

❋ جميع الحقوق محفوظ للناشر ❋

من الظواهر العامة في الإسلام

محمدعلى التسخيرى

المقدمة

تلعب مسألة دراسة من الظواهر العامة في الإسلام إلى جانب مسألة معرفة المقاصد الشرعية العامة دوراً هاماً في مجال المقارنة بين أهم الاتجاهات المذهبية القائمة اليوم.

كما تقومان بدور مهم جداً في تحديد المعالم العامة لهذه الشريعة وربما كان لهما دور حتى في عملية استنباط الأحكام من مصادرها الاصلية سواء من خلال توجيه ذهنية المجتهد المستنبط أو من خلال إثارة التشكيك لديه في صحة ما توصل اليه اذا كان لا ينسجم مع هذه الظواهر العامة أو تلك المقاصد الشرعية.

ومن هنا فنحن نعتقد أن معرفة هذه الظواهر يمكنها أن تشكل علماً مكملاً لعلم المقاصد الشرعية، ونافعاً في دفع عملية فهم الإسلام عقيدة وتشريعاً إلى الامام.

بعد هذا نقول:

إننا نعتقد أن كل ما يتحلى به الإسلام من صفات وظواهر عامة انما ينبع من:

كونه الاطروحة الخاتمة للرسالات والتي امتنت بها الرحمة الإلهية على البشرية لتقوم بطي مسيرتها الكمالية وفق منهج خالد جامع يراعي الفطرة التي تميز الإنسان عن غيره من الاحياء، كما يراعي الاشباع المتوازن العادل لكل حاجاته، ويضمن له كل حقوقه، ويحقق الانسجام الواقعي بينه وبين الكون كله.

ومن هنا فنحن ندعي أن أهم الصفات التي يتحلى بها الإسلام هي (الواقعية) و(الفطرية) ومن هذه الخاصية تنبع الصفات الأخرى من قبيل: التوازن، والترابط، والمرونة، والأخلاقية والشمول، والعالمية وغيرها.

ولا نعني بالواقعية مفهومها السلبي ويتلخص في الاستسلام للواقع كما هو والاعتراف به وإنما نعني المفهوم الايجابي له وهو ملاحظة الواقع إلى جانب تصور الإمكانات التكاملية التي يعبر عنها الفلاسفة بـ(اهداف الخلقة) والسعي لتفجير الطاقات الكامنة ليتغير الواقع باستمرار حتى تتحقق تلك الاهداف ويتحقق بها الكمال الإنساني المنشود.

وهذا المنهج كما يبعد الشريعة عن الاستسلام للواقع وتبريره، يجنبها الإفراط في الخيال المجنح والطوبائية العقيمة.

ونود أن نشير ـ هنا ـ إلى أن المذاهب الإسلامية لا تختلف مطلقاً حول خصائص الإسلام العامة وبالتالي يمكن أن تكون هذه الخصائص احدى النقاط التي يتجمع حولها المسلمون.

وسنركز في هذا الكتاب على بعض هذه الظواهر عسى أن يوفقنا الله تعالى لاكمالها في المستقبل والله ولي التوفيق.

أولاً: الظاهرة الأخلاقية المحققة للعدالة والحقوق

قبل كل شيء يجب أن نحدد ماذا نعني بالأخلاقية؟ ليتسنى لنا الحديث عن صلتها بروح الإسلام، وكيف تشكل الإطار الإسلامي لكل حكم وسلوك مفضل؟

إن الأخلاقية تعني ـ باختصار ـ ذلك الانسجام الكامل بين الفكرة والحكم، وبالتالي بين النظام وهدف الخلقة الإنسانية العام وما يقتضيه من قيم عملية ضرورية التحقق حتى يتم تأمين ذلك الهدف.

وهكذا يكون النظام أخلاقياً إذا كان يستمد غاياته من ذلك الهدف وتلك القيم المتفرعة منه، ويركّز ـ من حيث الطريقة ـ على الغور إلى الأعماق النفسية وتجلية الدوافع الفطرية، وبناء الداخل الإنساني وفقاً لتلك الغايات.

ولن يكون أي نظام متمتعاً بهذه الصفة إذا كان يستمد غاياته من ظروف بعيدة عن الإنسان وهدف خلقته.

هذا في مجال الغايات، والكلام نفسه يقال في السبل التي تسلكها النظم لتحقيق غاياتها.

وهذه الحقيقة تسوقنا إلى الحديث عن الصلة بين الهدف والتركيبة الإنسانية، ذلك أننا نؤمن على ضوء التأمل الوجداني الواعي في الأنفس والآفاق، وعلى أساس من نظرة الإسلام الأصيلة للنفس الإنسانية والنصوص الكريمة الناظرة إلى هذا المجال، نؤمن (بنظرية الفطرة الإنسانية الاصيلة) التي تحدد هوية الإنسان وتفصله عن غيره أما الدين فيعمل على جلاء الفطرة لتعود إلى صفائها، ويوضح لها ما تجهله من الحقائق الهائلة، ويعبد لها الطريق نحو هدفها بعد توضيحه لها ورسمه أمامها بكل جلاء.

إن الأخلاق تستقي ثباتها وأسسها وأضواءها من الفطرة، وكل ادعاء خلقي ينفي هذا الثبات في المعايير وهذا الرسوخ في الفطرة، إنما هو ادعاء فارغ ودعاية للتصريف المحلي والتمويه على الآخرين.

وقبل الحديث عن أخلاقية النظام الإسلامي المقام في أي مجتمع، ينبغي الحديث عن الأرضية التي يوجدها الإسلام في المجتمع ليكون مؤهلاً للتطبيق الإسلامي الجيد. ومثل هذا المجتمع لابد وأن تتوفر فيه العناصر التالية:

الأول: العقيدة المتأصلة في النفوس والمتعدية من مجال الإيمان المنطقي إلى مجال توجيه الوجود الإنساني كله.

الثاني: الرؤى والمفاهيم التي تستمد معالمها من العقيدة وتصب مباشرة في السلوك الإنساني.

الثالث: العواطف المنسجمة كل الانسجام مع العقيدة والمفاهيم.

فإذا كان المجتمع المتهيئ لتطبيق الأطروحة الإسلامية بهذا النحو، فإن ذلك يعني أن الترابط الأخلاقي ـ بالمعنى الذي طرحناه ـ يسود كل الحياة الفردية والاجتماعية ويشكل روحها وإطارها بلا ريب. ويتأكد هذا المعنى عندما نؤمن بحقيقة الترابط التام بين كل أجزاء الأطروحة، فإن هذا الترابط يعني أن أي بلورة لأي جانب يتم على ضوء المسيرة المجموعية نحو الهدف الكبير تماماً: كما نعتقد بأن أي حركة في هذا الكون الرحيب تترك أثرها على كل المجموعة الكونية الهائلة من خلال هذا الترابط التكويني المشهود والمبرهن. وهذا الترابط الهادف بين أجزاء الأطروحة وهذا الانسجام بينها وبين الهدف هو الذي أهل الإسلام ليكون دين الفطرة والقيم على كل الحياة.

بعد هذه الحقائق نجد أنه ليس من الضروري أن نستعرض مفردات النظام الإسلامي كلها حتى نكتشف مظاهر هذه الروح الأخلاقية فيها، فيكفي أن نلقي نظرة على بعض العينات لنطمئن إليها.

وكمثال على ذلك نقول: إننا نلاحظ تركيز الإسلام القوي على نظامين رئيسين قبل غيرهما معبراً بذلك عن اتجاهه الأخلاقي هذا، وهما: نظام العبادات، والنظام الأخلاقي والتربوي، معتبراً إياهما أساس الحياة الإسلامية وقوامها.

فالصلاة ـ كما تصفها النصوص ـ عمود الدين، إن قبلت قبل ماسواها، وإن ردت رد ماسواها. ومكارم الأخلاق وتركيزها في المجتمع تبلغ من القيمة حداً يجعلها هدف البعثة النبوية الشريفة بل يصل الأمر إلى طرح هذه المعادلة (الدين = الأخلاق).

وإذا طالعنا بعض أهداف نظام العبادات وجدناه نظام التربية الخلقية بعينه فهو يستهدف ـ من جملة ما يستهدف ـ إشباع الحاجة الفردية والحضارية الإنسانية إلى الارتباط بالوجود المطلق بأفضل وجه، والحاجة الحضارية إلى الإحساس الذاتي بالمسؤولية الآنية والتاريخية كضمان للتنفيذ، وبالتالي فهو يستهدف إشباع حاجة الإنسان الدائمة للتذكير بالحقيقة وإنقاذه من مرض الخمول في الطاقة الإيمانية، والتقاعس عن الفاعلية الحضارية نتيجة نمط من أنماط التخلف (العقلي، النظامي: الفردي و..).

وحتى العبادات المالية نجدها تسير على هذا المنوال أروع سير، إذ إنها تستهدف الكمال الإنساني كغاية لا محيد عنها فدافع الزكاة لن يقبل منه عمله إلا إذا قصد التقرب إلى الله، والجابي لها يرغب في الدعاء للدافع ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾[١].

إن الشمولية في العبادة تعطينا معنى الشمولية الأخلاقية في الإسلام وتركز في ذهن الإنسان أن يعيش لله دائماً: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢] (وفي رواية: من وصايا رسول الله ﷺ لأبي ذر، يا أبا ذر، إن استطعت أن لا تأكل ولا تشرب إلا لله فافعل)[٣].

وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «ما كان عبد ليحبس نفسه على الله إلا ادخله الله الجنة»[٤].

إن النظام الأخلاقي في الإسلام يتحلى بالصفة الواقعية، بعيداً عن التطرف الذهني والخيال المتصوف، والرياضات الباطلة، ويعلن قبوله بمبدأ حب الذات (النفس) أولاً

١. التوبة: ١٥٤.

٢. الانعام: ١٦٢

٣. نقلاً عن الفتاوى الواضحة ـ ص ٦١٣

٤. امالي الشيخ المفيد، ص ٤٠٠.

ويستجيب لكثير من متطلباتها وأهمها (الحرية) ثانياً، إلا أنه يضع مخططاً تربوياً دقيقاً نلخصه بالخطوات التالية ولا يشترط فيها أن تأتي بالترتيب:

أولاً: يبدأ قبل كل شيء بتعيين مركز الإنسان من الكون. فقد خلقه الله تعالى ليعمر الأرض من خلال ممارسة حياة اجتماعية طويلة، ووضع له تشريعاً في سبيل ذلك.

ثانياً: وعلى ضوء الخطوة الأولى ينمّي في المسلم حب الله تعالى حتى يصل إلى الحد الذي يضحي بذاته في سبيله تعالى.

ثالثاً: ثم يربط بين التقرب إلى الله والحياة الاجتماعية، ليكون سبيل الله يعني سبيل العمل لصالح الرسالة، وتحقيق رضا الله في الأرض ونشر تعاليمه بين الناس، وفي خدمة المؤمنين ورفع أدوائهم ونقائصهم، وإشاعة الأخلاق الحسنة، بالإضافة إلى التكامل الفردي: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ ...﴾[١].

﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لا تَشْعُرُونَ﴾[٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللّهِ﴾[٣].

وهكذا يرتبط سبيل الله بخدمة المجتمع خدمة يأذن بها الله ويراها لصالحه.

رابعاً: وعلى ضوء الخطوة الثالثة، يبدأ الإسلام بتربية أخلاقية طويلة المدى، من خلال نظم عديدة (كنظام العبادات، والنظام التربوي والأخلاقي، ونظام الأسرة، وغيرها) وكلها تؤكد على تنمية الحس الاجتماعي، وتعمل على تربية الوجدان والضمير الأخلاقي في الإنسان، وتركز على أن يرتبط بعلاقات مودة كبرى مع مجتمعه المؤمن خاصة، ومع مجتمعه الإنساني عامة.

خامساً: وبعد هذا يعمل على أن يذكر الإنسان بالثغرات التي تنفذ عبرها غريزة حب الذات فتنمي نفسها وتطغى، وكمثل على ذلك: نلاحظ موقف الإسلام من كل من عنصري الغفلة والتكبر، وهما منفذان كبيران للذاتية.

---

١. الزخرف: ٧١

٢. البقرة: ١٥٤.

٣. البقرة: ٢١٨.

سادساً: ومع كل هذا يأتي دور أصيل يشكل نقطة الحل الرئيسة، وهو الدور الذي يجعل المسألة الفردية والمسألة الاجتماعية أمراً واحداً، وذلك بتركيز الاعتقاد بالآخرة، وإعطاء صورة واضحة عنها. وحينذاك، فالذات الإنسانية واحدة في كلا الحالين، وعندها يكون التنازل البسيط المؤقت في هذه الحياة القصيرة عن اللذات لصالح المجتمع الذي يحبه، ولصالح رقي الإنسانية وهو عضو منها، موجباً لإشباع النفس والذات عينها بأسمى أنواع الإشباع بدخولها جنة الخلد والرضا، وخلاصها من عذاب الخلد في النيران.

وقد كانت الآيات الشريفة دقيقة غاية الدقّة عندما ضربت على وتر إشباع الذات إشباعاً خالداً في قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١].

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ﴾[٢].

وهكذا يتحول العمل الصالح لصالح المجتمع إلى عمل لصالح النفس في الوقت نفسه. ويكون المتاع الدنيوي المنحرف ظلماً وبغياً على نفس:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٣].

فالنفس تباع في الدين لله وللرسول وللمؤمنين ليعوض عنها بالجنة:

﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾[٤].

وما أكثر الآيات والأحاديث الواردة في هذا المعنى، وكلها تنتج هذا الحل الوحيد للمشكلة الاجتماعية المستعصية. فلا يبقى ـ والحال هذه ـ إلا طريق الإسلام المتوازن تماماً فحسب.

وعندما نرى النظم الإسلامية الأخرى نجد الجانب الأخلاقي متجلياً فيها بمستوى أساس:

فالنظام الاقتصادي الإسلامي يجسّد الصفتين الآنفتين: (الأخلاقية والواقعية) تمام التجسّد في غاياته وفي وسائله.

إنه لا يضمن العامل لأنه أداة إنتاج إذا أصيب الإنتاج نفسه، وإنما يضمنه لأنه إنسان قدر أن يعمل أم لا.

---

١. الزخرف: ٧١.

٢. المزمل: ٢٠.

٣. يونس: ٢٣.

٤. التوبة: ١١١.

وإنه عندما يريد تقسيم الربح لا يجعل الإنسان إلى جانب الحجر وإنما يعتبر أدوات الإنتاج خادمة للإنسان. وأنه عندما يضع خطته التنظيمية يجعل (العدالة الاجتماعية) أحد أكبر الأهداف الاقتصادية للفرد والدولة ويعمل على تحقيق التوازن في مستوى المعيشة بين الأفراد، دونما توجيه أية ضربة للدوافع الذاتية، لتؤدي دورها الاقتصادي المطلوب.

والنظام الحقوقي في الإسلام يسعى ليستلهم الحقوق الفطرية الإنسانية ويعكسها على الصعيد التشريعي معادلاً بين الحقوق والواجبات ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[١].

والنظام الجنائي أيضاً يمتاز بهذه الصفة الأخلاقية التي تميزه تماماً عن باقي النظم الأخرى.

إن الإسلام ينظر لكل ما يخالف التكامل الروحي للإنسان باعتباره جريمة يعاقب عليها عقاباً دنيوياً كالحنث باليمين والخيانة، أو يوكل أمر العقاب إلى الآخرة كما في الغيبة والنميمة والحسد والحقد، وعدم رد السلام والتكبر وأمثال ذلك، بالإضافة إلى إمكان تصور التعزير الدنيوي على هذه المعاصي.

هذا بالإضافة إلى اعتباره الجرائم التي تمس المسيرة الاجتماعية الصحيحة جرائم أخلاقية حتى في حالة عدم التضرر الاجتماعي بها ـ ظاهراً ـ كما في مسائل شرب الخمر، والاستمناء وأمثالها.

هذا في حين تعجز القوانين الوضعية عن علاج هذه الأمراض الأخلاقية لأنها لا تقع تحت سلطتها بل ربما لأنها لا تأبه بها. وكثيراً ما تقع هذه القوانين فريسة الضعف البشري والذوق العام، وهي غالباً ما تخدم الطبقات الحاكمة فتبشر بأخلاقها، وهو ما وجدناه من التدني الأخلاقي في المجتمعات الوضعية القائمة.

ولا نرانا بعد هذا بحاجة لاستعراض باقي النظم الإسلامية كالنظام الاجتماعي المعتمد على أساس (الوحدة العائلية المتوازنة). والنظام التعاملي وغيرهما فإن في ما ذكر الكفاية كما نعتقد.

من ملامح الحياة المعنوية في الإسلام

من كل ما مر وكذلك من مراجعة مجمل الأسس والمظاهر الأخلاقية في الإسلام نستنتج الظواهر التالية:

---

١. البقرة:٢٢٨.

أولاً: إن الأخلاقية الإسلامية تشمل الحياة كلها، والإنسان المسلم المثالي هو الأخلاقي المثالي في كل وجوده وسلوكه.

ثانياً: إن الأخلاقية الإسلامية ليست أخلاقية انعزالية عن الحياة والملذات، وإنما هي أخلاقية الانهماك في العمل الاجتماعي بروح زاكية مع امتلاك ملكة (الزهد) والقدرة على التحرر من الأسر المادي الوضيع إذا تطلب الموقف ذلك.

ثالثاً: إن معاييرنا الأخلاقية مستمدة من عقيدتنا، وحينئذٍ مهما امتدت العقيدة امتدت هذه المعايير، فلا تتأثر بالأبعاد الجسمية، ولا العرقية، ولا المادية، وما إلى ذلك، وهي بالتالي تصلح لأن تكون معايير إنسانية كاملة.

رابعاً: إن الأخلاقية الإسلامية ليست سطحية عارضة، وإنما هي تتعامل مع الفطرة وتستمد منها مسوغاتها وتعمل على تجليتها وإسراء مفعولها إلى ظاهرة السلوك.

خامساً: إن أخلاقيتنا ليست منافية للتغير المادي والرفاه البدني بل هي متلاحمة معه لصنع أهداف معنوية سامية.

سادساً: إن أخلاقيتنا لا تتعامل مع الخيال المفرط وليست طوبائية النظرة، وإنما هي واقعية قائمة على أساس من علم إلهي بالواقع الإنساني والواقع الكوني والعلاقة بينهما، وتقدير دقيق لهدف الخلقة الإنسانية. ولذا فهي تتجنب أي تخدير كاذب وتسعى للرقي المعنوي الحقيقي.

سابعاً: إن الأخلاقية الإسلامية لم تطرح أهدافاً ومبادئ عليا تاركة إياها دونما تفصيل لها ولكيفية تحقيقها، وإنما هي إذ تطرح مفهوم العدالة مثلاً تعطي التخطيط الكامل لها وللأساليب العملية التي يتم تحقيقها بها، وعندما تطرح فكرة تزكية النفس تعطي البرنامج العملي الدقيق الذي يحققها لئلا ينحرف السبيل بالإنسان عن الهدف الأسمى.

ثامناً: إن أخلاقيتنا ليست أخلاقية مصلحية، أي ترعى مصالح الذات الضيقة، وأنما هي أخلاقية إنسانية ترمق الهدف العام كله وتحاول أن تنسق كل أجزاء المسيرة مع هذا الهدف.

تاسعاً: إن أخلاقيتنا أخلاقية متوازنة، فلا هي بالتي تفني الفرد تحت عجلات المصلحة الاجتماعية العليا، ولا هي بالتي تسمح للفرد أن يسحق المصالح الاجتماعية، وإنما هي تحاول إيجاد توفيق، أو تلاحم بين المصلحتين فلا يحس الفرد العامل لذاته أنه منفصل عن العمل لمجتمعه.

عاشراً: وبالتالي فإن الأخلاقية الإسلامية ليست مقطعية تنطفئ عندما تصل إلى حد معين، وإنما هي برنامج تكامل إنساني لا ينقطع لأنه يسير إلى الله تعالى، وهو جل وعلا الكمال الذي يتسامى فوق كل عروج.

هذه هي بعض ملامح الحياة المعنوية في الإسلام وهي تعبر كما قلنا عن نظرة واقعية للإنسان.

نفي الشبهات حول الواقعية الإسلامية

أشرنا في ما مضى إلى ما يدفع بعض الشبهات المطروحة، ونريد أن نضيف إلى ماسبق أن العناصر المعادية للإسلام تسعى ـ بشكل طبيعي ـ لتحويل عناصر القوة فيه إلى عناصر ضعف وتشكيك، الأمر الذي يحقق لها مأربها في ضعف الوازع الديني لدى المسلمين إلا أن الشبهات مهما كانت مزوقة لن تصمد بوجه الحقيقة الناصعة.

فمن الشبهات التي أثيرت هنا مايلي:

أولاً: إن الإسلام بتقريره نظاماً شاملاً لمختلف جوانب الحياة وتأكيده على ضرورة تطبيقه في كل العصور يؤدي بالإنسان إلى الجمود وعدم التطوير فهو إذن يقيد حركة التطور الإنساني.

ثانياً: إن الإسلام إذ يعترف بالواقع يستسلم له ولا يعمل على تطويره نحو الأفضل.

ثالثاً: إن الإسلام من خلال مرونته أقر بنوع من الميوعة النظامية وهو أمر لا ينسجم مع طبيعة النظام التي يجب أن تقف أحياناً بكل صلابة أمام الانحراف.

والحقيقة هي ما أشرنا إليه من قبل من أن الإنسان يمتلك جوانب ثابتة في حياته لا تتغير باختلاف الظروف كما يمتلك علاقات تتأثر بالظروف المختلفة.

فإنسانية الإنسان وفطرته، وعلاقة الإنسان بخالقه، والأخلاق الإنسانية والعلاقات التكوينية مع الموجودات الأخرى، وأصول العلاقات الاجتماعية، كالعلاقة العائلية، ونشر مبدأ العدالة والتعاون والرحمة وأمثال ذلك، هي أمور في أصولها ثابتة لا تتغير إلا بتغير الإنسان نفسه إلى موجود آخر، ولذا فإن النظم التي تتعامل مع هذه الجوانب يجب أن تكون ثابتة في حين تكون النظم التي تتعامل مع العلاقات المتغيرة نظماً مرنة تستوعب مختلف الظروف دون أن تفقد أسسها النظامية.

وعليه فلا معنى لوصف النظام الذي يلحظ الواقع ويخطط له بدقة بالجمود أو الميوعة أو

التسليم للواقع كيف ونحن نجد الإسلام يحرك في الإنسان كل عناصر التطوير والتغيير في الجوانب القابلة له.

إنه يحرك وينظم ويدفع قواه العقلية للسير في الأرض وأستكناه المجهول، والتفوق على مصاعب الطبيعة، وشكر النعم الإلهية باكتشافها، والاستفادة الأفضل منها، وأعمار الأرض، وعدم إهدار القوى الطبيعية، وعدم التبذير أو الإسراف فيها، فإذا تخلف عن ذلك عاد مظلوماً كفاراً.

والتاريخ نفسه يشهد لهذه الأمة أنها طورت الحضارة إلى أسمى مراتبها ولكنها فقدت دورها الحضاري عندما فقدت التزامها بالإسلام وأصوله.

ملاحظتان:

الأولى: من هذه الظاهرة تنطلق فكرة تركيز الإسلام على العدالة عموماً والعدالة الاجتماعية بالخصوص لان العدالة تمتلك جذوراً فطرية أخلاقية، وتشكل قيمة مطلقة بحيث لا تبقي لاي سلوك يعارضها قيمة حتى ولو كان فيه ابتداءً مقتضى الحسن ـ كما يقال ـ وتوجد هنا بحوث مفصلة تراجع في مظانها.

ثانية: ومن هنا تأتي فكرة احترام الإسلام لحقوق الإنسان بأروع أسلوب واشمله[١].

---

١. يراجع بحثنا حول الموضوع في كتاب حول الدستور الاسلامي . شرح المادة الثالثة.

ثانياً: ظاهرة الترابط والتعاون

نحاول في مايلي التدرج في عرض الترابط ـ من وجهة نظر الإسلام ـ على النحو التالي:

أـ الترابط الكوني من وجهة نظر الإسلام.

ب ـ الترابط بين مكوّنات الإسلام.

ج ـ الترابط بين قطاعات الأمة المسلمة وأفرادها.

أـ الترابط الكوني من وجهة نظر الإسلام

إذا كان التعريف الأحدث للفلسفة يصورها على أنها «عملية تحديد موقف» فإن الإسلام يمنح الإنسان أروع فلسفة كونية، وأركز تحديد موقف له من الواقع. وإذا كانت فلسفة هيجل (المثالية جوهراً والواقعية ظاهراً) تدَّعي الترابط على ضوء خلطها بين عالم الذهن وعالم الواقع، وإذا كانت الفلسفة الماركسية تدَّعي لنفسها أنها اكتشفت «الترابط الكوني، في ظل قوانين المادية الديالكتيكية»، التي كانت تتصيد لها من التاريخ وبعض القوانين العلمية والآراء الفلسفية ما يقوم دليلاً على مدعاها ـ ولكنها تفشل فشلاً ذريعاً ـ في ذلك وعلى كل الأصعدة، نعم إذا كانت هاتان الفلسفتان تكشفان الترابط في جزء من الكون كشفاً مهزوزاً، فإن الإسلام في نظرته العامة يحق له أن يعرض الترابط ليس بين كل أجزاء هذا الكون المادي المحسوس فحسب، بل بين كل أجزاء الكون «الطبيعة وما فوقها» ليكون الكون كله مرتبطاً تمام الارتباط فيما بينه في نفسه وبالله خالقه العظيم، وهذا التصور الشامل ينسجم تمام الانسجام مع تطلعات الفطرة الإنسانية ومع المنطق الموحد الذي يثبته الإسلام وتهدي إليه الفطرة الإنسانية.

بين الكون والله

يردد المسلم في مطلع كل أمر يقوم به، وفي مطلع كل سورة يتبرك بقراءتها عبارة جميلة رائعة المدلول هي عبارة «بسم الله الرحمن الرحيم» ولئن كان متعلق الجار والمجرور فيها محذوفاً؛ فإنه يشكل تعبيراً حيا عن إطلاق المتعلق؛ وهو يعني أن كل شيء على الإطلاق قائم باسمه تعالى متعلق به ومرتبط به ارتباطاً وثيقاً، بل إن وجود كل الكائنات لا يتجاوز كونه وجوداً تعلقياً، أي هو التعلق والارتباط بعينه وهو لا شيء مع زوال الارتباط.. ولئن جاء الوصفان الرائعان «الرحمن الرحيم» فلكي يعبِّرا عن إطار صدور كل الكائنات وانبثاقها منه وباسمه ضمن إطار الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء. وهذا الإطلاق في القدرة والرحمة والخلق والقيمومة تعرضه لنا آيات قرآنية كريمة منها؛ قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى * وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى * فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى﴾[1] ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[2]، ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * تُولِجُ اللَّيْلَ فِي الْنَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الَمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3].

﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ * أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾[4].

الترابط بين عالم الغيب وعالم الشهادة

إنّ الإسلام ركّز في خلد المسلم هذا الترابط بأساليب مختلفة، فالمسلم يعتقد بأن القوانين

١. الأعلى: ١ ـ ٥.
٢. الأعراف: ٥٤.
٣. آل عمران: ٢٦ ـ ٢٧
٤. الشورى: ٤٩ ـ ٥٠.

المؤثرة في الكون لا تختص بالقوانين المادية أبداً. فالاستغفار والتوبة وصلة الرحم والصدقة واتباع الحق والإيمان كل ذلك مؤثر في عالم الطبيعة تمام التأثير. يقول هود عليه السلام مخاطباً قومه...

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾[١]. وبنفس هذا المضمون يخاطب نوح قومه، وعلى هذا الأساس يقوم جزء واسع من التشريع الإسلامي.

ولا ننسى أن نشير إلى أنَّ أعظم ترابط واقعي حياتي يندرج في هذا الإطار وهو الترابط بين عالم الدنيا وعالم الآخرة إلى الحد الذي يعيِّن الأول طبيعة الثاني تماماً.

بين المخلوقات أنفسها

وعلى أساس من ذلك الارتباط القويم للمخلوقات بالله تعالى قام الارتباط التبعي بين الموجودات كلها.. فهي كلها مسخّرة بأمره. وهي كلها تسبِّحه تعالى من موجودات شاعرة وغيرها.

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢].

﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾[٣].

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٤].

والشيء الرائع في التصور الإسلامي لهذا الترابط هو هذا التسخير الكامل لصالح الإنسان باعتباره الموجود الأروع والقابل لأن يكون خليفة الله في الأرض، وليكون الهدف الأسمى الذي سخرت له الموجودات لكي يواصل مسيرته نحو الكمال.

وهذه الحقيقة واضحة في الآيات التالية:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[٥].

---

١. هود: ٥٢.

٢. الحديد: ١.

٣. الرعد: ١٣.

٤. الإسراء: ٤٤.

٥. لقمان: ٢٠.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[١].

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[٢].

﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاء ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾[٣].

وعلى ضوء التسخير الطبيعي لصالح الإنسان تنقلب نظرته للطبيعة من عدو ينبغي الصراع معه وانتزاع القوت منه انتزاعاً إلى عملية استئناس بها وقيام على أعمارها وإحيائها يؤطّر ذلك حبٌّ طبيعي عبّر عنه النبيﷺ عند رجوعه من غزوة تبوك، وأشرف على المدينة فقال: «هذه طابة، وهذا جبل أحد، يحبنا ونحبه»[٤].

بين أبناء الإنسانية

وهنا تقوم الروابط على أساس قويمة من وحدة المنطلق، ووحدة الشعور الواعي، ووحدة الهدف. فالكلُّ خلق الله، والكلُّ من نفس واحدة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾[٥].

والكل يمثلون الموجود المكرَّم ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾[٦].

وما كان هذا الاختلاف بين الطوائف الإنسانية إلاّ للتعارف:

---

١. الجاثية: ١٣.

٢. ابراهيم: ٣٢ ـ ٣٣.

٣. النبأ: ٧ ـ ١٥.

٤. سفينة البحار.

٥. النساء: ١.

٦. الإسراء: ٧٠.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾[١].

فلا مسوِّغ لأيِّ تعالٍ عنصري لوني أو جنسي أو مكاني أو نسبي أو غير ذلك ما دامت تلك الوحدة قائمة، بل المجال للتفاضل هو التقوى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[٢].

وهكذا تقوم وحدة إنسانية كبرى تؤسِّسها هذه النظرة الأخوية الشاملة، وتعبِّر عنها آيات كريمة منها:

﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٣].

وعلى هذا الأساس جاءت التعليمات السامية ومنها مافي هذه الآية المباركة:

﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾[٤].

والآية المباركة: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[٥]. وغير ذلك من الآيات.

وكان الرسول ﷺ يقول: في كل ذات كبد حرّى أجرٌ[٦].

ومن هنا يكتب الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى عامله على مصر الأشتر النخعي قائلاً له:

«وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللُطف بهم، ولا تكوننَّ عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنَّهم صنفان: إمّا أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق...»[٧].

---

١. الحجرات: ١٣.

٢. الحجرات: ١٣.

٣. الممتحنة: ٨.

٤. المائدة: ٣٢.

٥. المائدة: ٨.

٦. صحيح البخاري باب المساقاة.

٧. نهج البلاغة: ٤٢٧

وقد راينا بعض الفقهاء يرخصون في اطعام كل جائع من لحوم الاضاحي في الحج استناداً لما ورد بسند معتبر عن الإمام الصادق عليه السلام أن علي بن الحسين عليه السلام كان يطعم من ذبيحته الحرورية وكانوا ممن يعادون علياً[1].

الروابط الداخلية

وإذا تجاوزنا الروابط العامة بين أبناء الإنسانية نصل إلى مراحل أخرى للترابط هي أضيق من سابقتها: كالترابط الوثيق القائم بين الرجل والمرأة من حيث وحدة الأصل، ومن حيث وحدة القدر عند الله، وتكافؤ الفرص في العمل في سبيل التكامل ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاء﴾[2] و﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[3] و﴿أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾[4] وكذلك الترابط القائم بين الأباء والأبناء وغير ذلك.

أما الترابط بين أبناء العقيدة الواحدة فهو ترابط وثيق سنتحدث عنه في القسم الثالث من هذا البحث إن شاء الله.

ب ـ الترابط بين مكونات الإسلام:

استعرضنا مظاهر الترابط العام في تصور الإنسان المسلم بين موجودات الكون وها نحن هنا نتعرض باختصار إلى الترابط الداخلي في الإسلام (أي بين جوانبه المختلفة).

أن من يدرس الإسلام بعمق ثم يلقي نظرة تجريدية عليه يجد أن الإسلام تصميم هندسي متكامل، يرتبط كل جزء فيه بالجزء الآخر، ويحتل كل عضو فيه محله الطبيعي، ولا يستطيع أيّ جانب أن يؤدي دوره المطلوب على الوجه الأكمل إلا في ظل الصيغة العامة للكلّ.

---

١. موجز أحكام الحج للشهيد الصدر ـ ١٦٠

٢. النساء: ١.

٣. الروم: ٢١.

٤. آل عمران: ١٩٥.

وتشكل العقيدة الأساس الرصين الذي يشع روحاً في كلِّ الأبنية الفوقية، والتمهيد اللازم للأرضية الصالحة تماماً للأشكال العلوية. ذلك أن العقيدة الإسلامية تبتني عليها طائفة كبيرة من التصورات الإسلامية عن مختلف الشؤون الحياتية تدعى «المفاهيم الإسلامية» وهي بدورها تشكل أساساً لمجموعة من العواطف الإسلامية.

ويمثل الشهيد آية الله الصدر لهذا الترابط فيقول:

«ففي ظل عقيدة التوحيد ينشأ المفهوم الإسلامي عن التقوى القائل: إن التقوى هي ميزان الكرامة والتفاضل بين أفراد الإنسان، وتتولد عن هذا المفهوم عاطفة إسلامية بالنسبة للتقوى والمتقين وهي عاطفة الإجلال والاحترام»[1]. وكذلك يمكننا أن نقيم مختلف فروع الأخلاقية الإسلامية على أسس تصورية تنشأ في ظل العقيدة الإسلامية. فالتضحية مثلاً يمكن أن تبنى على أساس مفهوم الجزاء الأوفى المبني على عقيدة المعاد وهكذا.

والعقيدة والمفاهيم والعواطف الواعية تشكل كلُّها الأرضية الصالحة للمذهب الاجتماعي الإسلامي في الحياة.

أمثلة من الترابط بين المكونات

وها نحن نذكر بعض أوجه الترابط على نحو الإجمال:

١ـ الارتباط بين النظام السياسي ودور الحاكم الشرعي (الإمام المعصوم أو الولي الفقيه)، وبين التشريع الاقتصادي وذلك لكي يقوم بملء منطقة الفراغ المتروكة له على ضوء الظروف المتطورة ووفق القواعد العامة، وكذلك الارتباط بينهما وبين النظام الجنائي والسياسة المالية للدولة.

٢. ارتباط النظام الاقتصادي بمجموعة من العواطف التي يصوغها الإسلام في نظامه الأخلاقي: كعاطفة الأخوة العامة.

٣. ارتباط مختلف المذاهب الاجتماعية بالعقيدة الإسلامية وتأثيرها الكبير في تنفيذ تلك التشريعات والالتزام بها.

---

١. اقتصادنا ١: ٢٧١.

٤. ارتباط إلغاء الربا بأحكام الإسلام الأخرى في المضاربة والتكافل العام والتوازن الاجتماعي. وغير ذلك.

٥. الترابط بين النظم الاجتماعية والنظام الاقتصادي ونظام العبادات ونظام العقوبات وغيرها.

ج ـ الترابط بين قطاعات الأمة المسلمة وأفرادها:

وانطلاقاً من واقعية الإسلام التي رأى فيها أنَّ النظم المتعددة لن تستطيع أن تقود الإنسانية إلى هدفها الكمالي المنشود، وأن التعدد الشعوري والتعدّد في المقاييس لن يستطيعا مطلقاً أن ينسجما مع الهدف الواحد الذي أراده الله للإنسان وإلاّ فالحروب متوقعة، والمصالح متحكمة، ولا مخلِّص ولا مناص، وانعكاساً لذلك الترابط العام في التصور والتشرع فقد دعا الإسلام إلى تكوين الأمة المسلمة الواحدة التي يفترض فيها أن تضم كل الأرض وتوجه كل الأرض ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[1]، فهي الأمة النموذجية قبل الانتصار الكامل، وهي واسطة العقد الاجتماعي، وهي الشاهد على كل الأمم، وبعد الانتصار هي الأمّة المسلمة التي تعمل على أن تصل إلى أكمل الدرجات من خلال تطبيق تعاليم الإسلام الخالد.

وعلى هذا كان الترابط الحقيقي هو المقوِّم التالي من مقوِّمات الأمة الإسلامية بعد الإيمان العميق النافذ إلى المشاعر. فإذا فقدت الأمة إيمانها النافذ؛ فقدت شخصيتها، وكذلك إذا فقدت ترابطها؛ فقدت شخصيتها المميزة لها والتي عملت في فترة التطبيق الإسلامي الأول على إذابة كل الفروق المصطنعة بين المسلمين، وشدَّتهم إلى بعضهم حتى أعطتهم صفة الأخوة في الله تعالى، وهي أروع صفة تعبر عن الشدِّ القويِّ في إطار الله، وكذلك أعطتهم صفة الأعضاء في جسد واحد من حيث اشتراك كل المكونات في القيام بالوظائف المطلوبة لتحقيق الهدف العام وذلك بتناسق وتخطيط دقيق.

---

١. الأنفال: ٣٩.

المظاهر العامة لتركيز هذا الارتباط في ذهنية الأمة

ويمكننا أن ننتظم هذه المظاهر في خطوط عامة هي:

الترابط الشعوري: فقد عمل الإسلام على الصعيدين النظري والعملي على خلق ترابط إحساسي بين كل أفراد المسلمين بحيث يشعر كل مسلم بآلام الآخرين من أبناء أمته، ويفرح لفرحهم، ويهتم لحل مشاكلهم ويعتبرها من مشاكله بالصميم. فعلى الصعيد النظري جاءت الروايات الكثيرة التي تؤكد على أن هذا الشعور هو شرط الإسلام الحقيقي، وإن الذي لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم، وأن المسلم عليه أن يتفاعل شعورياً مع المسلمين: فيسلِّم على عباد الله الصالحين، ويدعو للمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات. إلى غير ذلك مما لا مجال لعرضه مفصلاً. هذا على الصعيد النظري. أمّا على الصعيد العملي فقد وجدنا الرسول الأعظمﷺ، والقادة من أهل البيت الكرام عليهم السلام، والصحابة المنتجبين؛ يقدمون أروع الأمثلة على هذا الترابط الشعوري، وكل سيرة النبيﷺ مصداق لذلك فلا نحتاج إلى عرض الأمثلة.

الترابط عبر المقاييس الواحدة: وواضح أن المقياس عندما يتوحَّد فإنه يوحِّد ظروف تطبيقه، وما ضاعت الأمم وما تفرَّقت إلا لأنَّها اختلفت مقاييسها التي بها تتبيَّن طريقها، وعليها تبني خطواتها... وإذا رجعنا إلى المقاييس المادية وجدناها مقاييس مفرقة بطبيعتها. فسواء أكان المقياس هو المصلحة المادية، أو العنصرية، أو المؤهلات الطبقية وما إلى ذلك من مقاييس مادية فإن من الطبيعي أن تختلف المصالح الضيقة، أو المؤهلات العنصرية والطبيقة وغير ذلك، وحينذاك فالناتج هو الصراع الدموي العنيف والهلاك، أمّا لو رجعنا إلى مقياس الإسلام الثابت لوجدناه المقياس الوحيد الذي يستطيع أن ينفي كل ذلك وذلك هو رضا الله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1] نعم هو أكبر من كل مقياس، والحاكم على كل شيء وغيره، ورضا الله تعالى يكمن في اتِّباع شريعته الموحِّدة، والسير على الحق والعدل وفق تصورات الإسلام لهما.

---

١. التوبة: ٧٢.

والآن لنتصور الإنسانية وهي تضع هذا المقياس نصب عينيها ثم لنلاحظ هذه المآسي التي نشاهدها اليوم. إن هذا المقياس كما ينظم تطبيق الإسلام وسيرة الأمة القانونية يحرك المناقبية العامة ويصبها في قالب منسجم مع ذلك التطبيق. وذلك ما يعبِّر عنه بـ(الحبِّ في الله والبغض في الله).

وهكذا تقوم كل المقاييس في حياة الأمة المسلمة على ذلك المقياس مما يخلق ترابطاً تذوب عنده كل أنواع الترابط الكاذب سواء كانت تلك الأنواع روابط قومية أو عنصرية أو مصلحية أو جغرافية أو غير ذلك.

الترابط عبر العبادات: العبادات مظهر جميل أخّاذ من مظاهر العلاقة بين الله والعبد. وبين العباد أنفسهم. فهي إلى جانب ربطها الفرد والمجتمع بالله تعالى، وإلى جنب تأثيراتها النفسية الكبرى؛ تؤثر الارتباط والشعور بالوحدة.

فالمسلم أينما كان يقف في أوقات واحدة نسبياً، وفي جماعة حسيَّة تعبر عن المجمع العالمي للمسلمين وتجسده، ويقوم بأعمال تربي فيه الخشوع والخضوع والعقيدة النافذة والترابط بعدها، ويتجه مع إخوته جميعاً إلى قبلة واحدة، ويردد نشيداً مقدّساً واحداً يسبح به الله تعالى ويحمده، إلى غير ذلك. وهكذا يبدو لنا نوع رائع من أنواع الترابط ـ بل أروع نموذج تتصوره الإنسانية للترابط ـ في عملية الحج الكبرى بما لا يحتاج إلى كثير شرح وتفصيل، إلاّ أننا نشير هنا إلى وحدة المركز الذي يطوف حوله الحجاج كتعبير إيجابي عن لزوم جعل هذا المركز مطاف الحياة كلها، والعمل على أن يكون مطاف الأرض كلّها بما يجسّده من تعبيرات مقدسة؛ في حين يقف المسلمون في مكانٍ آخر ليرموا رمزَ الشرِّ المتمثل في الجمرات المتعددة إشارة إلى خطوات الشيطان وسبله المختلفة.

الترابط عبر الحقوق المشتركة: وقد زخرت كتب الروايات بالأخبار الكثيرة المتواترة إمّا لفظاً وإمّا معنىً بحقوق المسلم على المسلم، وهي لو روعيت تمام المراعاة لعادت على المسلمين بروابط قوية لا يمكن أن يفصمها فاصم.

وقد ذكر صاحب كتاب «الأخلاق» (السيد عبدالله شبر رحمه الله) هذه الحقوق مستمداً إيّاها من النصوص الشرعية وهي:

١. أن يحب للكافة ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه.

٢. أن لا يؤذي أحداً من المسلمين بقولٍ أو فعل. قال ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده».

٣. أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبَّر عليه.

٤. أن لا يسمع بلاغات الناس بعضهم على بعض ولا يبلغ بعضهم ما يسمع من بعض.

٥. أن لا يزيد في الهَجر لمن يعرفه أكثر من ثلاثة أيام مهما غضب عليه. قال ﷺ: «لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهم الذي يبدأ بالسلام».

٦. أن يحسن إلى كل من قدر منهم إن استطاع.

٧. أن لا يدخل على أحدٍ إلاّ بإذنه.

٨. أن يخالط الجميع بخلق حسن، ويعاملهم بحسن طريقته.

٩. أن يوقِّر المشايخ ويرحم الصبيان. قال ﷺ: «ليس منا من لم يوقِّر كبيرنا ويرحم صغيرنا».

١٠. أن يكون مع كافة الخلق مستبشراً طلق الوجه رقيقاً.

١١. أن لا يَعِدَ مسلماً بوعد إلاّ ويفي به.

وهكذا يصل بها إلى ستة وعشرين حقاً وهي في الحقيقة بعض الحقوق. ترى لو أنَّ المسلمين جميعاً طبَّقوا هذه الحقوق فهل يصلون إلى ما هم عليه اليوم؟!

الترابط في المجال الاقتصادي: والدارس للاقتصاد الإسلامي المذهبي يجد بوضوح أن هذا المذهب يشكل دعامةً كبرى من دعائم الترابط العام بين كل القطاعات المسلمة. وها نحن نشير إلى ظاهرتين في هذا المجال كمثال يوضح ما نقول.

أ ـ ظاهرة الملكية العامة: فالاقتصاد الرأسمالي إذا كان يعتبر الملكية الخاصة هي الأصل والملكية العامة الاستثناء والاقتصاد الماركسي يعتبر الأمر على العكس؛ فإن المذهب الاقتصادي الإسلامي يتميَّز بأنه يقول بالملكية المزدوجة (العامة والخاصة) ولكل منهما مساحتها الخاصة بها، وملكية الأمة هي جزء مهم من الملكية العامة في الإسلام حيث إن الأرض التي تفتح عنوة بالجهاد تكون ملكاً للمسلمين جميعاً على الرأي الأشهر ـ من هو

حاضر ومن سيولد بعد ـ بدون أن تورث فالمسلمون على هذا الأساس شركاء في ملكية الكثير من الأراضي، وإليهم وإلى مصالحهم يعود ريع تلك الأرض.

ب ـ ظاهرة التكافل الاجتماعي: وهي المبدأ الذي يفرض فيه الإسلام على المسلمين فرضاً كفائياً كفالة بعضهم لبعض. والتخلف عن القيام بهذا الواجب يستوجب غضب الله تعالى ـ ففي حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «أيُّما مؤمن منع مؤمناً شيئاً مما يحتاج إليه وهو يقدر عليه ـ من عنده أو من غيره ـ أقامه الله يوم القيامة مسودّاً وجهه مزرقّةً عيناه، مغلولةً يداه إلى عنقه، فيقال هذا الخائن الذي خان الله ورسوله، ثم يؤمر به إلى النار»[١].

هذا وإن هذه الروح لتشعُّ في كل جوانب التشريعات الاجتماعية الأخرى في الإسلام.

الترابط عبر المسؤولية المتبادلة لتطبيق أحكام الله تعالى

ونعني بذلك مضمون ما ورد من أحاديث تؤكد على عاملي (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وأن بهما قوام الأمة وبقاءها، وكذلك الأحاديث المباركة التي تؤكد على عموم المسؤولية الاجتماعية من قبيل: قوله صلى الله عليه وآله «كلكم راع وكلُّكم مسؤول عن رعيته»[٢] وغير ذلك فإنها تجعل كل مسلم على أيِّ أرض كان، وبأيِّ مستوىً كان، مسؤولاً عن كل ما يقع من انحراف، وكل توانٍ في المسيرة الإسلامية الصاعدة فعليه أن يواصل الدفع من جهة، ويرفع العقبات التي أمامها من جهة أخرى.

وفي ختام هذا الفصل لابدَّ لنا من أن ننصت إلى كلام الله الحكيم وهو يخاطب المسلمين جميعاً بعبارة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ ويمنحهم التصور المطلوب عبر لفظ واحد للجميع فيقول تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم﴾[٣]و ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾[٤]

---

١. وسائل الشيعة، ج ١١، ص ٥٥٩.

٢. ذكرته الصحاح.

٣. البقرة: ٢٥٤.

٤. آل عمران: ١٠٢.

و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[١] و ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾[٢] و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ﴾[٣] و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء﴾[٤] و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحِلُّواْ شَعَآئِرَ اللّهِ﴾[٥] و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾[٦] و﴿يَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَخُونُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُواْ أَمَانَاتِكُمْ﴾[٧] و ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾[٨] و﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[٩].

وهكذا يصف القرآن الأمة المسلمة بالصفات العامة: فهي الأمة الخليفة، والوسط، والشاهدة، والمسلمة لله تعالى، والشديدة على الكفّار والرحيمة فيما بينها، والكريمة غير المهانة، والمنفقة، والمتقية، وغير المتشبهة بالكفار، والصابرة المرابطة القائمة بالقسط، والمعادية للكفار، والمقيمة لشعائر الله، والمجتنبة للخمر والميسر، وغير الخائنة، والراكعة الساجدة، والعابدة ربها الذاكرة له، وهكذا تتوالى هذه الأوصاف لتحدِّد معالم هذه الأمة، وتنتهي بها إلى موقف موحَّد تماماً، وتجعلها (خير البرية).

وعلى أساس من هذا الترابط يأتي مفهوم (التعاون) ليشكل مبدأ عاماً في الإسلام وخصيصة مميزة لهذه الأمة. بل يعبر الدائرة الإسلامية إلى الدائرة الدولية اذا كان هناك محور

---

١. آل عمران: ١٥٦.

٢. آل عمران: ٢٠٠.

٣. النساء: ١٣٥.

٤. النساء: ١٤٤.

٥. المائدة: ٢.

٦. المائدة: ٩٠.

٧. الانفال: ٢٧.

٨. الحج: ٧٧.

٩. الأحزاب: ٤١.

خير ووجه من وجوه البر بالإنسانية يتم التعاون فيه وينبغي هنا أن نتحدث بشيء من التفصيل عن هذا الأمر لكونه محوراً إنسانيا هاماً.

الإسلام والتعاون الدولي

إن من نافلة القول الحديث عن التعاون في الإسلام لوضوح دعوة الإسلام اليه، وتظافر النصوص المؤكدة عليه حتى يمكن عد التعاون من سمات المجتمع الإسلامي. ولكن نقل هذا المفهوم إلى الواقع الدولي والإقليمي امر جدير بالبحث والتأمل.

والتعاون لكي يتم تحقيقه بشكل مثمر وبناء يحتاج لتوفر بعض الشروط الموضوعية وتحريك شتى الدوافع الإنسانية، وبث القيم التي تنسجم معه، ورفع الموانع التي تقف في طريقه وبالتالي معرفة المجالات التي يؤثر فيها والتخطيط الحكيم لذلك.

الشروط الضرورية

اما الشروط الموضوعية فهي أمور:

الأول: امتلاك قدرة العطاء: فلا معنى لتصور تعاون المعدم الفقير مع الغني القادر في مجال تأسيس مشروع مالي معين. ولذا كان على الأمة التي تود المساهمة في المسار الحضاري العام أن تمتلك بنفسها ما يؤهلها للعطاء والإسهام.

الثاني: افتراض جو الثقة المتبادلة، لأن التعاون ينطلق من منطلقات إنسانية وعلى أساس عاطفي لتحقيق هدف مشترك وهذه المنطلقات لا تتوفر في أجواء التشكيك والريبة والمكر والجشع.

الثالث: وجود مساحات وأهداف مشتركة: فلا يتصور التعاون دونها ونحن نعتقد أن هذه الشروط الثلاثة ضرورية لكل مجال يراد التعاون فيه مهما كان.

القيم المنسجمة

ونقصد بها: تلك المفاهيم التي يجب تعميمها اجتماعياً لكي يندفع المجتمع صغيراً كان أو كبيراً نحو حياة تعاونية مشتركة ويمكن أن نعد منها ما يلي:

١ـ ضرورة الحوار مع الآخر والاحساس بنقل الفكرة اليه ومعرفة أفكاره. وقد زود الله

تعالى الإنسان بكل ما يدفع وييسر هذه العملية من قدرة ذاتية على التأمل والتفكير وخلق الفكر الجديد واكتشاف سبل التغيير والانطلاق من أسر الواقع الحسي الضيق والتجريد ومحاولة التعميم والافتراض وما إلى ذلك من طاقات العقل المبدع، عبر ما يملكه من قدرات بدهية وحكمة عالية. كما أن الإنسان مزود بدوافع غريزية تحثه على استكناه المجهول ومعرفة الغوامض كما تحثه على التكامل في قدراته العقلية وفي قدراته للسيطرة على الطبيعة وفي قدراته الخلقية والمعنوية، وبالتالي فإن الله تعالى أودع فيه طاقة مد الجسور إلى عقول الآخرين وأفكارهم لمعرفة ما يفكرون به والتحاور معهم عبر نعمة اللغة الرمزية.

فالحوار حالة طبيعية إنسانية والتركيز عليها تركيز على خصيصة إنسانية. ولا ريب أن الحوار يؤدي لاكتشاف المساحات المشتركة، واكتشافها يؤدي للتعاون على تحقيقها.

٢ـ مفهوم الشورى: وهو بطبيعة الحال مساوق للحوار إذ يعني ضم آراء الآخرين إلى الرأي الذاتي واكتشاف نقاط الضعف والقوة.

٣ـ مفهوم الاحساس بالحاجة للآخرين فإن الفرد إذا عرف نفسه ونقائصها، ومحدودية ما تملك من طاقات ومن علوم، وحاجتها للآخرين اندفع نحوهم للاستزادة والتعاون للوصول إلى الاكتفاء الذاتي.

٤ـ الاحساس بعلو الأهداف الإنسانية: وكلما سمى التصور لهذه الأهداف وعبر مراحل الاهداف الحيوانية البهيمية (فالبهيمة همها علفها) وصعد إلى مراحل عالية تنسجم مع هدف الخلقة الإنسانية والمسيرة المتكاملة، ارتفعت وتيرة الاحساس بلزوم التعاون لتحقيق الاهداف السامية.

٥ـ رقي الجانب العاطفي: فإن العواطف إذا سمت والنظرة للآخرين إذا ارتقت إلى مستوى الأخوة سواء كانت بمعنى الأخوة النسبية أو الاجتماعية أو الدينية أو الإقليمية أو البشرية العامة فإنها لا تدفع نحو التعاون فحسب بل تدفع في أحيان كثيرة نحو الايثار والتضحية.

وهكذا نجد أن هذه القيم المؤدية للتعاون تنطلق جميعاً من منطلقات فطرية. فالعمل على جلاء الفطرة الإنسانية وتجليها في السلوك الإنساني هو أسلم السبل لتحقيق مسيرة تعاونية مستدامة.

منطلقات التعاون

ونستطيع ـ بعد هذا ـ أن نتصور للتعاون المنطلقات التالية:

أـ المنطلقات الدينية ونتصور أنها اعم المنطلقات لأن الأديان جميعاً وخصوصاً الدين الإسلامي ـ كما هو واضح وكما ستتحدث عنه بإيجاز بعد هذا ـ تدعو للتعاون وتعد بالثواب الأخروي الجزيل بل وتؤكد على انعكاسه على الحياة الدنيوية أيضا، بل قد وضع الإسلام فكرته عن العدالة الاجتماعية مرتكزة على أمرين هما (التكافل، والتوازن بين مستويات المعيشة بين أفراد المجتمع) وهما يصبان في مجال التعاون.

وهذا يعني أن التعاون هنا إما الزامي أو أنه طوعي غير مشوب غالباً بالمصالح الفردية ولذلك جعلناه أعم المنطلقات.

ب ـ المنطلقات المعنوية العامة القائمة على أساس الاحساس الإنساني بلزوم خدمة البشرية والتعاون مع الآخرين، وهو احساس طيب حتى لو لم ينطلق من منطلقات دينية لكنه غالباً يقصر عن بلوغ الغايات الكبرى.

ج ـ المنطلقات المصلحية باعتبار أن الاقدام على التعاون مع الآخرين سينعكس يوماً ما لصالح المقدمين على التعاون ولا مانع من مثل هذا المنطلق لكنه لا يمثل النبل الخلقي المطلوب ويبقى في مساحة اضيق من المنطلقين السابقين.

د ـ المنطلقات الدنيئة وذلك كما نشاهده في المنظمات المشبوهة والدول الاستعمارية التي تستخدم برامج التعاون لتحقيق مآربها كربط الدول الصغيرة بعجلتها أو التمهيد لاستغلالها أو العمل على تشويه هويتها الثقافية وأمثال ذلك.

والواقع أن منفذ التعاون هذا يشكل منفذاً خطراً باعتبار اطاره الإنساني الخداع للجماهير التي لا تبصر أكثر من مدى رؤيتها ولا تعرف عمق التآمر المغلف بهذا الاطار الإنساني إلا بعد أن تصحو على الواقع المرير وهي تئن تحت الاغلال أو ضغط الديون المحطمة، فتود لو أنها تحملت شظف الحياة ولم تتقبل عروض المعونات المزيفة.

العقبات بوجه التعاون

بعدما سبق توضحت العقبات وأهمها امران هما:

١ـ شيوع الروح المادية، والنظرات الفردية، وأخلاقية الطمع والاستغلال والجشع، وتحقيق اللذة بأقصى مداها، وتحقيق التفوق عبر كل الوسائل حتى ولو أدى ذلك لتهديم

مكاسب الآخرين وامتصاص دماء الشعوب وخيراتها وهذا ما نشاهده اليوم في الكثير من الخيرات والقدرات في الدول المستعمرة التي بنت امجادها على جماجم الشعوب.

و(**العولمة**) اليوم مظهر كامل لمرحلة رأسمالية متقدمة وعملية سيطرة أميركية على مقدرات الشعوب، وأمركة العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية وحتى الاجتماعية، وسرقة حضارية لأمل الإنسانية في نظام عالمي تسوده الحرية والديمقراطية وحماية حقوق الإنسان، والسلام والوئام والتعاون، وتحويله إلى عالم تحكمه الشركات متعددة الجنسيات ويتسلط على الحقيقة فيه الاخطبوط الإعلامي، فلا يدعه يتنفس إلا في جو تشيع فيه مفاهيم التخريب من قبيل (الحروب الاستباقية) وغيرها.

٢ـ التشكيك في النوايا وهو العقبة الرئيسية أمام كل نمط تعاوني بل أمام كل حوار هادف ولا ريب أنه ترك أثراً سلبياً على حوار الحضارات وحوار الأديان وحوار المذاهب داخل الدين الواحد.

وربما كان هذا التشكيك في اغلب الحالات تابعاً لرواسب تاريخية وتجارب مرة سابقة، مما يتطلب جهوداً جبارة لمحو السوابق أو نسيانها مرحلياً وربما اشارت الآية الكريمة: ﴿قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١] إلى هذه الضرورة لتبدأ العملية الحوارية في جوٍ مساعد.

الإسلام والتعاون

ولا ينتظر منا ـ هنا ـ الحديث عن كل أبعاد التعاون في الإسلام، ولذا فنحن نشير إلى بعض الجوانب الهامة من الموقف الإسلامي بشكل نقاط:

النقطة الأولى: تحديد المجالات

وتحدد الآية الشريفة الثانية من سورة المائدة هذه المجالات فتقول: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[٢]، فالبر هو كل ميدان إنساني أخلاقي ويشمل كل

---

١. سبأ: ٢٥.

٢. المائدة: ٢.

ما ندب إليه الإسلام ودعا لتحقيقه من أعمال الخير، ويوحي اللفظ بإيكال الأمر إلى الوجدان السليم العام تماماً كما يستفاد من كلمتي (الطيبات) في قوله تعالى: ﴿يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾[١]، وكلمتي (المعروف) و(المنكر) في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[٢]، فكأن هذه الآيات تتعامل مع الفطرة والوجدان مباشرة مما يعطينا سعة إنسانية عالمية في هذه المجالات ولا يحصرنا في مجال ضيق.

فكل خطوة فيها علاء الإنسانية وتقدم حضارتها وقيمها وفي كل المجالات العلمية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها هي من عمل البر ونحن مأمورون بالتعاون فيها، وكل عمل يسيء للإنسانية ويعتدي على قيمها ويعرقل مسيرتها ويشيع العدوان وخرق الحقوق الإنسانية نحن منهيون عن الاسهام فيه بل نحن مدعوون للوقوف بوجهه.

وهذا المعنى هو الذي ينسجم تماماً مع الرسالة العالمية للاسلام وتقديم الأمة الإسلامة كنموذج حضاري لكل الأمم كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾[٣].

النقطة الثانية: تقوية المنطلقات

فنحن نعلم أن النصوص الشريفة تؤكد على الفطرة الإنسانية وأن أحكام الدين كلها منسجمة معها، والنظام التربوي والنظام العبادي بل ومختلف النظم الأخرى تركز على هذا الجانب وتعمل على تقويته، واننا لنلحظ أن النظام المعرفي يبتني كله على بديهيات الفطرة كما أن النظام التشريعي يعمل على ايجاد التوازن والعدالة في تحقيق متطلبات الفطرة ويتجلى ذلك أروع تجل في النظام الأخلاقي الإسلامي وكل ذلك يصب في مجال تقوية الدافع الفطري للتعاون في أوسع المجالات. ورغم أن العمل الصالح يراد له أن يكون بدافع إيماني فإن هناك نصوصاً تقيم العمل بنفسه حتى ولو لم يتم في هذا الاطار كقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾[٤].

---

١. الاعراف: ١٥٧.

٢. آل عمران: ١١٠.

٣. البقرة: ١٤٣.

٤. الكهف: ٣٠.

﴿أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى﴾[١].

وحتى الجانب المصلحي يحركه الإسلام في مثل ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ﴾[٢].

أو قوله ﷺ : (من لا يَرحم لا يُرحم)[٣] أو (ارحموا ترحموا)[٤].

النقطة الثالثة: توفير الشروط اللازمة

والمتتبع لنوعية التخطيط الإسلامي للحياة يجد أن الإسلام يسعى جاهداً لرقي الأمة من جميع الجهات حتى تكون يدها اليد العليا، وتتمتع بالخيرية على الأمم، واعداد كل الطاقات والقوى لميادين التحدي، وامتلاك قدرات اقتصادية هائلة عبر شكر النعم الإلهية والاستفادة من كل ما هيأه الله لهذه الأمة وانكار اي تهاون وكفر بهذه النعم، وأي ظلم في عملية التنمية أو التوزيع العادل ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[٥] كما اعتبر الإسلام اي تقاعس عن ايصال الأمة لما تحتاجه من تقدم على جميع المستويات اخلالاً بالواجبات الكفائية التي لو أداها من فيهم الكفاية سقطت، ولو لم يؤدها هؤلاء توجه اللوم والتحذير لكل الأمة.

إن الأمة النموذجية لا يمكن أن تحمل صفات الضعف مطلقاً بل عليها أن تكون امة وسطية تمتلك كل معاني العطاء حتى تمتلك التأثير المطلوب.

ثم إن التعاليم الإسلامية وبالخصوص التربية الإسلامية تعمل على اشاعة الثقة بين أبناء المجتمع الإسلامي قبل كل شيء وترفض كل ما يخل بها من أتباع الظنون والتهم والتجسس والغيبة والتهمة وتدعو لحمل عمل المسلم على الصحة والتواصل مع الآخرين والتعاون والإيثار وايفاء المسلمين حقوقهم إلى غير ذلك.

---

١. آل عمران: ١٩٥.

٢. النساء: ٩.

٣. رواه البخاري وابو داوود والترمذي واحمد.

٤. احمد.

٥. ابراهيم: ٣٤.

اما على الصعيد الدولي فإن الأمة الإسلامية تتعامل بكل موضوعية واحترام مع الآخرين حتى لو لم يكونوا مؤمنين ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١]. والأمة تجنح للسلم إن جنح الآخرون ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ﴾[٢].

ولا مانع من أن تقوم العلاقات الودية مع الآخرين إن لم تبد منهم بوادر التآمر ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾[٣] والعدالة والقسط هما هدف هذه الأمة، والدفاع عن المستضعفين والمحرومين صفتها إلى ما هناك من امور من شأنها اشاعة الثقة وتوفير اجواء التعاون على الصعيد الدولي فإذا ما عقدت اتفاقيات دولية كانت هذه الأمة مأمورة تماماً بالوفاء بالعهود.

ثم إن هذه الأمة ربيت على اكتشاف المساحات المشتركة عبر الحوار الهادئ حتى مع الكافرين، ودعي أهل الكتاب للعمل مع المسلمين على كلمة سواء ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ﴾[٤].

وبهذا نجد أن الإسلام وفر الشروط التي ذكرنا آنفاً بأروع شكل.

النقطة الرابعة:

بعد هذا نستطيع أن نقول إن الإسلام نشر في الأمة ثقافة القيم المنسجمة مع التعاون بشكل واسع، فأعطى أسساً نظرية جامعة لحوار توضح مفروضاته، ومنهجه وأخلاقه وأهدافه، كما أعطى المؤمنين افضل صفة وأعمها حين قال ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾[٥] وقرر مبدأ الاستخدام والتسخير المتبادل: ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم

١. سبأ: ٢٤ و٢٥.
٢. الانفال: ٦١.
٣. الممتحنة: ٨.
٤. آل عمران: ٦٤.
٥. الشورى: ٣٨.

بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[١] ثم رسم للبشرية خطاً واحداً تنطلق فيه من أب وأم وتسير مستهدية بهدى الله يقودها الأنبياء والصالحون لاعمار الأرض مستخلفة عليها من قبله تعالى كادحة نحو تكاملها ﴿أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[٢] عاملة على الوصول إلى المجتمع المتقي العابد ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[٣] إنها مسيرة واحدة يشعر الجميع بوحدتها ويعمل الكل على رفدها بكل عناصر الرقي والتكامل. ومن هنا جاء مفهوم الأخوة الدينية والأخوة الإنسانية ليقول الإمام علي عليه السلام لعامله الاشتر في أروع وثيقة تاريخية ما نصه (واشعر قلبك للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق)[٤].

ويجب التذكير هنا من جديد بمسألة تركيز الإسلام على المسألة الفطرية وضرورة تجليتها في السلوك الإنساني.

النقطة الخامسة: تذليل العقبات

ولا نجدنا بحاجة إلى كثير من الشرح لدور الإسلام في عملية ابعاد النفوس عن المادية السلوكية بعد التخطيط لابعادها عن المادية العقائدية، وكذلك ابعادها عن النظرات الفردية الضيقة الشرهة، والطمع والجشع والكراهية، وبالتالي ابعادها عن كل ما يشكل عقبة في طريق التعاون والتكافل. إن عالمية الإسلام تقف على الخط المقابل للعولمة اليوم فلا تحمل سلبياتها بل تعمل على اشباع متوازن لتوق البشرية لعالم جديد تسوده العدالة والانصاف ويحكمه التعاون البناء.

---

١. الزخرف: ٤٣.
٢. الانشقاق: ٦.
٣. النور: ٥٥.
٤. الرسالة ٥٣ في نهج البلاغة.

وقد تحدثنا قبل هذا عن عمل الإسلام على نفي التشكيك في النوايا ما استطاع واشاعة الثقة والحب العام لتوفير جو تعاوني رحيم.

النقطة السادسة: فقه العلاقات الدولية

وقد ركز فقه العلاقات الدولية على عناصر كثيرة منها:

أ ـ المبدئية والأخلاقية في التعامل.

ب ـ عنصر التوعية والصراحة في الاتفاقات الدولية ونفي أي ابهام أو غرر أو ظلم أو انظلام.

ج ـ تأليف القلوب وتحقيق الانسجام.

د ـ احترام العهود والعقود.

هـ ـ التعامل بالمثل سلباً وايجاباً ـ مع ترجيح جانب العفو والفضل والتسامح.

وغير ذلك. وكلها مبادئ تصب لصالح عملية التعاون الدولي فضلاً عن الإقليمي لأن مفهوم الجوار يتسع اليوم ليشمل ابناء المنطقة الإقليمية كلهم. وللجوار حقوقه المسلمة.

وأخيراً فإننا نعتقد إن على الأمة الإسلامية أن تشكل مثالاً يحتذى به للتعاون شريطة أن يكون واعياً فلا يعود عليها بالضرر والله تعالى إذ دعى هذه الأمة للوقوف إلى جانب الحق والخير ضمن لها أن يعينها إذا تآمر العدو أو قلب ظهر المجن.

يقول تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِن يُرِيدُواْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِيَ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١].

١. الأنفال: ٦١ ـ ٦٣.

ثالثاً: ظاهرة التوازن والوسطية في التصور من الكون والموقف من الحياة

التوازن العادل الحكيم

قبل كل شيء يجب أن نركز على أن المقصود بالتوازن ليس ما قد يتبادر إلى الأذهان لأول وهلة من التساوي من الجانبين أو ما إلى ذلك، وإنما يقصد منه ملء الواقع بالشكل العادل بحيث يوضع الشيء في محله دون أن يتحقق حيف بأجزاء الواقع، وبحيث يشكل هذا الملء أفضل حالة لصالح الكمال. وهو ما يمكن أن نطلق عليه اسم (التوازن الحكيم) أو (التوازن العادل). فمثلاً لو أننا لاحظنا جانب الغرائز الإنسانية فإننا نجد أنها تحتاج إلى إشباع معين، وهي قد تتطلب ما يزيد على إشباعها الصحيح، فيؤثر هذا على إشباع الغرائز الأخرى. فإذا أعطيت أكثر مما يتطلبه واقعها وهدفها فقد اختل التوازن المطلوب في إشباع الغرائز فالتوازن لا يعني أن تشبع كل غريزة بالمقدار الذي تشبع به الغرائز الأخرى. وسيأتي تفصيل هذا في محله.

وعندما يتضح هذا المفهوم، نستطيع القول بأنه لا يحتاج في إجماله إلى استدلال، فإن نظرية خلق الكون بحكمة وإحكام وكون التشريع حكمة تشريعية تنسجم مع الحكمة الكونية هي من أوضح النظريات القرآنية التي يتكرر التصريح والإشارة إليها في مختلف الآيات القرآنية.

كما أن وصف (حكيم) هو من الأوصاف التي يؤكد عليها القرآن لله تعالى بعد عرض آية، أو ذكر نعمة، أو تقرير حكم، أو بيان جانب تكويني، وأمثال ذلك كما نلاحظه في الآيات التالية:

﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1].

---

١. البقرة: ٢٦٠.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١].

﴿فَرِيضَةً مِّنَ اللهِ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيما حَكِيمًا﴾[٢].

والأنبياء إذ بعثوا ركّزوا على جانب إعطاء الحكمة للناس لتنسجم حياتهم مع الحكمة التكوينية بل قل ليتحقق التوازن بين الحكمة التكوينية التي تعمل لا عن اختيار، والحكمة التشريعية التي يحققها الإنسان باختياره عندما يطبق أحكام الله تعالى والذي يعطي تصور المسلم عن العدالة والحكمة التكوينية متانة وقوة وأساساً هو تصوره لعدالة الله تعالى وحكمته كصفة كمالية مطلقة من صفات الله فهو بالتالي لا يفعل شيئاً إلاّ وفق سنن العدالة والحكمة، ولن يأمر بشيء إلاّ بما تقتضيه العدالة. ومن هنا فالعدالة التكوينية تقابلها عدالة تشريعية متوازنة ومنسجمة معها: ﴿الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ * الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ * وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾[٣].

حيث نجد هذه الآية بعد تحدُّثها عن التوازن التكويني؛ تطلب إلى الإنسان أن يصنع التوازن التشريعي العادل بإرادته.

هذا هو الواقع بشكل إجمالي، فإذا ما شئنا الخوض في هذا المجال بشكل أكثر تفصيلاً؛ لاحت أمامنا أروع صورة للتوازن لا نجد لها نظيراً في أي نظام.

مجالات التوازن

وانسجاماً مع الإيمان بالترابط الحقيقي بين الإيديولوجية والسلوك، فإن الإسلام يعمل ـ أوّلاً ـ على تقديم صورة متوازنة عن الواقع ثم يحدّد ـ ثانيا ـ الموقف المتوازن منه. وعليه فيمكننا تقسيم البحث إلى قسمين:

---

١. لقمان:٢٧.

٢. النساء: ١١.

٣.الرحمن: ١ ـ ٩.

القسم الأول: التوازن في التصور الإسلامي عن الواقع.

القسم الثاني: التوازن في تعامل المسلم مع الواقع.

القسم الأول: التوازن في التصور الإسلامي عن الواقع

إن الإسلام شرع للإنسان المسلم ما يتبعه في سلوكه الحياتي، وأقام ذلك التشريع على أساس تصوري محكم حدد فيه للإنسان موقعه من كل الكون ومن نفسه أيضاً ليكون على بصيرة فيعي كل شيء ويعمل طبق وعيه: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[١] ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾[٢].

فإذا استعرضنا تلك الصورة التي أعطاها الإسلام للمسلم عن الواقع وجدناها حافلة بالتوازن العميم. ويمكننا من خلال محاولتنا عرض التصور الإسلامي المتوازن عن الواقع أن نركز على الكلّيات الرئيسية له ومن أهمها ما يلي:

١ـ البناء التكويني المتوازن.

٢. التوازن بين المشيَّة الإلهية المطلقة، وثبات السنن الكونية.

٣. التوازن بين الإرادة المطلقة، ومجال الإرادة الإنسانية المحدودة.

٤. التوازن بين الرحمة الإلهية، والعقوبة الشديدة.

٥. التوازن بين الدنيا والآخرة.

٦. التوازن بين طرق الخير وطرق الشر.

٧. التوازن بين أنواع الهداية في حياة الإنسان. (الأهداف والإمكانات).

٨. التوازن بين مصادر المعرفة الإنسانية.

٩. التوازن بين العوامل المحركة للتاريخ الإنساني والإرادة الإنسانية. ولنتحدَّث الآن بإجمال عن كلٍّ من الكليّات المذكورة:

---

١. الملك: ٢٢.

٢. فاطر: ٢٨.

الكلية الأولى: البناء التكويني المتوازن

يعرض الإسلام أروع توازن كوني أمام تصور المسلم.. مما يجعله ينظر إلى كل ذرّةٍ في الكون على أساس أنها تشكل جزءاً صغيراً من عالم كوني متناسق ومتوازن، وإننا لنجد القرآن الكريم يتحدث عنه ضمن أساليب أهمها مايلي:

١ـ التأكيد على التقدير الدقيق والتنظيم الشامل.

٢. التأكيد على بعض صور التوازن والتقدير في الكون ومصاديقه.

الأسلوب الأول: التقدير الدقيق والتنظيم الشامل

والآيات التي تؤكد التقدير الدقيق:

منها ماجاء بلفظ التقدير مثل:

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[1].

﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾[2].

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾[3].

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾[4].

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[5].

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[6].

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[7].

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[8].

---

١. الفرقان: ٢.

٢.الطلاق: ٣.

٣. الاعلى: ٢ـ ٣.

٤. الرعد:٨.

٥.الاحزاب: ٣٨.

٦. الحجر: ٢١.

٧. القمر: ٤٩.

٨. السجدة: ٧.

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[١].

ومنها ماجاء بلفظ الإتقان، كما في الآية الكريمة: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾[٢].

وغير ذلك من الآيات الكريمة التي ترسم أمام المسلم التقدير الإلهي الشامل لكل جزء. وحينئذ يتأصل في نفسه هذا الإطار المتوازن لينطلق هو بنفسه للبحث عن جزئياته ومصاديقه.

الأسلوب الثاني: صور التوازن والتقدير في الكون ومصاديقه

وإذا كانت آيات الأسلوب الأول تعرض التقدير والتوازن العام فإن هناك آيات كثيرة تعرض صوراً من ذلك في مختلف مخلوقات الكون، وها نحن نستعرض بعض الآيات الشريفة الحافلة بهذه الصور:

﴿وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾[٣].

﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾[٤].

﴿وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاء عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[٥].

﴿وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ﴾[٦].

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾[٧].

﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ﴾[٨].

﴿واللهُ يُقَدِّرُ اليَّلَ والنَّهارَ﴾[٩].

---

١. المؤمنون: ١٤.

٢. النمل: ٨٨.

٣. الرحمن: ٧.

٤. الحجر: ١٩.

٥. القمر: ١٢.

٦. فصلت: ١٠.

٧. يس: ٣٩.

٨. عبس: ١٨ ـ ١٩.

٩. المزمل: ٢٠.

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[١].

﴿فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ * إِلَى قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾[٢].

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾[٣].

﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾[٤].

﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[٥].

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[٦].

وهكذا إلى كثير جداً من الآيات التي تهدف أساساً إلى إثبات الخالق الحكيم المدبّر، ومنها تنطلق نظرية قرآنية شاملة حول (التوازن الكوني العام).

وتؤكد هذه النظرية الروايات الشريفة عن الرسول ﷺ والأئمة من أهل البيت عليهم السلام بما لا مزيد عليه، ولا حاجة بنا إلى استعراضه، إلا أننا نودُّ الإشارة إلى حديث المفضل بن عمرو وملخصه: إن المفضل يجد جماعة يخوضون في آيات الله تعالى ويستهزئون بها، فيغضب ويواجههم بكلام قاس ثم يعود إلى الإمام الصادق عليه السلام فيطلب إليه أن يلقي عليه من حكمة الله في الكون ما يستطيع به أن يدافع عن دين الله. وهنا يبدأ الإمام عليه السلام بإلقاء بعض الدروس في حكمة الله وإتقانه عليه ويقول له في المطلع: (يا مفضل إن الشكاك جهلوا

١. يس: ٣٨.
٢. المرسلات: ٢١ ـ ٢٢.
٣. الرعد: ١٧.
٤. النمل: ٦٠.
٥. النمل: ٦١ ـ ٦٢.
٦. الروم: ٢١ ـ ٢٢.

الأسباب والمعاني في الخلقة، وقصرت افهامهم عن تأمل الصواب والحكمة، فيما ذرأ الباري جلَّ قدسه وبرأ من صنوف خلقه في البحر والبر والسهل والوعر، فخرجوا بقصر علومهم إلى الجحود، وبضعف بصائرهم إلى التكذيب والعنود حتى أنكروا خلق الأشياء وادعوا أنَّ كونها بالإهمال ولا صنعة فيها ولا تقدير، ولا حكمة من مدبر ولا صانع، تعالى الله عمّا يصفون، وقاتلهم الله أنّى يؤفكون، فهم في ضلالهم وعماهم وتحيرهم بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بنيت أتقن بناء وأحسنه، وفرشت بأحسن الفرش وأفخره، وأعد فيها ضروب الأطعمة والأشربة والملابس والمآرب التي يحتاج إليها ولا يستغنى عنها، ووضع كل شيء من ذلك موضعه على صواب من التقدير، وحكمة من التدبير، فجعلوا يترددون فيها يميناً وشمالاً ويطوفون بيوتها إدباراً وإقبالاً، محجوبة أبصارهم عنها، لا يبصرون بنية الدار وما أعدَّ فيها، وربما عثر بعضهم بالشيء الذي قد وضع موضعه، وأُعدَّ للحاجة إليه وهو جاهل بالمعنى فيه ولما أعد، فيها ولماذا جعل كذلك فتذمر وتسخط، وذم الدار وبانيها. فهذه حال هذا الصنف في إنكارهم ما أنكروا من أمر الخلقة وثبات الصنعة، فإنهم لما غربت أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الأشياء صاروا يجولون في هذا العالم حيارى، لا يفهمون ماهو عليه من إتقان خلقته وحسن صنعته وصواب تهيئته...)[١].

ومن ثم يبدأ الإمام عليه السلام ببيان جوانب العظمة والإتقان والتوازن في الكون فيقول:

(يا مفضل: أول العبر والأدلة على الباري جل قدسه تهيئة هذا العالم وتأليف أجزائه ونظمها عل ما هي عليه، فإنك إذا تأملت العالم بفكرك، وميزته بعقلك؛ وجدته كالبيت المبني المعد فيه جميع ما يحتاج إليه عباده، فالسماء مرفوعة كالسقف، والأرض ممدودة كالبساط، والنجوم منضودة كالمصابيح، والجواهر مخزونة كالذخائر، وكل شيء فيها لشأنه معد، والإنسان كالمملَّك ذلك البيت والمخوَّل جميع مافيه، وضروب النبات مهيأة لمآربه، وصنوف الحيوان مصروفة في مصالحه ومنافعه. ففي هذا دلالة واضحة على أن العالم مخلوق بتقدير وحكمة، ونظام وملاءمة، وأن الخالق له واحد وهو الذي ألّفه ونظمه بعضاً إلى

١. بحار الانوار، المجلسي، ج ٣، ص ٥٩ ـ ٦٠.

بعض، جل قدسه، وتعالى جده، وكرم وجهه، ولا إله غيره)[١] إلى ما هناك من حكم وتوازن دقيق ذكرها هذا الإمام العظيم، وكشف بها عن علم جمّ.

العلم يكتشف يوماً فيوماً أنماط التوازن في الكون

قال الإسلام ذلك قبل أن تتوسع دائرة العلوم فتكشف هذا التوازن في مختلف جوانب الكون يوماً بعد يوم. وجاءت هذه العلوم تحدثنا عن التوازن في الكون وعن الميزان الحق في الكون، وراحت تحدثنا عن التوازن العظيم التي تتم به حركة المجرات في هذا الفضاء العظيم:

﴿فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾[٢].

يأتي العلم ليكشف تأثيرات القوانين الكونية الهائلة لقوة الجاذبية، وقوانين التجاذب، وقوة الطرد عن المركز، وقوة الاستمرار، وأمثال ذلك، وليحدثنا عن عدد النجوم الهائل، وعن الأبعاد التي تقاس بملايين السنين الضوئية، وعن أشياء كثيرة أخرى مترابطة متوازنة لا يمكن إحصاء جهات التوازن فيها من قبل الإنسان الضعيف... وتكفي جهات التوازن في مجموعتنا الشمسية الصغيرة لنعرف وجودها الكوني العام. ففي صور التوازن في العلاقة الكونية بين الشمس والأرض والإنسان الحي: إننا نرى الحقائق التالية:

«تتلقى الأرض من الشمس كمية من الحرارة بالمقدار الكافي لنشوء الحياة وإشباع حاجة الكائن الحي إلى الحرارة لا أكثر ولا أقل، وقد لوحظ عملياً أن المسافة التي تفصل بين الأرض والشمس تتوافق توافقاً كاملاً مع كمية الحرارة المطلوبة من أصل الحياة على هذه الأرض، فلو كانت ضعف ما هي عليه الآن لما وجدت حرارة بالشكل الذي يتيح الحياة، ولو كانت نصف ماهي عليه الآن لتضاعفت الحرارة إلى الدرجة التي لا تطيقها حياة.

ونلاحظ أن قشرة الأرض والمحيطات تحتجز ـ على شكل مركبات ـ الجزء الأعظم من الأوكسجين، حتى أنه يكون ثمانية من عشرة من جميع المياه في العالم، وعلى الرغم من ذلك ومن شدة تجاوب الأوكسجين من الناحية الكيمياوية للاندماج على هذا النحو؛ فقد ظل

---

١. بحار الانوار، المجلسي، ج ٣، ص ٦١.

٢.الواقعة: ٧٥ ـ ٧٦.

جزء محدود منه طليقاً يساهم في تكوين الهواء، وهذا الجزء يحقق شرطاً ضرورياً من شروط الحياة، لأن الكائنات الحية من إنسان وحيوان بحاجة ضرورية إلى أوكسجين لكي تتنفَّس، ولو قدر له أن يحتجز كله ضمن مركبات لما أمكن للحياة أن توجد.

وقد لوحظ أن نسبة ما هو طليق من هذا العنصر تتطابق تماماً مع حاجة الإنسان وتيسير حياته العملية، فالهواء يشتمل على ٢١٪ من الأوكسجين، ولو كان يشتمل على نسبة أكثر لتعرضت البيئة إلى حرائق شاملة باستمرار، ولو كان يشتمل على نسبة أقل لتعذرت الحياة أو أصبحت صعبة، ولما توفرت النار بالدرجة الكافية لتيسير مهماتها.

وتلاحظ ظاهرة طبيعية تتكرر باستمرار ملايين المرات على مرّ الزمن تنتج الحفاظ على قدر معين من الأوكسجين باستمرار، وهي أن الإنسان ـ والحيوان عموماً ـ حينما يتنفس الهواء ويستنشق الأوكسجين يتلقاه الدم ويوزعه في جميع أرجاء الجسم، ويباشر هذا الأوكسجين في إحراق الطعام، وبهذا يتولد أوكسيد الكاربون الذي يتسلل إلى الرئتين ثم يلفظه الإنسان، وبهذا ينتج الإنسان وغيره من الحيوانات هذا الغاز باستمرار، وهذا الغاز بنفسه شرط ضروري لحياة كل نبات، والنبات بدوره حين يستمد ثاني أوكسيد الكاربون يفصل الأوكسجين منه أو يلفظه ليعود نقياً صالحاً للاستنشاق من جديد.

وبهذا التبادل بين الحيوان والنبات أمكن الاحتفاظ بكمية من الأوكسجين، ولولاه لتعذر الحصول على هذا العنصر، وتعذرت الحياة على الإنسان نهائياً، إن هذا التبادل نتيجة آلاف من الظواهر الطبيعية التي تجمَّعت حتى أنتجت هذه الظاهرة التي تتوافق بصورة كاملة مع متطلبات الحياة»[١].

وبهذا يتحقق مضمون الآية الكريمة ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ ومن أهم ظواهر التناسق الآفاقي ما نجده من دورات طبيعية، منها ما أشار إليه النص المتقدم من دورة الأوكسجين والكاربون، التي تشبع حاجة كلٍّ من الحيوان والنبات بنحو متبادل، كما أن منها دورة المياه في الطبيعة فهي أروع دورة متناسقة تحقق

١. الفتاوى الواضحة: الشهيد الصدر، ص ٣١ ـ ٣٢، الطبعة السابعة، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، بتصرف قليل.

للحياة الإنسانية الكثير الكثير من متطلباتها. ومنها هذه الدورات الكونية الكبرى في المجاميع الكوكبية عموماً، وفي المجموعة الشمسية خصوصاً، من دوران الشمس ودوران الأرض حول نفسها وحول الشمس ودوران القمر حول الأرض وهكذا. ومنها ما يجري في البناء الجسمي للإنسان كالدورتين الدمويتين. وغير ذلك كثير كثير، يكشف العلم به عياناً ما أخبرنا به القرآن الكريم حقّاً قبل أي تطور علمي يذكر. هذا في الجانب المادي.

وهناك التناسق القائم في البناء الداخلي الدقيق، المتوازن في نموه وتفاعلاته وإحساساته وإفرازاته، وتحقيقه لهدف الإنسان وتناسقه مع الوجود الخارجي. وكذلك القائم في الدوافع السلوكية للإنسان والتناسق العملي فيما بينها لتحقيق هدف الخلقة وإيصاله إلى كماله المنشود. وسوف نتحدث عن هذا الجانب في بحوث قادمة.

هذا وهناك آلاف من صور التوازن التي اكتشفها الإنسان ووراءها مالا يحصى ولا يحيط به علم الإنسان لشدة تعقيده إلا أن الله تعالى منح العقل قوة هائلة في سبيل استكشاف صورٍ أكثر منها لأجل الاستفادة منها بشكل أكبر.

والخلاصة: إن المسلم يتصور في كل أرجاء الكون توازناً كونياً شاملاً بنحو الإجمال، ويخبره القرآن عن بعض الصور أحياناً، ثم يدعه يمضي لاكتشاف ما يمكنه اكتشافه وفتح مغاليقه منها لتتم بذلك حركية الإنسان وفعاليته، ويتحقق للإنسان بذلك مسير متكامل فعّال.

الكليّة الثانية: التوازن بين طلاقة المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونية

وطلاقة المشيئة الإلهية هي من أهم ما يمنحه الإسلام للمسلم من تصور عن الواقع والقوانين المتحكمة فيه.

فالله تعالى مطلق وله كل صفات الكمال المطلقة غير المحدودة بحدٍّ؛ ومنها قدرته المطلقة على أن يفعل مايشاء، ويحكم بما يريد:

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[١].

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىَ يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاء﴾[٢].

١. النحل: ٤٠.

٢. آل عمران: ٤٠.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاء إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[١].

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىَ يُحْيِي هَذِهِ اللّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللّهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِئَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢].

وهكذا تؤكد كل الآيات التي تحدثت عن قدرة الله على هذه الحقيقة ومنها آيات إجراء المعاجز على أيدي الأنبياء عليهم السلام . فالمشيئة الإلهية مطلقة بلا ريب، والقدرة الإلهية مطلقة بلا ريب أيضاً، ولكن هل هذا يعني ـ كما يتصوره البعض ـ أن لا يثبت قانون مادي أو معنوي في الواقع بعد أن كان الكل محكوماً لتلك المشيئة التي تفعل ماتشاء، وبالتالي لا يمكن أن يطمئن الإنسان إلى النتائج من المقدمات التي يقوم بها، ويسيطر عليه الخوف من إرادة الله في كل لحظة؟!

والجواب على هذا التوهم يعطيه الإسلام ويركزه القطع العقلي بما لا يدع مجالاً لأي تصور باطل.

فإن نكتة ذلك التساؤل ونكتة كل تساؤل باطل حول الصفات الإلهية تكمن أول ما تكمن في محاولة قياس الوجود الإلهي الواجب الكامل المطلق بالوجود الإنسان الناقص الضعيف المحدود، ذلك أن الإنسان لما كان يألف الوجود الحسي ويعيش في أطره ينجر ـ فيما إذا أراد أن يفكر في المجردات ـ إلى تشبيهها بعالمه المادي، فيقع في أمور لا تحمد عقباها، ولربما أنجر الأمر إلى الضلال المبين.

وقد ورد في الروايات: إن النملة لتظن أن لربها ذؤابتين كذؤابتيها: تعبيراً عن قياس التشبيه الذي يبتلى به الموجود الناقص، كمظهر من مظاهر نقصه.

ومن هنا فقد تصور البعض أن إطلاق المشيئة الإلهية يعني ما يعنيه إطلاق المشيئة في

---

١. آل عمران: ٤٧.

٢. البقرة: ٢٥٩.

الموجودات المخلوقة ومنها الإنسان، حيث لا يضبطه ضابط حينذاك، ولا يمنعه مانع عن تخريب أو سلب أو قتل، وما إلى ذلك من نتائج تتصور عندما يعطى الإنسان مطلق الحرية في كل مجال، ولذا احتاج الإنسان وغيره لأن يقيد بقيود تكوينية وتشريعية تحدُّ من طلاقة مشيئته.. نعم، هذا التصور الصحيح في المجال الإنساني إلى حد كبير ينقلب إلى ضده عندما يتجاوز الساحة الإمكانية، فيراد له أن يأتي في الساحة المقدسة، فإن الإطلاق في جانب الله تعالى إطلاق كمالي، فذاته تعالى هي الكمال المطلق الذي تعجز كل العقول عن إدراك كنهه... ويستحيل أن يتحول الإيمان بتلك الذات المطلقة في يوم من الأيام إلى عملية خوف من الإرادة الإلهية المطلقة (التي لا تتقيد بأي قانون) كما يتوهم البعض.. كلاً، فإن مجرد التصور الإجمالي للصفات الكمالية والجمالية له تعالى يمنح الإنسان ثقة عظمى بالنتيجة التي يتوخاها في مسيره دون خوف عدم ترتبها وميل الميزان لصالح عدم الحكمة، وذلك لا لشيء إلاّ لأن الإرادة الإلهية شاءت ذلك.

وطبقاً لهذا التصور وتركيزاً له فقد شاء العدل الإلهي والحكمة الإلهية أن تكون القوانين الكونية ثابتة وأخبر الإنسان بذلك ليطمئن قلبه، فجاءت الآيات القرآنية التالية موضحة هذه الحقيقة.

﴿لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾[1].

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾[2].

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاؤُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

وجاءت الأحاديث الشريفة لتؤكد هذا المعنى كالحديث الشهير:

«أبى الله أن يجري الأمور إلا بأسباب فجعل لكل شيء سببا»[4].

---

١. يس: ٤٠.

٢. الاحزاب: ٦٢.

٣. الروم:٤٧.

٤. مجمع البحرين للطريحي، ص ١١٤، الطبعة الحجرية، مطصفوي.

وهكذا إذن اقتضت حكمة الله ثبات القوانين الكونية والسنن التكوينية والاجتماعية سواء منها ما يرتبط بالعالم المادي أو ما يرتبط بعالم الغيب أيضاً... ليتم النظام، ويسَخّر مافي السماوات والأرض لصالح الإنسان الذي استخلف على الأرض، وليعمل ـ بكل اطمئنان وثقة بالنتائج ـ لبناء المجتمع الإنساني المسلم العابد.

الكلية الثالثة: التوازن بين مجال الإرادة الإلهية المطلقة ومجال الإرادة الإنسانية المحدودة

ولن نطيل الكلام في هذا المجال بعد وضوح الحق فيه من خلال مراجعة الآيات الكريمة وتأكيد الأحاديث الشريفة وشهادة الوجدان الصافي.

فالإرادة الإلهية مطلقة في مختلف المجالات، لن تُحَدَّ بحدٍّ، ولن يقف في قبالها شيء، لكنها بلطفها منحت الإنسان حريته وإرادته في ما يعمل... واعطته القدرة على أن يريد وأن يحقق ما يريد، وهي تمده في كل آن بهذه القدرة.. ليتكامل وليصعد سُلَّم الرقي المعنوي بنفسه.

وجاءت الآيات المختلفة تركز هذا التصور المتوازن في ذهنية الإنسان كما يلي:

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[2].

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[3].

﴿إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاء اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا *وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاء اللَّهُ﴾[4].

وسنلاحظ في الفصل التالي الدور المهم الذي يلعبه هذا التصور على صعيد شعور الإنسان بكرامته وثقته بنفسه، وتصميمه على صنع مستقبله ولكن في إطار من الاستمداد من الإرادة المطلقة والشعور بأن كل هذه القوى منه تعالى.

---

١. التوبة: ٥١.

٢. الشمس: ٧ ـ ١٠.

٣. الرعد: ١١.

٤. الانسان: ٢٩ ـ ٣٠.

ومتى ما اختل هذا التوازن ـ نتيجة جهل بالإسلام ـ عاد محطماً لسلوك الإنسان إذ يَجُرّه إمّا إلى الهزيمة والذوبان الذاتي والتحلل من المسؤولية وإمّا إلى التجبر والتكبُّر والعلوِّ على واقعه والانفصال عن جذوره.

الكلّية الرابعة: التوازن بين الرحمة الإلهية والعقوبة الشديدة

وهو نوع آخر من التوازن في التصوُّر، يؤثر في النفس الإنسانية خوفاً ورجاءً مؤثرين في دفع الإنسان نحو الهدف ـ كما سيأتي ذلك في تحديد موقف الإنسان من الواقع المتوازن ـ. فإن تصور الرحمة الواسعة يبعث في الإنسان أملاً كبيراً دافعاً نحو العمل، وتصور العقوبة الشديدة يمنع ذلك الأمل من الانقلاب على هدفه ويضبطه ويحوله إلى عمل في سبيله، وعلى هذا نلاحظ ثلاث مجموعات من الآيات القرآنية:

المجموعة الأولى ـ آيات الرحمة الواسعة:

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ﴾[١].

﴿مَّا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾[٢].

﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الودود﴾[٣].

﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾[٤].

﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ﴾[٥].

المجموعة الثانية ـ آيات العقاب:

﴿وَاتَّقُواْ اللهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[٦].

---

١. الفاتحة: ١ـ٣.

٢. النساء: ١٤٧.

٣. البروج: ١٤.

٤. الانعام: ٥٤.

٥. الحجر: ٥٦.

٦. البقرة: ١٩٦.

﴿وَمَن يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[١].

﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[٢].

المجموعة الثالثة ـ الآيات التي تجمع بينهما:

﴿اعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٣].

﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾[٤].

﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾[٥].

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾[٦].

﴿نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ * وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ﴾[٧].

والتوازن في هذه المجموعة الثالثة واضح الأبعاد والأهداف بحيث لا يحتاج إلى مزيد شرح.

الكلية الخامسة: التوازن بين صورة الدنيا وصورة الآخرة

يتميز الإسلام باعتباره الدين الإلهي الوحيد الذي يمتلك نظرة محددة واضحة محكمة الأساس عن الحياة الإنسانية، وأنها تتكون من شوط قصير يسميه (الدنيا) وشوط طويل خالد يسميه (الآخرة).

إننا إذا رجعنا إلى صورة الآخرة في (التوراة) و(الإنجيل) المحرَّفين وجدناها صورة باهتة مبهمة، في حين نجد (القرآن) يعرض مميزات كل من الحياتين بشكل دقيق، ويوضح مجريات الحياة الأخرى حتى أنه يذكر ما يجري فيها من الحوار والجو الذي يسيطر عليها، ويصف

١. الحشر: ٤.

٢. القلم: ٤٤ ـ ٤٥.

٣. المائدة: ٩٨.

٤. غافر: ٣.

٥. فصلت: ٤٣.

٦. الاسراء: ٥٤.

٧. الحجر: ٤٩ ـ ٥٠.

الكثير من أنواع الثواب الحسي والمعنوي، والعقاب كذلك، كل ذلك لتكون الصورة واضحة تمام الوضوح ومؤثرة في تحقيق الغاية المنشودة.

والدنيا والآخرة مترابطتان ارتباطاً تاماً ينعكس فيه تأثير الأولى على الثانية انعكاساً محدد المعالم، ويتميز كلٌّ من هذين الشوطين على أحدهما بميزات ما أن يتصورها المسلم حتى تتحقق في ذهنه سلسلة من أنماط الترابط والتوازن الذي له أكبر الأثر في عمله وهدفيته.

وعن الترابط والانعكاس الشديدين بين الدنيا والآخرة، تحدثنا آيات كثيرة منها:

﴿وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[١].

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[٢].

﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٣].

﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٤].

﴿اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾[٥].

وقد كثرت الروايات التي تحدثنا عن أن الاستقامة أو السلوك غير المستقيم هما اللذان يحددان طبيعة الاستقامة، أو الخزي، في ذلك الشوط الآخر.

وهكذا، فالقرآن يعطي المسلم أهم الصفات العامة لكلٍّ من الدنيا والآخرة، والتي تشكل الأساس النظري لتحديد موقفه من كلٍّ منها. فبالنسبة للدنيا: يذكر لنا عنها صفات أساسية هي:

١ـ المحدودية الزمانية: وهي صفة يدركها الإنسان ويسلِّم بها إلاّ أنه ينساها عملاً فلا ينسجم علمه مع ذلك:

---

١. الاسراء: ٧٢.

٢. طه: ١٢٤ ـ ١٢٦.

٣. البقرة: ١١٤.

٤. البقرة: ١٣٠.

٥. آل عمران: ٤٥.

﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[١].

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾[٢].

ولذا يركز القرآن على ذلك، بل يعطيه نوعاً من المقارنة يحدد له مقدار فترة التمتع بالدنيا هذه بالنسبة للتمتع الأخروي العظيم في تعبيرات رائعة من مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٣].

﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أو بعض يوم﴾[٤].

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾[٥].

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ﴾[٦].

﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا﴾[٧].

٢. المحدودية المادية: ذلك إن الدنيا عالم المادة والمحسوسات التي تؤثر أكثر مما تؤثر به المعقولات، وحينذاك فالإنسان يدرك الواقع الذي يتصل به حساً والذي يتصل به عقلاً. أما الأمور التي لا طريق للحسّ والعقل إلى إدراكها فإنّها تبقى خافية عليه مالم يخبره بها الوحي الصادق. وقد جاءت الآيات تؤكد ذلك:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[٨].

ومن هذا القبيل الآيات التي تتحدث عن الغيب وأن علمه عند الله. ومن هنا أيضاً نشأ احتياج شديد لأن يبعث الله نبياً إلى البشرية يهديها سواء السبيل.

---

١. الشعراء: ١٢٩.

٢. الهمزة: ٢ ـ ٣.

٣. المؤمنون: ١١٤.

٤. الكهف: ١٩.

٥. الروم: ٥٥.

٦. يونس: ٤٥.

٧. النازعات: ٤٦.

٨. الاسراء: ٨٥.

وعلى أساس من هاتين المحدوديتين تأتي صفات أخرى للدنيا هي: قلة المتاع، وقابلية التزيين، وبعث الغرور، والطغيان واللهو، واللعب والخوف والرجاء، والتعب، والسير، وأمثال ذلك كما نلاحظ في الآيات التالية:

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾[١].

﴿وَما الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٢].

﴿قُلْ مَتَاعُ الدَّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ﴾[٣].

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[٤].

﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٥].

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٦].

وللإمام أمير المؤمنين عليه السلام في وصف الدنيا دقة بلاغية يستمدها من القرآن الكريم حيث يقول: «وإن اليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل» «والدنيا دار مُنِيَ لها الفناء، ولأهلها منها الجلاء، وهي حلوة خضراء وقد عجلت للطالب والتبست بقلب الناظر».

«فإنها عند ذوي العقول كفيء الظل، بينما تراه ساغباً حتى قلص، وزائداً حتى نقص» ويقول: «أما بعد، فإني أحذركم الدنيا، فإنها حلوة خضرة حفت بالشهوات، وتحبَّبت بالعاجلة، وراقت بالقليل، وتحلَّت بالآمال، وتزينت بالغرور. لا تدوم حبرتها، ولا تؤمن فجعتها. غرّارة ضرّارة، حائلة زائلة، نافدة بائدة، أكّالة غوّالة، لا تعدو ـ إذا تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها

---

١. البقرة: ٢١٢.

٢. آل عمران: ١٨٥.

٣. النساء: ٧٧.

٤. الانعام: ٣٢.

٥. الكهف: ٤٦.

٦. الحديد.

والرضاء بها ـ أن تكون كما قال الله تعالى سبحانه: ﴿كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ لم يكن أمرؤٌ منها في حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة، ولم يلق في سرّائها بطناً إلاّ منحته من ضرّائها ظهراً، ولم تطله فيها ديمة رخاء إلاّ هتنت عليه مزنة بلاءٍ، وحري إذا اصبحت له منتصرة أن تمسي له متنكرة، وإن جانبٌ منها اعذوذب واحلولى، أمرَّ منها جانب فأوبى، لاينال امرؤ من غضارتها رغباً، إلاّ أرهقته من نوائبها تعباً، ولا يمسي منها في جناح أمن، إلاّ أصبح على قوادم خوف، غرَّارة، غرور ما فيها، فانية، فإن من عليها، لا خير في شيء من أزوادها إلاّ التقوى، من أقل منها استكثر مما يؤمنه، ومن استكثر منها استكثر مما يوبقه، وزال عمّا قليل عنه. كم من واثق بها قد فجعته، وذي طمأنينة إليها قد صرعته، وذي أبهة قد جعلته حقيراً، وذي نخوة قد ردَّته ذليلاً، سلطانها دول، وعيشها رنق، وعذلبها أجاج، وحلوها صبر، وغذاؤها سمام، وأسبابها رمام، حيها بعرض موت، وصحيحها بعرض سقم، ملكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وموفورها منكوب، وجارها محروب. ألستم في مساكن من كان قبلكم أطول أعماراً، وأبقى آثاراً، وأبعد آمالاً، وأعدَّ عديداً، وأكثف جنوداً، تعبّدوا للدنيا أيّ تعبد، وآثروها أيّ إثار، ثم ظعنوا عنها بغير زاد مبلغ ولا ظهر قاطع. فهل بلغكم أن الدنيا سخت لهم نفساً بفدية، أو أعانتهم بمعونة، أو أحسنت لهم صحبة، بل أرهقتهم بالقوادح، وأوهقتهم بالقوارع، وضعضعتهم بالنوائب، وعفَّرتهم للمناخر، ووطئتهم بالمناسم، وأعانت عليهم (ريب المنون) فقد رأيتم تنكرها لمن دان لها، وآثرها وأخلد إليها، حين ظعنوا عنها لفراق الأبد، وهل زودتهم إلاّ السَّغَب، أو أحلّتهم إلا الضنك، أو نوَّرت لهم إلا الظلمة، أو أعقبتهم إلا الندامة أفهذه تؤثرون، أم إليها تطمئنون، أم عليها تحرصون. فبئست الدار لمن لم يتهمها، ولم يكن فيها على وجل منها، فاعلموا ـ وأنتم تعلمون ـ بأنكم تاركوها وظاعنون عنها، واتعظوا فيها بالذين قالوا: «من أشدُّ منّا قوةً» حملوا إلى قبورهم فلا يدعون ركبانا، وأنزلوا الأجداث فلا يدعون ضيفانا، وجعل لهم من الصفيح أجنان، ومن التراب أكفان، ومن الرفاة جيران، فهم جيرة لا يجيبون داعياً، ولا يمنعون ضيما ولا يبالون مندبة؛ إن جيدوا لم يفرحوا، وإن قحطوا لم يقنطوا، جميع وهم آحاد، وجيرة وهم أبعاد، متدانون لا يتزاورون، وقريبون لا يتقاربون، حلماء قد ذهبت أضغانهم،

وجهلاء قد ماتت أحقادهم، لا يخشى فجعهم، ولا يرجى دفعهم، استبدلوا بظهر الأرض بطناً، وبالسعة ضيقاً، وبالأهل غربة، وبالنور ظلمة فجاؤوها كما فارقوها حفاة عراة، قد ظعنوا عنا بأعمالهم إلى الحياة الدائمة والدار الباقية، كما قال سبحانه: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾[١].

وهكذا يؤكد الإسلام أن الدار الآخرة هي الحياة الحقيقية للإنسان. أمّا الحياة الدنيا فهي حياة ظاهرية، اللّهم إلا لمن عرف محلها.

يقول القرآن الكريم: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[٢].

ويقول: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾[٣].

وعلى عكس المحدودية الدنيوية يمتلك الشوط الأخروي صفات أوسع بكثير، بحيث لا تقبل القياس بل تصل إلى حد الخلود بإرادة الله تعالى:

﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ﴾[٤].

﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾[٥].

وما أكثر الآيات التي تتحدث عن خلود عالم الآخرة، وهي بهذا تؤكد تحقيق أعظم أمل يتصوره الإنسان مطلقاً، كما تؤكد على أعظم خوف من شيء يمكن أن يتصوره إنسان أيضاً، لتحقيق الهدف المنشود من الدفع نحو الدخول في طاعة الله ورضوانه.

عالم الآخرة: عالم الانكشاف

ومن ميِّزات عالم الآخرة انكشاف الواقع:

﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[٦].

---

١. نهج البلاغة، الخطبة: ١١١، صبحي الصالحي، ص ١٦٤ ـ ١٦٧.

٢. الروم: ٧.

٣. العنكبوت: ٦٤.

٤. يونس: ٥٢.

٥. الفرقان: ١٥.

٦. ق: ٢٢.

﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[١].

﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[٢].

وعند ذلك فلن تجد إلاّ الإذعان للحق والتسليم المطلق من قبل الجميع للحقيقة. فتحدثنا الآيات عن أقوال المكذبين بعد أن تنكشف الحقيقة، فيجدون وعد الله حقاً، وعن أقوال المؤمنين الذين يعيشون النعمة الإلهية عياناً بعد أن يكون «الملك يؤمئذ لله». فهو «مالك يوم الدين» ولن يشك في هذه الحقيقة أحد آنذاك.. إنه اليوم الذي يتحدث فيه كل شيء عن الواقع وتشهد فيه الأيدي والأرجل والأمكنة، وباقي الجمادات عليه:

﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[٣].

﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلاّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٤].

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾[٥].

﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[٦].

إنه يوم الفصل وما هو بالهزل، إنه عالم تتجسَّد فيه الأعمال والروابط بالنحو الممكن من أنحاء التجسُّد. إنه عالم تكون فيه الأمور المعنوية أعظم تأثيراً من الأمور المحسوسة، فيكون الرضوان الإلهي أعظم نعمة وأكبرها، ويكون الغضب الإلهي والبعد عن الله أشد عذاباً من النار وعذابها.

والملاحظ أن التركيز يتم على عالم الآخرة ومميزاته ولكنه يتوجه في نفس الوقت إلى الدنيا باعتبارها هي المحددة لنوعية السلوك في ذلك العالم، وهي الفرصة التي يمكن من خلالها ضمان السعادة في العالم الآخر.

---

١. الحاقة: ١٨.

٢. الطارق: ٩.

٣. النور: ٢٤.

٤. الكهف: ٤٩.

٥. هود: ٩٨.

٦. الاسراء: ٧١.

وعلى ضوء هذا يعطي الإسلام موقفاً متوازناً من الدنيا والآخرة سيأتي الحديث عنه ـ إن شاء الله ـ في الفصل التالي:

الكلّية السادسة: التوازن بين طرق الخير وطرق الشر

ولما كانت الدنيا دار تكامل وابتلاء فقد كان لاختيار الإنسان دوره الحسّاس والأساس في تحديد طريقه بين الطرق الكثيرة المشرعة أمامه، فالإرادة الإنسانية هي التي ترجح أحد هذه الطرق على البقية وبالتالي فهي المسؤولة عمّا تعمل. فبدون الإرادة لا معنى للمسؤولية.

وإذا ما تصفحنا النصوص الشرعية التي تذكر لنا سبل الخير وسبل الشر، نجد أنها تجعل محور الشر: الشيطان، والهوى النفسي الجامح عن الطريق الطبيعي له، أو قل: الهوى الذي يفتقد صبغة الهوى الإنساني، لأن الهوى الإنساني يحكمه التعقل في حين أنها تجعل محور الخير: الإيمان بالله، وإقامة حق العبودية له في إطار من الوعي التام والإرادة التي يوجهها هذا الوعي[1].

نعم، هكذا شاء الله للإنسان: أن يواجه الحياة وأمامه سبل مختلفة، ثم بمقتضى إرادته يختار السبيل الأفضل ﴿وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَى الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

---

١. هنا نشير إلى انحراف فكري كبير أصيب به بعضهم في العصر الحاضر، وهو انحراف أساس، إذ جعلوا محور الشر: الاستعمار. ومحور الخير: مصالح المجتمع.، دون أن يكون الأول في نظرهم مجرَّد مصداق للشر، والثاني مجرَّد مصداق الخير! وضرر هذا الانحراف كبير جداً، فمن جملة ما يؤدي إليه هذا الانحراف:

أـ الغفلة عن محاور الشر الأخرى، فلا تحارب بشكل متوازن ومتناسق مع محاربة الاستعمار، وكذلك الغفلة عن محاور الخير الأخرى كالتربية النفسية بالعبادات وأمثالها والأحكام الشرعية الأخرى، فلا يعمل على إنزالها إلى واقع التطبيق.

ب ـ التعاون مع محاور الشر الأخرى في سبيل القضاء على الاستعمار، أو تحقيق مصلحة المجتمع الضيقة، وأكبر ضرر لهذا إجهاض المسيرة ومخالفة التخطيط التشريعي الإلهي لذلك.

ج ـ مادام الهدف قريباً، فإن مستوى العمل لن يُضمن بقاؤه، ولن يمتلك دافعاً عقائدياً مستمراً.

د ـ عدم التخطيط لمرحلة ما بعد هذين المحورين، وهذا خطأ فكري كبير جداً، في حين إذا كان المحوران هما: رضا الله. ومحاربة الشيطان. فإن التخطيط سيستوعب جميع التاريخ وتبقى المسيرة صاعدة..

﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾[١].

فالامتحان يصقل النفوس ويبدي جوهرها المكنون.. وعنده يكرم الرجل أو يهان.. ويعرف مدى اتباعه للإرشاد السماوي أو انحرافه عنه.

ويمكن هنا أن نلتفت إلى تجربة الامتحان الأول الذي مرّ به أبونا آدم في الجنة، إذ عرف به بدقة قيمة الإطاعة الكاملة لله تعالى وتسلَّح على أثره بسلاح تجربة التوبة والاستعاذة من الشيطان بالله.

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢].

وتأتي الروايات الكثيرة فترشد الإنسان إلى الصواب والسبيل الحقّ، بعد أن كان معرّضاً للخطأ في التشخيص:

ومنها ما في (الخصال للشيخ الصدوق) عن سماعة، قال: كنت عند أبي عبدالله عليه السلام وعنده جماعة من مواليه، فجرى ذكر العقل والجهل، فقال أبو عبدالله عليه السلام: «إعرفوا العقل وجنده، والجهل وجنده، تهتدوا».

قال سماعة: فقلت جعلت فداك لا نعرف إلاّ ما عرَّفتنا، فقال أبو عبدالله عليه السلام: «إن الله ـ جلّ ثناؤه ـ خلق العقل وهو أول خلق خلقه من الروحانيين عن يمين العرش من نوره: فقال له: أقبل، فأقبل: ثم قال الله: أدبر، فأدبر فقال الله تبارك وتعالى خلقتك خلقاً عظيماً وكرَّمتك على جميع خلقي، قال: ثم خلق الجهل من البحر الأجاج ظلمانياً: فقال له: أدبر، فأدبر ثمَّ قال له، اقبل، فلم يقبل: فقال له: أستكبرت؟ فلعنه، ثم جعل للعقل خمسة وسبعين جنداً، فلما رأى الجهل ما أكرم به العقل وما أعطاه أضمر له العداوة، فقال الجهل:

---

١. الانبياء: ٣٥.

٢. البقرة: ٣٥ ـ ٣٨.

يا ربِّ هذا خلق مثلي خلقته وكرمته وقوَّيته وأنا ضده، ولا قوة لي به، فأعطني من الجند مثل ما أعطيته. فقال: نعم فإن عصيت بعد ذلك أخرجتك وجندك من رحمتي، قال: قد رضيت، فأعطاه خمسة وسبعين جنداً: فكان مما أعطى العقل من الخمسة والسبعين الجند: الخير، وهو وزير العقل، وجعل ضده الشر، وهو وزير الجهل، والإيمان وضده الكفر، والتصديق وضده الجحود، والرجاء وضده القنوط، والعدل وضده الجور، والرضاء وضده السخط، والشكر وضده الكفران، والطمع وضده اليأس، والتوكل، وضده الحرص، والرأفة وضدها الغرَّة، والرحمة وضدها الغضب، والعلم وضده الجهل، والفهم وضده الحمق والعفّة وضدها التهتُّك، والزهد وضده الرغبة، والرفق وضده الخرق، والرهبة وضدها الجرأة، والتواضع وضده التكبر والتؤدة وضدها التسرع، والحلم وضده السفه، والصمت وضده الهذر، والاستسلام وضده الاستكبار، والتسليم وضده التجبر، والعفو وضده الحقد، والرقة وضدها القسوة، واليقين وضده الشك، والصبر وضده الجزع، والصفح وضده الانتقام، والغنى وضده الفقر، والتفكّر وضده السهو، والحفظ وضده النسيان، والتعطف وضده القطيعة، والقنوع وضده الحرص، والمواساة وضدها المنع، والمودة وضدها العداوة، والوفاء وضده الغدر، والطاعة وضدها المعصية، والخضوع وضده التطاول، والسلامة وضدها البلاء، والحب وضده البغض، والصدق وضده الكذب، والحق وضده الباطل، والأمانة وضدها الخيانة، والإخلاص وضده الشوب، والشهامة وضدها البلادة، والفهم وضده الغباوة، والمعرفة وضدها الانكار، والمداراة وضدها المكاشفة، وسلامة الغيب وضدها المماكرة، والكتمان وضده الإفشاء، والصلاة وضدها الإضاعة، والصوم وضده الإفطار، والجهاد وضده النكول، والحج وضده نبذ الميثاق، وصون الحديث وضده النميمة، وبر الوالدين وضده العقوق، والحقيقة وضدها الرياء، والمعروف وضده المنكر، والستر وضده التبرج، والتقية وضدها الإذاعة، والإنصاف وضده الحمية، والمهنة وضدها البغي، والنظافة وضدها القذر، والحياء وضده الخلع، والقصد وضده العدوان، والراحة وضدها التعب، والسهولة وضدها الصعوبة، والبركة وضدها المحق، والعافية وضدها البلاء، والقوام وضده المكاثرة، والحكمة وضدها الهوى، والوقار وضده الخفَّة، والسعادة وضدها

الشقاء، والتوبة وضدها الإصرار، والاستغفار وضده الاغترار، والمحافظة وضدها التهاون، والدعاء وضده الاستنكاف، والنشاط وضده الكسل، والفرح وضده الحزن، والألفة وضدها الفرقة، والسخاء وضده البخل.

فلا تجتمع هذه الخصال كلها من أجناد العقل إلا في نبيٍّ أو وصي نبيٍّ، أو مؤمن قد امتحن الله قلبه للإيمان، وأما سائر ذلك من موالينا فإن أحدهم لا يخلو من أن يكون فيه بعض هذه الجنود، حتى يستكمل ويتقي من جنود الجهل، فعند ذلك يكون في الدرجة العليا مع الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وإنما يدرك الفوز بمعرفة العقل وجنوده، ومجانبة الجهل وجنوده، وفقنا الله وإياكم لطاعته ومرضاته»[١].

إلاّ أن الشيء الذي يؤكد القرآن على نفيه هو مسألة سلب الإرادة عن الإنسان ووقوعه تحت تأثير أي من هذه القوى بشكل لا يملك مجالاً لدفع تأثيره.

وبهذا يسد دعوى أولئك الذين يتذرعون بأنهم فقدوا إرادتهم أمام الانحراف، ويحملهم المسؤولية الكاملة في ذلك نوعاً.

ففي مقدار سلطة الشر والشيطان يقول تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ * قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[٢].

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي وَلُومُواْ أَنفُسَكُم﴾[٣].

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ * إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ

---

١. بحار الانوار، ج ١، ص ١٠٩. علق المحدث المجلسي ره. في بحار الأنوار على هذه الكلمة بقوله: «لعل المراد بالجهل هو النفس الأمارة بالسوء والشهوات، التي تكون مبدأ لكل خطيئة، لا الجهل المقابل للعلم فإنه يكون من جنودها، كما يأتي في نفس هذا الحديث» ويؤيد هذا بإطلاق الجهل على النفس في حديث آخر.

٢. الحجر: ٣٩ـ٤٢.

٣. ابراهيم: ٢٢.

آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾[١].

﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[٢].

هذا ... وإن الإنسان إذ يقبل على الخير ويتقدم خطوة إلى الله يقبل الله عليه بأضعاف ذلك. فسبل الخير ممهدة، والإنسان هو الذي يختار مصيره، ويعبر الامتحان والبلاء مصقول النفس، فلا مجال إذن لقول أولئك الذين تذرَّعوا الأحابيل ليبرِّروا إجرامهم.

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ * قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[٣].

والتوازن الملاحظ بين طرق الخير وطرق الشر هو الذي فتح الطريق للإنسان كي يسير في سبيل التكامل، وتتفتح لديه الطاقات الكامنة في فطرته.

وأي اختلال مؤثر على حرية الإرادة في هذا المجال يعني في الواقع سد سبيل التكامل الإنساني الذي شاء الله له أن يتم بشكل إرادي فعّال.

الكليّة السابعة: التوازن بين هدف الخلقة الإنسانيّة والإمكانيات الممنوحة

قلنا: إن العقيدة تشكل في الإسلام الأساس الذي يبتنى عليه النظام، والروح الذي تسري في كل جوانبه، ومن هنا نشاهد أن القرآن الكريم عندما يتعرض للأحكام المختلفة يختم الآيات المتعلقة بها بما يشعر بأن كل هذه الأحكام قائمة على التقوى والفلاح.

والعقيدة الإسلامية بدورها ترتكز على حقيقة أساسية هي حقيقة التوحيد والتنزيه، وإعطاء صفات الكمال كلها لله تعالى، ونقصد بها الأعم من صفات الذات وصفات الفعل في الاصطلاح.

والآية القرآنية الشريفة قبل كل سورة وهي «بسم الله الرحمن الرحيم»، تركز في أذهاننا

---

١. النحل: ٩٨ـ١٠٠.

٢. النساء: ٧٦.

٣. الاعراف: ٢٨ـ ٢٩.

أن كل شيء في الكون ينطلق ويبتدى من الله تعالى، خصوصاً إذا لاحظنا أن متعلق الجار والمجرور فيها محذوف، مما يشير إلى العموم بل يؤكد لنا معناه، وأن كل شيء يبتدي من اسم الله ويقوم باسم الله، وأن كل حركة في الكون هي باسم الله تعالى.

في حين يؤكد لنا المقطع الأخير من الآية الكريمة أن ذلك الانطلاق إنما يكون على أساسٍ من تلك الرحمة الواسعة اللاّمحدودة، وذلك اللطف الإلهي الشامل.

والإنسان من بين كل الكائنات هو الكائن الذي انصبت عليه الرحمة الإلهية الفائضة، فوهبته العقل والإرادة، وجعلته لوحده الموجود الذي يقبل الوصول إلى درجات الكمال الممكنة، فكان هو الموجود المكرم «ولقد كرمنا بني آدم».

وكان هو الموجود الذي سخرت له الموجودات وخلقت لأجله، لكي يواصل مسيرته في طريق الكمال من جميع جهات حياته.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] وجعل الهدف من الخلقة هو العبادة، إشارة إلى أن درجة العبودية لله تعالى كلما ترقت ترقى الإنسان في مدارج الكمال، وأصبح أكثر قرباً من أعظم حقيقة في الكون، وأكثر علماً وارتباطاً بواقعه كعبد لخالق الكون العظيم.

وما نريد أن نبحثه هنا هو الوسائل التي زود بها الإنسان لكي يقطع الطريق الطويل نحو هذا الهدف النبيل جداً؛ لنكتشف بالتالي التناسب الرائع بين الأهداف العليا والإمكانات التي زود بها لتحقيق تلك الأهداف.

وسنوضح ذلك على النحو التالي:

أـ ماهي أنواع الهداية؟ وماهي نوعية تأثير كل نوع على الآخر؟

ب ـ كيف يتناسق عمل هذه الأنواع في سبيل إيصال الإنسان إلى الهدف المطلوب؟

أـ أنواع الهداية:

ويمكننا أن نقسم الهداية المتواجدة لدى الإنسان إلى قسمين: تكوينية، وإيحائية: أما التكوينية، فتنتظم في مجالات عديدة:

---

١. الذاريات: ٥٦.

الهداية الغريزية الفطريَّة:

من الواضح أن في أعماق كلِّ إنسان صفات نابعة من فطرته وتكوينه ومرتبطة بذاته وأصالته فإنَّها تطبع سلوكه بطابعها تماماً، ولا مناص منها، فهي تشكل ـ إذن ـ أحد الدوافع التي هيئت بدقة لإبقاء النوع الإنساني، وخلق الحافز فيه للسير في الطريق التكويني المرسوم.

الهداية العقلية:

والمقصود بها تلك الطاقة التي يمتاز بها ـ قبل غيرها ـ الإنسان عن غيره من الحيوانات، وبهذه الهداية يستطيع أن يفعل مايلي:

الأوّل ـ السيطرة على غرائزه والحد من تأثيراتها المفرطة وتهذيبها وتصريفها بصورة نظيفة.

الثاني ـ التخلُّص من حدود المشاعر الماديَّة المحصورة بما يحسُّ به فقط، والتعالي على الواقع، مما يمنحه فرصة تغييره إلى الحالة الأفضل. هذا هو السبب الأهمُّ الذي جعله يمشي في خط التكامل ويقطع شوطاً بعيداً، في حين لم تمشِ الحيوانات الأخرى في هذا السبيل مطلقاً.

وهكذا نستنتج مما سبق مايلي:

أوّلاً ـ إن كل من ارتفعت لديه صفة التعقل ارتفعت لديه صفة الإنسانية، والعكس صحيح.

ثانياً ـ إن كلَّ مذهب ينمِّي في الإنسان جانب التعقل السائر في ظل الفطرة الإنسانية ـ طبعاً ـ مع عدم إغفال الجوانب الأخرى فيه فهو مذهب إنساني، والعكس صحيح أيضاً.

أمّا الهداية التشريعية: فأعني بها ما يحمله الوحي إلى البشرية من تشريعات تنير لها طريق كمالها وتهديها إلى الصراط المستقيم. وهي التي يمهد لها العقل بإيمانه بالله تعالى ربّاً خالقاً أحداً، وبالرسول ﷺ هادياً ومبشراً وقائداً، وهكذا باقي العقائد وعندما تستقر أصولها العقائدية في النفس تنبع منها تشريعات حياتيَّة. وتشترك العقيدة والتشريعات في توجيه الهدايتين السابقتين توجيهاً صحيحاً، على تفصيل يذكر في محله.

١ـ إعطاء العقل الخبرة اللازمة، وتنميته وتقويته في نفسه.

٢. رسم السبل التي يجب أن يسلكها العقل في مختلف المجالات، ومنها مجال تنظيم الغرائز والسيطرة عليها، وإشباعها إشباعاً متوازناً.

هذا إلى غير ذلك مما يضمن للمسيرتين الفردية والاجتماعية ديمومة التكامل.

ب ـ التناسق في تأثير الهدايات بأنواعها في سبيل إيصال الإنسان نحو الغاية المنشودة:

مما عرضناه سابقاً توضح أن الهدف الإنساني الأعلى يتطلب أموراً أهمها الأمور التالية:

١ـ وجود دوافع ذاتية نحو التكامل، ولو على المدى الطويل.

٢. وجود دوافع ذاتية لحفظ الفرد والنوع الإنسانيين إلى مدىً طويل وذلك باعتبار أن الهدف الأعلى يحتاج إلى مرور الإنسانية بمراحل تكامل ضرورية.

٣. وجود الإرادة التي تشكل صمّام الأمان في تنظيم تأثير الدوافع.

٤. وجود منبع محيط عالم قدير، مشرف على تنظيم الإرادة والتخطيط لعملها.

وقد شكلت الغرائز الدوافع والمنابع الفطرية الذاتية المطلوبة في النقطتين الأوليين فممّا يمكن تصنيفه ضمن النقطة الأولى:

أـ غريزة التدين.

ب ـ غريزة حب الكمال.

ج ـ غريزة حب الاستطلاع... وغيرها.

وهذه كلها تبعث الإنسان على استكناه الحقائق، والشوق نحو الحقيقة الكاملة المطلقة.

ومن الواضح أن ذلك يعتبر أول الطريق، بل وأساس السير في سبيل الهدف الأصيل.

وممّا يمكن تصنيفه ضمن النقطة الثانية من الغرائز ـ بالإضافة إلى بعض الغرائز السابقة ـ مايلي:

أـ غريزة حب الذات وفروعها من غرائز: الخوف، والإشباع، وغيرها.

ب ـ غريزة الغضب.

ج ـ الغريزة الجنسية.

د ـ غرائز الأمومة وغيرها.

فإذا التفتنا إلى أن هذه الغرائز كلها منابع فوّارة عمياء، يعمل كل منها على أن ينعكس في سلوك الإنسان وعمله، ويوجه حياته، إذا التفتنا إلى ذلك أدركنا سرَّ الحاجة إلى الإرادة التي هي سر الفرق بين الإنسان والحيوان، وطبعاً نقصد بها الإرادة الواعية، لا الحيوانية التي حدثتنا عنها الآية القرآنية الشريفة:

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾[١].

والنعمة الكبرى التي تقوم بمهمة صمّام الأمان لعمل الغرائز وتنظيمها هي العقل. ولكن لما كان العقل محتاجاً أشد الحاجة إلى من ينميه أولاً، ويخطط له ويصدر له الأوامر، وبالتالي يوجهه بعمله الواسع إلى مواقع التنفيذ أو الإحجام أو غير ذلك، على أساس من علم واسع بالكون والنفس وعلاقاتهما ومصالحهما فإن الدور هنا يتهيّأ للهداية الإيحائية أو الهداية التشريعية، وهكذا. فقد يكون الوحي والإلهام المرشدين اللّذين يقومان بلطفه تعالى بتلك الوظائف.

وعلى هذا يمكننا أن نمثل للغرائز بمنابع الأنهار التي تجري المياه منها بهيئة أنهار تشق طريقها وتتفرق هنا وهناك، ولربما جفت فتعطش المدن، ولربما فاضت فأغرقتها، ولكن إذا أقيم السد الكبير المنظم (العقل) توفر ضمان من الفيضان ومن الهدم والعطش المتوقع وتمت السيطرة على تنظيم المياه للري والسقي، ولكن السد يحتاج إلى توجيه وتخطيط وإشراف من قبل هيئةتطلع على الحاجات، وتحاول الموازنة بينها وترسل التقارير المتواصلة إليها عن ذلك، وتلك الهيئة يقابلها (الوحي) في مورد حديثنا هذا.

الكلّية الثامنة: التوازن بين مصادر المعرفة الإنسانية

وتبعاً للبحث السابق، فإننا نجد أن هناك توازناً أساسياً في مصدرية كل من الحس، والعقل، والوحي، للمعارف الإنسانية.

إذ أن الإسلام ـ بلا ريب ـ من مبادئ اليقين التي تعطي المعرفة قيمتها الأساسية وترفض كل أنماط التشكيك في قيمة المعرفة، أو القول بنسبيتها ـ وهو لا يعدو التشكيك في جوهره ـ فإذا كانت المعرفة الإنسانية ذات قيمة لدى الإنسان فما هو المصدر الصحيح للمعرفة الإنسانية؟ إن الإسلام يقرر ـ بمقتضى ظاهر الآية القرآنية التالية ـ أن المعرفة ليست عملية استذكار ـ كما يقول (أفلاطون) ـ إذ أن الإنسان يولد وليس في ذهنه أي شيء من العلم: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

---

١. محمد: ١٢.

٢. النحل: ٧٨.

فذهن الطفل إذن صفحة بيضاء ليس فيها أي شيءٍ، أللهم إلا الاستعداد للتلقِّي.

أما مصادر المعرفة التي يثبتها القرآن فهي: الحس، والعقل، والوحي، وقد رأينا أن الآية القرآنية نفت المعرفة السابقة ثم أثبتت سبلاً أعطاها الله للإنسان، ليعرف بها، وكان أولها: «السمع والأبصار» وهي سبل حسية، فالحس هو مصدر المعرفة الأول، الذي تنتقل عبره التصورات إلى ذهن الإنسان.

وقد رأينا القرآن الكريم يؤكد على هذا المصدر تأكيداً أساسياً.

والمصدر الثاني هو: العقل، بما لديه من قدرات تجريدية وما أودع في أعماقه من قضايا وجدانية، وقد رأينا القرآن يؤكد عليه بأساليب مختلفة: فقد عبَّر عنه بـ«الأفئدة» في الآية السابقة.

وهو يؤكد عليه مرَّة بصورة مباشرة: بمثل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا﴾[١].

ومرَّة أخرى يستدل على مايريد استدلالاً عقلياً: كما في قوله تعالى:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾[٢] ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[٣]. ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً﴾[٤].

إلا أن هذا المصدر وهو العقل قد يبتلى بأمور تحرفه عن النظر الدقيق، وأهمها ذاتية الإنسان وهواه، وتحويله الظن إلى يقين ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ﴾[٥].

كما أن سرَّ انحراف الاستنتاج العقلي هو عدم العلم بجميع جوانب الحقيقة الذي يحذر منه القرآن ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[٦]. وعلى أي حال فالعقل معرَّضٌ للخطأ.

ومن هنا جاء الوحي الإلهي مصدراً أساسياً للمعرفة لا يحتمل فيه أي خلل أو اشتباه، أو

---

١. سبأ: ٤٦.

٢. الطور: ٣٥.

٣. الانبياء: ٢٢.

٤. الزمر: ٢٩.

٥. النجم: ٢٣.

٦. الاسراء: ٣٦.

عدم وضوح للحقيقة، فالوحي إذن هو مصدر المعرفة السالم من أيِّ انحراف بعد أن كان المصدران السابقان معرَّضين في بعض حالاتها للانحراف. يقول تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[١].

﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[٢].

﴿وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾[٣].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٤].

﴿قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾[٥].

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾[٦].

إلى ما هنالك من عشرات الآيات التي تؤكد هذا المعنى، بل إن القرآن كله يقوم على أساس أنه ﴿يِهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾[٧]. فيرشد العقول في معارفها، ويعيِّن لها الحق، لأنه الفرقان بين الحق والباطل.

وهكذا نجد أن هناك توازناً بين روافد المعرفة الإنسانية، كما وجدنا قبل قليل توازناً في محركات الإنسان نحو هدفه، بل يتلاحم الأمران فلا يشعر الإنسان بالافتراق بينهما.

ولا نجدنا بحاجة للتنبيه على أن ايَّ مصدر من هذه المصادر إذا انسدَّ فإنَّ المتوقع هو أن يبدِّل الإنسان غير الإنسان فلا يمكنه أن يطوي طريق تكامله ويُعمِلَ قدراته التي شرفه الله بها فأسجد له ملائكته لأجلها.

فالحسُّ هو سبيل التعامل مع العالم المادي والخطوة الأولى للمعرفة فلا يمكن أن يسدَّ.

---

١. الجاثية: ١٨.

٢. البقرة: ٣٨.

٣. الزمر: ٣٣.

٤. الانعام: ١١٥.

٥. الاحزاب: ٢٢.

٦. فاطر: ٣١.

٧. الاسراء: ٩.

أما العقل فهو الخطوة المهمة الثانية التي تُعلي الإنسان عن إسار المادة في حين يربطه الوحي بمنبع العلم والحقيقة الكبرى.

الكلّية التاسعة: التوازن بين العوامل المحركة للتاريخ الإنساني والإرادة الإنسانية

قبل الدخول في هذا الموضوع ننبه على أن هذا التوازن يتمُّ بناءً على أساس التوازن السابق بين الإرادة الإلهية المطلقة والإرادة الإنسانية المحدودة، فإنَّ كل قانون محرك للتاريخ والمجتمع الإنساني مثله كمثل القوانين الأخرى في الكون يشكِّل مظهراً من مظاهر الإرادة الإلهية المطلقة، بل إنَّ حرية الإرادة الإنسانية نفسها هي تعبير عن ذلك.

المجتمع، هل هو وحدة حية؟

يطرح بين الدارسين للتاريخ وفلسفته بحث حول (المجتمع) وهل يمتلك وجوداً حياً غير وجودات أفراده الحيَّة، بمعنى أنَّ له حياة حقيقية لا خيالية أو مجازية؟

وقد طرحت هنا آراء تراوحت بين إنكار أيِّ وجود متميز للمجتمع عن الأفراد والإيمان بأنَّ للمجتمع أصالة طاغية لا يبقى معها للفرد أيُّ وجود، تماماً كما هو الحال في التركيبات المادية الكيمياوية، حيث يذوب الجانب الفكري والروحي الفردي في التركيب الاجتماعي العام؛ فيكون المجتمع هو الذي يلوِّن سلوك الأفراد ويتحكَّم تماماً في مسيرتهم، وهي النظرية المنسوبة إلى (دوركايم).

في حين نرى بعض علماء المفسرين يؤكد على وجود حياة للمجتمع، إلاّ أنَّ الأفراد لا يفقدون خواصهم في هذا التركيب الاجتماعي، خلافاً للمركبات التكوينية.

وقد رأى بعض المفكرين من الأساتذة ـ كالأستاذ الشهيد آية الله المطهري (ره) (فيما أعتقد): «أن من الممكن القول بوجود أنواع متعددة من الحياة في المجتمع، فللمجتمع أركان رئيسة، كالتشكيلات القضائية والأخلاقية، والسياسية، ولكلٍّ من هذه الاسس نوع حياة.. وقد تتعارض هذه الأسس فيما بينها.. وبهذا يكون المجتمع موجوداً حياً لا يقاس بأيِّ موجود حيٍّ آخر».

ومهما يكن الأمر، فإنه لا يمكن أن ننكر دوراً من نوع ما لبعض العوامل المسيِّرة للحركة الاجتماعية، فما هي هذه العوامل؟ وما هو حجم ذلك الدور؟ وماهي الأطر التي يتحدد من خلالها؟

ما هو العامل المحرك للتاريخ؟

إذا كان لنا أن نعطي تصنيفاً جامعاً للنظرية المطروحة على هذا السؤال، فإنّنا نجعله في ثلاثة تصورات:

التصور الأول: نظريات العامل الواحد.

التصور الثاني: نظريات العوامل المتعددة.

التصور الثالث: رفض تصور نظام عِلّيّ مترابط في المجال الاجتماعي والتأكيد على مجموعة من الصدف والاعتبارات لا غير.

ويكاد اتفاق المفكرين ـ إلاّ من شذ ـ[1] ينعقد على رفض التصور الثالث، والإيمان بنظام عِلِّيٍّ، وقوانين تاريخية نُحِسُّ آثارها ونلمسُ مقتضياتها، بشكل لا يدع مجالاً للإنكار... ومن هنا فنحن نركز على الرأيين الأول والثاني بشكل مجمل فنقول:

أما التصور الأول ـ وهو نظريات العامل الواحد ـ فالمقصود به: تلك النظريات التي تبني الحركة التاريخية الاجتماعية على أساس من عامل واحد يكون هو محورها والمكيِّف لظواهرها المختلفة، وتعطي بعض العوامل الأخرى دوراً ثانوياً، يصغر أحياناً فلا يكون معه إلاّ وسيلة ينفِّذ من خلالها ذلك العامل المحور مآربه.

من نظريات العامل الواحد:

(النظريات الماركسية): وهي تبني كل الظواهر الاجتماعية من فكر ولغة وغير ذلك على أساس الوضع الاقتصادي المبني على أساس تطور وسائل الإنتاج.

وكذلك النظرية التي تبني تطور المجتمع على أساس القدرات العرقية، وتلك التي تبني ذلك على أساس العامل الجغرافي. وهكذا تدخل في هذا المجال ـ بوجه من الوجوه ـ النظرية المؤكدة على الغريزة الجنسية العمياء المحركة للمسيرة الفردية المؤثرة في صوغ المسيرة الاجتماعية... وهكذا غيرها.

ولا يمكن أن ننظر إلى هذا الرأي لأول وهلة على أساس أنه رأي مفرط وتجريد ذهني

---

١. لاحظ مثلاً كارل بيوبير في كتاب عقم المذهب التاريخي..

لبعض المؤثرات في المسيرة وأعطائها صفة مطلقة. وهذا هو أخطر ما يمكن أن يصاب به الفكر الإنساني خلال مسيرته الحضارية، إذ يصوغ آلهة وهميَّة ـ كما يعبِّر عنه الشَّهيد آية الله الصدر ـ لتكون هذه بدورها قيوداً تمنع من انطلاقته الحضارية المجددة.

وقد رفض الإسلام هذا التصور عن الواقع التاريخي[١] ورجَّح التصور الثاني مع تعديل أساسي عليه.

ذلك أن كل تلك المبادئ تتفق ـ تقريباً ـ على إبعاد الإنسان وإعطائه دوراً تاريخياً ثانوياً في عملية التطور والتغيير، في حين يرى الإسلام ـ كما تبديه نصوصه وروحه ـ أن الإنسان يمتلك دوراً رئيسياً أصيلاً في تحريك التاريخ، وأن الخصائص الإنسانية هي التي تلون المسيرة الاجتماعية وتصبغها بصبغتها. ويعبِّر القرآن عن الخصائص الإنسانية الأصيلة المشتركة بين المجتمع والتي بني الإنسان على أساسها، وعجنت طينته بها بـ(الفطرة) ويعني بها ما فطر عليه الإنسان وبني عليه وجوده بكل أبعاده الإنسانية.

إن الفطرة الإنسانية ـ في رأي الإسلام ـ فطرة ثابتة أصيلة محركة، وإن كل ما ينبعث من الفطرة من غرائز ودوافع يتخذ له صفة دوافع رئيسية لا يفتر عن الدفع نحو الكمال والتطور وانتخاب الأحسن وفق الانشداد بالمطلق الحقيقي الذي يوفر مسيرة مطمئنة وهدفاً أكبر من وجوده دائماً، فهو يسعى نحو التكامل دائماً.

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[٢].

وكل ذلك الانشداد والتكامل يعبَّر عنه بـ(الدين)، وتقول الآية الكريمة:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣]. فالفطرة استعداد يرجح سير الإنسان في خط معين نحو كماله.

ونستطيع أن نحسَّ عمق هذه الفطرة وتأثيرها في الوجود التاريخي للإنسان. من خلال

---

١. اقتصادنا، الشهيد الصدر، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، طبعة ١٦، ج ١، ص ٤٣ بالمعنى..

٢. الانشقاق: ٦.

٣. الروم: ٣٠.

عمق تأثير طموح الإنسان في كل عصر وأينما كان نحو الكمال، وهو الشرط الأساسي للبناء والتغيير، وليست طموحات الإنسان إلاّ تعبيراً فطرياً، وكذلك من خلال دافع الانشداد بالمطلق الذي صاحب وجود الإنسان بمختلف مراحله، وما الانشداد بالمطلق إلاّ تعبير فطريٌّ، وهكذا قل عن غريزة حب الذات وغيرها من المظاهر الفطرية التي تؤكد الآيات القرآنية عمق تأثيرها، وكل هذه الأمور تتخذ سبلها للتأثير عبر مظهر فطري أصيل هو التفكُّر الإنساني، وهو أرفع خاصة فطرية إنسانية.

وليس التأكيد على الفطرة ـ هذه ـ يعني رفض أي دور آخر لأيّ شيءٍ في حياة الإنسان... وذلك ـ كما شاهدنا ـ أن تلك المذاهب التي أكدت على العامل الواحد أعطت العوامل الأخرى أدواراً ظاهرية يقف من ورائها ذلك العامل الواحد في الواقع. كلا بل إنَّ هناك نوعاً من التوازن بينها وبين الفطرة المحرِّكة.

ما هي العوامل التي تشترك مع الفطرة في صنع التاريخ؟

يمكننا بهذا الصدد أن نذكر أن أهم العوامل المؤثرة التي نرى الإسلام قد أكد عليها، تنتظم في الخطوط التالية:

أ ـ التأثرات التكوينية للقوانين المحسوسة منها وغير المحسوسة:

مما لا ريب فيه أن نوعية المنطقة، وتوفر الموارد المساعدة لإنشاء الحضارة على اختلاف متطلبات الحضارات لهما أثرهما الكبير في صنع الحضارة والرقي، ومنح المجتمع الفرص الملائمة، ودفعه نحو تحقيق حياة أفضل... وهذا أمر يصدق به كل إنسان، كما أنه لا ريب في تأثير نوعية الوضع الاقتصادي على الوضع الاجتماعي العام، وقد اهتم الإسلام بهذه الأمور ـ وخصوصاً الأمر الاقتصادي ـ ونظم الحياة الاقتصادية بشكل ينسجم والاحتفاظ بدافع العمل والرقي من جهة، ولا يبخس التوازن الاجتماعي حقه من جهة أخرى. وسيأتي شيء من الحديث عنه في المستقبل إن شاء الله تعالى.

وقد ركَّز الكثير من علماء التاريخ على وجود دورات حتمية الوقوع أو أغلبيته للحضارات ومنهم (ابن خلدون) في مقدمته، ومن المحدثين (آرنولد توينبي). وسواء صحت استنتاجاتهم أم لا فإنَّ علم التاريخ يكاد أن يسلِّم بوجود قوانين تكوينية تحكم مسيرة

المجتمع ككل، والأوضاع الفرعية، وإلاّ فلا معنى لتصوُّر التاريخ علماً عملياً مؤثراً في المجال الإنساني.

والقرآن الكريم يتحدَّث عن هذه القوانين بتعبير (السنن) فيقول:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ * وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[1].

﴿سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً﴾[2].

﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[3].

﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[4].

إلى كثير من الآيات الدالة على وجودها وثباتها.

إلاّ أنها قوانين لا تفرض نفسها على الفكر، بل الفكر الإنساني هو الذي يحقق مجال عملها كما سيأتي، والإسلام بمقتضى واقعيته إذ يعترف بقوانين تحكم المسيرة الإنسانية، يرى ضرورة تهيئة مجال الرقي المادي والمعنوي بخلق أرضية عمل تلك القوانين:

﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ﴾[5].

وحديث: «أبى الله أن يجري الأمور إلا بأسباب»[6] ونحو ذلك.

إلا أنه يستمد من علم الله تعالى مشرع الإسلام ما يضيف إلى الصورة التكوينية جزءاً ليس بالحساب وفق التصور المادي، ذلك هو مجال تأثير القوانين غير المحسوسة وما يمكن أن نسميه بـ(القوانين المعنوية التكوينية)، فإن القرآن يحدِّثنا في مختلف الأمكنة عن مثل هذه القوانين المعنوية، ولو تتبعنا الآيات القرآنية التي تتحدث عن الجانب الحضاري ومنه الجانب

---

١. آل عمران: ١٣٧ ـ ١٣٩.

٢. الاسراء: ٧٧.

٣. الاحزاب: ٦٢.

٤. النور: ٣٤.

٥. الحج: ٤٠.

٦. مجمع البحرين، ص ١١٤.

المادي للشعوب، وجدنا أنها تركز على كيفية تعامل الإنسان مع الدين، ومع الله، أي مع وظيفته تجاهه تعالى. فتجعل نوعية الوضع سبباً للرقي والنصر ـ إن كانت إيجابية ـ وللانهيار والضياع ـ إن كانت سلبية ـ وهذا كما في الآيات التالية:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَى أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[١].

﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾[٢].

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[٣].

﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ﴾[٤].

ويخاطب نوح عليه السلام قومه فيقول:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾[٥].

وتتلازم الزيادة في النعمة الإلهية مع الشكر: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ

---

١. سبأ: ١٥ ـ ١٩.

٢. الانعام: ٦.

٣. الانعام: ١١.

٤. هود: ٥٢.

٥. نوح: ١٠ ـ ١٢.

عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[١].

واعتبر ظلم الإنسان وكفره سبباً لشقائه، بعد أن وفرت له كل النعم: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[٢].

ب ـ التأثيرات التكوينية أيضاً للفطرة الإنسانية بما فيها من غرائز:

وقد مر شيء من الحديث عن الغرائز، وتناسق عملها، وشدة تأثيرها.

وقد تكون أهم غريزة في الإنسان غريزة حب الذات التي سميت بـ(أم الغرائز) وتأثيراتها كبيرة في حياة الإنسان. ومن هنا فقد اهتم الإسلام بتوجيهها الوجهة الصحيحة بعد أن اعترف بها بمقتضى واقعيته. فالغرائز تحتاج ـ في نظر الإسلام ـ إلى تربية متواصلة، وجو نظيف للإشباع، وهذا ما عمل على توفيره بأقصى ما يمكن.

ج ـ الفكر والإرادة الإنسانيان

وهذه المسألة هي التي يركز الإسلام على دورها التاريخي الكبير... وهي المسألة التي شكلت حلقة الوصل بين جميع الحضارات، والناقل الأساس من مرحلة إلى أخرى.

فرغم أن كل تلك القوانين والغرائز لها آثارها في حياة الإنسان، إلاّ أنه يبقى رغم ذلك محتفظاً بقوة التفكير ـ على اختلاف في مستوى الدقَّة ـ أوَّلاً، ثم التصميم والإرادة في المرحلة التالية. إن الإنسان بإرادته يشكِّل أرضية عمل القوانين غالباً، وقلنا في الغالب لئلا نتجاهل التأثيرات الكبرى التي تركتها العوامل اللاإرادية في التاريخ الحضاري للإنسان، رغم أن الإنسان قد يظن أحياناً بأن إرادته محكومة لعوامل لا يمكن التخلُّص منها. وذلك إمّا لضعف فيه، وإمّا لإيحاء من أولئك الذين تحكَّموا في مصيره لأهوائهم الشخصية.

والحقيقة أنه لولا الفكر والإرادة الإنسانيان لما كان هناك أيُّ فرق بين مجتمع الإنسان ومجتمع الحيوان، لأن كليهما معرَّض لتأثير القوانين التكوينية، إلاّ أنَّ امتلاك الإنسان لهذين العنصرين

---

١. ابراهيم: ٧.

٢. ابراهيم: ٣٤.

الأساسين، بالإضافة لنوازع الكمال الفطرية، والمهيّئات الأخرى، هو الذي منح المجتمع الإنساني قدرة التغيير والطموح إلى أقصى ما يمكن، أي حتى الطموح إلى الخلود في الحياة.

ومن هنا اهتم الإسلام غاية الاهتمام بالفكر والمعرفة الإنسانية، ودعا إلى التفكر الموضوعي الدقيق، وعبر عن الفكر بمختلف التعبيرات كتعبير: التدبر، والتعقل، والرؤية، وغير ذلك. كما اهتم غاية الاهتمام بالإرادة الإنسانية (كعامل مغير مطور) فنماها وركز على أن يمتلك الإنسان زمام إرادته بيده ليحتفظ بإنسانية حيَّة. وهكذا إذن شاء الله أن ينطلق التغيير من الإرادة:

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[1].

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[2].

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِؤُونَ﴾[3].

د. الدوافع والتأثيرات الكبرى للتوجيهات السماوية عن طريق الأديان التي تشكل نقاط الضوء في التاريخ البشري.

إن النصوص الإسلامية من جهة، والواقع التاريخي من جهة أخرى، لتؤكِّد على الدور الذي لعبه الوحي في تحقيق التطوير الإنساني الضخم.

وهكذا تتوضح لنا صورة كبرى من صور التوازن بين العوامل المحرِّكة وبين الإرادة التي تعتبر في إطار الفكر الخطوة الأساس للتحريك، مما تؤكد لنا أن الإسلام كان المبدأ الذي كرَّم الإنسانية في حين أهانتها كل المبادئ الأخرى، حتى حين ألهتها. ومن المبادئ التي أهانت الإنسان: الماركسية التي جعلت الإنسان محكوماً بكل وجوده لتطور الوضع الاقتصادي.

وفي ختام هذا الحديث نشير إلى شبهة نظن أنها انطلقت لتعطي الإسلام صفة العصرية، وتجعله قادراً على التحرُّك في خِضم الأطروحات الحاضرة.

وملخَّصها: أننا يمكن أن نقبل التركيب (الماركسي) لحركة التاريخ، مع تعديل أساسي

---

١. الرعد: ١١.

٢. الانفال:٥٣.

٣. النحل: ٣٤.

عليه يحوله من تركيب مادي إلى تركيب إلهي، وذلك بأن نقول:

ـ صحيح أن الظواهر الاجتماعية كلها مبنية على أساس من الوضع الاقتصادي الذي يبتنى بدوره على أساس من نوعية القوى المنتجة، إلاّ أن نقطة الخطأ (الماركسي) هي أنها جعلت التحرك ينطلق من هذه القوى نفسها دون أن تنظر إلى ما وراءَها، ولذا ولأجل التوفيق بين التركيب (العلمي للماركسية) والعقيدة الإلهية، فإننا نقول:

ـ إن العامل المحرك للتطور الاقتصادي هو الله تعالى، وبهذا نحسم الأمر، ونبيِّن أن الإسلام يواكب أحدث التطورات الفكرية.

ولئن عبَّر هذا التصور عن شيء فإنما يعبِّر عن هزيمة نفسية من جهة، وضحالة فكرية من جهة أخرى، إذ إنه لم يلتفت إلى أن الصفة (الماركسية) في الحياة تفقد أيَّ دليل علمي أو فلسفي أو غيره على وجودها، بل يرفضها الواقع العلمي القائم، وفوق ذلك فإن أخطر مافي هذا التفكر (الإلهي) المدَّعى: هو أنَّه يقضي على الإلهية نفسها، وذلك لأن التفكُّر نفسه والإرادة وسائر ظواهر الحياة الإنسانية هي أجزاء من البناء العلوي للوضع الاقتصادي، حيث يطبعها في رأي الماركسية بطابعه كيفما شاء، وهنا تتحول المعرفة الإنسانية إلى معرفة شكية نسبية ليس لها واقع إلا مطابقة مقتضيات الوضع الاقتصادي، وهذا المعنى يسري حتى على فكرة الألوهية نفسها، فتصبح نتاجاً اقتصادياً لا يعبِّر عن الواقع الموضوعي.

والحقيقة: هي أنَّ هذا الإشكال نفسه يردُّ على (الماركسية) نفسها، ولا تستطيع الإجابة عليه... فلماذا يورِّط هؤلاء أنفسهم والإسلام مع أنفسهم في هذه السبل المتعرِّجة التي تقضي عليهم وعلى تصورهم الإسلامي المزعوم؟

إن استقلال الفكر والإرادة ـ ولو في بعض جوانبها ـ هو جوهرة الإنسان الثمينة.

كما أننا نشاهد بعض الكتّاب قد أكَّدوا على الفطرة الإنسانية تماماً وكأنهم تناسوا فعل القوانين الأخرى، بل أكَّدوا على الجانب الفطري الغريزي بشكل يكاد يفقد الإنسان معه إرادته وهذا ـ إن كان مقصوداً ـ يجافي روح الإسلام والحقيقة.

وكل هذه فكرة خطيرة جداً جاءتنا من خلال عدم الموضوعية في النظرة إلى الإسلام، ذلك أننا نجد الكثيرين من دارسي الإسلام يطرحون نظرة الإسلام ومفاهيمه وتاريخه بل وأحكامه على بساط البحث، وينظرون إلى الجميع نظرات متأثرة بفكرة غريبة على الإسلام

نبتت في منابت لا ترى الإسلام وحياً إلهياً، بل فكرة بشرية، أو نظاماً افترضه وضع معين: فيتأثر بها هؤلاء الكتاب دون أن يعرفوا منبتها، ويحاولون تفسير التاريخ الإسلامي والمفاهيم الإسلامية وفق نظراتهم الاجتماعية.

إنَّ هؤلاء لم يردوا الأمر من منابعه، ولم يلتفتوا إلى أننا يجب أن نعتمد في تكوين فكرتنا عن المفهوم الإسلامي على النص الواضح والمستند القطعي وملاحظة روح الإسلام القطعية، قبل أن نحاول تطبيق النظريات الأخرى على الإسلام وتشويه شخصياته[١].

القسم الثاني من مجالات التوازن: التوازن في تعامل المسلم مَعَ الواقِع

لاحظنا في القسم الأول أنماطاً من الصور المتوازنة التي شكَّلت مجمل نظرة الإنسان المسلم للواقع الموضوعي.

وهذه النظرة تمثل الإطار الفكري والمفاهيمي الذي يتحدد عبره تعامل المسلم مع هذا الواقع الهائل.

وسنتبع في القسم الثاني هذا، السمات العامة لهذا الموقف ثم ننطلق إلى التفصيل عبر بيان التوازن في التشريع الإسلامي. فحديثنا يتمُّ في فرعين:

الفرع الأول: السمات العامَّة لتعامل المسلم مع الواقع

ويمكن تلخيصه بما يلي:

أولاً: الموقف المتناسق من الكون المتناسق

رأينا في أول ما عرضناه من تصورات المسلم عن الواقع أنه يري الكون كلا متناسق الأجزاء مترابطا، قد وضع كل شيء في محله، ونظم وفق هدف معين: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ

---

١. الواقع هو أنّ هذه النظرات التجزيئية للإسلام من جهة، والالتقاطية أو الهجينة من جهة أخرى قد وجَّهت أعظم الضربات للدين، كما أنها تشكّل أعظم العثرات التي تصاب بها الحركات التحريرية... ولقد عانت الثورة الإسلامية منها أشد المعاناة حتى تغلَّبت عليها بفضل وعي قائدها الكبير الإمام الخميني رضوان الله تعالى عليه.، وإخلاص الشعب في العمل لإعلاء كلمة الله تعالى.

السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[١].

ونستطيع أن نتبين معالم الهدف العام إذا لاحظنا الآيات القرآنية التي تؤكد تسخير كل شيء في السماوات والأرض، وتناسق عمل الأجزاء الكونية لصالح الإنسان.

فإذا تأكدت هذه الحقائق في خلد الإنسان؛ وعى أن عمله يجب أن ينسجم مع هذا التناسق الكوني ليشكل بدوره أحد طرفي التوازن (الكوني البشري)، وليتحقق الهدف المطلوب:﴿سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

﴿كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾[٣].

والشكر والتكبير والإحسان لا تعني إلا الشعور التامَّ بالعبودية لله تعالى، تماماً كما تشعر الكائنات على اختلاف درجات ذلك الشعور، والاستسلام الكامل لله تعالى، كما تستسلم الكائنات وإن كان تسليمها تكوينياً في حين يكون تسليم الموجودات الشاعرة بالمعنى الأخص تسليماً تشريعياً كاملاً، وهي درجة عالية من التسليم.

فالانسجام مع الكون يعني التسليم للحقيقة الكبرى والشكر لها والتسليم لله تعالى، أما عدم الانسجام فلا يعني إلا الظلم والكفر والضياع والضلال والخسران وعدم الفوز بالعاقبة:

﴿اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَينَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[٤].

ولتأكيد هذه الحقيقة نجد الكون يتجاوب مع تكبير الإنسان كما نجده يهتز لكفره:

فعن الإمام الباقر عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام :

«ما من مُهلٍّ يهلُّ بالتلبية إلا أهلَّ من على يمينه من شيء إلى مقطع التراب، ومن على

---

١. آل عمران: ١٩١.

٢. الحج: ٣٦.

٣. الحج: ٣٧.

٤. ابراهيم: ٣٢ ـ ٣٤.

يساره إلى مقطع التراب، وقال له الملكان: أبشر يا عبدالله، وما يبشر الله عبداً إلا بالجنة»[١].

وفي الجانب الآخر تقول الآيات الكريمة: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا * لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا * أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا * وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا * إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾[٢]. وما أكثر النصوص الإسلامية التي تتحدث عن غضبة الكون عند الجريمة مؤكدة هذا الموقف حتى ليهتز العرش وهو مركز حركة الكون عند بعض الجرائم.

أما تفصيلات الانسجام مع الكون فهو أمر يجهله الإنسان فلا يدري كيفية تحققه، ومن هنا فقد احتاج إلى إرشاد الله تعالى له، حيث يتجلّى بشكل تعاليم ومفاهيم وتنظيمات تشريعية عليه أن يعمل بها بحذافيرها، وأيُّ عصيان لأيِّ جزء يعرض الانسجام للخطر، وقد تحبط أعماله فيفقد بعصيانه كل الانسجام القائم، وحينذاك فالخسران المبين والضياع الذي ما بعده ضياع.

وبتحقق الانسجام يشعر الإنسان بتوازن روحي عجيب واطمئنان ما بعده اطمئنان.

مسيرة واحدة في الكون إلى هدف واحد، يظللها رضا خالقها، وتسدد خطاها القوانين المعنوية في الكون تحت قيادة الأنبياء والأئمة العصومين.

وواضحٌ ما للأمل الذي ينبعث في هذا الجو، والاطمئنان الذي يشكل روحه، والتسامي النفسي الذي يلازمه؛ من دور كبير جداً في تحقيق المطلوب من المبدأ أن يحققه من رسالة في حياة الإنسان فيسير به باطراد نحو الكمال.

وهذا بالضبط ما حققه الإسلام، وعجزت كل المبادي الأخرى عن أن تحقق بعضاً منه «والعاقبة للمتقين».

وقد رأينا من قبل أن الطبيعة لم تسلِّم كلَّ أسرارها للإنسان وإن كانت أرته بعض لمعاتها البراقة داعية إياه للعمل الجاد والتفكير الحثيث لفتح مغاليقها.. محققة بذلك التوازن المطلوب لدفع الإنسان نحو الرقيِّ المستمر. فلا هي بالمغلقة عليه تماماً، ولا هي بالسهلة

١. وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٥٠.

٢. مريم: ٨٨ ـ ٩٣.

التناول. وهذا التصور كما هو واضح يبعث الأمل في الإنسان المسلم لاكتشاف مجاهيل الطبيعة والاستفادة منها في نفس الوقت الذي ينفي التكاسل عن ارتياد آفاق المجهول بعد أن لم يكن سهلاً مهيعاً.

ثانياً: موقف العبودية المطلقة والشكر لله مع الاعتراف بفضل المخلوق

ويعتبر هذا الموقف أقوى مبدأ إسلامي يلزم به المسلم... فهو يرى أن غاية الخلق كلها هي التعبد والعبودية المطلقة لله تعالى... تماماً كالعبودية التكوينية التي تعني احتياج الكون لله وقيامه به تعالى. هكذا يراد للعبودية التشريعية للإنسان أن تصل إلى حدِّ التسليم المطلق لله تعالى كما هي العبودية التكوينية: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[١]. واعتبرت العبودية عين الكمال الإنساني وفوق كل الصفات: «اشهد أن محمداً عبده ورسوله». وكانت دعوات الانبياء جميعاً مركزة على هذه العبودية: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ﴾[٢]. ونفي كل العبوديات المزيفة الأخرى ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾[٣]. ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ﴾[٤]. ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم﴾[٥]. ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾[٦].

وهذا يعني ـ من جهة أخرى ـ خلق روح التحرر من كل المواقع التي تقف في طريق سير الإنسان الحضاري ورقيه نحو الكمال بأجلى صوره، فلا تقيده شهوة أو منفعة أو مال أو حال، أو لذة أو قدرة، أو تعصُّب عنصري أو قبلي أو غير ذلك.. بل يكون هو فوق جميع هذه الأمور، لأنه عبدالله وليس عبد هذه الأمور، إنه يحمل شعار:

---

١. الذاريات: ٥٦.

٢. الزمر: ١١.

٣. الزمر: ٦٤.

٤. الاسراء: ٢٣.

٥. يوسف: ٤٠.

٦. النحل: ٣٦.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[١]. ولهذا الموقف أثره الكبير جدّاً على الالتزام الكامل بالنظام والطاعة لله، خصوصاً بعد ما ورد من أن: «من أصغى إلى ناطق فقد عبده»، وما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ﴾[٢]. من: أن اتباعهم يعني عبوديتهم لهم. وسيأتي بعد هذا بحث عن التسليم لله تعالى، إن شاء الله.

وهذه هي الحرية الحقيقة لأنها ترتبط قبل كل شيء بالنفس وأن النفس الحرة هي أثمن ما يمكن أن يمتلكه الإنسان بل هي جوهر الإنسان الحق ودافعه الأول للسمو على العقبات والقيود الوهمية وربطه بالكمال الحقيقي.

ولكن هذا التحرر عمّا سوى الله لا يعني أن ينكر الإنسان أي فضلٍ للمخلوقات وللآخرين الذين يتعاملون معه، فلا يشكرها ولا يحسُّ لها بجميل ومنة مطلقاً.

كلاً فإن الإسلام دعا أيضاً لشكر المخلوق في طول شكر الخالق، وجعل جزاء الإحسان هو الإحسان، لئلا يضيع المعروف، وليقوم الترابط العاطفي بين المخلوقات ـ وخصوصاً بين المخلوقات الشاعرة ـ فيتم تبادل التعاون وعملية الاستخدام الإنساني لصالح المسيرة الكمالية ككل.

إن هذا التوازن النفسي يعبِّر عن واقعية إسلامية لا نظير لها، حيث يطلب القرآن أن يشكر الإنسان لوالديه مثلاً:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[٣].

﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[٤].

ولقد جاءت الأخبار التي تؤكد ذلك من قبيل:

ما عن السجاد عليه السلام: «أشكركم لله أشكركم للناس».

---

١. الفاتحة: ٥.

٢. التوبة: ٣١.

٣. لقمان: ١٤.

٤. الاسراء: ٢٤.

وما عن النبي ﷺ قال: «يؤتى بعبد يوم القيامة فيوقف بين يدي الله عزَّ وجل فيأمر به إلى النار فيقول: أي ربِّ أمرت بي إلى النار وقد قرأت القرآن! فيقول الله: أي عبدي إني أنعمت عليك ولم تشكر نعمتي، فيقول: أي ربِّ أنعمت عليَّ بكذا شكرتك بكذا، وأنعمت عليَّ بكذا فشكرتك بكذا. فلا يزال يحصي النعم ويعدد الشكر فيقول الله تعالى صدقت عبدي إلا أنك لم تشكر من أجريت لك نعمتي على يديه، وإني قد آليت على نفسي أن لا أقبل شكر عبد لنعمة أنعمتها عليه حتى يشكر من ساقها من خلقي إليه...»[1].

ثالثاً: موقف الأمل بالله تعالى مع الاطمئنان ببقاء السنن الكونية

فإنه على ضوء إيمان المسلم بطلاقة المشيئة الإلهية ينشدَّ بالله تعالى في حالاته، ويتعلَّق بفضله، ولا ييأس من روح الله تعالى في أشد حالات الحرج. ومهما استعصت الظروف وبدا له أنها لن تنفرج فهو معتقد بقدرة الله على تغييرها، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فهو يعمل على سلوك السبيل الطبيعي الذي يحقق الهدف، نظراً لأنه يعتقد بأن الله «أبى أن يجري الأمور إلا بأسباب» وهاتان الجهتان: عدم اليأس، وسلوك السبيل الطبيعي، تشكلان عنصرين مهمَّين تتوازن بهما الشخصية الإنسانية. فعدم اليأس يبقى الدافع الأصيل ويحافظ على رباطة الجأش، ولا يدع القوى تتفتت. وسلوك السبيل الطبيعي يرتفع بالإنسان عن العيش في الخيال، ويجعل منه إنساناً واقعياً يتعامل مع الواقع كما يتطلبه الواقع.

رابعاً: موقف التوكل على الله والثقة بالنفس

ولعل هذا النوع من التوازن يرتبط كل الارتباط بما قبله، فإن اعتقاد المسلم بالإرادة الإلهية المطلقة يجعله يوكل أموره إلى الله، ويعتقد أنه لا يملك من أمره شيئاً إلا بإذن الله تعالى فلا هداية إلا من الله تعالى؛ ولا توفيق إلا به تعالى، مما يركز النظر عليه في كل تأثير... إلاّ أن هذا التوكُّل على الله لا يفقده الثقة بنفسه وبقدرته على التغيير، بل يمنحه أعظم الثقة

---

١. سفينة البحار، باب الشكر.

بنفسه، ذلك لأنه يتصور أن الله تعالى منحه سلطان التغيير، وجعله خليفته على الأرض، يعمرها وينشئ فيها حضارة السماء أي الحضارة التي تشكل تعاليم السماء روحها؛ وأوكل إليه عملية التغيير الكبير.

فهو إذن إنسان يعقل ويتوكَّل، يغير ونظره مركَّز على السماء، يبني وهو يعلم أن المدد الحقيقي من الله تعالى. وما أروع الثقة المنبعثة في النفس التي تتوكَّل على الله تعالى خالق الكون فتقتحم الصعاب وتقدم التضحيات.

خامساً: موقف العلوّ على المشاكل التاريخية مع تقدير دور كل عامل

فبعد إيمان المسلم بأن العوامل المحركة للتاريخ مختلفة تتراوح بين القوانين التكوينية المحركة وغير المحسوسة إلى الفطرة بغرائزها، وفوق كل ذلك الإرادة الإنسانية التي تهيِّئ للإنسان مجال التحكم في مسيره... يكون قد علا على المشاكل التاريخية، بعد أن علم بأن له اختيار تنظيم حياته، وبيده صنع حضارته، فليست المشكلة التاريخية مفروضة عليه من الأعلى بحيث لا يمكنه أن يتحرك تجاهها، وإنما يمكنه ـ متى لاحظ عدم صلاح واقعه ـ أن يغيره.

وهذا التصور يعطيه حركية دائمة تعمل على التطوير والتقدم التكنيكي، كما تعمل على التكامل المعنوي والفكري، كل ذلك ضمن تخطيط سماوي رائد يوضح له ما يجب أن يريد ويرشده لئلا يضل، ويعين له الهدف الذي يجب أن يسوق التغيير باتجاهه.

ومن هنا فهو ليس عبداً لعامل تاريخي معين، ولا لكل العوامل، بل كل العوامل التاريخية مسخرة لصالحه، وكل القوانين التكوينية المحسوس منها وغير المحسوس قننت لصالحه، ويستطيع أن يستفيد منها في صنع حضارته ورقيه، تماماً كما يستفيد من قوانين: الضغط، والإزاحة، والجاذبية، هذا من جهة. ومن جهة أخرى فهو يحسب لكل عامل حسابه على ضوء التشريع الإلهي، فلا ينسى مثلاً دور العامل الاقتصادي ولا دور العامل الجغرافي أو العامل الغريزي الجنسي وغير ذلك، وهو يستهدي التشريع ليستثمر هذه العوامل لصالحه.

فهو هنا ـ إذن ـ يوازن بين تقدير عمل العوامل والعلو على جميع المشاكل التاريخية، فيكون واقعياً في سلوكه.

سادساً: موقف الدقة في اختيار سبيل الخير مع الحذر من سبل الشر

وذلك، لأنه لما كانت السبل كثيرة، والإغواءات متوفرة، والشيطان يقعد للإنسان بكل مرصد فإن الإنسان المسلم يصمم على خوض تجربة الحياة.. ويتأكد بين الحين والآخر من صحة اختياره متسلحاً بسلاح الوعي مستمعاً لإرشادات الوحي، متجنباً مزالق الضلال، مطمئناً بأنه ليس للشيطان عليه أي سلطان، وأن سعادته تكمن في رجمه ورجم كل ما يمثله. وتأتي التعاليم الإسلامية فتذكره بطرق الخير دائماً وأهمها العبادات التي تشده شداً بالله تعالى، وتركز على أن ينفي الشر عن حياته، وهذا ما يبدو بوضوح في رجم الجمرات مثلاً.

سابعاً: موقف الخوف والرجاء

ويكاد هذا النمط من التوازن يشكل معلماً بارزاً من معالم الشخصية المسلمة.

فعن الصادق عليه السلام أنه قال: «كان أبي يقول: ليس من عبد مؤمن، إلاّ وفي قلبه نوران، نور خيفة، ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا، ولو وزن هذا لم يزد على هذا»[١].

فالرجاء العظيم برحمة الله تعالى يدفع الإنسان المسلم نحو الحياة ويفتح قلبه للمستقبل، والخوف العظيم من عقابه يدفعه لأن يحقق مقتضيات الرحمة الإلهية.

ويرتفع مقياس الخوف والرجاء كلما تعمقا في النفس الإنسانية وتجلت لديها المعقولات فقربت من عالم الحس ـ كما سيأتي ـ ومن ثم انعكست على السلوك الخارجي.

كما يقول الإمام الصادق عليه السلام: «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو»[٢].

والملاحظ هنا ـ كما لاحظ ذلك بعض الكتّاب[٣] ـ أن الإسلام قبل أن يستفيد من خاصيتي الخوف والرجاء والتأثير بهما في النفس الإنسانية، لجأ إلى توجيههما الوجهة الصحيحة، فنفى كل متعلقاتهما الباطلة التي تحرف النفس عن الهدف، بل وتشكل مصدراً للقلق الممزِّق

١. الوسائل، ج ١، ص ٩٦.

٢. الوسائل، ج ١١، ص ١٧.

٣. منهج التربية الاسلامية، ص ١٥٧.

للنفس الإنسانية، المميِّع لكل تماسك وتوازن فيها، وهو الداء الذي ابتلي به الماديون ففقدوا توازنهم الروحي وعاشوا مع الخوف حتى من الأمور الوهمية.

نعم، نفى الإسلام تعلُّق الخوف بأُمور لا ينبغي الخوف منها، إلاّ في حدود الخوف من الأمر الصحيح. كما نفى الرجاء ولم يسمح له أن يتعلّق إلاّ في حدود الرجاء للأمر الذي ينبغي أن يرجى.

وبتعبير آخر: إن الخوف الحقيقي يجب أن يكون من عذاب الله وغضبه. والرجاء الحقيقي يكون لرضا الله ورحمته فكل خوف أو رجاء لا يؤطِّره هذان الأمران لا قيمة له في الحساب القرآني ويجب أن ينفى من حياة الإنسان، لأنه مصدر قلق بعد أن تعلِّق بأمور غير منضبطة بل وخرافية أحياناً.

وهانحن نستعرض أنماط متعلقات الخوف، لنؤكد هذه الحقيقة:

الخوف من الموت: قد يبدو لأول وهلة أنه خوف طبيعي، بل وتركزه النصوص إلاّ أنَّ الحقيقة هي أن الخوف من الموت بما هو موت لا معنى له في منطق الإسلام.. إن الموت في مفهومه هو نقلة من حياة صغيرة ملأى بالآلام، إلى حياة خالدة ملأى بكل ألوان النعيم، حيث ينكشف الغطاء فالبصر حديد. فممَّ الخوف إذن؟ ولم الخوف منه؟ مادام هذا الخوف لا تأثير له في تقديم أجل أو تأخيره ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾[١]. ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاء أَجَلُهَا﴾[٢]. و﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[٣]. و﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[٤].

فالخوف من الموت بما هو موت لا معنى له عند المسلم المؤمن، ولا فائدة فيه. إذن فممَّ يكون الخوف الحقيقي في هذا المجال؟

إنه يكون من (سوء العاقبة) ومن عدم التوبة حتى يأتي الموت ﴿لاَ يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ

١. آل عمران: ١٨٥.

٢. المنافقون: ١١.

٣. النساء: ٧٨.

٤. آل عمران: ١٥٧.

تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾[١].

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ﴾[٣].

فالخوف الحقيقي من الموت إنَّما يكون لأنه يشكل مانعاً من التوبة، ولأنه يذهب فرصة التقوى وتأثير الخوف من الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[٤].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«فاحذروا عباد الله الموت وقربه، وأعدوا له عدَّته، فإنه يأتي بأمر عظيم، وخطب جليل؛ بخير لا يكون معه شر أبداً، أو شرٍّ لا يكون معه خيرٌ أبداً، فمن أقربُ إلى الجنة من عاملها؟ ومن أقربُ إلى النار من عاملها؟ وأنتم طرداء الموت، إن أقمتم له أخذكم، وإن فررتم منه أدرككم، وهو ألزمُ لكم من ظلِّكم, الموت معقود بنواصيكم، والدنيا تُطوى من خلفكم، فاحذروا ناراً قعرُها بعيد، وحرُّها شديد، وعذابها جديد. دارٌ ليس فيها رحمة، ولا تُسمع فيها دعوة، ولا تُفرَّج فيها كربة، وإن استطعتم أن يشتدَّ خوفكم من الله، وأن يحسن ظنكم به، فاجمعوا بينهما فإن العبد إنَّما يكون حُسن ظنه بربِّه على قدر خوفه من ربّه، وإنّ أحسنَ الناسِ ظنّاً بالله أشدُّهم خوفاً لله»[٥].

وهناك روايات كثيرة تركِّز على أن الخوف الحقيقي إنَّما يكون من (سوء العاقبة) وذهاب الفرصة لأنه هو الذي يبعث على الالتزام بالتشريع، ويعمِّق الرجاء في النفس في تلاحم عجيب بينهما.

---

١. الانعام: ١٥٨.

٢. النساء: ١٨.

٣. آل عمران: ٩١.

٤. آل عمران: ١٠٢.

٥. نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٣٨٤.

الخوف من فقدان الرزق: فلا داعي للخوف من فقدان الرزق أيضاً ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[١]. و﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[٢]. و﴿وَكَأَيِّن مِن دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٣].

إن الخوف من فقدان الرزق يشكل جزءاً من أجزاء الخوف من المستقبل المجهول عند الماديين، وهو الباعث على القلق ـ كما أشرنا سابقاً ـ أمّا والمستقبل معلوم مضمون، وخصوصاً في مجتمع متكافل ومتوازن اقتصادياً وحقوقياً فلا معنى لذلك.

نعم، ينبغي التحسُّب للمستقبل، والعمل على الرقيِّ الماديِّ والإبداع لإيصال الأمة إلى أعلى درجات الكمال، فإن هذا أمر يندب إليه الإسلام. ولكن إذا لم يتوفر في حالة من الحالات ما يضمن ذلك المستقبل يجب أن لا ييأس المسلم مطلقاً ولا يخاف من فقدان الرزق فإنه مقدر له.

وهكذا نجد من خلال هذين النموذجين أن كل خوف لا يرتبط بالخوف من الله تعالى ينفى ويركز على الخوف من الله فقط.

ونفس الأمر نلاحظه في جانب الرجاء فإن كل رجاء يتعلق بأمور قصيرة المدى لا يعتبر رجاءً صحيحاً إلا في حدوده الخاصة، وذلك كرجاء المال والبنين والجاه وباقي المتع المادية، فإنها أمور تطلبها النفس ولا يمنعها الإسلام من ذلك، إلا أنها يجب أن لا تكون هي متعلق الرجاء الأصيل. لذا فهو ينبِّه على قصر مداها وأنها ﴿زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٤]. وإنها لا تقاس بمتعلقات الرجاء الحقيقية: من رضا الله تعالى ونعمه.

ثامناً: الموقف المتوازن من الدنيا والآخرة

بعد إعطاء المسلم التصور الكامل عن الدنيا ومحدوديتها وانغلاقها وإغراءاتها، وعن الآخرة وخلودها وحياتها الحقيقية وانكشاف الواقع فيها، وبعد بيان العلاقة الدقيقة بين

---

١. الذاريات: ٥٨.

٢. الذاريات: ٢٢.

٣. العنكبوت: ٦٠.

٤. الكهف: ٤٦.

الحياتين يتمهد الطريق لتحديد الموقف من كل منهما ويتلخص الموقف في ما تقوله الآية الكريمة: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[١].

فيكون الهدف المقصود الآخرة، والرضوان الإلهي روح الحياة الآخرة، والخلود في ظلِّ هذا الرضوان هو الجذبة الكبرى والمحقق للطموح الإنساني الأبعد.. وليس الفوز بالآخرة والعمل لها في حساب التصور الإسلامي إلاّ أن يكون المسلم إنساناً يعمل على تحقيق آمال الإنسانية المتكاملة ويضحِّي بكل غالٍ ورخيص في سبيل تعبيدها لله عقائدياً وسلوكياً، ودفع عجلة حضارتها إلى الأمام في ظل توجيهات السماء.

وإذا كانت الآخرة هي الهدف عادت الدنيا وسيلة لتحقيق الهدف.. فإذا رجعنا إلى التصور السابق عن الربط القويِّ بين الدنيا والآخرة؛ عرفنا ما يبعثه هذا الترابط من تسخير المسلم حياته الصغرى هذه كلَّها لصالح الإنسانية، ولصالح إعمار الأرض وتحقيق خلافة الله فيها، فلا تعود الدنيا سوى منظار للآخرة:

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «البصير منها متزود، والأعمى لها متزود»[٢].

ويقول عليه السلام أيضاً: «من أبصر بها بصّرته، ومن أبصر إليها أعمته»[٣].

وعند هذا تصبح الدنيا «نعم العون على الآخرة» كما قال الإمام الصادق عليه السلام[٤].

ويقول أيضاً: «فاحذروا الدنيا فإنها غدارة خدوع، معطية منوع، ملبسة نزوع، لا يدوم رخاؤها، ولا ينقضي عناؤها، ولا يركد بلاؤها»[٥]. ويصف الزّهاد بعد ذلك فيقول: «كانوا قوماً من أهل الدنيا وليسوا من أهلها، فكانوا كمن ليس منها عملوا فيها بما يبصرون، وبادروا فيها ما يحذرون، تقلب أبدانهم بين ظهراني أهل الآخرة، ويرون أهل الدنيا يعظمون

---

١. قصص: ٧٧.

٢. نهج البلاغة، صبحي الصالح، ط ١٣٣، ص ١٩٢.

٣. المصدر السابق، ط ٨٢، ص ١٠٦.

٤. وسائل الشيعة، ج ١٢، ص ١٦ نقلاً عن الكافي.

٥. نهج البلاغة، صبحي الصالح، ط ٢٣٠، ص ٣٥٢ و ٣٥٣.

موت أجسادهم وهم أشد إعظاماً لموت قلوب احيائهم»[١].

ويقول عليه السلام: «أيها الناس إنما الدنيا دار مجاز والآخرة دار قرار، فخذوا من ممركم لمقركم ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم، من قبل أن تخرج منها أبدانكم ففيها اختبرتم ولغيرها خلقتم، إن المرء إذا هلك قال الناس: ما ترك؟ وقالت الملائكة ما قدم؟ لله آباؤكم! فقدموا بعضاً يكن لكم فرضاً، ولا تخلفوا كلاً فيكون فرضاً عليكم»[٢].

هذه هي روح النظرة إلى الدنيا... وتلك هي آثارها. إلاّ أن هذه النظرة لا ينبغي أن تصل إلى حد ينسى فيه نفسه وغرائزها ومتطلباتها الذاتية.. كلاّ فإنَّ ذلك يعني من جهة أخرى نوعاً من عدم الانسجام مع الواقع الفطري، فالغرائز جزء من الفطرة ومن هنا طلب إلى المسلم أن لا ينسى نصيبه من الدنيا، أي من المتع المادية التي يشبع بها متطلبات غريزته مع تشويقه بحدٍّ أعلى لأن يؤطر هذا الإشباع المادي نفسه بإطار الآخرة وقصد القربة فيه إلى الله تعالى. يقول النبي صلى الله عليه وآله لأبي ذر (رحمه الله): «إن استطعت أن لا تأكل ولا تشرب إلا لله فافعل»![٣].

وقال الصادق عليه السلام:

«ما كان عبد ليحبس نفسه على الله إلا أدخله الله الجنة»[٤].

فإذا ضمن الإنسان لنفسه هذا المستوى أو ما يقرب منه، ضمن لنفسه صفة هي أعظم صفات المسلم، وهي الزهد، فقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام قوله:

«ليس الزهد في الدنيا بإضاعة المال ولا بتحريم الحلال، بل الزهد في الدنيا ألاّ تكون بما في يدك أوثق بما في يد الله».

فهو يشبع لذته مع وعيه التام بأنه هو المسيطر، وإن هذا الإشباع إنما هو لأجل أن يحيا فيحيي مبادي الحق، وأمثال ذلك.

---

١. المصدر السابق، ط ٢٠٣، ص ٣٢٠ و ٣٢١.

٢. الفتاوى الواضحة، ٦١٣.

٣. الامالي للشيخ المفيد، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية، قم المقدسة، المطبعة الاسلامية،ص ٣٥٠.

٤. سفينة البحار، ج ١، ص ٥٦٨.

وبهذا يحصل التوازن الصحيح بين الموقفين بل يتَّحد الموقفان في موقف واحد تشبع به الروح حتى ترتوي، ويشبع به الجسم بمقدار ما يحقق له أفضل مايريد، دون تحقيق كل ما يريد.

وبهذا يتضح: أن الإسلام يحقق التوازن الصحيح، ويضرب عرض الجدار النظريات المتطرفة المتفاوتة في التطرف ويحقق الانسجام الكامل بين الحياتين.. وهذا يبدو بوضوح من كتاب كتبه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام إلى محمد بن أبي بكر وصف فيه حال المتقين ومجتمعهم جاء فيه:

«واعلموا عبادالله: أن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت، فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبرون، ثم انقلبوا عنها بالزاد المبلغ، والمتجر الرابح. أصابوا لذة زهد الدنيا في دنياهم، وتيقَّنوا أنهم جيران الله غداً في آخرتهم. لا تردُّ لهم دعوة، ولا ينقص لهم نصيب من لذة»[1].

تاسعاً: موقف التوازن في تقدير عمل أنواع الهداية

مرَّ بنا أن الله تعالى أودع في الغريزة دوافع تؤثر في دفع الإنسان نحو هدفه، وأعطى الإنسان عقلاً وإرادة يسيطر بهما على الغرائز، وأعطاه الوحي هادياً للعقل ومخطّطاً؛ لتقويته وإرشاده إلى الهدف.

وبمعرفة الإنسان لذلك الواقع يتحدَّد موقفه منه... فهو من جهة لا يكبت تلك الغرائز بل ينفِّس عنها بمقتضى إرادته وطبق منهج تطبيقي موحى به من السماء ضمن تخطيط تشريعي عام موحَّد للحياة. فالموقف إذن يختصر بمايلي:

أ. امتلاك أزمَّة السيطرة على الغرائز من قبل العقل والإرادة القويتين.

ب. فسح المجال لكل الغرائز لتعمل عملها، ولكن ضمن تخطيط معيَّن.

ج. استيحاء السماء في حدود الفسح، وكيفيته، قبل كلِّ شيء، فالاعتماد الأساس هو على الشريعة لا غير... وبذلك يتحقَّق انسجام نفسي عقائدي كوني مع الهدف الذي خُلق الإنسان لأجله. وسيأتي تفصيل أكثر عند الحديث عن التوازن التشريعي.

---

١. نهج البلاغة، الرسالة ٢٧، صبحي الصالح، ص ٣٨٣ و٣٨٤.

عاشراً: موقف التوازن بين البرهنة والتعبد والتسليم

بملاحظة التوازن بين مصادر المعرفة من جهة، وموقف الإسلام الواضح المعلن برفض التقليد الأعمى في كل شيء من جهة أخرى، يتحدد نوع رائع من التوازن الأساس في حياة الإنسان، يعنون بعنوان: (التوازن بين البرهنة، والتسليم التعبدي) ولكن كيف يتم التوازن بينهما مع أنهما يبدوان متناقضين بادي الأمر؟ أن الإسلام بتحقيقه التوازن بين هذين الأمرين يحقق كرامة الإنسان الواقعية، فلا يقهر الإنسان حتى لا حراك به، ولا يطلقه كل الإطلاق حتى يهوي في مهاوي سحيقة ﴿فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[1].

وهذان التطرفان ابتليت بهما الإنسانية في صور مختلفة وكان آخرها الصورة (الماركسية) صاحبة نداء التفكير الحزبي اللاموضوعي، وهكذا باقي المبادي التجريبية التي تدَّعي أنَّ التجربة حلت لهم كل ألغاز التاريخ والكون.

وتبدأ الخطوط الأولى في موقف الإنسان المسلم من الواقع بأن يطلب إليه: أن يرفض أي تقليد في أي شيءٍ كان، رفضاً بناءً أي ساعياً نحو الحقيقة، لا أن يتحوَّل إلى إنسان يمتهن الشك حرفة في الحياة. فالحاكم في هذه المرحلة هو العلم الوجداني ليس إلاّ، والأصل العام هو الشك مالم يقم العلم على نفيه: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[2]. وأول شيء يتعلق به الشك البنّاء هو العقيدة. لأنها أساس التصورات والسلوكات الحياتية.. فتعرض كل العقائد الموروثة على محك العقل والفطرة (الوجدان).

فإن تمَّ التسليم بها وثبت صدقها؛ ينتقل إلى المرحلة الثانية.

فتفصيلات العقيدة المتفرِّعة على الإيمان بالوحي تعطى كواقع قائم ينبغي للمسلم التسليم به ولكنها تؤطر بأطر برهانية تركّزها في النفس إطمئناناً، بعد أن تركَّزت تسليماً، وذلك لكي تكون أفعل في النفس وأشد انعكاساً في السلوك.

والإسلام إذ يرجع للبرهنة والعقل كل عقائده الأساس مطمئن إلى أن التفكر الموضوعي

---

١. الحج: ٣١.

٢. الاسراء: ٣٦.

ـ وحتى ما كان مخلوطاً بشيء من الذاتية ـ يقود إليه حتماً.. فإذا تمَّ الإيمان بالله تعالى والنبوَّة ـ وهما أساس العقيدة ـ إنتقلنا إلى مرحلة تالية يكون الأصل فيها (التسليم المطلق)، والعمل بإرشادات الوحي، والالتزام حتى بالظواهر اللفظية له، مالم يقم دليل قاطع على صرف هذه الظواهر إلى خلافها.

وفي المرحلة التالية للإيمان بالوحي الصادق ـ وحيث يكون التسليم هو الأصل ـ نواجه أموراً عقائدية ومفاهيمية، وأخرى تنظيمية.

فعقيدة الآخرة مثلاً، وهي من أعظم العقائد المتفرعة على الإيمان بالوحي ـ إن لم نقل إنها من العقائد التي تسبق الوحي نفسه ـ لتستقر في خلد الإنسان بشكل فطري. هذه العقيدة لا تعطى بشكل جاف قاس لا يمتلك أية برهنة، بل يسلك الوحي في سبيل تركيزها في النفس مسالك البرهنة والإقناع والتمثيل وغيرها.. وهكذا قل عن صفات الله تعالى البعيدة الغور. وتكون العقيدة بالتالي بمجموعها عقيدة برهانية خالصة، قام بعضها قبل الوحي، وساعد الوحي مساعدة أساس على الإيمان بالبعض الآخر. وكذلك قل بالنسبة للمفاهيم، وإن كان عنصر التعبُّد في المفاهيم يبرز بصورة أكثر وضوحاً.

أمّا إذا انتقلنا إلى عالم التشريع: فإن التعبد والتسليم يكونان أساساً رصيناً من أسس الشخصية المسلمة، حتى أنهما قد يغطيان على باقي الأسس فيدعى المسلم لأجلهما مسلماً باعتبار تسليمه المطلق لله تعالى، وإن كمال إسلامه وإنسانيته؛ بكمال عبوديته وتسليمه لله.

ويستمد أصل التسليم في هذا المجال واقعه من حقائق لا يمكن إنكارها:

أولاها: علم الله اللامحدود بكل الأمور التكوينية والاحتياجات الإنسانية، وإشباعها العادل المتوازن الصحيح.

ثانيتها: لطف الله ورحمته بالإنسان، فلا يريد له إلا صلاحه وتحقيق ما يوصله إلى هدفه الذي وضع له، أيضاً بمقتضى الرحمة الإلهية.

ثالثتها: عدم إمكان اطلاع الفكر الإنساني على كل الحقائق الكونية.. بل عدم إمكان أطلاع الإنسان ـ عدا نخبة ممتازة من البشرية ـ على عمق بعض المعاني أو أكثر المعاني، وحتى ما يرتبط منها بالقوانين العلمية القريبة إلى حياة الإنسان ولعل هذا هو أحد أسرار وجود

المتشابه في آيات القرآن الكريم[١].

رابعتها: وإذا أمكن للإنسان أن يطلع على الحقائق فإنّه عاجز تماماً عن ملاحظة علاقاتها وتحقيق التوازن بين أنماط إشباعها.

وغير ذلك من الحقائق التي تفرض حاجة البشر إلى الهداة الإلهيين. ومن هنا كان التسليم هو الأساس في هذا المجال.

إلا أنَّ الشريعة دأبت على إعطاء بعض الحِكَمِ ـ مهما أمكن ـ لتشريعاتها، وذلك لكي تضمن مستوى وعي المسلم لهدف العمل أثناء القيام به. كما أن من الممكن استكشاف بعض الحِكَمِ بعد الاطلاع على روح التشريع الإسلامي وخصائصه العامة.

إلاّ أنه رغم كل هذا تبقى للتعبد ـ والاكتفاء بالاطّلاع الإجمالي العام على أن في الأمر مصلحة ما ـ مساحة واسعة.

ومن هنا نعرف: أن الحملة الواسعة التي يقودها بعض الكتّاب الإسلاميين في هذا العصر، والتي تؤكد على أن تكتشف كلُّ الحِكَم والعلل التي دعت إلى جعل الأحكام ـ ولو اكتشافاً تحكمياً ـ وتصبغ كل الأحكام وفق ما يحلو لها، وتؤطرها بإطارات اجتماعية قد تسيل لعاب الشباب، وتشبع نهمه، دون أي دليل أو برهان علمي على ذلك.. وتحاول حصر نطاق التعبد في مجالات ضيقة، أي يبلغ بها الأمر أن تنفيه من تصور المسلم حتى في أخطر مساحات وجوده... نعرف أن مثل هذه الحملة توجه قبل كل شيء إلى صميم الشخصية الإسلامية.. وتنفي أهم جانب فيها، فهي انحراف أساس عن التصور الإسلامي. يجب العمل الفكري الجاد على اكتساحها. ولا يتم هذا الاكتساح إلاّ بالقيام بعملية تقييم جديد للتصور الإسلامي، وتحسيس أكبر بالنقاط المؤثرة في تنمية الحس الغيبي في تصور المسلم، وتركيزٍ أقوى على منابع التعبُّد.

والحقيقة: أن هذا الاتجاه اتجاه تطرُّفي يقابله اتجاه تطرُّفي معاكس: ينظر إلى الأحكام كلها نظرة التعبد، ولا يهمه منها إلا الأداء الشكلي دون التفات إلى الهدف، ومن هنا يهبط مستوى الأداء هبوطاً مزرياً، فهو يدعو ويصلّي ويحجُّ ويقرأ القرآن دون أن يستهدف أهدافها، أو

---

١. راجع مقالنا «الحكمة في وجود المتشابه في القرآن الكريم» في مجلة الهادي، العدد:٣، ص ٣١، السنة الخامسة.

يدرك أبعادها الاجتماعية الكبرى في بناء الحياة الإنسانية هذا وربّما كان الدافع إلى هذه النظرة نظرة منحرفة أخرى تقول بفصل الدين عن الحياة والسياسة. وهي نظرة يمهد لها الجهل ويسبقها، وينمّيها الاستعمار البغيض.

والموقف المتوازن من الأمر هو: أن نلتفت قبل كل شيءٍ إلى الحكمة العامة من التشريع عند أداء كل حكم، وهي ـ كما مرّ ـ الكمال، والمعرفة، والعبودية فلا نؤدّي الحكم بشكل نقطع معه بأنه ضد هذه الأهداف.

ومن ثم نلاحظ وجوه الحكمة الصحيحة للأحكام، ونستهدفها عند الأداء ويمكننا معرفة وجوه الحكمة عبر طرق:

منها: أن تأتي النصوص فتشير إلى ذلك، مثل: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ﴾[1] ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ﴾[2]. وأمثالهما مما ورد في تعليل الأحكام مما جمع بعضاً منها المرحوم الشيخ الصدوق (ره) في كتابه (علل الشرايع).

ومنها: الاستقراء المؤدي إلى القطع، وبما يسمى (روح الشريعة) وهو مجال دقيق يحتاج إلى تتبع اجتهادي عميق حتى يحصل به القطع. وقد يمثل له بأننا نجد الشريعة تؤكّد على تربية التعقل والإرادة الإنسانيين في كثير من أحكامها، فإذا وجدنا حكماً يرتبط بذلك أمكننا أن نطمئن إلى أنه إحدى الحِكَم المتوخّاة.

ومنها: أن يكون هدف الحكم عرفياً جداً يوجد ظهوراً في اللفظ، كما يستفاد من روايات «رفع عن أمتي» و«لا ضرر» وأمثالهما: إنها للامتنان قطعاً.

أساليب تربية التسليم في النفس:

ونستطيع أن نتبين ـ باختصار ـ أهم منابع التعبد بما يلي:

١. النصوص التي تدعو إلى التسليم مباشرة كقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[3].

---

١. العنكبوت: ٤٥.

٢. البقرة: ٤٥.

٣. البقرة: ٢٠٨.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ﴾[١]. وما يوصف فيها المؤمن بالإسلام: ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[٢]. وما يوصف فيها الأنبياء بالإسلام: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ﴾[٣]. ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً﴾[٤].

يقول الراغب الأصبهاني في (المفردات): «والإسلام في الشرع على ضربين:

أحدهما: دون الإيمان وهو: الاعتراف باللسان، به يحقن الدم، سواءٌ حصل معه الاعتقاد أم لم يحصل، وإياه قصد بقوله: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾[٥].

والثاني: فوق الإيمان وهو: أن يكون مع الاعتراف، اعتقاد بالقلب، ووفاء بالفعل، واستسلام لله في جميع ما قضى وقدَّر، كما ذكر عن إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٦].

وقد جاءت الروايات الكثيرة الداعية إلى التسليم لله في كل شيء ـ عرفت الحكمة فيه أم لم تعرف ـ فإن العلم الإجمالي بأن ما يأمر به الله وما يقدره هو الحق، كاف في تحقق الاندفاع.

فالتسليم ديدن الإنسان المسلم بعد أن عرف أن الأمر من الله العالم العادل الحكيم، وعلى هذا نجد الآية القرآنية التي تتحدث عن وجود المحكم والمتشابه في الذكر الحكيم تتبعه ببيان نوعين من الناس: فبعضهم: «يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة» والثاني: يسلم لله تعالى تمام التسليم، تقول الآية الكريمة:

﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ في قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاء تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الألْبَابِ﴾[٧].

---

١. آل عمران: ١٩.

٢. النمل: ٨١.

٣. المائدة: ٤٤.

٤. يوسف: ١٠١.

٥. الحجرات: ١٤.

٦. البقرة: ١٣١.

٧. آل عمران: ٧.

ولعل في إطلاق اسم (الإسلام)[١] على الدِّين الخاتم تأكيداً على أنَّ الدِّين يهدف ـ في أقصى مايهدف ـ إلى إيصال الإنسان إلى حد التسليم المطلق لله تعالى.

٢. النصوص القرآنية التي تحكي حالات الاستسلام الرائعة للأنبياء عليهم السلام، ولعل أروع حالات الاستسلام تلك التي يذكرها القرآن الكريم لسيدنا إبراهيم عليه السلام حيث يطلب إليه أن يتحمل الدعوة في عالم طغى عليه الكفر فيستسلم، ويطلب إليه أن يترك زوجته وفلذة كبده الحبيب في أرض لا زرع فيها عند بيت الله الحرام فيستسلم، ويطلب إليه أن يذبح ولده وهو يعني بالتالي ذبح كل عواطفه نحو ولده فيستسلم، وما أروع استسلام ولده إسماعيل أيضاً إذ يقول له أبوه: ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[٢]. وهكذا وبدون أي تردد يستسلم الإبن النبي ويجعل صبره على الألم بنفسه قائماً على إرادة الله تعالى.

والحقيقة: هي أن قصة العائلة الإبراهيمية هي قصة الإستسلام الكامل لله تعالى في تصرفاتها.. والرائع في الأمر: أن يربط القرآن الأمة الإسلامية ونبيها محمداً صلى الله عليه وآله بتلك العائلة الإبراهيمية، وقد سماها إبراهيم بهذا الإسم: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ﴾[٣]. والتي دعا لها إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان قواعد الكعبة: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَاتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ

---

١. المفردات، مادة سلم، ص ٢٤٥.

٢. الصافات: ١٠٢.

٣. الحج: ٧٨.

﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[١]. فيستجيب الله هذا الدعاء حيث يبعث الرسول الأكرم ﷺ فيقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٢].

وإن ربط عملية الحج بإبراهيم عليه السلام ليوضع الهدف الكبير من هذه العبادة الاجتماعية المهمَّة.

٣. النصوص التي تؤكد دوافع التعبُّد التي ذكرناها آنفاً، فإن الإيمان بها يدفع الإنسان للتسليم، وهي من أمثال: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[٣].

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ﴾[٤].

﴿إِنَّ اللّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٥] وهكذا كل النصوص التي تؤكد حكمة الله تعالى وأمره بالعدل والإحسان، وكذلك النصوص التي تتحدث عن جهل الإنسان ومقدار علمه: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[٦].

ولعل أروع قصة تتحدث عن جهل الإنسان بالحكم والروابط المتحكمة في الكون، وأن عليه بالتالي أن يسلم لأوامر الله العليم اللطيف؛ هي قصة (موسى عليه السلام) والعبد الصالح، فرغم أن موسى كان من المقرَّبين الصالحين الواعين.. إلا أنه كانت تحدث أمامه حوادث واضحة بالنسبة إليه فيظنها ظلماً بل يقطع بذلك، إلاّ أن الواقع الذي علمه ذلك الرجل الصالح كان يطالعه بحقائق تقلب تصوره رأساً على عقب.

وقد صرحت الآيات الكريمة بحالات الاشتباه الكثيرة التي تصيب الإنسان فينقلب عليه الحساب: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾[٧].

---

١. البقرة: ١٢٥ ـ ١٢٩.

٢. الجمعة: ٢.

٣. الانعام: ٥٩.

٤. يونس: ٦١.

٥. الحج: ٦٥.

٦. الاسراء: ٨٥.

٧. البقرة: ٢١٦.

﴿فَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[١].

﴿قُلْ عَسَى أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ﴾[٢].

﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾[٣].

٤. الغيبية التي تربيها العبادات في تفاصيلها:

وهذه ظاهرة عامة في العبادات، إذ أنه كثيراً ما يطّلع الإنسان إجمالاً على الحكمة العامة من العبادة ككلّ، إلاّ أنه تبقى هناك تفصيلات كثيرة في العبادة يجهل حكمتها، ولكنه يؤمر بأدائها، وذلك ينمي في نفسه روح الطاعة والاستسلام «فكما تنمّي وترسَّخُ روح الطاعة والارتباط في نفس الجندي من خلال التدريب العسكري، بتوجيه أوامر إليه وتكليفه بأن يمتثلها تعبداً وبدون مناقشة، كذلك ينمّى ويرسخُ شعور الإنسان العابد بالارتباط بربه بتكليفه بأن يمارس هذه العبادة بجوانبها الغيبية انقياداً واستسلاماً. فالإنقياد والاستسلام يتطلب افتراض جانب غيبي، ومحاولة التساؤل عن هذا الجانب الغيبي من العبادة، والمطالبة بتفسيره وتحديد المصلحة فيه، يعني تفريغ العبادة من حقيقتها كتعبير عملي عن الاستسلام والانقياد، وقيامها بمقاييس المصلحة والمنفعة، كأيِّ عمل آخر»[٤].

إلى غير ذلك من وسائل وسبل سلكها الإسلام لتربية الاستسلام في الإنسان.. وبدونه لا يمكن للقانون أن ينجح ويطبق.

الفرع الثاني: التوازن في المجال التشريعي

في القسم الأول: تحدثنا عن كليات التوازن في الصورة الإسلامية عن الواقع.

وفي القسم الثاني: كان الحديث اولاً عن مجمل المواقف المتوازنة التي يتخذها المسلم من الواقع.

---

١. النساء: ١٩.

٢. النمل: ٧٢.

٣. الحجرات: ١١.

٤. الفتاوى الواضحة، الشهيد الصدر، مطبعة الآداب في النجف الاشرف، ط ٢، ص ٦٠٩.

وهنا نحاول الالتفات إلى التشريعات التفصيلية لنضع أيدينا على ما يوضح لنا بشكل أكبر نوعية التوازن في الإسلام.

ويحسن بنا ـ ونحن نريد استعراض التوازن هنا ـ أن نطرح البحث على صعد:

الأول: عام، ويتناول سمات التوازن العامة.

الثاني: خاص، ويتعرض لبعض سمات التوازن في كل نظام.

الثالث: لتوضيح العلاقة بين التوازن والوسطية.

البحث الأول: خطوط عامة في التشريع ترتبط بالتوازن:

ونستطيع أن نذكر أهمها فيما يلي:

الخط الأول: التوازن بين التشريع وأرضيته

وتعتبر هذه السمة من أكبر ملامح الواقعية الإسلامية، لأنها تنسجم مع مبدأ ربط المسألة الاجتماعية بالمسألة الفلسفية، فلا يمكن إقامة النظام الاجتماعي مالم تُحَلَّ مسبقاً المسألة الفلسفية، وتحدد النظرة إلى الواقع. ومن هنا رأينا في القسمين السابقين أن الإسلام يكوِّن للإنسان المسلم نظرة معينة للواقع، ويحدِّد على أساسها موقفه من هذا الواقع المعلوم بحيث ينسجم مع تلك النظرة.

وبعد حل الجانب العقائدي والتصوري، أعدَّ الإسلام للتشريع أرضية مساعدة لتطبيقه، وتشكل العقيدة أسسها كما تُشكِّلُ المفاهيم قسمها العلوي، والعواطف اللازمة ثمارها ونتاجها الطبيعي الذي يأثر تأثيراً كبيراً في الدفع نحو التطبيق.

فعلى ضوء من نوعية العقيدة والمفاهيم القائمة عليها والعواطف المتفرعة يأتي التشريع المنسجم مع ذلك بشكل يجعله إلى حد ما نتاجاً طبيعياً لتلك الأرضية.

وتعمل النصوص الإسلامية على أن يلتفت الإنسان إلى الربط، أي تعمل على تحسيسه به عملاً حثيثاً.

ونستطيع أن نتعرف على أساليب هذا التحسيس في موارد كثيرة:

منها: التأكيد الشديد على ربط الإيمان بالعمل من جهة، والتأكيد على أن تسبق العمل ـ

بصفة عامة ـ نية خالصة من جهة ثانية. أما بالنسبة للجهة الأولى فقد كثُرت النصوص المختلفة التي تؤكد هذا الربط، من مثل:

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾[١].

﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾[٣].

وغيرها كثير جداً.

والرائع في الأمر: أننا نجد أن طبيعة الإنسان لا تتحمل التناقض بين العقيدة والعمل، وإنما تطمئن إذا انسجم الأمران، فإذا جمعنا هذه الحقيقة إلى حقيقتين أخريين هما: كون عقيدة الإنسان تنزع لتأييد فطري داخلي فيه، وأن الفطرة تحوي في أعماقها ما تؤهل به الإنسان للارتباط بالكامل المطلق والسعي نحو ذلك الكمال.. وجدنا أن يد الهداية تسوق الإنسان غاية ما يمكن السوق إلى كماله.

وعلى أيِّ حال، فإن الإنسان يبقى متوازن الشخصية ما انسجمت عقيدته مع عمله.. وحينما يبدأ الافتراق يقع القلق أو العبثية. أما القلق: فمن الوخزات التي تصيبه بها العقيدة إن لم ينسجم معها العمل، إذا كانت عقيدة هادفة. وأما العبثية: فمن شعور الإنسان الذي يعلم عملاً ملتزماً به ـ ولا يعتقد بوجود ملزم به ـ بأنه إنما يفعل العبث وأن الواقع هو من باب التزام مالا يجب.

وواضح: أن القلق والعبثيَّة يعوقان شخصيَّة الإنسان ويحوِّلانه لصالح أحد الطرفين في النهاية، فإمّا أن تنقلب العقيدة لصالح العمل: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُون﴾[٤]. على أحد وجهي تفسير الآية. ﴿بَلَى مَن كَسَبَ

---

١. البقرة: ٨٢.

٢. العصر: ١ ـ ٤.

٣. فصلت: ٣٠.

٤. الروم: ١٠.

سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[١] ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾[٢]. ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٣] و﴿هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ﴾[٤] و﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾[٥]. أو ينقلب العمل لصالح العقيدة، كما رأينا في أولئك الذين أنعم الله عليهم بالتوبة والرجوع إلى الصراط المستقيم الذي كانوا قد اعتقدوا به.

والواقع: أن العمل غير المنسجم مع العقيدة يهيئ النفس شيئاً فشيئاً نحو العقيدة المضادة بعد أن يفقد حزازته التي يتصف بها في المرات الأولى، ولهذا فإن من علامات الانحراف الشديد فقدان الحزازة النفسية من المعصية:

جاء في وصايا النبي ﷺ لأبي ذر (ره):

«إنَّ المؤمن ليرى ذنبه كأنه صخرة يخاف أن تقع عليه، وإن الكافر يرى ذنبه كأنه ذباب مرَّ على أنفه».

وأيضاً: «يا أبا ذر: إنَّ الله تبارك وتعالى إذا أراد بعبد خيراً جعل ذنوبه بين عينيه ممثلة والإثم عليه ثقيلاً وبيلاً، وإذا أراد بعبد شراً أنساهُ ذنوبه».

وأيضاً: «إنَّ المؤمن أشدُّ ارتكاضاً من الخطيئة من العصفور حين يقذف به في شركه»[٦].

وقد جاءت أخبار تؤكّد مضمون: أن العبد إذا أذنب نُكت في قلبه نكتة سوداء حتى يظلم القلب.

هذا في حين أن الإيمان والعمل لو كانا منسجمين كان كلٌّ منهما يعمق الآخر، فإن العمل الصالح يعمق الإيمان ويرسّخه في النفس الإنسانية، ويجسد معطياته وتأثيراته.. وذلك عندما

---

١. البقرة: ٨١.

٢. المطففين: ١٢.

٣. المطففين: ١٤.

٤. الرحمن: ٤٣.

٥. الماعون: ١ـ ٢.

٦. مكارم الاخلاق، الطبرسي، منشورات الاعلمي، بيروت، ص ٤٦٠.

يواجه الإنسان نتائج ذلك الإيمان حسّاً في وجوده يتفاعل معها؛ في حين لا يمكن الارتياب في أنَّ تعمُّق الإيمان في النفس يمنع العمل إتقاناً وإصراراً وبعد هدف، فيتحوَّل بالتالي إلى حالة أرقى.

ومن هنا جاءت النصوص الشريفة لتؤكد أن الإيمان بلا عمل كشجرة بلا ثمر، وأنه لا خير في إيمان لا عمل معه كما لا خير في عمل لا إيمان معه، وأن العمل مهما علت نتائجه يحتاج إلى سبق إيمان بالحقيقة. وهي الجهة الثانية التي تؤكد على نية الإنسان وأنها خير من عمله، وأن الأعمال تقاس بالنيات. وهي جهة يركز الإسلام عليها ـ كما مر ـ ويؤكد على أن تكون حياة المسلم كلها مسبوقة بنية خالصة وإيمان حي نابض بالحياة، وقد جاء في وصية النبي صلى الله عليه وآله لأبي ذر:

«إن استطعت أن لا تأكل ولا تشرب إلا لله، فافعل» وفي تعبير آخر له صلى الله عليه وآله .

«ليكن لك في كل شيء نية صالحة حتى في النوم والأكل».

وهكذا لا ينظر في مجال النية إلى كمية العمل فكيفيته هي الأهم، يقول صلى الله عليه وآله : «يا أبا ذر؛ كن بالعمل بالتقوى أشدَّ اهتماماً منك بالعمل فإنه لا يقل عمل بالتقوى، وكيف يقلُّ عمل تقبّل! يقول الله عز وجل ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾[١].

«يا أبا ذر: إن الله تبارك وتعالى لا ينظر إلى صوركم، ولا إلى أموالكم وأقوالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم».

«يا أبا ذر؛ التقوى هاهنا. التقوى هاهنا» وأشار إلى صدره الشريف.

ومنها: النصوص التي تؤكد على الربط بين العلم، والقول والفعل:

﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[٢]. وجاء في وصية النبي صلى الله عليه وآله لأبي ذر:

«ومن وافق قوله فعله فذلك الذي أصاب حظه، ومن خالف قوله فعله فإنما يوبق نفسه»[٣].

وقد كتب الإمام المؤمنين عليه السلام إلى بعض عمّاله وقد بعثه على الصدقة.

---

١. المائدة: ٢٧.

٢. الصف: ٣.

٣. مكارم الاخلاق، الطبرسي، منشورات الاعلمي، بيروت، ص ٤٦٠ ـ ٤٦٩.

«أمره بتقوى الله في سرائر أمره وخفيّات عمله، حيث لا شهيد غيره، ولا وكيل دونه، وأمره ألاَّ يعمل بشيء من طاعة الله فيما ظهر، فيخالف إلى غيره فيما أسر، ومن لم يختلف سره وعلانيته وفعله ومقالته، فقد أدَّى الأمانة وأخلص العبادة»[١].

ويقول: «وإن العالم بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله، بل الحجة عليه اعظم، والحسرة له ألزم، وهو عند الله ألوم»[٢].

وفي وصف المتقي: «يمزج الحلم بالعلم والقول بالعمل»[٣].

ومنها: النصوص التي تؤطر التشريعات بإطار العقيدة والتقوى، إذ تخاطب المكلَّفين بخطاب (الذين آمنوا) تركيزاً لأرضية التشريع، ثم يقال بعد ذلك: إن التشريع استهدف التقوى والفلاح والشكر لله تعالى.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٤].

﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ وَاللّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٥].

الخط الثاني: الوحدة والتوازن في تطبيق كل الأنظمة الإسلامية

لوجود الترابط القوي بين مختلف الأنظمة الإسلامية، والقائم على أساس الضرورة التي دعت لأن يتوازن عمل الإنسان مع الضرورات الكونية اللازمة... دعا الإسلام بقوة إلى وحدة التطبيق التشريعي، بعد أن ربط ربطاً قوياً بين العقيدة والعمل.

وتكفي نظرة سريعة في النظم الإسلامية المختلفة، للحكم بأنها مترابطة تمام الترابط. ذلك وأن تطبيق بعض دون بعض سوف لن يؤدي إلى النتيجة المطلوبة. وقد جاءت الآيات والأحاديث مصرِّحة بذلك، وأن الإيمان يجب أن يكون بجميع الدين والكتاب. فالآية التالية ـ مثلاً ـ تذمُّ بني إسرائيل على تفريقهم هذا إذ تقول:

---

١. نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٣٨٢.

٢. نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ١٦٤.

٣. نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٣٠٥.

٤. البقرة: ١٨٣.

٥. البقرة: ٢٨٢.

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَاوَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[١].

ويقول في موضع آخر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُم * ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ * فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ * ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾[٢].

والآية الكريمة ـ تؤكّد حقيقة مفهومية كبرى، وهي: مسألة الإحباط، ولا يعني الإحباط إلا أن يقوم الإنسان بعمل صالح ثم يتبعه بعمل سيىء لا يطبق فيه جزءاً من النظام، فإذا بذلك العمل الصالح يفقد أثره الجزائي، بل وأثره النفسي وهما مترابطان في الحقيقة.

تتوقع منّا التطبيق الكامل. والمسلم الحق العادل هو الذي يلتزم بجميع الفروض الإسلامية ولا يتخلّى عنها قيد أنملة، أمّا إذا خرج عن تطبيق البعض فقد اعتبر فاسقاً، خارجاً عن إطار الدين، مارقاً عن الصراط، ولذا فهو يفقد الكثير مما يؤهله للمقامات الاجتماعية والدينية، وقد يفقد حتى حرمة الحياة فيما إذا أنكر بعض الضروريات، بل فيما إذا قبلها ولم يفعلها متكرراً (مع شروط تذكر في محلها).

وإذا تمت الوحدة في التطبيق كان من اللازم أن يتفادى بعض التعارض والتنافي ـ الواقع احياناً وبمقتضى ظروف استثنائية ـ بين بعض الأنظمة وهنا تتدخل قاعدة تقديم الأهم لترفع أمثال هذا التنافي كما يذكر في محله، ولتتحقق المرونة اللازمة في التطبيق.

الخط الثالث: الموازنة بين الإلزام وطلب التطوع

إذا استعرضنا مختلف المجالات التشريعية وجدنا أن هناك فروضاً، لا يمكن تخطّيها ويجب الالتزام بها، فتلك حدود الله، ولا يسوغ القرب منها فضلاً عن تخطيها. وإلى جنب تلك الفروض وجدنا خطوطاً تطوعية عامة تفسح المجال للنفس الإنسانية كي تعبِّر عن

---

١. البقرة: ٨٥.

٢. محمد: ٢٥ ـ ٢٨.

رغبتها الذاتية وبلا إلزام في العمل لصالح المجتمع وسد الفراغات فيه، بما يسمى بـ(التطوع) والإحسان المستحب.

والحقيقة: هي أن فتح باب الاستحباب وجعل الثواب الكثير عليه يؤدي دوراً كبيراً جداً في مجال تربية الدوافع الذاتية في الإنسان وخلق العادة الأصلية، وقد أثبت علماء النفس: أن التبرع ضروري جداً لتركيز العادات وتمرين النفس عليها، لأنه نابع من الأعماق بلا أي الزام.

والشيء الملاحظ: أنّ الإسلام يمهد لروح التبرع في الإنسان بأساليب:

منها: فتح باب الثواب الجزيل والمدح الكثير لفاعله، وطلب التسابق في الخيرات والمسارعة إلى مغفرة الله والجنان والرضوان، وبيان الأثر الوضعي للعمل الخير في مسألة الصدقة التي تدفع البلاء وتنسئ في الأجل، وكالربط بين صلاة الليل مثلاً والرزق، والاستغفار والأمطار، وأمثال ذلك كثير جداً مما لا يتسع المجال له، لأنه باب واسع.

ومنها: نفس نوعية أداء بعض الواجبات، وحتى بعض الواجبات التي تثبت عقوبةً على الإنسان على بعض مافعل، فإنه يشترط قصد القربة فيها، وليس قصد القربة إلا دافعاً محضاً يربِّي الشعور بالمسؤولية وتخطِّي الذات ومصالحها المادية في سبيل الله تعالى، وهذا التخطِّي نجد له منعكسه الاجتماعية البناء ليكون خدمة وتضحية للإنسانية.

إن أداء العبادات لا يتمُّ إلاّ بقصد القربة الذي يمهد لروح التبرع التالية، وهذا يعني أن الإسلام لا يمكنه من جهة أن يترك الأمر كله إلى روح التبرع، فالإنسان يحتاج إلى الإلزام ليتنظم وليقهر به حالات التمرُّد التي تصيب النفس الإنسانية، وحتى تربية حالة التبرع نفسها تحتاج إلى حالات إلزامية، ليشترط فيها الإخلاص القلبي. وبتكرر الالتزام المقترن بدافع ذاتي، وبتعمق الإيمان في النفس؛ يتحول الإنسان أحياناً إلى مسلم واقعي لا يعمل أيَّ شيء إلا لله (كما مضى).

ومنها: جعل القدرة المتبرعة غاية التبرُّع، فإن جعل القدوة وبالأخص (القدوة المعصومة) القدوة التي سخَّرت حياتها كلها بل بلغت أحياناً إلى مرحلة جعلتها تعبد الله تعالى لأنَّه أهل للعبادة، وتشكر الله تعالى لأنَّه أهل للشكر دونما تدخل للخوف أو الطمع في شيء من ذلك، له أثره الكبير في صياغة حياة الإنسان المسلم.

إن هذه الموازنة بين الإلتزام والتطوع تُحقق في النفس الإنسانية توازناً يشعرها من جهة بلزوم تقيدها بأمور، وعدم اطلاق العنان لها لتعمل ما تشاء، كما يشعرها من جهة أخرى بحريتها في اختيار أكمل الطرق أو أقلها، فيشبع لديها جانباً من النزوع نحو الحرية. ولكنها الحرية المستغلة في سبيل الله والعمل الصالح البنّاء المنطلق بمقتضى دوافع ذاتية مصوغة صياغة إلهية.

الخط الرابع: الموازنة بين: التحديد في المجالات الثابتة والقواعد العامة في المجالات المتغيرة

وهذا جانب مهم في التشريع الإسلامي يرتبط بظاهرة التوازن، كما يعبِّر عن ظاهرة المرونة، ويشكل أساساً لخلود التعاليم الإسلامية، بعد أن يمنح الإسلام قدرة استيعاب الظروف المختلفة والمتطورة.

ولذلك فلا نتحدث نحن الآن هنا عنه بالتفصيل، بل نترك ذلك لبحث (المرونة) إذ أنه أشدُّ ارتباطاً به، وإنما نشير هنا إلى أن الإنسان ـ خلال حياته الفردية والاجتماعية ـ له واقعان: واقع ثابت، وواقع متغير. وقد لاحظهما الإسلام ووضع بالنسبة للجانب الثابت نظاماً ثابتاً باعتبار أن الجانب الثابت يعبِّر عن حاجة ثابتة. وذلك مثل ثبوت نظام العبادات، إذ أنه يشبع حاجات لا تتغيَّر في حياة الإنسان. كالإيمان بالكامل المطلق ونفي الإلحاد، ومثل نظام الإرث، والمساقاة والمزارعة والمضاربة، وأمثال ذلك. إذ أنها تعبر عن علاج لواقع ثابت يرتبط بعلاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وهي علاقة ثابتة. ومثل تحريم بعض الأمور التي ترتبط بما يضرُّ الإنسان، تكويناً، وهو أمر ثابت لا يتغير، وهكذا.

في حين نرى أن الإسلام ترك في بعض أنظمته (مناطق فراغ) جعل لها قواعد عامة تهدي الحاكم الإسلامي إلى كيفية ملئها بما يتناسب والمتغيرات والمصالح التي يراها، والمفروض أنه العالم العادل.

ومن تلك الأنظمة التي ترك فيها مناطق فراغ: النظام الاقتصادي، والنظام الجنائي، والنظام التربوي، والنظام السياسي طبق ضوابط وحدود تذكر في محلها.

الخط الخامس: الموقف المتوازن من الحرية الإنسانية

تعتبر هذه السمة من سمات الواقعية الإسلامية، فإن رفض الحرية الإنسانية رفضاً مطلقاً وعدم أخذها بعين الاعتبار في التشريع؛ يؤدّي ـ بلا ريب ـ إلى كبت نزعة إنسانية أصيلة، بل ويتجاوز بها البعض فيعتبرونها نزعة حيوانية ازدادت تأصلاً عند الإنسان. وكونها نزعة أصيلة هو الذي يسوِّغ (للرأسمالية) أن تبني نظريتها التنظيمية عليها وتدعو إليها.. وقد تكون قيمة الحرية أمراً لا يعدله الكثير من القيم الأخرى. فقتل الحرية ـ كما تفعله (الشيوعية) ـ يعني أقل ما يعني قتل نزعة أصيلة في النفس بالإضافة إلى ما تؤدي إليه من قتل روح الإبداع الخلاق وخلق حالة الاستسلام اليائس للنظام الجبار.

وإذا كان رفض الحرية ـ رفضاً مطلقاً ـ مضراً بالإنسان فإن قبولها ـ قبولاً مطلقاً ـ أيضاً أمر لا شك في ضرره فيجب القول بها وقبولها في الحدود المعقولة؛ ولكن ماهي الحدود المعقولة؟ ترى (الرأسمالية) أن الحدود المعقولة لها هو التقيد بعدم الاعتداء على حرية الآخرين، وإذا أردنا أن نستلهم أصل كونها نظاماً وجب تقييد الحرية بعدم العمل على تقويض (النظام الرأسمالي) نفسه.

ولكن هذا المعنى مرفوض أساساً في التصور الإسلامي، وهو قائم على تصور مادّي يفصل الإنسان عن واقعه الكوني كعبدٍ لله تعالى جاهل بالمصالح والحكم وإشباع الحاجات بالطرق الصحيحة، ولا يمكنه أن يسير لوحده نحو تكامله ما لم يستمدَّ من الله نظامه وتشريعه، ويلتزم بتوجيهات خالقه العليم بكل شيء.. يتقيَّد بكل مقيِّد، سماوي، وينطلق عندما يجد السماح الإلهي، لأن في ذلك الهدى والفرقان.

إن الإسلام يعتقد أنّ أيّ خروج عن طاعة الله يعني ـ أول ما يعني ـ القضاء على الكرامة الإنسانية، والفسق عن السبيل المعدِّ للوصول إلى الهدف؛ أي يعني القضاء على الحرية الإنسانية نفسها.

وقد أيد الواقع التطبيقي للنظم المختلفة هذا المعنى، فتحولت هذه الحرية إلى حرية قانونية ـ فقط ـ أما جوهرها فليس يعني إلا استغلال القوي للضعيف وتسييره وفق مصالحه وسلبه حريته.

والآن لنعرف مجمل رأي الإسلام في الحريات الرأسمالية الأساس، وهي:

١ـ الحرية السياسية. ٢ـ والحرية الفكرية. ٣ـ والحرية الشخصية. ٤ـ والحرية الاقتصادية.

أما نظام الحرية السياسية فهو يعني أموراً ثلاثة مجملها وبغض النظر عن تفريعاتها:

١ـ لزوم أن يكون الشعب حراً في قبول أو ردِّ التشريعات التي يلزم بها.

٢. لزوم أن يكون الشعب حراً في قبول أو رَدِّ الشخص المنفذ للتشريع بشكل مطلق.

٣. لزوم اتّباع رأي الأكثرية في ذلك.

ولا يعتمد الإسلام أيا من هذه الأصول على إطلاقها.

أما الأصل الأول: فهو مرفوض لأن التشريع الأصيل من الله تعالى، إذ هو الأعلم بالمصالح. نعم توجد في هذا التشريع مناطق فراغ يملؤها الإمام أو نائبه طبق الموازين الشرعية والقواعد الكلية، ومنها المشورة مع أهل الخبرة في الأمور الدنيوية، ويكون له الرأي الأخير باعتباره الأعلم العادل، ويمكن أن يرى المصلحة في إيكال الأمر إلى الانتخاب الشعبي.

وأمّا الأصل الثاني: فمرفوض أيضاً إن أريد منه الإطلاق وذلك بناء على عقيدة الإمامة والولاية حال وجود المعصوم، ومع عدمه فهناك مجال للاختيار ولكن في حدود الفقهاء المؤهلين.

وأما الأصل الثالث: فهو أمر لا نجد له أصالة إسلامية في أي تشريع، نعم يمكن للإمام أو نائبه في مجال ملئه لمنطقة الفراغ أن يتبع رأي الأكثرية إن رأى المصلحة في ذلك، لا أن يكون رأي الأكثرية هو الأصل المفروض.

وهنا نجد أن الإسلام يفتح باب الشورى في مجاله الصحيح الذي يعني تجمع الآراء لمعرفة السبيل الأجدى ولكنه لا يترك أصول الأمر بيد الإنسان الجاهل. فإنه جعل أمر المؤمنين شورى بينهم، وطلب إلى الرسول ﷺ أن يشاورهم في الأمر، ولكنه من جهة أخرى قال له: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾[1].

وجاءت آية أخرى تقول: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾[2]. مما يؤكد أن المشورة ليست لتحكم الأكثرية في الأقلية وإنما لها أهداف أخرى.

---

١. آل عمران: ١٥٩.

٢. الاحزاب: ٣٦.

فإذا انتقلنا إلى الحرية الفكرية وجدنا الإسلام يمتلك حسابين: حساباً واقعياً وحساباً نظامياً.

أما من حيث الحساب الواقعي: فهو أنَّ على الإنسان أن يتديَّن ويعتقد بالله والإسلام بالدليل، وأنّ أدلة ذلك متوفرة يؤمن بها كل من يطلب الحقيقة، وأن أيّ تهاون في طلب الحقيقة لا يعني إلا الخسران المبين.. فسبيل الفلاح الوحيد في الدنيا والآخرة هو الإسلام عقيدة ونظاماً: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1].

وأما من حيث الجهة النظامية: فهو لا يرضى ـ نظامياً ـ من الإنسان الذي يتفيأ ظلال نظامه بأقل من الانضمام إلى دين ذي كتاب سماوي وفق شروط معينة.. وبدون ذلك فهو يعتبره حشرة ضارة يجب قلعها لئلا تنخر في بناء المجتمع الإسلامي، ثم هو يعامل أولئك الذين لم يسلموا معاملة خاصة: فيوفِّرُ لهم الأمن وحفظ النفس والمال وغير ذلك، ولا يكرههم على الدخول في الإسلام. نعم لا يرضى لمسلم أن يعود فيرفض الإسلام وإن أصبح كتابياً.

ومن هنا يعلم أنه ليس الحرية هنا حرية مطلقة تفسح المجال للإنسان أن يفكر كيف يشاء ويعتقد بما يشاء، وإنما هي حرية موجَّهة واقعية.

وبانتقالنا إلى الحرية الشخصية: نجدها في الإسلام حرية موجهة أيضاً. فإن للاسلام ضوابط وتوجيهات كثيرة في المجال الشخصي، ولربما استوعبت قسطاً كبيراً من التشريع الإسلامي، وتتناول حتى ما يلبس الإنسان وتصرفاته البسيطة.

أما الحرية الاقتصادية: فهي حرية في إطار خاص موجَّهة بدقة، ومقيَّدة بقيود دائمية محدودة: كمنع تطوير الثروة عن طريق الربا والقمار والغش وأمثال ذلك، أو بقيود مرنة كسلطة الحاكم الشرعي في مجال استغلال الأراضي الموات. وهكذا نجد تخطيطاً إسلامياً واسعاً في مجال توزيع الثروة المنتجة. وسيأتي الحديث عن شيء منه إن شاء الله تعالى.

البحث الثاني: صُورٌ من التوازن في النُّظم الإسلامية

سنحاول هنا عرض بعض نماذج التوازن في بعض الأنظمة الإسلامية لتكشف لنا عن التوازن التشريعي العام.

---

١. آل عمران: ٨٥.

والواقع هو أنَّ البحث يعتبر تفصيلاً أكبر للموقف المتوازن من الواقع الذي مرَّ عرض بعض صوره ونتناول بالبحث مايلي:

❋ـ النظام التربوي يشبع الغرائز والميول اشباعاً متوازناً.

❋ـ التوازن في النظام الجنائي.

❋ـ النظام الإقتصادي وبعض صور التوازن فيه.

❋ـ التوازن في نظام العبادات.

أولاً: النظام التربوي يشبع الغرائز والميول اشباعاً متوازناً

مرَّ بنا سابقاً التناسق الذي يتم بين أنواع الهداية في سبيل إيصال الإنسان إلى هدفه، وقلنا إن الغرائز تشكِّل الدوافع الرئيسة للعمل، وإن العقل والإرادة يشكلان الضابط لعملها، وإن الوحي هو المخطِّط المنمِّي للعقل.. وهنا نحاول أن ندرس بعض الخطوط العامة التي تحقق التوازن في الإشباع التشريعي للغرائز.. ويمكن أن نعرض أهمها فيما يلي:

الخط الأول ـ عدم الكبت:

إن الإسلام ـ على العكس من سائر المبادئ المادية (كالماركسية) التي تكبت بعض الغرائز ـ لا يرضى بالكبت الغريزي، نظراً لواقعيته، فهو يؤكِّد على أنها كلها وضِعت في الكيان الإنساني لصالحه، وأن ليس في الوجود العام ككل، والوجود الإنساني بالخصوص، شيء غير معدٍّ لشأنه، ولذا فلا معنى للكبت الذي لا يؤدِّي إلا إلى اختلال التوازن الحياتي المطلوب في عمل الغرائز، وضياع التناسق الضروري لمسيرة الإنسان.

الخط الثاني تنمية الاستعدادات المعنوية، وتركيز الحب على مجالاته الأصيلة، وتهذيب الغرائز الطاغية:

فإن من الاستعدادات النفسية الإصيلة ما يحتاج إلى تنمية منظَّمة يتجلَّى بشكل أكثر وضوحاً في حياة الإنسان، ومنها ما يحتاج إلى تهذيب لأنه ينمو بصورة طبيعية. فلنلاحظ مساحات هذه الاستعدادات وعلاج الإسلام لها، لنرى ما الذي فعله الإسلام لتنمية هذه الأمور أو تهذيبها:

١ـ الارتباط بالكامل المطلق والتوجه إليه:

وهو استعداد إنساني عبّر عن نفسه بتعبيرات مختلفة عبر التاريخ، واختلفت تطبيقاته وتصورات محل الكمال فيه. وكان أهم انحراف فيه هو تحويل المؤثرات النسبية إلى مطلقات من جميع الوجوه وتقديم فروض الطاعة والاحترام لها، ومثالها، الآباء، والقبيلة، والطبيعة، والمادة، والأجرام السماوية، والعلم والتجربة، والحاكم المستبد، وغيرها.. وأكبر ضرر لهذه المطلقات الوهمية هي كونها تشكّل قيداً على فكر الإنسان وأنها تعيق مسيرة تقدُّمه الحضاري، وتقوده نحو الضلال: «فكلُّ محدود ونسبي إذا نسج الإنسان منه في مرحلة ما مطلقاً يرتبط به على هذا الأساس يصبح في مرحلة رشد ذهني جديد قيداً على الذهن الذي صنعه، بحكم كونه محدوداً ونسبياً»[١].

ومن هنا فقد كان العلاج الإسلامي الواقعي هو تحويل الأنظار والأفهام عن هذه الآلهة الوهميّة المقيِّدة للذهن، المحدِّدة للأفق والتي لا تملأ وجود الإنسان وتطلعاته، والتركيز على الموجود المطلق الحق سبحانه الذي لا تحدُّه أية حدود، والذي: «لم يكن[٢]من نسيج مرحلة من مراحل الذهن الإنساني، ليصبح في مرحلة رشد ذهني جديد قيداً على الذهن الذي صنعه، ولم يكن وليد حاجة محدَّدة لفرد أو فئة، ليتحوَّل بانتصابه مطلقاً إلى سلاح في يد الفرد والفئة لضمان استمرار مصالحه غير المشروعة. فالله سبحانه وتعالى مطلق لا حدود له، ويستوعب بصفاته الثبوتية كل المثل العليا للإنسان الخليفة على الأرض، من إدراك، وعلم وقدرة، وعدل، وغنى، وهذا يعني أن الطريق إلى الله لا حدَّ له، فالسير نحوه يفرض التحرك باستمرار وتدرُّج نسبيٍّ نحو المطلق بدون توقف: ﴿يا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[٣].

وإذا كان الأمر كذلك فالتعلُّق الحقيقي يجب أن يكون بالله تعالى، والحب الأصيل للكمال يجب أن يتركَّز في آخر هدف له وهو الله، ليكون الانتساب إلى الله والإيمان هو معيار الحب، وليقوم حبٌّ متعادل قويٌّ بين الله وعبده: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ

١. الفتاوى الواضحة: نظام العبادات، ص ٧٠٨، ط ٧، دار التعارف ـ بيروت.

٢. الفتاوى الواضحة، ص ٧١٠، ط ٧، دار التعارف ـ بيروت.

٣. الانشقاق: ٦.

فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾[١]. ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾[٢]. ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلّهِ﴾[٣].

وهذا الحب إذا أريد له أن يكون واقعياً وجب أن يعلو على كل حب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٤].

وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما»[٥].

وقال ﷺ في دعائه:

«اللّهم أرزقني حبَّك وحبَّ من يحبُّك وحبَّ ما يقرِّبني إلى حبّك، وأجعل حبَّك أحبَّ إليَّ من الماء البارد».

ولتوفير مقدمات هذا الحبِّ يذكِّر القرآن بنعم الله التي لا تحصى: ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾[٦].

وكلَّما ازداد وعي الإنسان بنعم الله، بل وعَلِمَ أنَّ هذا الكون كلَّه خُلِقَ على أساس الرحمة الإلهية الواسعة؛ اتقدت في نفسه شعلة العواطف الواعية تجاه الله تعالى، وذاب كلُّ شيء في قبال حبِّ الله، وراح في مناجاة لحبيبه ودعاء ولهان، ونسي كلَّ ألم في سبيل تحقيق رضاه.

---

١. المائدة: ٥٤.

٢. التوبة: ١٠٨.

٣. البقرة: ١٦٥.

٤. التوبة: ٢٣ ـ ٢٤.

٥. الاخلاق، عبدالله شبر، ص ٢٨٤ ـ ٢٨٦، منشورات بصيرتي، قم ـ ايران.

٦. ابراهيم: ٣٤.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«ولقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً ومضيّاً على اللقم، وصبراً على الألم، وجدّاً في جهاد العدو»[1].

ويقول في خطبة المتقين: «عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم»[2].

وبذلك يبلغ الحبُّ أعلى مستواه، ويرتفع عن مستواه البهيمي.

«وأنت الذي أزلت الأغيار عن قلوب أحبائك حتى لم يحبُّوا سواك، ولم يلجأوا إلى غيرك.. يا من أذاق أحباءَه حلاوة المؤانسة فقاموا بين يديه متملقين».

وفي المناجاة الانجيلية المنسوبة إلى السجاد عليه السلام: «وعزَّتك لقد أحببتك محبّة استقرت في قلبي حلاوتها، وأنست نفسي بمباشرتها، ومحال في عدل أقضيتك أن تسد أسباب رحمتك عن معتقدي محبتك».

ويقول في مناجاته الأخرى: «إلهي فاجعلنا من الذين ترسخت أشجار الشوق إليك في حدائق صدورهم، وأخذت لوعة محبتك بمجامع قلوبهم».

ويقول: «فقد انقطعت إليك همتي، وانصرفت نحوك رغبتي، فأنت لا غيرك مرادي، ولك لا لسواك سَهَري وسهادي، ولقاؤك قرّة عيني، ووصلك مُنى نفسي، وإليك شوقي، وفي محبتك ولهي وإلى هواك صبابتي، ورضاك بغيتي، ورؤيتك حاجتي، وجوارك طلبتي، وقربك غاية مسألتي، وفي مناجاتك روحي وراحتي».

وأمام مثل هذا الحب الرفيع يشكل الرضوان الإلهي أكبر لذة للإنسان «ورضوان من الله أكبر» كما يشكل الفراق الإلهي أكبر عذاب، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام في دعائه برواية صاحبه كميل بن زياد النخعي.

«فهبني يا ألهي صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك».

ويكون الحب الأصيل لله، وكل شيء في سبيله محبوب، وكل ما يمنع عنه مبغوض كما جاء ذلك في أحاديث كثيرة:

---

١. نهج البلاغة، صبحي الصالح، ط ٥٦، ٩١ ـ ٩٢.

٢. المصدر السابق، ط ١٩٣، ص ٣٠٣.

منها: ما عن الحذّاء عن الإمام الصادق عليه السلام: «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله فهو ممن كمل إيمانه».

وعنه عليه السلام: «من أوثق عرى الإيمان أن تُحِبَّ في الله وتبغض في الله، وتعطي في الله وتمنع في الله».

وعن الإمام الباقر عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ودُّ المؤمن للمؤمن في الله من أعظم شعب الإيمان، ألا ومن أحبَّ في الله وأبغض في الله وأعطى في الله ومنع في الله فهو من أصفياء الله»[١].

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأصحابه: أيُّ عرى الإيمان أوثق؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، وقال بعضهم: الجهاد. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لكل ما قلتم فضل، وليس به ولكن: أوثق عرى الإيمان: الحب في الله والبغض في الله، وتولي أولياء الله والتبرّي من أعداء الله»[٢].

ولعل كون الحب والبغض من أوثق عرى الإيمان لأنهما يعنيان انغراس الإيمان في الشعور والجوارح وتحوُّله إلى عواطف مؤمنة قوية دافعة، وهو أقوى مراتب الإيمان: قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[٣].

والمؤمن الذي لا يمتلك عاطفة متحرِّكة على ضوء الوحي قد لا يمتلك حتى صفة الإيمان: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ * فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾[٤].

وتشترك الأنظمة الإسلامية المختلفة في خلق التأكيد المجسّد لهذه الرابطة القوية، ومنها نظام العبادات الذي يقوم بدور أساس كبير بواجباته ومستحباته، ومنها النظام التربوي

---

١. اصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٤، دار الكتب الاسلامية، طهران، ط ٣، ١٣٨٨هـ.

٢. اصول الكافي، ج ٢، ص ١٢٦.

٣. الحديد: ١٦.

٤. الماعون: ١ ـ ٧.

والأخلاقي وكلها تحقِّق التوازن في مجال انعكاس هذه الرابطة على عمل الإنسان، فتشيع فيه احتياجه للدين، وتعلِّمه كيفية التعبير عن تدينه، دون أن يبتلى بما سيأتي من أخطار.

هكذا ينمو الحب الإلهي إلى أروع الدرجات.. إلاّ أنه يبقى هناك خطر انقلاب هذا الحب على هدفه.. فإن أهم أخطار الانقلاب التي أصيب بها هي:

١ـ الرهبنة والانعزال والبعد عن الواقع الخارجي المعاش.

٢. الاغترار بهذا الحب، وادّعاء كفاية الجنبة العاطفية فيه.

٣. العنصرية والقومية فيه.

وكل من هذه الأمور يؤدّي إلى عدم قيام النظام العالمي الاجتماعي للإسلام، وإلى ضياع طاقات المسيرة الإنسانية وتفكُّك قواها وروابطها الاجتماعية، والقضاء بالتالي على الأهداف الكبرى.

وكذلك فقد نبه الإسلام المسلم إلى الواقع الذي يجب أن يكون عليه الحب، فأعطى النماذج في أناس قادة يمثلون قمة الحبِّ الإلهي الواقعي النافذ إلى المشاعر، وقدوة للمسلمين في هذا السبيل: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[1]. وقيل لهم: إنَّ اتباعهم هو ملاك الحب الحقيقي: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾[2]. ومن ثم فقد جاءت آيات توضِّح بالتفصيل من هم أولئك الذين يحبون الله حقيقة فيحبُّهم الله تعالى، وهي تؤكِّد على: أنَّ الله يحبُّ التوابين، والمتطهرين، والمتقين، والمحسنين، والصابرين، والمقسطين، والذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص على طاعته وطاعة رسوله، وأنه تعالى: لا يحب المعتدين، والمفسدين، والآثمين، والظالمين، وكل مختال فخور، والخائنين، ولا يحب الجهر بالسوء من القول إلا من ظُلِمَ، ولا يحبُّ المسرفين، والمستكبرين.

فإذا تحقق العنوان المحبوب فالحبُّ المتبادل متوقع وإلاّ فلا، وهكذا لا ينسجم أدّعاء الحبِّ مع العناوين المبغوضة.

ومما نسب إلى الإمام الصادق عليه السلام :

---

١. احزاب: ٢١.

٢. آل عمران: ٣١.

تَعصي الإله وأنت تُظهر حبَّه   هذا لعمرك في الفِعال بديعُ
لو كان حبُّك صادقاً لأطعته   إن لمحبَّ لمن يحبُّ مطيعُ

هذا وقد نقل القرآن دعوى العنصرية في الحُبِّ وأنَّ الحبَّ الإلهي مخصوص بطائفة بشرية دون غيرها وردَّها بشدة:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾[١].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاء وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاء وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾[٢].

وجاءت آيات لتؤكّد أنَّ الشريعة مفتوحة للجميع، وأن لا تمايز بين أحد وآخر إلاّ بالتقوى والعلم. ولم يقع هناك تمايز تشريعي بين طائفة وطائفة إلاّ فيما كان هناك غرض تربوي واجتماعي.

حبُّ الرسول والأئمة ملازمٌ لحبِّ الله تعالى:

ففي طول حبِّ الله تعالى يُركّز الإسلام على حبِّ الرسول والأئمة عليهم السلام والصحابة الأخيار وباقي المؤمنين. وينمّي عوامل هذا الحب، حتى أن الرسول لا يسأل أجراً للرسالة إلا حبَّ أهل بيته عليهم السلام، وهذا الأجر ليس إلاّ لصالح الأمة، لأنه شدَّها بقيادتها الحكيمة. ونحسب أننا في غنى عن ذكر النصوص الواردة في هذا السبيل لوضوحها وضرورتها.

وسيأتي حديث عن هذا الموضوع عند البحث عن (المعقول والمحسوس).

٢. الميول بالنسبة لما سوى الله:

واضح بعد معرفة النقطة الأولى أنَّ الإطار الذي يؤطِّر هذه الميول هو إطار (رضا الله) و(الحبُّ في الله). وهذا الإطار يضمن لنا إشباعاً متوازناً لهذه الغرائز منسجماً مع الهدف، وهذا الإشباع المتوازن يتجلّى بوضوح عندما ندرس كل ميل.

---

١. الجمعه: ٦ ـ ٧.

٢. المائدة: ١٨.

ولنبدأ أولاً بدائرة الذات الإنسانية وما يتبعها، ثم ننتقل إلى الدوائر الأخرى.

حب الذات:

ويعبر عنها بـ(أمّ الغرائز) باعتبار أنها تستوعب دوافع الغرائز الأخرى كلها، إلا أنه قد يدّعى أنها ليست بهذا المستوى من المرجعية التامة، فهناك غرائز أصيلة لا تقوم على أساس حبِّ الذات.

وعلى أيِّ حال، فإنَّها غريزة أصيلة كبرى، ولا يمكن للمبدأ أن يكون واقعياً إذا أنكرها أو أنكر آثارها في حياة الإنسان.

وقد أكَّدت (الماركسية) على أنها من نتائج (الوضع البرجوازي) وأنه يمكن القضاء عليها بإقامة نظام حديدي من جهة، وتحريم (الملكية الخاصة) من جهة أخرى.

فكانت بذلك مبدأ غير واقعي وغير منطقي في نظرته إلى الإنسان. كما كانت من قبل مبدأ مشككاً في مجال معرفة الواقع حقيقة.

وهذه الغريزة أمر ينمو بشكل طبيعي جداً وتظهر أعراضها في تصرُّفات الحيوان قبل الإنسان وفي أولى تصرفات الإنسان، فتستوعب الأعمَّ الأغلب من تصرفاته حتى بعض تلك التي يبدو أنها مناقضة لها.

ولا ريب في كونها ضرورية جداً لبقاء النوع الإنساني، وذلك لكي يستطاع إيصال الإنسان إلى هدفه المنشود.

ولكن قد تطغى هذه الغريزة فتتجاوز الحدَّ المطلوب، ويعدُّ الإنسان من نفسه إلهاً ويرى بعد ذلك أنَّ كلَّ شيء خارج حدود الذات أمر غير طبيعي بل هو غريب عنها.

ومن هنا اتهم المادّيون الإلهيين: بأنهم اغتربوا عن ذواتهم إذ وضعوا كلَّ مالديهم من قوىً وإمكانات في موجودات خارجة عن الذَّات، ثم قدَّموا لها الطاعة والولاء. وعليه فالمادية في نظرهم: رجوع الإنسان إلى ذاته وحصر القوى فيها.

وكانت نتيجة هذه الدعوى: تأليه الإنسان وقواه، حتى بلغ الأمر ببعض الفلاسفة أن يعلن ديناً إلههُ الإنسان، وحتى جاءت الوجودية لتقدس الإنسان.

ومع التجاوز عن كل مافي هذه المبادئ المادية من ضعف نقول: إن هذه المبادئ حَصرت

الإنسان في ذاته، وفصلته عن الوجود الأكبر، وتجاوزت به حدوده ونسيت ضعفه وإمكانه، وسلبته أمنه عندما وكلته إلى نفسه.. ومن هنا نجد الوجودية تنساق بشكل طبيعي إلى القلق والهذيان والعبث والقرف وغيره، وهكذا كان كل هذا الإنحراف تعبيراً واضحاً عن طغيان (غريزة حبِّ الذات) على سائر الغرائز وعلى الحقيقة نفسها ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[١].

﴿قُلْ أَنَدْعُو مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَنفَعُنَا وَلاَ يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَىَ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٢].

وهكذا قدر لهذه الغريزة أن تكون موضع جدل عميق جداً وأخذ ورد، فتارة تشبع حتى تطغى! وأخرى تكبت حتى لا تجد لها متنفساً! وكلا الحالين أمر لا ينسجم مع الميسرة المتوازنة للإنسان.. وذلك الإشباع وهذا الكبت نشآ في الواقع من وجهتي نظر مختلفتين في مجال حل المشكلة الإجتماعية الإنسانية، وهي مشكلة معرفة (النظام الأصلح) و تطبيقه.

وكان أهمّ ما يواجه الإنسان هذا التعارض الذي يظهر بصورة طبيعية بين المصالح الذاتية والمصالح الإجتماعية، فلابد أن تتنحى إحداهما حتى يسير الركب، ومن هنا كان البعض من أنصار كبتِ المصالح الفردية وتقديم المجتمع، في حين فضَّلَ الآخرُ تقديمَ المصالح الفردية على المصالح الإجتماعية وكبت متطلبات المجتمع.

وقد رفض الإسلام كلتا النظريتين، مؤكداً، على أنهما توقعان الاختلال في مسيرة الإنسانية الصاعدة ومركزاً على حل التعارض بأفضل حلٍّ متصوَّر، وذلك عبر الخطوات التالية:

أولاً: يبدأ قبل كل شيء بتعيين مركز الإنسان من الكون. وقد مرَّ بعض الحديث في هذا الجانب، وخلاصته: إن الإنسان موجود خلقه الله الكامل المطلق خالق الكون، ذو القدرة، والعلم، والحياة المطلقة، لأجل أن يعمر الأرض من خلال ممارسة حياة اجتماعية طويلة، ووضع له تشريعاً في سبيل ذلك.

---

١. الحج: ٣١.

٢. الانعام: ٧١.

ثانياً: وعلى ضوء الخطوة الأولى يُنمّي في المسلم حبَّ الله تعالى حتى يصل إلى الحد الذي يضحي فيه بذاته في سبيله تعالى، كما مرَّ.

ثالثاً: ثم يربط بين التقرُّب إلى الله والحياة الإجتماعية، ليكون سبيل الله يعني سبيل العمل لصالح الرسالة، وتحقيق رضا الله في الأرض ونشر تعاليمه بين الناس، وفي خدمة المؤمنين ورفع أدوائهم ونقائصهم، وإشاعة الأخلاق الحسنة بالإضافة إلى التكامل الفردي:

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾[١].

﴿وَلاَ تَقُولُواْ لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاء وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾[٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُوْلَـئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ﴾[٣].

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاء﴾[٤].

وهكذا يرتبط سبيل الله بخدمة المجتمع خدمة يأذن بها الله ويراها لصالحه.

رابعاً: وعلى ضوء الخطوة الثالثة، يبدأ الإسلام بتربية أخلاقية طويلة المدى، من خلال نظم عديدة (كنظام العبادات، والنظام التربوي والأخلاقي، ونظام الأسرة وغيرها) كلها تؤكد على تنمية الحسِّ الإجتماعي فيه، وتعمل على تربية الوجدان والضمير الأخلاقي في الإنسان، وتركِّز على أن يرتبط بعلاقات مودة كبرى مع مجتمعه المؤمن خاصة ومع مجتمعه الإنساني عامة.

خامساً: وبعد هذا يعمل على أن يذكر الإنسان بالمنابع الكبرى التي تنفذ عبرها غريزة حبِّ الذات فتنمِّي نفسها وتطغى لتنتهي بتلك الصور. وكمثل لذلك: نلاحظ موقف الإسلام من كل من عنصري الغفلة والتكبُّر، وهما منفذان كبيران للذاتية.

سادساً: ومع كل هذا يأتي دور أصيل يشكل نقطة الحل الرئيسة، وهو الدور الذي يجعل

١. البقرة: ٢٤٥.

٢. البقرة: ١٥٤.

٣. البقرة: ٢١٨.

٤. البقرة: ٢٦١.

المسألة الفردية والمسألة الإجتماعية أمراً واحداً، وهي تلك المعجزة التي عجزت عنها جميع الأنظمة الوضعية؛ وذلك بتركيز الاعتقاد بالآخرة، وإعطاء صورة واضحة عنها. وحينذاك، فالذات الإنسانية واحدة في كلا الحالين جميعاً، وعندها يكون التنازل البسيط المؤقت في هذه الحياة القصيرة عن بعض اللذات لصالح المجتمع الذي يحبه، ولصالح رقي الإنسانية وهو عضو فيها، ويكون هذا التنازل موجباً لإشباع النفس والذات عينها بأسمى أنواع الإشباع بدخولها جنَّة الخلد والرضا، وخلاصها من عذاب الخلدِ في النيران.

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[١].

وقد كانت الآيات الشريفة دقيقة غاية الدقة عندما ضربت على وتر إشباع الذات إشباعاً خالداً في قوله تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٢].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[٣].

﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾[٤].

وهكذا يتحول العمل الصالح لصالح المجتمع؛ لصالح النفس في الوقت نفسه:

﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللّهِ﴾[٥].

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلأنفُسِكُمْ﴾[٦].

---

١. التوبة: ١٢٠ ـ ١٢١.

٢. الزخرف: ٧١.

٣. فصلت: ٣١.

٤. الانبياء: ١٠٢.

٥. البقرة: ١١٠.

٦. البقرة: ٢٧٢.

ويكون المتاع الدنيوي المنحرف ظلماً وبغياً على النفس:

﴿أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[١].

وهكذا ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾[٢].

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[٣].

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُواْ إِثْمًا وَلَهْمُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[٤].

﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُواْ أَنفُسَهُم﴾[٥].

﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[٦].

فالنفس الإنسانية تباع في الدين لله وللرسول ﷺ وللإئمة عليهم السلام وللمؤمنين ليعوَّض عنها بالجنة:

﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾[٧].

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾[٨].

وخاطب الرسول ﷺ المؤمنين قائلاً:

«ألست أولى بكم من أنفسكم؟» قالوا: بلى، فقال: «فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه»[٩].

وقد جاء في (نهج البلاغة) قول أمير المؤمنين عليه السلام :

«إنَّه ليس لأنفسكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها»[١٠].

---

١. يونس: ٢٣.

٢. الاسراء: ٧.

٣. البقرة: ٥٧.

٤. آل عمران: ١٧٨.

٥. الاعراف: ٩.

٦. التوبة: ٤٢.

٧. التوبة: ١١١.

٨. الاحزاب: ٦.

٩. حديث الغدير.

١٠. الكلمات القصار: ٤٥٦.

وما أكثر الآيات والأحاديث الواردة في هذا المعنى، وكلها تنتج هذا الحل الوحيد للمشكلة الإجتماعية المستعصية. فلا يبقى ـ والحال هذه ـ إلاّ طريق الإسلام المتوازن تماما فحسب.

وهكذا رأينا:

أنَّ غريزة حبِّ الذات غريزة طبيعية تنمو بشكل طبيعي ولا تحتاج إلى تربية منمية، وإنما تحتاج إلى تهذيب وتوجيه، وتحديد مصاديق الذات ومداها، وتنبيه على سبيل إشباع اللذات الإنسانية، وإن كان شعور النفس ببعض اللذات المعنوية يحتاج إلى تربية علميَّة صحيحة ليكون إشباعها إشباعاً لهذه الغريزة في الوقت نفسه.

الإرادة مظهر الذات:

وتشكِّل الإرادة الإنسانية المظهر الأساس للذات الإنسانية، وقوتها تعبر عن قوتها، والعكس بالعكس. كذلك تشكل الإرادة حركة نفسية تتبع التعقل، فالعلاقة بينهما علاقة قويَّة جداً، ومن هنا فكلما كان التعقل قوياً ورفيعاً سارت الإرادة معه في تساميه، وإذا هبط عنصر التعقل توقعنا للإرادة النزول تدريجياً. وكذلك نقول: إن ضعف الإرادة وعدم تقويتها ربما يسري إلى ضعف التعقل.. فإذا كانت التربية واقعية نظرت للأمرين المتفاعلين معاً، ولم تهمل أحدهما على حساب الآخر. وعليه فما هو موقف الإسلام من الإرادة نفسها؟

إن الإسلام يفرِّق بين الإرادة الواعية التي يوجِّهها العقل، والإرادة الطاغية العنود، فيؤكِّد على الأول ويرفض الثانية بنفس المستوى الذي يرفض فيه حالات موت الإرادة وضعفها. فلنستعرض حالات الإرادة في الإنسان، وكيف عالج الإسلام الحالات المرفوضة منها.

الحالة الأولى: ضعف الإرادة

الحالة الأولى من حالات الإرادة هي حالة ضعف الإرادة، وهي في الواقع ونظر الإسلام الواقعي حالة غير طبيعية، وفق ما عرفناه من دور لها سابقاً وهذه الحالة غير الطبيعية تنتج فقدان الشخصية الإنسانية أو ضعفها، وإذا فقدت الشخصية الإنسانية فقد الإنسان إمكان اتخاذ شخصية أخرى متفرعة عليها، كالشخصية الإسلامية، ذلك أن الإرادة هي أحد الركنين المقوِّمين لها.

والركن الثاني الذي يجب أن تعمل في اطاره الارادة هو التعقل وهما معاً يشكّلان الشخصية الإنسانية المميزة عن الحيوان.

كما ينتج عن ذلك بعض أنماط التقليد في العقيدة، حيث لا يمتلك الإنسان مبرراً ودافعاً لأن يتخذ موقفاً محدَّداً من الواقع ـ ومن ضمنه العقيدة الصحيحة ـ وإنما يلجأ إلى عقائد جاهزة. والأغلب أن تكون هذه العقائد الجاهزة هي العقائد الموروثة من القبيلة أو البيئة ليعتنقها مشبعاً بها بعض متطلبات نفسه. وحتى لو أحسَّ بضرورة تغيير ما يعيشه من ظروف، إلاّ أنه لا يمتلك المقوِّمات التي تسمو به على واقعه المعاش ليغيره نظراً للتهافت في أركان شخصيته. وأقلُّ ما تعني هذه الحالة أن تستهلك المسيرة الإنسانية عناصر قوتها وتجمد على ما تملكه، دون أن تعمل على أن تصدق مع ذاتها وشعارها لأنها مسيرة نحو الكمال.

ثم إنه ينتج من ضعف الإرادة ـ مع غض النظر عما سبق ـ تأرجح في السلوك، ولا مبالاة مقيتة بالهدف.. وواضح أن الالتزام بالمقررات والقوانين التي يؤمن بأسسها الإنسان أمر لا يمكن الاستغناء عنه لتكوين المجتمع الصالح ودفعه، بل يكاد يمتلك الإلزام جذوراً أصيلة في النفس ذاتها والالتزام فرع قوة الإرادة ووعيها فإذا ضعفت مال صاحبها مع كل ريح ونعق مع كل ناعق، ولم يؤمَن عليه مطلقاً أن ينقض كل الالتزامات عليه لميول معينة.

كما ينتج عن ذلك أيضاً: طغيان كبير للغرائز وتحكم كبير أهوج لها في سلوك الإنسان. وحينذاك فالفوضى وعدم التوازن في المشتهيات النفسية الجامحة.

وقديماً قال أمير المؤمنين عليه السلام :

«إن أخوف ما أخاف عليكم إثنان: إتباع الهوى، وطول الأمل».

ومن هنا يمكن أن نفهم التأكيد الشديد على تمييع الشباب وتحطيم إرادته، ودفعه نحو اللامبالاة واتباع الغرائز الشهوانية دون أي تقيُّد بأيِّ رادع أو وازع روحي، وذلك بشتى الأساليب المثيرة للغرائز والمحطمة للشخصيَّة من سينما وتلفزيون وصحف خلاعية وغيرها مما تعجُّ بها بلادنا الإسلامية، لا بل يعجُّ بها العالم كله نتيجة اليد الصهيونية أو الرأسمالية الجشعة.

ولعل أهم ناتج لذلك الضعف الإرادي هو الضعف العقلي والتفكيري الذي ينجرُّ إليه المرء، ذلك أن العقل يعمل ويعمل متى ما يجد أن نتائجه تنعكس في إرادة الإنسان وسلوكه،

فهو يعبِّر عن نفسه من خلال تلك الإرادة والسلوك الذي يتبعانه، أما إذا لم يجد أذناً صاغية وهمَّة عالية هادفة فإنه يعيش حالة خمول وكسل، وهي خسارة وما بعدها خسارة.

والواقع: أن كل ما ذكرناه من تزلزل الشخصية، وفقدان القدرة على التغيير، والتأرجح في السلوك واللامبالاة، وطغيان الشهوات، والخمود العقلي.. هي أمراض فرديَّة واجتماعية، فإذا ابتلي بها المجتمع فقد وجوده الحضاري الموجه المتعالي، وإن ظلَّ مثلاً يحتفظ بشيء من وجوده التكنيكي المتقدم.. وفي مثل هذا المجتمع اللاملتزم يصعب أن ينمو فرد بشكل طبيعي ليرجعه إلى حالته العقلية المبدعة.

علاج الإسلام لهذه الحالة:

وتختلف أساليب العلاج الإسلامي لهذه الحالة، إلاّ أنها تتفق جميعها على تنمية الجانبين المترابطين معاً: (التعقل والإرادة) ـ كما أشرنا إليه ـ ويمكن أن نذكر منها مايلي:

١. التوصيات المباشرة لتنمية الإرادة والعقل:

أما التوصيات المباشرة لتنمية العقل فنجدها في كثير من الروايات التي تمجِّد العقل وتجعله نبيَّ الباطن، وتجعله أساس الخير، وبه عُرِفَ الله، وبه يُعبَدُ، وكذلك الآيات الداعية للتفكر في خلق السموات والنعم الإلهية، والتدبُّر في الحكمة. وهي إذ تمجِّد العقل والتعقُّل والتفكّر، وتؤكد على أن الإنسان إنما هو بعقله، لتلتفتُ إلى حالة الإفراط التي تصيب الإنسان في تعقله، فتذكِّره بأن عقله وإن كان مطلقاً في عمله إلا أنه محدود، ولا يمكنه أن يدرك كل الحقائق، بل عليه أن يستمد من الوحي الكثير من المعلومات، وتعلمه: «أنَّ دين الله لا يصاب بالعقول». (الإمام الصادق عليه السلام) إذ أن الملاكات والمصالح بيد الله، وتؤكد له على عنصر التعبُّد كما مرَّ.

وهكذا نجد التأكيد الكبير على أن يمتلك الإنسان إرادته أمام الشهوات وأنَّ الشجاعة الحقيقية هي امتلاك السيطرة على النفس، وعدم اتباع هواها، وامتلاك زمام المبادرة في اختيار الطريق. ومن هذا القبيل نصوص المحاسبة التي تحرِّك الإنسان ليقوم بإرادته بمحاسبة نفسه كما في الحديث: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا».

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «... فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها، فإن للقيامة خمسين موقفاً كل موقف مقام ألف سنة» ثم تلا عليه السلام: «في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة».

وفي رواية أخرى: «ينبغي أن يكون للعاقل أربع ساعات: ساعة يحاسب بها نفسه...».

وعن الإمام الكاظم عليه السلام:

«ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل حسنة استزاد الله، وإن عمل سيئة استغفر الله منها وتاب إليه».

وعن الإمام الصادق عليه السلام:

«إن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله فقال له: يا رسول الله أوصني، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: فهل أنت مستوص إذ أنا أوصيتك؟ حتى قال له ذلك ثلاثاً وفي كلها يقول له الرجل: نعم يا رسول الله. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: فإنني أوصيك إذا أنت هممت بأمر فتدبّر عاقبته (التفكير) فإن يك رشداً فأمضه، وإن يك غياً فانته عنه» (الإرادة).

ويصف الإمام علي عليه السلام السالك الطريق إلى الله سبحانه، فيقول: «قد أحيا عقله، وأمات نفسه، حتى دقَّ جليله، ولطف غليظه، وبرق له لامع كثيرُ البرق، فأبانَ له الطريق، وسلك به السبيل، وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة، ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في قرار الأمن والراحة، بما استعمل قلبَه، وأرضى ربه»[١].

ومن قصَصِ القرآن يمكن أن نختار قصة طالوت والجنود:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاء وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * وَقَالَ لَهُمْ نِبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلآئِكَةُ إِنَّ فِي

---

١. نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٣٣٧.

ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُو اللّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللّهِ وَاللّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ * وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[١].

وكذلك قصة الجرحى الذين تحرك بهم النبي ﷺ لملاحقة المشركين بعد معركة أحد. وفي مقابلها قصة ضعف آدم، ويونس على نبينا وآله وعليهما السلام.

٢. التحسيس بالهدف والواجب والموقع وأمثالها:

وهو أسلوب مهمٌّ جداً، فكم نرى من أناس يعيشون حالةً مؤسفة إذا ذُكِّروا بها وبعواقبها، وعرض عليهم حالهم بوجوهه المقيتة انتفضوا وتحركوا وغيَّروا وضعهم.. والإسلام إذ يواجه حالة ضعف الإرادة يقوم بعملية التذكير بالموقع السامي الذي يمتلكه الإنسان من الكون كخليفة لله في الأرض، وكمجعول من قبل أكبر الحقائق الكونية لإعمار الأرض، وكموجود سُخِّرت له المخلوقات وفُضِّل بما يمتاز به على جميعها فضِّل بالعقل والإرادة المنفذة لنتائج التعقُّل، وبهذا كان كريماً يباهي الله به الملائكة إذا سلك الصراط السويَّ. كما ينصبُّ التحسيس الإسلامي على الفرق بين الحياتين: حياة الاستسلام للشهوة، وحياة السيطرة عليها. والحياة الأولى لا معنى لها في المنطق الصحيح، وهكذا.. وإذا شعر الإنسان بهذه الأمور ترفَّع ـ بلا ريب ـ عن المستوى المنحط، وعلت همته ونفسه:

«وإذا كانت النفوس كباراً تعبت في مرادها الأجسام».

٣. تربية الارادة الواعية عبر الصوم والحج والمستحبات

وإذا رجعنا إلى بعض النظم ـ وخصوصاً نظام العبادات ـ وجدنا فيه أروع تربية للإرادة الواعية.

---

١. البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٥١.

ففي الصوم ـ مثلاً ـ نجد أن التركيز كله ينصبُّ على تربية إرادة الإنسان الواعية، أو كما يعبَّر عنه في الروايات بالصبر، وليس هو إلا امتلاك الإرادة القويَّة في ظل أوامر الله ونواهيه.. وهذا ما ورد في روايات عديدة.

عن رسول الله ﷺ :

«الصبر ثلاثة: صبر عند المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر على المعصية»[1].

وهكذا الصوم صبرٌ على عدم القرب إلى أمسِّ الأشياء به (الطعام والجنس) وذلك قربة إلى الله تعالى وإخلاصاً له.

وهكذا نجد الأمر في الحج، حيث يحرم على الحاج المحرم بعض المحرمات التي تمس حياته اليومية تقريباً، فيطلب منه أن يكون دقيقاً في التنفيذ، وفي جوٍّ من قصد القربة.. وهو بذلك يري إرادته القويَّة للقيام بحق العبودية لله، واجتناب الطاغوت، والصراع ضدَّ مظاهره المتنوعة، وذلك باعتبار أن الحج يستهدف تحقيق هدف الأنبياء جميعاً، وما بعثوا إلا لهذين الهدفين.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾[2].

ويمكن هنا أن نضيف إليهما بعض المستحبات، التي تحدَّثنا عن تأثيراتها الكبرى في إيجاد العزيمة الذاتية عند المسلم.

هذا بالإضافة إلى التلقينات النافذة التي تلقيها الصلوات في نفس المسلم، وهكذا الأدعية المختلفة من مثل: «واستعملني بطاعتك...».

٤. تقديم النماذج العملية المتمثلة في القادة:

وليس بغريب على الإسلام أن يقدم هذه النماذج الحسية العالية بعد أن اعتمد هذه الطريقة في مختلف الشؤون. فالمسلم إذ ينشدُّ فكرياً وعاطفياً إلى المثل الأعلى، ويشاهد بأمِّ عينه تضحيات النبي ﷺ الجسيمة وصموده وبسالته الواعية في سبيل الحق بحيث لو وضعوا

---

١. اصول الكافي، الكليني، ج ٢، ص ٩١.

٢. النحل: ٣٦.

الشمس في يمينه والقمر في يساره ما ولّى عن الدعوة إلى الله ومواقف الأبطال المسلمين في صدر الإسلام، ومنها مواقف الإمام الحسن بن علي عليه السلام أو الحسين عليه السلام في معركته الخالدة النتائج وغيرهم.

إن استعراض مواقف هؤلاء القادة ليملأ النفس وعياً وثباتاً على الحق.

ويقرب من هذا حكاية القرآن العظيم لقصص الثبات على الحق للأنبياء والمؤمنين في سبيل الحق.. فإن المسلم إذ يقرأ الآيات التالية تتجلّى في ضميره الحقيقة المربية للإرادة:

﴿وَجَاء مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ * وَمَا لِي لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً إِن يُرِدْنِ الرَّحْمَن بِضُرٍّ لاَّ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَّفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾[١].

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٢].

﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[٣].

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[٤].

بمثل هذه الأساليب وغيرها عالج الإسلام هذه الحالة الإرادية المَرَضية:

الحالة الثانية: طغيان الإرادة

وهي حالة طغيان الإرادة حتى على التعقل أو قوتها مع ضعف التعقل، وهي حالة مرَضية لا إنسانية يرفضها الإسلام أيضاً، فإنها تنتج الحدة في كل المواقف وذلك أمر ينافي الحكمة كما يؤدي إلى عدم الإلتزام، وتبتلي الإنسان بمرض العناد المعبر عن إرادة عمياء..

---

١. يس: ٢٠ ـ ٢٥.

٢. التحريم: ١١.

٣. طه: ٧٢..

٤. الصافات: ١٠٢.

ومن نتائجها الثقة المفرطة بالنفس، وهي من مهالك الإنسان ومزالقه، لأنها تتنافى مع التوكل الذي يريد الإسلام أن يشعر الإنسان به دائماً وأن القوّة والعزّة من الله دائماً.. وإذا استحكمت هذه الحالة جرَّت إلى التكبُّر، وهو من أشد الأمراض النفسية، والقرآن يؤكّد أن سر العصيان الأول وبالتالي كثير من المعاصي الأخرى إنَّما هو التكبُّر الذي ابتلي به إبليس ففسق عن أمر ربه.

علاج الإسلام:

وبملاحظة علاج الإسلام للحالة السابقة نعرف موقفه من هذه الحالة، إذ أن نفس تربية الإرادة ضمن الوعي، أو نفس تربية التعقل والالتزام، له تأثيره الكبير هنا، يضيف الإسلام هنا، أن يذكر الإنسان بضعفه وواقعه، وكيف أنه لا يقوى على شيء مما تمده العناية الإلهية، ويذكّره بأصله الذي لا يكاد يذكر لولا مدد الله:

﴿يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[١].

﴿اللّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْف قوةٍ﴾[٢].

﴿الآنَ خَفَّفَ اللّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾[٣].

﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾[٤].

﴿قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ * مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ * مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ * ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ * ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ * ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ * كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ﴾[٥].

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ﴾[٦].

---

١. النساء: ٢٨.

٢. الروم: ٥٤.

٣. الانفال: ٦٦.

٤. النحل: ٤.

٥. عبس: ١٧ ـ ٢٣.

٦. الانفطار: ٦ ـ ٨.

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام:

«أم هذا الذي أنشأه في ظلمات الأرحام وشغف الأستار، نطفة دهاقاً، وعلقة محاقاً، وجنيناً وراضعاً، ووليداً ويافعاً، ثم منحه قلباً حافظاً، ولساناً لافظاً، وبصراً لاحظاً، ليفهم معتبراً، ويقصر مزدجراً؛ حتى اذا قام اعتداله، واستوى مثاله، نفر مستكبراً، وخبط سادراً، ماتحاً في غرب هواه، كادحاً سعياً لدنياه، في لذّات طربه، وبدوات أربه، ثم لا يحتسب رزيَّة ولا يخشع تقيَّة، فمات في فتنته غريراً، وعاش في هفوته يسيراً»[1].

ومن الأمثلة الرائعة التي يضربها القرآن على ضعف الإنسان مهما بلغ من القوة والوسائل المقوية، (قصة سليمان بن داود) النبي المؤمن صاحب القوة والسلطان الذي لا تتصور البشرية فعلا له مثيلاً، بحيث سخر له الريح والطير والجن بحيث يمكن لأحدهم أن يحمل عرش ملكة سبأ في أقل من طرفة عين.

﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاء مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ * فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[2].

وهذه القصة يذكرها القرآن في سياق عجز الإنسان أمام القدرة الإلهية، حيث يقول قبلها بقليل ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾[3].

وللإمام أمير المؤمنين عليه السلام تذكير رائع بضعف الإنسان وعدم خلوده إذ يقول عليه السلام:

«أوصيكم عباد الله بتقوى الله الذي ألبسكم الرياشَ، وأسبغ عليكم المعاش.. فلو أن أحداً يجد إلى البقاء سلّماً أو لدفع الموت سبيلاً، لكان ذلك سليمان بن داوود عليه السلام الذي سخر

١. نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ١١٢ ـ ١١٣.
٢. سبأ: ٣٤.
٣. سبأ: ٩.

له ملك الجن والانس، مع النبوَّة وعظيم الزلفة، فلما استوفى طعمته، واستكمل مدَّته، رمته قِسيُّ الفناء بنبال الموت، وأصبحت الديار منه خالية، والمساكن معطَّلةً، وورثها قوم آخرون...»[١].

وما أكثر القصص التي تتحدث عن من طغى وتجبَّر، فقصمه الله سبحانه وتعالى.

وإذا تذكَّر الإنسان ضعفه ووظيفته عاد إلى صوابه.

وبعد هذا.. تأتي الروايات الكثيرة التي تذمُّ التكبُّر والعناد الصَّلِف والعجب. كما مضى شيء من ذلك عند البحث عن التسليم، ونحن نذكر هنا بعض ماورد هذا:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[٢].

وعن الإمام الباقر عليه السلام:

«الكبر رداء الله، والمتكبِّر ينازع الله في ردائه»[٣].

والرواية التالية توضح النقص الكبير، وان ظنه المتكبر كمالاً.

يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«ما من أحد يتيه إلا من ذلة يجدها في نفسه»[٤].

وقد حَلَل علماء الأخلاق (رحمهم الله) هذه الصفة وأبرزوا جوانبها ومختلف علاجات الإسلام لها، فلتراجع بحوثهم، وكمثال قرآني على الإرادة المعاندة نلاحظ ابن نوح وأولئك الذين كانوا يقولون:

﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٥].

﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَافِرينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾[٦].

---

١. نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣.
٢. الاعراف: ١٤٦.
٣. الاخلاق، شبر، ص ١٧٠، منشورات بصيرتي.
٤. المصدر السابق، ص ١٧١.
٥. الانفال: ٣٢.
٦. المعارج: ١ ـ ٢.

ومن جوانب علاج هذه الحالة: تنمية روح التوكل عند الإنسان والتذكير بإرادة الله الحاكمة على كل شيء، وان النصر من عند الله:

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[١].

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾[٢].

ومن الرائع: أن نلاحظ أن كل تربية على الاقدام والشجاعة والإرادة تقريباً، تقرن بما يعطي الاستمداد من الله، وإن الله هو الممدُّ لكل شيء:

﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾[٣].

وقد أوصى أمير المؤمنين عليه السلام ابنه محمداً بوصايا حربية وختمها بذلك إذ قال:

«تزول الجبالُ ولا تزل، عضَّ على ناجذك، أعِرِ الله جمجمتك، تد في الأرض قدمك، ارم ببصرك أقصى القوم وغُضَّ بصرك. واعلم أن النصر من عند الله سبحانه».

هذا وكل ما ذكرناه كان بعض العلاج الإيجابي لهاتين الحالتين المرضيتين، أما علاج التخويف بعذاب الدنيا وفوقه عذاب الآخرة فهو صاحب الدور الرئيسي في ردع المفرط وتقديم المتأخر المتكاسل.

الحالة الثالثة: حالة الإرادة الواعية

وهي الحالة التي تنسجم مع الواقع الإنساني بشهادة الوجدان، والتي يقبلها الإسلام، محققاً توازناً في الإشباع، وانسجاماً بين الطاقات والهدف، ومعطياً مجالها العلمي الصحيح.

ميول على أساس الذات:

كان هذا حديثاً موجزاً عن الميل نحو الذات وهناك ميولٌ فرعية تقوم على هذا الأساس لنلاحظ بعضها:

---

١. آل عمران: ١٢٦.

٢. الطلاق: ٣.

٣. الانفال: ١٧.

أولاً: حب المال والنعم ميل يقوم على أساس الذات:

فإن الوجدان يشهد بأن الإنسان يريد أن يختص لنفسه ويستأثر بالمال، باعتباره يفتح له آفاق إشباع اللذة الذاتية. ولم يكبت الإسلام هذا الميل، ولا تركه طاغياً. ويمكننا تحديد هذه النظرة بملاحظة النصوص الإسلامية، حيث يمكن تلخيصها بنقاط:

النقطة الأولى: الملكية حقيقة، واعتبارية تخويلية:

إن كل مافي الكون ـ طبقاً للتصور الإسلامي ـ مخلوق لله تعالى، وان كل نعمة يصيب منها موجود هي منة إلهية عليه، ومن ذلك ما يتنعم به الإنسان في حياته من اموال وموارد مادية لاشباع حاجاته، وكلها تجمع تحت عنوان المال فالمال ملك لله تصوراً، والآيات والأحاديث تؤكد أن هذه الملكية الحقيقة لم تنتقل ولو اعتباراً ـ على إطلاقها ـ للإنسان، فالملكية باقية لله تعالى ولم تنتقل بإطلاقها، وإنما خوِّل الإنسان التصرف فيها وأعطي خلافة وشبه وكالة عليها، وهذه الخلافة لأجل قيام حياة اجتماعية، كما سيأتي. وهي ـ كأية وكالة أو تخويل ـ مشروطة بأن يقوم الإنسان بصرف هذا المال في السبيل الطبيعي له، الذي حدده الله للإنسان، وبالموت تنفي هذه الوكالة، وبحصول بعض الحالات يحجر عليه التصرف بمقتضى وكالته حتى تعود له حالاته الطبيعية، كما في مجال السفه والتفليس والصبا. فلنلاحظ النصوص التالية:

﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاء ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاء﴾[١].

﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢].

وواضح، أن النعمة هنا هي المال، أو تشمل المال على الظاهر، وهو المذكور في قوله:

﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[٣].

---

١. الانعام: ٩٤.

٢. الزمر: ٤٩.

٣. الانفال: ٢٨.

﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ﴾[١].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[٢].

فالخلافة على المال جزء من خلافة الإنسان على الأرض:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ﴾[٣].

وعلى هذا جاء التعبير عن المال بأنه مال الله. قال الله تعالى: ﴿وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾[٤].

وطبق هذا الأساس، فكل أمر إلهي بالإنفاق والتنمية المعيَّنة يمتلك ـ بالإضافة إلى عنصر الطاعة الواجبة لله تعالى ـ عنصراً إضافياً هو كونه من المالك الفعلي لهذا المال، ومن الطبيعي أن يتصرَّف المالك كيفما شاء، ولكن اللطف الإلهي يتجاوز الحدود حينما يعبِّر القرآن عن مسألة الصرف في سبيل الله بـ(الإقراض) كما في الآية الشريفة:

﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ﴾[٥].

﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ﴾[٦].

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾[٧].

والذي يبدو أن هذا تشجيع رائع على الإنفاق المستحبِّ، بالإضافة إلى الإنفاق الواجب، وتبدو الروعة عندما نلاحظ أن الله هو مالك المال، ومع ذلك يعبِّر عن استرجاعه بالقرض، وأن المال يصرف في سبيل تحسين أوضاع المجتمع الإنساني نفسه، ومع ذلك يضيفه الله تعالى

---

١. الزمر: ٨.

٢. الحديد: ٧.

٣. الانعام: ١٦٥.

٤. النور: ٣٣.

٥. الحديد: ١٨.

٦. التغابن: ١٧.

٧. الحديد: ١١.

إليه، ثم يتعهَّد بإرجاعه وبشكل مضاعف، ويضيف إليه أجراً حَسَناً بل عظيماً يتناسب مع كرامته وعظمته.

فالنتيجة هي: أنَّ المال ـ في الواقع وحتى في الظاهر ـ ملك لله تعالى، وأن الملكية هي تخويل خاص للإنسان بالتصرُّف وفق خطوط عريضة عليه أن لا يتجاوزها. وإذا تجاوزها فإنَّ هناك آثاراً وضعية وتكليفية معيَّنة عليه أن يتحمَّل تبعتها. كل هذا في أثناء حياته، وبمجرد الموت تعود الأموال إلى الله يوزعها كيفما شاء ولا يبقى له إلا الثلث تفضلاً ورحمة. وواضح أن في هذه الفترة يندفع للأعمال الحسنة.

النقطة الثانية: أنواع الملكية

وعندما نستخدم هذا التعبير يجب أن لا ننسى أنه (التخويل الخاص).

وللملكية في الإسلام أنواع يمكن أن تُجمَعَ تحت العناوين التالية:

الملكيَّة الخاصة الفردية، والملكية الجماعية، وملكية الدولة الإسلامية (الامام).

والإسلام لا يعتبر أيَّ نوع من هذه الأنواع أصلاً والباقي استثناءً، فكلُّها أصول ولها أحكامها الخاصة ومواردها المعيَّنة ومصارفها الرئيسة. ولا مجال هنا للتعرض لذلك، وإنما أردنا أن نشخص نظرة الإسلام من بين تلك النظرات التي تقدس تارة ملكية الفرد فتتعدى على ملكية المجتمع، وأخرى تصنع العكس.

النقطة الثالثة: أهداف الملكية، والنظرة إليها

ما يمكن أن يستفاد هو أنَّ الملكية أعطيت لتنتظم شؤون المجتمع ولتقوم قائمته بها ولتقسم الأعمال وتعمر الأرض بالإضافة إلى أنَّها تشكِّل نوعاً من الإشباع لحبِّ الذات بحصول الإنسان على نتيجة عمله واختصاصه بها. قال الله تعالى:

﴿وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَاماً وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ﴾[1].

«ووجَّه الخطاب إلى الجماعة لأن الخلافة في الأصل لها، ونهاها عن تسليم أموال السفهاء إليهم. وقد عقبت الآية على هذا بالإشارة إلى أهداف الخلافة ورسالتها فوصفت الأموال

---

١. النساء: ٥.

بأنها: «التي جعل الله لكم قياماً» فالأموال قد جعلها الله للجماعة، يعني أنه استخلف الجماعة عليها، لا ليبذّروها أو يجمّدوها، وإنّما ليقوموا بحقها، بأن يستثمروها ويحافظوا عليها، فإذا لم يتحقّق ذلك عن طريق الفرد فلتقم الجماعة بمسؤوليتها»[١].

ووقع التفاضل في الرزق لتجري الحياة الاجتماعية، ويتعاون الجميع باستخدام أحدهم الآخر لتنفيذ مآربه الحياتية:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾[٢].

وهكذا فالمال من نعم الله الكبرى، و«الغنى نعم العون على الآخرة» و«الفقر كاد أن يكون كفراً» وهو «سواد الوجه في الدارين» وهو «الموت المعجّل» كما في الروايات.

وفي مجال تعداد نِعَمِ الله التي تتبع الاستغفار تقول الآية الكريمة على لسان نوح عليه السلام:

﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾[٣].

وكذا في قوله تعالى: ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾[٤].

وتجعل الآية القرآنية النقص في المال إلى صفّ الخوف والجوع، وأنه يمتحن به الإنسان فيقول تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾[٥].

والفقر أمر بنفسه لا يراد للإنسان والمجتمع. يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية:

---

١. اقتصادنا، ج ٢، ص ٥٠١.

٢. الزخرف: ٣٢.

٣. نوح: ١٠ ـ ١٢.

٤. الاسراء: ٦.

٥. البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٦.

«يا بنيَّ إنِّي أخاف عليك الفقر، فاستعذ بالله منه، فإنَّ الفقر منقصةٌ للدِّين، مدهشة للعقل، داعية للمقت»[١].

وهناك أقوال أخر للقادة عليهم السلام فيه تشبه هذا.

وما نجده منها ما يمدح به الفقر فإنَّما هو باعتبار حالة الغرور التي يبعثها الغنى ويفقدها الفقر، وحالة الصبر التي تكون في الإنسان في تلك الحالة، وإلا فالإسلام يؤكِّد: «إن اليد العليا خير من اليد السفلى» (حديث شريف). وان المال المصروف في طريقه الطبيعي: «نعم العون على طاعة الله» و«معلون من ألقى كلَّه على الناس».

وواضح أن الغنى الاجتماعي هو من أكبر أسباب القوة في كل عصر، وقد أمرنا الله تعالى أن: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[٢].

فالإسلام إذن لا ينظر إلى المال نظرة الكراهية ـ كما تنظر بعض الطرق المترهبنة ـ بل يطلب أن يكون صرفه في طريقه المعيَّن له.

والقرآن في مواضع عديدة يؤكِّد مسألة التمتُّع بزينة الدنيا والتي تمثِّل الملكية وسيلتها الرئيسة:

﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٣].

وقد منع القرآن بعض الأساطير التي كانت تفرط في الثروة الطبيعية حيث قال:

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّؤُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[٤].

---

١. نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٥٣١، ح ٣١٩.

٢. الانفال: ٦٠.

٣. الاعراف: ٣١ـ٣٣.

٤. الانعام: ١٤٣.

وقال القرآن أيضاً مخاطباً المؤمنين:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُحَرِّمُواْ طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللّهُ لَكُمْ﴾[١].

النقطة الرابعة: صيانة حقوق الآخرين

حفظ حق الأفراد في المال وعدم انتقاله إلاّ بطرقه المشروعة، فلا يحلُّ لأحد التصرف في مال أخيه إلاّ عن طيب نفسه وبرضاه، وذلك حفظاً للنظام العام:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾[٢].

﴿وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾[٣].

وبنفس الملاك الذي تحفظ به للأفراد حقوقهم في مالهم؛ تحفظ للآخرين حقوقهم في هذا المال بمقتضى التوازن والتكافل الإجتماعي:

﴿وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ * لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[٤].

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[٥].

هذا وإنَّ نهج البلاغة يحدِّثنا عن ضبطٍ كبير للإمام وعدم أيّ تهاون في الحقوق المالية.

النقطة الخامسة: تنظيم كيفية الانفاق

ووفقاً لما سبق من تصور للملكية وأهدافها فإنَّ (سبيل الله) بابٌ واسع لإنفاق الأموال فيه، ولا يعني سبيل الله إلاّ مصالح المجتمع والإنسانية ككلٍّ:

﴿انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾[٦].

---

١. المائدة: ٨٧.

٢. النساء: ٢٩.

٣. الانعام: ١٥٢.

٤. المعارج: ٢٤ ـ ٢٥.

٥. الذاريات: ١٩.

٦. التوبة: ٤١.

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ﴾[١].

﴿إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾[٢].

النقطة السادسة: الانحرافات في تصوُّر المال ونفيها:

منها ـ مقياسية المال للتفاضل:

هذا إلى جانب نفي أيِّ مياس آخر عدا التقوى والعلم، لإيجاد نوع من التفاضل في الخير بين الناس.. فكثرة المال لا قيمة لها في أيِّ حساب. ولا يكشف الغنى بنفسه عن قرب من الله ومحبوبية خاصة لله تجاه هذا العبد:

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[٣].

وذم من افتخر به:

﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾[٤].

﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾[٥].

﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾[٦].

﴿مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾[٧].

﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ﴾[٨].

---

١. البقرة: ٢٦١.

٢. التوبة: ١١١.

٣. المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦.

٤. الكهف: ٣٤.

٥. سبأ: ٣٥.

٦. الليل: ١١.

٧. المسد: ٢.

٨. الحاقة: ٢٨.

منها ـ جمع المال للمال ونسيان وظيفته:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ * يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾[١].

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[٢].

منها ـ حبه الشديد والاغترار والافتتان به:

﴿كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[٤].

﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٥].

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾[٦].

وهنا يمكن أن نلتفت إلى روايات الزهد التي تؤكد على الإنسان أن يكون فوق كل المتع الدينوية بمعنى أن لا يكون أسيراً لها:

﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[٧].

ونتيجة لهذا التوازن في التربية المالية نجد المؤمنين الفقراء في صدر الإسلام يتَّجهون إلى النبي صلى الله عليه وآله طالبين منه أن يدعو الله تعالى ليرزقهم كي يتصدَّقوا فهم يطلبون المال للتصدُّق.

ونجد التنازلات الكبرى عن المال في سبيل الله، فكم تنازل الإمام الحسن عليه السلام عن ماله،

---

١. الهمزة: ١ ـ ٣.

٢. التوبة: ٣٤ ـ ٣٥.

٣. الفجر: ١٧ ـ ٢٠.

٤. المنافقون: ٩.

٥. التغابن: ١٥.

٦. العلق: ٦ ـ ٧.

٧. الحديد: ٢٣.

وكم أنفق الإمام زين العابدين لتحرير العبيد، وهكذا...

ثم ما أكثر الأمثلة القرآنية على نمطين من الناس: نمط يغرهم المال فيتجبرون (كقارون) حيث قال فيه سبحانه:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾[١].

وهكذا قصة أصحاب الجنة:

﴿إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ * قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾[٢].

والنمط الثاني هو نمط أولئك الذين تعلّقت قلوبهم برضا الله والجنة، فلم يعودوا يلتفتون إلى المال ثمناً عوضاً عن الجنة.

ومنهم أهل البيت عليهم السلام الذين نطق عنهم الذكر الحكيم فقال:

---

١. القصص: ٧٦ ـ ٨٢.

٢. القلم: ١٧ ـ ٢٨.

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلَا شُكُورًا﴾[١].

وكذلك امرأة فرعون:

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٢].

وهكذا سليمان عليه السلام الذي لم تعمه هذه الدنيا عن الحق، فما أن تتجلّى له قوة حتى يسجد لله، كما فعل حينما مرَّ بوادي النمل.

والملاحظة أنَّ سورة ﷺ تعرض إلى جانب قصة سليمان عليه السلام قصة أيّوب عليه السلام الذي ابتلي بشتّى الأمراض والمصائب، فصبر صبراً عظيماً، وكأنّها تريد أن تقول: إن الإنسان المؤمن في عزَّ قوّته، وشدَّة ضعفه، يتَّجه إلى الله ويسبحه.

وبعد الخروج عن دائرة الذات تأتي الدوائر القريبة منها، وأقربها حب الأبناء، وينسجم موقف الإسلام منهم مع سائر مواقفه:

ثانياً ـ حبُّ الأبناء:

ويكاد حبُّ الأبناء يعالج بنفس الأسلوب الذي عولج به حبُّ الأموال، ومن هنا نجد الجمع كثيراً بين الأموال والأولاد عند محاولة إعطاء مفهوم عنهما.

فيعترف بأنهما أصيلان في النفس الإنسانية، كسائر الشهوات:

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[٣].

وعندما يتحدث القرآن الكريم عن الأنبياء يثبت لنا عنهم عواطفهم وشوقهم نحو الولد، كما في قصتي إبراهيم وزكريا عليهما السلام:

---

١. الدهر: ٨ ـ ٩.

٢. التحريم: ١١.

٣. آل عمران: ١٤.

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا * قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا *قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا * قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾[١].

وليس امتلاك البنين وامتلاك الأموال أمراً مكروهاً، بل هي نعمة إلهية وتقدير مطلوب لبقاء الحياة النوعية للإنسان لتحقيق كماله كما مر. وقد حارب الإسلام فكرة الوأد بشدّة، إذ كان قتلهم الأولاد «خشية الاملاق»:

﴿وَلاَ تَقْتُلُواْ أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُم إنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْءًا كَبِيرًا﴾[٢].

﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾[٣].

وكما كان المال مغرياً للإنسان ومسبباً لأنواع من التفاضل المنحرف، كان الولد كذلك، بل قد يكون الولد أشدُّ تأثيراً في انحراف الإنسان، ولذا جاء التحذير الإلهي القاطع من المحبة الشديدة التي يذوب فيها الإنسان أمام عواطفه، كما في كل حب، وجعل القرآن حب الله فوق كل حب حتى أنه تنقطع هذه الرابطة النسبية فيما إذا تعارضت مع الرابطة القوية بين الإنسان وربه:

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾[٤].

﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾[٥].

ويفيد الأب حينئذ ابنه الحبيب غاية الحب في سبيل الله وأمره:

---

١. مريم: ٧ ـ ١٠.

٢. الاسراء: ٣١.

٣. التكوير: ٨ ـ ٩.

٤. التوبة: ٢٤.

٥. هود: ٤٥ ـ ٤٦.

﴿قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[١].

وهكذا كثرت الآيات التي تحذِّر من فتنة الأولاد، وحتى أنها تجعل بعض الأولاد اعداءً لآبائهم.

﴿إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾[٢].

﴿أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[٣].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[٤].

وعليه فلا الإهمال لهذه العواطف وقتلها خوف الفقر، ولا الذوبان فيها بحيث ينسى الله وينسى الواجب الإنساني.

وإذا حصل التوازن في هذه العواطف يأتي التوجيه الإلهي ليضيف له واجب التوجيه للأبناء والتركيز على تربيتهم التربية الإلهية الصحيحة، فلا يسمع الابن إذ يأتي إلى الدنيا أي شيء قبل الأذان والإقامة، ولا يسير إلا وفق توجيه الهي منظَّم علَّمه الإسلام لوالديه ليطبقاه على ولدهما لينشأ متوازن الشخصية، محدَّد النظرة، قوي الإرادة، في إطار من الوعي يصحبه دعاء الأب طالباً من الله أن يوفِّق ولده وأن يجعله رضياً:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾[٥].

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٦].

---

١. الصافات: ١٠٢.

٢. التغابن: ١٤.

٣. التغابن: ١٥.

٤. المنافقون: ٩.

٥. البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٨.

٦. البقرة: ١٣٣.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾[١].

ومن أروع الحديث عن تربية الأبناء وتوجيههم حديث لقمان لابنه:

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ * وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾[٢].

وما أكثر توجيهات النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام بهذا الصدد.

ثالثاً ـ حب الآباء:

وهنا نواجه حالتين شاذتين متناقضتين، هما:

١ـ حالة موت هذا الحبِّ وضعفه بحيث يفقد دوره في الحياة.

٢ـ وحالة قوة الربط وتحوُّله إلى حبٍّ مسيطر موجِّهٍ لسلوك الإنساني وحاكم على كل شيء فيه.

الحالة الأولى:

فقد يكون سببها أنّ الارتباط بالأبوين لا يمتلك مثل تلك الدوافع الغريزية الكبرى التي رأيناها من قبل الأبوين بالنسبة للأبناء، والتي تظلُّ تقوى وتقوى شيئاً فشيئاً، في حين نجد أن العواطف القويَّة من قبل للأبناء تجاه آبائهم تحتفظ بقوتها مادام الأب يمثل الممونِ الفكري والتربوي والماديِّ للولد، فإذا ما ضعف التموين شيئاً فشيئاً ضعفت تلك الرابطة كذلك، وقد يصل الأمر بالابن إلى العقوق وفقدان العواطف تجاه الأبوين، خصوصاً إذا كان أحدهما أو كلاهما يمثلان كلاً مالياً على الابن بعد أن تقطَّعَت الرابطة الثقافية بين الجيلين السابق واللاحق.

وهذه الحالة أمر لا يقبله الإسلام مطلقاً لأنها تعني بالإضافة إلى نكران الجميل تمزُّقَ رابطة إجتماعية قوية مؤثرة جداً في التماسك والتربية، في حين نجده يهدف إلى تقوية هذه الرابطة ولو بواجبات إلزامية، بعد أن اعتقد أن العائلة هي نواة المجتمع، ويجب أن تقوم على أساس المودة والمحبة والإحسان والحقوق المتبادلة والأخلاقية الإنسانية وأداء حق الشكر على التعب، ولذا فهو يقرن طاعة الله بطاعة الوالدين والإحسان إليهما، ويذكِّر الإنسان

---

١. مريم: ٦.

٢. لقمان: ١٣ ـ ١٤.

بالتعب والألم الكبيرين في سبيله منهما ليُقوّي جذور هذه المحبة منه لهما:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى﴾[١].

﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾[٢].

﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[٣].

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾[٤].

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[٥].

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾[٦].

وعلى هذا جاءت الروايات الكثيرة التي تدعو إلى بر الوالدين وتحذِّر من العقوق، وتذكِّر بعقابه الدنيوي والأخروي.

ويوسعُ الإسلام من الدائرة العائلية ويجعلها تشمل العشيرة والأقربين، لأنهم أولى بالمعروف، ثم يوسِّع الدائرة ليصل بها إلى دائرة المجتمع الإسلامي العائلي الكبير، حيث يكون إبراهيم عليه السلام أبا لهذه الأمة:

﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾[٧].

وذلك لأنه شيخ التوحيد وهذه الأمة أمة التوحيد، وحيث يكون الرسول صلى الله عليه وآله، والإمام

---

١. البقرة: ٨٣.

٢. البقرة: ٢١٥.

٣. النساء: ٣٦.

٤. الاسراء: ٢٣ ـ ٢٤.

٥. لقمان: ١٤.

٦. الانعام: ١٥١.

٧. الحج: ٧٨.

أمير المؤمنين عليه السلام أبوا هذه الأمة (كما في الحديث الشريف)، وحيث تكون أزواج النبي صلى الله عليه وآله أمهات المؤمنين «وأزواجه أمهاتهم» وحيث تكون الأخوَّة الإسلامية عامة بين المؤمنين: «إنَّما المؤنون إخوة».

كل هذه العاطفة والمودة في إطار كون الأبوين على صرط الحق، أمّا إذا لم يكونا كذلك، وشكَّلا عقبة في سبيل مودَّة الله والجهاد في سبيله؛ فإنَّ المودَّة منقطعة، وإن كانت المصاحبة بالمعروف محقَّقة إلا أن تقتضي المحبَّة الإلهية عدم ذلك، فإن المسلم مائل معها حتى ولو تطلَّبت منه أن يقتل أباه في سبيل الحق فهو يقدم على ذلك:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[١].

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ﴾[٢].

ونفس الآية السابقة من (سورة لقمان) التي أكَّدت على مودَّتهم يتبعها قول: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ﴾[٣].

والتاريخ الإسلامي يحدثنا عن صور رائعة في هذا المجال.

الحالة الثانية:

فهي أيضاً حالة مرضيَّة خطيرة جداً، يذوب فيها الأبناء في شخصيات آبائهم، فلا يملكون من أنفسهم أي إرادة وتفكير، فهم لا يفكرون إلا في إطار تفكير آپائهم، وهذا يؤدّي إلى التقليد في العقيدة والعمل؛ وهو أمر مرفوض تماماً من قبل الإسلام.

والملاحظ أن القرآن يذكر لمختلف الأمم اعتراضهم على أنبيائهم الذين جاءوا ليغيروا

---

١. التوبة: ٢٣.

٢. المجادلة: ٢٢.

٣. لقمان: ١٥.

الواقع والعمل السيء الذي كانوا فيه: بأنهم لا يستطيعون أن يتركوا ما كان يعبد آباؤهم، بل أن معارضي الأنبياء كانوا يتخذون هذا الجانب العاطفي لضرب حركة الأنبياء المغيرة للوضع الفاسد. وهذا ما نلاحظه في الآيات التالية:

﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ * قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾[١].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾[٢].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾[٣].

﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾[٤].

﴿قَالَ مُوسَى أَتقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلاَ يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ * قَالُواْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاء فِي الأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾[٥].

﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٦].

وهكذا تكثر الآيات الواردة في هذا السبيل.

وهنا يقوم الإسلام بعلاج هذه الحالة بتقوية الإرادة والتفكير كما سبق، وبالتحسيس بالفرق الكبير بين حياة الهدى وحياة الضلال، كما يعتبر الاستدلال ضد أولئك المحتجِّين

---

١. الزخرف: ٢٣ ـ ٢٤.

٢. البقرة: ١٧٠.

٣. المائدة: ١٠٤.

٤. الاعراف: ٢٨.

٥. يونس: ٧٧ ـ ٧٨.

٦. الانبياء: ٥٣ ـ ٥٤.

باتباع الآباء وأنه هو السبيل الأصوب؛ خطوة لتقريبهم إلى الحق، وذلك بأن يقال لهم: هل كنتم تتَّبعون آباءكم لو علمتم بأنهم لا يعقلون شيئاً ولا يعلمون ولا يهتدون؟! والجواب الطبيعي سيكون بالنفي، وحينذاك يعي هؤلاء أن الإتباع إنما يكون صحيحاً إذا عرف الإنسان حسن طريقة الأب وصواب معتقده:

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَـٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[١].

وهذا هو الاتباع الواعي الصحيح على ضوء الحقيقة.

كما يذكِّر القرآن بأن المترفين وأمثال فرعون كانوا دائماً هم الذين يستغلّون هذه النعرة لتنفيذ مآربهم، وهذا المعنى يساعد على أن يقوم هؤلاء بمراجعة أنفسهم مرة أخرى، وفي هذا كفاية للسير نحو الهدى.

رابعاً ـ حب النساء؛ أو الميول الغريزية الجنسية:

والدور الأساس في هذا الميل يقوم به النظام الاجتماعي والقوانين المدنية الإسلامية، بالإضافة إلى الدور الذي تقوم به النظم الإسلامية الأخرى كالنظام الأخلاقي والجنائي وغيره.

وطبقاً لنظرة الإسلام الواقعية فإنه هنا أيضاً لم يكبت الغريزة، بل حتى لم ينظر إليها نظرة ازدراء واحتقار ـ كما تنظر إليها المسيحية المنحرفة وبعض المبادئ الشرقية ـ بل جعل تصريفها على الوجه الصحيح المهذَّب من القربات إلى الله تعالى! ومن سنن الأنبياء والصالحين، وندب إليه، وحث على التخلص من حالة عدم التصريف النظيف.

وإذا كان لم يكبت هذه الغريزة فإنه لم يطلقها إطلاقاً هدّاماً بعد أن اعترف بدورها المهم في الحياة، إذ أن الإطلاق الإباحي يقضي ـ أول ما يقضي ـ على أساس التكوين الاجتماعي في نظره وهو (العائلة) ويذيب الأخلاقية العامة، وهي إطار ليس لكل العلاقات الاجتماعية بنظره فحسب، بل لكل السلوكات الإنسانية. بعد أن يقضي على التوازن المطلوب في الإشباع المتوازن للغرائز، ويحول الإنسان إلى حيوان بل أضل! وهذه أخطار تعتبر أكبر بكثير من

---

١. البقرة: ١٣٣.

أخطار الكبت الجنسي رغم كبر أخطاره أيضاً.

فبين الكبت والإطلاق يتحدَّد موقف ثالث للإسلام العظيم يتحدَّد بالإشباع النظيف، ويسري روح هذا الإشباع عبر قوانين الزواج والطلاق والحجاب، وما يرتبط بالاتصال الجنسي والتكوين العائلي، بعد أن حدد الهدف من هذه الغريزة:

إن الهدف هدفان مترابطان بعضهما ببعض، ودخيلان في صنع المسيرة الإنسانية بحيث يشكلان معاً هدفاً واحداً:

أحدهما: السكينة العائلية، والتي تعتبر النواة للسكينة الاجتماعية ككل:﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾[1].

والثاني: الامتداد النوعي للإنسان: فبعد أن تتحدث الآيات عن التربية والرعاية الإلهية للفرد، تذكر ما يشير إلى الامتداد النوعي كما في الآيتين التاليتين:

﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾[2].

﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[3].

وعلى ضوء ذلك: وجدنا الإسلام يدعو بشدة إلى الزواج في روايات كثيرة، وينظم قوانينه وآدابه ومقاييسه، ويعتبره من سنن الرسولﷺ. ومن جملة ذلك: فتح باب (تعدد الزوجات) لمصالح كبرى، وكذلك فتح باب (الزواج المؤقت: المتعة) لمصالح كبرى أيضاً. فكان الزواج، وملك اليمين هما مجالي التصريف الصحيح لتلك الغريزة.. في حين أغلق كل مجالات التصريف الأخرى التي تتنافى مع أهدافه من هذه الغريزة الإلهية، وذلك من مثل: اللواط والسحق، والاستمناء، ووطء الحيوانات، والزنا. وعاقب عليها عقاباً شديداً مما يكشف عن اهتمامه الشديد بهذا الموضوع، حتى أنه جعل عقوباتها من قسم الحدود لا من قسم التعزيرات، لأنها ترتبط ترتبط بالمصلحة الاجتماعية الثابتة.

---

١. الاعراف: ١٨٩.

٢. فاطر: ١١.

٣. الشورى: ١١.

وبعد ذلك الفتح وهذا الإغلاق هيّأ الإسلام الجوَّ المناسب النظيف الذي يؤثران فيه.. تماماً كما فعل في كل مجال.. فلئلا تحرك الغريزة فيفقد الإنسان إرادته تجاهها حذَّره أوّلا من عواقبها الوخيمة ليبقى على ذكر من ذلك دائماً، ثم حرَّم عليه النظر إلى ما يحرك فيه الغريزة، وجعل النظرة سهماً من سهام إبليس مسموماً، وكذلك حرّم عليه الخلوة بالأجنبية لغرض منع العواقب الوخيمة لذلك. وبالتالي أمر المرأة نفسها بالحجاب، وحرّم عليها كشف الزينة، والتطيب المهيج، بل حرَّم عليها القيام بكل عمل يؤدّي إلى ذلك كالترقيق لصوتها للأجنبي. والملاحظ أنّنا نجد أن الإسلام حرّم الموسيقى والغناء المطربين، ولعل إحدى علل ذلك ما يبعثانه من خفة وطرب يفقد الإنسان معها اتزانه وتعقله، وهو جوّ مناسب جداً لأن تطغى عليه بعض الغرائز وخصوصاً غريزة الجنس.. ومن هنا نجد العدو الكافر يؤكّد على أن يوفر هذا الجو بأقصى ما يمكن توفيره.. ومن خلال تعبيرات جنسية ملحَّة مهيجة، وذلك في اللقاءات التي يصنعها لغرض تمييع شخصية الإنسان وتحريك العامل الجنسي فيه.. منفذاً من خلال ذلك مآربه الدنيئة.

هذا من جهة. ومن جهة أخرى؛ فإنا نجد أن الإسلام أغلق باب الاتصال الجنسي ـ إغلاقاً تاماً ـ مع أناس يضطر الإنسان للعيش معهم غالباً، مع أنه لو تمَ ـ والعياذ بالله ـ فهو اتصال مخرِّب ينقلب على الهدف.

ومن هنا جاء تحريم الزواج بالأمهات والأخوات والخالات والعمّات وأمثال ذلك.

هذا في إطار الاتصال الجنسي غير المشروع، أما في إطار الاتصال المشروع فقد مرَّ أن له قوانينه الإسلامية الواقعية.. وقد حذّر الإسلام في هذا المجال من طغيان حبِّ الأزواج بحيث ينقلب على هدفه، فذكَّر المسلم بأن من الأزواج من هي عدو للإنسان، وذلك إذا فقد الإنسان إرادته أمامها فقادته نحو الضلال.

هذا بإيجاز شديد عرض للموقف الإسلامي المتوازن. ونترك التفصيل إلى الكتب المفصلة.

خامساً ـ حب العشيرة

وتأتي الرابطة بينها وبين الفرد في المرحلة التالية للارتباط بالأب والإخوة، إلاّ أنها بنفس الملاك. وعلى هذا يكثر ذكر الأقربين مع ذلك الوالدين والإحسان إليهما في القرآن الكريم.

إلا أنّ شدة الحاجة للقبيلة في بعض المجتمعات وخصوصاً اللامركزية تحوِّل الارتباط بها إلى شبه تعصُّب، بل إلى تعصُّب متزايد، وأخيراً إلى إله كاذب يعبد من دون الله سبحانه.

والإسلام يقبل هذه الرابطة في حدِّها المعقول، ويوضِّح الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هذا الحدَّ فيقول:

«أيها الناس إنه لا يستغني الرجل ـ وإن كان ذامال ـ عن عترته]عشيرته[ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم، وهم أعظم الناس حيطة من ورائه، وألمهم لشعثه، وأعطفهم عليه عند نازلة إذا نزلت به، ولسان الصدق يجعله الله للمرء في الناس خير له من المال يرثه غيره»[١].

ثم يقول:

«ألا لا يعدلنّ أحدكم عن القرابة يرى بها الخصاصة أن يسدها بالذي لا يزيده إن أمسكه ولا ينقصه إن أهلكه، ومن يقبض يده عن عشيرته فإنما تقبض منه عنهم يد واحدة وتقبض منهم عنه إيد كثيرة، ومن تلن حاشيته يستدم من قومه المودة»[٢].

إنَّ الحد المعقول: هو أن تكون العشيرة سنداً للإنسان تحفظ ذكره، وتعطف عليه عند نزول النوازل وأمثال ذلك مما يكون عنصراً إضافياً للشدِّ الاجتماعي.. وقد لاحظ الإسلام هذا المعنى عندما وضع دية قتل الخطأ على العاقلة كنوع من التعاون والتكافل داخل المجتمع الصغير (الأقربين).

وعلى هذا الأساس دعت الآيات إلى ملاحظة حال الأقربين، وأنهم أولى بالمعروف والإحسان من غيرهم. والأقربون وإن كانوا أخصَّ من العشيرة ـ ظاهراً ـ إلا أنّ العشيرة تعدُّ من الأقربين بالنسبة لغيرها قطعاً.

﴿قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾[٣].

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾[٤].

---

١. نهج البلاغة، محمد عبده، ص ١١٥.

٢. نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٦٥.

٣. البقرة: ٢١٥.

٤. البقرة: ٨٣.

﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ﴾[١].

﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاء ذِي الْقُرْبَى﴾[٢].

﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾[٣].

هذه هي الصورة الصحيحة لرابطة ذوي القربى والعشيرة: إنها صورة التعاون والتكافل الخاص. أمّا إذا تجاوزت الرابطة حدودها المعقولة وتحوَّلت إلى ظلم للآخرين لصالح العشيرة، وتعصُّب أعمى للعشيرة ومبائدها ومعتقداتها، وطاعة عمياء لها في كل شيء وخصوصا لكبرائها المصلحيين؛ فهذا أمر يرفضه الإسلام رفضا قاطعا، على أساس أنه من أخلاق الجاهلية التي قضى عليها الإسلام، وقد عمل على أن يقضي عليه ووفق إلى حد بعيد في ذلك، وإن أحييت هذه العصبية بعد وفاته ﷺ شيئاً فشيئاً حتى بلغت القمة على يد بطل التعصب الجاهلي (معاوية)!

أمّا التحيُّز للعشيرة وعدم مراعاة العدل؛ فهو ما تنفيه الآية الكريمة:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾[٤].

وأما التعصب والطاعة العمياء للقبيلة والكبراء؛ فقد وردت نصوص في ذمه وأنه من أخلاق الجاهلية. فتتحدث الآية التالية ـ مثلاً ـ عن حسرة الكفّار يوم القيامة لطاعتهم لهؤلاء الكبراء:

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا * وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[٥].

وذم القرآن الكريم ذلك التفاخر القبلي المقيت عند العرب فقال:

---

١. البقرة: ١٧٧.

٢. النحل: ٩٠.

٣. الروم: ٣٨.

٤. النساء: ١٣٥.

٥. الاحزاب: ٦٦ ـ ٦٨.

﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾[١].

ويقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام:

«ألا وقد أمعنتم في البغي، وأفسدتم في الأرض، مصارحة لله بالمناصبة، ومبارزة للمؤمنين بالمحاربة، فالله الله في كبر الحميَّة وفخر الجاهلية! فإنه ملاقح الشنآن ومنافخ الشيطان، التي خدع بها الأمم الماضية والقرون الخالية، حتى أعنقوا في حنادس جهالته ومهاوي ضلالته، ذللا عن سياقه، سلساً في قياده، أمراً تشابهت القلوب فيه، وتتابعت القرون عليه، وكبراً تضايقت الصدور.

ألا فالحذر الحذر من طاعة ساداتكم وكبرائكم الذين تكبَّروا عن حسبهم، وترفعوا فوق نسبهم، وألقوا الهجينة على ربهم، وجاحدوا الله على ما صنع بهم، مكابرة لقضائه، ومغالبة لآلائه؛ فإنهم قواعد أساس العصبية ودعائم أركان الفتنة وسيوف اعتزاء[٢]. الجاهلية! فاتقوا الله ولا تكونوا لنعمه عليكم أضداداً، ولا لفضله عندكم حساداً، ولا تطيعوا الأدعياء الذين شربتم بصفوكم كدرهم، وخلطتم بصحتكم مرضهم، وأدخلتم في حقكم باطلهم، وهم أساس الفسوق وأحلاس العقوق، اتخذهم إبليس مطايا ضلال، وجنداً بهم يصول على الناس، وتراجمة ينطق على ألسنتهم، استراقاً لعقولكم، ودخولاً في عيونكم ونفثاً في أسماعكم، فجعلكم مرمى نبله وموطئ قدمه ومأخذ يده»[٣].

وهكذا يمضي أمير المؤمنين عليه السلام يشرح لهم عواقب الكبر والتعصب:

«ولقد نظرت فما وجدت أحداً من العالمين يتعصب لشيء من الأشياء إلا عن علة تحتمل تمويه الجهلاء أو حجة تليط بعقول السفهاء غيركم، فإنكم تتعصبون لأمر ما يعرف له سبب ولا علة. أما إبليس فتعصَّب على آدم عليه السلام لأصله، وطعن عليه في خلقته فقال: أنا ناري وأنت طينيٌّ.

وأمّا الأغنياء من مترفة الأمم فتعصَّبوا لآثار مواقع النعم فقالوا: «نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين» فإن كان لابد من العصبية فليكن تعصبكم لمكارم الخصال،

---

١. التكاثر: ١ ـ ٢.

٢. اعتزاء الجاهلية: تفاخرهم بانسابهم.

٣. نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠.

ومحام الأفعال، ومحاسن الأمور، التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء من بيوتات العرب ويعاسيب القبائل؛ بالأخلاق الرغيبة، والأحلام العظيمة، والأخطار الجليلة والآثار المحمودة فتعصَّبوا لخلال الحمد...»[١].

وكذا يذكِّرهم بتلك الخصال، ويدعوهم إلى الاعتبار بأحوال الماضين، وكيف اتخذهم الفراعنة عبيداً.. وبهذا يحاول عليه السلام أن يعطيهم البديل الصالح لتلك الصفة الذميمة.

سادساً ـ حبُّ أفراد المجتمع المؤمن

ويقوم هذا الحبُّ على أساس الرابطة الإيمانية والهدفية المشتركة، ويستمد من أسس الحبِّ الأخرى أسسه. وقد حاول الإسلام تنمية هذا الحبِّ تنمية قوية بمختلف الأساليب، لأنه يحتاج إلى تنمية كبرى.

فقد رأيناه من قبل ركَّز على أن يكون المقياس في الحبِّ: هو كونه (في الله).

وهنا يطبق هذا المقياس بشدة على أفراد المجتمع المسلم، فإن الله تعالى يحبُّ المؤمن، فالمؤمن يحب المؤمن ويكرمه لله سبحانه.

كما نراه يضع قاعدة لهذا الحب وهي: (الأخوة) فيقول:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٢].

وتتواتر الأحاديث في أخوة المؤمن للمؤمن، وفي حقوقه على أخيه هذا.

وقد أكّد النبي صلى الله عليه وآله هذه الأخوة حينما جسَّدها في عملية التآخي الكبرى في مطلع بناء المجتمع المسلم في المدينة. ومن ثم يذكر المسلمين دائماً بنعمة الأخوّة الإسلامية الكبرى:

﴿وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾[٣].

ثم إنه لا ريب في أن الواجبات المشتركة والسلوكات المتحدة تشدُّ المؤمنين بعضهم إلى بعض؛ فتقول الآية الكريمة:

---

١. نهج البلاغة، صبحي الصالح، ص ٢٩٥.

٢. الحجرات: ١٠.

٣. آل عمران: ١٠٣.

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١].

وبعد هذا نجد الإسلام يؤكِّد على نفي كلِّ أسباب التباغض بين أفراد المجتمع المسلم نفياً قاطعاً.

ومن أسباب التباغض: السخرية، والظن السيء، والتجسس، والغيبة.. فيقول الله سبحانه بعد قوله:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاء مِّن نِّسَاء عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[٢].

وهنا تأتي قاعدة (حمل عمل المسلم على الصحة) وأمثالها، لتعمق الثقة بين المسلمين، وتنشئ الحقوق الكثيرة لبعض المسلمين على البعض الآخر، والتي تذكر في مختلف كتب الروايات والأحاديث.

ومما يعمق هذا الحبَّ كثيراً حثُّ المسلمين على العفو عن الإساءة إلى الآخرين، وأمرهم بالتسامح، كما في الآيات التالية:

﴿وَأَن تَعْفُواْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنسَوُاْ الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[٣].

﴿إِن تُبْدُواْ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُواْ عَن سُوَءٍ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾[٤].

---

١. التوبة: ٧١.

٢. الحجرات: ١٠ـ ١٣.

٣. البقرة: ٢٣٧.

٤. النساء: ١٤٩.

﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[١].

﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾[٢].

﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٣].

﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾[٤].

﴿وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ﴾[٥].

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[٦].

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾[٧].

﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[٨].

سابعاً ـ حب الإنسانية:

والإسلام في هذا المجال أيضاً يؤكد تنمية حب المسلم للإنسان بما هو إنسان، فهو: نظير له في الخلق، كما في تعبير الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في عهده إلى مالك الأشتر. وجاء الكثير من النصوص القرآنية مصدرة بعبارة: يا أيها الناس، وكانت الرحمة الإلهية عمومية شاملة لجميع الناس.

فالإنسان محبوب للمسلم حتى ولو لم يكن مسلماً، فهو يسعى لهدايته حباً له وانقاذاً من الضلال والعمى، ولا يمنعه الإسلام من البر والإحسان إلى غير المسلم مالم يكن هنا مانع آخر ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا

---

١. التغابن: ١٤.

٢. النور: ١٣.

٣. المائدة: ١٣.

٤. البقرة: ١٧٨.

٥. البقرة: ٢١٩.

٦. الاعراف: ١٩٩.

٧. آل عمران: ١٣٤.

٨. النور: ٢.

إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[١].

وهكذا يحد هذا الحب بما إذا لم يكن الطرف الآخر قد سعى إلى ضرب العقيدة وإيذاء المسلمين.. وطبيعي هذا التقييد لتحقيق التوازن، وإلا فإنّا سوف نتوقّع من العدوّ أن يستعمل هذا الولاء والمحبَّة جِسراً يعبر عليه إلى مآربه الدنيئة في ضرب العدل ورمزه المتمثل بالإسلام.

كما أن هذا الميل لا يبقى عندما يرى المسلم أنه لا سبيل إلى هداية هذا الإنسان، وحينئذ تنقطع الروابط فلا يستغفر المؤمن للكافر مطلقاً، ولا يقعد بعد الذكرى معه، بل لا يعتبره إنساناً:

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾[٢].

الصفات النفسية التي هذَّبها الإسلام

وإذا رجعنا إلى الصفات النفسية الأخرى نجد الإسلام يهذِّبها غاية التهذيب بعد أن يعترف بها أيضاً.

فالغفلة مثلاً: صفة جديرة بأن تخلِّص الإنسان من أكثر همومه، وترجعه إلى حالته الطبيعية بعد أن يغفل عن صورتها المجسمة، إلاّ أنَّ هذه الغفلة يجب أن لا تطغى في وجود الإنسان فتنسيه الواجبات وتفقده توازنه بعد ذلك.

وأهمُّ شيء يجب أن لا يغفل عنه الإنسان هو وجود الله تعالى المهيمن المسيطر المنعم، ومركزه الضعيف تجاهه تعالى، وما يتصل بعالم الآخرة والمصير وغير ذلك:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾[٣].

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾[٤].

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾[٥].

---

١. الممتحنة: ٨ ـ ٩.

٢. الانفال: ٥٥.

٣. الكهف: ٥٧.

٤. طه: ١١٥.

٥. يس: ٧٨.

﴿فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَاء يَوْمِهِمْ هَذَا﴾[١].

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾[٢].

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾[٣].

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾[٤].

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُواْ لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾[٥].

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[٦].

﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾[٧].

وغيرها من الآيات التي تذكّر بالله ونعمه الكبرى.

ولعل في الصلاة أعظم مذكّر بالله تعالى ووظيفة الإنسان والآخرة، وبه فسّر قوله سبحانه:

﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّه اكبرِ﴾[٨].

وهكذا نجد عملية التذكير المجسد في الحج مثلاً.

كلُّ ذلك لئلا تنقلب هذه الخاصة على أهدافها فينحرف الإنسان وتلقيه في بحر من القلق والاضطراب والارتباك، بعد أن كانت لكي تخلّصه منه.

بعض الصفات النفسية المهمة المؤثرة في حياة الإنسان:

الغضب: فالغضب مفيد جداً للإنسان، إذ يحركه غاية التحريك أحياناً ليؤدّي الأعمال الكبرى التي قد لا يؤدّيها لو لم تكن تلك الحالة.. إلاّ أنه يجب أن لا يتجاوز حدود التحريك

---

١. الاعراف: ٥١.

٢. ص: ٢٦.

٣. الحشر: ١٩.

٤. الاعلى: ١٤ ـ ١٥.

٥. البقرة: ١٥٢.

٦. آل عمران: ١٩١.

٧. آل عمران: ٤١.

٨. العنكبوت: ٤٥.

في إطار من التعقل السليم، وإلا أفقد الإنسان وعيه، ووقع مالا تحمد عقباه. ولذا جاء التحذير الشديد من مثل هذا الغضب الأهوج.

فكما أننا نجد القرآن يصف المؤمنين بـ(الشدة على الكفار) ويأمر الرسول ﷺ (بالغلظة عليهم)، نجد الرسول ﷺ يقول: «الغضب يفسد الإيمان كما يفسد الخل العسل»[1].

وعن ميسر قال: ذكر الغضب عند أبي جعفر عليه السلام فقال:

«إنَّ الرجل ليغضب فما يرضى أبدا حتى يدخل النار، فأيّما رجل غضب على قوم وهو قائم فليجلس من فوره ذلك، فإنه سيذهب عنه رجز الشيطان، وأيما رجل غضب على ذي رحم فليدن منه فليمسه، فإن الرحم إذا مسّت سكنت».

وعن الإمام الصادق عليه السلام: «الغضب مفتاح كل شرّ».

وهكذا يوصف المؤمنون بكونهم (الكاظمين الغيظ)، وها نحن نتعرض بشيء من التفصيل لحالة نفسية هامة هي حالة التأثر بالمحسوس أكثر منه بالمعقول لنجد موقف الإسلام منها:

المحسوس والمعقول وآثارهما وموقف الإسلام منهما

إذا تجاوزنا مرحلة التأثيرات الغريزية تبرز لنا مرحلة التأثر بالمحسوس والمعقول وأزاء هذه المرحلة تنطرح أسئلة عامة حول أكثرية تأثير أحدهما على الإنسان، وحول مضار التطرُّف فيهما أو منافعه لو وجدت، وحول دور كل منهما في تنمية الاستعدادات الذاتية في الإنسان، وغير ذلك.

ونحن بعد أن نحاول إعطاء إجابة موجزة عليها على ضوء الوجدان والواقع، نحاول أن نقيس موقف الإسلام بالنتيجة الوجدانية فنعرف بالتالي واقعية الإسلام وتوازن موقفه.

تأثر ـ الإنسان ـ بمحسوساته أكثر من تأثره بمعقولاته

إن الوجدان يشهد بأنَّ القضية كلّما قربت إلى عالم الحسِّ كانت أبعد أثراً وأكثر وضوحاً في

١. الاخلاق، شبر، ص ١٤٤ ـ ١٤٥.

سلوك الإنسان.

ويمكن أن نرجع هذه الظاهرة إلى كون الإنسان في نفسه قد مرَّ بمرحلة لا يألف فيها إلا التأثر بالمحسوسات ـ وهي مرحلة الطفولة الأولى ـ ومن ثم يحاول أن يتجرَّد من أسر المحسوسات بالتفكير المجرّد وذلك كله مما يركّز في ذهنه أصالة التأثر بالماديّات المحسوسة.. ويصوِّر له كون الاتصال بالأمور المحسوسة اتصالاً مباشراً، في حين يبقى اتصاله بما يتعلَّقه اتصالا غير مباشر.

التأثير الإيجابي لهذه الظاهرة

وهذه الظاهرة لو نظرنا إليها في حدِّها المعتدل، لو جدناها أمراً ضرورياً جداً:

أـ لجعل الإنسان يتأثر بواقعه الذي يعيش فيه ويعمل بكل جهده على أن يكون واقعياً في نظراته بعيداً عن عالم الخرافة والأساطير.

ب ـ في إضفاء نوع من الهدوء والرضا على حياة الإنسان بحيث لا يتأثر بكل ما مرَّ عليه فعاد الآن من المعقولات، أو ما يتصوَّر أنه سيمر عليه ولكنه فعلا من المعقولات.. وبعد هذا الهدوء يستطيع أن يعود نفسه فيفكر تفكيراً مستقيماً بناءً هادئاً، ويفسح المجال لتأثير المعنويات التي صدَّق بها لكي تعمل عملها.

وهذا يمكن أن يجر الإنسان إلى مسارب لا تحمد عقباها بل هو قد فعل ذلك كما نشاهده في من سيطر الحسُّ على مشاعرهم وشغفوا به حتى لم يُعوَّدوا النظر إلاّ من خلاله، والإيمان إلاّ بواسطته ومن هنا شاهدنا تجنيهم على الواقع، وإنكارهم لدور المعقول إلا في ضمن الحسِّ، ورفضهم الأمور المعنوية التي لا يصل إليها الحسّ نظراً لقصور أدواته فحسب، دون أن يلتفتوا إلى أنّهم لا يمكنهم إنكار عالم وراء الحس بآثاره وإن لم نحسَّ به.

حتى لقد رأينا البعض من هؤلاء الذين أغرقوا بالتأثير بالمحسوسات ينكر حتى الأمور الضرورية (كمبدأ العليَّة) لأنه يستطيع أن يحس بالرابطة بين العلة والمعلول أو يجعل الموجودات الخارجية مجرد ظواهر لا غير، ذلك لأنه لا يمكن للحس النفاذ إلى واقعها الجوهري بل تطرَّف البعض من هؤلاء فلم ينكر أبده البديهيات عند الإنسان (وهو مبدأ استحالة اجتماع النقيضين) فحسب بل جعل ذلك أساساً لنظرية تاريخية.

وقد كان لكل هذا التطرف آثاره الممتدة في كل الجوانب، وأقل هذه الآثار تشويه المفعول الحقيقي لجانب المعقول في الإنسان، ومحاولة صوغه ضمن إطار ماديٍّ محاولة يستحيل الركون إليها.

هذا في مجال التطرُّف في الجانب المحسوس. أمّا في مجال التطرّف في الجانب المعقول فهو لا يقل أثراً عن ذلك التطرُّف إذ أدى هذا إلى طوبائية مغرقة، ويوتوبية سلوكية لا تمتُّ إلى الواقع بصلة بل لا تهتم به، وكان من نتائج ذلك أن تعذّب الحسُّ في الإنسان ـ ممثلا في جسده ـ أشدَّ التعذيب، وحلَّق العقل في آفاق صاغها له طموحه الغريب فتصوَّر صاحبه أنه تحوَّل إلى معنى كامل، وتخلَّص من أسر الجسد والحسِّ.

وكل هذا فيه مافيه من بعد عن المسير الطبيعي للإنسان وتحطيم للروابط والعلائق الاجتماعية، وإماتة للكثير من النوازع الإنسانية الأصيلة، والتجاء إلى عوالم الخرافة والأساطير.

ظاهرة تكامل الغرائز الحسيَّة أسرع من تكامل العناصر الفطرية المرتبطة بعالم المعنى

ونقصد بالغرائز الحسيَّة تلك الطاقات والاستعدادات التي تتفتَّح عن ميول مادية نحو الأكل والجنس، كما نقصد بالقسم الآخر ذلك النوع من الطاقات التي تنبع من الفطرة والتي تتفتح عن ميول لعالم المعقولات والمعنى.

والملاحظ بكل وضوح أن القسم الأول مادام يتعامل ويتأثر بالجانب المادي الحسي فإنَّه سيتفتح بصورة طبيعية وبلا احتياج إلى تربية معينة، ويكفي فيه حصور المنبهات الحسيّة، في حين أن القسم الثاني يظلّ كامنا في أعماق النفس الإنسانية متطلباً المنبهات المعنوية أو ما يقوم مقامها من منبهات حسية تعبر عنها لينعكس على سلوك الإنسان شيئاً فشيئاً.

ومن هنا فإن المبدأ إذا كان واقعياً ملتزماً يجب عليه أن يركز على القسم الثاني من هذه الغرائز ـ دون إغفال القسم الأول ـ لتحقيق التوازن. لكي يشكل هو الدوافع والمنبهات التي تقوم بما تقوم به المنبهات الحسية للقسم الأول من دور، وهذا الدور يتمثل في نظام خلقي تربوي، متعدد الجوانب، بعيد النظرة، محدَّد المقاييس.

ننتهي من هذا إلى مايلي:

١ـ يجب أن نعترف بكل من واقعية التأثر بالجانب الحسّي والتأثر بالجانب العقلي المعنوي،

ونِنفي كلَّ نزعة تطرُّفية في البين.

٢. إن التأثر بالأمور المحسوسة هو أكبر من التأثر بالأمور المعقولة مع افتراض وحدة هذين النوعين، أي مع افتراض تحوُّل الأمور المحسوسة إلى أمور معقولة، وإن ذلك أمر ضروري لحياة الإنسان.

٣. إنَّ التكامل في الاستعدادات للميول المادية طبيعي، وليس كذلك بالنسبة للاستعدادات للميول المعنوية، ولذا فعلى المبدأ الواقعية أن يقوم بجانب التعويض عن المنبه الحسيِّ.

موقف الإسلام

وقد وقف الإسلام من هذه الظواهر موقفاً يتناسب مع كل مواقفه الأخرى. ذلك هو موقف الواعي المدرك لها المستغل لها تمام الاستغلال.. خصوصاً وهو المبدأ الذي يقوم على أساس غيبي معنوية ينطلق منه، فيلون الحياة المادية والمعنوية للإنسان بلون خاص، بل يمنحها روحاً معينة.. فمن الضروري له جدا أن يحاول التقريب بين عالمي الغيب والشهادة بمختلف الأساليب.

ومن الضروري له جداً أن يعمل على تنمية الطاقات المعنوية في الإنسان لأنها ستكون سبيله نحو الحياة التي يبتغيها له.

وأخيراً فمن الضروري له جداً أن لا يقتصر في توجيه الإنسان على إقناع عقله وتوجيهه نظرياً فحسب، وأنّما عليه أن يقدِّم النماذج الحسيَّة العليا في مختلف التوجيهات المعنوية.

اعتراف الإسلام بهذه الظاهرة

إنَّ الإسلام يعترف بهذه الظاهرة، ويعتبرها أمراً طبيعياً ناتجاً من الضعف الملازم للإنسان مهما بلغ من درجات الكمال.

ففي قصة إبراهيم عليه السلام يقول القرآن الكريم:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ

سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[١].

فرغم أنّ إبراهيم عليه السلام كان من المؤمنين تماماً بقدرة الله وإحيائه، ولم يشك في ذلك مطلقاً، لكنه أراد أن ينفذ هذا الإيمان إلى كل وجوده ومشاعره. وهذا ما عبَّر عنه بقوله: «ولكن ليطمئن قلبي» فللحس أثره النفَّاذ في المشاعر والعواطف.

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ۞ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۞ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۞ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾[٢].

فرغم علم زكريا السابق بقدرة الله تعالى وأنه لا مجال للتساؤل أمامها، عاد يسأل عن إمكان ذلك، ولما جوبه بأن ذلك لا يعدُّ شيئاً أمام قدرة الله؛ راح يطلب الآية الحسيَّة كي يقنع مشاعره بعد أن أقتنع عقله بأنه سيحصل على الولد، فكانت الآية حبس لسانه ثلاث ليال سويا.

وهكذا نشاهد في قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، فإنه رغم أنَّ موسى عليه السلام كان يعلم بأن العبد لم يكن ليفعل شيئاً يخالف الحكمة والمصلحة، ولكنه لمَّا كان يواجه بموقف لم يألفه حِسُّه من قبل إلا في مجال الانحراف، لذلك لم يكن ليكفيه علمه المسبق، وكان يحتاج لتذكير متكرِّر من ذلك العبد الصالح بها.

هكذا كان الحال مع الأنبياء فكيف بالأمر مع الباقين.

إن ذلك ليكشف لنا عن أن الإسلام لا يعتبر ذلك ظاهرة مرضية بل ظاهرة يجب العمل على التقليل من حدتها فقط شيئاً فشيئاً.

ومن هنا فقد عمل على التقريب بين العالمين المعنوي والحسي، وطلب أن ينفذ الإيمان إلى الأعماق.

﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾[٣].

---

١. البقرة: ٢٦٠.

٢. مريم: ٧ ـ ١٠.

٣. الحديد: ١٦.

وجعل المؤمنين الواعين هم أولئك الذين تفاعل حسيُّهم مع تعقلهم:

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾[١].

﴿وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[٢].

ويقول تعالى:

﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاء وَمَن يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾[٣].

وهذا الربط يقوى وتقل المسافة بين العالمين كلّما قوي التعقل والإيمان بالفكرة معاً إيماناً صنّاعاً نافذاً للمشاعر.

وعلى طريقة القرآن عمل الأئمة المعصومون على تركيز هذا التقريب. فهذا بعض أصحاب أمير المؤمنين عليه السلام رأى كيف أظفره الله بأصحاب الجمل فقال:

«وددت أن أخي فلاناً كان شاهدنا ليرى ما نصرك الله به على أعدائك».

فقال عليه السلام: «أهوى أخيك معنا؟» فقال نعم قال عليه السلام: «فقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وأرحام النساء سيرعف بهم الزمان ويقوى بهم الإيمان»[٤].

وهو عليه السلام يصف المتقين فيقول: «فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعّمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون»[٥].

ويقول عليه السلام: «فإذا مرّوا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً

---

١. المائدة: ٨٣.

٢. التوبة: ٩٢.

٣. الزمر: ٢٣.

٤. نهج البلاغة، صبحي الصالح، ط ١٢، ٥٥.

٥. نهج البلاغة، صبحي الصالح، ط ١٩٣، ٣٠٣ ـ ٣٠٤.

وظنوا أنها نصب أعينهم، وإذا مرّوا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنُّوا أن زفير جهنم وشهيقها في أصول آذانهم».

كل هذه النصوص تعمل على تقريب مستوى التأثر بالجانب المعقول وجعله على مستوى التأثر بالجانب المعنوي أو فقل تجسيد المعقول والإحساس به.

القرآن يجسِّد المعاني بأساليب مختلفة

والقصص والتمثيل وتناسق الحروف والصياغة المتناسبة مع الموقف هي أساليب استعملها القرآن في سبيل تجسيد المعاني.

القصص:

والقصة لا محالة لها تأثيرها الإيحائي في جعل الإنسان يتتبع خطاها خطوة خطوة، وكأنه يعيش عالمها وكأنه هو البطل، وهذا مما يوحي له بالتمثيل والتشبه به فينسى عالمه ليعيش ذلك العالم، ومن ثم فقد كانت القصص سيفاً ذا حدَّين يمكنه أن يبني وأن يهدم، ومن هنا رأينا إكثار القرآن لذكر القصص الهادف الذي يحاول أن يجسد المعاني العقائدية للدعوة الإلهية... ولا نريد هنا أن نستعرض كل أهدافها وما أوجدته من تأثيرات وإنما نذكرها كأسلوب من أساليب تقريب المعاني وتركيزها وتحويل السامع للقرآن إلى مشاهد لعملية تجسّد هذه المعاني.

فلأجل بيان آثار العقيدة الإلهية في خلق الثبات، يعرض القرآن لنا مثلاً قصة السحرة الذين جيء بهم لتأييد باطل فرعون، ولكنهم ما أن يجابهوا بالحق حتى يؤمنوا به، وإذ جاءهم تهديد فرعون بأشدِّ العذاب ينطلق قائلهم قائلاً:

﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[1].

وكذلك يعرض لنا موقف مؤمن آل يس من قومه المنحرفين بتلك الكلمة الخالدة ﴿إِنِّي آمنت بربكم فاسمعون﴾[2].

---

١. طه: ٧٢.

٢. يس: ٢٥.

وفي مجال بيان العفة التي تبعثها في النفس مراقبة الله يضرب لنا مثلاً قصة النبي يوسف عليه السلام، وكيف أنه قال حين جوبه بكل أنواع المتعة المادية والإغراء مع التنازل عن شيء من مقتضيات العقيدة، قال:

﴿قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾[1].

وفي مجال تركيز عبودية عيسى لله تعالى يذكر لنا قصة مريم، وكيف انطلق لسان عيسى في ذلك الموقف العاطفي الرهيب وهو في المهد:

﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾[2].

وهكذا فإن القرآن عندما يريد أن يجسد للمسلمين أخلاقية اليهود يعرض لهم شيئاً من قصصهم التي تمثل ماديتهم ولجاجتهم وقتلهم الأنبياء وحقدهم وغير ذلك.

ولهذا الجانب حديث مفصَّل.

التمثيل ودوره في تجسيد المعاني

والتمثيل لما كان تشبيهاً بالأشياء الأقرب إلى الحسِّ فقد استعمله القرآن أروع استعمال في تجسيد المبادئ والمعنويات التي أراد أن يفهمها للناس وها نحن نستعرض بعض هذه التمثيلات:

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ﴾[3].

﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ﴾[4].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ﴾[5].

---

١. يوسف: ٢٣.

٢. مريم: ٣٠.

٣. البقرة: ١٧.

٤. البقرة: ٢٦١.

٥. البقرة: ٢٦٤.

﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾[١].

﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونِةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ﴾[٢].

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾[٣].

﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾[٤].

﴿ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا لاَّ يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ﴾[٥].

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاء مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾[٦].

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾[٧].

التناسق الأدائي في القرآن ودوره في خلق الإحساس بالموقف

ونقصد ذلك الجرس اللفظي القرآني الذي يتناسب أروع المناسبة مع المعنى المتوخّى من اللفظ مما يعطي للّفظ بعداً آخر غير البعد الدلالي المعتاد... وإذا بالإنسان يجسد المعنى ضمن

---

١. ابراهيم: ٢٦.
٢. النور: ٣٥.
٣. العنكبوت: ٤١.
٤. الجمعة: ٥.
٥. النحل: ٧٥.
٦. الزمر: ٢٩.
٧. الفتح: ٢٩.

سماعه لصوت اللفظ وأدائه، ويتوضح هذا إذا لاحظنا أمثلته وها نحن نختار مثالين لذلك، ونكتفي بهما. يقول القرآن الكريم في مجال التذكير بعاقبة البطر والترف وعدم شكر النعمة:

﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ * وَلَا يَسْتَثْنُونَ * فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ * فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ * فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ * أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ * فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ * أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ * وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ * فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ * بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾[١].

نحن أمام أصحاب جنة وروضة دنيوية كان للمساكين فيها حظٌّ ولكن ورثة صاحبها أرادوا أن يمنعوها ذلك. ويقرُّ رأيهم على أن يقطعوها صباحاً بلا استثناء لحظ المساكين. فبينما هم في عالمهم ينقلنا القرآن إلى مفاجأة تتم خفية حيث يطوف طائف من ربك وهم نائمون فتصبح خاوية كالصريم ويصبح أولئك الماكرون وهم يتنادون فيما بينهم ويحمس بعضهم بعضاً وينطلقون وهم يتهامسون لئلا يسمعهم أحد، ولكنَّهم مصمِّمون على المنع وهم يتصوَّرون أنفسهم قادرين. فلمّا وصلوا ورأوا الحالة ظنوا أنهم أضاعوا الطريق، ولكنَّهم في النهاية عرفوا الحقيقة.

والمشاهد في هذه القصة وعرضها أن الموسقة اللفظية تتناسب مع الحالات التي تنقلها مما تضفي طابعاً من التجسيد لها.

وفي معرض وصف مايجري يوم القيامة يقول تعالى:

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيهْ * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيهْ * يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ * مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيهْ * خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾[٢].

ويلاحظ في هذا النص الشريف وجود حالتين: حالة يأس الكفار، وحالة غضب الله تعالى.

ففي الحالة الأولى نجد الوقفة الطويلة والحسرة المديدة والنغمة اليائسة والرنَّة البائسة.

وفي الحالة الثانية نجد النغمة الآمرة والتشديد والواو المخيفة والسلاسل السبعين وغير ذلك.

---

١. القلم: ١٧ ـ ٢٧.

٢. الحاقة: ٢٥ ـ ٣٢.

وهكذا نلاحظ هذا المعنى في اختيار الألفاظ التالية لمعانيها وهي: الحاقة، الطامة، الصاخة، القارعة[١] أثّاقلتم إلى الأرض، وغير ذلك. أما الأحاديث الشريفة فقد حفلت أيضاً باستعمال هذه الأساليب مثل الحديث الذي يشبه الصلاة بالحمة التي يغتسل فيها، والحديث الشريف الذي يشبه المجتمع بركّاب السفينة، وعمل المخرب بمن يريد أن ينقب موضعه فتغرق السفينة، وغير ذلك كثير، ومثل الروايات التي تتحدث عن قصص الماضين وغيرهم.

الوحي والنبي جسران حسِّيَّان إلى عالم الغيب

أما الوحي فإنه على درجاته يمثل دور الممثل المجسد لعالم الغيب أمام النبي.. وعلى اختلاف مدى الاستعداد الفعلي له في تقبل تجسد ذلك العالم العظيم في شخص وعلى ضوء الضرورة المتطلَّبة يتمثل الوحي بشكل حسي ومن درجاته: الإلهام القطعي، والمنام، وسماع الصوت، وعدم رؤية الشخص، والسماع والرؤية، وهي غاية ما يمكن به تمثيل ذلك العالم البعيد عن أوضار المادة.

ومهما كان فإن في التجسُّد حتى لشخص النبيﷺ اطمئناناً وتأثيراً قوياً لا يمكن الاستغناء عنه.

وكذلك فإن النبيﷺ نفسه يمثل التجسيد المجمل لعالم الغيب وذلك ضروري جداً بالنسبة لما يراد من النبي من القيام بأعباء التربية مهما اختلفت مساحاتها ومسؤولياتها.

وقد حرصت السماء على أن يكون التجسيد في شخص آدمي، لأن الهدف تربية البشرية فلا بدَّ من أن يتجسَّد الغيب في شخص منها غير غريب عليها لئلاَّ تستطيع ـ من جهة ـ أن تكذبه لانه عاش معها ورأت منه ما يثبت صدقه، و لكي يستطيع ـمن جهة أخرى أن يشكل النموذج في العمل للقيم المعنوية. هذا بالإضافة إلى أن التجسيد من إنسان بشر يحتاج إلى الطعام والشراب ويمشي في الأسواق يشكِّل مانعاً قوياً من تأليهه والمبالغة فيه، ممَّا يقلب الغرض من التجسيد رأساً على عقب. أمَّا لو كانت القيم تتجسَّد في مخلوق غريب، فإنَّه حينئذ لن يستطيع أن يؤدّي الدور الذي يقوم به الإنسان النبيُّ.

---

١. راجع التصوير الفني للقرآن، سيد قطب.

ومن هنا رأينا أنَّه رغم أن الجاهلية كانت دائماً تعجب من عملية التجسيد في إنسان وتتصوَّر أن من المنطقي أن لا يكون النبيُّ بشراً، وأنه ينبغي أن يكون أقرب إلى الموجودات الغيبية، غافلة عن أن ذلك لن يحقق المقصود من تربية الإنسان المتكاملة، وقد كان الأنبياء العظام يؤكِّدون على بشريّتهم تأكيداً شديداً؛ وهذا ما يتوضح فيما يلي:

﴿وَمَا قَدَرُواْ اللّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُواْ مَا أَنزَلَ اللّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾[١].

﴿قَالُواْ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا﴾[٢].

﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[٣].

﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ﴾[٤].

﴿فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا﴾[٥].

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُواْ إِذْ جَاءهُمُ الْهُدَى إِلاَّ أَن قَالُواْ أَبَعَثَ اللّهُ بَشَرًا رَّسُولاً﴾[٦].

وفي مقابل ذلك تأكيد الأنبياء:

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[٧].

﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾[٨].

﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إَلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً﴾[٩].

والنتيجة أنّ كلا من الوحي المجسَّد والنبيِّ أمر ضروريّ لتقديم المنظار الحسي الذي

---

١. الانعام: ٩١.

٢. ابراهيم: ١٠.

٣. الانبياء: ٣.

٤. المؤمنون: ٣٣.

٥. التغابن: ٦.

٦. الاسراء: ٩٤.

٧. فصلت: ٦.

٨. ابراهيم: ١١.

٩. الاسراء: ٩٣.

يتطلع العالم من خلاله إلى عالم الغيب وقيمه ومثله.

المفاهيم في قالب الحس

وهذه الحلقة من حلقات التقريب لها مجال واسع تناول أغلب المفاهيم بالمقدار الذي سمح به التطبيق، حيث عمل الإسلام على أن يعطي النماذج الحسية للمفاهيم المعنوية والنفسية لأجل تركيزها في النفس، ولم يتركها تُعطى على الصعيد النظري فقط.

استعراض بعض النماذج لذلك:

أـ كانت مسألة الشرك الداء الكبير الأول الذي واجهه الإسلام وحاربه بكل قوة، ورفض كلَّ مقتضياته رفضاً باتاً، وأوضح الأدلة والبراهين القوية التي تقتلع من نفوسهم ذلك، وقد استند بعضها إلى أمور حسية سيأتي الحديث عنها.

والمقصود هنا أن نعرف أنَّ عملية إنزال الأصنام على الصعيد الفكريِّ استتبعت على الصعيد الحسي عملية حسيَّة مؤثرة: وهي عملية إنزال الأصنام وتكسيرها وإزالتها وتطهير الكعبة منها في موقف رهيب عظيم يصعد فيه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على كتف النبي الأعظم صلى الله عليه وآله ليعلن أنَّ الأصنام قد انهارت وانهار نظامها البائس.

ب ـ وكانت مسألة الارتباط بأهل البيت عليهم السلام وانشداد الأمة بهم، وتعيينهم بالخصوص، وخلق نوع من العاطفة الشديدة نحوهم؛ مسألة لها أهمية قصوى بالنسبة للدعوة الإسلامية باعتبار أنهم عليهم السلام الوارثون للرسالة، وأنهم الذين سيحملون لواءه بعده صلى الله عليه وآله .

فقد جاءت النصوص القطعية في القرآن الكريم والحديث الشريف تعبر عن لزوم ذلك الربط، وتحاول أن توجد الدوافع نحوه باستعراض سيرتهم الطاهرة وجهادهم وكونهم سفناً للنجاة وغير ذلك وكان التركيز على الإمام أمير المؤمنين باعتبار أنه الوصي المباشر بعد النبي صلى الله عليه وآله وعلى فاطمة عليها السلام باعتبار أنها المرأة الطاهرة المعصومة التي ستكون أمّ الأئمة عليهم السلام .

كل ذلك كان على الصعيد النظري، ولكن هذا لا يكفي، فالأمر يحتاج إلى المواقف الحسية المختلفة.

ومن هنا رأينا النبي صلى الله عليه وآله يقف مرات خلال شهور عديدة على باب فاطمة عليها السلام ويقول «السلام عليكم يا أهل البيت» وكان آخر بيت يزوره عند عزمه على السفر هو بيت فاطمة

وأول بيت يزوره عند الرجوع هو ذلك البيت.

ونراه ﷺ يجمعهم تحت كساء واحد ويقول «اللّهم هؤلاء أهل بيتي».

وهكذا نتابع خطاه حتى نقف على ذكر المنظر العظيم في الصحراء بعد حجة الوداع والمسلمون جميعاً يعيشون الأيام الأخيرة معه ﷺ فيوقفهم عند غدير خم ويرفع يد علي عليه السلام حتى يبين بياض إبطيهما ويقول: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه» ثم يأمرهم بالسلام عليه وتهنئته بذلك.

ج ـ رفع الإسلام كل الفروق المصطنعة بين الطبقات الاجتماعية، وفتح المجالات أمام الجميع للرقي، ولم يرض أي مقياس للتفاضل إلاّ التقوى والعلم، وقد جسَّد هذه الأمور المعنوية في المجال العملي؛ فزوَّج زينب بنت عمة النبي عليه السلام (وهي من أرفع بيت في العرب) من زيد بن حارثة (وهو مملوك).

وجعل بلالاً الحبشي الأسود مؤذناً للدعوة الإسلامية، ونصب أسامة بن زيد (وهو شاب) قائداً على جيش فيه المهاجرون والأنصار، وغير ذلك كثير.

د ـ نشر الإسلام مفاهيم الأخوَّة وزين الصفات الخلقية، ولكنه لم يكتف بالدعوة إليها فكرياً وحسب، وإنَّما جسّدها عملياً. ومن ذلك:

عملية المؤاخاة الكبرى التي قام بها النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار وقد آخى ﷺ بينه وبين الإمام علي عليه السلام.

ومنها مسألة إعطاء الغنائم في حنين للمسلمين الجدد، وتربية المسلمين الأوائل على معاني الإيثار في ذلك.

هـ ـ وهناك ظاهرة البيعة وهي ظاهرة تستحق التأمل.

فإننا نجد النبي ﷺ قام بها وطلبها من المسلمين في بعض الأحيان، وقبل القيام بالأعمال المهمَّة التي تتطلب مواقف صلبة غاية الصلابة.

ولكن ماذا تعني البيعة بعد حصول الاعتقاد الجازم للمسلمين بنبوته ﷺ وقيادته الحكيمة الواعية وتفانيهم في سبيله ووجوب طاعته؟ إنها تعني دفقاً حسياً وتجسيداً للرابطة المعنوية، والعهد الذي قطعه المسلمون على أنفسهم، فذكرى البيعة ستبقى مؤثرة وشاخصة

تعمل إلى جنب الوجود العقلي للعهد في سبيل إبقاء جذوة الالتزام بل وإذكائها، وهذا يتضح تماماً إذا درسنا بما يوضح لنا أن صفقة اليد كان لها دور ضروري. ومن هنا أيضاً نجد إصرار الإمام أمير المؤمنين عليه السلام على أن تكون البيعة عامة في المسجد بعد أن أخذ من الأمة العهود الوثيقة على أن تسند أهدافه كل ذلك لأجل أن يهيئها لخطوة جبَّارة في حياتها؛ هي خطوة إعادة الإسلام من جديد، ومحو غوائل الانحراف وتطبيق مبادئه السامية.

الأماكن والأزمنة التي تمثل أموراً معنوية

وهذا جانب مهم من جوانب تقريب المعقول إلى الحسِّ، والاستفادة من ظاهرة التأثر بالمحسوس فرغم أن الله تعالى له مافي السماوات والأرض، وهو معكم أينما كنتم، إلاّ أه شاء أن يعيِّن بعض الأماكن وينسبها خصوصاً له بما يسمى (بيوت الله)، كما شاء أن يعيِّن مكاناً معيَّناً في الأرض ليكون بيته الحرام، ورغم أن الزمان ملك الله تعالى وحده، لكنه شاء أن يعيِّن شهر رمضان المبارك شهراً له.

فكانت الكعبة على هذا رمزاً حسيَّاً للتوحيد المعنوي يتوجه إليها المسلمون من كل نقاط الأرض في صلواتهم، ويطوفون حولها في حجهم، ويذبحون ذبائحهم في اتجاهها، وغير ذلك.

وكان شهر الله رمزاً حسيَّاً لعبادة الله الكثيرة، والدخول في دورة تربوية للتكامل.

ويمكننا أن نعدّ من هذا القبيل مسألة الحجر الأسود وتقبيله كرمز حسيّ للجنة والتعلق العاطفي بها، كما نعدُّ من ذلك الجمرات كرمز للشرِّ، فيكون رجمها رجماً للشرِّ، كما نعدُّ من ذلك مسألة زيارة مراقد الأئمة الطاهرين التي لها تأثير قويٌّ في تجسيد الربط بهم عليهم السلام وخلق العاطفة نحوهم عليهم السلام، خصوصاً إذا لاحظنا ما جاء في بعض الزيارات: (أنا موالٍ لأوليائكم، معادٍ لأعدائكم..).

العبادات ودورها في عملية التقريب

يكفي مجرَّد تمعن بسيط في مغزى العبادات وما يقوم به المسلم من خلالها؛ لتكوين فكرة عن عملية إيحائها الحسيِّ وتقريبها للمعاني لدى الإنسان المسلم.

فالصلاة ـ مثلاً ـ تدع الإنسان المسلم يحوِّل معانيه إلى حسّه، ويقف أمام ربِّه ويخاطبه بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ويطلب منه تعالى مايريد، فيكون ذلك تجسيداً لمعنى الآية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[1]، وهكذا يكون للركوع والسجود نفس الإيحاء في نفس المسلم.

ونجد التجسيد القويَّ في عملية الصوم التي تعني امتناعاً وقهراً لبعض الشهوات قربة إلى الله تعالى، فإن الصائم حينذاك يجسِّد مراقبة الله له وطاعته إياه، ويزداد التجسم كلَّما ضغط الجوع والجنس عليه، وكذلك نجد الأمر في العملية الرائعة التي يؤمر بها الإنسان مرة واحدة على الأقل (وهي الحج) حيث يجسد الإنسان فيها ارتباطه بذكريات تلك الأراضي المقدَّسة وما انطلق منها من نوره، فكلُّ خطوة من خطوات الحاج تعبير حسيٌّ عن معنى جميل لا يتسع المجال لذكره هنا، وسنعود للموضوع مرة أخرى.

قراءة القرآن والإكثار من الذكر

وهذان أمران لهما دورهما الكبير في تركيز المعاني التي يريد لها الإسلام أن تتجسد في وعي الإنسان، فمن المعلوم أنهما مستحبان استحباباً مؤكداً، فالمسلم الكامل هو الذي يلتزم بهما ويأتي بهما عن وعي، ولا يمكن إنكار دور ترديد الفكرة باللسان. وعن وعي. في تركيزها وتقريبها إلى النفس الإنسانية، وجعلها تحس بحلاوتها إحساساً يفوق أيَّ إحساس بأيِّ لذة أخرى.

مفهوما الدعاء والتوبة

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نصنف هذين المفهومين إلى جنب الأمور التي توحي للإنسان بتجسيد المعاني أمامه، وعزل كل الموانع الحسية بينه وبين من يدعوه ويتوب إليه.

ولا ننس هنا دور الأدعية الغنيَّة بالمعاني الإيحائية الواردة عن المعصومين عليهم السلام.

فنفس ترديد تلك المعاني يخلق تجسيداً لها أمام النفس مما يربيها ويلقنها طريق السعادة.

الاعتماد على الحسّ في مقام الاستدلال

وقد اعتمد الإسلام على هذه الظاهرة كثيراً في إثبات أحقيّته، وتقريب وتوضيح مفاهيمه

---

١. البقرة: ١٨٦.

وعقائده إلى الناس، والاستدلال عليها. وفيما يلي نذكر بعض النماذج لذلك.

أ ـ المعجزة الحسية

مهما يكن المعنى الدقيق للمعجزة فإنها تعبر ـ على أيّ حال ـ عن عمل حسيّ تعجز الإنسانية عن الأتيان بمثله، فتقف مدهشة لعظمته وهو بالتالي يقودها لإعمال عقلها فتقول بأن ذلك ليس من عمل الإنسان بل من عمل القوة القاهرة المسيطرة على الكون، وقد جرى على يد هذا الإنسان كاثبات لصدقه.

صحيح أن الإيمان بالنبي وصدقه قد لا يحتاج إلى ذلك بإعمال العقل، ولكن هذه حالة غير سائدة، فإذا أراد النبي أن يقنع الناس؛ عليه بهذا العمل الحسي الخارق وبتكراره.

والقرآن الكريم إعجاز مجسد خالد تبدو جوانبه الإعجازية بصورة أوضح كلما تقدم الزمان.

فالحسُّ لا يمكن إنكاره، والحسُّ لا يمكن الانفلات منه.

وإمعاناً في التجسيد نجد أنّ المعجزة تتحدّى كلَّ قوم بأعلى فنونهم لتتأصل في وجدانهم، وتبقى صورتها القوية في أذهانهم.

ب ـ الإخبار بالغيب

وهو تجسيد حسِّي رائع الإثبات للاتصال بعالم الغيب.

إنه يعطي المعنى ويؤكده، ويبقى هذا المعنى في عالم التعقُّل حتى يتجسد في الخارج، وحينذاك يكون دليلاً حسيَّاً قويّاً على صدق الخبر في دعواه واتصاله بذلك العالم الغائب.

ج ـ المقارنة والتنبيه إلى الشواهد الحسية

وتبرز هذه الظاهرة بوضوح في استدلالات القرآن الكريم فكثيراً ما نجده يقارن بين ما يريد إثباته وقضية حسية مسلَّمة، وذلك ليمهد لقبول الأمر العقائدي ولينبه الفطرة الغافية.

نماذج لذلك:

١ ـ كلُّ الآيات التي تستدل على وجود الله ووحدانيته بالنظام الكوني وعجائب الصنعة مثل:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ

الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيَّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلاَ تَتَّقُونَ﴾[١].

﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢].

﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاء رَكَّبَكَ﴾[٣].

٢. الآيات التي تستدل على المعاد بالإحياء والإماتة التي تلاحظ في الأرض.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤].

﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾[٥].

وكذلك الإحياء في الإنسان:

﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[٦].

٣. استدلال إبراهيم عليه السلام على عدم تأثير الأصنام وعدم أهميتها بعملية حسية هي تكسيرها وذلك كما يقول القرآن الكريم:

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ *

---

١. يونس: ٣١.

٢. الرعد: ٣.

٣. الانفطار: ٧ ـ ٨.

٤. فصلت: ٣٩.

٥. ق: ١١.

٦. القيامة: ٣٧ ـ ٤٠.

أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[١].

وأخيراً: نودُّ أن نذكر أنه من المناسب جداً أن نتحدّث هنا عن الآثار العملية التي تركها استغلال الإسلام لهذه الظواهر الوجدانية، وكيف ولّد هذا العمل الجيل العقائديّ الذي يتشوق إلى الحور العين وكأنه ينظر إليها، ولا يسمح لنفسه حتى مقدار أكل تمرات في سبيل الوصول إلى الشهادة، ويمكننا أن نجد أروع الأمثلة في أصحاب النبي الذين قتلوا في بدر واحد، وفي أصحاب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كمالك الاشتر وميثم وغيرهما، وكذلك في أصحاب الحسين عليه السلام إذا كتب هؤلاء سجلاً خالداً ينعدم نظيره كنتيجة لتلك التربية الإسلامية العالية.

لقد كان لكلّ ذلك الأثر الكبير في تقدُّم الإسلام وانتشاره، وتركيز الحق والوعي في الأمة الإسلامية.

ولكنّا هنا ـ واختصاراً للموضوع ـ لن نتعرض لتلك المواقف تاركين للقراء دراستها وملاحظة تأثير خطة الإسلام فيها.

كما أننا نشير أيضاً إلى لزوم استخلاص العبر وأخذ الدروس من أسلوب الإسلام هذا والاستفادة منه في مجال تبليغنا الإسلامي، واتّباع تلك الخطوات التي تقرّب المعاني إلى الناس وتجسّدها أمامهم، وأن من الضروري جداً أن يكون العامل في سبيل الله إسلاماً مجسَّداً، أي عقيدة ونظاماً وأخلاقية مجسَّدة كلها في شخصه لكي يكون ذلك البرهان العملي للناس على مدى قدرة الإسلام على التسامي بالنفوس، وخلق الفرد الكامل والمجتمع الفاضل.

كما أنَّ من الضروري جدّاً نستفيد من ما مضى درساً في تقديم الإسلام إلى الناس بمختلف الوسائل الإعلامية، وخصوصاً تلك التي تجسِّد المعاني، ومنها استغلال القصة وباقي فروع الأدب لهذا الغرض، تماماً كما استعملها الإسلام من قبل.

كما أنَّ من اللازم التركيز على أن تعي الأمة المدلولات الصحيحة للرموز الحسية التي وضعها الإسلام؛ كالكعبة، وزيارة القبور، وغير ذلك، والتركيز على كونها وسيلة للوصول إلى الأهداف العليا.

---

١. الانبياء: ٥٨ ـ ٦٧.

ومن هنا نجد من اللازم أن نعمل على إعطاء الشعائر الإسلامية الاهتمام البالغ وتوضيح معطياتها، بل وتجسيد تلك المعطيات أيضاً أمام الناس.

وفي مجال تطهير النفس فإنّا على ضوء هذا ندعو لعملية الإيحاء النفسي، والتخزين الروحي في لحظات الإقبال القلبي، والاستفادة من الاستعداد النفسي الذي يوجده النموذج الحسيُّ المؤثّر تربويّا، فمثلاً إذا اتيح لنا ووفّقنا لزيارة بيت الله الحرام علينا أن نستوحي معطيات كل موقف، وما أن نحسَّ في أنفسنا إقبالاً ـ إذ «إنّ للقلوب إقبالاً وإدباراً» كما يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ـ حتى نخزنها بالطاقات الروحية التي تنفعنا في حالات الإدبار وتزوّدنا عندما يخبو الحماس أحياناً.

دعاء مكارم الأخلاق والتوازن الأخلاقي

وهنا نجد أنّ من المناسب أن نذكر مقاطع من دعاء (مكارم الأخلاق) الذي كان الإمام السجّاد عليه السلام يدعو به، طالباً منه تعالى مكارم الأخلاق ومرضيَّ الخِصال، وراسماً لنا أروع صور التوازن في الأخلاق الإسلامية:

يقول عليه السلام :

«أللهم صلِّ على محمد وآله، وبلغ بإيماني أكمل الإيمان، واجعل يقيني أفضل اليقين، وأنته بنيتي إلى أحسن النيّات، وبعملي إلى أحسن الأعمال. أللهم وفِّر بلطفك نيتي، وصحِّح بما عندك يقيني، واستصلح بقدرتك ما فسد منّي».

«أللهم صلِّ على محمد وآله، واكفني ما يشلغني الاهتمام به، واستعملني بما تسألني غداً عنه، واستفرغ أيّامي فيما خلقتني له:

وأغنني، وأوسع عليَّ من رزقك، ولا تفتنِّي بالنظر.

وأعزني، ولا تبتلينّي بالكبر.

وعبدني لك، ولا تفسد عبادتي بالعجب.

وأجر للناس على يديَّ الخير، ولا تمحقه بالمنِّ.

وهب لي معالي الأخلاق، واعصمني من الفخر».

أللهم صل على محمد وآله

ولا ترفعني في الناس درجة، إلا حططتني عند نفسي مثلها

ولا تحدث لي عزّاً ظاهراً، إلا أحدثت لي ذلَّة باطنة عند نفسي بقدرها».

«اللّٰهم اجعلني أصول بك عند الحاجة، وأتضرَّع إليك عند المسكنة.

ولا تفتنّي بالاستعانة بغيرك إذا اضطررت، ولا بالخضوع لسؤال غيرك إذا افتقرت، ولا بالتضرّع إلى من دونك إذا رهبت فأستحق بذلك خذلانك ومنعك وإعراضك، يا أرحم الراحمين».

«أللهم صلِّ على محمد وآله:

ولا أظلمنَّ وأنت مطيق للدفع عنِّي، ولا أظلَمَنَّ وأنت القادر على القبض مني، ولا أضلَّن وقد أمكنتك هدايتي، ولا أفتقرنَّ ومن عندك وسعي، ولا أطغينّ ومن عندك وجدي».

«اللَّهم خذ لنفسك من نفسي ما يخلصها، وأبقِ لنفسي من نفسي ما يصلحها فإنَّ نفسي هالكة أو تعصمها».

«اللّٰهم صلِّ على محمد وآله، وامنعني من السرف، وحصِّن رزقي من التلف، ووفِّر ملكتي بالبركة فيه، وأصب بي سبيل الهداية للبرِّ فيما أنفق منه».

اللّٰهم صل على محمد وآله، وصنْ وجهي باليسار، ولا تبتذل جاهي بالإقتار».

«أللهم صلِّ على محمد وأله، كأفضل ما صليت على أحد من خلقك قبله، وأنت مصلِّ على أحد بعده، وأتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقني برحمتك عذا النار»[١].

وبهذا انتهى البحث عن صور من التوازن في النظام التربوي الأخلاقي في الإسلام وقد فصَّلنا البحث فيه لأهميته وأهمية مسألة التوازن التي يعالجها.

ثانياً: التوازن في النظام الجنائي الإسلامي

يجدر بنا ـ قبل أن ندخل في عرض بعض هذه الصور ـ أن نلاحظ كيفية خلق الإسلام للتوازن الحكيم بين أنواع العقوبات المتصوَّرة، الأمر الذي فقدته النظم والمبادئ الأخرى، وجاءت بالتالي عقوباتها ناقصة عاجزة عن منع الإجرام.

فإن الإسلام استفاد من الجزاء الأخلاقي فأكَّد على تنمية الوجدان المحاسب في نظامه

١. الصحيفة السجادية.

التربوي، ونبّه على عذابه، كما استفاد من الجزاء الطبيعي أو الوضعي ـ بتعبيره ـ وجاءت الروايات الكثيرة المؤكّدة على ذلك والمبيّنة للآثار الوضعية الكبرى للجرائم المتعدّدة. كما أكّد على ذلك والمبيّنة للآثار الوضعية الكبرى للجرائم المتعدّدة. كما أكّد أيضاً على الجزاء الاجتماعي في (نظام العقوبات) الذي سنعرف شيئاً من التوازن فيه. وفوق كل هذه الأنماط من العقاب جاء الجزاء الأخروي العظيم الذي يشكل أقوى عناصر الردع عن الجريمة، بعد أن كان يتمُّ على أساس مراقبة عينية دقيقة، وضمن عذاب يفوق حدَّ التصوُّر حتى يصل إلى الخلود في النار والبعد الدائم عن رحمة الله ورضوانه.

ولئن كانت لكلٍّ من هذه الأنواع فوائد ونواقص، فإن مجموعها والتوازن بينها هو الذي يحقق الغرض المنشود من العقوبات، في حين فقدت المبادئ الوضعية بعض هذه العقوبات فضجَّت من الجريمة.

فإذا عبرنا هذا التوازن إلى داخل النظام الجنائي، وجدنا هذا يوازن بين التحديد الصارم للعقوبة، ومنح القاضي صلاحية تحديد العقوبة، وهما الأمران اللَّذان تراوحت القوانين الوضعية بين تمجيد أحد الطرفين منهما والتأكيد عليه دون الآخر. فتارة نجدها صارمة محددة للعقوبات بغض النظر عن الظروف والشخصيات فتقع في مشاكل وأنماط من الظلم، في حين نجدها تارة أخرى تفسح المجال لاجتهاد القاضي وإحساساته فتقع في تسامحات وغيرها مما يضرُّ برادعية القانون.

في حين نجد القانون الجنائي الإسلامي يقسم العقوبات إلى: حدود، وتعزيرات على أسس واقعية. فالحدود: عقوبات صارمة لا تقبل التغيير، لأنها تتعلق بمشاكل اجتماعية ثابتة خطيرة على أي حال، في حين تتبع التعزيرات تقديرات القاضي، وفقاً لشروط وقواعد وإرشادات عامة، ومراعاة للتغييرات التي تطرأ.

ومن خلال هذا النوع من التوازن نجد توازناً آخر بين العقوبة والمسؤولية؛ فكلَّما كانت المسؤولية أكبر؛ كانت العقوبة منسجمة معها، أمّا إذا قلَّت المسؤولية أو فقدت فإنَّ العقوبة تخفف أو تنعدم، خلافاً لبعض النظم الأخرى.

كما أن هناك توازناً بين العقوبات لمصلحة الفرد والأخرى لمصلحة المجتمع. وغير ذلك

مما تلاحظ تفصيلاته في محلها الخاص.

ثالثاً: التوازن في النظام الإقتصادي الإسلامي[١]

الصورة الأولى: التوازن بين أشكال الملكية

لقد تراوحت المبادئ الأرضية الكبرى بين تقديس الملكية الخاصة وجعلها هي الأصل ـ كما في الرأسمالية ـ وقد أدى ذلك إلى ويلات ومصائب كبرى جعلتها تقول بالملكية العامة ولكن بشكل استثناء وضرورة، وتقديس الملكية العامة وجعلها هي الأصل كما في الاشتراكية.. وقد أدى ذلك أيضاً إلى ويلات ومصائب، وأمات روح الإبداع في الناس، وسلبهم الكثير من حرياتهم الطبيعية، مما دعا قادة (الشيوعية) إلى أن يعيدوا النظر في نظامهم فيشرِّعوا الملكية الخاصة ضرورة.

والإسلام لم يعتبر أيّاً منهما أصلاً والآخر استثناءً، بل قال بمبدأ (الملكية المزدوجة) بعد أن أوضح لكل من هذه الأقسام حدوده وخصائصه وأهدافه وأنواعه.

فالملكية الخاصة: قد تتخذ صورة حق خاص، أو تتخذ صورة ملكية تامة، أو ملكية متزلزلة، وأمثال ذلك. والملكية العامة قد تكون ملكية الأمة كلها. وقد تكون ملكية لمنصب القيادة. وبين كل هذه الفروع فروق ولها أحكام.

هذا في حين ترك مساحة للمباحات العامة، وبيَّن لها صور تملُّكٍ محدَّدة.

وبهذا تخلَّص الإسلام من عيوب التطرُّف المقيت (تفريطاً اشتراكياً، أو إفراطاً رأسمالياً)، وأعطى لكل مقام مقاله وفق مذهب اقتصادي حكيم، وليس فيه أيُ حقّ مطلق إلا لله سبحانه، كما مرَّ.

الصورة الثانية: التوازن الاجتماعي الذي يحققه الإسلام

إن الدولة في الإسلام مسؤولة ـ وفق قواعد الاقتصاد الإسلامي ـ عن تحقيق أمرين

---

١. اعتمدنا في هذا الفصل على الجزء الثاني من اقتصادنا للشهيد الصدر، من ص ٦١٥ ـ ٦٣٦، ط ٤، دارالفكر ـ بيروت ١٩٧٣م.

أساسيين؛ هما: الضمان الاجتماعي، والتوازن الاجتماعي.

ويقوم الضمان الاجتماعي على أساسين هما:

أ ـ مبدأ التكافل العام الذي هو من أهم واجبات المسلمين أنفسهم، التي تطلب منهم أن يشبعوا احتياجات المسلمين الآخرين وفقاً لمبدأ الأخوة العامة. والدولة هنا تقوم بدور إلزام المسلمين بالقيام بواجباتهم.

ب ـ الحق الذي تعطيه للجماعة في مصادر الثروة التي تستثمرها الدولة باعتبارها قائمة على مصالح المجتمع.

أمّا التوازن الاجتماعي: فإن الإسلام حين عالجه انطلق من حقيقتين:

الأولى: كونية، وهي تفاوت أفراد النوع البشري في الخصائص والصفات التي تؤهل الإنسان لمراكز اجتماعية مختلفة.

والثانية: مذهبية؛ أي منسجمة مع تصوّراته المذهبية، وهي: كون (العمل أساس الملكية ومالها من حقوق).

والجمع بين هاتين الحقيقتين يعني السماح بظهور التفاوت الاقتصادي بين الأفراد، إلا أنَّ هذا التفاوت في نظر الإسلام يجب أن لا يتعدَّى كونه تفاوتاً في مستوى الدخل لا في مستوى المعيشة، أما في مستوى المعيشة فيجب أن يتحقق التوازن بين المستويات، بمعنى «أن يكون المال موجوداً، لدى أفراد المجتمع ومتداولاً بينهم إلى درجة تتيح لكل فرد العيش في المستوى العام، أي أن يحيا جميع الأفراد مستوىً واحداً من المعيشة، مع الاحتفاظ بدرجات داخل هذا المستوى الواحد، تتفاوت بموجبها المعيشة، ولكنه تفاوت درجة وليس تناقضاً كلياً في المستوى، كالتناقضات الصارخة بين مستويات المعيشة في المجتمع الرأسمالي».

وهكذا نجد التوازن في مستوى المعيشة بين عدم الإسراف من جهة، والارتفاع بالجميع إلى مستوى الغنى من جهة أخرى.

أما الإمكانات التي وفَّرها الإسلام للدولة لكي تحقِّق هذا الهدف فتتلخص في:

١ـ فرض ضرائب ثابتة كالخمس والزكاة:

٢ـ جعل قطاعات عامة وهي الأنفال.

٣. طبيعة التشريع الإسلامي، كمحاربة الإسلام اكتناز النقود، وإلغائه للفائدة، وتشريعه لأحكام الأرش، وإعطاء الدولة صلاحيات ضمن منطقة الفراغ، وإلغاء الاستثمار الرأسمالي للثروات الطبيعية الخام بجعل شرط المباشرة (كما يرى بعض الفقهاء).

هذا بالاضافة إلى دور التربية الخلقية الإسلامية للأفراد، والذي يدفع الإنسان المسلم أحياناً للتنازل عن مجموع ماله أو بعضه لصالح قضيتي التكافل والتوازن. وما أكثر النصوص المحبذة لذلك، وما أكثر الأخبار التي تحدثنا عن قيام القادة المعصومين عليهم السلام بأمثال ذلك ليكونوا أسوة للمسلمين في ذلك.

الصورة الثالثة: التوازن بين نوعيتي الانتاج والتوزيع

إذا كانت (الماركسية) تربط شكل التوزيع بشكل الإنتاج ربطاً طبيعياً حتمياً، وتكون بالتالي مبررة لألوان الظلم الذي تمَّ به التوزيع عبر التاريخ لا لشيء إلا لأنَّ هذا لظلم في مرحلته كان يواكب الإنتاج، فإن الإسلام يرفض هذه التبعية الظالمة الحتمية، ويقرر تبعية مذهبية لنوعية الإنتاج وفقاً للشكل العادل للتوزيع في حدوده العامة، لأنه يرتبط بالإنسان وعلاقته بأخيه الإنسان.

وتقوم العلاقة المذهبية على أساس النقاط التالية:

١ـ إن الاقتصاد الإسلامي يرى قواعد التوزيع قواعد ثابتة لكل زمان ومكان، كقاعدة (ان من حق العامل أن يقطف ثمار عمله).

٢. إن عمليات الانتاج هي تطبيق لتلك القواعد التوزيعية، كإحياء الأرض.

٣. إذا ارتفع مستوى الإنتاج نمت سيطرة الإنسان على الطبيعة، وتعاظمت إمكاناته.

وعليه: فإنه قد يستغل قواعد التوزيع خلال عمليات الانتاج كما في احياء الأرض بالآلة مثلاً.

ومن هنا: جاء الحكم الإسلامي بالتطبيق الموجه لتلك القواعد بإعطاء ولي الأمر الحق في التدخل، ومنع الاستغلال متى ما رأى ذلك.

الصورة الرابعة: التوازن بين الاسراف والتقتير والاكتناز

قلنا خلال عرض التوازن في النظام التربوي: إن المال والملكية إنما هما لصالح الرقي المادي والمعنوي للإنسان، وأيُّ انحراف عن هذا المعنى يعني عدم تسخير المال لصالحه، فهو إمّا

عبودية للمال، وإمّا استهانة وتفريط بنعمة إلهية، وكلاهما أمران غير مقبولين في الإسلام.

وعلى ضوء من هدف تسخير المال لصالح الحياة الاقتصادية التي هي مهد للرقيّ المعنوي، رفض الإسلام التقتير والبخل في الإنفاق، واعتبر ذلك صفة نفسية ذميمة لا إنسانية، في حين أعتبر الكرم والترفُّع عن الاغراء المالي من الصفات الفاضلة السامية، كما حرَّم الاكتناز ومنع الأموال من التداول بين الناس، وأوعد على ذلك بالعقاب الشديد. وفي نفس الوقت منع من الإسراف في الإنفاق. أللهم إلاّ فيما يعود على حياة المجتمع. ويرتبط بهدف الملكية، وطلب من المجتمع أن يحدَّ من تصرفات: السفيه والمجنون والصبي، لئلا تؤدّي إلى تضييع الثروة التي هي أحد أسباب القوة الاجتماعية، وهذه المعاني نلاحظها في النصوص التالية:

﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[١].

﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾[٢].

﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ * إِن يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ * هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾[٣].

﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[٤].

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾[٥].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا

---

١. الحشر: ٩.

٢. الليل: ٨ ـ ١٠.

٣. محمد: ٣٦ ـ ٣٨.

٤. آل عمران: ١٨٠.

٥. الهمزة: ١ ـ ٢.

كَنَزْتُمْ لأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[١].

﴿وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ﴾[٢].

﴿وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ﴾[٣].

ومن صفات المؤمنين أنهم:

﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾[٤].

﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[٥].

﴿وَلاَ تُؤْتُواْ السُّفَهَاء أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللّهُ لَكُمْ قِيَاماً﴾[٦].

رابعاً: التوازن في نظام العبادات

ويمكننا بهذا الصدد أن نقول: إنَّ التوازن الذي يحقِّقه هذا النظام هو أعمق توازن وأشمله، وأكثر تأثيراً في وجود الفرد والأمة.

وها نحن نحاول استعراض بعض أنواعه، مذكِّرين بأنَّ هذه الوجوه قد تتداخل في بعض مواردها، وذلك لوجود التلاحم القوي بين كل الأجزاء الإسلامية، إلا أنها على أيّ حال تبرز نقطة أخرى من نقاط هذا التوازن.

الأول: التوازن في مجال الإرتباط بالمطلق

وهذا الجانب هو من أهم الجوانب في نظام العبادات:

فإن البشرية خلال مسيرتها الحضارية ابتليت بعقبتين رئيستين منعتاها عن مواصلة التقدم الحضاري، وهاتان العقبتان هما:

أ ـ اللاإنتماء.

---

١. التوبة: ٣٤ ـ ٣٥.

٢. الاعراف: ٣١.

٣. الانعام: ١٤١.

٤. الفرقان: ٦٧.

٥. الاعراف: ٣١.

٦. النساء: ٥.

ب ـ والانتماء المفرط.

وإذا كان اللاأنتماء يعني عدم الاستهداف وعدم الإيمان بشيء، وهو بالتالي يعني وجود دافع للحياة والبناء والإعمار؛ فإن الانتماء المفرط إلى مطلقات وهمية خلقها ذهن الإنسان وبدائيته وعواطفه، من أمثال القبيلة أو الجنس أو الاقتصاد أو الطبيعة أو العلم أو الدم قد شكَّل أكبر عقبة أمام الفكر والطموح الإنسانيين، لأنهما ـ أي الفكر والطموح ـ أكبر من كل هذه الأمور النسبية التي تمتلك تأثيراً في طرف خاص، والتي تشكل قيوداً على الذهن الإنساني الذي يحاول الانطلاق إلى عوالم أوسع.

وكان العلاج الحقيقي يكمن في (الإيمان بالله الكامل المطلق الحق) الذي يستوعب المسيرة الإنسانية بكل تطلعاتها.

الثاني: التوازن بين الحرية الإنسانية والعبودية لله

وقد مرّ سابقاً أن العقيدة الإسلامية تحقق هذا التوازن، وتشكل العبادات تعبيراً عملياً عن هذا التجسيد، ولذا يكون العبد أقرب ما يكون إلى الله وهو ساجد، لأنه في هذه اللحظة يحقق الأمرين معاً، أي يحقق تحرراً من كل ما عدا الله تعالى، ويحقق عبودية لله، بل إن احدهما عين الآخر في الواقع.

وبهذا يتخلص من النظر النسبي لنفسه ومشتهياتها كمطلقات، كما يتخلص من ثقل كل القيود الصنمية الوهمية. فالعبادة تربي الارادة والتعقل الإنسانيين، وتركز على قوتهما في النفس، في مثل الصلاة والصوم والحج، من جهة، وتركز من جهة أخرى على التسليم والخضوع بحالات الركوع والسجود والتقرب، لتحقيق هذا التوازن.

الثالث: التوازن في اشباع غريزة التديّن

فإن هذه الغريزة عبّرت عن نفسها بتعبيرات منحرفة كثيرة، طغى في بعض الحالات اشباعها على اشباع باقي الغرائز، وتقلص حالات أخرى حتى كاد ينمحي، وكان الأمران غير طبيعيين للحياة الإنسانية، ومن هنا فقد اشبعت العبادة ـ بالمعنى الأخص ـ الحاجة النفسية لهذه الغريزة وبشكل يجعلها تنسجم مع وظيفة العقيدة في وجود الإنسان كقاعدة لمجموع الحياة.

الرابع: التوازن بين عزل المسجد عن الحياة وحصرها فيه

وهما حالتان ابتليت بهما المجتمعات مما أقعدها عن مسيرتها المتوازنة، فبينما يحاول اتجاه بشري أن يعزل المسجد عن الحياة بأن يجعل للمسجد طقوسه الخاصة به في وقت خاص، ثم الانطلاق إلى الحياة والعمل والابتعاد عن أيِّ توجيه مسجدي، وذلك ما نشاهده في المجتمعات المسيحية، حاول اتجاه منحرف أن يختصر الحياة كلها في الدير والمسجد مترهبناً؛ وذلك في المسيحية والصوفية والبوذية.

وكلاهما اتجاهان خاطئان:

لأن الأول؛ يعزل الحياة عن ربِّها العظيم وتخطيطه الحكيم لها.

والثاني؛ يميت الحياة في تصوّرات لا واقعية.

ومن هنا فقد حاولت العبادة أن تنقل روح المسجد إلى كل جوانب الحياة، بعد أن كان الإنسان المسلم يتعبد بعبادة مالية وعبادة تفكيرية وعبادة بدنية لها جوانب اجتماعية مختلفة. وهكذا حققت أروع التوازن بين الاتجاهين.

الخامس: التوازن بين المصلحة الذاتية والمصلحة العامة

وقد ذكر من قبل أن الإسلام يعمل بأساليب مختلفة على محاولة التقريب بل التوحيد بين المصلحتين، باعتبار الأولى عملية ذاتية دافعة، والثانية ضرورة نظامية لا يستغنى عنها.. ومن أساليب القرآن لذلك: العبادات التي تركز في الإنسان الشعور بالمسؤولية تجاه مجتمعه، وتجعله يرى مصلحته الذاتية تكمن في كل ما يتقرب به إلى الله، ومن الواضح التحام المصالح الاجتماعية التي يراها الإسلام في مفهوم: سبيل الله.

السادس: التوازن بين الاتجاه العقلي المحض والاتجاه الحس المحض

وهما أيضاً اتجاها منحرفان يركز كل منهما على جانب واحد من الإنسان وينسى الجانب الآخر فيه، إلا أن العبادة بجمعها بين التفكير والقيام بعمل حسي عبرت عن التوازن بينهما.

السابع: التوازن بين الغيبة ووعي المصالح

ورغم أن الإسلام يربِّي الإنسان على الوعي والإدراك المستوعب لمختلف الجوانب الحياتية، فإن هناك أموراً كثيرة جداً يقصر عن إدراكها عقل الإنسان ولو في بعض الظروف،

في حين يعلن الله بضرورتها ويشرع التشريعات التي تحقق اشباعها.

ومن هنا لزم أن يربّى الإنسان على عنصر التعبُّد والتسليم لكل شيء من الله، أدرك المصلحة فيه أو لم يدرك. والعبادات باحتوائها على بعض التفصيلات التي لا يمكن إدراك حكمتها تربي في الإنسان عنصر التعبد هذا.

هذا.. إلى غير ذلك من كثير من أنماط التوازن في أنظمة الإسلام.

البحث الثالث: التوازن والوسطية

إن كل هذا الزخم الإسلامي في مجال الفكر والعمل يربي الروح الوسطية في المسلم ولكن كيف يتم ذلك؟

من الواضح لدى كل دارس للاسلام، أنه حدد الهدف من خلقة كل المخلوقات، وهو كمالها اي تحول طاقاتها الذاتية الكامنة بالقوة إلى ظواهر فعلية، بل أن هذا هو ما يدركه الوجدان الفطري حينما يلاحظ التخطيط الإلهي لهذا الكون والتنسيق والهدفية في الخلق.

وبالنسبة للإنسان يحدد القرآن هدف خلقته بوضوح أكبر حين يعلن (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)[١]، مما يوضح أن تكامل الإنسان يتم كلما تأصلت صفة العبودية لله تعالى فيه كفرد، وأوج كمال الفرد يتمثل في النبي، وأرقى صفة تمنح للنبي أنه (نعم العبد).

يقول تعالى: (ووهبنا لداوود سليمان نعم العبد انه اواب)[٢].

وحين يشهد المؤمن لرسول الله سيد البشرية بالرسالة يقدم العبودية اولاً فيقول: (اشهد أن محمداً عبده ورسوله) وينعكس هذا على الإنسان كمجتمع حيث يعمل عباد الله الصالحون وطليعتهم هم الانبياء على اقامة المجتمع العابد.

﴿وَلَقَد بَعَثنا في كُلِّ أُمَّةٍ رَسولًا أَنِ اعبُدُوا اللَّهَ وَاجتَنِبُوا الطّاغوتَ﴾[٣]. هكذا إذن تكون المسيرة الصحيحة المتوازنة المتكاملة للبشرية ضمن خطين. خط العبادة وخط اجتناب الطاغوت، وهما الناتجان الأساسيان من حالة العبودية المطلقة لله تعالى.

---

١. ص: ٣٠.

٢. ص: ٣٠.

٣. النحل: ٣٦.

فنحن هنا نواجه تفصيلاً وتوضيحاً أكبر للعبودية يتمثل في (العبادة) و(رفض الطاغوت).

ولكن ماذا يعنيان؟

إن العبادة في مفهومنا الإسلامي باختصار تعني تعبيد الحياة لله (تعالى) وتنفيذ اوامره ونواهيه.

﴿يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا استَجيبوا لِلَّهِ وَلِلرَّسولِ إِذا دَعاكُم لِما يُحييكُم﴾[١].

وهذا المعنى يشمل العبادة بالمعنى الأخص كالصلاة والصيام، ولا يلخص الحياة فيها بل تتحول الحياة كلها إلى مسجد وصلاة.

أما الطاغوت: فهو باختصار المتجاوز للحد الوسط في تصور الإسلام، المتعدي عليه، والطغيان هو تجاوز الحد كما يقول الراغب[٢] ولذا قال تعالى: (انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية)[٣].

والوسطية الإسلامية تعني: العدل، والتوازن، والحكمة ووضع الشيء في موضعه بما يحقق الهدف منه، وليس المقياس الكمي، وإذا كانت الأمة الإسلامية هي الأمة الوسط ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾[٤]، فإنما لأنها الأمة القدوة والأسوة الحضارية للأمم بعد أن تقتدي بالرسول الأسوة.

وإذا راجعنا كل المفاهيم التي ينفر منها الإسلام وجدناها تخرج عن الحد الوسط بهذا المعنى: فمفاهيم: الالحاد والشرك والفاحشة والتهور والاسراف وامثالها بل حتى المفاهيم السلبية كالرهبنة والبخل والجبن واللامسؤولية، هي نوع من أنواع تجاوز الحد أو فلنعبر بعدم الالتزام بالحد الشرعي.

فالمعيار هو الحد الإنساني الذي ارتضاه الله تعالى، وربما ادركناه بوجداننا لوضوحه كالطيبات والخبائث، ولكن المنظار الإلهي يعطينا صورة كاملة عن الحد الوسط أو فلنعبر بالحد الطبيعي الذي يعني الخروج عنه خروجاً عن الذات ونسيانها، وهنا يأتي هذا التعبير الإلهي الجميل ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٥]، تماماً كما تفسق النواة

١. الأنفال: ٢٤.

٢. مفردات الراغب، ص٣٠٥.

٣. الحاقة: ١١.

٤. البقرة: ١٤٣.

٥. الحشر: ١٩.

حين تخرج عن موقعها الطبيعي فتسميها العرب نواة فاسقة.

والامن البشري على مدى التاريخ مهدد من قبل الطغاة والفاسقين. ذلك أننا لو نظرنا من عل إلى كل انهار الدماء والدموع والاعتداء على النسل والحرث والعقل والإنسانية فإننا بكل سهولة نستطيع أن نرجعها إلى مظهرين من مظاهر الطغيان هما: كما يعبر الشهيد الصدر:

مشكلة الضياع واللاانتماء، ومشكلة الغلو في الانتماء بتحويل الحقائق النسبية إلى مطلقات، والتعبير الإسلامي عنهما هو (الالحاد) و(الشرك)، وهما يلتقيان في نقطة واحدة أساسية هي (إعاقة حركة الإنسان في تطوره عن الاستمرار المبدع الصالح)[١] أما العلاج فهو الإيمان بالله الواحد والمسؤولية تجاهه.

إن اللاإيمان أو الإيمان بالوثنية هما حالتا طغيان أو فلنعبر هما سببان عظيمان للطغيان فإما أن تنتفي المسؤولية في حالة اللاإنتماء أو تتضخم الصورة الوثنية للذات أو للحجر أو للحاكم أو للاسطورة أو للمنصب أو للمال أو للقوة أو للشهوة ـ وكلها امور نسبية يحولها الجهل إلى امور مطلقة ـ وحينئذ يكون الدمار، ويكون التهديد العظيم للامن الإنساني بشتى أنواعه.

إننا نستطيع أن نتصور انماطاً شتى من الأمن للإنسان فهناك (الامن الفكري والاجتماعي، والأخلاقي الإنساني والعائلي والصحي والبيئي والسياسي والاقتصادي وغير ذلك).

والطغيان وتجاوز الحد والإفراط والتطرف يهدد هذه الأنواع جميعاً.

ونحن نعلم أن فرعون يمثل نموذج الطغيان في النصوص القرآنية ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[٢]، ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾[٣]، فحتى الإيمان يحتاج إلى إذن منه قال فرعون ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾[٤]، وكان فرعون رمز التهديد للوجود الشعبي والنسل والخلق، يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٥].

---

١. الفتاوى الواضحة، ص٥٩٥.

٢. طه: ٣٢.

٣. يونس: ٨٣.

٤. الاعراف: ١٢٣.

٥. القصص: ٤.

وكان رمز الاستخفاف بالأمة ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[١].

وربما كان من نافلة القول بعد هذا أن نتحدث عن دور الإسلام في تحقيق الامن للإنسان بشتى أنواعه بعد أن عرفنا رفضه لكل الاساليب الطاغوتية الفرعونية جملة وتفصيلاً.

فهو يعمل على توفير الأمن الأخلاقي من خلال نظامه الأخلاقي والتربوي ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[٢] وهو ينفي كل ما يلوث الجو الإنساني الخلقي عبر تحريمه المفاسد الخلقية التي تميت إنسانية الإنسان.

كما يعمل على توفير الأمن الاجتماعي من خلال اقامة البناء العائلي ونفي كل ما يوجه الغرائز نحو التحلل أو الاشباع الخاطئ، ومن خلال تقديمه نظاماً للعلاقات الاجتماعية المتعالية ونفيه كل ما يمزق الأمة من مقاييس مادية، كاللون واللغة والعنصر والقبيلة والجغرافيا وغيرها، وكذلك من خلال ضمانه لكل حقوق الإنسان في الوجود والكرامة والحرية والضمان الاجتماعي والاقتصادي، ورفضه كل عوامل التهديم كالبخل والغصب واكل المال بالباطل وتمركز الثروة والاسراف والتبذير والحرابة والبغي والقتل وغيرها، وكلها تتعاون لتحقيق الهدف، كما يعمل على ضمان المشاركة الشعبية السياسية من خلال مبدأ الشورى ومبدأ الولاية المتبادلة وتعميم المسؤولية ولا نريد أن نستمر في هذا العرض وهو واضح صريح.

إن الإسلام يعمل على المستوى الحضاري لتحقيق الامن والسلام العادل للبشرية منطلقاً من مبادئه الإنسانية، وحتى لو اضطر للحرب فإنه يشنها حرباً نظيفة لا رد فيها إلا على المعتدي أما الابرياء فلا ينالهم شيء بل وحتى الطبيعة تبقى آمنة سليمة.

يوصي الرسول عليه الصلاة والسلام وعلى آله وصحبه، اصحابه فيقول (سيروا باسم الله وبالله وفي سبيل الله، وعلى ملة رسول الله، لا تغلو ولا تمثلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا صبياً ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً إلا أن تضطروا اليها ...)[٣].

إن الأمن البيئي والطبيعي والحيواني مضمون اسلامياً وان قاعدة (لا ضرر ولا ضرار في

---

١. الزخرف: ٥٤.

٢. الجمعة: ٢.

٣. كنز العمال، ج٤، ص٢٢٣، والكافي، ج٥ ص ٢٧، وغيرها.

الإسلام) قاعدة عامة تمنع الإضرار بالبيئة بلا ريب، لانه اضرار بكل البشرية، وان الإسلام يجعل الطبيعة مسخرة للإنسان نفسه فعليه أن يشكر نعمتها ولا يكفر بها، ﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[١].

وحتى علاقات الحب والعواطف قد تقوم بين المسلم والطبيعة، فيمر الرسول الكريم ﷺ على جبل أحد، فيقول: (هذا جبل احد يحبنا ونحبه)[٢].

ويبقى الوعد الإلهي قائماً في خلد المسلم هدفاً يسعى اليه حثيثاً، إذ يقول تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٣].

إنه المجتمع الخليفة الآمن العابد، الآمن من العدو الخارجي والداخلي، وانه هدف الأنبياء وقد تحقق: عبادة وأمن من الطاغوت.

والحقيقة أننا إذا فسرنا الارهاب بالمنطق الإنساني العام بأنه (كل عمل لا ينسجم مع الوجدان الإنساني من حيث الوسيلة أو الهدف ويهدد الأمن بشتى أنواعه) فسنجد أن الإسلام يقف بقوة ضده بل ويعمل على اجتثاث جذوره من الأساس.

ومن الطبيعي أن نقول هنا إننا لا نستطيع أن نقضي على المعلول مع الابقاء على العلل.

إن معظم ما نشاهده من مظاهر الارهاب يعود إلى عوامل كثيرة منها:

أ ـ انتشار الجهل وروح التعصب الأعمى والنظرة الظلامية للعالم.

ب ـ انتشار الفقر والجوع والحرمان، وكاد الفقر أن يكون كفراً.

ج ـ انتشار الظلم والاستبداد والقهر والعنف وسلب حقوق الإنسان ومصادرة حرياته المشروعة.

د ـ فقدان الوازع المعنوي وتدني المستويات القيمية وانتشار الروح الحيوانية الجشعة العمياء.

---

١. ابراهيم: ٣٤.
٢. روته الصحاح.
٣. النور: ٥٥ ـ ٥٧.

فما لم توضع الخطط العالمية المخلصة للقضاء على هذه العلل أو التخفيف من وطأتها فإنها سوف تظل تزرع الارهاب.

والأنكى من كل ذلك أن نجد الدول العظمى التي ارتبط تاريخها بالحروب والدمار والارهاب على رأس قائمة محاربته وهي حتى في حربها المفروضة ضد الارهاب ترتكب ابشع أنواع الارهاب وتدعم نظماً ارهابية فاشية مثل النظام الصهيوني الارهابي بكل ما في هذه الكلمة من معنى.

رابعاً: ظاهرة العالمية

وينقسم البحث إلى اقسام:

القسم الأول: الوضع الطبيعي

إذا اردنا أن نعرض الواقع الطبيعي للعالم فإنه ينبغي أن نعرضه على مستويين. تارة على المستوى النظري، من وجهة نظر الإسلام، وأخرى على المستوى الواقعي الحالي القائم. من وجهة نظر هي اقرب إلى العدالة كما نتصورها.

أما على المستوى النظري فإن الإسلام يرى أن الوضع الطبيعي للبشرية إنما يتم إذا قام نظام عالمي شامل له قانون واحد، وله إمام واحد، ويتمتع بخصيصة:

امتلاك قوانين منسجمة مع الفطرة الإنسانية، باعتبار أن الفطرة هي الحد المشترك بين الأفراد. والدين ينسجم تمام الانسجام مع هذه الفطرة، وهي سنة الله في خلقه كما في الآية الشريفة ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[1]، وهذه الفطرة تقتضي اللجوء إلى الله تعالى، واستمداد الشريعة في أصولها من الله تعالى؛ لأنه أعلم بما يصلح الإنسان، ويحقق العدالة في هذا الاصلاح لانه تعالى الخالق العليم الرحيم؛ فلا حيف ولا ظلم ولا جهل، والرسالة التي تأتي من الله تعالى تعتمد منطق العدل والإحسان. والعدل يقتضي عدم التمييز إلا بالصفات التي يكتسبها الفرد، وهذه الصفات

---

١. الروم: ٣٠.

هي التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١]، والجهاد ﴿وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾[٢]، والعلم ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[٣]، كما أن هذه الرسالة تقتضي اتباع منطق الشورى في الأمر، هذا هو التصور الاجمالي للوضع الطبيعي للبشرية ـ على المستوى النظري: مجتمع واحد وإمام واحد وقانون واحد يستمد اصوله من هداية الله تعالى، ويسير وفق التشريع الإلهي.

أما على المستوى الواقعي الحالي والمنطق السائد فإننا إذا لاحظنا الوضع الحاضر فإنه يبدو أن الوضع الطبيعي للعلاقات الدولية والنظام الحاكم في الأرض يقتضي أن تكون هناك أمم متحدة، وقانون دولي واحد ومنظمات دولية واحدة تنظم هذه العلاقات، خصوصاً وانها مسيرة تكاملية، وحركة من التفرق إلى التجمع، وان هناك مسائل لايمكن أن تعالج اليوم على أساس محلي من قبيل (مسائل البيئة الحياتية، وحقوق الإنسان، والاقتصاد العالمي والتجارة العالمية والطاقة والارتباطات والقوانين الدولية لحركة السنن والطائرات والامواج الاذاعية والتلفزيونية) وان تعامل الثقافات اليوم ضرورة ملحة للشعوب ولكن هذا النظام العالمي يجب أن يقوم على أسس منها:

١ـ احترام سيادة الدول وعدم التدخل في شؤونها الداخلية.

٢ـ احترام الثقافات المتنوعة.

٣ـ اتباع سياسة عامة لمحو الفقر ودعم العدالة الاجتماعية.

٤ـ دعم الديمقراطية في اطار احترام القيم التي يؤمن بها المجتمع.

٥ـ اتخاذ منطق الحوار للوصول إلى المشتركات والتعاون في هذه المشتركات وذلك على المستويات كافة، سواء كان حواراً بين الحضارات أو بين الأديان أو بين المدارس والمذاهب المختلفة.

٦ـ الارتفاع بالمستوى العلمي الإنساني، والتعاون بين الدول في هذا المجال.

٧ـ دعم قضية السلام العالمي العادل.

---

١. الحجرات: ١٣.

٢. النساء: ٩٥.

٣. الزمر: ٩.

٨ـ نفي الاحتلال والظلم والارهاب بأنواعه.

٩ـ فتح المجال للمعلوماتية البناءة النافعة للبشرية.

١٠ـ تقوية الجوانب المعنوية الإنسانية وعدم السماح للأفكار الهدامة بالظهور، من قبيل النازية والفاشية والعنصرية وباقي الأفكار الشيطانية باجماع البشرية.

القسم الثاني: عناصر مهمة في العلاقات مع الآخرين في رأي الإسلام

وهنا نود أن نجمل الأمر، فنذكر بعض العناصر التي تلعب دورها الكبير في تحديد نوعية العلاقات الدولية للسياسة الخارجية الإسلامية، إلا أننا قبل ذكر هذه العناصر، نشير إلى الأساسين الرئيسين، اللذين تقوم عليهما السياسة الخارجية الإسلامية، وهما:

١ـ المصلحة الإسلامية العليا على ضوء الواقع القائم.

٢ـ الروابط والرحمة الإنسانية، والصلات الخلقية.

والواقع أن كل التشريع الإسلامي يستقي من هذين المعنيين، بل يمكننا القول ـ عند التعمق ـ انهما يعبّران عن موقف واحد، فلم يكن الإسلام ليقصد إلا أن يضع الإنسان على طريق تكامله، ويفجّر طاقاته، وينفي عن حياته كل المعوقات التي تقف في وجه مسيرته، المستمدة من هدي الرسولين، الداخلي والخارجي، أي الفطرة والتشريع.

والواقع الذي لاشك فيه أن الواقعية والروح المناقبية تعتبران من أهم سمات التشريع الإسلامي في شتى جوانبه، وما سنراه فيما يلي من أسس انما ينبثق عن هاتين الصفتين الرئيسيتين.

أما العناصر التي وددنا التركيز عليها في نظرتنا السريعة هذه، فهي كما يلي:

أولاً: العمل على ابقاء الأمة نموذجاً أعلى للمجتمعات البشرية:

فالأمة الإسلامية التي يصفها القرآن: هي الأمة الوسط، والوسطية هنا بلا ريب يراد بها النموذج الأسمى، وما يمكن استفادته من تعبير واسطة العقد، حيث الجوهرة الثمينة التي تتبعها الجواهر الأخرى فيه. وهي الأمة الشاهدة، وهي خير أمة أخرجت للناس، وعلى هذا فالسياسة الخارجية الإسلامية تسير بشكل منسجم مع مجموع السياسات الداخلية باتجاه تحقيق هذا الأمر بشتى الوسائل والسبل، أي سواء على الاصعدة السياسية، أو الاعلامية، أو الاجتماعية، أو العسكرية، أو غيرها.

إن هذا العنصر يدفع الأمة إلى التعالي والتكامل في كل حقل، والاستفادة الأكمل من تجارب الآخرين، واستغلال كل تسابق في سبيل تحقيقه.

إنه يعني الانفتاح على كل مجالات الحياة، وحمل رسالة إنسانية حضارية كبرى، نقول هذا ونحن نعترف بأنّ أمتنا ـ نتيجة عوامل كثيرة ـ قد اقصيت عن هذا الدور الطليعي الذي أهلت له، ولكن هذا لا يعني أن لا تظل تلح على الوصول اليه، أو تنساه عندما تحاول أو تؤصل اية علاقة دولية.

ثانياً: المبدئية في التعامل:

وهي سمة عامة في كل خط سياسي سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي، ذلك:

أن الدولة الإسلامية دولة عقائدية، تؤمن بمبادئ تصورية تقوم على أساس منها خطوط عملية تستوعب حياة الإنسان الفرد والمجتمع.

ولهذا فهي تقترب من الآخرين بمقدار قربهم من المبدأ، وتبتعد عنهم بنفس المقياس، وهي لا تتعامل معهم إلا من خلال الامتدادات التي يسمح بها المبدأ ... فعلى ضوء المبدأ يتحدد نوع العلاقات الدولية، وكونها ودية، أو حسنة، أو سيئة في الأصل.

أما العلاقات الاخوية فلا تقوم إلا بين المؤمنين، وذلك لأنها علاقات سامية، قد تعني وحدة الأفراد في مختلف الشؤون وليس هناك إمكان أن يصلها أناس يختلفون على قضية الإيمان.

ثالثاً: نفي السبيل على المؤمنين:

وتعتبر هذه القاعدة من أروع قواعد السياسة الخارجية، وربما كانت في بعض جوانبها تطبيقاً للقاعدة الأولى، كما تعبِّر عن علو الإسلام على غيره من الأنظمة، وكرامة المسلمين التي يجب أن لا تُمسَّ مطلقاً.

وبموجب هذه القاعدة فإنّ أي تصرف أو معاهدة أو عقد يؤدّي إلى تفوق الكافرين على المسلمين يعد ملغياً من أساسه ـ وكما يعبر الفقهاء ـ فإن هذه القاعدة شأنها شأن قاعدة (لا ضرر ولا ضرار في الإسلام) وقاعدة (نفي العسر والحرج) تعد من القواعد الثانوية التي تستطيع أن تحكم على الأحكام الأولية بمجموعها، اللّهم إلا تلك التي تتضمن بنفسها تحمل الضرر في سبيل تحقيق غاية أسمى كالجهاد.

وتستند هذه القاعدة إلى أدلة، منها: الآية الشريفة:

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[١].

ومنها الأحاديث التي تطبقها في بعض الموارد، كالحديث الوارد بما نصه:

(الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه، والكفار بمنزلة الموتى، لا يحجبون ولا يورثون)[٢].

كما تستند إلى اجماع الفقهاء، وربما أمكن أن يقال: إن روح التوجهات الإسلامية، وملاحظة المناسبات بين الحكم والموضوع، تقرر هذه الحقيقة بوضوح، ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

وينبغي أن ننبه هنا إلى أنّ هذا التوجه لا يعبر عن نوع من التكبّر ـ كما يقول البعض ـ وإنما هو تقرير حقيقة علوّ النظام الإسلامي على غيره، باعتباره النظام الأكمل، وبالتالي افضلية تابعيه، فهو يعمل على أساس من معيار إنساني. نعم، يمكن أن يناقش أو يتساءل أحد عن أصل المعيار، ويتحول البحث حينئذ إلى الأدلة. أما أن يطلق القول على عواهنه، ويعتبر ذلك بشكل عام عملاً عنصرياً، فهو من أشد الظلم.

إنها قاعدة تعاملية مهمة، لها تطبيقاتها في مختلف المجالات، ومنها: المجالات السياسية.

وليس هنا بأروع من تطبيقها اليوم، في تعاملنا مع القوى العظمى، التي تعمل على ابتلاع العالم ونهب ثرواته، وعبر بعض الأساليب الخدّاعة.

وتعد حادثة تحريم شراء وبيع التبغ الداخلي والخارجي لبريطانيا، من خلال تاجر انكليزي يدعى (رجي) تطبيقاً لهذه القاعدة في ايران، حيث سلّط الشاه الظالم الكافرين، على جانب اقتصادي اسلامي، فاصدر الميرزا الشيرازي فتواه المعروفة القائلة:

(إن استعمال التبغ ومشتقاته حرام اليوم، وانه يعدّ بمثابة اعلان الحرب ضد الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف).

والتطبيق السياسي الثاني المعاصر: هو الموقف الحازم الذي وقفه الإمام الخميني من

---

١. النساء: ١٤١.

٢. من لا يحضره الفقيه: ٤.

٣. المنافقون: ٨.

معاهدة الكابيتولاسيون (أي الاشتراط) ويعني: اشتراط أن لا تطبق على السكان الاجانب في ايران إلا قوانين دولهم، حيث يقوم قنصل الدولة المذكورة بتطبيقها.

وما كانت تعني إلا نوعاً من الحصانة القضائية للأجانب، وتسليطهم على رقاب المسلمين، وقد قام نظام الشاه المقبور بعقد هذه المعاهدة في عام ١٩٦٣م، فنهض العلماء الكبار ـ وفي طليعتهم الإمام القائد ـ ضد هذا العمل المنافي للاسلام والعدالة، مما أدّى به إلى إبعاده من قبل الحكم الطاغي إلى تركيا. والواقع أن بذرة الثورة الإسلامية الكبرى غرست في ذلك اليوم. والرائع أن الإمام استهل بيانه الجريء وفتواه بالآية القرآنية الشريفة: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[١].

ولو أن الأمة الإسلامية، أو هؤلاء القائمين عليها، راعوا هذه القاعدة في تعاملهم، لما أصيبت الأمة بالحالة التي هي عليها الآن قطعاً.

ومن الجدير بالذكر:

إن العناصر الثلاثة الماضية تشكل أساساً لروح الاستقلال، والترفع على أي نفوذ أجنبي مذل.

رابعاً: التوعية قبل أية خطوة أخرى

الإسلام دين التوعية والتربية ... وهو بمقتضى واقعيته وفطريته يقرر لزوم القيام بتوعية أي إنسان يراد له أن ينضم إلى معسكره، وأي مجتمع يراد للاسلام أن ينفذ إلى عمقه ... أنه يعرض جوهرته الثمينة، لأنه يعلم أن قيمتها ستنكشف بكل وضوح للجميع ... ولذا فهو يرفض أي تقليد في العقيدة، ويدعو إلى البحث والبرهنة، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ وهو يرفض أية عملية إكراه عقائدي ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ كما يريد من الأمة أن تكون من أولي الأيدي والأبصار، قوية في بصرها وبصيرتها ... وفي مجال التعامل مع الآخرين يأمر بالدعوة البيّنة الواضحة قبل كل شيء، يقول القرآن الكريم: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[٢].

---

١. النساء ١٤١.

٢. النحل: ١٢٥.

﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾[١].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٢].

﴿قُل هٰذِهِ سَبيلي أَدعو إِلَى اللَّهِ عَلىٰ بَصيرَةٍ أَنا وَمَنِ اتَّبَعَني وَسُبحانَ اللَّهِ وَما أَنا مِنَ المُشرِكينَ﴾[٣].

وفي هذا يقول آية الله السيد محمد باقر الصدر في كتابه (اقتصادنا):

(والأمر الآخر: أن يبدأ الدعاة الإسلاميون ـ قبل كل شيء ـ بالإعلان عن رسالتهم الإسلامية، وايضاح معالمها الرئيسية، معززة بالحجج والبراهين، حتى إذا تمت للإسلام حجته، ولم يبق للآخرين مجال للنقاش المنطقي السليم، وظلوا بالرغم من ذلك مصرّين على رفض النور ... عند ذلك لا يوجد أمام الدعوة الإسلامية ـ بصفتها دعوة عالمية تتبنى المصالح الحقيقية للإنسانية ـ إلا أن تشق طريقها بالقوى المادية، بالجهاد المسلح)[٤].

وقد جاء في كتاب الكافي للمرحوم الكليني عن الصادق عليه السلام قوله:

(قال أمير المؤمنين عليه السلام: بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اليمن، فقال: يا علي لا تقاتلنّ أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام، وأيم الله لأن يهدي الله عزّ وجل على يديك رجلاً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس وغربت، ولك ولاؤه يا علي)[٥].

إنه اسلوب القرآن قبل كل شيء، الذي علّمه الله لموسى وهارون عليهما السلام ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[٦].

إنه الدعوة ـ حتى عند مواجهة الطواغيت ـ عسى أن يهتدوا إلى الحق.

وها نحن نجد الرسول العظيم يكرر عبارة (ادعوك بدعاية الإسلام) في رسالته إلى شاه ايران، وقيصر امبراطور الروم تطبيقاً لهذا التعليم الإسلامي السامي.

---

١. الشورى: ١٥.

٢. فصلت: ٣٣.

٣. يوسف: ١٠٨.

٤. ١: ٢٧٥.

٥. وسائل الشيعة: ١١: ٣٠.

٦. طه: ٤٣ ـ ٤٤.

وهكذا راح الدعاة يبثون الدعوة إلى الأقطار. وقد ذكرت أسماء بعض الدعاة إلى الله، ومنهم:

عبدالله بن حذافة السهمي ـ مبعوث الرسول ﷺ إلى ايران.

حاطب بن أبي بلتعة ـ مبعوث الرسول ﷺ إلى مصر لدعوة المقوقس.

دحية الكلبي ـ مبعوث الرسول ﷺ إلى روما.

عمرو بن أمية ـ مبعوث الرسول ﷺ إلى الحبشة.

سليط بن عمرو ـ مبعوث الرسول ﷺ إلى اليمامة.

عمرو بن العاص ـ مبعوث الرسول ﷺ إلى عمان.

حرملة بن زيد مع وفد معه إلى مدينة (أبلة) الواقعة على ساحل البحر الأحمر.

المهاجر بن أبي أمية ـ مبعوث الرسول ﷺ إلى ملوك حِمْير.

خالد بن الوليد ـ مبعوث الرسول ﷺ إلى همدان (مدينة قرب بحر عمان).

علي بن أبي طالب عليه السلام ـ مبعوثه الثاني إلى هذه المدينة.

حذيفة بن اليمان ـ مبعوث الرسول ﷺ إلى الهند.

عبدالله بن عوسجة ـ مبعوث الرسول ﷺ إلى قبيلة حارثة بن قريظ.

جرير بن عبدالله البجلي ـ مبعوث الرسول ﷺ إلى قبائل ذي الكلا.

وغيرهم ممن حمل مهمة الدعوة إلى الشعوب.

وإذا اردنا أن نجد التطبيقات السياسية لهذا الأصل في التعامل الدولي، أمكننا أن نلحظها في بعثات الإيضاح المرسلة من هنا إلى هناك، وفي اساليب توضيح الحقيقة عبر الوسائل السمعية والبصرية. وفي مذكرات الايضاح الموجهة، والمذكرات التفسيرية المقدمة إلى المؤتمرات الدولية.

ومما تتميز به العلاقات الدولية الإسلامية: أنها تنظر إلى عملية التوعية والايضاح كرسالة الهية ومبدأ ضروري يجب الالتزام به قبل القيام بأية خطوة عسكرية أو سياسية أو غيرها تجاه الدول الأخرى.

اما ما نجده من السياسة الماكرة القائمة بالفعل، فهو اعتماد هذه السياسة التوضيحية باعتبارها مناورة سياسية فإذا لزم الأمر، قلبت الحقائق، وتغيرت الموازين.

ونذكر هنا بأن الإسلام قدم للبشرية وللمسلمين بالاخص ارشادات رائعة تؤكد على:

١. أن ينطلق الحوار من مبادىء ثابتة لا أسماءً موهومة.

٢. أن يكون موضوعياً.

٣. أن يتم في جوخال من التهويل بل يتبع التي هي أحسن.

٤. أن يبتعد عن الجدال العقيم.

٥. أن يستهدف غايات نبيلة.

وغير ذلك.

خامساً: مراعاة العدالة في التعامل

يشكل العدل أهم اصول التصور الإسلامي عن الواقع.

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾[1].

وأهمّ الأسس عند التعامل الاجتماعي.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ﴾[2].

ومن الطبيعي أن يأتي التأكيد على العدالة حين تثور الإحن والشنآن، ويكاد العدل ينسى من البين، وحينئذ تقول الآية:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[3].

وإذا لاحظنا أن العدل في التعامل مع الأجانب عن دار الإسلام يلحظ فيه واقعهم القائم، أدركنا البعد الإنساني في هذا لأصل، وهذا ما تؤكده أحكام الإسلام في الجهاد والعهد والإجارة وغيرها.

وهو ما يفسر وقوف الدولة الإسلامية إلى جانب قضايا المستضعفين والمحرومين في الأرض، ومقارعة الظلم والطغيان في كل مكان، حتى لو لم يكن الأمر يمسها من قريب، وعملها على نفي العلاقات الظالمة بين الدول.

---

١. آل عمران: ١٨.

٢. النساء: ١٣٥.

٣. المائدة: ٨.

فليس وقوفنا إلى جانبهم وقوفاً مصلحياً دعائياً، حتى إذا ما تسنّى لنا الأمر ومنحتنا المقادير أزمّتها رحنا نسومها سوء العذاب، وهو ما نجده من القوى العظمى، شرقيّها وغربيّها.

وإنما هو موقف مبدئي أصيل، قائم على أساس متين، متى ما خالفناه ـ وفي أية لحظة ـ خرجنا عن الخط الإسلامي القويم، ودخلنا في عداد المستكبرين، الذين يقول فيهم تعالى:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ * أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾[1].

إن القرآن على العكس من ذلك، يعطينا صورة الجماعة المسلمة المتمكنة، بقوله:

﴿الَّذينَ إِن مَكَّنّاهُم فِي الأَرضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ وَأَمَروا بِالمَعروفِ وَنَهَوا عَنِ المُنكَرِ وَلِلَّهِ عاقِبَةُ الأُمورِ﴾[2].

سادساً: مبدأ تأليف القلوب

وهو مبدأ يمثل ايجابية الشريعة الإسلامية بكل وضوح، كما يعكس واقعيتها في نفس الوقت.

ففي الجو الذي يتم فيه تأليف القلوب، تنفتح النفوس للحقيقة، وتتقرب إلى الواقع، والأصل في هذا المبدأ هو: سهم المؤلفة قلوبهم في مصارف الزكاة، حيث فتح هذا مجالاً للعمل المنظم لتحقيق ذلك، عبر الوقوف إلى جانب كل المستضعفين، والدفاع عن قضاياهم، وجلب القلوب إلى الإسلام.

ورغم أن الفقهاء يختلفون في مساحة هذه القلوب المؤلفة، وهل تختص بغير المسلمين، أم تشمل المنافقين، أم تعم بعض المسلمين ضعيفي الإيمان، إلا أنّ الذي يبدو من روح الإسلام واتجاهاته الاقتصادية، ومن أقوال فقهاء الشيعة والسنة ـ ومنهم الإمام الخميني القائد ـ أنه مبدأ عام، وأصل يتيح للدولة الإسلامية أن تلحظ المصلحة أينما تكون. ومن هنا فمن الطبيعي أن يشكل عنصراً إسلامياً، له دوره في تحديد العلاقات الدولية، وتقديم المساعدات إلى مختلف الدول والشخصيات والجمعيات على شتى مذاهبها.

١. محمد: ٢٢ ـ ٢٣.

٢. الحج: ٤١.

ولئن كان هناك بعض البحث في لزوم العمل بهذا المبدأ في عصر معيّن، وبالنسبة لأشخاص معيّنين، بعد وفاته ﷺ فإنّه لا شك في إسلاميته أصلاً، ولزومه في العصور الأخرى.

على أننا ننبه هنا إلى أنّ هذا السهم المعطى للمؤلفة قلوبهم لا يختص مورده بباب الزكاة، وإنما نجد الإسلام يسمح للإمام بأن يقوم بالإنفاق بما يحقق مصلحة الإسلام العليا من أموال الدولة، وتفصيل هذا يذكر في البحوث الاقتصادية الإسلامية.

وبانفتاح هذا الباب نجد المجال السياسي لتطبيقاته واسعاً جداً يشمل كل المعونات الاقتصادية والسياسية التي يمكن أن تقدمها الدولة في سبيل تقريب القلوب إلى مبادئها ... إلا أنّ من الواضح فيه ملاحظة مدى ما يعود به من نفع على القضية الكبرى بغض النظر عن أية منافع سياسية ضيقة.

سابعاً: احترام العهود والعقود والاتفاقيات الدولية

وهذا الأصل هو من أهم الأصول التي تعتمدها السياسة الإسلامية الحقة، وكما قلنا من قبل، فإنه يستمد من الواقعية التي تتسم بها النظرة الإسلامية من جهة، واحترام مقتضيات الحق من جهة أخرى.

فالقائد الإسلامي يفكر ملياً في أيّ عهد أو عقد يعقده، ولكنه إذا عقد العقدة ـ مستوفية لكل شروطها ـ التزم بها تمام الالتزام.

﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾[1].

والعهود التي تعطى للدول الأجنبية أو الأجانب، تارة تدخل ضمن عقود صرّح بها الإسلام، وحدّد لها قوانينها العامة، فيجب الالتزام بذلك، وأخرى تسير بمنحى مستقل، يرى وليّ الأمر أن يعقدها لأنّها تحقق المصلحة الإسلامية العليا.

فمثال الأول: عقد الذمة، وعقد الهدنة، وعقد الأمان. ومثال الثاني: كل العقود الأخرى والتي تعقد على الصعيد العسكري والاقتصادي، وأمثال ذلك.

وتستمد التعاليم الإسلامية ـ الخاصة بهذا العقد أو ذاك ـ من نصوص القرآن الشريفة، والأحاديث المباركة، وعمل الرسول ﷺ .

---

١. الاسراء: ٣٤.

ففي مجال عقد الذمة: تستفاد بعض الأحكام من الآية الشريفة: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[1].

وهناك عقود أهل الذمة التي عقدها ﷺ مع نصارى نجران وبني تغلب ومجموعات من اليهود.

ولا نريد هنا أن ندخل في تفاصيل هذه العقود، وإنما نريد التأكيد على أن مسألة العهود تحتل جانباً مهماً من الفقه الإسلامي، وتستمد خطوطها العريضة من القرآن الكريم.

ثامناً: التعامل بالمثل

يقول تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّهَ وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[2].

وإذا كان مبدأ القصاص من جهة، ومبدأ جزاء الإحسان بالإحسان من جهة أخرى، مبدأين واقعيّين يرتضيهما المنطق الإنساني في التعامل الفردي والاجتماعي الداخلي، فإنّهما كذلك في مجال التعامل الدولي، بل ربّما عاد أحدهما من الضرورات، إما لردع الأعتداء، وإما لجلب القلوب.

تاسعاً: نظام الجهاد بمختلف أنواعه

وهو باب واسع الأبعاد والفروع، حاول الإسلام فيه تنظيم الأعمال الحربية، مستهدفاً تحقيق الأهداف الإسلامية العليا، من خلال رفع الموانع في سبيل الدعوة الإسلامية، والحفاظ على محورها المتحرك. كل ذلك مع ضمان أكبر لالتزام الأساليب الإنسانية الممكنة ولن نتحدث طويلاً عن هذا الباب لسعته وضيق مجالنا عنه.

كانت هذه بعض الأسس القرآنية للتعامل الدولي، أشرنا اليها في لمحات سريعة، تاركين التفصيل فيها إلى مظانه، وملاحظين أنه قد يكون البعض فيها داخلاً في اطار البعض الآخر، كما في مسألة المبدئية في التعامل مثلاً، أو نظام الجهاد.

---

١. التوبة: ٢٩.

٢. البقرة: ١٩٤.

القسم الثالث: الاتجاهات العالمية لدى النظم

هناك اليوم ثلاثة مذاهب متنافسة هي الإسلام، الاشتراكية، الرأسمالية. وهي تمتلك جميعاً توجهات عالمية، وهنا أؤكد على أنه لا فرق من حيث هذا التعريف بين العولمة والعالمية. و الإسلام باعتباره آخر حلقة من حلقات الدين الإلهي جاء ليصلح البشرية، باعتباره طريق خلاصها الذي اراده خالق البشرية، وهو بذلك يركز على الفطرة الإنسانية المشتركة بين ابناء البشر، ويعتمد منطق الحوار والاقناع، ويعرض نفسه باعتباره السبيل الوحيد لخلاص البشرية، هذا الإسلام استخدم، لتحقيق اهدافه، عملية التغيير الفردي والتغيير الاجتماعي، وسعى لحذف الحدود الجغرافية والحدود اللونية واللغوية، وإقامة مجتمع عالمي يطبق قانوناً واحداً، ويتبع قائداً واحداً، ويمتلك احاسيس مشتركة، وأهداف إنسانية واحدة. وهذا الاتجاه العالمي يبدو في كثير من النصوص الإسلامية، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ (٥١) وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[2].

وهناك نصوص كثيرة تؤكد على عالمية الإسلام منذ انطلاقته الأولى خلافاً لما يدعيه بعض المستشرقين والمؤرخين؛ من أن العالمية الإسلامية جاءت بالتدريج ولا مجال هنا للتفصيل في هذا المجال.

إن الإسلام يعتبر نفسه مرحلة اسمى في مسيرة الرسالات السماوية جاء فيها التصور الكامل للعقيدة بكل تفصيلاتها، وللشريعة الشاملة لابعاد الحياة الإنسانية، ومنها كيفية تشكل الأمة الإسلامية وخصائصها لتكون خير امة اخرجت للناس، والأمة التي تملك النموذج الحضاري على مدى التاريخ الذي يتلو انطلاقة الإسلام، فلا يختص هذا النموذج بقومية أو منطقة أو طبقة أو مرحلة زمنية دون أخريبل يعلو على كل التمايزات المادية.

ورغم ما ابتليت به مسيرة الإسلام والأمة من مشاكل تمزيقية فإن معالم العالمية الإسلامية

---

١. الأعراف: ١٥٨.

٢. القلم: ٥١.

بقيت واضحة تماما. ومازال المنطق الإسلامي الذي يفسرها حيا منطقيا. فإن اي قبول بالاسس التالية يعني القبول بالعالمية.

١ـ الإسلام خاتم الرسالات ولذا فهو الدين الخالد.

٢ـ الإسلام دين الانسجام مع الفطرة الإنسانية.

٣ـ الإسلام ينفي اي تمايز مادي ويقيم معاييره على أساس من التقوى والعمل الصالح والعلم.

٤ـ الإسلام يستهدف اقامة مجتمع العدالة التامة ونفي كل مظاهر الظلم والفساد.

إن اي قبول بهذه المبادىء يعني الإيمان بعالمية الإسلام أما اثبات هذه المبادىء فهو امر تتكفل به بحوث أخريوالذي نرمي ذكره هنا هو أن الإسلام يصرح بها بقوة ووضوح فهو يملك الاتجاه العالمي منذ انطلاقته.

فالإسلام إذا انطلق باتجاه عالمي وما زال، عبر العصور، يؤكد هذا الاتجاه، ويؤكد وحدة المنطلق الإنساني، والمسير والهدف، هذا هو رأي الإسلام، أما الاشتراكية فهي ايضاً عندما طرحت فلسفتها عن التاريخ طرحت مسألة المادية التاريخية، والمراحل التي اشتهرت في هذه المادية، حيث تنتقل البشرية من مرحلة العبودية إلى المرحلة الاقطاعية، إلى الرأسمالية التجارية، إلى المرحلة الرأسمالية الصناعية، إلى المرحلة الاشتراكية، وبالتالي إلى المرحلة الشيوعية، عبر بعض القوانين ومنها صراع الأضداد الاجتماعية هذا التصور اعطى الاشتراكية نظرتها العالمية في ايجاد تحول عالمي في مسيرة الإنسانية. وواضح أن الاشتراكية اعتمدت في هذا المجال قضية صراع الطبقات، والثورة والنظام الحديدي الاشتراكي، الذي يوصل المجتمع إلى الجنة التي يتصورها الاشتراكيون، وهي الشيوعية[١]، وقد فشلت هذه الرؤية سواء على الصعيد النظري أو على الصعيد التطبيقي في اثبات ذاتها.

هذا بالنسبة إلى الاشتراكية، أما بالنسبة إلى الرأسمالية؛ فقد انطلقت منذ بداية حركتها دون أساس ايديولوجي[٢]، ولم تكن تهتم بالأساس الايديولوجي، وإنما همها تنظيم الحياة،

---

١. للوقوف على تفصيل هذا الأمر، راجع بحوث الشهيد الصدر في اقتصادنا. ص ٥٣ ـ ٢٣٨ حول الموضوع.

٢. ن. م ص ٢٤٧ ـ ٢٥٠.

واقامت نظامها على أساس الحرية الفردية الرأسمالية، ولكنها عندما انطلقت وواجهت اتساع الأفكار المعادية لها، راحت تأخذ من الاشتراكية شعاراتها وتستبدلها بشعارات مقابلة، من قبيل العدالة الاجتماعية؛ حيث استبدلتها بمسألة حقوق الإنسان، والتنمية الاقتصادية؛ حيث استبدلتها بمسألة السوق الحرة ونمو الانتاج، وبالتالي فإنها اخذت شعار الأممية البروليتارية واستبدلته بشعار العولمة الرأسمالية، إذ أنها عندما انطلقت انطلقت محلية وكان تركيزها على الغرب، ولم تطرح نفسها بشكل عالمي، إلا بعد أن توفرت ظروف مناسبة لذلك، فراحت تطرح مفاهيم العولمة أما النظام العالمي الجديد فهو مصطلح استعمله الغرب سياسيا في فترة مبكرة لكي يفرض هيمنته السياسية وقد اتخذ في فترات متفاوتة قوالب متعددة. تبعا لسخونة الحرب وبرودتها.

وهنا نذكّر بالمراحل التي ذكرها (روبنسون) فقد تصور (روبنسون) أن العولمة الرأسمالية مرت بمراحل هي المرحلة الجنينية، وتبدأ منذ القرن الخامس عشر الميلادي وحتى منتصف القرن الثامن عشر، بسيادة القومية والجغرافية، ثم مرحلة النشوء، التي رآها تستمر حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر بتبلور مفاهيم العلاقات الدولية ثم مرحلة الانطلاق وأوصلها إلى عشرينيات القرن العشرين بظهور المفاهيم الكونية، ثم مرحلة الصراع من اجل الهيمنة حتى منتصف الستينات، حيث ظهرت الأمم المتحدة، ثم مرحلة الاتصال وادماج العالم الثالث، والتعدد الثقافي، وبالتالي تصور اوج العولمة في الثمانينات والتسعينات[١]. وهذا التصور كما نعتقد مصطنع وفرضي ولا واقع له، لأن الرأسمالية لم تنطلق بنظرة عالمية مطلقاً، وإنما كان تركيزها على الغرب والدول الغربية بشكل جغرافي لا غير، ولكن الظروف التي حصلت في اواخر القرن العشرين دعت لطرح مفهوم العولمة كما يبدو للباحث. فإن تنامي القدرة الغربية وامتلاكها المعلوماتية الضخمة وقدرة الاعلام النافذ إلى كل انحاء العالم من جهة، وكذلك تعاظم القدرة الإسلامية وانتشار النظرة الشمولية الإسلامية، التي شكلت في نظر الغرب خطراً على كل الحضارة الغربية من جهة ثانية، وانهيار الاتحاد السوفيتي كقدرة منافسة، كل هذه الأمور فسحت المجال لطرح نظرية العولمة على هذا المستوى الواسع.

---

١. نقلا عن سيد ياسين ـ مجلة المستقبل العربي عدد ٢٢٨ فبراير ١٩٨٨م.

القسم الرابع: تعريف العولمة

لا ريب أن تعريف العولمة غامض والتعاريف المقدمة متناقضة ومتنوعة، والحقيقة إن الإنسان يدرك من خلال معرفة نوع التفسيرات والتعاريف؛ إن العولمة هي محاولة نفي الحضارات غير الغربية، وتحميل الرأسمالية، ومحاولة فرض الأمركة والهيمنة على العالم. ونذكر في هذا الصدد ثلاث محاولات:

١ـ تعريف اللجنة الدولية عام ١٩٩٥م وهو يفسرها بالتداخل بين أمور الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة والسلوك عبر رفض الحدود والانتماء الوطني والاجراءات الحكومية[١].

٢ـ بعض التعاريف العربية للعولمة بأنها حقيقة التحول الرأسمالي في ظل هيمنة الدول المركزية وسيادة نظام عالمي غير متكافئ، وهناك تعريفات اقتصادية أو ادبية أو تعاريف باعتبار اللوازم (للجابري) و(التيزيني) وغيرهما[٢].

٣ـ تعريف (روزناو) الأميركي ويطرح تساؤلات: هل تنطلق العولمة من التجانس، أو تعميق الفوارق؟ وهل لها مصادر واحدة أو متفرقة؟ وهل لها ثقافة واحدة أو متعددة؟ وبالتالي يعتبر أن هناك ثلاثة عناصر دخيلة في العولمة، هي ازالة الحدود وابراز تشابه المجتمعات الكبرى وفرض طريقة حياتها على الآخرين[٣]، ومن هنا نستطيع أن نقول: أن العولمة في الواقع هي محاولة امركة العلاقات السياسية والحقوقية والاجتماعية، عالمياً، وفرض ثقافة الهيمنة الغربية على الآخرين فهي من أخطر الأفكار الشيطانية. وقد استفاد الغرب من قدرته التكنولوجية والعلمية والثقافية والعسكرية لطرح هذه الفكرة، كما قام بعض الفلاسفة والكتاب بالتمهيد النظري لها، وكلنا يعرف نظرية (هانتنكتن) التي تركز على الحضارة الغربية وتعتبرها تتميز بالتسامح والإنسانية والتعددية، في حين تصف الحضارات غير الغربية بالاستبداد والانغلاق على الماضي، والفشل في حل المشكلات الإنسانية، كالفقر والبطالة ومستوى المعيشة، وكثرة الانجاب والديكتاتورية. وهي تقترح على الغرب أن لا

---

١. مجلة النهج عدد ٥٠ ربيع ١٩٨٨.

٢. مجلة الواحة عدد ١٦ ص ١٥٣.

٣. جيمس روزناو ـ ديناميكية المعرفة.

يتعاون مع غيره، ولا يصدّر التكنولوجيا، ويوحد نفسه اقتصادياً وسياسياً واداريا، وترى أن الحضارة الغربية تعتمد على الأرث اليوناني والمسيحية الغربية والعلمانية، وسيادة القانون والتعددية الاجتماعية والمجتمع المدني وحقوق الإنسان، وهي أمور تميزت بها الحضارة الغربية ولا تتحقق في حضارات اخرى. ويأتي (فوكوياما) ليجعل النظام الرأسمالي غاية التاريخ، ويرى أن المجتمعات كلها يجب أن تتجه نحو الرأسمالية، ويجب توفير الشروط السياسية والاجتماعية، وأهمها تطوير البنية الاجتماعية نحو المساواة واللاطبقية واللاطائفية، وايجاد تفسيرات دينية مرتبطة بهذا التطور، وكذلك قيام المجتمع النامي لايجاد المؤسسات الوسيطة بين الأفراد والدولة، كما يجب عدم المبالغة بالتمييز القومي مما يدعو للعزلة الحضارية، ويدعو إلى تفسيرات مستنيرة للنصوص الدينية، وينتقد كل الحركات المتطرفة، ويدعو لتوجه الصفوة لدعم القيم الديمقراطية والحريات؛ فهو إذن يجعل المجتمع الرأسمالي الغاية التي يجب أن تسير اليها كل الحضارات[١]. كذلك نجد (بيدهام برايان) المفكر الانكليزي في سلسلة المقالات التي نشرها في مجلة الايكونومست خلال عام ١٩٩٤ يؤكد أن هناك تشابهاً بين الوضع الإسلامي في القرن الخامس عشر الهجري ووضع أوروبا في القرن الخامس عشر الميلادي، ويرى أن كلا الوضعين متشابهان في توفر الارضية المناسبة للاصلاحات، وفي نوع المؤسسات الدينية لدى المسلمين ومؤسسات الكنيسة في القرن ١٥ م وفي المستوى البائس لديهم، وفي الشوق لتحسن الاوضاع، ويرى أن هناك عاملاً خارجياً يحرك هذه الحالة ويدعمها، ففي الوقت الذي شكل فيه (المسلمون) العامل الخارجي لتطوير أوروبا في حينها، يشكل الغرب اليوم عامل دفع للعالم الإسلامي نحو التطور والتقدم ويرى أن التحرك يبدأ من الإسلاميين المتحررين الذين يؤمنون بالديمقراطية، ولابد من التحرك بقوة لدعم هؤلاء، وفي ختام مقالاته يوجه إلى العالم الإسلامي توصيات ثلاث لكي يتأهل للتعامل مع الغرب والدخول في ركب الحضارة الإنسانية السائدة هي:

١ـ الانسجام مع الاقتصاد الحديث.

٢ـ القبول بفكرة المساواة بين الرجل والمرأة.

---

١. العربي العدد ٥١٢، الاستاذ مجد الدين خمش ص ٣٠.

٣ـ العمل على تمثل القواعد الديمقراطية وتطبيقها في نظم الحكم[١].

هذا وقد شملت عملية التمهيد لنظرية العولمة والأمركة المجالات المعلوماتية كما في مجال الانترنيت والفضائيات، كما شملت عملية السيطرة على المنظمات الدولية، فإن استجابت لهذا الهدف وإلاّ تمّ تجاوزها وراح التخطيط لفرض السياسة الأميركية على العالم. وقد استغلت أميركا حوادث ١١ سبتمبر لتطرح نفسها القوة الأولى في العالم، والمسيطرة على كل مقدراته السياسية كما جاء التخطيط للسيطرة على الثقافات والقيم، والتدخل في التشريعات الاجتماعية، كما رأينا في مؤتمرات الاسرة في القاهرة وكوبنهاغن، ومكسيكو سيتي، وبكين وغيرها؛ حيث تم التدخل في الأمور التشريعية الاجتماعية تحت شعار حماية حقوق الإنسان[٢].

القسم الخامس: الآثار السلبية للعولمة

لقد توضحت للعالم جميعاً الآثار السلبية التي تركتها هذه الفكرة المخربة، ولذلك وصفت العولمة بكثير من الأوصاف منها العولمة المتوحشة أو العولمة المجنونة أو العولمة الفخ، أو وصفت بأنها أما أن تأكل أو تؤكل، وقد ذكرت الدراسات المتنوعة هذه الآثار السلبية التي نشير إلى بعضها:

١ـ سيطرة القوى الكبرى على حركة الاقتصاد العالمي والمصادر الانتاجية والتبادل المالي والتجارة، حتى قيل إن هناك ٥٠٠ شركة تسيطر على ٧٠٪ من حجم التجارة العالمية، وان هناك ٢٠٪ فقط يعيشون في اكتفاء ذاتي في حين يقبع ٨٠٪ في عالم التبرعات. وان ما تكسبه الولايات المتحدة من حركة تحرير التجارة لايقل في المتوسط عن ٢٠٠ مليار دولار سنوياً منذ انشاء منظمة التجارة العالمية وحتى عام ٢٠٠٥ بينما تقدر خسائر الدول الأفريقية بحوالى ٢٠٩ مليار سنوياً[٣].

٢ـ سيطرة أميركا على وسائط نقل المعرفة.

---

١. راجع مجلة المنهاج عدد ٢٢، السنة السادسة، ص ٢٤٨، مقال للمؤلف حول هذا الموضوع.

٢. راجع كتاب: مؤتمر السكان والتنمية في القاهرة وتداعياته للمؤلف.

٣. الاستاذ المنياوي نقلا عن تقرير المجلس القومي للانتاج والشؤون الاقتصادية المصري. والذي عرض في ٢٠٠٢:٣:١٧.

٣ـ كسر هيبة الدول الصغيرة، وقدرتها على النمو.

٤ـ التدخل في التقنين الداخلي لباقي الشعوب كما رأينا في مؤتمرات الأسرة وغيرها.

٥ـ الغزو الثقافي لكل المناطق، ومحاولة استئصال الثقافات الأخرى. فهي تدعو إلى تطبيقات عصر ما بعد الحداثة والغاء دور الدين وقد نادى الفيلسوف دجاك دريدا إلى حل المؤسسات الدينية والتعليمية[1].

وهانحن نجد الغرب يسوق بعض مفاهيمه على أنها مفاهيم مسلمة وعلى العالم أن يلتزم بها من قبيل (الديمقراطية) و (الحرية الفردية) و (الحرية الجنسية) بل راح اخيرا يجعل (العلمانية) مبدأ إنسانيا لايمكن تركه، وهكذا يمكن الحديث عن النماذج الاقتصادية الغربية في الاستهلاك من زاوية ثقافية وكذلك من الممكن الاشارة للغزو الثقافي الواسع الابعاد والعمل على محو الهويات الوطنية وايجاد هويات مجازية ومصطنعة بواسطة وسائل الاعلام الواسعة التأثير.

٦ـ التقليل من شأن المحافل الدولية، واستغلالها لصالح هيمنة القوى الكبرى، كاستغلال صندوق النقد الدولي والبنك الدولي وغيرها من المنظمات لتنفيذ السياسات المصلحية وقد رأينا قبل أيام أن رئيس دولة غربية يعلن أن الناتو والقوى الغربية وجّهوا أكبر ضربة للنظام العالمي لاستغلالهم المحافل الدولية[2].

٧ـ تلويث البيئة نتيجة الجشع الذي ابتليت به القوى الكبرى.

٨ ـ وهناك عمل رهيب على تغيير الخارطة السياسية في بعض المناطق (من قبيل منطقة الخليج ومنطقة شمال أفريقيا، وروسية وتايوان) وربما لايجاد سايكس بيكو جديدة.

---

١. الدكتور عبدالعزيز حموده ـ الثقافة ـ اختيار للثقافة القومية الاهرام ٢٠٠٢:٧:٥ ص ١٣..

٢. وتتابع الأدلة يوماً بعد يوم على هذا الاستغلال فإذا لم تحقق لهم مصالحهم تركوها وهذا ما شاهدناه من موقف أميركا من معاهدة كيوتو. التي تمنع تلويث البيئة لانهم اكتشفوا انها تقلل من انتاجهم من الفحم الحجري، والنفط الثقيل، والطاقة النووية وذلك بعد ان كانت قد وقعت عليها ومن المحكمة الجنائية الدولية أخيراً. بعد ان ساهمت هي في انشائها ولكنها عملت على اعفاء جنودها من اجراءات المحاكمة. وكذلك عملت على الخروج من اتفاقية Ctbt. لمنع التجارب الذرية واوقفت العمل التنفيذي في مجال تحريم الاسلحة الكيمياوية.

وهناك آثار سلبية كثيرة أخرى للعولمة نعرض عنها فعلاً.

الموانع بوجه مخططات العولمة الأميركية (المتفردة):

ونحن نجزم بأن أميركا التي تقف وراء حركة العولمة هذه، لن تستطيع أن تحقق مآربها رغم ما تملكه من امكانات. فهناك موانع كثيرة امامها ومنها:

١. وقوف دول كبرى وتكتلات عالمية مختلفة المصالح بوجهها.

٢. وقوف الشعوب بوجه المخططات الرامية إلى مسخ الهوية بل وربما الاحتلال المبطن.

٣. حصول الازمات العالمية على مختلف الصعد وخصوصا الاقتصادية كازمة الطاقة التي قد تشعل النظام العالمي كله.

٤. عدم امكانها الاستمرار في عملية تحدي نظام العلاقات الدولية وتخطي المؤسسات العالمية مما يحرك العالم ضدها.

٥. تنامي الوعي العالمي لهذه المخططات بنفسه يؤدي لارتفاع وتيرة المقاومة ومن هنا يمكن أن تتحول الوسائل الحديثة التي تستغلها العولمة إلى ادوات تنمي عنصر الوعي بمخططاتها.

٦. الوعي الديني المتنامي للشعوب فهو يشكل المانع الأكبر بوجه المخططات التي تعمل على محوه.

القسم السادس: بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية

وقبل أن نطرح تصورنا لما يجب أن تفعله الأمة، نحاول أن نلخص الفروق بين عالميتنا وعولمتهم فيما يلي:

إن العالمية الإسلامية تمتاز بانها:

* عالمية اقناعية لاتفرض على الشعوب ايديولوجيتها ولاتحاول سلبها ثقافاتها ونمط حياتها، وإنما تعمل على التعايش والتفاهم معها وهذا ما تثبته النصوص الإسلامية وتؤكده الوقائع التاريخية المنسجمة مع النصوص فلا اكراه عقائدي ولامسخ ثقافي ولا محو عنصري.

* وهي لاتعمل على سلب حقوق الآخرين ونهب ثرواتهم.

* وهي لاتعمل على اشاعة مفاهيم مصلحية كتعميق مفاهيم الاستهلاك بل توازن في

اتجاهاتها بين الانتاج البشري والحاجة العامة نافية اي كفر بنعم الله واي ظلم في التوزيع مستهدفة قبل كل شيء سعادة الإنسان وكرامته رافضة الاسراف انتاجا أو توزيعا.

* كما أنها لاتتحرى ما يوجب الإضرار بالافراد أو الجماعات أو المجتمعات بل تعمل على اعطاء كل ذي حق حقه موفرة الامن بكل أنواعه للجميع.

* وهي لاتحاول فرض هيمنة شعب أو طبقة أو فرد على الآخرين، وتتصدى لكل أنواع الديكتاتورية والتعالي وتعتبره مظهرا للطاغوت معتبرةً أن الصراع ضد الطاغوت هو احد هدفي الانبياء إلى جانب تعبيد الارض لله.

* وهي تعمل على نشر القيم الإنسانية والأخلاق الحميدة كهدف لاتحيد عنه.

* وتعمل بواقعية اصيلة على أن تتجلى باقي المظاهر الإنسانية في السلوك الفردي والاجتماعي والدولي.

* ومن هذه العناصر الفطرية العدالة التي يعمل الدين لتحقيقها في كل المجالات ويحذف كل ما يتنافى معها مهما كان.

* كما تعمل هذه العالمية على احترام الآخر واشاعة منطق الحوار قبل اي عمل (ليحيى من حي عن بينة ويهلك من هلك عن بينة) وهو ايضا من مقتضيات الفطرة الإنسانية.

* ومن المبادىء التي تعمل على اشاعتها التعاون والتعارف والاستخلاف الالهي والتكافل الاجتماعي.

* وتقوم الإنسان ومركزه بمعايير الالتزام والعمل الإنساني.

* وتوازن بين الحريات الفردية والمنافع الاجتماعية وبالتالي فهي تبني كل المسائل الاجتماعية على فلسفة واقعية تنطلق منها وتلتزم بمقتضياتها إلى ما هنالك من خصائص لايسع المجال لاستقصائها.

اما العولمة الغربية فنكاد نقطع بانها تقف على النقيض مما سبق.

فهي تتصف ـ كما رأينا ـ بالاكراه الثقافي، والنهب إما بشكل همجي مجنون أو بشكل عصري حداثي، كما أنها تعمل على تعميم المنطق الحيواني للاستهلاك، وتتدخل في كل شؤون المجتمعات حتى الاجتماعية والمدنية منها وتستهدف الهيمنة بشتى أنواعها، ثم أنها لاتعرف اي معنى للقيم الأخلاقية بل هي تسخر الأخلاق لتحقيق مآربها السياسية ـ كما

رأينا في بيان المفكرين الأميركيين اخيرا ـ فلامجال للامور المعنوية في قاموسها بل هي تعمل على محاربتها بما تمتلك من وسائل ومنها الوسائل الاعلامية الاباحية، كما أن العدالة عندها نسبية تتناسب مع مصالحها الضيقة، وبالتالي تطرح بوحشية لامثيل لها منطق الصراع بدلا عن الحوار، أما معيار العدالة والتقويم فليس إلا القوة والمصلحة الضيقة ولذا تستسيغ الكيل بمكيالين باعتبار الآخرين لايملكون استحقاق التعامل الإنساني ـ وفقا لنظرية هوبز في تقسيم المجتمعات على أساس الحداثة ـ وقد وجدت اليوم اتباعا أكثر من المفكرين الغربيين وخصوصا في انجلترا وأميركا.

واخيرا فقد قلنا إن العولمة الغربية تستغل الظروف المواتية لها دون أن تستند إلى فلسفة واقعية تبرر لها هجمتها المتوحشة.

القسم السابع:موقف الأمة والخطوات العملية التي يجب أن تتخذها اتجاه العولمة

وقبل بيان هذه الخطوات نؤكد بأن الرفض الانفعالي لن يؤدي إلى نتيجة، وإنما يجب التأمل واتخاذ الخطوات العملية المدروسة للوقوف بوجه هذا الغزو العالمي الكبير، فيجب علينا في هذا المجال:

أن نقوم بوضع استراتيجية عملية وواضحة وشاملة، ويتعاون الجميع على وضعها أولاً، وعلى تنفيذها ثانياً، كما يجب علينا أن نقوم بفضح النظريات التي مهدت لمثل هذه النظرة التخريبية.

وبالنسبة للاستراتيجية نطرح بعض الخطوات التي نراها مهمة في هذا المجال:

عالمياً:

١. يجب علينا أن نعري الجانب الايديولوجي للهيمنة الأميركية والمقصود الحقيقي من مقولات هذا الجانب (القرية الصغيرة، حرية السوق، حرية التدخل وفتح الحدود وأمثال ذلك).

٢ـ يجب علينا حذف هيمنة السوق على الجانب السياسي.

٣ـ يجب تعميق قيم الإنسان الفطرية مع عرض نظرية الفطرة الإسلامية.

٤ـ يجب توسيع لغة الحوار بين الأديان.

٥ـ يجب التأكيد على الهويات الإقليمية وهويات الشعوب وتوعية الشعوب للاحتفاظ بهوياتها وثقافاتها.

٦ـ يجب الارتقاء بالقدرة العلمية والتنموية للشعوب.

٧ـ يجب العمل على اعطاء الحريات والحقوق الاصيلة للشعوب.

٨ـ يجب تقوية المؤسسات الدولية وتعميق استقلالها.

٩ـ يجب تعميق الثروة الثقافية المتنوعة.

وفي الاطار الإسلامي يجب علينا بالاضافة لما سبق:

١ـ أن نعمق الحوار بين المذاهب اتجاها لتكوين الوحدة في الموقف الإسلامي.

٢ـ يجب العمل على تقوية المؤسسات الشمولية الإسلامية وتفعيلها في الجانب السياسي والاقتصادي والثقافي.

٣ـ يجب أن نطور دراساتنا الإقليمية والعالمية ونحقق الانفتاح على التاريخ.

٤ـ علينا أن نقوي كل عوامل الصمود والتعاون والوحدة، كمسألة اللغة العربية وتعميقها.

٥ـ علينا أن نجمع بين الأصالة، والمعاصرة في الدراسات الدينية ونروج للاجتهاد الجماعي، وغير ذلك مما يؤدي للوقوف أمام هذا الهجوم العالمي الكبير.

٦ ـ علينا أن ندعم قضية الصحوة الإسلامية.

واخيراً فإن علينا أن لاننسى أن عولمة كبرى موازية قد امتدت ايجابيا وهي الاتجاه العالمي لنمو المعنويات وروح التدين لدى الشعوب والتفاهم بين القادة الدينيين وخصوصاً في العالم الإسلامي حيث الفهم الشمولي للاسلام فهماً يجعله امل هذه الأمة في احتلال موقعها الحضاري المطلوب.

واننا لنعتقد أن مظاهر هذا الاتجاه العالمي تتجذر يوماً بعد يوم حيث نشهد مثلاً:

أ ـ اتجاه الجماهير في العالم الإسلامي نحو الدين بشغف ومطالبة العلماء بالتدخل المباشر في الحياة العامة وابداء الرأي في القضايا الملحة.

ب ـ تحكيم دور الكنيسة السياسي والاجتماعي في العالم المسيحي وخصوصاً في الدول التي تشكلت بعد انهيار الاتحاد السوفيتي حرر قوة البوذية المعنوية في صياغة القرارات الاجتماعية في جنوب آسيا.

د ـ ازدياد الاقبال على النظريات والمؤلفات الدينية.

هـ ـ اتجاه الأمم المتحدة الاخير نحو القادة الدينيين كما في مؤتمري نيويورك وبانكوك.

و ـ اتساع نطاق الحوار الديني بين الأديان المختلفة فيجب أن يقوم رجال هذه الأديان بواجبهم في دعم المسيرة المعنوية الصاعدة.

القسم الثامن: القيم الإنسانية المشتركة ودورها في تعزيز التضامن بين الشعوب والامم

تمهيد:

كيفما عرفنا الحضارة فانه يجب أن نقر بأن الصفة الإنسانية ـ بمعنى: امتلاك الاتجاه العام لخدمة الإنسان وتطوير إمكاناته الذاتية والعرضية ـ هي أهم مقوماتها بلا ريب.

ولا يمكن أن يتسم أي مذهب أو تخطيط أو حتى مجرد سلوك بالسمة الحضارية إلا اذا اتسم بالصفة الإنسانية.

والصفة الإنسانية، عبر ادراكات الوجدان، وبلا حاجة إلى استدلال، تلازم الإيمان بمجموعة من القيم المطلقة والمشتركة، فلا يمكن أن نفترض النسبية في كل شيء ثم نفترض وجود خصائص إنسانية فإن ذلك يستبطن نوعاً من التناقض:

مفاده: الاعتراف ـ من جهة ـ بأن الإنسان له هويته المتفردة جزئياً ـ إن لم يكن التفرد كلياً ـ ورفض أي تمايز إنساني أو قيمة ثابتة فيه من جهة اخرى.

فما هي هذه السمة الثابتة المميزة؟

إن الجواب الوجداني (ونؤكد على وجدانيته لأن ذلك يغنينا عن الاستدلال) هو: الفطرة الإنسانية.

والمقصود بالفطرة هو أن الإنسان مخلوق الهي اودعت الحكمة الإلهية في وجوده وطينته الاصلية مجموعة من القضايا البديهية والقدرات العقلية والميول والغرائز التي تضمن له سيراً طبيعياً نحو تكامله المرسوم له.

وقد قلنا ـ من قبل ـ كل الحضارات والمذاهب والأديان إنّما جاءت لتثير له دفائن العقول ـ كما يعبر الإمام علي عليه السلام ـ وتهيئ الجو المناسب لبروز هذه الطاقات الكامنة على سطح حياته

فتهديه سبيلاً يختلف كل الاختلاف عن السلوك الذي تسلكه الحيوانات العجماء التي لا تتمتع بما يتمتع به من طاقات.

اما القضايا البديهية فهي التي تمنحه القدرة على المعرفة: معرفة نفسه ومعرفة الكون والواقع، وفلسفة الوجود والعلاقات القائمة بين الأشياء وتلك من قبيل: الإيمان بمبدأ العلية، والإيمان بمبدأ استحالة التناقض (الجمع بين النقيضين، وارتفاع النقيضين) و(بعض القضايا الأخرى) فهذه قضايا مغروزة في القناعة والوجدان الإنساني لا يحتاج للاستدلال عليها وإلا دخل في طريق مسدود لأنّ الاستدلال نفسه يتوقف عليها كما هو واضح.

أما القدرات العقلية فهي نفس قدرة النفس الإنسانية على التأمل والتفكير وتجريد القضايا من ملابساتها والصعود من مرحلة الجزئيات إلى مرحلة الكليات، والقيام بقياس الأشياء للوصول إلى تصورات جديدة والتخطيط الذهني لمراحل غير موجودة على صعيد الواقع القائم. إن هذه القدرة الذهنية هي من مختصات الإنسان وهي سرّ مسيرته التكاملية وابداعه ونموّه.

واما الميول الغريزية فهي التي تقوده نحو كماله وتدفعه للاستفادة من طاقاته في هذا المجال:

ومن هذه الميول: ميله نحو الكمال، والسير نحو الكمال المطلق، ومحاولة سد جوانب العجز في وجوده، والركون إلى هذا المطلق القادر وأداء حقه وشكر نعمه والقيام بحق طاعته ـ فهذه امور يجدها الإنسان مغروزة في الطينة الإنسانية وان اختلف تجلياتها وتعددت أساليبها وربما غطت الشبهات على هذه الميول وكبتتها.

ومنها أيضاً غريزة حب الذات والعمل على تحقيق طموحاتها فهي من الغرائز الاصلية في الإنسان والتي لا يمكن تجاوزها والقضاء عليها، كما تصورت الماركسية يوماً ما أنها ظاهرة فوقية يمكن حذفها من الوجود الإنساني من خلال تحريم الملكية.

ومنها التذوق الفني: والابتهاج لعناصر الجمال التي يزخر بها هذا الكون.

وعلى هذا فالذي يبدو لنا بكل وضوح ايضاً أن مسألة الإيمان بنظرية الفطرة الإنسانية يفسح المجال للحديث عن جملة مفاهيم من قبيل مفاهيم (الحقوق) و(التكاليف) و(العدالة) و(الإنسانية) و(الأخلاق) و(الذوق الفني العام) و(القيم المشتركة) و(الحضارة) و(الحوار)

و(الدين) و(المعرفة) و(التصديق) و(المنطق) بل وحتى (البرهان والاستدلال) و(العلم) لانهما يعتمدان على عنصر ثابت بدونه لا تسلم لهما حدود ومعالم.

وبدون الإيمان بهذه النظرية يبقى الإنسان حبيس نفسه ولا يتصل إلا بصوره الذهنية ـ كما يعبر جورج باركلي ـ بل يمكن القول بأنه لا يستطيع الإيمان بذاته هو وهذا منتهى الخواء.

وبدونها فكل حديث عما مضى انما هو حديث بلا معنى كما نتصور. وهذه حقيقة كبرى تصطدم بها الاتجاهات المادية بقوة، ومن هنا جاءت النصوص الإسلامية لتؤكد على (الفطرة) وان الدين في الحقيقة ينسجم مع (الفطرة) لانها واقع أصيل والدين مشروع واقعي لاصلاح الإنسان يقول تعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[١]. وهذه الآية الكريمة تقرر كما يقول الإمام الشهيد الصدر في كتابه «اقتصادنا» (ص ٣١٢):

أولاً: إن الدين (بكل مافيه من حقوق وتكاليف ومنظورات للعدالة) هو من شؤون الفطرة الإنسانية التي فطر الناس عليها جميعاً لا تبديل لخلق الله.

ثانياً: إن هذا الدين الذي فطرت الإنسانية عليه ليس هو إلا الدين الحنيف الخالص أما أديان الشرك والإيمان بالالهة الوهمية النسبية فهي لا يمكن أن تحلّ المشاكل الإنسانية.

يقول سيدنا يوسف لصاحب السجن: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾[٢].

وثالثاً: إن الدين الحنيف الذي فطرت عليه الإنسانية يتميز بكونه ديناً قيماً على الحياة قادراً على التحكم فيها وصياغتها في إطارها العام.

ذلك أن المسألة الاجتماعية المهمة في تاريخ الإنسان هي التعارض الذي ينشأ بين المصالح الفردية (وهي تؤدي لان يتصور الإنسان لنفسه حقوقاً في الحصول عليها بمقتضى حب ذاته و(المصالح الاجتماعية) التي يطرحها النظام الاجتماعي الذي يعيشه ويفرض عليه

---

١. الروم: ٣٠.

٢. يوسف: ٤٠.

(تكاليف) تجاهها باسم (العدالة) وهذا التناقض بين المصالح الفردية والاجتماعية لم يستطع العلم أن يحلّه، فإن علم الإنسان لن يقف مطلقاً أمام ترجيح مصالحه الشخصية.

ولم تستطع المادية التاريخية من خلال قوانينها التاريخية أن تقدم الحلّ ويبقى للدين الحل النهائي لهذا التعارض وتحقيق العدالة وذلك من خلال ربطه بين المصالح الذاتية وسبل الخير إذ يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[١] ويقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾[٢].

وهكذا تتلاحم المصلحة الفردية والمصلحة الاجتماعية و(الحقوق) و(التكاليف) تلاحماً رائعاً ينفي التعارض.

وهنا يؤكد المرحوم الشهيد الصدر ﷺ:

«فللفطرة الإنسانية إذن جانبان، فهي من ناحية تملي على الإنسان دوافعه الذاتية التي تنبع منها المشكلة الاجتماعية الكبرى في حياة الإنسان (مشكلة التناقض بين تلك الدوافع والمصالح الحقيقية للمجتمع الإنساني) وهي من ناحية أخريتزود الإنسان بإمكانية حل المشكلة عن طريق الميل الطبيعي إلى التديّن»[٣].

ونضيف إلى ماسبق أن الإنسان بفطرته يطمح إلى (التغيير) أي تغيير الواقع الذي يعيشه إلى الافضل باستمرار. فهذا من نوازعه الفطرية التي قد تخمد لديه أحياناً ولكنها لن تنمحي من صفحة الذات وهو مجهز بإمكانات التعالي على الواقع والخلاص من ضغوطه وتصور الحالة الأفضل تصوراً إجمالياً ـ وربما كان تفصيلياً ـ ثم العمل على تغيير الواقع إلى الصورة المفروضة. وهي حالة لا يتمتع بها اي حيوان آخر. ومن هنا تنشأ عملية التغيير وتطبع الحياة الإنسانية بطابعها الحضاري دون غير الإنسان من الموجودات.

وهكذا يمكن أن نقرر أن العملية الحضارية تحتاج في كل مراحلها إلى الإيمان بالقيم الثابتة وعلى النحو التالي:

---

١. غافر: ٤٠.

٢. فصلت: ٤٦.

٣. اقتصادنا، ص ٣١٠ ـ ٣١٢، طبعة مشهد.

أولاً: في مرحلة إيمان الإنسان بذاته.

ثانياً: في مرحلة العبور إلى خارج الذات.

ثالثاً: في مرحلة صياغة الفكر وتكوين الصورة عن الحاضر والمستقبل انطلاقاً نحو التغيير إلى الافضل.

رابعاً: في مرحلة نقل الفكرة إلى الآخرين واستلام افكارهم.

خامساً: في مرحلة السبر والتقسيم والتمحيص والتداول.

سادساً: في مرحلة الاستنتاج والاقتناع.

سابعاً: في مرحلة التخطيط للتغيير.

وأخيراً: في مرحلة تنفيذ التغيير وتحقيقه.

وخلاصة الأمر:

إن هناك تلازماً تاماً بين المسيرة الحضارية الإنسانية التغييرية وعملية الحوار والإيمان بالقيم المشتركة والمطلقة.

القيم المشتركة مطلقة واقتضائية:

إننا وبالتحليل النفسي الوجداني الذي اعتمدناه في مسيرتنا هذه ندرك وجود منظومتين من القيم احداهما مطلقة التأثير لا تحدها حدود أو ظروف معينة والأخرىهي قيم الحالة الطبيعية أو (قيم الاصل) مما يعني تحولها إلى النقيض أو فقدانها التأثير المطلوب اذا طرأت ظروف اخرى.

ومن امثلة المجموعة الأولى:

قيمة العدالة فهي مطلوبة مهما كانت الظروف.

وكذلك تقديم الشكر للمنعم المتفضل.

ومن أمثلة المنظومة الثانية:

حفظ الذات، حفظ الكرامة، التعاون، الدفاع عن المستضعفين و السلام والامن، التغيير إلى الافضل، الرحمة، الايثار، الامانة.

فقد يكون الصدق في بعض الأماكن نتيجة ما يؤول إليه من تبعات ظلماً لا عدالة،

وكذلك السلام احياناً بما يؤدي إليه من جرأة على حرمات الإنسانية. فإذا كانت العدالة قيمة مطلقة فإن السلام قيمة نسبية نعمل على تحقيقها إذا عادت وجهاً من وجوه العدالة، ونرفضها إن كانت ظلماً، ولكن التساؤل الأساس هو: ماهي معايير العدالة؟ وكيف نتأكد من تحقيقها.

إن الأديان السماوية كلها تؤكد على معيارين:

الأول: معيار تعبدي نستفيد فيه من علم العالم المطلق وهو الله تعالى وهو تعليمات الدين الثابتة، والتي نتأكد من كونها صادرة من الله سبحانه ذلك أننا نتأكد قبل ذلك من علم الله الشامل، ومن لطفه ورحمته بالإنسان المخلوق ومن عدالته وتمتعه بكل صفات الكمال، فهو لا يريد بالإنسان إلا الخير ولا يخدع الإنسان وإنما يكشف له كل الواقع ويريد له كل الخير.

الثاني: معيار وجداني يكفي فيه التأمل في الاعماق وقناعاتها أو فلنعبر بأنه يكفي فيه الرجوع إلى الفطرة نفسها.

وما يساعدنا في اكتشاف العمق الفطري هو كون هذه القناعة ـ أيّة قناعة كانت ـ من ملازمات الطبيعة الإنسانية، ولذلك نجدها متوفرةً لدى كل ابناء الإنسان في مختلف ظروفهم وحالاتهم الفردية والاجتماعية وازمنتهم وامكنتهم.

ولكي نتأكد من هذا المعنى نستطيع أن نطرح هذا السؤال على اي إنسان (هل تعتبر أن السلوك الفلاني سلوكاً إنسانياً أم سلوكاً حيوانياً) فمثلاً لنركز على (قتل اليتامى والعجزة والمستضعفين للتلهي والتشهي) مثل هذا السلوك يعد سلوكاً وحشياً من قبل اي إنسان بلا ريب والقرآن الكريم احياناً يعيد الإنسان إِلى تأمله الوجداني وقناعته الفطرية حينما يقول: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾[1] ويترك أمر تعيين الطيبات له، ويقول ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ﴾[2] ويترك أمر تعيين الفواحش له أيضاً ويعتبر الخروج عن الحالة الإنسانية (فسقاً) وانحرافاً عن الطبيعة ﴿نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[3].

---

١. المائدة: ٥.

٢. الحشر: ١٩.

٣. الأعراف: ٣٣.

وهكذا ننتهي إلى هذه الحقيقة وهي:

إن الأديان تؤمن بالفطرة الإنسانية، وان الفطرة تقرر كون العدالة مطلوباً مطلقاً وكون السلام مطلوباً اذا شكل مصداقاً من مصاديق العدالة وتجلياً لها ومن هنا كان التأكيد الدائم على (السلام العادل) تأكيداً إنسانياً صحيحاً.

السلام العالمي والموقف منه:

قلنا لا ريب في كون الامان مطلباً إنسانياً فطرياً يستمد جذوره من أهم غريزة وجدت في فطرة الإنسان، وهي غريزة (حب الذات). وهذه الغريزة تعمل مع باقي الغرائز بشكل متناسق لتحقيق سير إنساني متوازن نحو الأهداف التكاملية العليا للإنسان.. فلا يكفي وجود الدوافع الغريزية لتأمين المسير المتوازن وإنما يجب تأمين جو طبيعي للذات الفردية وللذات النوعية كي تدفعها تلك الدوافع نحو أغراضها المنشودة.

وتأكيداً من الفطرة نفسها على توفير الجوّ الآمن، نجد العناية الإلهية قد غرست فيها بديهيات الحكمة، والميول نحو العدل، والنفور من الظلم والاعتداء، بل ومنحتها القدرة على تعيين الكثير من مصاديق العدل والظلم، مما يمهد لها السبيل للاتصال بالخالق العظيم وتقديم معاني الولاء له، وحينئذ تنفتح لها آفاق الوحي، وتكتشف بذلك الأطروحة السماوية الرحيمة التي تعطيها المخطط الكامل للمسيرة، وتضمن لها كل ما يوصلها إلى أهدافها.

فالامن إذن حاجة إنسانية دائمة لا تغيّرها الظروف، وليس ظاهرة عرضية حتى يقال، بأنها معلولة لوضع اجتماعي معين إذا ما تبدل تبدلت هذه الظاهرة معه. ومن هنا أيضاً يكون من الطبيعي أن نتصور الحاجة إلى نظام شامل يتكفل حماية الأمن الفردي والاجتماعي على مدى مسيرة الإنسان الطويلة.

ولا يمكننا أن نتصور حدوداً لمسألة حماية السلام والأمن إلا في إطار مسألة التكامل الإنساني ذاتها، بعد أن ندرك أن الفطرة هي معيار الحقوق الإنسانية كلها بشكل اجمالي. وأنها هي التي فرضت حماية الامن الإنساني لتحقيق الهدف الكبير. وحينئذ لن يقبل الامن تحديداً إلا اذا خرج عن وظيفته الحياتية، وعاد عنصراً ضد الامن نفسه، فلا معنى إذن لضمانه.

وإلاّ فكيف نتصور الفطرة التي أعلنت الحاجة إلى الامن وهي تسمح للفرد بالقضاء على

أمن نفسه هو، أو أمن الآخرين، وبالتالي على أمن المسيرة الإنسانية كلها دون أن تحدده بما يردعه عن فعلته، حتى ولو كان ذلك بتهديد أمنه؟

الحوار بين الديانات واسع الابعاد

بعد ما سبق نستطيع بكل وضوح أن نقرر امكان الحوار بشكل واسع الابعاد بين الأديان وذلك:

١ـ لأنها جميعاً تؤمن بنظرية الفطرة الإنسانية وتوابعها.

٢. لأنها جميعاً تؤمن بقيم مشتركة كثيرة حتى ليلمح الإنسان تطابقاً تاماً في اصول القواعد. وربما ذكر بعض المؤلفين المسلمين القدامى مجمل تعليمات المسيح واعتبرها تعليمات اسلامية[١].

وقد قام محققان فاضلان مسيحيان باعداد بحث جيد عن القيم والقواعد المشتركة للأحكام القانونية انتهيا فيه إلى نتائج جيدة فهما يقولان:

«تكفي محاولة اقامة جسور حول السؤال الذي يطرحه الناس نساءً ورجالاً، عندما يريدون أن يعيشوا بمقتضى إيمانهم: «ما هي مشيئة الله؟ ماذا يتوجب علي أن افعل؟ يبدو لنا أن الديانات الابراهيمية الثلاث تسير في جوابها في اتجاه واحد»[٢].

وهما يقرران في النهاية: وحدة الناس في الله.

٣. إن الأديان كلها تدعو إلى الحوار المنطقي ولما كانت الأديان هي روح الحضارات فإن الحوار بينها يفسح المجال لحوار حضاري اصيل ممتد إلى مختلف المساحات الحياتية، ويوجه الحوار الحضاري نحو مسارات أكثر إنسانية.

---

١. لاحظ مثلاً ماذكره الشيخ ابن شعبه الحراني وهو من علماء القرن الرابع الهجري. في كتابه المشهور تحف العقول. إذ ذكر الكثير من الحكم والمواعظ الحياتية عن عيسيع..

٢. الاستاذ عادل خوري والاستاذ فانوني، كما جاء في تقرير الندوة الايرانية النمساوية المشتركة المنعقد في فينا عام ١٩٩٩م، ص٢٦٠.

الحوار بين الحضارات ودور القيم فيه

بعد ملاحظة ماسبق يمكننا القول إن السير الطبيعي للبشرية يقتضي أن يسود منطق الحوار بين الحضارات. باعتبار أن الحضارات تحمل بشكل واضح بصمات الفطرة ـ اعترفت بها بشكل فلسفي أو رفضتها[١]. ولذا ففيها جوانب مشتركة تفسح المجال للحوار لا محالة.

كما أننا ذكرنا من قبل أن الأديان تشكل جوهر الحضارات ـ حتى ولو انكرت الحضارات ذلك ـ وبالتالي تبقى التأثيرات الدينية واضحة المعالم واخيراً نجد المجالات المشتركة بين الأديان تفسح المجال لحوارات مشتركة بين الحضارات.

هذا بالإضافة إلى حقيقة امتدت مع البشرية وتعاظمت مساقطها باستمرار وهي هذا الترابط المصلحي بين عمار الارض وساكنيها على مختلف الاصعدة.

وهو ترابط عبرت عنه طموحات الأديان العالمية، والفاتحين الكبار بشتى التعابير منذ اقدم العصور، واشتد على مر الايام حتى عدنا اليوم نشبه العالم بقرية صغيرة. والعالم هذا لم يصغر ولكن وعينا لترابطه وشدة الالتحام بين اجزائه هو الذي اوصلنا إلى هذه النتيجة.

فلم يعد بمقدور اي بلد أو دولة أن تخطط لبيئتها ولطاقاتها وقوانينها الجوية والبحرية ومواصلاتها ومخابراتها بل وتعليمها وتربيتها وثقافتها ونهضتها واقتصادها ودفاعها، بمفردها بعيداً عن ملاحظة مايجري في العالم.

ومن هنا نعتبر أن الاتجاه نحو العالمية اتجاه طبيعي لا معنى لمقاومته، بل يجب تشجيعه ودعمه. واذا كنا نقف بوجه (العولمة) ونعتبرها تحدياً خطيراً فانما ذلك لان هذا النمط يعني تفسيراً خاصاً لهذا الاتجاه يصب في مصلحة القوة العظمى أو فلنقل يعني سيطرتها على مقود المسيرة وتحويلها لصالح امة بعينها مهما كان الأمر، وأمركة للعلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية وغيرها بمختلف الوسائل وشتى السبل القمعية. ولذلك وصفت بالعولمة المتوحشة والمجنونة و(ان تأكل أو تؤكل) وامثال ذلك.

---

١. ولتوضيح ذلك يلاحظ ان كل فلسفات التشكيك في الحقائق المطلقة في مجال الفكر أو السلوك كالماركسية والفرويدية والدوركهايمية والكانتية وفلسفة باركلي وغيرها، هذه كلها تحمل نوعاً من الجزم والقطع لا محالة وإلا لشكت في نفسها ايضاً وهي لا تفعل ذلك.

وعلى أي فإن الحوار هو مقتضى الترابط ووحدة المصير الإنساني ولا بديل له إلا الصراع وهو منطق الغابة لا الإنسان بلاريب.

فيجب إذن تأكيد إنسانيته وتعميقها بتأصيل القيم الإنسانية فيه.

ويمكننا الحديث عن هذه القيم في ما ياتي كنماذج فقط والا فمجال هذه القيم واسع جداً.

نماذج من القيم المشتركة التي يجب أن تسود

١ـ قيم الحوار المنطقية.

وهي قيمٌ إنسانية ثابتة. لا تتغير باختلاف الظروف فيجب أن يكون الحوار قائماً على مفروضات متفق عليها بين الطرفين وإلا لم يعد منتجاً.

ويجب أن يدخله الطرفان بروح طلب الحقيقة، وأن تكون اطراف الحوار بمستوى دراسة الموضوع ويجب أن يتوضح محور الحوار بشكل تام كما يجب أن يكون امراً عملياً لا طوبائياً.

ويجب أن تسوده روح احترام الآخر، كما يجب أن يتخلص من رواسب الماضي أيضاً.

ويجب أن يتم في جو حر بعيد عن الضغط والعنف والتحايل والضوضاء والتهويل.

وغير ذلك من مقتضيات الحوار السليم.

واستطيع بكل اطمئنان أن أقول إن القرآن الكريم اشار إلى كل هذه القيم الحوارية الثابتة في اصالتها.

٢. قيم العدالة ومعاييرها ومساحاتها.

فمهما اختلفت الآراء وتنوعت المذاهب فانه تبقى هناك مساحات لا يختلف عليها اثنان. وهل يختلف أحدٌ على ضرورة إعطاء الحق لأهله، وأن سلب الشعوب حقوقها في الارض والمصير ظلم، وان التنمية والاستثمار الصحيح للموارد أمر حميد وغير ذلك.

فيجب إذن اكتشاف هذه المساحات والسعي لتعميمها وتعميم الالتزام بها.

٣. الاتفاق على الحقوق الأساسية للإنسان، والسعي لتوسعة هذا الاتفاق ليشمل الحقوق التفصيلية الأخرى، وهو امر غير صعب اذا حسنت النوايا لان البحث بحث في عمق الوجدان الإنساني وفي قيم تدرك بالفطرة الصافية.

٤. الاتفاق على حدود الحرية الإنسانية ومحاولة ترجمتها إلى معالم واضحة وتطبيقات عملية.

٥. الانطلاق من القيم الإنسانية لتحديد الايديولوجيات الهدامة: كالارهاب والعنصرية والاستبداد والتفرقة العنصرية والاستعمار وغير ذلك.

٦. وضع مبادئ سلامة البيئة وتعميمها.

٧. الاتفاق على مبادئ الفن الرفيع بما يخدم البشرية ويستجلي كوامنها.

٨. الاتفاق على القيم الاجتماعية ومقومات المجتمع السليم الخالي من الشذوذ والتسيب.

٩. الاتفاق على نوع التخطيط للصراع ضد التحديات المتفق على رفضها من قبيل: الأمراض والفقر والجهل والأمية. والتخطيط لتقليل آثار الكوارث الطبيعية كالزلازل والسيول والحرائق وغيرها.

١٠. تنظيم الحقوق الدولية المشتركة في مجال الملاحة والمواصلات والمعلومات وامثال ذلك.

١١. بناء المؤسسات الدولية العاملة بمقاييس متعادلة واحدة بعيداً عن الازدواجية والتفرقة.

١٢. الوصول إلى آليات عملية لتعزيز التضامن وتعميم المسؤولية الإنسانية تجاه عملية السلام ونشر العدالة.

معاً لتعميم منطق الحوار

وفي ختام حديثنا المختصر هذا لابد أن ندعو بقوة لتعميم منطق الحوار بعد أن آمنا بأنه أمر تقتضيه الحكمة والفطرة والعقل السليم، في قبال مقتضيات العاطفة الجامحة والعصبية المقيتة والانحباس في بوتقة الماضي.

وفي هذا الصدد ندعو لتكوين أمة من المفكرين من كل الاطراف القائمة في الواقع العملي تعمل على تهيئة الظروف لهذا التعميم، وتضع الخطة اللازمة لذلك، وأرى أن نسميها بـ(الوسطية العالمية)، اسوة بما ندعو إليه ونسميه داخل الهوية الإسلامية بـ(الوسطية الإسلامية). وذلك انطلاقاً من إيماننا بأن هذه الوسطية لها مفهوم شمولي يعم تصورنا عن الوجود (باعتباره متوازنا)، وموقف الإنسان منه موقفاً متوازناً، كما يشمل تصورنا عن التاريخ والعوامل المؤثرة فيه، فضلاً عن كونه تعبيراً عن طبيعة الإسلام وموقفنا منه ايضاً.

ومن هذا المنطلق (الوسطي) نرى أن تعتمد الخطة العالمية الدعوات التالية:

١ـ الدعوة إلى التفرقة الجادة بين الثنائيات الحدية المتناقضة أو المتضادة بحكم العقل

القطعي من قبيل ثنائيات (الوجود والعدم) و(التوحيد والشرك) و(الإطلاق والنسبية) وأمثالها، وبين الثنائيات اللاأحدية أو المصطنعة من قبيل (أنا الخير والآخر الشر) (إما محاربة الإرهاب أو الكون معه) (إما أن تكون ماركسياً أو فانت لا تفهم الماركسية). (أنا التوحيد وما عداي الشرك) (أنا التمدن وما عداي التوحش) (مبادئي هي منتهى التاريخ وما عداها هي التي يجب أن تزول) (اما انا أو الهمجية) وأمثالها، فإن النمط الأول مما يمكن الاتفاق عليه وان شكك في ذلك الماركسيون. أما النمط الثاني فهو من قبيل الاصنام الفكرية التي تتم عبر عملية (تصعيد) ذهنية أو نفسية أو تاريخية أو عصبية فيتحول (النسبي) فيها إلى (مطلق) وبالتالي يقيد كل عمليات التفكير ويمنع كل احتمالات التطور. نعم يجب الاذعان للقيم الإنسانية المشتركة التي اشرنا اليها ودل عليها الوجدان.

٢. العمل على إشاعة روح الانفتاح الواعي على الحاضر، وعدم الانحباس الأعمى في الماضي أو حتى في النظريات التي تم القبول بها مع احتمال وجود ثغرات فكرية فيها.

٣. السعي لتعميم ما قلناه من قبل من أن كل الحضارات لابد أن تستقي من الفطرة بعض مكوناتها أو على الأقل نبقي احتمال استقائها وارداً وحينئذ تنفتح أمامنا كوى الحوار.

٤. الاتجاه نحو تعميق مفهوم التطور الفكري والابداع الجديد وعدم التأثر بمفهوم (ليس في الأمكان أبدع مما كان) وابقاء روح اكتشاف الحقائق حية دافعة متدفقة.

٥. السعي نحو تعميم الاحساس الإنساني المشترك بالاخطار التي تهدد البشرية جمعاء ولا تفرق بين حضارة وحضارة، وقومية واخرى، ومنطقة وثانية كالمرض والجهل ونقص المعنويات وتلويث البيئة وتفكك العائلة وسيادة منطق العدوان وغيرها.

٦. الدعوة إلى تغليب التعقل على عنصر التطرف فهو امر يعمي البصيرة ويمنع من التفكير بهدوء مهما كانت الايديولوجية.

٧. السعي للتوصل إلى حل متوازن بين الاتجاه العالمي وبين احتفاظ الشعوب والأمم بخواصها الثقافية وغيرها. وهذه الجادة الوسطى هي التي تضمن نجاح الاتجاه العالمي من جهة لكيلا يصطدم بالعقبات الجادة، كما يحفظ للبشرية والأمم ثرواتها المتنوعة على مختلف الصعد. فنحقق بذلك مبدأ فلسفياً يقول بـ(الكثرة في عين الوحدة).

٨. ضرورة تثقيف الجميع بأن مصالح الأمم هي جزء من ماتؤكد عليه قيمها. وحينئذ لن يقوم هناك تناقض بين القيم والمصالح وتتهيأ فرص واسعة للحوار.

٩. تعميق الروح الموضوعية الإنسانية لمحو الروح الاستعلائية العنصرية من جهة وعدم التأكيد على القيم الحضارية الخاصة واعتبارها قمة الانتاج الحضاري واعتبار ماعداها تخلفاً. نعم يجب الإيمان بالقيم الإنسانية المشتركة.

وقبل أن ننهي حديثنا نؤكد أن بوادر الأمل بالمستقبل الواعد ـ من وجهة نظرنا ـ كثيرة:

فهذا القبول العالمي بحوار الحضارات في الأمم المتحدة، وهذه اللقاءات المتتابعة منذ الثلاثينات في القرن الماضي وعلى مختلف المستويات، وهذا الانفتاح من قبل المرجعيات الدينية المتنوعة على الحوار، وهذا الاتجاه الواسع نحو المعنويات، وهذه المعلوماتية المنتشرة والتي تكشف الحقائق أمام الجميع، كل هذا وغيره يعدنا بمستقبل مثالي رغم ما نواجهه من تحديات العولمة المصلحية، والنظريات الاستعلائية، والظلم الفاحش ضد الشعوب، والاحتلال والارهاب الفردي والرسمي، والتعامل المزدوج. ذلك أننا نؤمن ونرى أن قوى الخير تنتصر على عوامل الشر وفقاً لسنن الله في الحياة.

خامساً: ظاهرة المرونة والتجديد

نستهدف في هذا البحث جلاء قابلية الإسلام الخارقة على الانسجام مع الفطرة، وبالتالي قابليته على البقاء والخلود، بقاء الفطرة وخلودها.

ويشمل الأمور التالية:

أ ـ عنصر المرونة الإسلامية في التشريع.

ب ـ عنصر المرونة الإسلامية في التطبيق والتبليغ.

ج ـ الانزال التدريجي للقرآن وفوائده.

وقبل كل شيء نود أن نشير إلى حقيقة مهمة.

فإن المرونة لا تتصور في الجانب العقائدي فإنها لا تعني التنازل المبدئي مطلقاً كما أنها لا تعني الميوعة التنظيمية، فإن كلاً منها، يتنافى مع عقائدية المبدأ المرن وواقعيته العملية، ذلك أن العقائدية والواقعية ـ خصوصاً إذا تصورنا حقيقتهما وانسجامهما الكامل مع حركة الكون والتاريخ والإنسان بتركيبته الفطرية الأصيلة ـ توجبان ثبات الأسس العقائدية والمفاهيم التصورية عن الواقع من جهة، وثبات النظم والبناء العلوي الذي يقوم على أساس من ذلك التصور الرصين، الأمر الذي لا يدع مجالاً لما أسميناه بالتنازل المبدئي أو الميوعة التنظيمية.

فماذا تعني المرونة إذن؟ أنها تعني:

أولاً: على الصعيد العقائدي تكتيكاً وتدرجاً واقعياً في إعلان المعتقد يلحظ ضغوط الواقع ولكنه يستهدف تعميق التصور الأصيل، وانتظار اللحظة المناسبة لارتفاع الضغط وإعلان العقيدة وهو بالضبط ما يقصد بالتقية.

ثانياً: على الصعيد التشريعي قدرة النظام على استيعاب التحولات الزمانية والمكانية والتعقيدات الاجتماعية كلها، ووضع العلاج الواقع لها في إطار الأطروحة العامة للتنظيم.

فالعقيدة ـ بما هي صفة نفسية ـ لا تتغير تحت ضغط الواقع، الذي يعلم الإنسان بأنه منحرف والعقيدة بما هي الأساس والخط العام لا يمكن التنازل عنها بل يجب أن تبقى الروح التي تميز كل التصرفات ومن هنا نجد أن القرآن يعرض علينا صوراً لبعض المساومات العقائدية التي حاول فيها الطرف الكافر أن يجبر النبي صلى الله عليه وآله على اعتناق بعض مبادئه ولو لبعض الوقت في مقابل مصلحة كبرى للدعوة الإسلامية نفسها، وفي مقابل أن يؤمن الطرف الآخر بالإسلام أيضاً فترة أخرى. إلا أن الوحي يجابه أولئك بالموقف الحدي الصارم، الذي لا تنازل عنده باعتبار أن المصلحة لا يمكنها أن تبرر هذا الموقف.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[1].

وقد وقف الإسلام من مسألة الشرك هذا الموقف عل طول الخط حتى أنه حرم تشريعياً صناعة الأشياء المجسمة لأن فيها ظلاً من الفكرة الصنمية.

وكذلك نقول في مجال النظام العملي، أنه يجب أن يحتفظ بمقوماته الأساسية التي تشخص هويته ويترك مساحات مرنة لاستيعاب المتغيرات ومن هنا فنحن لا نتفق مع الفكرة القائلة بأن الإسلام لم يضع أطرا لنظامه السياسي ولم يحدد له اية خطوط عامة مراعاة للمرونة.

الأمر الأول ـ عنصر المرونة في التشريع:

وتتمثل أهم مظاهر المرونة في الشريعة الإسلامية بما يلي:

١ـ مقاصد الشريعة وقواعدها الفرعية، وهي ـ كما يقول العلماء ـ على نوعين: مقاصد عامة، وترتبط بالغايات العامة للشريعة، والتي من شأن أحكامها الكلية تحقيق مصالح الأمة؛ ومقاصد خاصة ترتبط بغايات باب محدد من التشريعات التي تحقق مصلحة معينة من مصالح الناس. والمقاصد الخاصة فيها أيضاً جزئية ترتبط بحكم شرعي معين. وقد اختلف الفقهاء والأصوليون في تحديد أنواع المقاصد العامة للشريعة، ولكنهم اتفقوا على خطوط عامة تدخل في إطار تحكيم العدالة وتحكيم الأخوة وحفظ الدين وحفظ النفس والعرض

---

١. الكافرون: ١ـ٦.

وحفظ النسل وحفظ المال وحفظ العقل وغيرها. وبما أن قضية المقاصد ترتبط بتحقيق المصالح ودرء المفاسد؛ فإن الخشية من الوقوع في ملابسات الظنون الفردية التي تتجاذب الأفراد، تجعلنا نحيل هذه القضية في المجالات الفردية إلى قطع المجتهد فقط، إما بالنسبة للمجال الاجتماعي أو أمر الأمة فتحال إلى ولي أمر الأمة الشرعي؛ لتكون جزءاً من اختصاصاته في عملية التقنين، وهي بالتالي مساحة مرنة في الشريعة ترتبط باجتهاد ولي الأمر وتشخيصه المصلحة التي تحقق مقصد الشريعة، كما سيأتي.

٢ـ الأحكام الشرعية التي تحدد موضوعاتها الأعراف وأهل الخبرة، وهو ما يمكن أن نعبِّر عنه بتأثير الزمان والمكان في الاجتهاد ونوعية التأثير هذه لها مدخلية في موضوع المرونة؛ لأن تأثير الزمان والمكان في موضوع الحكم الشرعي هو الذي يحدد مضمون الحكم الشرعي وشكله. ومن مظاهر ذلك اختلاف مصاديق المفاهيم من مكان لآخر، كطبيعة الإسراف والغنى والاحترام وإعداد القوة وغيرها. كما أن متطلبات الزمان والمكان قد تتطلب ـ أحياناً ـ تعطيل حكم ما أو نظام ما لفترة معينة؛ نتيجة التزاحم بين ضرورة تطبيق الحكم والآثار السيئة التي قد تنجم عن التطبيق في ظل ظروف معينة قاهرة. وإذا كان الحكم يرتبط بعمل الأمة فلابد من إيكال تشخيص التزاحم وتقديم الأهم لولي الأمر ايضاً.

٣ـ فتح باب الاجتهاد في مجال استنباط الأحكام الشرعية، وهي المساحة الأكثر مرونة في الشريعة نفسها، أي أن عملية الاجتهاد عملية بالغة الدقة وبحاجة إلى نوع متميز من التخصص الذي لا يستطيع أي مكلف بلوغه، بل ولا يستطيع المجتهد نفسه ممارسته برأيه واستحسانه. فالمجتهد إذا لم يعثر على دليل من مصادر التشريع فإنه يرجع إلى الأصول العملية، أي الاصول التي تحدد الموقف العملي عند غياب الدليل الشرعي النصي في إطار منهجية لصيقة بالشريعة. ومثال ذلك المسائل المستحدثة والجوانب التنظيمية الجديدة، سواء على مستوى فقه الأفراد أو فقه المجتمع، ككثير من قضايا العلوم التطبيقية والقضايا الداخلة في الأمور الحسبية، كنظم المرور والتسعير والتعليم، وقضايا الإعلام والاتصالات والفنون والآداب وغيرها.

والحقيقة أن النصوص التي تركتها مصادر التشريع تحديداً (القرآن الكريم والسنة الشريفة) تتناول قضايا الواقع المرتبط بفترة الصدور، وتتناول أيضاً الخطوط العامة للنظم

الإسلامية، إضافة إلى بعض الأحكام التي تستمر موضوعاتها مع الزمان والمكان. والحال أن كل يوم يمر على البشرية يحمل معه قضايا وموضوعات جديدة، لا تعجز الشريعة مطلقاً عن تحديد أحكامها، وذلك من خلال نافذة الاجتهاد، هذه المكرمة العلمية التي منحتها الشريعة للأمة (من خلال مجتهديها)، لكي تبقى قادرة على إخضاع واقعها لأحكام الدين الحنيف. وبالطبع فإن موضوع الاجتهاد يشتمل على تحديد دور العقل في عملية الاستنباط، كإدراك المصالح العامة أو إدراك التلازم بين أحكامه وأحكام الشرع.

ومن البديهي أن يرفض الشرع المقدس ـ خلال ممارسة عملية الاجتهاد ـ القواعد الظنية التي لم يقم على اعتبارها دليل قطعي، بل يحدد الاجتهاد في إطار القواعد التي قام على اعتبارها دليل قطعي؛ لأن الشارع لا يسمح للفكر البشري المحض أن يضيف من ذاتياته للإسلام. وهذا الأمر دليل على دقة عملية الاجتهاد، وكونها لا تترك للمجتهد اختراع منهجية أو قواعد وأصول غريبة عن جنس الشريعة، أي لا تفتح الباب على مصراعيه للمجتهد بأن يجدد ويصلح ويطور في الشريعة كيفما شاء، هذا فضلاً عن غير المجتهد، فذلك من باب أولى بأن لا يتدخل في هذه الأمور التي لا تعد من اختصاصه.

٤ـ تشريع الأحكام (الشرعية) الثانوية في الحالات الطارئة. فالحكم الشرعي ـ لاعتبارات مختلفة ـ ينقسم إلى حكم أوّلي وحكم ثانوي وحكم ولائي. وما يهمنا هنا هو الحكم الثانوي، ويمكن أن نعرِّفه: بأنه الحكم المجعول للموضوع بلحاظ ما يطرأُ عليه من عناوين خاصة تقتضي تغيير حكمه الأولي. وهذه الحالات الطارئة هي من قبيل: (الضرر)، (العسر والحرج)، (العجز)، (الإكراه)، (الخوف)، (المرض)، (تزاحم الحكم عند تنفيذه مع حكم أهم منه)، (وقوع الحكم مقدمة لحكم آخر)، إضافة إلى تحوّل الأحكام الوجوبية الكفائية إلى تعيينية إذا انحصرت بشخص واحد. ومن هنا فالحكم الثانوي يعبِّر عن مرونة تشريعية؛ لأن المرونة هنا تعني الاستجابة للحالة الضاغطة بمقدار ما تحمله من ضغط. والحالة الضاغطة هنا ليست دائمة، بل إنها استثنائية، فمثلاً في حالة (الاضطرار) نستدل بالآية الكريمة: ﴿فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[1] وفي باب تحريم الميتة والدم

١. البقرة: ١٧٣.

ولحم الخنزير وغيرها. وكذا في حالة (الحرج)، فإن الآية الكريمة تقول: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[١] وغيرها. ولابد أن نؤكد هنا على أن الأحكام الثانوية تختلف عن الأحكام الولائية (أحكام ولي الأمر)، لأن الأحكام الثانوية هي أحكام شرعية وضعت للعناوين الطارئة، وتنحصر عناوينها فيما ذكر في القرآن الكريم والسنة الشريفة، فهي ترتكز عليها، بينما ترتكز الأحكام الولائية على المصلحة العامة ومتطلبات الوضع العام للمجتمع، ويصدرها ولي الأمر من منطلق صلاحياته، وهو الذي يحددها، بينما يستطيع الفرد تحديد الأحكام الثانوية في اطار الضوابط والشروط المنصوص عليها.

٥ـ المساحة التي ينفذ فيها حكم ولي الأمر، أو ما يصطلح عليه فقهياً بـ(الأحكام الولائية) أو (الحكومية) أو (السلطانية)، وهي مساحة من الأحكام خاصة بولي الأمر الشرعي، أي الذي تولى أمر المسلمين في أطار ضوابط الشريعة، ومنها قابليته على استثمار هذه المساحة من الأحكام الشرعية، وهي القابلية التي ترادف القابلية على الاستنباط. بالاضافة إلى قدراته الإدارية وتشاوره مع الإخصائيين وملاحظته للأضوية الكاشفة التي هيأها الشارع المقدس له ونعرف الحكم الولائي بأنه: الاعتبار الصادر من الحاكم الشرعي بمقتضى صلاحيته الشرعية، والمتعلق بأفعال العباد، وهو يشتمل على الأحكام التكليفية والوضعية. وهذه الأحكام لا تطلق لكل مجتهد، فذلك ما يؤدي إلى تعدد الإرادات الاجتهادية، وبالتالي تفتت وحدة الأمة وتدمير كيانها، وهو ما يتناقض مع مقاصد الشريعة وروحها وغايتها، بل إنها تنحصر في الولي الذي حددت الشريعة مباني ولايته، أي الولي الحاكم.

ومن هنا فالأحكام الولائية تختلف عن الأحكام الأولية والثانوية التي يحددها جميع الفقهاء، شريطة أن لا يكون فيها تقاطع مع الأحكام الولائية، كما أنها محددة بموضوعات معينة هي مساحة المباحات في الشريعة، وتشمل أساليب تطبيق الشريعة الإسلامية، كأساليب تطبيق النظام المالي والاقتصادي، أو اساليب تطبيق مبدأ الشورى. وتدخل الأحكام القضائية في هذا الباب. وباختصار فإن ولي الأمر يصدر الأحكام الولائية في إطار الكليات الشرعية ومقاصد

---

١. الحج: ٧٨.

الشريعة، وليس له في هذا المجال ـ كما يقول الإمام الخميني ـ أن يستبد بالأمر، بل عليه أن يستشير ذوي الخبرة والاختصاص، ثم ينتهي إلى الحكم الشرعي في ضوء:

١ـ مصلحة الأمة، وهنا تسمح الشريعة لولي الأمر بالنظر في المصالح وتحديدها عبر استشارة المتخصصين.

٢ـ الأضوية الكاشفة ـ كما يعبّر عنها الإمام محمد باقر الصدر ـ، وهي التي أعطته إياها الشريعة ليسلطها على الواقع ويشخص الحكم المطلوب، ومن هذه الأضوية الأحكام الولائية التي أصدرها الرسول العظيم بصفته ولياً للأمر، وهذا باب واسع لا نستطيع تفصيله هنا.

٣ـ الأولويات، وهي التي يواجه بها المساحة التي تتزاحم فيها الأحكام فيقدم الأهم على المهم، أو في إطار الاحتياط لقضية معينة، فيصدر حكماً يستبق فيه وقوعها أو مضاعفاتها، كما هو الحال في مجال سد الذرائع التي يظن أنها تؤدي إلى المفسدة، أما الذرائع القطعية الأداء فهي محرمة بالعنوان الثانوي الذي يشخصه المكلف نفسه ولا تحتاج لحكم ولي الأمر في المجالات الفردية.

وهنا لابد أن أوضح نقطة التقاء مهمة بين المدرستين الفقهيتين الكبريين: مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومدرسة أهل السنّة، وتتمثل في سماح مدرسة أهل البيت عليهم السلام لولي الأمر باستخدام قواعد المصالح المرسلة وسد الذرائع وغيرها، وهي القواعد التي لا يسمح الفقه الإمامي باستخدامها في عملية الاجتهاد بالنسبة لمجمل الفقهاء. فعلى مستوى التطبيق فإن الجمهورية الإسلامية الإيرانية وضعت أعلى مجلس استشاري في الدولة هو (مجمع تشخيص المصلحة)، أي اكتشاف مصلحة الأمة وتحديدها، ثم تقديم القرار لولي الأمر بعد دراسة دقيقة، ثم يقوم ولي الأمر بإصدار الحكم الشرعي المناسب. ونرى أن هذا المجمع يبت في الخلاف ـ على مستوى التقنين ـ بين مجلس الشورى ومجلس حماية الدستور، إذ يتخذ القرار بتحديد القانون المناسب الذي ينظر فيه لمصلحة الأمة والدولة.

منافذ الفكر البشري إلى المساحة المشروعة

لا شك أن هناك مساحات في الفكر الإسلامي لها علاقة بالفهم البشري ومدارك الإنسان

وطبيعة نظرته للواقع ورؤيته لمنهجية النتاج الفكري، وهي المساحات التي يمكن أن نعدها بشرية، وهذه المساحات تقتصر على المتغيرات، أي المساحات المتغيرة في الفكر الإسلامي، ولا تتمدد إلى الثوابت؛ لأن هذه الثوابت مقدسة وهي الدين بعينه. ويمكن تحديد منافذ الفكر البشري إلى الفكر الإسلامي في المجالات التالية:

١ـ فهم مقاصد الشريعة، العامة والخاصة أو الجزئية، فهذا الفهم متغير من مفكر لآخر، وهنا قد تختلف النتائج التي يخرج بها المفكرون والفقهاء بالنسبة لواقعة واحدة، مما يشير إلى بشرية هذه المساحة. وبالطبع يتأثر هذا الفهم بعوامل متغيرة بشرية ايضاً، كامتلاك ثقافة الواقع والعصر، وعمق النظرة وبعدها وشموليتها وغيرها.

٢ـ فهم المصاديق، أي تطبيق الكليات على جزئياتها وتطبيق المفاهيم على مصاديقها. وهكذا تتدخل ذهنية الفقيه والمفكر في نوعية التطبيق وفي اكتشاف المصاديق والجزئيات. وتدخل في هذا الإطار ايضاً محاولات المجتهد للتخريج الفقهي للعقود الجديدة، كالتأمين مثلاً. وهذا الفهم والتخريج يخضع لعنوان بشرية الفكر.

٣ـ سير عملية الاستدلال لدى المجتهدين وترتيب أدلتهم.

٤ـ تحديد موارد الأحكام الثانوية، والظروف والمتغيرات التي ينطلق منها في تجاوز الحكم الأولي إلى الحكم الثانوي، وهي مساحة دقيقة ومحدودة، ولكنها ـ في كل الأحوال ـ تتدخل فيها طبيعة استيعاب المجتهد وتشخيصه للموضوع، وبالتالي فهي مساحة متغيرة.

٥ـ تحديد ولي الأمر لمصلحة الأمة في قضية من القضايا، ونوعية تسليطه الأضوية الكاشفة على الموضوعات والأحكام، ونظرته لتحديد الأهم والمهم في الأحكام أو في موارد الاحتياط، وهذه المساحات خاضعة هي الأخريلطريقة تفكير ولي الأمر واستيعابه للواقع ودقته في تصريف الأمور وفي اختيار الرأي الصائب بعد استثمار مبدأ الشورى.

وفي مجمل المساحات المذكورة تدخل عملية التأصيل والأسلمة والتجديد والاكتشاف والتي تهدف بأجمعها إلى اختيار الاسلوب الأمثل لتطبيق النظم الإسلامية التي تتضمنها الشريعة، وهو ما يمكن أن نسميه بالتقنين أو التشريع ـ مجازاً ـ وهي مساحات تتسع للفكر البشري ليتحرك فيها بحرية عملية ترشدها الضوابط الشرعية ومقاصد الشريعة العامة.

ونشير هنا إلى أن عملية التقنين لا تحوّل الحكم الشرعي إلى قانون بشري، وإن كان للفكر البشري دور في صياغته وتشكيله، بل إن عملية التقنين تتمثل في اكتشاف الحكم الشرعي لموضوع معين أو تحديد الاسلوب الشرعي لتطبيق هذا الحكم، واذا تدخّل الفكر البشري في صياغة الاسلوب أي تحويل الحكم الشرعي إلى قانون ـ وفقاً للمفهوم الوضعي للقانون ـ فلا يعني هذا أن القانون قد ألغى الشريعة وأنه أنزلها من السماء إلى الارض. وبالتالي فهي تكييف منضبط لحكم شرعي.

بعد هذا لنلاحظ بعض تطبيقات عنصر المرونة الإسلامية على النحو التالي:

الامر الثاني ـ عنصر المرونة الإسلامية في التطبيق والتبليغ:

يمكننا أن نكتشف المرونة في التبليغ والدعوة إذا عرفنا أن القاعدة الأولى في العمل التبليغي تتضمن هذا العنصر بكل وضوح وتلك هي الآية الشريفة:

﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾[1] ولا يمكننا أن نفسر الحكمة إلا باتخاذ أصوب موقف مناسب للظرف الذي يراد التبليغ فيه، بشرطين: أحدهما ضمني، والآخر مذكور في الآية الكريمة، وهما: أتباع الطرق الشرعية وعدم الانحراف.

ولذا يمكن القول بأنه ليس هنا أسلوب محدد لا يمكن أن يحيد الإنسان عنه في إطار ذينك الأمرين في مجال العمل في سبيل الله ونشر الإسلام.

وقد أكد علم الأصول على أن فعل الرسول ﷺ لا يكتشف منه غير الإباحة للعمل أو الاستحباب على الأكثر ما لم تقم قرينة تجعله يدل على الوجوب. إلا أن تلك السيرة المباركة ـ مهما كانت دلالتها ـ تبقى هي الهدى النير في كل حقل ومجال، ومن هنا فسوف نركز عليها في بحثنا هذا قبل أي شيء آخر.

مظاهر التدرج والمرونة في هذا السبيل:

ويمكن أن نعين أهم هذه المظاهر في النقاط التالية:

---

١. النحل: ١٢٥.

أ ـ التدرج في إعطاء الأحكام وتطبيقها.

ب ـ التدرج في توسيع رقعة الدعوة.

ج ـ التدرج في الموقف من أعداء الدعوة.

النقطة الأولى:

فملخص القول فيها، إن الإسلام بمقتضى مرونته النابعة من واقعيته أدرك أنه جاء ديناً يقلب الحياة الجاهلية رأساً على عقب، ويغير تصورات الناس وأخلاقهم ويوجه كل سلوكاتهم التوجيه الأكمل، وكما أن الإنسان مرتبط بعقيدته كذلك هو مرتبط بعادته السلوكية. بل يمكننا أن نؤكد أن ضعف المستوى العقائدي عند أمة يمكنه أن يتأثر بشكل قوي بالسلوك والعادات والأعراف العامة والخاصة. ومما يؤكد ذلك أن المجتمع الجاهلي استطاع التنازل عن عقيدته ولكنه لم يستطع التخلص تماماً من عاداته وسننه القبلية. ومن هنا فإن من الصعب جداً أن يحاول مصلح تغيير كل ذلك بقانون واحد، كما فعلت بعض الدول اليوم حين أرادت أن تقتلع من المجتمع عادة أضرت به وفتكت بقواه، فأصدرت قانوناً يحرم الخمر وجهّزت لتنفيذ القانون جيشاً ضخماً من الوسائل الرادعة ولكنها فشلت في نهاية الأمر، لعاملين:

الأول: إنها لم تغير النفسية والشخصية.

الثانية: إنها واجهت المجتمع المعتاد وأرادت أن تغير عادته بلحظة.

نعم، أدرك الإسلام هذا المعنى فاتخذ الأسلوب التربوي واستعمله في مجال إعطاء الأحكام السماوية، فكان يبدأ أولاً بصياغة العقيدة الواضحة والشخصية المتعبدة ثم يهيء الأرضية الاجتماعية لصدور الحكم، وهكذا يتدرج حتى يعطي الحكم النهائي في الموضوع. وها نحن نضرب مثلاً في هذا المجال، بقضية تحريم الربا، وقبل الدخول في عرض هذا المثال ينبغي التنبيه إلى أمرين:

الأول: إن النسخ في القرآن لا يمكن أن يتصور قيامه إلا على هذا الأساس.

الثاني: إن القرآن المكي غالباً ما كان يقوم بعامل تهيئة المراحل الأولى لعملية التدرج، فبالإضافة إلى تركيزه العقائدي وتأكيده على خلق الشخصية المتعبدة كان يشير إشارات

عابرة إلى الأحكام التي يراد بعد ذلك أن يلتزم المجتمع بتفاصيلها.

وهذا ما يلاحظ في مثل الآيات التالية:

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * قَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[1].

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى * وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾[2] ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾[3].

فهي تركز على تهيئة النفسية التي تتطلب الصلاة وتتقبل ما يفرضه الإسلام عليها من أحكام الزكاة، وهي مما يزكي النفس... ومن ثم تأتي الآيات المدنية غالباً لتبين تفصيلات للتشريع وعلى مستواها من التدريج، حتى تصل إلى القالب النهائي المقصود من أول الأمر.

تحريم الربا:

وقد ذكرت لهذا التحريم مراحل أربع وهي ـ وإن لم نستطع إثبات تسلسلها الزمني مباشرة ـ متسلسلة منطقياً على الأقل مما يوحي بالتسلسل الزمني.

المرحلة الأولى: مرحلة الوعظ الأخلاقي، وبيان أن المرابي سوف لن يحظى بمرتبة رابية عند الله.

﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[4].

المرحلة الثانية: إيجاد أرضية التحريم بالحديث عن اليهود وصفاتهم الرذيلة التي منها ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾[5].

وهذا يوجد حالة انتظار لعملية التحريم.

---

١. الشمس: ٧ـ١٠.

٢. الأعلى: ١٤ـ١٥.

٣. المدثر: ١ـ٥.

٤. الروم: ٣٩.

٥. النساء: ١٦١.

المرحلة الثالثة: تحريم الربا المضاعف.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١].

المرحلة الرابعة: التحريم النهائي الشامل.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾[٢].

وهذا التدرج لم يقتصر على الربا فقط بل اتخذ أسلوباً عاماً في تطبيق الأحكام كما حصل في تحريم الخمر وتشريع الإرث وتحويل القبلة ومعالجة قضية الرق وغيرها من الأحكام، أعرضنا عن بيانها لنبتعد عن الإطالة.

النقطة الثانية من نقاط التدرج هي الترتيب في توسيع رقعة الدعوة:

وملخصه: إن الإسلام بلا ريب كان هو الدين الذي بعث إلى العالم جميعاً، وإن هذا الهدف كان واضحاً لدى الرسول الأكرمﷺ تماماً.. بل إن الإسلام خاتم الأديان بمقتضى عالميته واستيعابه لكل الأجيال العرضية والطولية؛ وقد أكدت بعض الآيات الأولى للدعوة على هذا المعنى، كما في الآية الشريفة: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[٣].

إلا أنه لما كانت الدعوة تحاول الانطلاق من نقطة الصفر فقد كان التوسيع في نطاق المدعوين يتم وفق طاقات الدعوة، وعلى مراحل.

المرحلة الأولى ـ مرحلة الدعوة الفردية السرية:

يقول هيكل في كتابه حياة محمدﷺ: «وكان المسلمون الأولون يستخفون لعلمهم بما تضمر قريش من عداوة لكل خارج على أوثانها، فكانوا إذا أردو الصلاة انطلقوا إلى شعاب مكة وصلوا فيها، وظلوا على ذلك ثلاث سنوات ازداد الإسلام فيها انتشاراً بين أهل مكة،

---

١. آل عمران: ١٣٠.

٢. البقرة: ٢٧٨ـ٢٧٩.

٣. القلم: ٥١ ـ ٥٢.

ونزل على محمد ﷺ من الوحي ما زاد المسلمين إيماناً وتثبيتاً وقد اقتصر في هذه الرحلة على دعوة الأفراد فردا فرداً».

المرحلة الثانية ـ رحلة إنذار العشيرة علناً

﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[١].

المرحلة الثالثة ـ مرحلة إنذار مكة ومن حولها

﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾[٢].

المرحلة الرابعة ـ مرحلة إنذار العرب

﴿وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾[٣] ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾[٤].

المرحلة الخامسة ـ مرحلة إنذار الناس جميعاً

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾[٥]. ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[٦].

وهنا بعث ﷺ رسائله إلى الملوك.

النقطة الثالثة: من نقاط التدرج، الموقف من أعداء الإسلام:

وهو مورد آخر من موارد حكمة الإسلام وأسلوبه المدرك للظروف، ونحن نوجز الحديث فنصور الموقف في أساليبه التي قد تتغاير زمناً وقد يتعاصر بعضها وتختلف ظروفها.

١ـ أسلوب الدعوة السرية:

إذ مع قوة الطرف المقابل المعادي لا يجد الإسلام بداً من التخفي وعدم اطلاع الآخرين

---

١. الشعراء: ٢١٤.

٢. الأنعام: ٩٢.

٣. مريم: ٩٧.

٤. القصص: ٤٦.

٥.الأعراف: ١٥٨.

٦. الأنبياء: ١٠٧.

على نوعية سيره وهكذا كان الأمر، ودامت هذه المرحلة ثلاث سنوات كما مر.

٢. أسلوب المجادلة العلنية:

فبعد أن أمر النبي ﷺ بأن يعلن دعوته، كان من الطبيعي أن يثور جدل عنيف وتبدأ الحزازات والعناد. ومن هنا فقد أمر المسلمون ـ كتوجيه عام غير مخصوص بزمان ـ بأن يجادلوا بالتي هي أحسن، فجاءت الآيات التالية: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[١].

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[٢].

ونجد كتطبيق لذلك: النماذج التالية:

١ـ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[٣].

فالآية ـ أولاً تحاول تحريك فطرة المخالفين وتنبيهها إلى الرزاق، ثم تحاول التشكيك في موقفهم فيبدو المؤمن وهو المعتقد بأحقية ما يعتقده مردداً فيقول للمخالف: إن الأمر لا يعدو أن يكون أحد منهما على الحق أما هو أو مخالفه، وهذه الروح الموضوعية تساعد على دفع العناد.

٢. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[٤].

وهذا الأسلوب هو أسلوب إعادة الجماهير إلى وعيها. وتخليصها من العقل الجمعي المسيطر عليها بدعوتها إلى التفرق والتفكير مثنى وفرادى.

٣. ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ

---

١. النحل: ١٢٥.

٢. فصلت: ٣٤.

٣. سبأ: ٢٤

٤. سبأ: ٤٦.

شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[١].

﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٢].

ويلاحظ فيهما التأكيد على نقاط الالتقاء قبل بيان مواطن الاختلاف. ويمكننا أن نجد في أسلوب دعوة الأنبياء لقومهم ومجادلتهم له خير مرشد للمسلمين في مجادلتهم، وهذه هي إحدى فوائد قصص القرآن وما أكثر تلكم الفوائد. ومن تلك الآيات ما ورد في الأنعام، الآيات ٧٥ـ٧٩، والآيات ٥١ ـ ٦٧ من سورة الأنبياء، والآيات ٤٣ ـ ٤٤ من سورة طه، وغيرها.

٣. أسلوب الموقف السلبي:

وهذا الموقف يقوم على أسس واقعية أصيلة، سواء كان في مجال العقيدة أو العمل أو العواطف، ويشتد هذا الموقف صرامة في حالات عناد الطرف الآخر أو عمله على سلوك طرق المساومة أو إثارته الماكرة للروابط العاطفية إلى غير ذلك، وهذه المقاطعة قد أدت دوراً كبيراً في إعطاء المسلمين شخصية مستقلة، وشلّت تأثير الكفار في إغواء بعض الأفراد واستغلال الروابط العاطفية في ذلك. أما المقاطعة الفكرية فتركزها الآية الكريمة: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ *وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾[٣]. فليس هنالك أي نقطة التقاء في العقيدة ولا معنى للمساومة العقائدية. ولا يعني الالتقاء إلا تنازل الإسلام عن عقائده، وأما المقاطعة العملية ـ أي عدم الركون والتعامل العملي مع الظالمين ـ فالآية القرآنية الأخرى تشير إلى ذلك: ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[٤].

وأخيراً، فالمقاطعة العاطفية لأجل أن تبتني عواطف المسلم على أسس عقائدية، جاءت الآية الكريمة:

---

١. آل عمران: ٦٤.

٢. العنكبوت: ٤٦.

٣. الكافرون: ١ـ٦.

٤. هود: ١١٣.

﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾[١].

وقد استعمل الإسلام هذا الأسلوب في المجال الداخلي أيضاً. وأقصد به أنه استعمله كعقاب لأولئك المسلمين المتقاعسين عن واجبهم الإسلامي كما في قضية الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد، وأمر المسلمين بمقاطعتهم وكانت المقاطعة شاملة حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ثم جاءهم العفو الإلهي.

والمقاطعة السلبية عنصر مهم وأسلوب أصيل في مسألة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما هو مبين في محله.

٤. أسلوب الجهاد:

ونعني به المقابلة المسلحة من قبل المسلمين في مواجهة العدو. والذي نجده في هذا الأسلوب أنه كان ممنوعاًمنعاً باتاً في الفترة التي مرت على المسلمين وهم في مكة، ولعل مبررات ذلك بعض الأمور التالية أو مجموعها، وقد أشار إليها الكتاب المسلمون، وهي:

أ ـ ضعف الدعوة الإسلامية واحتمال القضاء عليها تماماً لو تطور الأمر إلى مجابهة مسلحة.

ب ـ كون تلك الفترة فترة إعداد تربوي للقادة، وهي تتطلب جواً قد لا يتوفر في حالات المجابهة بالسلاح. وعلاوة على هذا فإن قريشاً وإن استعملت كل وسائلها في سبيل منعه ﷺ من التبليغ إلا أنها فشلت في ذلك، فلم يكن طريق التبليغ مسدوداً في وجه المسلمين.

ج ـ قوة نظام الثأر العشائري والذي يؤلب على المسلمين مختلف القبائل العربية.

د ـ إن المجابهة كانت تعني حدوث المعركة الدامية في كل بيت. ومن اثار ذلك قوة الإشاعات والتقولات التي تستغل الجانب العاطفي فتزعم للناس أن النبي ﷺ جاء لضرب وحدة الناس وشق عصا الجماعة الواحدة. وهذا ما شهدناه قوياً مؤثراً في بعض الساذجين، وشهدنا القرآن الكريم يعرض قصة «آل يس» هادفاً ـ فيما يهدف ـ السخرية من أولئك الذين يطلقون هذه الإشاعات ويعتبرون مجيء الأنبياء موجباً للتشاؤم والتطير.

---

١. المجادلة: ٢٢.

فكيف يكون الحال لو أمر النبي أخاً لقتل أخاه؟ وما هو تأثير ذلك في النفوس والدعوة الإسلامية ضعيفة كل الضعف؟ ثم إن هذا الأمر سيكون ذا وطأة ثقيلة لا تتحملها إلا النفوس المشبعة بأفكار العقيدة والتي صيغت عواطفها على أساسها.

هـ ـ إن المجابهة المسلحة ستحرك القبائل البعيدة ضد المسلمين، إذ ستخرج عن إطار كونها دعوة محلية وحركة داخلية فتحسس باقي القبائل بالخطر الذي يتهددها في المستقبل القريب فتمد يدها لمعارضي الإسلام كي يسهل لهم القضاء على نبتته الضعيفة، وقد رأينا أن تلك القبائل قد شكلت خطراً كبيراً بعد ذلك حينما أحست بالخطر يحدق بها من قريب.

و ـ إن اتخاذ دور المظلوم المقهور المعتدي عليه من قبل زعماء قريش كان يدفع الكثيرين للدفاع عن الدعوة بدافع النخوة العربية التي تنتصر للمظلوم، فلم ننس بعد أن الكثير من هؤلاء المتحمسين لهذا الأمر كانوا قد تجمعوا في تلك الفترة تقريباً لأجل تشكيل حلف يدافع عن المظلومين «حلف الفضول» وقد اشترك فيه النبي ﷺ وكان يذكره بتبجيل فيما بعد.

ز ـ هذا بالإضافة إلى أن الإسلام كان ينظر نظرة بعيدة فيتوقع لهؤلاء المعارضين أن يكونوا في المستقبل في طليعة حاملي الإسلام العالمي، وكذلك بالإضافة إلى طبيعة الإسلام الخيرة التي تتجنب إيصال الأذى مهما أمكن.

لعله لكل هذه الأسباب ولغيرها منعت المجابهة المسلحة في الفترة المكية قبل وفي فترة يسيرة بعد الهجرة. وعندما اشتدت وطأة الكافرين أمر الرسول ﷺ بالهجرة.

ولكن الإسلام أمر بالقتال حين أحس بضرورته من جهة وبضعف المبررات التي منعت من جهة أخرى.

وكان أول لواء عقد لحمزة (رض) في رمضان الشهر السابع للهجرة ثم تتابعت السرايا، وكانت سرية عبدالله بن جحش في رجب الحرام، وهنا نزلت الآية الكريمة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾[١]. ثم كانت غزوة بدر وهكذا.

---

١. البقرة: ٢١٧.

شبهة السيف:

وهي شبهة انطلقت أول ما انطلقت من المستشرقين ـ فيما نقدر ـ وكان الغرض منها تشويه سمعة الإسلام والانتقاص من قدراته الذاتية على التوسع، فادعى بأن الإسلام إنما انتشر بالسيف وقد قام كتّاب أخذتهم الغيرة على الإسلام، ودافعوا عن ذلك قائلين: بأن حروب الإسلام كانت كلها حروباً دفاعية فلم يهاجم الإسلام أحداً مطلقاً، والحقيقة أننا لا نستطيع المجازفة بذلك أولاً ولا نجد داعياً للقول به ثانياً.

إن من ينظر إلى طبيعة الإسلام العقائدية والعالمية، والى أهداف الإسلام في قيادة العالم وإيصاله إلى الكمال، ثم ينظر إلى ضراوة الكفار وتوسلهم بكل وسيلة للقضاء عليها، يجد أن من الطبيعي أن يحمل الإسلام السيف.

فلم يكن الإسلام دين أفراد بل كان دين الإنسانية، ولم يكن الإسلام مجموعة أفكار بل كان فكرة عن الكون، ونظاماً يقوم على أساس تلك الفكرة، لا يقوم إلا بتملك السيطرة على تطبيقه، والقضاء على من يقفون حجر عثرة في ذلك، والدليل على ذلك واضح من استقراء تاريخ أي دعوة تملك هذه الطبيعة. وقد بيّنت الآيات القرآنية مبررات القتال:

﴿الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[١]. ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾[٢]. ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلّهِ﴾[٣].

إن الهدف هو تكوين البشرية المؤمنة، وأن يكون الدين كله لله، باعتبار أن الله تعالى خالق البشرية، علم أن الإسلام هو دواؤها، فالذي يقف حجر عثرة في سبيل كمال الإنسانية ولا يرضى بالتسليم على الأقل للحكومة الإسلامية ويعمل على تقويض عملية انتشار الإسلام، مثل هذا اللسان يعتبر جرثومة سارية للإنسانية جميعاً.

١.النساء: ٧٦.

٢.التوبة: ٢٩.

٣. البقرة: ١٩٣.

نعم، لا يكره الإسلام على العقيدة ولكنه لن يدخر وسعاً في تعميم حكومته على الأرض فلن تصلح الأرض مع وجود مقاييس مختلفة وأهداف متوزعة.

وإذا تم هذا نقول: إن حمل السيف ضروري في بعض الأحيان ولكنه فرق بين يد تحمل السيف لتحرير الإنسان من كل العبوديات المذلة له وتجعله عبداً لله فقط، ويد تحمله لأجل إذلاله واستغلال موارده وطاقاته.

على أنه لا يفوتنا هنا أن نشير إلى أن أمماً كثيرة أسلمت بواسطة التبليغ والدعوة. كما لا يفوتنا أن ننبه إلى أن المسلمين الأوائل كلهم أسلموا بالدعوة، وان الأراضي التي فتحت عنوة بقيت مسلمة حتى بعد زوال الضغط الإسلامي عنها، وغير ذلك...

٥. أسلوب الهجرة:

وهو أيضاً أحد الأساليب المهمة التي اتبعها المسلمون للحصول على مكاسب كبرى في تاريخهم الأول، وقد تمت الهجرة أولاً على صعيد محدود، وإن كانت إلى بلد بعيد وهو الحبشة، ثم كانت على نطاق شامل إلى يثرب؛ أما الهجرة الأولى إلى الحبشة فقد حققت بعض الأهداف بنجاح، وذلك أنها:

١. أنقذت بعض المسلمين من العذاب المر الشديد الذي كان قد يودي بحياتهم.

٢. أكدت مظلومية المسلمين وجبروت قريش للعرب وغيرهم مما زاد في عطف الغير عليهم.

٣. أحدثت هزة كبرى في ذلك المحيط مما وجه الأنظار نحو الدعوة الجديدة ومعرفة حقيقتها.

٤. كان لتلك الهزة أثرها الكبير في إضعاف عزائم الأعداء أمام ذلك الإصرار الهائل.

٥. يمكن أن نعتبر الهجرة دورة تدريبية على التشبع بروح العقيدة وصياغة الحياة وفق أوامرها وتركيزها في النفس.

٦. نقل إشعاعات الدعوة الإسلامية إلى الخارج بأسلوب بسيط.

وكانت الهجرة الثانية إلى يثرب، وهي الهجرة العامة والحدث التاريخي الكبير الذي أحس الكل بقيمته المهمة، فابتدأ تاريخ المسلمين من الهجرة مشعراً بعظمتها.

إن هذه الهجرة كانت تمتلك النتائج السابقة بصورة أقوى وأعمق. بالإضافة إلى كون المدينة تمتلك آفاقاً أرحب يمكن للدعوة الإسلامية فيها أن تتنفس ويبدأ المجتمع الإسلامي

أولى مراحله، بعد أن كادت قريش تخنقها بضغطها العنيف، وبعد أن مات نصيرا الإسلام العظيمان، أبو طالب وخديجة.

وهنا نود أن نشير إلى أن البعض اعتبر الهجرة نوعاً من الموقف السلبي، وهذا أمر لا نقبله بل هي ـ بالنظر إلى طبيعتها ونتائجها ـ عمل إيجابي فعّال.

٦. أسلوب المعاهدة والصلح:

وهو أسلوب آخر من أساليب الإسلام في تحديد موقفه من غير المسلمين عامة والأعداء منهم بصورة خاصة، وقد كان لهذا الامر دور مهم في حماية ظهر الدعوة الإسلامية وفي بسط نفوذها والتمهيد لانتصارها النهائي. ولا يسعنا الحديث عن الفوائد المختصة بكل عهد.

٧. الحرب الفكرية المضادة:

وهذا ما اضطلع بحمله القرآن الكريم الذي كان يضعف عزائم العدو بآياته المتدرجة ويحكي قصص الأمم التي تشابه الأمة المعارضة وكيف وصلت إلى الخسران وغير ذلك.

كانت هذه هي أهم الأساليب التي اتخذها الإسلام في مجال موقفه من أعداء الدعوة.

وأخيراً، فإن من الضروري أن نتعرض إلى أهم فوائد نزول القرآن التدريجي، فإن لها تأثيراً كبيراً على استكمال الصورة في هذا الموضوع.

الامر الثالث ـ الإنزال التدريجي للقرآن وفوائده:

يمكننا أن نتصور لذلك فوائد كثيرة أهمها:

١ـ تفادي الصدمة ـ وذلك لأن العرب كانت تعبث بها الصنمية والطبقية وغير ذلك، وتسودها الزعامات القبلية، وفي مثل هذا الجو يكون التعدي على فرد واحد موجباً لروح الثأر فكيف بنسف العقائد والزعامات مرة واحدة. إن ردود الفعل ستكون قوية جداً مما يتوقع معه القضاء على الدعوة الإسلامية وهكذا الأمر بالنسبة لضرورة التدرج في إعطاء الإسلام.

٢. تفهم القرآن بروحه ـ إذ إن فهم القرآن ليس أمراً يسيراً كما أنه غالباً ما يرتبط فهم الآية بالموقف النفسي، فالمحارب يشعر بقيمة الآية التي تطمئنه وجوّها، غير ما يشعر به الجالس في بيته.

إن الفهم يحتاج إلى فرصة كافية ليتعمق المسلم في معاني الآيات. وخصوصاً إذا تنبهنا إلى أن العملية تبدأ من الصفر.

يروي ابن مسعود: «كان الرجل منا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن».

ومن علل التدرج التي يذكرها مجمع البيان قوله: «ويكونوا أقدر على التأمل والتفكّر فيه» ولذا كان من الضروري أن ينزل تدريجاً.

إن عجزهم عن الفهم ينتج شيئين:

أما الانبهار بالعظمة ـ والانسياق الأعمى وراءه. وهذا ما لا يريده الإسلام، لأنه استهدف تربية المسلم الواعي الرصين العقيدة لكي يحق له أن يحمل العقيدة للأرض. ولا يريد أن يتحول إلى مذهب طوبائي ينفذ اتباعه ما يريده بلا وعي.

أو التوقف والتملص من هذه العملية بكاملها. وبتعبير آخر، فإن القطرة قطرة هي التي تؤثر تماماً والدفعة تغرق ـ كما يقولون ـ.

٣. تركيز التربية في النفوس ـ فإننا لو لا حظنا الفروق بين المعجزة الإسلامية الخالدة «القرآن» وباقي المعاجز التي جرت على أيدي الأنبياء عرفنا أن تلك المعاجز كانت تتصف بما يلي:

أ ـ المحدودية الزمانية والمكانية.

ب ـ إنها تجعل الإنسان أحياناً أمام أمرين لا ثالث لهما، أما الإيمان وأما العذاب والضلال التام، وهذا مما قد ينتج الإيمان الإجمالي لا الإيمان النافذ الواعي.

ج ـ الانفصال بين الرسالة والمعجزة التي توفر السند لها.

د ـ إن أكثرها بل كلها ترتبط بجانب الإعجاز المادي.

هـ ـ إنها تعتبر خرقاً للنواميس الطبيعية.

إلى غير ذلك، في حين نجد القرآن على العكس من ذلك باعتبار أنه:

أ ـ ليس إعجازه محدوداً بزمان ومكان خاصين مما يؤكد أنه معجزة الرسالة الخالدة.

ب ـ إنه يربي الإيمان في النفس قطرة وبكل تأن وروية، وهذا أمر تتطلبه عملية التربية الطويلة للأجيال.

ج ـ الانفصال بين الرسالة والمعجزة التي توفر السند لها.

د ـ إن أكثرها بل كلها ترتبط بجانب الإعجاز المادي.

هـ ـ إنها تعتبر خرقاً للنواميس الطبيعية.

وعلى أي حال، فإن أهم ما يميزه هو هذه الصفة التربوية الرائدة المربية للأجيال وهذه الصفة تستدعي أن ينزل القرآن بالتدرج ليصعد بالإنسان من مرحلة إلى أخرى.

يقول في مجمع البيان معللاً هذا التدريج بأنه «ليكون أمكن في قلوبهم».

٤. لتركيز الاتصال الحسي المتواصل بالسماء ـ وهذا يلحظ من جوانب:

أ ـ إن هذا التدرج يعمق في نفوسهم عنصر انتظار السماء ورأيها في كل حادثة مما يطبع حياتهم بطابع الصياغة وفق أوامر الله. وهكذا تكون الآيات القرآنية أوامر سماوية يتلقاها المسلمون كما يتلقى الجنود الأوامر اليومية.

ب ـ خلق الصمود والعزة والأمل في نفوس المسلمين باعتبار أنهم يشعرون ـ حسياً ـ بأن جبار السماوات يسندهم وهو معهم يسدد خطواتهم، فينطلقون مجاهدين باذلين كل ما يملكون في سبيله، فنجد القرآن العظيم:

تارة يسلي النبي ﷺ ويأمره بالصبر ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾[١]. ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[٢] وينهاه عن الحزن ﴿وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾[٣] ويذكره بأن الكافرون يعاندون الحق لمصالحهم ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ﴾[٤] ويسدد خطواته فيقول: ﴿عَفَا اللهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[٥] ويخفف عنه: ﴿طه * مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾[٦] وإذ يشعر المسلمون بتسديد قائدهم

---

١. ق: ٣٩.

٢. الأحقاف: ٣٥.

٣. يونس: ٦٥.

٤. الأنعام: ٣٣.

٥. التوبة: ٤٣.

٦. طه: ١ـ٢.

من قبل السماء يحسون بالمدد وتزداد عزائمهم وكذلك عندما توجه أوامر القتال أو آيات الإسناد الملائكي للمسلمين أو آيات الرضوان عنهم، عندما يشعرون بذلك، فلا بد أن نتوقع منهم كل التضحيات. ومن هنا يقول في مجمع البيان:

«إذا كان يأتيه الوحي متجدداً في كل حادثة، وكل أمر، كان ذلك أقوى لقلبه وأزيد في بصيرته».

ج ـ ويمكن أن نلتفت إلى جانب تأثير ذلك على المنافقين وخطط الأعداء الآخرين إذ تجعلهم جميعاً في حذر شديد من انكشاف مؤامراتهم الحاقدة مما يثبط عزائمهم بلا ريب.

٥. ظهور وجه الإعجاز بصورة أكبر:

وذلك لأن القرآن نزل خلال ٢٣ سنة متفرقاً هنا وهناك، وفي حالات الحرب والسلم والأمن والخوف والنصر والهزيمة والموقف الجاد والمواقف العاطفية وهكذا، وتناول مختلف الشؤون الإنسانية، ومع كل هذا التفرق تلحظ الوحدة فيه كاملة: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾[١].

٦. تركيز الاثنينية بين الله تعالى ـ موحي القرآن ـ وبين الموحى إليه وهو الرسول ﷺ في نفوس المسلمين.

فهو تارة ينهاه عن العجلة بقراءة القرآن من قبل أن يقضى إليه وحيه، وأخرى يتدثر فتأتيه سورة «المدثر»، وتأتيه سورة «اقرأ» ثم يفتر الوحي ثلاث سنوات ويأتي حديث الإفك، ويضطرب الجميع، ويتأخر الوحي فينتظره الجميع حتى ينزل. وهكذا يشتاق النبي ﷺ إلى الكعبة ويقلب وجهه أشهراً عديدة ولا ينزل القرآن، ثم بعد ذلك تأتي الآية الكريمة: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ﴾[٢]. وهكذا تتابع المواقف التي يوصف فيها بالعبودية ويقف فيها موقف المتأدب أمام الله.

وكل هذا يركز ـ كما يبدو ـ:

أ ـ الأثنينية التامة بينه وبين الباري جلّ وعلا تحرزاً من دعوات الانحراف والخلط مما قد يؤدي إلى انحرافات كبرى.

---

١. النساء: ٨٢.

٢. البقرة: ١٤٤.

ب ـ دفع الشبهات التي قد تثار ـ كما أثيرت من قبل البعض ـ بأن الوحي كان حالة من حالاته ﷺ ومن إبداعاته والعياذ بالله.

وعلى ضوء ما سبق، يمكننا أن نفهم بشكل أعمق مغزى الآيات القرآنية الكريمة التي تحدثت عن الموضوع.

يقول تعالى: ﴿وَقُرْآناً فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً﴾[١].

ويقول تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[٢].

الخلاصة:

عرفنا مما سبق، إن التدرج في مختلف المواقف كان تعبيراً أصيلاً عن مرونة الإسلام التي هي بالتالي تعبير عن واقعية الإسلام.

---

١. الإسراء: ١٠٦.

٢. الفرقان: ٣٢.

سادساً: ظاهرة ابقاء الأمل حياً

ويتم الحديث عن هذه الظاهرة في مقدمة وفصول:

مقدمة: عنصر الأمل أحد معالم المبدأ الناجح

يتعب المفكرون كثيراً في تحديد معالم المبدأ الناجح والَّذي يمكنه أن يقود الإنسان لحل مشكلته المستعصية عليه اجتماعياً ضرورياً يجب توفره في أي مبدأ يريد لنفسه أن يقود جماعة من النَّاس، فضلاً عن إدعاء قيادة الإنسانية. وذلك العنصر هو «الأمل».

ولو استقرأنا ما طرح على الساحة الفكرية والعملية في نظريات مختلفة، ومبادئ متكثرة، فإنَّنا نجد أنَّها اعتمدت كثيراً على أنَّ تجلّي هذا العنصر فيها، وتمنحه سمة ما، بحيث يتصور الاتباع أنَّه لا شك متحقق، إن آجلاً أو عاجلاً.

ولو أردنا أن نرجع بالأمر إلى جذوره النفسية، لوجدنا أنَّ هذا العنصر يعتبر خير ما زود به الإنسان من بين الحيوانات بعد نعمة العقل الكبرى. بل نكاد نجزم بأنَّ الأمل ـ وهو نتاج عقلي وغريزي في آن واحد ـ يقوم بدوره الكامل في العمليات العقلية الثانوية ولولاه لما أمكن أن نبصر نتائج تلك العمليات.

وتوضيح هذا الأمر: إنَّنا يمكننا أن نختار إحدى العمليات العقلية الَّتي تشكل الخط العريض لسلوك الإنسان، وهي عملية التغيير الفكرية، التي يتمتع بها هذا النوع دون غيره، فنشاهد أنَّ الفكر والتعقل، يمنحه طاقة التعالي على أي واقع يعيشه، وينحدر به. بمعنى أنَّ الإنسان تؤطر جانبه المادي أطر زمانية ومكانية مختلفة، لا يمكنه بجسمه أنَّ يتخلص منها. ولما كانت عملية التغيير تستدعي أن يحيط الإنسان بالشيء المغيّر، ويمسك بخيوط جوانبه

العديدة، وينسلخ من قيوده المادية لكي يشخص الحالة الأفضل ـ لما كان كل ذلك ـ فقد زود الإنسان بالعقل ليقوم عن طريقه بهذا الجانب الحيوي في حياته.

فالتغيير هو سرّ البقاء المتطور للإنسان، وهو يعتمد على عملية التعالي عن الواقع، والنظر إليه من علّ لتغييره، وهذه العملية متوقفة على الجانب الروحي الذي لا تقيده القوانين المادية.

وبعد ذلك، تأتي مرحلتا التخطيط والتطبيق.

كل هذه كانت عمليات يجربها الفكر، ولكن لو تساءلنا عن الدافع الذي يبعث الفكر إلى إجراء هذه العمليات، بما فيها من عقبات متوقعة، فالجواب لن يكون مركزاً إلا على الأمل: أمل الحصول على واقع أفضل، وأمل الحصانة الأقوى للنوع، وأمل السعادة بالتالي.

فالأمل ـ إذن ـ هو الروح المحركة لمسيرة الإنسان الفكرية، التي تبنى عليها كل فعالياته الأخرى.

وقد ورد في الحديث الشريف: «الأمل رحمة لأمتي ولولا الأمل ما أرضعت والدة ولدها ولا غرس غارس شجراً»[١].

اما ما قلنا به من فطرية الأمل، فإنَّه يتضح بعد التأمل المركز في الغرائز الإنسانية التي ترتبط دائماً بحركية الإنسان ودافعيته. وتلك من امثال غريزة حب الإستطلاع، وغريزة حب الكمال، وغريزة التدين. فإنَّ كل هذه الغرائز وغيرها مما يرتبط بهذا المجال تعتمد على عنصر الأمل، أما في أساس وجودها، كغريزة حب الاستطلاع باعتبار أنَّ الإنسان يريد أن يستطلع على أمل أنّ يكتشف الواقع، واكتشافه للواقع هو بنفسه يقوم على أمل انكشاف طريق آخر، يمكنه من أن ينمي وجوده ويشبع نهم ذاته، أو في تحقيق مقتضياتها كالآخرين.

اما وقد ارتبط الأمل بالأفكار الغريزية، فهو إذن يجد له مواضعه في كل أنماط السلوك.

فلا معنى لأن يقال: بأنَّ المنتحر، والزاهد الراهب، والحقود على الإنسانية، كل هؤلاء أناس حرموا نعمة الأمل، ولذا فهم يسلكون سلوكاً منافياً للسلوك الطبيعي! وذلك: لأنَّ الأمر على العكس تماماً فكل هؤلاء يأملون، وتتعلق آمالهم بأشياء، غاية الأمر: أنَّ ما تتعلق به آمالهم ـ في الواقع ـ خلاف الأشياء الطبيعية.

١.بحار الأنوار: ج ٧٧، ص ١٧٣.

إذا توضح هذا، فلنراجع انفسنا، وسوف نجد أنَّ الطفل يشاكس هذا وذاك على أمل، وأنَّ العامل ينبعث إلى عمله على أمل، وهكذا التاجر والعالم وغيرهم.

ومتى ما ضؤل الأمل، قلت الطاقة الحركية، إلى أنّ ينعدم الأمل فلا يبقى دافع للعمل، وحينذاك فالجمود.

العلاقة بين النمو العقلي والأمل:

يمكننا أنّ نراقب الخط البياني، لنوعية الأمل في حياة الإنسان ونقارنه مع الخط البياني للرشد العقلي له، لنكتشف نوعية العلاقة بدقة.

إن الملاحظ، أنَّ آمال الإنسان تكاد تكون خيالية مائة بالمائة، عندما تتحرك لديه ملكة الخيال ـ أول ما تتحرك فتجده يبني أمجاده، ويصوغ أبطاله الذين يحتذي بهم أشخاصاً خياليين، يمزقون الأرض بقبضة واحدة! ومن هنا نجد ولع الأطفال الشديد بالقصص الخيالية، والأبطال الأسطوريين!

ونحن هنا لا نعني أنَّ أبعاد الموضوع هي هذه فحسب! بل تشترك هذه العلاقة، في صياغة الموقف الطفولي. والافالدور الأكبر ـ إلى جنب هذه العلاقة ـ لغريزة حب الكمال الأصيلة للإنسان، والتي تنطلق حينذاك بلا ضابط.

وكلّما ازداد النمو العقلي بعد ذلك، اكتسبت الآمال شيئاً من الواقعية، إلى أن يصل الإنسان إلى المرحلة التامة من الرشد، وحينذاك يكتشف تفاهة الآمال الخيالية، وتفاهة الأشياء التي تصور من قبل وبمقتضى بيئته أنّها أمور بعيدة المنال.

وفي هذه المرحلة بالذات، يحاول الإنسان أن يقيّم آماله الماضية على ضوء عقيدته من جهة، وظروفه الخارجية من جهة أخرى.

وإذا توضحت الآمال جيداً، وتأكد الإنسان من واقعيتها، انطلق يخطط بدقة للوصول إليها. فقد أصبح سلوكه حينذاك سلوكاً يتم وفق اعداد مسبق، وبثقة أكبر، وبدافع أقوى، وهذه هي أرقى شروط العمل الناجح.

ونقصد من الواقعية: الإمكانية العقلائية لتحقق الأمل المعين. والتي تثير في الإنسان دوافع الطموح نحو الوصول للهدف الممكّن من نفسه.

يقول الدكتور علي أحمد علي: «ولكي يؤدي الهدف دوره الفعّال في تحريك السلوك وتوجيهه،يجب أنّ يكون الهدف واقعياً،يمكن للفرد من تحقيقه بجهد مناسب ومعقول»[1].

التناسب الطبيعي بين نوعي الأمل والعمل

لا ريب في أنَّ الأهداف الكبرى تمتلك طاقة جذب كبرى، لا تقاس إليّها طاقات الأهداف القريبة والساذجة، وتلك الطاقة تستدعي عملاً يتناسب معها.

ويمكننا التأكد من ذلك بسهولة، إذا قسنا هدف قارئ للقرآن، كدارس له لأجل الوصول إلى فهم شيء من معناه الحرفي، وبعض قواعده، للتوفر على تدريسها لأبناء قرية منزوية، إلى هدف إنسان آخر، يدرس القرآن ويقرأه، لأجل أن يتوفر على معالم أطروحة القرآن، التي اريد لها أن تنتظم كل ارتال البشرية ,وأجيالها في مسيرة واحدة. إنّ هذا الأخير ـ وهو يعلم عظم ما يبغيه ـ ليبذل من الجهد والتعب والفكر والمعاناة ما لا يقاس إلى الجهد الذي يبذله الأول في ذلك، وأن أطلق على كليهما اسم دارس القرآن.

فهناك إذن تناسب بين نوعية الأمل الجاذب، وطاقة العمل المراد في سبيل تحقيق ذلك الهدف.

مع المبادئ الوضعية:

ونظرة استعراض بسيطة لهذه المذاهب، تكفينا لتأكيد المقصود: فالماركسية أعلنت للبشرية أنّها اكتشفت طريق السعادة بكل ما فيه من معالم، وأنّها تخطط لليوم الموعود الذي تكون فيه «الإنسانية كلها طبقة واحدة، وتتمثل مصالح كل فرد في مصالح تلك الطبقة الموحدة.. حيث يسود الوئام ـ آنذاك ويتحقق السلام، وتزول نهائياً كل الآثار السيئة للنظام الديمقراطي الرأسمالي»[2].

ويسرف الخيال الماركسي، في تصور تلك المرحلة الذهبية الموهومة من عمر البشرية ككل، فيتصور أنّ أعمق غريزة من غرائز الإنسان، وهي غريزة حب الذات، تذوب وتنصهر في المختبر التاريخي، متحولة إلى غريزة حب الآخرين! وحينذاك يكون الإنسان موجوداً ملائكياً خيراً! وبالتالي.

---

١. مجلة العربي العدد ١٦٧، السنة ١٩٧٢، ص ٥٤.

٢. المدرسة الإسلامية ج ١، ص ٥٣.

فلا معنى لوجود قوانين وضوابط، وسلطة تقنينية، وأخرى تنفيذية! فكل هذه الأمور إنما تتعلق بمرحلة ما قبل الفردوس الموعود، أما وقد بلغتها الإنسانية فلا معنى ولا مبرر لوجود الدولة! إنما هي السعادة والعدالة تقوم بصورة طبيعية بين البشر... إلى ما هنالك من الخيال المنسوج!!

ولأجل أن تؤكد واقعية هذه النتيجة الحتمية، فقد هداها ذكاؤها لأن تجعلها من مقتضيات القوانين الطبيعية الحتمية التي لا تقبل التبديل ومن هنا فقد عمدت إلى التاريخ الإنساني، تقسمه إلى أدوار، محاولة أن تضع في رحم كل دور عوامل تآكله وتفسخه الآتي.. وهكذا تتسلسل الأدوار وفق قوانين المادية التاريخية، حتى يصل الدور للمرحلة الرأسمالية ـ وهي المرحلة التي قامت الماركسية كحركة سياسية أصلاً لإذابتها. ثم استعانت بالتصور الفلسفي للتاريخ، لتسند أهدافها السياسية هذه، كما هو واضح لمن درس تاريخها بعمق.

ومن ثم ركزت على هذا الدور، وحللته كما تشاء، متصيدة له بعض الأمثلة، ومستعينة بالآثار المشؤومة لنفس النظام، محاولة بذلك أن تبرر حركتها بأنّها تساند حركة التاريخ، التي ما أن تتفاعل مع الجماهير ذات المصلحة، وبصورة طبيعية حتى ينتج الأمر الانتصار! وعندما أفلحت في مرحلتها الأولى، بدأت ترسم ذلك الهدف المعسول، لأجل أن تبرر ستارها الحديدي المقيت، في مرحلة اسمتها «الإشتراكية» داعية في هذه المرحلة إلى «بروليتارية العمال»، والضغط والقوة والعنف الثوري، واعدة الإنسان بتحويله في النهاية إلى إنسان يصلح أن يدخل دور الشيوعية التي لن يجد فيها إلاّ البرد والسلام.. !

أما الرأسمالية: فهي بدورها أيضاً لم تقم إلاّ على أساس الوعود العريضة، وفي ظل قادة كانوا يصفون للبشر الجنّة الموعودة، ويعدونهم بالخلاص من نير الحكام والاقطاعيين والسادة، والحصول على أروع جوهرة، ركب حبها في أعمق الإنسان وهي «الحرية»! وهكذا وعدت بالمجتمع الإقتصادي الحرّ، والمجتمع الفكري والسياسي الحرّ. حيث لا ضغط من أي جهة، وحيث الفرد فيه يحصل على ما يريد، وفقاً للمجالات المفتوحة له على مصراعيها.!

وكان سندها في هذه الآمال، نفس نزوعه نحو الحرية، وطلبها بأي ثمن، محاولة بذلك أن تضفي عليها ثوب الواقعية!

ولا يهمنا الآن ذكر ما لاقاه العالم من هذين النظامين بعد ذلك، من مآس مروعة، ودمار فكري وأخلاقي، بقدر ما يهمنا أن نؤكد أنّ كليهما أكد على عنصر الأمل فيه، وحاول جهده

أن يضفي عليه ثوب الواقع، سواء بالإستناد إلى قوانين التاريخ، كما فعلت الماركسية أو الإستفادة من النزعات الداخلية للإنسان، كما فعلت الرأسمالية، مما يؤكد لنا ما قلناه.

الأمل في النظم الوضعية حدوده، وموهناته:

رأينا أنَّ كل النظم التي تحاول أنّ تجد لها اتباعاً تشعر بأنَّ الأمل هو الديناميكية المحركة للإتباع، بل العامل الرئيسي في جلب الإتباع أنفسهم إليها.

والآن، نحاول أن نخطو خطوة أخرى من البحث، فندرس إمكانيات عمل هذا العنصر في الأنظمة التي يخترعها الإنسان، والتي تسمى بـ«الوضعية» وهي التي لا ترتبط بأي عنصر غيبي، ولكن إعتمدها الإنسان لأجل أن يرسم لنفسه أسلوباً يوصله للسعادة، بغض النظر عن هدى السماء. وبعد هذا، ننفذ إلى فاعلية الأمل في الإسلام وطاقاته، بعد أن نؤكد على أنَّ الإسلام هو الصورة الصادقة للنظام المستند إلى قاعدة غيبية أصيلة واقعية.

وأهم صفة يبتلى هذا العنصر في النظم الوضعية هي «التحديد المادي».

وذلك لأن الأنظمة الوضعية كلها إنما تخطط للجانب المادي من حياة الإنسان، ولا تعترف بأي تأثير لأي عامل غيبي، في تخطيط مصيره وتقريره.

فغاية ما يمكن أن يعد به النظام المادي ويتعهد به، هو أنه يستطيع أنّ يوفر للإنسان حياة سعيدة هانئة، يأكل فيها ما يريد ويشرب كذلك، ويعيش في مسكن آمن، يحترمه مجتمعه ويضمن له حقوقه من تعليم وصحة، وتقاعد في الشيخوخة وما إلى ذلك.

هذه هي غاية ما يمكن أنّ تمنحه النظم الوضعية للإنسان، ولكن بعض هذه النظم لمّا لم تجد ذلك كافياً لإشباع طموح الإنسان، واصطدمت بواقع شوقه لبناء الإنسانية الموحدة، فقد تجاوزت هذه الغاية بعد أن مهدت لهذا التجاوز بالقيام بطرح فلسفة، ومفاهيم تتنافى والمفهوم المادي الذي بنيت عليه أساساً. فأخذت تقوي عناصر التضحية، والعمل في سبيل الجماهير، والكدح في سبيل رقي المجتمع، والنضال لتحقيق الديمقراطية، والعمل على تغيير العالم، ولو فنيت الأشخاص الفردية للإنسان، وذبحت الآلاف وديست الحقوق الشخصية، وامتهنت إيما امتهان...! وضرب النطاق الحديدي حول الحريات.. أنّ كل هذه الأشياء لا قيمة لها في حساب تحقيق الهدف الأبعد، وهو صياغة عالم شيوعي مثلاً، ولو فني ثلثا العالم ـ

على حدّ تعبير بعض قادة الشيوعية ـ أو التحضر والتمدن للإنسان كل الإنسان، حتى ولو ذبحت في سبيل رسالة الرجل الأبيض هذه شعوب، وأحرقت مدن، وإمتصت دماء ودماء!

والحقيقة أنها شعرت بأنَّ اهدافها لن تحقق لو إنحصرت بالشكل المادي، فإنَّها لا تكفي مطلقاً لبعث مفاهيم الإيثار والتضحية والولاء الصادق وبعد النظرة، بل لبعث أي مفهوم أخلاقي أو عملي. لذا فقد عمدت إلى طرح هذه الشعارات، متناقضة مع أسسها هي، سواء كانت اعتمدت عليها، أو اغفلتها وهي متعمدة إذ أنّ كل ذلك لا يتلاءم والإعتقاد بأنَّ الحياة الإنسانية محصورة في هذا الشوط وهو الحياة الدنيا فقط. فإذا مات الإنسان إنقطع عن أيّة علاقة له بأي شيء، فهو العدم المحض الذي لا يصله أي خير، ولا يوصل أي خير للآخرين، ولا يحس حتى بكلمات المدح والذكر العالي الطنان، إن كان الذكر العالي لقادة هذه النظم أعلى من صرخات اللعنة الصادرة من المعسكر الآخر!

الإعتراض بملاحظة الواقع التطبيقي:

فإن واجهنا أحد ـ معترضاً: بأنَّ هذا المعنى يختلف مع الواقع التطبيقي، حيث نشاهد أولاء الذين قدموا اعناقهم إلى المشانق، وعملوا جهدهم في سبيل إنتشار مبادئهم، وناضلوا سنين متطاولة في ذلك.

والجواب:

أنّا نقول لمثل هذا المعترض: أليس تحليلنا السابق والتناقض القائم بين البناء والأساس حقيقة؟ فإن كان كذلك فيجب أن نبحث عن العلة في أساليب الإغراء التي تتبعها هذه المذاهب، والأهداف الشخصية للقادة الذين يمتلكون زمام هذا الهمج الرعاع، وفي الظلم والإجحاف الشديد، الذي يواجهه أولئك الذين إستهدفهم نظام معين من النظام الآخر، وفي المفاهيم الخاطئة التي قد تستحكم في طبقة من الناس حول الوطنية والقومية وغير ذلك، فتمنحها صفة ألوهية محدودة، وأخيراً في بعض صفات السوء التي تتحكم في أمثال أولئك الذين إعتنقوا مثل هذه المبادئ كالكبر، والعناد، والصلف.

كما إننا يجب لا ننسى دور العقد التي تنعقد في نفس الإنسان نتيجة عوامل عديدة، فتعميه وتدعه لا يأبه لكل شيء إلا تحطيم ما يتخيله عدوه، ولو فقد كل شيء. وهل نسينا الحوادث

المتكررة التي يضر الإنسان فيه نفسه أكبر الضرر لا لشيء إلا ليضر عدوه جراء ذلك ولو بأقل الضرر؟ وقد حدّثنا القرآن عن مثل ظواهر العناد والتعقيد كثيراً ومن الموارد التي يذكرها مورد أولئك الذين قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[1]. إنّه منطق العقد فبدلاً من أن يقول هؤلاء اللّهم إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا للإيمان به، يقولون «فامطر علينا حجارة من السماء».

كما أن للطمع المالي والإغراءات المنصبية دورها الفعّال وهل نسينا منطق المرتزقة في (أفريقيا) وهو الموت في سبيل الذهب؟

وكذلك يمكننا أن نضيف إلى جنب هذه العوامل الدور الذي يلعبه التحزب وتعميق الطاعة الحزبية بشكل يفقد الفرد معه شخصيته ويتحول إلى آلة طيعة بيد الحزب أو الفئة المسيرة.

وأخيراً فإنّه يمكن أن نضيف إلى ذلك عامل الغرق في الخيال الكاذب والعيش على موائد أمل التمجيد، حيث يترنح الإنسان حينما يتصور الإنسانية يوماً ما ستصحو على تضحيات هذا البطل فتنصب له تمثالاً في ميدان، أو تطلق إسمه على ساحة كبرى، أو تقيم له احتفالات سنوية متكررة.

لا يمكن للإغراء أن يحل محل الدين:

فإن ادعي بعد ذلك: إننا نستطيع أن نقوم بأداء ما يؤديه الدين في حياة الإنسان، بأساليب الإغراء هذه رغم ضحالتها، فالغاية تبرر الوسيلة! فإنّ جواب ذلك واضح للمتبصر. إذ أنَّ مثل هذه الاساليب إنما هي وسائل وقتية المفعول بنفسها، وتعتد على التخدير الآني للفكر الإنساني، في حين أنَّ أساليب الإيمان بالغيب تتصف بالدوام والعمق في ضمير الإنسان وفطرته، وإستيعاب مختلف الظروف، أي العمل تحت أي ظرف كان.

ومن هنا، فلا مجال للمقارنة بين أساليب الدين، وهذه الأساليب هذا بالإضافة إلى أنّ الروح العدوانية الضيقة، واللاخلقية المقيتة التي تنشرها هذه الأساليب، هي مما يؤدي إلى القضاء تدريجياً على نفس الفكرة التي تتخذ هذه الوسائل لنيل مآربها.

---

١. الأنفال: ٣٢.

عل أنّا، يجب أنّ لا ننسى أنَّه ما من موقف وقفه أحد انصار المبادئ المادية يمكن أنّ يقارن إلى بعض المواقف الصارمة التي وقفها أنصار العقيدة الدينية.

إن الخيال ليكاد يعجز عن أمثال مواقف النبي العظيم ﷺ، وأصحابه الكرام، والأئمة من اهل البيت عليهم السلام، في مجال التضحية بكل غالٍ ورخيص في سبيل تحقيق الهدف.

وهل تقاس مواقفهم إلى مواقف الحسين وأصحاب الحسين عليه السلام مثلاً في صبيحة كربلاء؟!

ولا معنى لأنّ تقام جان دارك مثلاً أمامنا، بعد أنّ إتضح لنا أنّها المرأة التي حركتها تخيلاتها والأرواح الخفية التي آمنت بأنها تناديها نحو المجد. على أنّها على أية حال، لم تكن ذات عقيدة مادية لتكون مادة للإعتراض.

أهم موهنات الأمل المادي:

فأهم ما في الأمل المادي من موهنات يمكن أن يلخص في نقاط:

أ ـ أنه هدف مرحلي، لا يمتلك ما يمتلكه الهدف البعيد الكبير الذي يمكن للإسلام أن يستهدفه من تشريعاته، من طاقات دافعة، ومن نظرة شاملة.

ب ـ إنّه ينسى الإنسان جوانبه الأخرى غير المادية.. ففي الإنسان جوانب أخرى لا ترتبط بالمادة مباشرة، وإنّما ترتبط بالعقل والفكر والوجدان. فإذا استهدفنا في حياتنا هدفاً يؤمن حاجات جزء من كياننا، فانا نكون قد اخللنا بالتوازن الروحي المادي، المطلوب حقاً في حياة الإنسان. ولهذا الإخلال آثاره النفسية والفكرية، فضلاً عن الآثار الإجتماعية العظمى له. ونحن نعلم أنّ الإنسان إذا ما ربي تربية صحيحة ونميت لديه الإحساسات المعنوية، أو ما يسميه البعض بـ«الاحساس الخلقي بالحياة» فإن ذلك كفيل لأن يدفعه وبصورة منتظمة بل ومتصاعدة في الشدة نحو العمل الجاد المجهد، ونحن نرى في أصحاب المبادئ أنهم بعيدون تماماً عن ذلك المستوى. إنّهم لا يحسون بنكهة معينة لعملهم، اللّهم إلا كما تحس الحيوانات بنكهة طعامها ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾[1]. ففرق في الأداء ـ فضلاً عن النتائج ـ بين أنّ يقوم الإنسان بعمل ما يحس من ورائه بأنه أشبع

١. مفاتيح الجنان، دعاء أبي حمزة الثمالي، ص ٢٤٦.

لذة موقتة، وبين أنّ يقوم بنفس العمل وهو يعمل أنّ ذلك جزء من حلقة تنتهي إلى سعادة أبدية، ورقي معنوي رائع.

ج ـ إنه لا يمتلك خاصية التجميع على طريق واحد.. وذلك فإن أي نظام يدعي لنفسه، إنه منفذ الخلاص للمشاكل البشرية، لا يمكنه أن يكون محدوداً بحدود خاصة. وإلاّ كان علاجاً موضعياً قد يضر ـ ويضر بالتأكيد ـ بالمواضع الأخرى، فلأجل أن يكون أميناً مع دعواه، عليه أنّ يخطط للعالم والأجيال البشرية المعاصرة ـ على الأقل ـ وتخطيطه يتطلب أول ما يتطلب، هدفاً عالمياً. وقد يفلح في إصطياد هدف براق جامع، يسميه العالم الحرّ أو العالم الشيوعي أو أو ... ولكنه يجد نفسه في النهاية محكوماً للمصالح المادية التي يسعى جاداً لتحقيق مقتضياتها، وهذا يعني أنّه يظل تتقاذفه رياح المصالح الشخصية. وان تجاوزنا ذلك فالمصالح الضيقة لمجتمع دون اخر... وهذان أمامنا، النظامان الرأسمالي والإشتراكي وكلاهما ينأديان بهدفين براقين، الأول يدعو إلى الحرية، والثاني يدعو إلى الحياة التي ليس فيها إستغلال! هذان النظامان هل سلما ـ في نظرتها المبدئية وتطبيقهما ـ يوماً من الأيام من الأهواء الشخصية أو على الأقل من الأهواء الضيقة لأحد المجتمعات؟ إن نظرة واحدة إلى عملية التعامل الإجتماعي القائمة بين النظامين، بل وبين اتباع النظام الواحد، كافية لاشعارنا، بأنَّ الأهداف المادية رغم كل بهرجتها لا تستطيع أن تجمع البشرية كلها على مقصد واحد في طريق واحد.. وستظل البشرية تبحث وتبحث بمقاييسها التي تخترعها هي.. وستنكشف لها الحقيقة بعد لأي... وأنّه لا علاج لها إلاّ بهدى السماء ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ وإنّ حياتها الدنيا قبل حياتها الأخرى لن تجد لها رونقاً إنسانياً إلاّ في إطاره، وبدون ذلك فالضنك والمصاعب: «ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً».

ولن نسهب هنا في عرض النماذج الواقعية والتاريخية لهذه القضية، بل نكتفي بالإشارة، اقتناعاً منّا بأنّ القارئ الكريم لا يفوته النظر إلى الاختلافات المصلحية الضيقة بين روسيا والصين مثلاً، وبين أمريكا وفرنسا مثلاً آخر، بل بين قادة كل من هذه الدول المبدئية على زعمها ليتأكد أن الأهداف المادية لشخص ما، أو طبقة ما، لا يمكن أن تحدها حدود وتمنعها من التوسع ضوابط، مادام الجانب المعنوي قد أبعد عن مسير الإنسان، وهذا ما يمكن أن نسميه بالطمع. فلن تكتفي الطبقة المسيطرة مثلاً على الحكم في بلد ما بتوفر أسبابها المادية،

وإنما تحاول أن تستزيد وتستزيد، فتسلب الطبقات الأخرى كل حقوقها، بل تدفعها لذة الإنتقام إلى الاعتداء على وجودها وسلبها أقل ما يمكن أن تقوم به الحياة الإنسانية، في حين نلاحظ أنّ الأهداف التي تسمو على مستوى المادة، تمتلك من الضوابط الدقيقة ما يمكنها من إيقاف أي متجاوز عند الضرورة عند حده كما سيأتي شرحه إن شاء الله تعالى.

ولئن اعترض علينا بوضع المسلمين اليوم فإن جوابنا واضح لأن هذا الوضع لا يمثل الصورة الإسلامية المثلى.

د ـ افتقاده للضمان في مرحلة السير إليه أولاً. وفي مرحلة ترتب النتيجة ثانياً:

ونقصد من ذلك أن الهدف المادي مهما كان، لا طريق إلى تحقيقه، ولا ملزم بالسير نحوه، إلاّ الرغبات النفسية والقانون. والرغبات النفسية ليست وفيّة للهدف الواحد دائماً، بل هي متقلبة مع أية ريح تميل بها إلى اهداف أخرى، أو هي متوقفة عند أقل شبهة تثار اماها. وأما القانون فهو صنيعة الإنسان، متى شاء غيره إن استطاع. هذا من جهة حتمية، وأما مع غض النظر عن ذلك فغير خاف، أنّ القانون، إنما يعامل الإنسان على حدّ أدنى من الطاعة، ولا يمكنه ـ بأية حال ـ أنّ ينفذ إلى أعمق جانب وأهمه في الإنسان، ذلك هو الجانب الخفي في تفكيره، والذي يشكل ضمانة الدفع الضرورية لكل عمل متواصل مترابط يتطلب سعياً وصبراً للوصول إلى غايته المنشودة، وحينئذ يكون القانون عاجزاً عن تقديم الضمانة الكاملة للتطبيق. هذا أولاً. وأما الأمر الثاني الذي يفتقد الهدف المادي على أساس منه ضمانة التحقيق، فهو الترابط العلي بين سلوك الطريق المعين من قبل المبدأ، وحصول الهدف المعلن من قبله... فإنه يظل الهدف الذي يرفعه أي مبدأ ما، مجرد شعار وأمل غير مرتبط بالواقع، ما دام معرضاً لإحتمالات كثيرة منها الخطأ في الإجتهاد الذي تصور الترابط، ومنها تبدل الظروف التي يصبح معها الترابط بين السبيل والهدف واهياً، إلى غير ذلك.

في حين يسلم الهدف الديني من مثل هذه النقاط الموهنة، فالإنسان المسلم مثلاً ـ كما سيأتي إن شاء الله ـ يشعر تماماً بأنّه مرتبط بسرّ الكون والحقيقة التي ليس فوقها شيء. وأنّه إن سلك الطريق المرسوم فانه سيصل حتماً إلى النتيجة وإن كان أخطأ الطريق في الواقع.

وسنرى أنّ المسلم ينقطع رجاؤه إلاّ من الله تعالى. ويعتقد أن غير الله لا قيمة له في أية

نتيجة. وهذا ما نراه واضحاً في الدعاء الذي يعلمه الإمام لاتباعه إذ يقول العبد فيه مخاطباً ربه: «ولو رجوت غيرك لأخلف رجائي».

هـ ـ الفشل الظاهري الأول يكفي لزعزعة الثقة بالمبدأ في مجال تحقيقه للهدف. وذلك أمر مهم جداً يسلم منه الهدف الديني. وتوضيحه هو: أنَّه لو إفترضنا أنّ مبدأ مادياً حمل لواء دعوة إلى هدف معين ودعا اليه الإنسانية كلها، ثم نهض بالأمر وامتلك زمامه في منطقة ما، ولكنه فشل في تحقيق ما كان يدعو إليه، فإنَّه حتى لو كان الفشل نابعاً ن ظروف خارجية، فأنَّ ذلك بلا شك، يوضح عدم إمكانياته في تحقيق ذلك الهدف للعالم كله.. في حين لا يكون ذلك موجباً لأي وهن أو ضعف في إتباع الهدف الغيبي. إذ لا يهم أولئك النصر والهزيمة ماداموا قد ادوا واجباتهم إداء كاملاً. لأنهم يعلمون أنّ النتيجة لهم ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[1].

مثال رائع: وتحضرني وأنا أمر بهذا الجانب كلمة قالها بطل الإسلام الخالد الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وعبر بها عن شعور المسلم الواعي الأصيل، بأنّه المنتصر مهما كانت النتيجة الظاهرية.

فحياته عليه السلام في حساب الموازين المادية ـ خسارة ما بعدها خسارة ـ ليس فيها إلاّ العناء، وإلاّ الجهاد، المتواصل والخسران الشخصي المادي، وتألب الأعداء، والأصدقاء وغير ذلك. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهو يلمح مستقبلاً ظلماً كئيباً مخضباً أفقه بدماء أولاده الطاهرين.

كل هذه يحسبه أمير المؤمنين، في لحظة رائعة من لحظات تهجده، والدم يخضب شيبته الكريمة، وهو في محراب مسجد الكوفة، وسم السيف ينفذ إلى أوصاله، يحسب ذلك علي عليه السلام، ثم ينطلق بمقولته الرسالية الواعية الخالدة: «فزت ورب الكعبة».

نعم إنَّه الفوز الكامل: أن يقوم الإنسان الواعي الهادف لأهداف تسع الوجود كل الوجود، بما عليه من واجبات ومهمات وتضحيات فيؤديها خير إداء وفوق ما تتطلب ويعود إلى ربه هادئاً مطمئناً واثقاً حقاً من العطاء الخالد الذي ينتظره.

ولعمري هل يقاس مثل هذا الموقف إلى موقف قادة الشيوعية أو النازية، أو ما إلى ذلك من بادئ مادية، والذين ما أن شعروا بهزيمتهم حتى رأيتهم يتهافتون على الإنتحار...!!

---

١. الأعراف: ١٢٨.

و ـ قطع الصلة الواقعية بين الجيل الحاضر والأجيال الماضية.

وهذا جانب مهم في مجال تعداد موهنات الأهداف المادية. فكلنا يعلم أنّ الأهداف الكبرى ـ والمفروض أن الأهداف المادية كذلك إذ عرفنا أنّها أهداف عالمية ـ لا يمكن تحقيقها بجيل واحد، وإنما قد يحتاج الأمر إلى أجيال وأجيال. فما من مبدأ عالمي امكن أن يحقق أهدافه العظمى في إطار جيل واحد، بل ما من مبدأ إدعى ذلك. وهذا يتطلب حياة دائمة لكل أفراد المسيرة.

وقد قلنا: إن هذا الأمر يتناقض مع الأساس المادي للمبادئ المادية بإعتبار أنها افترضت فوائد تصيب الإنسان بعد موته، مع أنّ ذلك خرافة في نظرهم، وفي هذا المقطع نحاول أنّ نشير إلى نفس النقطة من جانب آخر، وهو جانب الجيل الآتي وتأثره الفكري والعاطفي بالجيل السابق.. فلا ريب في أن كل جيل بنفسه يمتلك منابع الطاقة المحركة التي قد لا يملكها أو لا يملك مثلها الجيل الآخر. واقصد بهذه المنابع أمثال وجود القائد المحنك الذي يستطيع أن يحرك الجماهير بطاقاته، أو وجود الفرقة المنظمة المحكمة التي يجد قدمها وتماسها بالأمة له مساقط في عواطفها لا يمكن أن تنمحي أحياناً، وذلك ملحوظ في الأمة التي امتلكت قائداً معيناً اعطاها كل ما يملك، وعاش معها آلامها وآمالها، فإنّ هذه الأمة ستظل بعد وفاته تعيش إلى زمان يطول أو يقصر ـ حسب قوة التأثير ـ على بقايا شخصيته، وانشدادها بها.

واحسب أننا بهذا المثال قد أعطينا النموذج العالي، ويمكننا أن نجد نماذج على مختلف المستويات تصل إلى التأثير الذي يتركه أب حازم حليم متزن، في ابن نما ومثله الأعلى ذلك الأب، أو معلم عالم أمين مرب في تلميذ تربى على يده واستقى أهدافه من تعليماته، وأخيراً صديق ودود عاقل ذو شخصية جذابة تشدّ إليها نفوس اصدقائه وتربطهم به ربطاً يظل يمتلك القوة الشادة حتى بعد وفاة ذلك الصديق.

ولو تعدينا هذا الإرتباط المباشر بين الجيلين الماضي والتالي، فانا نشاهد عملية ربط أكبر من ذلك، يقوم بدور الوسيط فيها الفكر والقلم البناء، حيث يقدم القائد الفكري مثلاً نتاجه إلى التاريخ ويسجله التاريخ في صفحاته الخالدة، ثم تأتي أجيال وأجيال تتملى ذلك النتاج

وتعشق تلك الروح العالية التي أبدعته، وتروح تستمد منها العزم والاخلاص، وتناجيها في خطواتها الحياتية.

إننا نؤكد على أنّ لكل ما بيناه من أنواع الانشداد تأثيره الفكري تارة، والعاطفي أخرى، والاثنين معاً مرّة ثالثة. وذلك لخلق دفع وعزم وإصرار طموح للعمل، هذا هو الأمر بغض النظر عن ما نريد تطبيقه عليه. وإذا رجعنا إلى مجالنا هذا نجد أن الأهداف المادية لا تملك وبالأحرى فإن اتباع المبادئ المادية لا يجدون في أنفسهم ذلك الدافع القوي المؤثر وذلك الارتباط إلا في الحدود العاطفية الخيالية فقط، وهم يشعرون بذلك ـ ولو في لحظات وعيهم لأنفسهم على الأقل ـ وهذا الشعور كاف للتقليل من الإنشداد إن لم نقل بكفايته للقضاء عليه.

وفي هذه النقطة نجد من الطريف حقاً بل من موجبات السخرية أن يقف قائد مادي على جسد قائد آخر فيقسم له بشرفه أنّه سينتقم له، أو أنّه سيبقى حياً في القلوب أو بقوله: «نم قرير العين فجيلك الذي ربيته على مبادئك سيسير على نفس الطريق... كذا» أنّ ذلك يتناقض مع عقيدته بالروح أو الحياة الأخرى. و و.. إلى غير ذلك.

أما إذا انتقلنا إلى الطرف الآخر، إلى محيط الدين والأهداف الدينية، فإنا سنجد ذلك أساساً من أسس العقيدة. فالمسلم يعتقد في أصول عقيدته أنَّ الإنسان يمكنه أن يعيش عالماً غيبياً آخر غير ما نحس ونتصل به اتصالاً مادياً.

وهناك في ذلك العالم يمتلك بصراً جديداً، ونفوذاً عملياً فريداً غريباً على عالمنا... فهو إذن يرقب من خلفهم وراءه بكل دقة وهو يفرح واقعاً كلما عمل الآخرون له عملاً خيراً، ويسوؤه جداً ما يطلع عليه من إنحراف.

فالجيل التالي في ظل العقيدة الإسلامية يعتقد بكل جدّ، أن الجيل الماضي وفيهم القائد الفلاني الكبير يرقبهم في كل خطواته ويلاحظ كل إنماط سلوكه... بل يمكن القول بأنّ الأمر يزداد تأثيراً بعد الموت عنه في حالة حياة القائد. فلربما كانت حياة القائد المادية تمنعه عن مراقبة أنواع السلوك التي كان يقوم بها أتباعه، ولكنه بعد موته يمتلك تلك الطاقة التي يمكنه بها أن يطلع ويراقب.

وسيأتي إن شاء الله حديث يرتبط بهذه النقطة، عندما نبحث الأمل في العقيدة الإسلامية

والمفاهيم القائمة على أساسها ونربط بينها. وهناك نشير إلى عنصر انتظار القائد المهدي عليه السلام وتأثيراته في حياة الجماعة المسلمة.

الأمل في الإسلام

يحسن بنا قبل أن ندخل في بيان مظاهر الأمل في الإسلام أو منمياته على الأصلح، أن نحدد مفهوم كل من الأمل والرجاء والتمني، كمقدمة لفهم النصوص التي ترد في البحث.

ولأول وهلة، يبدو أنّ الأمل يعني ما يتوقعه الإنسان أو يتطلبه ويتصور وقوعه بما يتعلق بالأمور المادية في هذه الحياة الدنيا في حين أنّ الرجاء يتعلق بالأمور المعنوية التي تدخر للإنسان في عال الغيب. ويختص التمني بعد ذلك بالظن الكاذب والتخمين الخادع.

ولكن هذا التصور الأولي الذي اوجدته كثرة الإستعمال في هذه المعاني غير صحيح كما سيتوضح بعد قليل.

رأي بعض المراجع اللغوية:

يقول المحقق الكاشاني:

الرجاء: الفرح لإنتظار محبوب. فأن حصل أكثر أسبابه صدق اسم الرجاء، وان فقد فالغرور، فإن شك فالتمني[١].

ويقول في مجمع البحرين: الأمل بالتحريك... الرجاء... وهو ضد اليأس ومنه قوله تعالى: «وخيرأملاً »[٢].

وقال الراغب الأصبهاني في مفرداته:

والتمني تقدير شيء في النفس وتصويره فيها. وذلك قد يكون عن تخمين وظن، ويكون عن رؤية وبناء على أصل، لكن لما كان أكثره عن تخمين، صار الكذب له املك. فأكثر التمني تصور مالا حقيقة له»[٣].

---

١. المحجة البيضاء في تهذيب الاحياء، ج ٧، ص ٢٤٩.

٢. مجمع البحرين، ص ٤٢٣، الطبعة القديمة باب الأمل.

٣. المفردات، ص ٤٧٦.

وقال: «والرجاء ظن يقتضي حصول ما فيه مسرة». وعلل تفسير الرجاء بالخوف في قوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾[١]. بأنَّ الرجاء والخوف متلازمان[٢].

وهكذا رأينا أنّ بعضها يفسر الأمل بالرجاء، وبعضها الآخر يجعل الرجاء المبتني على أساس أصل معين نوعاً من التمني وإن كان الإستعمال فيه قليلاً.

الإستعمال في النصوص الشرعية:

يمكننا بملاحظة النصوص الشرعية أن نخرج بالنتيجة التالية وهي: إنّ الأمل والرجاء والتمني كلها تستعمل في معناها اللغوي وهو طلب الحصول، وذلك أعم من حصول الشيء الدنيوي أو الأخروي والقرينة اللفظية أو الحالية هي التي تحدّد أيهما المراد.

فنحن نجد إلى جنب النصوص التي تذم الأمل من قبيل ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾[٣]. وما نجده في دعاء أبي حمزة الثمالي الذي علمه الإمام السجاد عليه السلام إياه، إذ يقول في مقام المعتذر: «فقد أفنيت بالتسويف والآمال عمري »[٤]. وما ورد في دعاء كميل الذي علمه الإمام أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد: «وحبسني عن نفعي بعد أملي«[٥]. وقول الإمام عليه السلام : «اخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل»، والمقصود بها طبعاً بقرينة الحال الأمل الدنيوي الدنيء، نجد إلى جنبها نصوصاً تمدح الأمل مثل ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[٦]. «عظم يا سيدي أملي وساء عملي فاعطني من عفوك بمقدار أملي»[٧] بل يعتبر الإمام عليه السلام الدنيا دار أمل، كما جاء:

«ألا وأنّكم في أيام أمل من وراءه أجل فمن عمل في أيام أمله قبل حضور أجله، نفعه

١. نوح: ١٣.
٢. المفردات، ص ٤٧٦.
٣. الحجر: ٣.
٤. مفاتيح الجنان، ص ٢٤٦.
٥. نهج البلاغة شرح محمد عبده، ج ١، ص ٧١.
٦. الكهف: ٤٦.
٧.بحار الأنوار، ج ٧٧، ص ٣٣٣.

عمله ولم يضرره أجله»[١].

ومن دعائه يقول: «أن تؤمل فخير مؤمل». وفي موضع آخر: «وقد ساقني إليك أملي». والنكتة في الذم والمدح كلها تكمن في متعلق الأمل، فإنّ كان في إطار مادي محض أي مجرد عن الإستعانة بالله تعالى فإنَّه غرور وضياع، كما تقدم في شرح الأهداف المادية، وإنّ كان المتعلق أخروياً أو دنيوياً طريقياً إلى الأهداف المعنوية فهو الخير كل الخير[٢].

يقول عليه السلام: «ان الدنيا تغرّ المؤمل لها والمخلد إليّها»، «أنّ النعمة لن تسلب إلا بكفر يؤملهم بخير الدنيا ظاهراً».

وسيأتي في خلال البحث نصوص وأحاديث توضح هذا المعنى.

وهكذا لفظ الرجاء فقد استعمل في معناه اللغوي، ولكنّا وجدنا أنّ الغالب في استعمالات النصوص الشريفة له، هو فيما إذا كان متعلق الطلب أمراً مشروعاً وغالباً ما يكون معنوياً اخرويا، كما يلاحظ في النصوص التالية: ﴿فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾[٣].

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾[٤].

ويقول أمير المؤمنين عليه السلام: «وقد رجوتك دليلاً على ذخائر الرحمة وكنوز المغفرة»[٥].

«الحمد لله الذي لا أرجو غيره ولو رجوت غيره لا خلف رجائي»[٦].

«يارب أنّ لنافيك أملاً طويلاً كثيراً ـ أن لنا فيك رجاء عظيماً»[٧].

أما التمني فهو يستعمل غالباً ومع القرينة في الأمور الدنيوية، وقد يستعمل في المعاني

---

١. يقول أمير المؤمنينع. «والبصير منها متزود، والأعمى لها متزود».

٢. النهج، ج ١، ص ٩٨.

٣. النساء: ١٠٤.

٤. الكهف: ١١٠.

٥. مفاتيح الجنان: دعاء أبي حمزة الثمالي، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨.

٦. المصدر السابق.

٧.المصدر السابق.

الصالحة، مثل ما ورد في الدعاء «وبلغني مناي ولا تقطع من فضلك رجائي»[١].

وهكذا تكون النتيجة أنّ كل هذه الألفاظ تستعمل في الأمل الصحيح في نظر الإسلام وأن كان الأخير غالباً ما يستعمل في الأمور الدنيوية.

وبعد هذه الالمامة السريعة بالألفاظ ننتقل إلى موضوع بحثنا الرئيسي وهو استعراض روافد الأمل ومقتضيات فعاليته في الإسلام. ومن الطبيعي أن نحاول التعرف على منابع الأمل في مجالين: الأول، مجال العقيدة والثاني، مجال القوانين والمفاهيم المبتنية على أساسها، ونحاول أن نبحث عن الروافد في كل منهما على حدة، بعد الإشارة إلى نكتة مهمّ جداً في البين هي:

الترابط بين أجزاء الإسلام:

فإنّنا نضطر في كثير من الأحيان لتجزئة الإسلام لأجل التوضيح والبرمجة في البحث. فنبحث مثلاً عن أهمية الاقتصاد الإسلامي وأهمية النظام الجنائي وغير ذلك كل على حدة، وذلك على ما فيه من منافع قد يخل بإعطاء الصورة الكاملة الإسلامية العامة، بحيث أنّ التجزي، يخلّ قطعاً بها، بإعتبار أنّ كل ما تحويه العقيدة والتشريع والمفاهيم منطلق من زاوية تقييم واحدة، وملحوظ في الكل منها وجود الأجزاء الأخرى لكي تثمر ثمرتها الكبرى في صياغة إنسانية متكاملة.

وهكذا نحن هنا في بحثنا يجب أن نلتفت إلى التركيب بين روافد الأمل في العقيدة وفي المفاهيم لكي تتوضح لنا الصورة كاملة. ولا يكفي في معرفة ذلك دراسة كل على حدة، بل يجب ملاحظة كل جزء مفهومي في إطار العقيدة التي يقوم عليها، وفي جو المفاهيم الأخرى التي ترتبط به لنعرف ثراء ذلك الرافد.

الفصل الأول ـ روافد الأمل في العقيدة الإسلامية:

يجد الإنسان المتبصر في العقيدة الإسلامية منابع عظمى للأمل الواقعي المحرّك المطلوب

١. المصدر السابق.

لكل سلوك... ونحن هنا سنستعرض إن شاء الله تعالى موجزاً عن معالم العقيدة بما يرتبط وهذا العنصر، بأسسها الثلاثة، التوحيد والنبوة والمعاد، وتفريعاتها، ثم نعقب ذلك ببحث حول القوانين التي يحدّثنا القرآن عن أنّها تحكم هذا الكون بالإضافة للقوانين الطبيعية، ثم نستعرض النتائج التي يمكن أن نستخلصها بعد الوقوف على مثل هذه الأمور وأثرها في رفد الأمل المحرّك عند الإنسان.

التوحيد:

وملخص نظرة المسلم إلى الواقع الموضوعي[١]، أنّ كل ما هناك في الكون من موجودات وحوادث، سواء كانت واقعة تحت الحسّ الإنساني أو غير قابلة للوقوع تحته، وسواء كانت في أعماق المحيطات، أو في آفاق السماوات، أنّ كل ما في الكون على العموم يرتبط بمركز قوة واحد، ومصدر عطاء واحد ارتباطاً قوياً جداً، بحيث لا يمكن تصور الانفصال، بل يعتقد أنّ الكون كله إنما هو مجرد ارتباط وجودات حقيقتها الإرتباط، وواضح أنّ الوجودات الإرتباطية لا تقوم إلا بالوجود المستقل بنفسه المفيض على غيره ما يحقق وجوده وبقاءه، ذلك الصدر الأعلى والمبدأ الأول هو الله تعالى الماسك بزمام الكون. وعند التفصيل أكثر والانتقال إلى صفاته تعالى فأنَّ المسلم يعتقد ـ على ضوء تعاليم الإسلام ـ أنّ الله خالق الجميع بلا فرق بين جنس وجنس، وعنصر وعنصر، وحي وغير حي، وهو ربّ كل الأشياء في الكون. (الحمد لله رب العالمين) فهو الاله للعالم. وهو الاله الواحد المسيطر على كل فعاليات الوجود. فهو إله القدرة والبركة والبحر والصحراء وكل ما يتصور، وأنّه لا يتصور الإرتباط القرابتي له مطلقاً من نسبة ولد أو زوجة أو بنت له تعالى فنسبته إلى الجميع نسبة واحدة، وهي نسبة الخالقية، وهو مسبب الأسباب كلها ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾[٢]. والمطلع على كل ذرة في الكون ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾[٣]. وهو الإله الحي، بمعنى

١. سنحاول هنا الخلط بين الصفات الذاتية والفعلية لسبب موضوعي.

٢. الاعراف: ٥٤.

٣.الانعام: ٥٩.

أنّ حقيقته هي الحياة ﴿اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[١]. فحياته هي علمه وقدرته، وهو الإله الأبدي والأزلي بمعنى أنّه فوق الزمان وفوق المكان، وأنّه الحقيقة المطلقة التي لا تتقيّد بأي منهما فنسبته إلى الجميع واحد ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ﴾[٢].

وهو الإله القادر قدرة مطلقة أيضاً بلا حدود. وهو الإله السميع البصير، وهو الإله القيوم، والقهار والرؤوف إلى ما هناك من صفات الكمال والجمال.

فخلاصة الأمر:

إنّ الله في الصورة الإسلامية، هو الحقيقة المطلقة التي لا تحدّ قدرتها وعلمها وحياتها حدود.

وهذا يستلزم في النهاية أن يكون تعالى منزها عن كل قوانين المادة. فكيف تحكمه وهو خالقها والمادة معاً، فليس هو بمركب ولا قابل للتغيير، وهو غير محتاج للمكان والزمان، ولا تأخذه سنة ولا نوم.

وملخص الصورة، أنّ الكون كله محكوم لتلك القدرة الحكيمة الخالقة المسيطرة التي لا يعزب عنها مثقال ذرة: في الأرض أو في السماء.

النبوة:

ويعتقد المسلم أن مسألة النبوة تطرح نفسها من خلال ضرورات كبرى هي من أمثال:

ضرورة وجود القانون الذي يقوم بمهمة الحفاظ على المسيرة البشرية، وتنظيم أمورها وضمها في درب واحد نحو تحقيق السعادة بأقصى درجاتها.

وضرورة كون هذا القانون محيطاً بكل جوانب الاحتياج البشري، وملائماً ومقيماً العدالة بينهما، وهذا ما لا يتأتى للإنسان أن يصل اليه تماماً ومن هنا نبعت الضرورة للإستمداد من الخالق الجبّار المحيط العالم بكل ذلك. وتبقى بعد ذلك ضرورة أنّ يبعث الله تعالى هذا القانون ويوصله إلى البشرية، مربياً إياها على مراحل وهذا كله بمقتضى لطفه ورحمته تعالى، وهما من صفات الكمال.

---

١. البقرة: ٢٥٥.

٢.الحديد: ٣.

وأخيراً ضرورة أنّ تبعث الرسالة إلى الإنسان على يد أفراد من البشر مؤمنين طاهرين، يؤدونها بكل إخلاص بعد أنّ يتسلحوا بما يثبت للإنسانية إتصالهم الغيبي وسفارتهم المقدّسة عن السماء. وقلنا ضرورة ذلك ونحن نعني ما نقول: إذ لا يمكن أنّ يقود الإنسانية إلاّ أفراد منها يعيشون معها ويقدمون لها النموذج الإنساني الأفضل، ومن هنا كان الإعتقاد بنبوة الأنبياء الكرام عليهم أفضل الصلاة والسلام.

كما ويعتقد المسلم أنّ الأنبياء كلهم، بعثوا إلى غاية واحدة، وهي تعبيد الإنسان لله. بمعنى أن ذلك هو الواقع الذي يجب أن يسود البشرية، لتبصر حينذاك طعم سعادتها الحقيقية، سواء في الجانب المادي أو في الجانب المعنوي وأنّهم ساروا بالتدريج مع الإنسان يربونه على مراحل، شيئاً فشيئاً. وتختلف عندهم النظم بمقدار قابلية إنسان عصرهم، ولكن الأسس واحدة، وأن اختلفت في درجات توضيحها وتركيزها وفقاً للمستوى العقلي السائد في كل مرحلة.

كما ويعتقد المسلم، أنّ الإسلام هو الدين النهائي أو الوصفة النهائية التي قدمتها السماء علاجاً لكل أدواء الأرض بكل أجيالها وأزمانها، وأن فيه ما يتكفل إيصال ركب الإنسان إلى غايته المنشودة.

الامامة:

ويستمر المسلم الشيعي في الخصوص بالإعتقاد بوجود أوصياء اثنى عشر اختيروا من قبل السماء وبمقتضى مؤهلات عقائد وقيادية عالية منهم، وأنّ أرادة الله شاءت أنّ تحفظ آخرهم من نقمة الظالمين فتمنحه بقدرتها الخارقة صفة الغيبة عن الأنظار. فهو إذا المدخر لإحياء دين النبي، وتقويم الشريعة، وإستثمار جهود الأنبياء في دولة العدل الكبرى في اليوم الموعود، محققاً بذلك كل الآمال التي طمحت إليها كل الأمم والملل.

وفي مجال صفات هذه السلسلة الطاهرة من لدن آدم، يعتقد المسلم أنّها أيضاً جامعة لكل صفات الكمال في الإطار البشري أي بمعنى أنّها تجمع صفات الكمال التي يمكن أن يتصف بها إنسان بشر محكوم لكل قوانين المادة.

فهم الطاهرون المؤمنون الواعون المضحون، بعيدو النظر القائمون على تبليغ رسالة

الله للإنسان، المحبون للإنسانية العاملون على رفعتها، ودفع ركبها نحو الغاية المنشودة من كل ذلك.

المعاد:

ويعتقد المسلم بالمعاد كركن ثالث من أركان عقيدته، وملخص عقيدته فيه، أنّ الإنسانية ستنتهي من خلال مسيرتها الطويلة إلى مرحلة أخرى من مراحل تكاملها بعد أن تطوى حياتها الحالية بكل ما فيها من سعادة.. وشقاء وخصائص أخرى وهناك الثواب والعقاب العظيمان.

هذه هي أصول العقيدة الإسلامية وتتفرع منها تصورات لها دورها الكبير في مجال تنمية الأمل الإيجابي الفعّال.

الفصل الثاني ـ التصورات النابعة من العقيدة:

واهم هذه التصورات ما يأتي.

١. مسألة القضاء والقدر:

في مطلع الإشارة إلى بعض القوانين العامة المتحكمة في الكون، نود أنّ نكون على ذكر من روح مسألة القضاء والقدر، وخلاصة الأمر أنّه قد شطت فيها الكثير من العقول، وانقسمت لأجلها الآراء على طول خط الزمن الطويل، فبين من فرضت عليه مسألة الإيمان بعمومية قدرة الله تعالى وعدم تحديد مشيته في مورد ما أنّ يقول بالجبرية. مما كان له أبعد الأثار في عملية التقاعس عن مقارعة الباطل، وشدّ أزر الأقوياء للتحكيم بدماء الأمة، بحجة أنّ ذلك قضاء وقدر إلهي، وكذلك موت روح الإبداع والتسابق نحو الخير، إذ ما الداعي لذلك والإنسان محكوم لتلك القوة الجبارة المتحكمة. وبين من فرضت عليه مسألة الوجدان القاضي بأنّ الإنسان مختار في أعماله وليس مجبوراً على عمل أي عمل، أنّ يقول بالتفويض الكامل، وتحديد المشية الإلهية.

ومنهم فريق ثالث أقتصر على تخصيص آثار المشية الإلهية في خصوص ما عدا أفعال الإنسان الإختيارية.

ولا يهمنا إلاّ الإشارة لهذه الأقوال لنخلص إلى أنّ الواقع الذي لا يقبل الرد هو أنّ المشية

الإلهية لها عموميتها، وأنّ الحرية الإنسانية أيضاً لها وجودها، على أساس أنّ إرادة الله تعالى ارادت لنظام العلية أن يقوم بعمله خير قيام بنفس الإرادة عينها التي خلق العالم بها. بجريان نظام العلية هو بنفسه معلول للمشية الإلهية. ونفس هذه الإرادة هي التي اقتضت أن يصدر العمل الإنساني. بمقتضى إختيار الإنسان. هذا هو الواقع الذي يؤيده الوجدان والدليل العقلي، وهو الذي التزمته مدرسة أهل البيت عليهم السلام حينما أعطت رأيها في هذه المسألة. كما أنّه الذي فهمه المسلمون الأوائل ببساطتهم قبل أن تطغى عليهم الشبهات التي أثارتها الفلسفة المستوردة.

فلم يكن اعتقادهم بالقضاء والقدر ليمنعهم عن أن يسألوا الله خير قضاء وخير قدر، وعن العمل والدعاء في آن واحد.

والذي يجب أن نلتفت إليه أيضاً في المسألة، هو النظر إليها من الزاوية الإلهية الإسلامية.

وقيّدت النظر بالإلهية، لأنفي انحصار العوامل والعلل في الكون بالعلل والعوامل المادية، ولأثبت ـ كما عليه النظرة الإلهية ـ تأثيرات أخرى لعوامل معنوية لها أثرها الكبير في تعيين المصير وذلك كما سيأتي في ما بعد، وقيّدتها بالإسلامية، لأجل أن أنفي ذلك التشويه الذي أصاب العوامل المعنوية فجعلها عوامل محدودة، ولصالح طبقة معينة كما رأيناه مثلاً عند اليهودية.

ولكن من أين لنا أن نستقي ونتعرف على ماهية هذه العوامل المعنوية؟ لا طريق لنا إلى ذلك إلاّ ما يخبرنا به الوحي الصادق لأنَّه منطلق من منبع الحقيقة، ومطلع على أسرار الكون التي تخفى بطبيعتها الأولية علينا معشر بني الإنسان.

والحقيقة أنّ القرآن الكريم يكشف للمسلم الكثير من هذه القوانين العامة، والتي سنرى تأثيراتها في عملية صياغة الأمل الدافع الإيجابي.

وإننا إذ نعرض لبعض هذه القوانين لا ندعي إننّا استكملنا الصورة التي يريد القرآن إعطاءها عن الروابط في الكون، وأنا أحطنا بتمام العناصر الدخيلة في نوعية القانون. وإنما نتخذ صفة المشير إلى هذا القانون ولو بشكل إجمالي لنحاول أن نعرض إلى دوره في صياغة إيجابية الأمل.

٢ ـ الحق سر الكون

قول الراغب في مفرداته ـ بتصرف ـ:

«صل الحق المطابقة والموافقة كمطابقة رجل الباب في حقه لدورانه على إستقامة. والحق يقال على أوجه:

الأول: يقال لوجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة. ولهذا قيل في الله تعالى هو الحق ﴿ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق﴾.

الثاني: (للموجد بحسب مقتضى الحكمة. ولهذا يقال الله تعالى كله حق ﴿وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾.

الثالث: من الإعتقاد بالشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه. كقولنا: اعتقادنا فلان في البعث والثواب... حق ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾.

الرابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب وبقدر ما يجب وفي الوقت الذي يجب. كقولنا: فعلك حق (حق القول مني لأملأنّ جهنم) »[١].

ويمكننا أنّ نستنتج من مجموع هذه الاستعمالات أن الحق يعني باختصار: الأمر الواقع أو الواقعي.

ونقصد بالواقع: الموجود المتعين في الواقع الموضوعي أو العالم المستقل عن الصور الذهنية، وبالواقعي الأمر الذي يطابق مقتضيات الواقع الخارجي.

وأروع إنطباق للحق هي في الذات الالهية بإعتبار أنّها بلغت من الوضوح لدى الفطرة الإنسانية بحيث عاد الإيمان بها إيماناً بديهياً فأنوار الله تعالى قد غمرت الوجود فلم تعد تبصر الاّه تعالى في كل شيء، لذا كان هو الحق الذي لا مراء فيه والواقع الذي لا يشك فيه.

أما ما عداه تعالى من مخلوقاته وتشريعاته التي أسماها القرآن بالحق فهي ـ كما أرى ـ اكتسبت صفة الحق من وجهتين:

أ ـ من كونها واقعاً موضوعياً وهذا كما نشاهده في قوله تعالى (يوم يقوم الناس بالحق)[٢]. فيلاحظ هنا التأكيد على الأشياء الخفية عن حس الإنسان وإعطائها صفة كونها حقاً لتركيز الإيمان بها.

---

١. المفردات للراغب الأصفهاني، ص ١٢٥.

٢.المصدر السابق.

ب ـ من كونها وجدت وفق مخطط إلهي عام للكون، كل جزء فيه ضروري لسير الحركة الكونية، ودخيل في تحقق الغاية المرجوة من الخلق التي أرادتها العناية الإلهية منذ ارادت أن يكون فكان، وفي هذا القسم الثاني تدخل كل الأشياء سواء كانت مخلوقات تكوينية أو قوانين تشريعية. يقول تعالى:﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾[١].

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بالحق﴾[٢].

﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ﴾[٣].

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾[٤].

﴿قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾[٥].

﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[٦].

٣. العدل يسري في انحاء الوجود:

رغم أن البحث الكلامي والجدل الذي دار بين الفرق الإسلامية كان ينتهي أحياناً إلى نتائج معيّنة، يتغلب فيها أنصار العدل حيناً، وتقوى الشبهات فيغلب أنصار رفض العدل حيناً آخر، فأنَّه مما لا شك فيه لدى المسلم: أنَّ العدل ـ بأي معنى من معانيه ـ يبدأ بالعدل الإلهي بمفهومه الإجمالي الذي حدّثنا عنه القرآن الكريم، وينتهي بتطبيقاته في كل ذرة من ذرات الوجود.

فالعدل العام إذن في إعتقاد المسلم قوة أخرى وعامل قوي من العوامل المعنوية، التي تتدخل لصالح القضية العادلة في الكون... والظلم بنفسه يشكل عاملاً من عوامل الزوال والفناء، بغض النظر عن العوامل الأخرى.

١.البقرة: ١٧٦.

٢.الأنعام: ٧٣.

٣. الأعراف: ٨.

٤. التوبة: ٣٣.

٥.يونس: ٣٥.

٦. العصر: ٣.

هذا بإيجاز ملخص نظرة المسلم العامة، ولا مجال للإفاضة فيها أكثر، فلنلاحظ الآيات التالية:

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾[١].

﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[٢].

﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ﴾[٣].

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن ظَلَمُواْ﴾[٤].

﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[٥].

﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾[٦].

﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[٧].

﴿وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[٨].

﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾[٩].

﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾[١٠].

﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ﴾[١١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ﴾[١٢].

---

١. الشورى: ١٥.

٢. النحل: ٩٠.

٣. الأنعام: ١١٥.

٤. هود: ١٠١.

٥. البقرة: ١٢٤.

٦. النمل: ٥٢.

٧. النساء: ٤٠.

٨. الكهف: ٤٩.

٩. الأنبياء: ٤٧.

١٠. غافر: ١٧.

١١. آل عمران: ١٨.

١٢. النساء: ١٣٥.

٤. الحب إطار العلاقات بين مختلف أنحاء الوجود:

ومما يعتقد به المسلم على ضوء القرآن الكريم: أنَّ هناك إطاراً رحيماً عاماً شاملاً لكل أنحاء الوجود، وسارياً في مختلف أنواعها، فالعلاقات بين الخالق والمخلوقين يؤطرها الحب، والعلاقات بين المخلوقين المتحدي الهدف والمتأدبين بأدب السماء روحها الحب، وحتى العلاقة بين المؤمنين في الكون وبين أجزاء الكون التي لا تمتلك شعور الإنسان، حتى هذه العلاقة، يحكمها الحب المتبادل.

ومبررات هذا الحب واضحة تماماً على ضوء العقيدة الإسلامية وتعاليم القرآن، فإذا بدأنا بالإطار الودي القائم بين الإنسان وربه أدركنا أروع علاقة حب تتفاوت درجاتها، من حب يقوم على المصلحة في طرف الإنسان ولكنه على أي حال حب جارف، إلى حب خالص واع يعبر عن قمة في هذا المعنى، أنّه حب الأوصياء المخلصين.

والإسلام يمتلك خاصية أنّه يبدأ بالأشياء ببداية بسيطة، كأقامة حب يقوم على ذلك الأساس المصلحي، ثم يرتفع به إلى مستوى يجعله جزءاً من كيان الإنسان. ودافعاً ذاتياً يتحكم في سلوكه، ويوجهه لصالح القضية الإنسانية العامة.

أما الحب من طرف الباري جل إسمه، فهو وأن كان يخلق في نفوس السذج من المؤمنين نفس الإيحاءات والتصورات البشرية من الحب بين الكائنات، ولكنه في الواقع أسلوب تعبيري عن القرب من العطاء الإلهي والاختصاص بالرحمة والرضوان بصورة أكبر من ذي قبل. وإنني قد أجزم بأنَّ الإيحاء الأول حاصل حتى عند بعض أعمق المؤمنين بالله تعالى بالنظرة الأولية: وأنّ هذا أيضاً بنفسه مطلوب ومقصود. إذ أن الحب حرارة ولوعة وشوق، والنصوص القرآنية الكريمة تركز على عملية خلق الانفعال وشدّ العواطف للباري عزّ وجلّ بأساليب، منها بل أعظمها الدوافع الناتجة من تصور الله تعالى يلقي بظلال المحبة على الإنسان العابد.. ويمكن للقارئ الكريم التأكد من ذلك بمراجعة وجدانه الحاكم في مثل هذه الموارد.

فالنصوص تثبت الحب لأصناف المؤمنين الواعين، من أمثال (المحسنين، التوابين، المتطهرين، المتقين، الصابرين، المتوكلين، المقسطين، الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم

بنيان مرصوص) والنصوص تثبت الحب بين أفراد المؤمنين ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾[١].

والنصوص تربط بعلاقة الحب بين الإنسان والطبيعة، بعد أن يشعر الإنسان بأنّ الطبيعة مسخرة له ولصالحه هو، وبعد الإيحاء إليه بأنّ يد العناية الإلهية قد باركت في الأرض أقواتها.

وقد ورد عن النبي العظيمﷺ أنه قال عندما رجع من غزوة تبوك وعندما أشرف على المدينة: «هذه طابة، وهذا جبل أحد يحبنا ونحبه»[٢].

كما عبر عن ذلك بأن «حب الوطن من الإيمان»[٣].

وهكذا ننتهي إلى حلقة رائعة من حلقات هذا الحب، جعلها القرآن بمثابة أجر للرسالة الإسلامية، والجهود التي بذلها الرسول الأعظم في خدمة هذه الأمة، وهي حلقة ربط الأمة كل الأمة بأهل البيت الذين هم خير مؤهل لقيادتها نحو شواطئ الإمان، والذين هم سفن النجاة، وباب حطة للعالمين».

﴿قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[٤].

وأخيراً ننتهي إلى حلقة صغرى من حلقاتها، وهي المودة القائمة بين الزوجين ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[٥].

وتعتبر النصوص على جوانب النفي مكملة للنصوص الإيجابية، فإنَّ تلك النصوص تؤكد تارة على انقطاع صلة الحب بين الله والعباد الذين خرجوا عن أمر ربهم، من أمثال (المعتدين، الكافرين، الظالمين، من كان مختالاً فخوراً، من كان خوناً أثيماً، المفسدين، المسرفين، الخائنين، المتكبرين، الفرحين).

وأخرى على انقطاعها بين أفراد الإنسان: الذين يهتدون بهدى الله والذين استزلهم الشيطان

---

١. الحشر: ٩.

٢. راجع سفينة البحار، ص ٦٦٨.

٣. ميزان الحكمة، ج ١٠، ص ٥٢٢ الوطن، حب الوطن...

٤. الشورى: ٢٣.

٥. الروم: ٢١.

إلى الكفر ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[١].

النتيجة

من مجموع هذا نستخلص هذه النتيجة:

(أنَّ المسلم يعتقد بأنَّه يعيش في عالم من الحب المتبادل).

ولهذه العقيدة تأثيرها الواسع الأبعاد على خلق الأمل في نفس الإنسان: الأمل الإيجابي الدافع نحو سعادته ورقيه. كما سيأتي إن شاء الله.

على أنَّنا نعترف هنا بأنا لم نف الموضوع حقه في نفسه، لكننا يجب أن نتذكر أننا لا نبحث هنا عنه إلاّ بمقدار ما يوضح لنا الصورة التي نريد أن نرسمها ـ فيما بعد ـ عن روافد الأمل في ذهنية المسلم الفرد، والمسلم الأمة..

٥. الرحمة: بها انطلق هذا الوجود الكائن:

«بسم الله الرحمن الرحيم».

هذا المقطع المبارك يعتبر أروع مقطع جامع يعبّر عن سر العقيدة الإسلامية، فقد وردت بعض الروايات التي تركز على أنّ القرآن جمع في سورة الفاتحة، وأن سورة الفاتحة جمعت في البسملة... وعند تحليلنا لهذا المضمون لا يسعنا إلا أن نرى أنّها تشير إلى: أنّ سورة الفاتحة إنما اعتبرت روح القرآن باعتبار أنّها تحوي أصول العقيدة الإسلامية بصورة إجمالية، والقرآن قد أطر كل شيء تحدّث عنه بإطار العقيدة.

أما إذا انتقلنا إلى المرحلة الثانية، فسنجد أنّ البسملة نفسها شكلت روح العقيدة واساسها، إذ ركزت على انطلاق كل شيء في الوجود من اسم الله تعالى في مقطعها الأول، وعن الإطار الذي تم بموجبه ذلك الانطلاق بمقطعها الأخير.

فالانطلاق: «بسم الله» وموجبه: (الرحمة التي لا حد لها).

وهذه حقيقة نجدها متمشية في مختلف المواضع من القرآن الكريم، معبرة عن مظهر من مظاهر الكمال في الذات الإلهية، مما خلق اعتقاداً راسخاً عند المسلم: أنّه منطلق من مصدر

---

١. المجادلة: ٢٢.

الرحمة، ومنته إلى عالم الرحمة، وسائر في كنف هذه الرحمة، التي تتجاوز عن الكثير من موارد الانحراف التي تطرأ أحياناً على سلوكه.. وسنجد عند استعراضنا لاثار الدعاء: الكثير من الأساليب التربوية العقائدية، التي تركز على هذا الجانب، في الأدعية المنقولة عن المعصومين عليهم السلام.

وفي القرآن الكريم نجد الكثير من الآيات الكريمة التي تقرن صفة العزة الإلهية بالرحمة، وتنتهي بعبارة: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾[١].

أو بعبارة: أنه «خير الراحمين»، أو «كتب على نفسه الرحمة» أو ﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾[٢]. وهكذا الآيات الشريفة:

﴿فَقَدْ جَاءكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾[٣].

﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾[٤].

﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[٥].

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾[٦].

﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[٧].

وحتى في أشدّ المواقف هيبة ورهبة تأتي صفة (الرحمن):

﴿وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾[٨].

وهكذا يعتقد المسلم بعنصرين آخرين بالإضافة إلى عنصري الحق والعدل ـ اللذين يعنيان التوازن أول ما يعنيان ـ وهما: الحب والرحمة، اللذان يعنيان: الفضل من الخير والإعطاء فوق الاستحقاق.

---

١. الدخان: ٤٢.

٢. الأنعام: ١٣٣.

٣. الأنعام: ١٥٧.

٤. الاعراف: ٥٦.

٥. الروم: ٥٠.

٦. الزمر: ٥٣.

٧. طه: ٥.

٨. طه: ١٠٨.

وبهذا نكون قد عرفنا في ما مضى القوانين الأساسية المتحكمة في الكون، وهي قوانين: (الحق والعدل والحب والرحمة).

الفصل الثالث ـ القوانين الفرعية

وقد كان الإيمان بهذه القوانين منبعاً للإيمان بقوانين فرعية قد ترتكز على واحد منها أو على أساس منها جميعاً، فلنستعرض أهمها في مايلي:

١. لا مكان للباطل

أمّا في الأمور التكوينية، فلأنّها لا تمتلك شيئاً من عناصر الاختيار، فلا عنى لوجود الخلق الباطل فيها بعد الإيمان بحكمته المطلقة تعالى.

وأمّا في الأمور التي ترجع إلى سوء فعل الإنسان وتصوراته وإيحاءات الشيطان ومغوياته، فالباطل وأن كان متصوراً أن يسود في بعض الأزمان، ألا أنَّه سيكون نشازاً على الطبيعة الكونية، وعلى الطبيعة الإنسانية، وهذا النشاز سيظل يؤتى ثماره الفضيعة في حياة الإنسان ما لم يعمل على إذابته والرجوع إلى الأمر الحق الذي يطابق الفطرة الإنسانية ويتلاءم مع الطبيعة العامة وقوانينها، وهذا الأمر لن يعلم بالطبع إلاّ من قبل الوحي الآتي من خالق هذا الكون، والمطلع على نواميسه، ومن هنا قال تعالى:﴿قُلِ اللّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾[١].

﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّ يَهِدِّيَ إِلاَّ أَن يُهْدَى﴾[٢].

فالكون ـ إذن ـ بتنظيماته: ضد الباطل الذي حدده لنا المطلع على حقائق الأمور ﴿وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[٣]. والملاحظ في تعبير «زهوقاً»: أنّه يعني أنَّ الأصل في الباطل الفناء والزوال، وذلك مما يقوي الأمل في القضاء عليه.

ومن هنا أيضاً تتوضح فكرتنا عن قوانين أخرى في طول هذه الحقيقة.

١.يونس: ٣٥.

٢.يونس: ٣٥.

٣.الإسراء: ٨١.

٢. النصر للمؤمنين:

وهذه قاعدة نرى في كثير من المواطن التأكيد عليها من قبل القرآن والنصوص الشريفة. وهي تقرر أنَّ الله تعالى يتكفل إيصال المؤمنين إلى النصر والفوز وتحقيق الآمال، إن كانوا هم الذين بدأوا المسير، واخلصوا النيات، واستهدفوا ما يعبر عنه القرآن بنصر الله، وهو تعبير جميل عن نصرة الحق، وهي عملية رفع التنافر بين القانون والسلوك الاعتباري وبين الواقع الطبيعي العام، وارجاع الجزء النافر إلى حيز المسيرة المتوائمة المتوازنة.

وهكذا تطالعنا الآيات القرآنية الشريفة التالية:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[١].

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٢].

﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ﴾[٣].

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٤].

﴿وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾[٥].

أنّ الإسلام يعتبر مسيرة الإنسان منذ انطلاقها حتى نهايتها مسيرة واحدة، ويقيس على أساس من هذه الوحدة كل العوامل الدخيلة في تحقيق الغرض العام، وهو التكامل. بل نستطيع أن نتجاوز هذا الإطار الإنساني إلى الإطار الكوني العام فندعي: أنّ الكل يمتلك ذلك الهدف العام ويعمل على تحقيقه. ولذا فكل إنسان ساهم في الدفع نحو ذلك الهدف العظيم منتصر على المدى الطويل وان اعتبر منهزماً في فترته الموقتة، ويحق له بذلك أن يعتبر نفسه أينما كان منتصراً منذ الآن! أنّ سلسلة المؤمنين عبر التاريخ كلها تشترك في أي عمل رسالي يقوم به فرد من هذه السلسلة في أي زمان كان! ومن هنا نستطيع أن نفهم قول الإمام

١.محمد: ٧.

٢. غافر: ٥١.

٣.آل عمران: ١٦٠.

٤. الحج: ٤٠.

٥. آل عمران: ١٢٦.

أمير المؤمنين، وذلك لما أظفره الله بأصحاب الجمل فقال له بعض أصحابه: وددت أن أخي فلاناً كان شاهدنا، ليرى ما نصرك الله به على أعدائك؟ فقال له‌ عليه السلام: «أهوى أخيك معنا؟ فقال: نعم. قال فقد شهدنا، ولقد شهدنا في عسكرنا هذا أقوام في أصلاب الرجال وارحام النساء سيرعف بهم الزمان، ويقوى بهم الإيمان»[١].

٣. العاقبة للمتقين:

بعد ملاحظة قانونية الحق والعدل، يستطيع الإنسان أن يدرك بوضوح هذا القانون القرآني العظيم الذي يجسد آمال البشرية الخيرة: في وصول النخبة الممتازة ـ أخلاقياً، وعقائدياً ـ إلى منصة القيادة، وامتلاكها العاقبة الحسنة في النهاية الطيبة.

فالقرآن الكريم يصرح:

﴿إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾[٣].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[٤].

وهذا ما بدت تباشيره تلوّح في الأفق، فقد رأينا العالم اليوم يحاول أن يعود ـ ولو بحياء ـ إلى تعاليم الإسلام العظيم، بعد أن جرب كل النظم، وسلك مختلف المسالك البشرية، وذاق صنوف العذاب والألم، وضاق من التركاض في مسارب التيه!

إنّ تباشير العودة تلوّح في أقوال القادة والمفكرين الداعين لدراسة العقيدة الإسلامية والتشريع الإسلامي بعمق، والاستفادة من كنوزهما الثمينة! والأمر يحتاج بعد ذلك إلى أن نعي الواقع العالمي القائم اليوم، ونعي اسلامنا بعمق، ومواقفه من المشاكل العالمية المعقدة، ونقوم بنبذ كل لهو داخلي، لأجل الاعداد لحملة توعية للعالم، والاستعداد لامتلاك أزمته بصورة ليست

١.نهج البلاغة، ج ١، ص ٥٥.

٢.الأعراف: ١٢٨.

٣. طه: ١٣٢.

٤.محمد: ١٠.

بالصعبة، بعد أنّ افلس النظام الغربي، والذي يعترف بأنَّه لا يجد بديلاً له إلاّ في الإسلام! وبعد كل هذا فالأمة يحق لها أن تنتظر القائد الذي: يظهر فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً.

٤. العمل الصالح والسيئات:

إن القيام بالعمل الصالح الإيجابي نفسه يشكل احد ابواب سعة الأمل عند المسلم بعطاء الله تعالى. فبالإضافة للأبواب المفتحة السابقة إعتبر الإسلام القيام بالحسنة طريقاً من طرق الرجوع إلى الله، ليؤكد عفو الله وغفرانه، ويعمل على محو السيئات من سجل أعماله الماضية، فينجيه، من تبعاتها وعواقبها، وأقل ذلك ما كانت سوف تؤدي إليه من موقف مخز. يوم تجتمع الخلائق في ظل حساب الله و﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾[1].

فإذا تم محو السيّئات والسوابق السوداء، انطلق الإنسان المسلم بصحيفة ناصعة البياض، غير قلق ولا متوان، وبكل أمل، ليحيا حياة العمل الصالح في سبيله وسبيل مجتمعه والإنسانية جمعاء. والآيات التي تتعرض لهذا الجانب على نوعين:

النوع الأول:

ما يظهر منه أنّ الاتيان بالحسنة والعمل الصالح لا يقتصر تأثيره على محو السيئات الماضية، بل يقوم ـ بإذن الله ـ بتبديل السيئات الماضية إلى حسنات! وهذا مما يشعر الإنسان المسلم برحمة الله الواسعة التي قابلت كل هذه الإساءة ـ ومنها الشرك بالله، وهو اعظم السيئات ـ بهذا الفضل العميم، فحولتها إلى حسنات ينال عليها الأجر، كما لو كان فعلها من قبل واقعاً! يقول القرآن الكريم في معرض صفات المؤمنين:

﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾[2].

---

١. الحاقة: ١٨.

٢.الفرقان: ٦٨ـ٧١.

النوع الثاني:

ما يبدو منه أنّ الاتيان بالحسنة يعمل على محو السيئة فقط، أمّا التبديل فلا تتعرض له.

ومنها: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾[١].

ومنها في صفات المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُواْ ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً وَيَدْرَؤُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾[٢].

فقد نقل صاحب (مجمع البيان) عن ابن عباس أنه قال: أنّها تعني.. «يدفعون بالعمل الصالح السيء من العمل».

كما روي عن النبي ﷺ قوله لمعاذ: «إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها».

كما أنَّ هناك قولا بأنَّهم يدفعون إساءة من اساء إليهم بالإحسان. وقولا بأنَّهم يدفعون بالتوبة معرة الذنب[٣].

فإذا عرفنا وجود هذين النوعين. من الآيات فكيف التوفيق بينها؟ ذكروا للإجابة وجوها:

الأول: أنّ يقال: بأنَّ الآيات كلها تشير إلى حقيقة واحدة، هي أنّ العمل الصالح والحسنات تربي النفس الإنسانية على الفضيلة والاستقامة، مما لا يدع مجالاً للسيئات في حياة الإنسان ويتوضح ذلك خصوصاً إذا لاحظنا آية:﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾[٤].

كما أنَّ ورود عبارة «يدرؤون» تشير إلى أنّه يدفعون السيئات قبل ورودها، فالدرء والتدرى: هو الدفع[٥]. كما نجد في الاستعمالات التالية: ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾[٦]. ﴿فَادْرَؤُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾[٧].

---

١. هود: ١١٤.

٢. الرعد: ٢٢.

٣.مجمع البيان، ج ٦، ص ٢٨٩.

٤. هود: ١١٤.

٥. شرح غريب القرآن، ص ١٦٩.

٦. النور: ٨.

٧. آل عمران: ١٦٨.

ومن الممكن: المناقشة في هذا التوجيه بأن يقال: أنَّ الظاهر هو كون الآيات تشير إلى السيئات السابقة: وأن كنا لا نمانع في أن تكون شاملة لما سيتكون من حالة نفسية، ففي آية «أولئك يبدل الله...» جاء تعبير التبديل ونسب هذا التعبير إلى الله، مما يبدو منه أنَّه من مختصاته تعالى، وهذا ينطبق أول ما ينطبق على الذنوب المسجلة التي يكون رفعها بيده تعالى، خصوصاً والسياق سياق توبة وانابة عن الشرك وباقي المعاصي[١].

امّا الدرء بمعنى الدفع، فالظاهر أنّه يشمل دفع المعاصي الثابتة ـ إذا تخلصنا من مصطلح الدفع الفلسفي المتأخر ـ ويعتبر الحديث الشريف المذكور، وفهم ابن عباس لذلك: مؤيداً لهذا الظهور.

الثاني: أن يقال: أنَّ الآيات كلها تشير إلى الذنوب السابقة، ولا تنافي بينها. فإن بعضها يشير إلى مرتبة معينة، والآخر يشير إلى المرتبة الأعلى منها.

إلاّ أنّه يمكن النقاش في هذا التوجيه: باعتبار أنَّنا إذا اعتبرنا وحدة المؤثر فلماذا عدلت الآيات إلى الإشارة إلى بعض الأثر، وهي في مقام الترغيب والحثّ الذي يستوجب اعطاء الأثر بكماله؟

الثالث: هو أن يقال: بأنَّ آية التبديل تركز على أثر العمل الصالح المدعوم بالتوبة والإيمان، في حين أنّ الآيتين الآخيرتين تشيران إلى أثر العمل الصالح بنفسه، وأنَّه يعمل على درء السيئة واذهابها.

الرابع: أنّ يقال: أنّ ذهاب السيئات يعني حصول الاهلية لرحمة الله وفضله الواسع، فتشمله وبالتالي يمكن القول بأنَّ: الحسنات يملأن محل السيئات.

وعلى أية حال، فإن ذلك باب من الفضل الذي يبعث الأمل بالمستقبل، ويحيى الإنسان المذنب من جديد حياة الصالحين العاملين في سبيل الحق.

٥. التقدم المضاعف من قبل الله إلى العبد

وهذه حقيقة أخرى تبعث الإنسان على العمل، والأمل بالخير العميم الذي سينتجه هذا

---

١. ميزان الحكمة، ج ٢، ص ٣٠٦ الحدود. نقلاً عن الوسائل، ج ١٨، ص ٣٣٦.

العمل، وذلك لأنّه يشعر بأنّه كلما تقدم إلى الله تعالى خطوة تقدم الله إليه ميلاً! وما أن يبذل جهده في سبيل الحقيقة أي حقيقة كانت فإنّ الله تعالى سيفتح الطرق أمامه... فلا مانع إذن من اقتحام العقبات والمصاعب، ولا داعي لليأس من الحصول على المراتب العالية! لأنَّ الإنسان ليس متروكاً لوحده في الطريق، بل أنّ قوة الله تعالى ووعده لا يسندانه في سيره فحسب بل يوفران له النتائج المضاعفة، إن في هذه الدنيا أو في الآخرة، وكلاهما مجال يمكن أن يعود على الإنسان بالعطاء، وإن اختلفت درجة العطاء من عالم إلى آخر.

يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[1]. ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾[2]. ويقول تعالى: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾[3].

وغير ذلك مما يفتح للإنسان المسلم يوماً بعد يوم آفاقاً للأمل جديدة.

٦. دور الربط المستحكم بين عالم الغيب والشهادة

وتعتبر هذه الظاهرة من أبرز الظواهر التي امتازت بها التعاليم الإسلامية.. فبعد أن يعترف الإسلام ـ بمقتضى واقعيته ـ بظاهرة تأثر الإنسان بمحسوساته أكثر منه بمعقولاته، يعمل بشتى الأساليب على خلق التوازن بين التأثر بكلا الجانبين، وعلى التقريب بينهما، بمعنى أن يقرب الأمور المعنوية إلى التجسيد الحسي.

وقد اشرنا في بحث التوازن إلى بعض أساليب الإسلام الفكرية والعملية في ذلك. وهنا نقول: إنّ تلك الأساليب من شأنها أن تجعل المسلم يتأثر بالمعقول ويتفاعل معه بما يقرب من تأثره بالمحسوس فهو إذن يبصر عالم الغيب ويلاحظ رحمة الله وتقديره ملاحظة تعبر الظواهر. وهو يشعر بالقوانين المعنوية كقوانين الدعاء والشفاعة تماماً كما يشعر بالقوانين المادية.

فالإسلام لم يكتف بإثبات نتائج العمل الصالح في عالم الآخرة، بل تجاوز ذلك وأثبت أنّ العمل الصالح ـ وهذا هو مقتضى العقل ـ سيعود بالخير على الإنسان نفسه في هذه الحياة الدنيا.

---

١. العنكبوت: ٦٩.

٢. البقرة: ٢٤٥.

٣. الأنعام: ١٦٠.

يقول تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾[١]. ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء﴾[٢].

في حين تربط الآيات الأخرى بين الانحراف الفكري والضياع العملي، فتقول الآية الكريمة ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[٣]. وهذا الربط الوثيق يعطي الأمل طاقة دافعة بتقريبه إلى الحس الإنساني، إذ يبدو وكأنّه يراه عياناً فيسعى له أشد السعي ويتشوّق له أشد الشوق.

وآية ذلك ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام في وصف المسلمين الصادقين المتقين: «فهم والجنة كمن قد رآها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رآها فهم فيها معذبون»[٤].

إذن فما نريد التأكيد عليه هو أنّ هذا الهدف التربوي للمسلم له تأثيره البارز أيضاً في جعل الأمل أكثر فعالية وقوة.

٧. نفي اليأس والقلق بشدة:

وهذان الأمران هما الحالتان النفسيتان اللتان تخلفان حالة الأمل، وتستتبعان عكس ما نتوقعه من الأمل من آثار. فبين الكفتين ارتفاع وهبوط. ومن الواضح أنّه إذا أردنا تقوية كفة الأمل فإنَّ ذلك يجب أنّ يكون بتقويته ومنحه ابعاده الواقعية، والقضاء على كل أسباب اليأس والقلق. ونحن إذا رجعنا إلى ما ذكرناه سابقاً عرفنا أنّ جذور هاتين الحالتين المضادتين قد عولجت علاجاً حكيماً، فلماذا إذن تعمدنا ذكرهما في هذا الموضوع؟ وما هو الجانب الإضافي الذي يمكنه أن يبرز ذلك؟

اعتقد أنّ الجانب الاضافي يكمن في أنّه بالإضافة إلى علاج الإسلام لهما علاجاً جذرياً، وفتح أبواب الأمل الواقعي على مصراعيها فأنّه تمر حالات خاصة بالإنسان ـ على اختلاف في المستويات ـ يتأثر فيها بموقف حسي معين، وحالة حرجة لا مفر منها... فيغفل عن كثير

---

١. نوح: ١٠.

٢. الاعراف: ٩٦.

٣. طه: ١٢٤.

٤. نهج البلاغة، خطبة المتقين.

من تلك الجوانب، ولربما يصل به الأمر إلى اليأس! وهنا يأتي دور تحريم اليأس تحريماً باتاً، لينفي عن الإنسان المسلم فعلاً هذه الحالة، فتقول الآية الكريمة ﴿وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللهِ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[١].

فالتعبد إذن يقتضي قبل كل شيء عدم اليأس، وبعد ذلك تعود النفس إلى حالتها الأولى وتقبل تأثيرات عوامل الأمل مرة ثانية.

ولا معنى للقول: بأن هذا الفرض لا يجتمع مع الإيمان الكامل، إذ مقتضى ذلك: الكون على وعي دائم مع الإنسان قد يغفل وينسى.

بعد أن دلنا الوجدان على أنّ الإنسان ضعيف على أي حال، وأن علا كثيراً في مرتبته المعنوية.

وقد يكون متعلق اليأس هو الموضوع الخارجي، كأنَّ يستيئس إنسان من هداية إنسان آخر، كما حدث للرسل حين استيأسوا وظنوا أنّهم قد كذبوا فجاءهم نصر الله ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا﴾[٢].

فهذا وان لم يكن يأساً من روح الله ولكنه يأس على أي حال، ويجب أن ينتفي من حياة الإنسان وخصوصاً حملة الرسالة.

أمّا القلق فهو في الحقيقة ناشئ من عوامل مختلفة، كعدم المأمن الروحي، والمرور بالاحداث الكبرى، ونمو روح التشاؤم، وغير ذلك من العوامل، كالعوامل الاقتصادية. وقد عالج الإسلام كل تلك الأسباب ففاقد الإنسان مبررات اليأس أولاً، وركز على جانب الاطمئنان القلبي بذكر الله، دافعاً للإنسان نحو العمل بكل ثقة في سبيل تحقيق آماله.

٨. مفهوم التوكل:

والقرآن الكريم يركز في خلد المسلم أن يكون في كل أموره متوكلاً على الله تعالى.. والتوكل الصحيح لا يعني تلك الصور الجامدة التي تنطبع في ذهن البعض ممن أصابهم داء الكسل والانطواء من المسلمين، أو ممن يتصورون ذلك. كلا... وإنّما يعني الاستمداد المتصل من الله تعالى والالتجاء إليه في كل مشكلة تعترض طريق الإنسان، وطلب العون منه تعالى

---

١. يوسف: ٨٧.

٢. يوسف: ١١٠.

ومن تعاليمه الخالدة. أنّها صفة موضوعية وسيكولوجية في آن واحد، فهي موضوعية من حيث احتوائها على عنصر الالتجاء إلى إيحاءات السماء، والتمسك بعصم الحق.

وهي سيكولوجية من حيث شدّها لروحية الفرد المسلم ونيته بالسماء وتقويتها واشعارها بأنّها ترتبط بأقوى القوى في العالم.

أنّ هذه الصورة عن التوكل تبعده عن التواكل، حتى تجعلهما على طرفي نقيض ويمكننا أن نركز النظر في الآيات الكريمة التي جعلت التوكل أحد العوامل الرئيسية المؤثرة في تغيير الحوادث، لنشاهد كيف أنّها قرنت التوكل بالإيمان تارةً، وبالعزيمة أخرى، وبالعبادة عموماً تارةً ثالثة، وبالصبر في مكان آخر، وأخيراً ربطت بين حب الله والتوكل كجزء من عملية الربط العاطفي بين الله والعباد والمتقين، كما وضحناه عند حديثنا عن أساس الحب في العلاقات بين الكون وخالقه.

فلنراجع إذن هذه الآيات لنستجلي ما قلناه:

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[١].

﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾[٢].

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾[٣].

﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[٤].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً﴾[٥].

فالتوكل على الله إذن عامل رئيسي في إيصال الإنسان إلى مطلوبه، والتوكل كما سبق صفة من صفات الإنسان الواعي لمركزه في الكون ونوعية علاقاته بالسماء، والذي يصفه القرآن بـ«الإنسان المتقي».

---

١. الطلاق: ٣.

٢. الشورى: ٣٦.

٣. آل عمران: ١٥٩.

٤. هود: ١٢٣.

٥. الأحزاب: ٣.

وقد راينا العارفين يتوسلون إلى ربهم كي يرزقهم هذه الصفة. فقد روى احد الرواة فقال: (كنت في ظهر ابي الحسن موسى (يعني الإمام الكاظم عليه السلام) على الصفا وعلى المروة وهو لا يزيد على حرفين: اللّهم إني اسألك حسن الظن بك في كل حال، وصدق النية في التوكل عليك)[1]. ولعله يشير إلى توكل هاجر.

٩. الدعاء:

إنَّ في مسألة الدعاء بحوثاً كثيرة لن نتعرض منها إلا إلى ما يرتبط بعنصر الأمل، واشباعه وتركيزه وتأجيجه. ثم نتعرض في بحث ضوابط الأمل إلى نظرة الشريعة إلى الدعاء المنتج، والى أثر الدعاء نفسه في خلق ضوابط محددة للأمل لئلا يخرج عن حده.

قال تعالى في محكم كتابه الكريم:

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾[2].

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[3].

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾[4].

﴿سَمِيعُ الدُّعَاء﴾[5].

والآيات كثيرة في هذا الصدد.

والمتبادر من الدعاء عموماً وحسب مفهومه الديني هو وقوف الإنسان أمام الله تعالى بخشوع وخضوع، ونفي كل الحجب بينه وبين الله ثم عرض حاله وما مر به من مصاعب، وطلب المدد منه تعالى في إصلاح ذلك، والاستزادة من الخير الدنيوي والاخروي.

والدعاء يخدم الأمل كجزء من الغرض الديني بأمرين: طبيعته ومستلزماتها، ومضامينه.

---

١. وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٥٢٠.

٢. البقرة: ١٨٦.

٣. غافر: ٦٠.

٤. الفرقان: ٧٧.

٥.آل عمران: ٣٨.

فإنَّ الدفع نحو هذا المعنى، والتأكيد على أن يقف الإنسان أمام خالق الكون العظيم بخشوع وإجلال، وإيكال الأمر إليه، واستمداد العون منه يعني:

أ ـ التجسيد لكل المعنويات

ذلك أنَّ الإيمان بالله تعالى وقدرته اللانهائية وعلمه اللامحدود ورحمته الواسعة، يزداد رسوخاً في النفس الإنسانية من خلال الدعاء.

لأنَّ موقف الداعي يحول الإيمان من فكرة إلى تجسيد عملي، وخطاب حي موجه، وانتظار حي للفرج. إذ واضح أنّ كثرة مثل تلك المواقف تحول التوحيد من عقيدة فكرية إلى شيء واضح ملموس، فها أنا حساً أقف أمام رب السماوات والأرض الذي يعلم بموقفي، والرحيم بي، والقادر على أن يحقق مطلبي الذي يعجز عن تحقيقه غيره ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ﴾[1].

ويضفي القرآن على هذا الموقف صفة اللطف الخاص عندما يعبر ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[2].

وواضح ما تنشره هذه الصفة من حرارة في حنايا النفس، واطمئنان بالنتيجة المطلوبة، وبالتالي السعي الحثيث لتهيئة المعدّات اللازمة لتحققها. وعليه: فإن فتح باب الدعاء والحث على القيام به، يركز عطاء العقيدة بكل تفاصيلها التي مرت بنا، تماماً كما يركز كل القوانين القرآنية الأخرى الآنفة.

ب ـ تلبية الحاجات الطبيعية الغريزية للإنسان:

وواضح أن أي اشباع مهذب لأية حاجة طبيعية، لها أثرها الفعّال في خلق التوازن في شخصية الإنسان، وصياغته إنساناً هدفياً واعياً لواجبه في الحياة، نافياً عن حياته كل تأرجح بين اشباع هذه الغريزة أو تلك.

---

١. الرعد: ١٤.

٢. البقرة: ١٨٦.

ولأجل أن نوضح: كيف أنّ الدعاء بطبيعته يلبي بعض الحاجات النفسية للإنسان ـ نلتفت إلى حالتين نفسيتين وجدانيتين هما:

أولاً ـ جوع الإنسان للحنان:

كما يعبّر عنه أَحد العلماء إذ يقول: «فهناك حالات يشعر الإنسان فيها ـ أمام قسوة الحياة، وضغط المشاكل، وتراكم الأزمات الداخلية والخارجية ـ بحاجة إلى التعبير عن الآلام التي تمزق ذاته، والمشاعر التي تجيش في نفسه، دون أن تجرح كبرياءه وهنا يأتي دور الدعاء الذي يسمح للإنسان أن يتنفس بكرامة ومحبة، وللروح أنّ تنطلق بعزة وحنان، فينفتح قلب الإنسان على ربه، وينطلق بروحه إلى الله حيث السلام والطمأنينة، والحياة الوادعة الرضية المطمئنة، التي تجعل الإنسان يغفو على هدهدات الأمل، عبر لفتات الرحمة ونبضات الرضوان»[١].

فالإنسان مهما ابتعد عن الله تعالى، ومهما غطت بصيرته الغشاوات وظن في نفسه إنه أقوى القوى، تمر به لحظات يحس معها تماماً بضعفه، وخصوصاً إذا انقطعت حيلته من كل الوسائل المادية.

إنَّ الفطرة حينذاك ستتفتح، وتنفض عنها غبار النسيان، وتتوجه إلى الله تعالى القادر المطلق... ومن هنا كان هذا الموقف من الأدلة الفطرية التي تقود إلى الإيمان به تعالى... كما أنّه من هنا نستطيع أن نقول: أنّ الدعاء أمر فطري للإنسان ككل، فضلاً عن كونه أمراً طبيعياً للإنسان المؤمن بالله، الآيات القرآنية التالية تكشف لنا عن ذلك المعنى حينما تقول: ﴿وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾[٢]. ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾[٣].

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾[٤].

---

١. مجلة الهادي العدد الأول ـ السنة الثانية ـ مقال بعنوان: الدعاء في شهر رمضان للحجة السيد محمد حسين فضل الله.

٢. يونس: ١٢.

٣. الأنعام: ٦٣.

٤. العنكبوت: ٦٥.

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾[١].

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[٢].

والملاحظ أن التعبيرات عامة خصوصاً عبارة «واذا مس الناس» ولا تختص هذه الحالة بالمؤمنين وإنما تورد احتجاجاً على المشركين ايضاً.

وما اروع تعبير الآية القرآنية عندما تصف حالات الانبياء الذين كانوا يستمدون العون من الله في كل آن ولحظة وخصوصاً في لحظات الشدة.

فعلى لسان زكريا يقول الله تعالى:﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا﴾[٣]. وعن موسى عليه السلام: ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[٤]. وعن نوح عليه السلام قوله: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾[٥].

ثانياً: مقتضيات الضمير:

ومهما قيل أو يقال حول الضمير، فهو على أي حال موجود في النفس الإنسانية، وهذا الضمير يشكل المحكمة الداخلية المحاسبة الدافعة نحو الاعتراف بالذنوب والجرائم، وتلمس سبل تداركها.

هذه حقيقة، والحقيقة الأخرى هي أنّ الإنسان بطبيعته يحتاج لا محالة إلى من يشاركه اسراره، ويشكو إليه ما ألمّ به من صعاب حتى يزيح بعض الهم عن صدره.

وبفعل هذين الدافعين نجد الإنسان محتاجاً لأن يشكو همه وحزنه وغمه اليه ليخفف عن كاهله ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾[٦].

١. الروم: ٣٣.
٢. لقمان: ٣٢.
٣. مريم: ٣ ـ ٤.
٤. القصص: ٢٤.
٥. القمر: ١٠.
٦. يوسف: ٨٦.

فخير ملجأ لهذا الإنسان وذاك: هو الله تعالى لا غير، وذلك لأنَّه تعالى لن يكشف ذلك السر وتلك الجريمة على الملأ «كم من قبيح سترته» كما أنّ ذلك سيكون طريقاً للعفو عن الجريمة أو رفع المحنة... هذا بالإضافة إلى أنّ الإنسان أمام الله يشعر بحرية بتحليل دوافعه، بعيداً عن العوامل الخارجية، وأخيراً يشعر الإنسان مع الله بأنّه ينطلق من ذاته فينقدها بلا ضغط خارجي.

ج ـ منح السند النفسي لتحقيق الأمل:

وهذا الأمر جدير في مجال معطيات طبيعة الدعاء، إذ أن الداعي بتصوره لعظمة الله تعالى وقدرته واحاطته، وأنّه ضن له الإجابة «وضمنت لي الإجابة»[1]. بقوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[2]. بتصوره ذلك ـ يكون أكثر اطمئناناً وثقة بأمله. ولذلك فهو بالتالي يسعى بكل جهده لأجل الوصول إليه، شاعراً بإسناد الله له، وذلك أمر لا شك في أثره.. وكم أكد علماء النفس على مسألة تربية الدافع النفسي والانشداد العاطفي بالهدف لكل هادف، سواء كان في مصنع أو أرض يفلحها، أو مجتمع يصلحه.

وهكذا رأينا أنّ الدعاء بذاته وطبيعته باب يجد الإنسان فيه راحته النفسية، وتنفتح امامه ـ بعد ولوجه ـ آفاق من المستقبل المشرق، مودعاً عالمه المظلم السابق، إذ يعيش في رحابه تعالى، تتركز في أعماقه معالم التوحيد... يعترف بذنوبه متخلصاً من عقاب الضمير، فضلاً عن عقاب العقل... ويشكوه همه وحزنه ليتبدل القلق واليأس إلى أمل مشرق وضاء.

كل هذا كان من طبيعة الدعاء. ولكن الإسلام لم يكتف بأنّ فتح باب الدعاء، وإنّما علم الإنسان المسلم ما يدعو به، ووضع ضوابط لتلك الحالة وإنتاجها.

أمّا الضوابط فتأتي في محلها، وأمّا المضامين التي يدعو بها المسلم فأنّ في مجالها حديثاً طويلاً ممتعاً، ولكن بحثنا لا يحتمل منه إلاّ المقدار الذي يتصل مباشرة بالأمل، وإلاّ فكل المضامين تقريباً تؤدي إلى تنمية الأمل وضبطه، وأن كان ذلك بطريق غير مباشر.

---

١. مفاتيح الجنان، دعاء كميل ١٢٠.

٢. غافر: ٦٠.

ويمكن أن نعطي مضمون الدعاء في تنمية الأمل وتأجيجه دور المؤكد لكل العوامل الأخرى، التي تحدّثنا عن تأثيرها في خلق الأمل، من مختلف الجوانب العقائدية، والمفاهيم الإسلامية الأخرى.

إن الدعاء وخصوصاً الوارد عن أهل البيت عليهم السلام يقوم بتركيز تلك الأمور وتوضيحها وتصحيحها، وبيان مقتضياتها على لسان نفس الداعي، مما يشكل نوعاً من أنواع التلقين الواعي للعقيدة الصحيحة... والتنبيه إلى مستلزماتها الفردية والاجتماعية.

دعاء الإمام الحسين:

فدعاء الإمام الحسين عليه السلام يوم عرفة، يبدأ بتركيز العقيدة: «الحمد لله الذي ليس لقضائه دافع، ولا لعطائه مانع، ولا كصنعه صنع صانع، وهو الجواد الواسع»... إلى أنّ يقول: «اللّهم إني أرغب إليك، وأشهد بالربوبية مقراً بأنك ربي وإليك مردي...» ثم يستعرض النعم التي أنعمها تعالى بشكل لا مثيل له يقول: «صدق كتابك ـ اللّهم ـ وانباؤك وبلغت انبياؤك ورسلك». ومن ثم ينتقل لمستلزمات ذلك الإيمان، طالباً توفيق الله له ليقوم بها: «اللّهم اجعلني اخشاك كأني أراك، واسعدني بتقواك، ولا تشقني بمعصيتك، وخرلي في قضائك. وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت...».

ثم يلقن الإنسان بأنَّ يدعو الله تعالى لكي يحقق له ذلك التوازن الرائع بين اشباع جانبيه المادي والمعنوي، وفي ذلك ما فيه من نفي للقلق ودفع نحو الغاية: «اللّهم اجعل غناي في نفسي، واليقين في قلبي، والاخلاص في عملي، والنور في بصري، والبصيرة في ديني. واجعل سمعي وبصري الوارثين مني. وانصرني على من ظلمني... واجعل لي الدرجة العليا في الآخرة والأولى»[١].

والحقيقة أنّ الإنسان ليجد الخطوط العريضة في المجال العقائدي والأخلاقي والتربوي موجودة في تلك الثروة الهائلة من الأدعية.

ولذا فأنّه يستطيع أنّ يعطي الدعاء دور المؤكد والواضح لكل تأثيراتها التي مر شرح علاقتها بالأمل.

---

١. مفاتيح الجنان، دعاء عرفة، ص ٣٢٩ـ٣٤٢.

١٠. التوبة والغفران وتأثيرهما في فتح أبواب الأمل:

التوبة: من مجموع المعاني المذكورة يعرف: أنّ معناها اللغوي هو الرجوع، ومن هنا جاءت التعبيرات التالية كما في (مجمع البحرين ـ مادة التوبة): «أنّه كان تواباً»: التواب: الله تعالى يتوب على عباده، ولفظه من صيغ المبالغة، أي: راجع عليهم بالمغفرة... والتواب من الناس الراجع إلى الله تعالى... «قالت: إني تبت إليك» أي رجعت إلى معرفتي بك عن جهل... «وإليه متاب» أي مرجعي ومرجعكم. والتوب والتوبة الرجوع من الذنوب. وفي إصطلاح أهل العلم: الندم على الذنب لكونه ذنباً. وفي الحديث: الندم توبة»[١]. ووافقه على هذا الاصطلاح الراغب[٢]. والذي نرى أنّ بعض استعمالات التوبة تخرج عن اصطلاح أهل العلم، الذي لابد وأنّ يكون معتمداً على الاستعمالات الشرعية.

الغفران: «الغفر: الباس ما يصونه من الدنس، ومنه قيل: اغفر ثوبك واصبغ ثوبك، فأنَّه اغفر للوسخ، والغفران والمغفرة من الله هو: أن يصون العبد من أن يسمه العذاب. والاستغفار يعني أيضاً: طلب محو النتائج المترتبة على الذنب، وهو المتبادر من اللفظ».

والمتحصل: أنّ التوبة تعني الرجوع. والاستغفار يعني: طلب التحصين تارة، وطلب نفي الآثار أخرى. ولربما يطعم هذا بطلب التحصين. فهما ـ أي التوبة والاستغفار ـ من العبد، والتوبة الغفران من الرب: أمران منشدان إلى بعضهما.

ومن هنا جاء الآيات الكريمة: ﴿أَفَلاَ يَتُوبُونَ إِلَى اللّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ﴾[٣]. ﴿فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[٤]. ﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا﴾[٥].

والتوبة بالنسبة إلى الله مظهر عظيم من مظاهر الرحمة الإلهية التي تتجاوز العدل إلى

---

١. مجمع البحرين، مادة توبة..

٢. المفردات، باب توبة..

٣. المائدة: ٧٤.

٤.النساء: ٦٤.

٥. هود: ٣.

الإحسان، فالعدل يعني أن يحاسب المجرم، وأن يثاب المحسن بمقدار عمله، في حين أنّ المسلم من خلال قرآنه يعتقد بأنّ الله تعالى بمقتضى احسانه يرجع على العبد ويتوب عليه، فاتحاً له سبيل الرجوع إليه تعالى، غافراً له ذنوبه إن تحققت الشرائط، أي فاتحاً له سبيل التوبة إلى الله، منقذاً أياه مما أوقعه فيه هواه، ساداً أبواب اليأس وفاتحاً أبواب الأمل.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ﴾[١].

ولأجل تحديد تأثيراتها في بث عنصر الأمل في المسلم يجب أنّ نحددها بنحو الاجمال، ويتم ذلك التحديد إذا لاحظنا النقاط التالية:

النقطة الأولى ـ التوبة للمطيع والعاصي معاً:

عندما يقال تاب شخص، فإنّ من المتبادر إليه: أنّه كان قد أذنب ذنباً ثم رجع إلى الله فطلب منه الغفران، ولكن مورد استعمالات التوبة في القرآن تعم هذه الحالة والحالة الأخرى وهي: مرحلة اللجوء إلى التوبة لأجل تحصيل الاقربية من الله، إذ كلنا يعلم أنّ القرب منه تعالى على درجات ومستويات، والتوبة إحدى المقربات، فلا يشترط في التوبة والرجوع إلى الله أن يكون عن ذنب.

ومن هنا نعرف سر توبة الأنبياء، المعصومين عن الزلل والذنب.

ومن قول آدم: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ﴾[٢].

وقال موسى عليه السلام: ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾[٣].

ومنه قول آدم: ﴿لَقَد تَّابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٤].

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾[٥].

---

١. التوبة: ١١٨.

٢. البقرة: ٣٧.

٣. الاعراف: ١٤٣.

٤. التوبة: ١٧٧.

٥. هود: ١١٢.

﴿وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[١].

ويمكن القول بأنّ التوبة تعني تحركاً نحو الاقرب فالأقرب دائماً منه تعالى من جانب، وانفتاح السبل أمام المسلم للوصول إلى كماله في كل آن ـ بالتقرب منه تعالى، وبلطف منه ـ من جانب آخر، ومن هنا جاءت الآية الشريفة: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢].

ومن هنا كان وصف الله تعالى نفسه بأنّه: «غافر الذنب قابل التوب». كما أنّه من هنا نجد أنّ من أول أوصاف المؤمنين التوبة في قوله تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدونَ﴾[٣].

والذي يبين لنا هذا المعنى بوضوح: اطلاق عبارة »التواب« على المولى ـ جلّ شأنّه ـ والعبيد، كما في قوله تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[٤].

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾[٥].

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[٦].

فماذا تعني عبارة التواب من العبد؟ هل تعني الاذناب ثم الرجوع المتكرر؟ كلا بالطبع، وخصوصاً إذا لاحظنا عبارة «ويحب المتطهرين»، أنها تعني في الظاهر: ذلك الشعور والإحساس الذي يدفع العبد المؤمن دائماً وفي كل لحظة لأنّ يستغل الأبواب المفتحة للرحمة الإلهية والتواب الرحيم لكي يدخلها، محققاً مقتضيات التوبة: من العمل الصالح والنية الحسنة، وبالتالي متقدماً نحو الكمال بدافع من أمله العظيم بالله. يطلب منه تحصينه ضد اغواءات الشيطان.

---

١. الاحزاب: ٧٣.

٢.النور: ٣١.

٣. التوبة: ١١٢.

٤. البقرة: ١٦٠.

٥. النصر: ٣.

٦. البقرة: ١٢٢.

والنتيجة: هي أن التوبة لها جوانب متكاملة:

أ ـ الجانب الأول:

وهو جانب رفض اليأس، وفتح أبواب الخلاص من عذاب الضمير للمذنبين العاصين.

فإنّ الإنسان الذي قاده هواه إلى الانحراف إذا وجد نفسه في عز انحرافه وقد صحا، ورأى آثار الانحراف وانبه ضميره، وثارت في نفسه معاني الخوف من الله قبل كل شيء، وهو الجبار ذو العذاب الأليم، ثم من المجتمع فرأى أمامه مستقبلاً مظلماً مكفهراً، هذا الإنسان يبدأ بالتفكير في الرجوع والاصلاح. وعندما يلتفت إلى الخلف فإنه إن وجد طريق الرجوع مغلقاً ولا مجال للخلاص فسيكون أمام اختيارين لا ثالث لها:

فأما أن يبقى فريسة الخوف والهم والتمزق والندم الذي لا فائدة فيه، ويكون بالتالي إنساناً خائر القوى، معذب الضمير، واهي النشاط وعضواً مريضاً معقداً، أن لم يتضرر المجتمع منه فلا فائدة فيه مطلقاً، وهذا أهون الشرين، وإما أنه، ونتيجة للموقف الحرج الذي وجد نفسه في مرارته يتخذ مساراً حاقداً، بعد أن يتصور نفسه محروماً من عطف المجتمع وعطف الله تعالى فيصب جام غضبه ويصعد من عملياته الاجرامية، ويسير في طريق الانحراف حتى يبلغ منتهاه معوضاً بذلك عن هذا النقص تعويضاً سلبياً عنيفاً، والنتيجة هي خسران المجتمع واعاقة المسيرة الإنسانية المتكاملة.

فالنتيجة: على كلا الحالين هي التعويض السلبي وأن اختلفت درجاته. ولكن الإسلام لم يدع هذا الإنسان فريسة اليأس والضياع وأمامه مجال عمل طويل، إذ فتح له أبواب الرجوع إلى الله واحدة بعد الأخرى من الدعاء والتوبة والاستشفاع.

فالتوبة ـ أن تمت مقوماتها ـ تنقذ العبد من وساوسه وتعيد له الأمل بالمستقبل الزاهر الذي تصوغه له رحمة الله، وترجعه للمجتمع عضواً صالحاً فعالاً يعمل على رقيه وبنائه، بعد أن كان يعمل على انحطاطه وانهدامه.

ب ـ الجانب الثاني:

جانب الاستزادة من القرب.

فالإنسان المسلم مطلوب منه ولو على نحو استكمال النفس أن يستغفر الله في كل آن

ويتوب إليه، فمن اعظم المستحبات الاستغفار في كل آنٍ، وخصوصاً عند الصلاة، والروايات في ذلك كثيرة.

وواضح أنّ التلفظ تلقين للنفس بالسعي نحو تحقيق أمل القرب منه تعالى، الذي لا يعني ـ في منعكسه الاجتماعي ـ ألاّ التكامل في المعرفة، وما يتبع ذلك من التكامل في الجوانب الاجتماعية، وما أروع أن يعيش الإنسان وفي عينيه ـ في كل لحظة ـ بريق أمل بتحقق الأحسن، وتوبة تدفعه نحو تحقيق متطلبات حصول ذلك الأحسن في كل مجال. ولربما كان هذا هو السر في جعل الفلاح هو الغاية من التوبة في قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[١].

ج ـ الجانب الثالث:

جانب التحصين ضد إغراءات الشيطان.

إنّ التوبة كما تقدم يصاحبها طلب الغفران، وطلب الغفران يعني طلب التحصين من كل مايمكن أن يرد على النفس الإنسانية من مغريات ووساوس شيطانية، كما يعني طلب محو الآثار التي انتجتها لحظات الانحراف السابق.

إنّ فتح باب طلب الغفران يعني أنّ العبد يتصور نفسه يمتلك الاطمئنان والثقة بالمستقبل، وبتحقق الهدف، بعد أن طلب من القوة العظمى في الكون أن تصونه من كل العوائق التحريفية، والوساوس الشيطانية، التي تزرع في طريق تكامله الاشواك والعقبات.

والثقة بتحقق الأمل من أكبر العوامل المؤثرة في منحه صفة الجذب نحوه. ويتضح هذا المعنى جيداً إذا تلونا الآية القرآنية الشريفة: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً﴾[٢]. وكذلك الآية: ﴿وَمَا كَانَ لَنَا أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾[٣].

فالسلطان الكامل لله تعالى. وأولياء الله لا خوف عليهم ـ من المستقبل ـ ولا هم يحزنون

١. االنور: ٣١.

٢. الاسراء: ٦٥.

٣. ابراهيم: ١١.

على الماضي، وليس هناك أي تأثير للشياطين على من منحهم الله غفرانه. فليعملوا مطمئنين واثقين وليسروا نحو هدفهم، فلهم بالتالي إحدى الحسنيين.

النقطة الثانية: التوبة الإسلامية تركيز لمعنى الارتباط المباشر بين المولى والعبد

أنّ هذا الرجوع إلى الله لا يحتاج في مقوماته إلى توسط شخص أو مكان أو ظاهرة طبيعية، مهما كانت هذه الأشياء من العلو. أنّه رجوع مباشر من العبد إلى المولى وعملية ندم خالصة لا يعلم بها إلاّ هو وربه. نعم هناك موارد تزيد من عمق أثر التوبة في النفس، وتركز معنى الرجوع. وذلك إذا كانت التوبة لله أمام ولي من أوليائه الصادقين، وفي مكان مقدّس من أمكنته، ولكن كل هذا، لأجل تركيز التوبة. أما أصل التوبة فأنّها تتحقق بشكل مباشر وبلا تدخل أية إرادة لأي إنسان آخر فيها، إذا كانت في نفسها واجدة لبعض المقومات التي سنتحدث عنها فيما يأتي من نقاط.

فإذا كانت التوبة كذلك فهي إذن تجعل الاتصال المباشر بالله أمراً محسوساً به في الحياة. وهذا المعنى يمكننا أن نضيفه إلى تلك الجوانب السابقة حيث تتكامل جميعاً في خلق الإنسان الواعي العامل الساعي للقرب من الله في كل آنٍ، الشاعر بالاتصال المباشر بالقوة العظمى التي فتحت له برحمتها أبواب الخير.

ولكن الذي دعانا إلى فصلها في نقطة مستقلة هو عرض صفة مميزة للتوبة الإسلامية عن أساليب الغفران في الأديان المحرفة اليوم، وذلك كما ترى في طقوس الغفران المسيحية.

والنقطة الرئيسية في الافتراق هو الوثنية الشخصية في تلك الأديان، والاخلاص الكامل للعقيدة الإلهية التنزيهية في الإسلام. إذ أنّنا بملاحظتنا لتلك العملية، وأساسها المبتني على خرافة الفداء المسيحي، وطقوسها التي طورتها المصالح الكنسية، والخرافات المضافة من قبل الآباء الروحيين، وكيف يزداد الأجر المالي لتحصيل رضا الأب كلما ازداد عظم الجريمة، فإن لم يرض الأب فلا غفران، وكيف كانت الكنيسة تبيع صكوك الغفران للعاصين، بملاحظة ذلك نعرف:

أنّ سر الفرق هو: أنّ التوبة بمفهوم تلك الأديان رضا عبد عن عبد يستتبع رضا الله، بل قل يفرض رضا الله: وهو الشرك الصريح! إذا كان ذا موضوعية لا كاشفاً عن رضا الله،

وهو روح ما نراه منهم! في حين أنّ التوبة بمفهومها الإسلامي ـ كما مر ـ لا تتطلب أي توسيط مطلقاً.

النقطة الثالثة: التوبة المقبولة

وهذه النقطة نؤجل التفصيل فيها إلى بحث ضوابط الأمل، وسنعرف إن شاء الله: أنّ التوبة المقبولة هي التوبة النصوح.

وفي معاني النصوح قيل: أنّها التي تنصح الناس، وقيل: التي تنصح العبد، وقيل: الخالصة لوجه الله، وهو الظاهر من قوله تعالى: «توبوا إلى الله توبة نصوحاً» وسئل الإمام عنها، فكتب عليه السلام: «أنّ يكون الباطن كالظاهر»[١].

وهذا الحديث يوضحها تماماً، إذ تعني التوبة النصوح ذلك الرجوع الذي يصاحبه العزم على المضي في الطرق الأكمل، وتجنب الطرق الأخرى. ومن هنا فإنَّ بعض أنواع التوبة لم يكن لائقاً للقبول، وذلك في مثل من تحدّثنا عنهم الآيتان الكريمتان:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الضَّآلُّونَ﴾[٢].

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ آمَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ازْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلاَ لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾[٣].

إذ أنّ أولئك الذين تأصل فيهم العناد لا يتصور فيهم النصح ومطابقة الظاهر للباطن، وان حصل رجوع فهو إنما يعبر عن موقف عاطفي غير أصيل في النفس. وكذلك في مثل فرعون الذي تاب عندما أدركه الغرق:

«حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنّه لا إله إلاّ الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين».

ولكن المقطع الآخر يرده بقوله تعالى: ﴿آلآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾[٤].

---

١. بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٢.

٢. آل عمران: ٩٠.

٣. النساء: ١٣٧.

٤. يونس: ١٨.

وكذلك الآية الشريفة ترده بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ﴾[١].

وسيأتي مزيد من التفصيل في هذه النقطة في البحث المذكور.

١١. الشفاعة، ودورها كمؤكد للعفو والغفران، ودافع نحو الإسراع في تحقق الأمل

وهذا المفهوم قد أعطى في القرآن بصورة اجمالية مع تحديدات معينة، وفصلته الروايات كثيراً.

فقد جاء في القرآن الكريم:

﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾[٢].

﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاء وَيَرْضَى﴾[٣]. ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾[٤].

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾[٥]. ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾[٦]. ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[٧].

وفي الحديث الشريف بسند صحيح عن الإمام عليه السلام يقول سماعة: سألته عن شفاعة النبي صلى الله عليه وآله يوم القيامة؟ قال عليه السلام: «يلجم الناس يوم القيامة العرق، فيأتون الأنبياء العظام واحداً بعد واحد حتى ينتهوا إلى النبي صلى الله عليه وآله، فيعرضون عليه، ويسألونه ـ أي الشفاعة ـ فيقول: انطلقوا فينطلق بهم إلى باب الجنّة، ويستقبل باب الرحمن ويخر ساجداً فيمكث ماشاء الله، فيقول الله عزّوجلّ: ارفع رأسك، واشفع تشفع، وسل تعط. وذلك لقوله تعالى:

---

١. النساء: ١٨.

٢. طه: ١٠٩.

٣. النجم: ٢٦.

٤. البقرة: ٢٥٥.

٥. الأنبياء: ٢٨.

٦. مريم: ٨٧.

٧. الزخرف: ٨٦.

﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾[١].

وروى الصدوق عن طريق الأعمش عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «اصحاب الحدود مسلمون لا مؤمنون ولا كافرون، فإن الله تعالى لا يدخل النار مؤمناً وقد وعده الجنّة، ولا يخرج من النار كافراً وقد وعده النار والخلود فيها، ويغفر دوةن ذلك لمن يشاء. فأصحاب الحدود فساق.. لا يخلدون في النار، ويخرجون منها يوماً، والشفاعة جائزة لهم، وللمستضعفين، إذا ارتضى الله عزّ وجلّ دينهم».

وروى العياشي بإسناده إلى عبيد بن زرارة قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن المؤمن هل له الشفاعة؟ قال: نعم فقال له رجل: هل يحتاج المؤمن إلى شفاعة محمد صلى الله عليه وآله يومئذ؟ قال: نعم أن للمؤمنين خطايا وذنوباً، وما من أحد إلا يحتاج إلى شفاعة محمد يومئذ[٢].

إلى ما هنالك من الروايات الكثيرة.

والذي يهمّنا أن نذكره إجمالاً ـ ويترك البحث في إثباته تفصيلاً إلى محله من بحث الشفاعة العام ـ هو مايلي:

١. الشفاعة تعني: استغفاراً ودعاء من الشافع لله تعالى كي يحقق مقصود المستشفع، سواء في ذلك تحقق أمل أو غفران ذنب.

وإنّما كان ذلك الاقتران بين دعاء الشافع ودعاء المستشفع، نظراً لنقص وسيلة المستشفع وعجزها عن البلوغ إلى المقصود ـ ولو في تصوره هو ـ فيقرنها بمقام الشافع ليتم المقصود.

٢. يمكننا أنّ نتصور نوعاً من الشفاعة غير شفاعة الاستغفار، فهنا نوعان من الشفاعة:

النوع الأول:

ما يمكن أن نسميه شفاعة العمل، أو شفاعة الارتباط بالقيادة.

النوع الثاني:

ما يمكن أن نسميه شفاعة الغفران، وقد يتفرع على سابقه.

أما شفاعة العمل: فتختص بمجال النجاة، ونيل الحسنات وعلو الدرجات في الآخرة،

---

١. بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٦.

٢.بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٤.

في حين لا تصل إلى مجالها الشفاعة الثانية. وهذا ما يمكن أن يكون تفسيراً للحديث الشريف: «ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، أمّا المحسنون فليس عليهم من سبيل»[١].

ونعني من شفاعة العمل أو الارتباط: ذلك التجسّد والتجسّم الذي يحصل يوم القيامة للروابط المعنوية القائمة في الدنيا، كما ربما تحدثنا عنه الآيات الكريمة: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[٢]. ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾[٣].

فالتبعية آنذاك تتجسّد ويكون النبي ﷺ شفعياً لعلي عليه السلام وهكذا تتسلسل الشفاعة ويكون الحسين عليه السلام شافعاً بلا واسطة أكثر من غيره.

وعلى هذا حملت شفاعة القرآن في قوله عليه السلام: «القرآن شافع مشفع، وماحل مصدق»[٤].

فالعامل الأساسي في هذا النوع هو العمل وليس هذا النوع محل اشكال.

٣. أنّ شرط شمول الشفاعة للإنسان هو شرط شمول المغفرة، وهو قابلية المحل، والإيمان: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ﴾[٥]. في حين يبقى علم باقي الشروط عند الله لأجل أن تبقى القلوب بين الخوف والرجاء.

٤. أنّ أمر الشفاعة أولاً وأخيراً يبدأ من الله تعالى، فهو الذي يجب أن يعين الشفيع، وإلاّ كانت الشفعاء كما قال تعالى: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاء سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤكُم مَّا نَزَّلَ اللّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾[٦].

فالنظر يكون في الشفاعة متوجهاً إلى الله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُواْ أَنفُسَهُمْ جَآؤُوكَ فَاسْتَغْفَرُواْ اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُواْ اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾[٧].

---

١. بحار الأنوار، ج ٨، ص ٣٤.

٢.الاسراء: ٧١.

٣. هود: ٩٨.

٤. بحار الأنوار، ج ٩٢، ص ١٧.

٥. النساء: ٤٨.

٦. الاعراف: ٧١.

٧. النساء: ٦٤.

٥. الشفاعة وجه من وجوه الرحمة الإلهية التي رأيناها تتمثل من قبل في قبول الدعاء وقبول التوبة، وسنراها متمثلة في أساليب أخرى إن شاء الله تعالى.

بعد توضيح كل هذا، يتوضح دور الشفاعة في إعطاء عنصر الأمل فعالية وقوة، وتركيز الاطمئنان بتحقيق الأمل.

ويمكن أن نرجع تأثير الإيمان بالشفاعة في هذا المجال إلى أربعة أدوار:

ألف ـ دورها في عملية فتح باب الرجوع عن الانحراف.

ب ـ دورها في عملية الاطمئنان بتحقق النتيجة من تحقق درجة قربية أو حاجة أو مطلب دنيوي.

ج ـ دورها في عملية إيجاد نوع من الجزاء للعاملين على تحقيق الاهداف الكبرى.

ع ـ دورها في عملية خلق الاتصال بالشافع وتأطير الأمل في حدود أهداف الشافع.

أما الدور الأول:

فقد مر بنا: أنّ التوبة تقوم بنفس هذا الدور وهو فتح أبواب العودة إلى الطريق الصحيح، وتحويل العناصر المنحرفة إلى عناصر فعالة لصالح السير الإيجابي للمجتمع، وتخليصهم، من عذاب الضمير، والقلق الذي هو أقل من ينتج من الانحراف.

فما معنى الشفاعة إذن إذا كانت التوبة والدعاء هي الباب المفتوح؟ وعند الجواب عن هذا السؤال نود أن نؤكد على أنَّه:

١ ـ لتكن الشفاعة باباً آخر من أبواب الرجوع إلى الله.

٢. ولتكن للشفاعة فوائدها الأخرى من مثل ما سيأتي من أنّها تخلق نوعاً من الربط الشديد بالشفيع، مما يحقق أهدافاً كبرى تشترك في صنع الهدف العام للخلق، ففتح باب الشفاعة لفوائد خاصة تماماً كفتح باب الدعاء لفوائد إضافية كما مر بنا سابقاً.

ومن جملة الفوائد: ما يمكننا أنّ نفترضه من أنّ الإنسان المنحرف قد يصل به الأمر مرحلة يتصور معها أنّ توبته لن تقبل، وأنّ دعاءه لن يستجاب نظراً لعظم جرمه. وعلاج هذه الحالة سوف يمكن بإعطائه اشعاراً حسياً بأنَّه سيقترن مع طلبه ودعائه طلب من مقام عظيم وجيه عند الله تعالى.. وهذا المعنى يمكننا أن نلاحظه بوضوح في أساليب طلب العفو التي تعلمها الأدعية المترفقة. فهي تلقن الداعي أن يعيش آفاق عظمة محمد وآل محمد، ويطلب منه تعالى أن يصلي عليهم بألسنة متعددة تحمل معها كل معاني الارتباط بهم، ومن ثم

تلقنه أنَّ يستشفع بهم من عظيم الذنب وكبر الانحراف، ولا نزيد في التوضيح بهذا المجال على ما مر بنا سابقاً.

وأمّا الدور الثاني:

فواضح أنّ الاستشفاع بالأنفس الطاهرة المقربة منه تعالى: وبنص منه تعالى على الاستشفاع بهم لأجل تحقيق آمال الإنسان، سواء كان ذلك من حيث القرب إلى الله تعالى وتحقيق درجة أعلى من الرضا الإلهي المطلوب، أو من حيث تحقق الأماني والآمال في السعادة والنصر وحل المشاكل، هذا الاستشفاع له تأثيره في خلق اطمئنان بالنتيجة، وهو يعطي الأمل دفعاً لأجل أن يهيئ الأرضية المساعدة لتقبل التأثير.

أمّا الدور الثالث: فيتمثل ـ كما سبق ـ في اعطاء العاملين في سبيل الهدف نوعاً من الجزاء، فقد وردت الأحاديث الكثيرة في أنّ المؤمن يشفع في خلق كثير بأمر الله، وتلك أمنية عظمى للإنسان المؤمن أن يقوم بالاستشفاع لإنقاذ من يرتبط بهم بنوع من الارتباط، وذلك اليوم يوم الجزاء والفزع الأكبر. ولعمري أنّ هذا المقام الذي يعطيه الله للمؤمن هو من اعظم أنواع الجزاء تأثيراً في نفسه، وتحريكاً لحب ذاته في سبيل خدمة المجتمع، والعقيدة، والتضحية في سبيلها بكل غالٍ ورخيص.

وهنا تتخذ الشفاعة نفسها دور الأمنية، فتبعث على العمل لتهيئة الأرضية المساعدة للحصول على ذلك الشرف الكبير.

وأمّا الدور الرابع: وأخيراً فإنّ الشفاعة في (دورها الرابع) تخلق ذلك الارتباط العاطفي الواعي، المؤطر بإطار عقائدي بالشفيع، إذ تركز منزلته لديه، وتجعله يقتفي أثره. وهذا المعنى له تأثيره في إعطاء الأمل صبغة الشفيع، وتعني بذلك إعطاءه الصبغة التي يرضاها الشفيع تبعاً لرضا الله تعالى، ما يضمن لنا أملاً صحيحاً واعياً، وسيأتي حديث حول هذه النقطة في بحث ضوابط الأمل إن شاء الله تعالى.

وهنا يمكن أنّ نضيف إلى الموقف تأثير النوع الثاني من الشفاعة (وهو شفاعة العمل) في خلق الاحساس والشوق الكبير للدخول في موقف التبعية المجسّد، في ذلك اليوم الذي «تذهل فيه كل مرضعة عما ارضعت» فينجو من تبعاته، إذ يدخل في الوفد الذي تحيطه عناية

الرحمن، ويقوده الشفعاء الذين يضللهم الرضا الإلهي. والرضوان آنذاك اقصى ما يتصور من العطاء والنعيم: «ورضوان من الله أكبر».

١٢. مفهوم الانتظار ودوره:

وهنا لابد من الحديث عن مفهوم الانتظار والاعتقاد بالمهدي المنتظر عليه السلام واثره في تقوية الأمل.

فرغم أنّ هذا الاعتقاد أريد له أن يكون عالمياً، وأنّه جاءت به كل الأديان السماوية، إلاّ أنّ التشويهات والتحريفات والتعصبات حاولت حصره في نطاق ضيق من الأمة الإسلامية. فافقدته الفاعلية المطلوبة على الصعيد العالمي. هذا من جهة، وأمّا من جهة أخرى: فإنّ التصور الخاطئ لعملية الانتظار وملاحظته كموقف سلبي: قضى على مفعولها تقريباً، بل حولها إلى تبرير غريب للحالات اليائسة!

إنّ هذا المفهوم لو وضع في إطاره العام الصحيح وهو: الاستعداد والتهيؤ للانخراط في اتباع المصلح السماوي الذي سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً ـ وهو الإمام المهدي عليه السلام والذي سيجعل: «الدين كله لله»، فإنّه سيكون له التأثير الكبير جداً في حياة المنتظرين، إذ سيدفعهم لاعداد الأرضية في أنفسهم وفي مجتمعهم لذلك الحدث الكبير. إنّ هذا الانتظار سيملأ وجودهم، ويستغرق كل انماط سلوكهم، ويجعلهم يتبعون كل السبل في سبيل تحقيق ذلك الأمل المنتظر.

ولقد أكد بعض علماء النفس على أنّه يجب أن نركز على أنّ العمل الإنساني قائم في أساسه على انتظار شيء، ومتى ما خلا الإنسان من الانتظار فقد مات سلوكياً.

وإذا كان ذلك صحيحاً فما أروع وما أبعد مدى هذا الانتظار الإسلامي للمصلح العالمي ويومه الموعود.

والنقطتان الأساسيتان في الانتظار اللتان تعملان على ازدياد تأثير الأمل في الإنسان المسلم، وتقريبه من عالم التجسيد والحس هما:

ألف: أنّه يركز في اعتقاد الإنسان المسلم الإيمان الكامل بالموجود الحسي الحي، الذي يعيش معه في هذه الدنيا كما يعيش هو، ولكنه أختفى عن العيون بقدرة الله تعالى، ولكنه عليه السلام يراقب ـ حساً ـ عمل المؤمنين ويتابع خطواتهم استعداداً لذلك اليوم.

إنّ هذا الشعور ـ بالاضافة إلى معطياته الكثيرة ـ ليمنح الإنسان دفعاً أكبر نحو شدّة المراقبة، وشدّة الوعي، وشدّة العمل. وذلك بشكل يعجز عن وصفه التعبير اللفظي.

كما أنّه يستصرخ المسلم ويزيد من شوقه، ليعمل كل ما يمكن في سبيل ظهوره عليه السلام وانتقاله من عالم الخفاء إلى مسرح القيادة.

فالاحساس بمراقبة الإمام للخطوات، والاحساس القائم بكون الإمام في عالم الخفاء والغيب عن الابصار: كلاهما يملكان تأثيراً كبيراً في صبغ عمل الإنسان بالوعي، والشدة، والاتساع.

باء: إنّ الانتظار يركز في عقيدة المسلم: أنّ النصر مضمون في الدنيا قبل الآخرة، وأنّه سيحس به ويتأثر به عالمه الحسي هذا. وهذا له تأثيره الفعال أيضاً في زيادة الاحساس بالأمل، والعمل لتحقيقه.

والنتيجة: أنّ تركيز الأحاديث الشريفة على الانتظار، والادعية المختصة بهذا المورد: هو اسلوب إسلامي فذ في الاشعار بالأمل وتركيز الإحساس به.

مثل من القرآن الكريم

وقبل أن ننتقل للمقطع التالي نرجع إلى القرآن الكريم ليحدّثنا عما استطاع الأمل الإسلامي القيام به من دور في حياة الجماعة المسلمة وفي أحرج لحظات الحياة...

فقد أحست قريش بعد أنّ رجعت من معركة أحد أنّها لم تستغل نصرها غاية الاستغلال، ولم تستأصل الدعوة الإسلامية في لحظات قوتها هي وضعف المسلمين، ولذا فقد تناهي إلى النبي صلى الله عليه وآله أنها عازمة على الرجوع إلى المسلمين وتنفيذ خطتها المشؤومة.

وكان الموقف خطيراً إذ أنّ جراح المسلمين كانت تنزف نتيجة الهزيمة المرة في معركة أحد إلاّ أنّ القرآن هنا أسند النبي صلى الله عليه وآله بآيات قرآنية حركت في المسلمين عنصراً هاماً بعث فيهم الحياة من جديد.

فقد أمرهم النبي صلى الله عليه وآله أن يتجهزوا للمسير إلى قريش ورفض أن يخرج معه إلا الذين شهدوا المعركة من قبل.

وجاء هذه الآية الكريمة لتبين للمسلمين الفارق الكبير بينهم وبين قريش... فتقول:

﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾[١]. إنّه الهدف الكبير والرجاء البعيد المدى الذي يدفع الكل للتضحية في سبيله بكل ما يملك.

وهكذا تحرك الجيش الإسلامي الجريح كالأسد الجريح، وبلغت أنباء تحركه إلى قريش فلم تقو على تحمل المعركة من جديد، بعد أن سمعت بالعزم الإسلامي والحماس... وارسلت من ينهي الأمر برجوع كل طرف إلى قواعده سالماً[٢]..

كانت هذا مثالاً على دور الأمل.

ويمكننا أن نستعرض عشرات المواقف بل تاريخ المسلمين الأول كله لنجعله مثالاً على طاقة الأمل الإسلامي في الدفع نحو الهدف.

١٣. الامل الذي تبعثه نوعية النظام الإسلامي

إنّ المسلم الواعي رغم كل الدعايات المضللة ليستمد من الواقع الموضوعي القائم امامه أملاً إضافياً إلى جنب ما تمده به عقيدته ومفاهيمه من رجاء ما بعده رجاء.

فإنّه إذا رجع بنظرته إلى الوراء... حيث مطلع الإسلام يجد أنّ الإسلام نقل الأمة من وهدة الجاهلية، والتأخر الفضيع إلى حيث جعلها تمشي على قمم العصور، وتبني أروع حضارة عرفتها البشرية وأول حضارة يمكن أن يجعل العنصر المميّز والمحرك لها الدين بصفة عامة.

فلقد قاد الإسلام الأمة خلال قرون طويلة، ولولا اختلال في التطبيق، وانحراف كبير في القيادة لكان من المتوقع له أن يسيطر على العالم، ويوجه الإنسانية إلى حيث كمالها اللائق بها.

ويجد ـ أي المسلم ـ أن الإسلام انتصر بعوامل كثيرة كان من أهمّها القيادة الحكيمة المفقودة فعلاً، وخصائص الإسلام نفسه التي يمكن أن نطلق عليها صفة «الواقعية» والتي عبرت عن نفسها في الظواهر الإسلامية العامة التي منها هذا (الأمل) موضوع هذا البحث.

ومنها المرونة والترابط والتوازن والشمول وامثال ذلك مما بيناه. كما عبرت عن نفسها في ابتنائها على أرضية أصيلة: تحدد للإنسان موقفه من الكون على أساس فطري عقلي وتمنحه عقيدته الخالصة التي تنبع منها مفاهيم تصورية رائعة وأخلاقية فكرية وعملية.

---

١. النساء: ١٠٤.

٢. سيرة ابن هشام، ج ٣، ص ١٠٧.

وإذا كانت القيادة الحكيمة غائبة فعلاً فإنّ طاقات الإسلام متوفرة فيه، وأن لم نستطع أن نستوعبها ونستوعب تأثيراتها في النفوس، ونطبق أساليبها في التبليغ والعمل.

وهذه الطاقات ـ رغم عدم وضوحها في أنفسنا ـ تعمل عملها اليوم في خلق موجة عالمية للاتجاه للاسلام، وقبول قيادته والانضمام لمعسكره الإنساني.

الأعداء يشعرون بالخطر

إنّنا بعد أن نعرف بأنّ هناك قصوراً وتقصيراً كبيرين في جهاز التبليغ الإسلامي لنلاحظ أنّ تقدم الإسلام اليوم يبشر بكل خير.

فقد جاء في كتاب (ما لم يقل عن دوجول) أنّه ـ أي دوجول ـ بعد الهزيمة الفرنسية حاول الانتحار وارسل يطلب الراهب الذي يعترف لديه فقال له معللاً ما عزم عليه:

«إنّ أوروبا الغربية الآن تنهار أمام النازية ومعنى ذلك انهيار الحضارة النصرانية بصفة نهائية. إنّ أمريكا أختنا في الدين وفي الحضارة وسوف تعمل ما تستطيعه لانقاذ الموقف شيئاً ما ولكن حضارتنا مع ذلك ستنتهي.

وهنالك في الصين شعب قوي نسميه تارة الخطر الاصفر ولكنني لا اعتقد أنّه يكون البديل الصحيح فالحضارة الصينية لا تبلغ درجة حضارتنا المسيحية ولكن الذي أخاف هو هذا الخط الذي يمتد من طنجة إلى كراتشي.

إنّ الإسلام ذو حضارة وثقافة وهو جدير بأنه الوارث لنا فإذا تحالف مع الصين فإنّه لن يوجد أحد يوقف المسلمين عند بواتية[1].

وينقل الاستاذ العقاد في كتابه (ما يقال عن الإسلام) تصريحات عديدة كلها تعرفنا على ادراك الآخرين لسرعة انتشار الإسلام في أفريقيا فيقول مستنداً إلى احصاءات الكتاب الشاملة.

«ويفهم من الاحصاءات أيضاً أنّ الإسلام سريع الانتشار ولكن العلم به سطحي بين قبائل القارة الاصلاء... وقد لوحظ أنّ الشبان من قبائل (الموسي) أقرب إلى اقتباس العقائد الإسلامية ويعودون إلى اهليهم من بلاد النيجر مسلمين متشددين في الدعوة إلى عقيدتهم الجديدة.

---

١. الاستاذ علال الفاسي مجلة الهادي العدد الثاني السنة الرابعة، ص ٢٨.

ويقول: أمّا نظرة الحذر فهي ديدن المشتغلين بالتبشير والاستعمار كلما نظروا إلى شيوع الدعوة الإسلامية وسهولة انتشارها بالاقناع والقدوة.

وينقل عن المؤلف الامريكي لكتاب (أفريقية الجديدة) رأيه بأنّ الإسلام أعرق وأثبت في القارة الأفريقية من أن تعوقه عن الانطلاق في أرجائها عوائق التبشير أو المقاومة السياسية فإنّ المسيحية لم تفلح قط في مقاومة الإسلام بالقارة.

ويقول في حديثه عن بعض طاقات الإسلام في الرسوخ: أنّ من اسباب قوة الإسلام بين قبائل (الهوسا) إلى الجنوب من بلاد المغرب الاقصى أنّ الشعائر الإسلامية قد أصبحت عندهم «طريقة حياة مع الإيمان بعقائدها الروحية وقلما ينجح المبشرون في المزج بين التدين وأساليب المعيشة اليومية».

ومن كتاب مؤلف من قبل قس امريكي أسود يتوضح «أنّ تحويل الدعوة الإسلامية ـ يقصد في امريكا ـ من حركة مقصورة على السود إلى حركة تفتح ذراعيها للسود والبيض من الامريكيين هي موضوع الاهتمام الكبير في دوائر التبشير لان المبشر الإسلامي من الامريكيين السود يعاود الدعوة إلى الإسلام في بلاده كلما اتجهت هذه الدعوة إلى أبناء البلاد جميعاً من قبل المسلمين الآسيويين والأفريقيين وهم اليوم في امريكا طليعة ناجحة قد يتبعها غداً مدد كبير وادعى من ذلك إلى اهتمام دوائر التبشير:

إن المسلم الامريكي الأسود يزاحم البعوث التبشيرية مزاحمة شديدة في القارة الأفريقية بعد استقلال شعوبها عن سلطان الدول الغربية».

ويري باتين في سلسلة كتبه عن أوساط أفريقية أنّ انتشار الإسلام بين الأفريقيين ـ إذا روجعت اسبابه جميعاً ـ إنّما هو نتيجة لا محيد عنها لانتشار حضارة إنسانية ممتازة لم تكن في العالم حضارة تضارعها أو تقوى على فعاليتها.

وأنّ وصول الإسلام إلى القارة الأفريقية كان ملازماً لوصوله إلى القارة الأوروبية نفسها وامتداده إلى الأقطار البعيدة من القارة الآسيوية وقد كان امتياز حضارته سبباً كافياً ـ لسيادته على العالم المعمور والعالم المجهول الذي يصل إليه الإنسان المطبوع على الترحل والسياحة»[١].

---

١. مايقال عن الاسلام، عباس محمود العقاد، ص ٢٩ ـ و٨٤و١٠٩ و١١٤.

هذا إلى غير ذلك من النصوص التي ينقلها هو وغيره عن انتشار الإسلام في عصرنا الحاضر.

فإذا لاحظنا أنّ تلك العناصر المقوية كانت تمتلك في مطلع الإسلام بلا ريب مظهراً أقوى وتأثيراً أكبر لوضوحها وعمقها في المجتمعات التي تنضوي تحت الإسلام وخصوصاً المسلين الأوائل في الجزيرة العربية عرفنا مدى مساعدتها في عملية انتشار الإسلام إلى أرجاء المعمورة.

النظام الإسلامي يسبق الفكر الوضعي:

وكل هذه البشائر لو جمعت إلى حقيقة علمية أصيلة هي سبق النظام الإسلامي لكل النظم الوضعية والنظريات البشرية المطروحة في المجال التنظيمي، فأنّ ذلك ليؤكد في قلب الإنسان المسلم أعمق الأمل بالانتصار.

يقول الأستاذ عبد القادر عودة في كتابه القيم: «التشريع الجنائي في الإسلام» مايلي:

«وأن كانت نظرية الشريعة قد جمعت بين النظريات التي سادت القوانين الوضعية من القرن الثامن عشر حتى الآن، فإنَّ نظرية الشريعة قد تنزهت عن العيوب التي شابت النظريات الوضعية، وسلمت من الانتقادات التي وجهت إليها.

ولعله مما يدهش الكثيرين أن يعلموا: أنّ للعقوبة في الشريعة الإسلامية نظرية علمية فنية تامة التكوين لا يأتيها النقد من بين يديها ولا من خلفها وأنّ القانون بالرغم مما وصل إليه من تقدم إنّما يسير في أثر الشريعة، ويترسم خطاها وأنّه لم يصل بعد إلى ما وصلت إليه الشريعة. وأنّ النتائج التي وصل إليها القانون، والاتجاهات التي يتجه نحوها تدل على أنّ تطوره في المستقبل القريب أو البعيد لن يخرج عن النطاق الذي رسمته الشريعة للعقوبة»[1].

ويقول بعد ذلك:

«ولا يفوتنا بعد هذا أن نذكر أنّ القانون الوضعي كان حتى آخر القرن الثامن عشر قانوناً وحشياً بعيداً عن أفق الإنسانية فكان يحاكم الأحياء والأموات والحيوان والجماد وينزل بالجميع عقوبات شتى قائمة على التمثيل والتشهير، كان القانون الوضعي هكذا حتى أخذ في القرن الثامن عشر بأول مبدأ من مبادئ الشريعة الإسلامية فانقلب قانوناً إنسانياً بحتاً...».

---

١. التشريع الجنائي في الاسلام، والجزء الأول، ص ٦٢٧.

وليس هذا بالنسبة للقانون الجنائي فحسب بل أنا لو استعرضنا مختلف القوانين والنظم الإسلامية وجدنا النظرية الإسلامية قد جاءت بأروع نظام في حين ظل الفكر الوضعي يتعثر في طريقه قروناً وما زال كذلك إلاّ أن يأخذ بحجزة الإسلام.

مثال اقتصادي مذهبي:

يكتب الإمام الصدر في كتابه الرائع «اقتصادنا» فيقول: «وبينما أخذ المجتمع الرأسمالي بالحرية الشكلية، وطرح الحرية الجوهرية وفكرة الضمان جانباً، وقف المجتمع الاشتراكي موقفاً معاكساً ـ إذ قضت الاشتراكية الماركسية فيه على الحرية الشكلية بإقامة جهاز ديكتاتوري يتولى السلطة المطلقة في البلاد، وزعمت أنّها عوضت عن تلك الحرية الشكلية بحرية جوهرية، أي بما تقدمه للمواطنين من ضمانات للعمل والحياة.

وهكذا أخذ كل من المذهبين بجانب من الحرية، وطرح الجانب الآخر، ولم يحل هذا التناقض المستقطب بين الحرية الشكلية والحرية الجوهرية، أو بين الشكل والجوهر.. إلا في الإسلام الذي آمن بحاجة المجتمع الإسلامي للحياة الكريمة، وممارسة متطلباتها الضرورية. ولم يعترف في حدود هذا الضمان بالحرية. وفي نفس الوقت لم يجعل من هذا الضمان مبرراً للقضاء على الحرية الشكلية، وهدر قيمتها الذاتية والموضوعية، بل فتح السبيل أمام كل فرد خارج حدود الضمان ومنحه من الحريات ما ينسجم مع مفاهيمه عن الكون والحياة فالمرء مضمون بدرجة وفي حدود خاصة، وحر خارج هذه الحدود. وهكذا امتزجت الحرية الجوهرية والحرية الشكلية معاً في التصميم الإسلامي هذا الامتزاج الرائع الذي لم تتجه الإنسانية ـ في غير ظل الإسلام ـ إلى التفكير فيه وتحقيقه إلا في غضون هذا القرن الأخير، إذ بدأت المحاولات إلى إقرار مبدأ الضمان، والتوفيق بينه وبين الحرية، بعد أن فشلت تجربة الحرية الرأسمالية فشلاً مريراً[١].

أنّه إذن انفتاح البشرية على الإسلام ـ وأنه الأمل النابع من الواقع التطبيقي، والذي يملأ جوانب قلب المسلم تطلعاً لليوم الموعود:

---

١. اقتصادنا، ج ١، ص ٢٥٠.

وقد كتبت قبل سنين في إحدى المجلات الإسلامية مقالاً قلت فيه: «منذ أن غابت تلك الشمس الرائعة سر تقدمنا ومنطلق عزتنا التي كنا فيها نسير على قمم الزمان الشواهق، منذ أن أسدلت الستر الكثيفة على منبع النور ـ إلا قليلاً ـ وكل الفصائل المؤمنة التي وعت واقعها وحددت نقاط الداء في جسم الأمة وما رأت لكل ادوائها علاجاً ومنقذاً إلا الإسلام العظيم عندما يعود فيمسك دفة الأمور ويحكم في كل مجالات الحياة... كل هذه الفصائل تمر بمرحلة الصبر وما هي إلا عملية تخزين للطاقات ومنعها من الاهدار والضياع في غير وقتها المناسب. ومن خلال هذه المرحلة الطبيعية تتطلع قلوبها اليوم إلى نقاط ضوء تبدو خلال السحب الكثيفة... فتبشرها بالخير كل الخير.. وتشير لها أن تعد العدّة للمستقبل...»

فهنا شعور معمق بالحاجة إلى الإسلام، وهنا نمو في الدعوة إلى واقع التطبيق وسعي حثيث نحو انزاله إلى واقع التطبيق، وهناك خطوات مشكورة نحو لم الشمل ورأب الصدع، وهنا وهناك بشائر أخرى كلها تبعث في القلوب آمالها وفي العيون بريقها وتدعو المستقبل البعيد البعيد فإذا به يصبح قريباً جداً بحيث لا يمكن الإنكار.

لقد التزمت البشرية باطروحات عديدة... لا صلة لها بالسماء فجربتها وعاشت في ظلالها... فلم تجن منها إلا الأسى والألم، ولم تجد فيها السعادة التي تريد... والدواء الذي تحتاج وبالرغم من ذلك بقيت تتخبط بعيداً عن اطروحة السماء إلى أن وجدت نفسها في نهاية الشوط مفلسة وقد أعياها المسير.. وكان هذا الاعياء الآن في القرن العشرين حيث نجد ردود الفعل لضياع الإنسانية الطويل يتجلى في مظاهر مختلفة: منها اقبال ملفت للنظر إلى رسالة السماء. ومهما يكن هذا الاقبال، ومهما تكن هذه العودة، فإنّ لها عندنا قيمتها... شرط أن توجه الوجهة الصحيحة وتسقى بري القرآن.

إنّنا نعتبر الأمة تعيش الانفتاح على عقيدتها من جديد، ولا يعني هذا أنّنا في الطريق سائرون بلا عقبات وعراقيل، كلا... بل يعني العكس لأنَّ اعداءنا ـ وهم الأكثر تخطيطاً للامور ـ يرصدون كل حركة يتململ بها هذا المارد السجين ويعدون له كل حركة نفس، وحتماً فإنّهم سيحسبون للأمر حسابه. ولكنّا مطمئنون بأنّ للباطل جولة وللحق دولة، وأنّ البشرية بمقتضى واقعها الفطري الأصيل، وشعورها بخيبة الآمال في آرائها الناقصة،

وتصريحات الذين دقوا لها ناقوس الخطر وتنبؤوا بمستقبلها الذي تؤطره السماء باطارها المقدّس كل هذه تؤكد أنّ النهاية الطبيعية للبشرية وأنّ ميناء الآمان يكمن في نقطة واحدة يذوب عندها كل ما عداها... ولعل العالم يصلها عن قريب: إنّها الإسلام الخالد.

﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا * وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾[١].

على أنّ تلك القضية الواقعية لا يمكن أنّ تفسر سلبية معينة أو توقعاً مريضاً يعيش على فتات الأمل.

بل إنّها على العكس تشكل الدافع الدفاق لكل واع ومخلص لكي يؤدي دوره كاملاً وهو مطمئن للنتيجة العظمى التي رسمها من قبل وعد الله تعالى.

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[٢].

وأخيراً: فإنّ طاقات الإسلام مازالت فياضة معطاء. وإيجابية الأمل فيه ما زالت تدفع العاملين في سبيله... بشرط أن يحققوا شروط الدفع.

فإلى اهداف الإسلام أيها المسلمون.. والى الأمل الكبير ولنحقق وصية إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام حيث يقول: «ألا وإنّ اليوم المضمار، وغداً السباق، والسبقة الجنّة والغاية النار... ألا وإنّكم في أيام أمل من ورائه أجل فمن عمل في أيام أمله قبل حضور أجله نفعه عمله، ولم يضرره أجله، ومن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضره أجله» ([٣].

الفصل الرابع ـ ضوابط الامل:

رأينا فيما مضى من حلقات: أنّ الأمل محرك أساسي للإنسان، وأنّه كلما علا مستواه ارتفعت طاقة دفعه. وأنّ الإسلام يمتاز على سائر ما عداه بأنّه يغرس في أعماق الإنسان الآمال الكبرى

١. المعارج: ٦ـ٧.

٢. مجلة الهادي العدد الثاني السنة الثانية، ص ٥.

٣. نهج البلاغة، الخطبة ٢٨.

التي تضرب إلى غاية البعد (الخلود) من جهة، وتحتفظ بواقعيتها من جهة أخرى، وأنّ وسائل تنمية الأمل، استمدت من العقيدة والمفاهيم الإسلامية فعاليتها وتأثيرها.

والآن نحاول أن نتعرض إلى الضوابط التي يعطيها الإسلام للأمل لئلا ينقلب على أهدافه، ويحتفظ بما قلناه من التطابق مع الواقع، وواضح أنّ الاسراف والإفراط، وعدم وضوح معالمه لا شك يؤديان بالإنسان إلى عواقب لا تحمد.

أنّ وعي متطلبات تحقيق الأمل أمر يجب توفره دائماً عندما يراد الانسياق لتحقيقه... فكيف أوجد الإسلام ذلك؟

لا ريب في أنّ الإسلام يجعل الهدف الذي يعني تحقيقه تحقيق كل الآمال الأخرى «رضا الله تعالى» فحسب، بإعتبار أنّ رضا الله عن العبد يعني أنّ العبد استطاع أن يحصل على المكانة اللائقة به في الواقع، وبالتالي فأنّ ذلك سيحقق له أبعد الآمال.

ورضا الله تعالى... يعني أنّه سيسعد العبد سعادة واقعية في الدارين: الدنيا والآخرة، ولكن السعادة الدنيوية لا يمكن أن تقاس إلى سعادة الحياة الأخرى، لأنّ الحياة في هذه الدنيا تظل محجوبة عن الواقع الكثير، في حين تكون تلك الحياة في قلب الواقع، ولذا جاء القرآن الكريم ليقول: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾[1]. و﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[2]. ولذا فإنّ الهدف الأكبر والتجلي الباهر لرضا الله سيكون في الآخرة ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللهِ أَكْبَرُ﴾[3].

ومن هنا فقد جعلت الحياة الأخرى الهدف الأكبر في حين امتلكت الحياة الدنيا نصيباً من الاستهداف، وتحقق المتع المادية قسطاً من الدوافع. ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾[4]. وهذا النصيب الذي امتلكه لتحقيق المتع المادية يؤطر بدوره باطار الآخرة، وينظر إليه كمرحلة لا كهدف، ولذا يعبر الإمام عليه السلام عن الدنيا بقوله: من

---

١. العنكبوت: ٦٤.

٢. ق: ٢٢.

٣. التوبة: ٧٢.

٤. القصص: ٧٧.

أبصر بها بصرته، ومن أبصر إليها أعمته»[١]. أو «والبصير منها متزود، والأعمى لها متزود»[٢].

وبعد سبر نظرة الإسلام إلى المتع المادية نجد أنّ القسم الطبيعي منها لم يجد محاربة من الإسلام، بمقتضى واقعيته واطلاعه على حقيقة النفس الإنسانية، إلاّ أنَّه ـ أي الإسلام حاول أن يجعل المسلم الكامل إنساناً أطر كل حياته بأطار الآخرة والتقرب إلى الله تعالى، في حين وقف بحزم ضد الإفراط في المتع المادية وشدة التأثر بذلك الأمل الرخيص، والوقوع في أسره، وخصوصاً إذا تجلى في خلد الإنسان أملاً طويلاً يستنفد كل طاقاته، فأنّه أمر يحاربه الإسلام ويحذر الناس منه وينبههم إلى عواقبه الوخيمة.

وقد دعا إلى تحقيق الزهد دعوة شديدة، والزهد لا يعني إلاّ التحرر من أسار هذه الآمال الرخيصة التي ينظر إليها نظرة استقلالية.

وحذر من طول الأمل ـ بهذا المعنى الذي لا يستند فيه إلى خلفية اخروية ـ وذلك في نصوص كثيرة: منها الآيات القرآنية الشريفة:

﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ﴾[٣].

﴿أَفَمَن وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾[٤].

﴿إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾[٥].

﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٦].

كما أنّنا نجد طائفة كبيرة من النصوص المرتبطة بهذا المجال في «نهج البلاغة» وكلها تبين وتوضح وتدعو إلى قصر الأمل في الدنيا وفنائها هي وما أمل فيها، إلى غير ذلك فيقول الامام عليه السلام :

---

١. نهج البلاغة الخطبة ٨٠.

٢. ن. م الخطبة ١٣١.

٣. الحجر: ٣.

٤. القصص: ٦١.

٥. فاطر: ٤٠.

٦. البقرة: ٢٦٨.

«أنّ اخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى وطول الأمل»[١]. ويقول عن الدنيا: «ولا يغلبنكم فيها الأمل»[٢]. ويقول «واعلموا أنّ الأمل يسهي العقل، وينسي الذكر، فاكذبوا الأمل فأنّه غرور، وصاحبه مغرور»[٣]. ويقول عليه السلام: «والزهادة قصر الأمل، والشكر عند النعم، والورع عند المحار م»[٤]. ويصف ابن آدم فيقول: «فإنّ أجله مستور، وأمله خادع له»[٥]. ويقول: و«حضرتكم كواذب الأمال»[٦]. ويصف الدنيا فيقول: «وتحلت بالأمال»[٧]. ويقول في كتاب له إلى معاوية: «وأحذرك أنّ تكون متمادياً في غرة الأمنية، مختلف العلانية والسريرة»[٨]. ويذم قوماً فيقول: «وتصافيتم على حب الأمال»[٩]. ويقول: «وإنّما هلك من كان قبلكم بطول آمالهم، وتغيب أحلامهم». ويقول عليه السلام: «أنّ الدنيا تغر المؤمل لها والمخلد إليها... أنّ النعمة لن تسلب إلاّ بكفر، فيؤملهم بخير الدنيا ظاهراً».

وجاء في الدعاء الذي يرويه كميل بن زياد عن الإمام «وحبسني عن نفعي بعد أملي، وغرتني الدنيا بغرورها».

كما أنا نلاحظ نفس هذا المعنى يأتي في دعاء علمه الإمام زين العابدين لأبي حمزة الثمالي، حيث يقول الداعي في مقام الاعتذار عن ذنوبه: «وأفنيت بالتسويف والآمال عمري».

هذا، ويجب أنّ لا يغيب عنا: أنّ المذموم في أكثر النصوص هو طول الأمل، أمّا الأمل المعقول الطبيعي فهو يأخذ لنفسه نصيباً من الدوافع، وقد يكون ضرورياً، ففي رسالة الإمام عليه السلام للاشتر يقول له حول الجند «فأفسح في آمالهم، وواصل في حسن الثناء عليهم».

---

١. نهج البلاغة، ج ١، ص ٧٠.

٢. نفس المصدر: ج ١، ص ١٠١.

٣. نفس المصدر: ج ١، ص ١٥١.

٤. نفس المصدر: ج١، ص ١٣٠.

٥. نفس المصدر، ج ١، ص ١١١.

٦. نفس المصدر: ج ١، ص ٢١٦.

٧. نفس المصدر، ج ١، ص ١١١.

٨. نفس المصدر، ج ٣، ص ١٠.

٩. نفس المصدر: ج ١، ص ١٦.

هذا كله في مجال استهداف المتع المادية التي عبر عنها بـ«الدنيا». أمّا في مجال الآمال التي ترتبط بمسألة التكامل المعنوي: فأنّنا وجدنا كيف أنّ الإسلام دفع إلى تركيزها وتجسيدها في وعي الإنسان. ونحن نجد في الأدعية الفقرات التالية كتأكيد لذلك:

«وعظم فيما عندك رغبتي». في دعاء كميل ـ وفي دعاء الثمالي: «الحمد لله الذي لا أرجو غيره ولو رجوت غيره لا خلف رجائي» «ومناهل الرجاء لديك مترعة» «افتراك يا رب تخيب ظنوننا أو تخيب آمالنا، كلا يا كريم، فليس هذا ظننا بك ولا فيك طمعنا، يا رب أنّ لنا فيك أملاً طويلاً كبيراً، أنّ لنا فيك رجاء عظيماً» «إلهي لو قرنتني بالاصفاد، ومنعتني سيبك من بين الاشهاد ودللت على فضائحي عيون العباد، وأمرت بي إلى النار، وحلت بيني وبين الأبرار، ما قطعت رجائي منك، وما صرفت تأميلي للعفو عنك. ولا خرج حبك من قلبي».

«فإنّما أسألك العظيم لقديم الرجاء فيك وعظيم الطمع منك: الذي أوجبته على نفسك من الرحمة والرأفة».

وأخيراً فـ«أنت موضع أملي».

وهكذا يتعاظم الأمل بالله إلى أقصى حد، فيقول الإمام عليه السلام مخاطباً المسلم: «كن لما لا ترجو ارجى منك لما ترجو، فإن موسى بن عمران خرج يقتبس لأهله ناراً فكلمه الله عزّ وجلّ فرجع نبياً».

ولكن هذا الأمل العظيم يقترن بمقتضيات تجعله أملاً صادقاً، ورغبة خاصة، وإلاّ فهو مجرد كذب وخداع.

فأنّ مثل هذا الأمل يجب أن يشكل منطلقاً نحو تحقق مقتضياته، ورأسمالاً للعمل على تنفيذها، إذ المؤمن «رأسماله الرجاء»[1]، منه يندفع نحو العمل الصالح وبطاقته يقتحم الصعوبات، أمّا إذا عدم العمل بمقتضيات الأمل فهو كاذب خداع.

يقول القرآن الكريم:﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾[2].

١. نفس المصدر: ج ٣، ص ٣١.

٢. الكهف: ١١٠.

ويقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «ألاّ وأنّ اليوم المضمار، وغداً السباق والسبقة الجنّة، والغاية النار... ألاّ وأنّكم في أيام أمل من ورائه أجل، فمن عمل في أيام أمله قبل حضور أجله نفعه عمله، ولم يضرره أجله، ومن قصر في أيام أمله قبل حضور أجله فقد خسر عمله وضره أجله»[١].

ويقول عليه السلام:

«ألا فاعملوا في الرغبة كما تعملون في الرهبة. ألا وأني لم أرَ كالجنّة نام طالبها، ولا كالنار نام هاربها».

وعن ابن أبي نجران عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قلت: قوم يعملون بالمعاصي، ويقولون: نرجو، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم الموت؟ قال: «هؤلاء قوم يترجحون في الأماني. كذبوا ليسوا براجين، أنّ من رجا شيئاً طلبه، ومن خاف من شيء هرب منه» (وفسر الترجيح بالتأرجح)[٢].

وقد روي عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله:

«يدعى أنّه يرجو الله. كذب والعظيم! ما باله لا يتبين رجاؤه في عمله؟! وكل من رجا عرف رجاؤه في عمله إلاّ رجاء الله فأنَّه مدخول، وكل خوف محقق إلاّ خوف الله فأنَّه معلول»!![٣].

وعلى هذا، فقد اقترن الرجاء والأمل بالحذر من المخالفة والانحراف اقتراناً قوياً إذ يقول تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾[٤].

وجاء في دعاء أبي حمزة الثمالي:

إذا رأيت مولاي ذنوبي فزعت، وإذا رأيت كرمك طمعت« وفي موضع آخر: «ولك خالص رجائي وخوفي»[٥].

وهكذا يتأكد في خلد المسلم خط متوازن هو خط الخوف والرجاء.

كل هذا كان لتركيز الأمل الحقيقي بصورة عامة وكنتيجة.

---

١. نهج البلاغة: ج ١، ص ٧٠.

٢. سفينة البحار: ج ١، ص ٥١٢.

٣. الوسائل: ج ١١، ص ١٧١.

٤. الزمر: ٩.

٥. مفاتيح الجنان: دعاء أبي حمزة الثمالي، ص ٢٤٥، ص ٣٠٤.

أمّا في مجال تأثير أسباب الأمل وضوابطها فهذا يحتاج منا لمراجعة عاة سريعة لها، والاطلاع على الشرائط التي يضعها الإسلام لتأثيرها.

وإذا رجعنا إلى منميات الأمل ومقوياته في العقيدة:

من الجنة ونعيمها والرضوان الإلهي وعطائه، وجدنا أنّ القرآن الكريم في نفس الوقت الذي يعرض لنا فيه من ذلك صوراً هي غاية في الروعة، يعرض علينا أيضاً صوراً من العذاب الشديد للعاصين هي غاية في الروع أيضاً، ولا نريد هنا استعراض ذلك، بل نشير إلى أنّ عرض صور العذاب إلى جنب عرض صور النعيم لا يقلل من حدة الشوق إلى النعيم بل قد يزيده بتقوية النفور من ضده. ولكنه على أي حال يوجد الوعي بصورة أكمل للزوم الالتزام بمقتضيات تحقيق أمل الفوز بالنعيم، أو فقل يوجد التوازن المطلوب الذي به يتحدد الإنسان بالحدود الواقعية للأمل، ولا يخرج على حدوده، فيعيش في عوالم خيالية مصطنعة قد تتخيل له فتصور له ـ مثلاً ـ أنّ رحمة الله تعالى لما كانت هي الأصل في كل موقف فليفعل هو ما يشاء وسوف تشمله تلك الرحمة! أنّ هذا التصور لا ريب يعني القضاء على الاهداف ويؤدى إلى تضييعها ولكن صور العذاب، تكشف له عن الواقع، وإنّ الله تعالى سيعاقب المنحرف أشد العقاب، لأنّه لم يلتزم بمقتضيات تحقيق الأمل:

﴿وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ﴾[1].

وفي الرواية عن الحرث بن المغيرة أو أبيه عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال:

«قلت له: ما كان في وصية لقمان؟ قال: كان فيها الاعاجيب، وان أعجب ماكان فيها أنّ قال لابنه: خف الله خيفة لو جئته ببر الثقلين لعذبك، وأرج الله رجاء لو جئته بذنوب الثقلين لرحمك. ثم قال أبو عبدالله عليه السلام: كان أبي يقول: ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران: نور خيفة، ونور رجاء، لو وزن هذا لم يزد على هذا ولو وزن هذا لم يزد على هذا[2].

وعن أبي حمزة الثمالي قال: قال الصادق جعفر بن محمد عليه السلام: «أرج الله رجاء لا يجرئك على معصيته، وخف الله خوفاً لا يؤيسك من رحتمه».

---

١. الحجر: ٥٠.

٢. الوسائل: ج ١١، ص ١٦٩.

والمفهوم من مجموع الروايات: أنّ هناك تناسباً طردياً بين تعمق الإيمان وتعمق الخوف والرجاء، وقد يخطر بالبال أنّ الرجاء والخوف ـ كما هو تعبير الرواية ـ ككفتي ميزان، فكيف يمكن تعميقهما؟ إذ لو زاد هذا نقص ذاك مثلاً؟

ألاّ أنّ هذا الخطور ليس بصحيح بعد الالتفات للنقاط التالية:

النقطة الأولى: أنّ تعمقهما قد يكون المراد منه وضوح المحتمل وجلاله لدى النفس، لا ارتفاع درجة الاحتمال ليأتي ذلك الخطور مثلاً، إذ فرق بين (الرجاء والخوف) الصادرين من شخص عادي ينظر للأمور بسذاجة ويقيسها على حياته (والرجاء والخوف) الصادرين من إنسان بعيد النظرة، قربت العوالم المعقولة لديه إلى عالم الحسّ، فأصبح يحسّ بهول النار وروعة الجنّة عياناً، وذلك كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام في وصف المتقين:

«عظم الخالق في أنفسهم، فصغر ما دونه في أعينهم، فهم والجنّة كمن قد رأوها فهم فيها منعمون، وهم والنار كمن قد رأوها فهم فيها معذبون... فإذا مروا بآية فيها تشويق ركنوا إليها طمعاً، وتطلعت نفوسهم إليها شوقاً، وظنوا أنّها نصب أعينهم، وإذا مروا بآية فيها تخويف، أصغوا إليها مسامع قلوبهم، وظنوا أنّ زفير جهنّم، وشهيقها في أصول آذانهم»[١].

النقطة الثانية: أنّ من الممكن تصور ارتفاع درجة الاحتمال في كل منهما مع اختلاف في متعلقهما، أي أن يقوم الأمل ـ مثلاً ـ في رحمة الله تعالى وعفوه فيأمل الإنسان في ذلك أملاً بعيداً، في حين يتضخم الخوف من سوء العاقبة. وهناك أخبار تتحدّث عن هذا المعنى فعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: أنّ المؤمن لا يصبح إلاّ خائفاً وإن كان محسناً، ولا يمسي إلا خائفاً وإن كان محسناً، لأنّه بين أمرين: بين وقت قد مضى لا يدري ما الله صانع به، وبين أجل قد اقترب لا يدري ما يصيبه من الهلكات»[٢].

وعن أبي عبيدة الحذاء عن الصادق عليه السلام أنّه قال:

«المؤمن بين مخافتين، ذنب قد مضى لا يدري ما صنع الله فيه وعمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك...»[٣].

---

١. نهج البلاغة: فهارس الصالح، ص ٣٠٤.
٢. الوسائل: ج ٦، ص ١٧٥.
٣.الوسائل، ج ٦، ص ١٧٢.

وتدعو بعض الروايات إلى التركيز على العاقبة، فإنّ الخوف من سوئها يدفع الإنسان نحو العاقبة الحسنة، وتقوي أمله أكثر فأكثر.

فعن الإمام العسكري عليه السلام عن آبائه قال: قال الصادق عليه السلام: «إنّ الرجل ليكون بينه وبين الجنّة أكثر مما بين الثري إلى العرش لكثرة ذنوبه، فما هو إلا أن يبكي من خشية الله عزّوجلّ حتى يصير بينه وبينها أقرب من جفنه إي مقلته».

وفي الحديث عن الصادق عليه السلام:

«حسن الظن بالله أنّ لا ترجو إلا الله، ولا تخاف إلا ذنبك».

النقطة الثالثة: أنّ قوة الخوف والرجاء قد تأتي من ناحية أثرهما في النفس وانعكاسها على السلوك الخارجي.

فالقوي منهما هو الذي يوجه سلوك الإنسان لصالح الهدف.

يقول الصادق عليه السلام: «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو»[1].

ومن الطبيعي أن يكون لدرجات الإيمان دورها في فاعلية الخوف والرجاء.

فهناك درجات من الإيمان يحتاج المرء معها لأن يتوفر على درجة من الخوف والرجاء حتى يضمن السير المتوازن، وهناك درجات من الإيمان قد يؤمن فيها من الانحراف حتى لو وجد احدهما فقط، فإذا الاثنان كان تحقيق الغاية من ذي قبل.

النقطة الرابعة: أن نرجع إلى ما قلناه في النقطة الأولى، فنعمق الاحساس بالنار والجنّة أكثر، بأن يحس الإنسان باللذائذ المعنوية التي سيحصل عليها ـ إضافة للذات المادية من الحور والجنان ـ وأروع ما فيها هو (رضوان الله تعالى) فهو النعيم الأكبر. كما يحس بالعذاب المعنوي الشديد الذي يتجاوز العذاب المادي، وذلك ما عبر عنه المقطع الرائع من الدعاء: «فهبني يارب صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك».

وعلى أي حال: فالخوف والرجاء إذن متساويان في خلد الإنسان المؤمن ومتكافئان يعملان جنباً إلى جنب في تحقيق الغاية المنشودة.

---

١. وسائل الشيعة: ج ١، ص ١٧.

وإذا انتقلنا إلى الاعتقاد بالنبوة وفروعها والأمامة ومقتضياتها، وجدنا التأكيد الشديد على لزوم الانخراط في صف العاملين والملتزمين بكل تعاليم الشريعة، حتى يمكن تحقيق الأهداف الكبرى التي يرسمها في الذهن ذلك الاعتقاد.

ولا أرى فعلاً داعياً للتفصيل والتعرض إلى الروايات التي تعرف المسلمين حقيقة المسلم، وحقيقة الإنسان الموالي لأهل البيت عليهم السلام الذي له الحق أن يأمل بالفوز فذلك أمر له محله.

في مجال القوانين القرآنية:

أما في مجال القوانين القرآنية التي مرت علينا من قبل: فإنّه من الواضح أن كل قانون يتقيد بموضوعه، وما لم يتحقق الموضوع فليس من الصواب أن نتوقع حدوث الحكم. ومن هنا، فإنّ المسلم عليه أنّ يحقق مواضيع تلك القوانين حتى يأمل الحصول على أحكامها.

فمثلاً يجب أن يكون على الحق لينسجم مع سر الوجود، ومع العدل ليكون مؤيداً بالقوانين السارية في الكون، مع الإيمان ليتوقع النصر وهكذا.

وأخيراً فإنا استعرضنا بعض القوانين التي يعتقد المسلم بتأثيرها تماماً كما يعتقد بتأثير القوانين الحسية، وهذه القوانين لها قيودها أيضاً، وهي تضمن لها الأداء الصحيح وعدم الانقلاب إلى الضد. وهنا نحن نستعرض بعضها بإيجاز:

الدعاء:

وقد جعلت لاستجابته شروط، وعمدتها الاقبال بالقلب، وهو أَحد أسرار تشريع الدعاء، فقد قال الصادق عليه السلام :

«من أراد أن ينظر منزلته عند الله فلينظر منزلة الله عنده، فإنَّ الله ينزل العبد مثل ما ينزل العبد الله من نفسه»[١]. وقال أمير المؤمنين عليه السلام «لا يقبل الله دعاء له»[٢].

وعن الصادق عليه السلام قال:

«احفظ آداب الدعاء، وانظر من تدعو، ولماذا تدعو، وحقق عظمة الله وكبرياءه، وعاين

---

١. الاخلاق، شبر، ص ٦٢.

٢. المصدر السابق.

بقلبك علمه بما في ضميرك، واطلاعه على سرك، وما كمن فيه من الحق والباطل، واعرف طرق نجاتك وهلاكك، كي لا تدعو الله بشيء عسى فيه هلاكك وأنت تنظر أنّ فيه نجاتك»[١].

وسئل الصادق عليه السلام بعد أن قرأ: «أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء»: ما لنا ندعو ولا يستجاب لنا؟ فقال: «لأنكم تدعون من لا تعرفونه، وتسألون مالا تفهمونه»[٢].

نعم إنّ كل هذه الأمور وغيرها توضح مسيرة الداعي، وتجعل مفهوم الدعاء يؤدي دوره الصحيح.

وأما التوبة: فيكفي أن نقول: إنّ التوبة المطلوبة من العبد هي التوبة النصوح، أي التي قامت على أساس تصميم وعزم صحيح على الإقلاع عن الذنب والسير في الطريق المستقيم.

وقد روي أنّ رجلاً قال بحضرة أمير المؤمنين عليه السلام : «استغفر الله» فقال له:

«ثكلتك أمك! أتدري ما الاستغفار»؟

الاستغفار درجة العليين. وهو اسم واقع على ستة معاني:

أولها: الندم على ما مضى.

والثاني: العزم على ترك العود إليه أبداً.

والثالث: أن تؤدي إلى المخلوقين حقوقهم، حتى تلقى الله أملس ليس عليك تبعة.

والرابع: أن تعمد إلى كل فريضة ضيعتها تؤدي حقها.

والخامس: أن تعمد إلى اللحم الذي نبت على السحت فتذيبه بالأحزان، حتى يلصق الجلد بالعظم وينشأ بينهما لحم جديد.

والسادس: أن تذيق الجسم ألم الطاعة، كما أذقته حلاوة المعصية.

فعند ذلك تقول: استغفر الله[٣].

أمّا مفهوم الشفاعة: وهو الباب الآخر للأمل، فقد صرحت الآيات بأنّها لن تكون إلا لمن ارتضى، فالأهلية شرط أساسي لكي يقع المشفوع له مورداً لشفاعة الشفيع.

---

١. المصدر السابق.

٢. المصدر السابق.

٣. نهج البلاغة حكمة ٤١٧.

وهكذا رأينا الشروط العامة والخاصة كلها تؤكد على أنّ لا ينتقض الغرض من فتح أبواب الأمل، فيعود الأمل غروراً، ومحفزاً للانحراف، بعد أن كان قد اريد له أن يكون الدافع نحو التكامل والهدف التشريعي المنشود.

وهذا الابهام من مستقبل شفاعته ـ ومثله الابهام في مستقبل توبته ـ له أثره الكبير في منع تحول الشفاعة والتوبة والدعاء وغيرها من أبواب الأمل إلى مبررات للانحراف... ومن هنا فهي تؤدي دورها الإجابي، وتمنع ضوابطها والابهام في مواردها من الاستغلال.

ولا يفوتنا هنا التنبيه إلى نقطة تتفرع على لزوم اهلية المستشفع للشفاعة، وهي: مسألة لزوم أن تتأطر أماني المستشفع بصيغة الشفيع وأهدافه، وهذا يضمن لنا بالتالي صحة المسار المختار وواقعية الأهداف وانسجامها مع أهداف الشفيع نفسه.

استعراض وربط

بمراجعة فاحصة لما سبق عرضه من العقائد الإسلامية، والقوانين التي يصبها الإسلام في ذهنية الإنسان المسلم، تتوضح لنا معالم الموقف، وروافد الأمل الكبرى في تلك الذهنية، والتي كان المفروض فيها أن تتحول إلى إيجابية واقعية نحو إقامة المجتمع الوسط، ومواصلة المسيرة الخيرة إلى الغاية الخيرة.

أنّنا سندرك بهذه المراجعة: أنّ الإسلام يتخلص من نقطة الضعف الكبرى التي شلت المبادئ الوضعة عن العمل في صنع التاريخ، وعن اشباع الطموح الإنساني الوثاب الذي يعتبر وقود على طول الخط، وتلك النقطة هي: (التحديد المادي).

فعلى العكس من ذلك نجد أنّ الإسلام يربط الطموح بغاية ما يمكن أن يطمع إليه الإنسان وهل هناك غاية أروع من الخلود الواقعي في درجة هي غاية من السعادة في جنّة، هي غاية في الاشباع النفسي والجسمي «فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين» و«رضوان من الله أكبر»... وهنا يمكن أن نستعرض مختلف أنواع الملذات الاخروية التي يعرضها القرآن الكريم، بل يستعرض بعضها، لأنّ فيها «مالا عين رأت ولا أذن سمعت».

وإذا ثبت كل ذلك كانت كل تلك التضحيات الغالية منطقية جداً، ومنسجمة جداً مع أسسها وأهدافها البعيدة...

.... ولنا بعد ذلك أنّ نستعرض نقاط الضعف السابقة، والتي لازمت المبادئ الوضعية، فنجد أنّها تتحول إلى نقاط قوة عند المبادئ الإلهية التي يتوجها الإسلام، لاحتوائه على كل حسناتها وزيادة.

وقد سبق أنّ المبادئ الوضعية لا تمتلك إلاّ أهدافا محددة، وبنظرة ـ ولو سريعة ـ إلى العقيدة الإسلامية والاهداف التي يحددها القرآن للإنسان في الدنيا والآخرة يمكننا أنّ نجد البون الشاسع بين الأهداف، فإنَّ المسلم يعتقد: أنّ الوحي استهدف دنيوياً: أن يسلك بالبشرية صعداً نحو تحقيق مجتمع العدل والسعادة، حيث تملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً وسنتحدث في الخاتمة عن دور انتظار ذلك اليوم في الدفع نحو العمل.

وفي سبيل تحقيق هذا الهدف بشكل طبيعي واقعي، تسعى الهداية الإلهية لمسايرة المسيرة البشرية وبعث أنوار الحق كلما خبت مركزة العقيدة شيئاً فشيئاً، وبشكل يتناسب مع كل مرحلة من مراحل عمر الإنسان... فلا عجلة في الطريق... ولا يأس من الوصول.

وهكذا يعتقد المسلم على ضوء تعاليم القرآن الكريم... أنّ العالم سيصل إلى دنيا المتقين.. في مسيرته الطويلة فكل النبوات تعتبر في نظره خطوات على الطريق نحو اليوم الموعود... غاية الأمر أنّ هذه الخطوات تمر بمنعطفات تاريخية، كما في الأنبياء أولي العزم.

والمسلم عندما يعتقد ذلك يمتلك المبررات التي تجعله ينتظر هذا اليوم بمزيد من الشوق... فإنّه يستمد حتمية مجيء هذا اليوم من أمور كثيرة وأهمها:

وعد الله تعالى به... وهو تعالى عالم بكل أسرار الكون، لأنّه خالقه وبارئه، والمحيط بكل ما يمر به المجتمع الإنساني كجزء من احاطته بالكون ـ من عقبات وانتصارات... فهو عندما يخبر عن ذلك فإنّه لا شك حاصل... ولن يقلل من الإيمان بوجوده ما يشاهده من طغيان الظلم والانحراف.. فإنّ المسلم يعتقد بأنّ الحق سينتصر ﴿فأما الزبد فيذهب جفاء واما ما ينفع الناس فيمكث في الارض﴾ وان العاقبة للمتقين... وأن الباطل جولة وللحق دولة... وان الله سينصر رسله... وأنّ حب الله تعالى له سيكون واسطة إلى بلوغه الهدف الأسنى في الأرض... وأنّه إذ يعمل على نصرة الحق فإنّه يهيء الأرضية الملائمة لعمل القوانين الكونية العامة التي تقوم بالحق.. وهكذا.. فإنَّ العدل هو الذي سينتصر في النهاية الحتمية.

كما أنَّه من الأمور التي تركز إيمانه بحتمية اليوم الموعود نفس اعتقاده بأنّ الدين فطري، وأنّ كل الانحرافات إنّما تعتبر غشاوات على الفطرة ومن هنا فلا يجد أي مانع من زوال هذه الغشاوات بعد توفيق من الله تعالى وعمل جاد من الوعاة الحاملين للواء العقيدة.

ومما يزيد المسلم اصراراً على اعتقاده... ويقوي فيه أمله... وخصوصاً في مثل هذه العصور، ماهو الواقع ن مرور العالم بتجاربه الكثيرة مع المبادئ الوضعية.. وملاقاة الأمرين من ذلك... فقد أكد الكثيرون من المفكرين زيف ما تدعيه هذه المذاهب من خيالات مسرفة لا واقع وراءها... وبالخصوص ما لاقاه العالم من المبدأين المتصارعين الكبيرين: الاشتراكية والرأسمالية... مما جعله يؤمن بافلاس الحضارة المادية ويتجه ـ بكل خجل وشوق ـ نحو الحياة التي تجمع بين الاشباعين المادي والروحي... ولن يجد أمامه ـ وهو في هذا الاتجاه ـ إلاّ الإسلام، والإسلام وحده كبديل لهذه الحضارات الخاوية الباطن البراقة الظاهر، والتي حولت الإنسان إلى آلة في تفكيره وتصرفاته كلها ففقد معها اصالته الإنسانية وسيأتي الحديث عن هذا المجال.

وهذا الأمل لن يوضع في اطاره الحقيقي إلاّ إذا انظم إليه الاعتقاد بأنّ الإنسانية (كل مترابط) وأنّ كل سلوك يسلكه أي فرد له تأثيره ـ وإنّ كان ضئيلاً ـ في المستقبل... مما يستتبع أن تقوم البشرية في كل عصر بالثناء والشكر لصالح كل إنسان عمل على أن يدفع بالركب إلى الإمام، وأن يحقق الانفتاح على واقع أفضل لها.

وهذا الثناء والشكر لن يكون له أي مؤدى وأي فائدة إلا إذا انظم إليه الاعتقاد بوصوله على هيئة درجات ترفع ومقام يعلو... وحسنات تضاف إلى ذلك الإنسان الذي قد يكون توفى منذ عشرات القرون... وهذا بدوره لن يكون إلا بالاعتقاد بالآخرة والحياة الخالدة.

والمسلم هو الذي يعتقد بكل هذه الأطر تماماً. إذ الإسلام يجعل المؤمنين ـ قبل كل شيء ـ رتلاً واحداً له مسيرة واحدة، ومستقبل واحد، ويرى أنّ أي عمل يمكن أن يؤديه سابق يوجب على اللاحقين أن يقوموا بازائه بإداء حقه من الشكر، فضلاً عن حمل رسالته ودفعها للإمام... وهذا الشكر يتمثل في دعاء المؤمنين لمن سبقوهم بعلو الدرجات.

وأروع صورة لهذا الدعاء: الصلوات التي يرسلها المؤمن المسلم في صلواته اليومية

وغيرها إلى محمد ﷺ وأهل بيته عليهم السلام باعتبارهم ارفع مثل للعمل الجاد الواعي المضحي في سبيل مستقبل الإنسانية... وما أروع أن يقوم المسلمون بشكر قادتهم، والدعاء لهم، والطلب من الله تعالى أن يغمرهم بالصلوات والخيرات على مر العصور.

ومن هنا يدعو المسلم لاخوانه الذين سبقوه بالإيمان ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾[١].

وجميل أن نجد المسلم في نهاية كل صلاة يسلم على عباد الله الصالحين، من سبقوا ومن هم في هذا العصر ومن لم يولدوا بعد.

ومن هذا القبيل ما يكاد أن يصبح من المسلمات لدى المسلمين أنّه «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة»[٢]. فهذا المضمون وارد في أحاديث عديدة.

منها ما عن الصادق عليه السلام: «ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلا ثلاث خصال: صدقة أجراها في حياته، فهي تجري بعد موته، وسنة هدى سنها فهي يعمل بها بعد موته، وولد صالح يستغفر له»[٣].

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «أيّما عبد من عباد الله سن سنة هدى كان له أجر مثل أجر من عمل بذلك، من غير أن ينقص من أجرهم شيء، وإيَّما عبد من عباد الله سن سنة ضلالة كان عليه مثل وزر من فعل ذلك من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[٤].

وهكذا يتجاوز فاعل الخير المسلم حدود حياته وهو وحتى حدود ما يمكن أن تكون حياته قد قدمت له من ثواب في الآخرة، إلى حيث يتصور التسلسل اللانهائي تقريباً للخيرات التي سيغرس بذرتها... فهو على لسان من يأتون بعده: دعاء بالخيرات والخير، وله من كل ما يعملون أجره الذي ينتظره... في حين ينقلب هذا الأمر بالنسبة للمسلم الذي يريد

---

١. الحشر: ١٠.

٢. راجع ميزان الحكمة، ج ٤، ص ٥٦٦ من سنّ سنة.

٣. راجع ميزان الحكمة، ج ٤، ص ٥٦٦.

٤. المصدر السابق.

أن يقدم على عمل السوء، فإنه سيتصور لعنات الأجيال الآتية، والمآثم الكبرى التي ستلاحقه بعد موته فتتضاعف عليه بمقتضى هذا القانون المعنوي القائم كسنة كونية عامة.

فالمؤمن ـ إذن ـ تصله خيرات السابقين واللاحقين، ويوم القيامة بعد لم يقم... إذ هو يمر بعالم متوسط أطلق عليه اسم «البرزخ».

هذا كله في إطار الهدف الذي يمكن أن تجنيه الإنسانية بوجودها الممتد في الحياة الدنيا، وإن كانت بعض الأطر تتجاوزها إلى الآخرة لتوجد الربط بين الأعمال السابقة واللاحقة. وكل هذا ـ لعمري ـ يكفي في أن يشكل دافعاً قوياً ومبرراً صالحاً لما يحتاجه أي مبدأ من تضحيات وجهود كبرى.

ولكن كل هذا... يعتبر لا شيء إذا قيس لما يعتقده المسلم من ما سيكون في عالم الآخرة من جزاء عظيم ـ إن سلباً أو إيجاباً.

وهكذا....

... يقوم المسلم بالعمل لصالحه هو ولصالح مجتمعه، ويعيش حياة أخلاقية عالية تتجلى فيها الإنسانية بأجلى مظاهرها. ويطبق باقي أجزاء النظام البناء الدقيق، والذي روعيت فيه العدالة بدقة وتوازن... بعد أن يعتقد بها تمليه عليه فطرته... وبها ينقذه من عالم الضياع والقلق.

وما أنّ يقوم بهذا، أو يعمل على الوصول إليه حتى يكون مؤهلاً لخيرات عالم الآخرة الفسيح.

وهذه الخيرات الموعودة تتزايد وتتضاعف كلما صدر من المسلم عمل خير في هذا السبيل فكل الأعمال التي تعتبر في الحساب المادي خسارة ما بعدها خسارة تتحول هنا إلى ربح ما بعده ربح.

وعندها، تهون كل الشدائد والمصائب وتذوي كل العقبات الطارئة المؤقتة... بعد أن تتعلق روح المسلم بعالم الخلود الموعود.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ * وَلاَ يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً وَلاَ يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلاَّ كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾[١].

١. التوبة: ١٢٠ـ١٢١.

أنّ الآخرة لتملك على الإنسان لبه... فتجعله يتعشق ما يهيئ فيها أكبر أسباب الراحة... ويتنافس في فعل الخيرات.

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[١].

وإنّها لتقلب المفاهيم المادية القائمة على المصلحة واللذة، والمال والغنى، والفقر. حتى أنّ الفقراء جاؤوا إلى النبي ﷺ يشكون من فقرهم لا لشيء إلا لأنّهم لا يستطيعون الانفاق في سبيل الله تعالى.

وأخيراً: فمن خلال هذا العرض الرابط السريع نستطيع أن نقول:

إنّ الخلود الاخروي في ذهن المسلم يختلف كثيراً عن الخلود الذي تنادي به الشعارات الوضعية ـ بل لاربط له به ـ إذ ذلك الخلود خلود الشعارات البراقة، والخيال المجنح، والسراب الكاذب لا غير، بينما يستمد الخلود الأخروي ضماناته من قدرة الله تعالى ووعوده للمؤمنين.

١. المطففين: ٢٦.

الأقليات الإسلامية وعلاقاتها بمجتمعاتها

محمدعلى التسخيرى

دور منظمة المؤتمر الإسلامي في حل مشاكل الأقليات الإسلامية[1]

يعتبر موضوع الأقليات على جانب كبير من الأهمية، ذلك لأن عدد المسلمين المقيمين في غير البلدان الإسلامية يبلغ ٤٥٠ مليون شخص أي حوالي ثلث عدد كل مسلمي العالم. وفي بعض البلدان ـ كالهند والصين ـ يربو عدد المسلمين على عدد سكان كثير من البلدان الإسلامية. ومن أجل أن نحمي الأقليات الإسلامية في الدول غير الإسلامية، ينبغي أوّلا أن ندرس مشكلاتها في جميع المجالات ونتعرف عليها بشكل تخصصي وبعد ذلك نقدم الحلول والمقترحات لتقليل هذه المشاكل أوحلها بالكامل.

وبالطبع، فإن مشاكل الأقليات المسلمة تختلف بين قارة وأخرى، لكننا نستطيع أن نجملها في المجالات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية. وفيما يلي ندرس كل صنف منها ونضع لها الاقتراحات والحلول المتعلقة بها. هذه القضية المهمة للغاية ينبغي متابعتها من قبل منظمة المؤتمر الإسلامي؛ لأن هذه المنظمة ذات المؤسسات الواسعة يمكنها نيابة عن العالم الإسلامي كله أن تدعم وتساعد الأقليات الإسلامية بشكل منظم وتقدّم الطرق العملية لذلك.

أ. المشاكل الثقافية

تعتمد ثقافة كل مسلم على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ومفتاح فهم هذه الثقافة هو اللغة العربية. وفي الوقت الحاضر، فإن الاختلاف الثقافي الأساسي بين الأقليات

---

١. القي في اجتماع لجنة الخبراء التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي بمدريد في كانون الاول من عام ١٩٩٨م.

المسلمة والبلدان غير الإسلامية يعود إلى الاختلاف في اللغة أو بتعبير أفضل عدم معرفة اللغة العربية في تلك المجتمعات.

وهذا الاختلاف يؤدي إلى تباين نمط التفكير لدى هذه الأقليات خلال البحث عن المصادر الثقافية للفكر الإسلامي وهذا الأمر أكبر خطر يهدد عقيدتها نفسها.

وهنا ينبغي القول إن المراد من الثقافة الإسلامية هو الرؤية الفكرية الكاملة التي يملكها الإسلام نحو الكون؛ لأن تعليم الإنسان وهو في سن الطفولة والفتوّة، انما يتم بعيداً عن الإسلام تماماً وبعقائد أخرى متأثرة بإعلام البلدان غير الإسلامية البعيد تماماً عن الأهداف الإسلامية.

ومثل هذا الخطر ماثل ومحدق بالاجيال التالية، وكلما جاء جيل كان أكثر من سابقه في الذوبان في الثقافة الأجنبية، مما يؤدي إلى نمط من فقدان الهوية الثقافية لدى هذه الأقليات المسلمة أوّلا.

وثانياً: يحصل نوع من اللاأبالية لدى أبناء الأقلية تجاه المجتمع الذي يعيشون فيه، مما يسفر ـ بحد ذاته ـ عن التفكك العائلي وازدياد حالات التمرُّد لدى الأطفال، والانتحار بين الكبار وخاصة بين المترفين والأثرياء، وفقدان الموجّه للشباب المسلمين.

وثالثاً: إن ذلك يسفر عن ظهور حالة من الفتور وعدم الإقبال تجاه تنفيذ الأحكام الإسلامية وأحقية الإسلام، وهذه الحالة لوحظت بين أفراد الجيل الثاني للنساء وخاصة فيما يخص التزامهن بالحجاب وظهرت فيما بينهن حالة ازدواجية الشخصية.

فمن جانب نجدهن يفضّلن عدم ارتداء الحجاب لكي لا يصبح ذلك سبباً في لفت الانظار اليهن وليتمكّنّ من العيش في المجتمع بسهولة وراحة أكثر، ومن جانب آخر فإن التعاليم الإسلامية تمنعهن من القيام بذلك.

ورابعاً: يحصل نمط من الاختلاف الفاحش والبون الكبير في الاحتياجات المعنوية والنفسية للجيل الأوّل والثاني.

وهناك جملة اقتراحات يمكن أن يؤدي تطبيقها إلى معالجة المشكلة الثقافية إلى حد كبير:

١. إن حل مشاكل الأقليات بحاجة إلى مساعدات مادية وثقافية، وهذه المساعدات يمكن أن تتوفر عن طريق حكومي أو شعبي أو دولي وأهم جهة تنفيذية لهذه المساعدات هي منظمة المؤتمر الإسلامي.

وفي هذا الصدد، تتمتع منظمة المؤتمر الإسلامي بالدور الأكبر ويمكنها التخطيط لذلك عبر تشكيل لجنة تنفيذية وتكثيف الاتصالات بين البلدان الإسلامية والدول غير الإسلامية التي تقطنها أقليات إسلامية.

٢. التخطيط الدقيق في منظمة المؤتمر الإسلامي لغرض ترويج استعمال اللغة العربية والى جانبها التعرف على اللغات الإسلامية الأخرى كاللغة الفارسية وغيرها عن طريق القناة الفضائية الإسلامية التي تبثُّ برامجها في ساعات محدودة، من أجل المحافظة على الاصالة الإسلامية لهذه الأقليات، إذ أن اللغة العربية تعتبر اللغة الرابعة على صعيد العالم ـ بعد الصينية والانجليزية والاسبانية ـ حيث يتكلم بها أكثر من ١٥٠ مليون نسمة في مختلف قارات العالم وخاصة آسيا وأفريقيا.

٣. إن تساعد منظمة المؤتمر الإسلامي الأقليات عبر زيادة المنح الدراسية المتعلقة باللغة العربية وباقي اللغات الإسلامية، وان تتعهد البلدان الإسلامية بدفع كل التكاليف المتعلقة بذلك.

٤. مساعدة الأقليات في تأسيس مدارس تعليم اللغة العربية وسائر اللغات الإسلامية للاطفال والاهتمام بمثل هذه المدارس.

٥. تعليم اللغة العربية وسائر اللغات الإسلامية للأجانب عن طريق إذاعات الدول الإسلامية ووضع كل الوسائل التعليمية اللازمة ـ كأشرطة التسجيل والافلام ـ تحت تصرفها من قبل سفارات البلدان الإسلامية ومراكزها الثقافية.

ب. المشاكل الاجتماعية

عندما يقطن مسلم في احد البلدان غير الإسلامية يواجه العديد من المشاكل وما نقصد تبيانه هنا المشاكل الاجتماعية في المجتمعات التي تتوافر فيها حرية العقيدة والمذهب وباستطاعة المسلمين فيها أن يؤسسوا الجمعيات والاتحادات الإسلامية وأن يمارسوا كل نشاطاتهم وعباداتهم الإسلامية.

ويمكن تقسيم أبرز المشاكل الاجتماعية التي يعانونها إلى أربعة أصناف هي:

ـ مشكلة التعليم.

ـ المشاكل التربوية.

ـ مشكلة الاختلاط.

ـ مشكلة الاعلام.

١. مشكلة التعليم

إن الخطر المهم الذي يهدد الأقليات القاطنة في البلدان غير الإسلامية هو النظام التعليمي ذو الأهداف الوطنية في تلك البلاد. في هذا النمط من الأنظمة التعليمية ثمة تباين كبير بينها وبين النظام التعليمي الإسلامي، لأن الأخير له أصول ذاتية نابعة من داخله وهدفه تعليم وتربية المسلم من حيث العقيدة والقيم والأخلاق وكيفية التعامل مع الناس، بينما نرى أن الأنظمة غير الإسلامية تقوم بتعميق الاتجاهات والمشاعر القومية والوطنية والتاريخية للتوصل إلى غاياتها.

إن مشكلة فقدان المدارس التعليمية للاطفال المسلمين تعتبر احدى المشاكل المهمة، وإذا وجدت بعض المدارس التي تستهدف تربية وتعليم الأطفال والناشئة المسلمين استناداً إلى الأصول والمبادئ الإسلامية، فإن فيها نوعين من النواقص والإشكالات المهمة:

احدهما: إنها مفتوحة في أيام العطل الأسبوعية وغير مفتوحة في سائر أيام الأسبوع حيث يجري تعليم الأطفال المسلمين في المدارس الحكومية.

والثاني: إن هذه المدارس لا تعطي للدارس فيها وثيقة رسمية ليتمكن الشباب المسلمون من الحصول على عمل مناسب استناداً اليها.

ومن المشاكل الأخرى التي تعاني منها الأقليات الإسلامية فقدان المكتبات والمراكز التعليمية، ويمكن أن تبذل منظمة المؤتمر الإسلامي جهودها في سبيل تأسيس هذه المراكز في البلدان غير الإسلامية.

كما أن تأسيس مراكز التوثيق والمعلومات من أجل إيصال المعلومات وتوعية الأقليات يعتبر من أهم الأمور التي ينبغي لمنظمة المؤتمر الإسلامي ـ باعتبارها تمثل العالم الإسلامي برمته ـ إن تدرجها في جدول أعمالها.

٢. مشكلة التربية

اهم قضية تواجهها الأقليات المسلمة هي أنها تقطن في مجتمعات غير إسلامية تختلف عن

المجتمعات الإسلامية من جميع النواحي. وبعبارة أخرى يمكن القول: إن المجتمع هو الرحم الذي تنشأ وتتربّى فيه شخصية الإنسان، وبما أن الأقليات تعيش في رحم غير الرحم الإسلامي فإن ذلك يقترن بخطرين:

الأوّل: كونها تؤدي إلى احباط مفعول التربية الإسلامية وجعلها غير مجدية.

الثاني: إن الأولاد يتعرضون لضغوط وتجاذب شديد من قبل نمطين من التربية، أحدهما ما يريده منه دينه والثاني ما يفرضه عليه الواقع الاجتماعي الذي يعيشه.

ومن المشاكل التربوية التي تعانيها الأقليات الإسلامية هو أن أبناءها يدرسون في مدارس غير إسلامية وتحت اشراف معلمين غير مسلمين، وفي كثير من الأحيان يتعرضون للذوبان في المجتمع غير الإسلامي والذي يعمل لاضعاف الهوية الإسلامية.

وإضافة إلى خطر المعلمين، فإن هناك خطراً آخر هو اختلاطهم بزملاء في الدراسة غير مسلمين يعايشونهم يومياً في تلك المدارس، وربما فاق تأثير هؤلاء على الطلبة الفتية المسلمين وعلى تبلور شخصياتهم، تأثير المعلمين أنفسهم.

كما أن عدم معرفتهم باللغة العربية تجعلهم عاجزين عن فهم القرآن الكريم وكتب التراث والسيرة والأحاديث النبوية، وهذه الأخرى إحدى المشاكل التربوية التي يعانون منها، وفضلاً عن ذلك، فإن خطر غسيل الدماغ يتهدد أبناء الأقليات الإسلامية، وهو نموذج للغزو الفكري السائد في تلك المجتمعات.

مقترحات وطرق عملية لحل المشاكل التربوية

١. في ضوء كون كثير من أفراد الأقليات الإسلامية من حملة شهادات الدكتوراه (PHD) على سبيل المثال هناك حوالي ٢٠٠٠ شخص من الإيرانيين في أمريكا فقط يحملون هذه الشهادة العلمية فبإمكان المؤتمر الإسلامي البرمجة والتخطيط للاستفادة من طاقات وقابليات هؤلاء الأشخاص أنفسهم في البلدان غير الإسلامية لغرض تربية وتعليم أبناء الأقليات.

٢. لغرض حل هذه المشكلة ينبغي تشكيل لجنة في منظمة المؤتمر الإسلامي لاتخاذ القرارات العملية في هذا الصدد.

٣. ضرورة السعي لتفعيل دور دائرة الأقليات في الأمانة العامة للمنظمة وتمكينها من النهوض بواجباتها المهمة في حماية الأقليات والجاليات الإسلامية.

٤. البرمجة والتخطيط لطباعة الكتب الإسلامية وإرسالها إلى أبناء الأقليات الإسلامية واهدائها إلى المدارس الإسلامية الموجودة فعلاً.

٥. توسيع ونشر المراكز التربوية كالمساجد ودعم تشكيل المجالس القرآنية والمراكز الإسلامية.

٦. إيفاد المبلّغين إلى المراكز الثقافية الموجودة تحت تصرف الأقليات والجاليات الإسلامية.

٧. ارسال اعداد من القرآن الكريم والكتب التعليمية وترجمتها، فضلاً عن الاشرطة السمعية والبصرية بلغات الأقليات.

٨. تأسيس المكتبات والتوسع فيها ومساعدة الاتحادات والمنظمات الإسلامية وخاصة اتحادات الطلبة الجامعيين وتأسيس الأقسام الداخلية الخاصة بإيواء الطلبة المسلمين.

٩. تأسيس واقامة المعاهد التعليمية والمهنية.

١٠. إيفاد الوعّاظ لممارسة التبليغ والإرشاد في صفوف الأقليات الإسلامية.

توصيات عامة

١. يطلب من البلدان الإسلامية عن طريق منظمة المؤتمر الإسلامي أو الحكومات أو المنظمات التربوية فيها، إن تتوسط لدى البلدان التي تقطن فيها أقليات إسلامية، لتسمح لهذه الأقليات بفتح مدارس إسلامية بالاستفادة من البرامج والأنظمة التعليمية في تلك البلدان بالإضافة إلى المناهج التربوية الإسلامية الخاصة بالتلاميذ المسلمين، كما يطلب من حكومات تلك الدول أن تعترف رسمياً بعقود الزواج التي تعقد بين المسلمين وإقرارها في قوانين الأحوال الشخصية لتلك الدول، والسعي لاعلان يوم الجمعة كيوم عطلة رسمية من قبل حكومات البلدان غير الإسلامية للمسلمين القاطنين فيها.

٢. اقامة اتحاد دولي للأقليات الإسلامية لغرض دراسة شؤونها والاطلاع على أوضاعها ومعرفة مشكلاتها واحتياجاتها واقامة الجسور وتوثيق الأواصر بينها وبين العالم الإسلامي، والمطالبة بحقوقها على الصعيد الدولي وفي الأوساط والمحافل والمنظمات العالمية والتخطيط لدعمها وحمايتها من الذوبان في وسط الأكثرية التي تعيش فيها وصيانتها من المؤامرات والاحابيل التي تحاك ضدها في المجتمعات غير الإسلامية.

٣. إيفاد المعلمات والمعلمين المتخصصين بتدريس اللغة العربية، وفي الدراسات الإسلامية، لمساعدة الأقليات المسلمة على الاقتداء بالنموذج الإسلامي في العقيدة والسلوك والأخلاق الإسلامية وتوفير التخصصات العلمية التي تحتاجها تلك الأقليات.

٤. زيادة المنح الدراسية لأبناء الأقليات الإسلامية من قبل البلدان الإسلامية من أجل إعداد الكادر العلمي والتربوي والتبليغي، لكي يستطيع أبناء الجاليات الإسلامية بعد تخرجهم من جامعات البلدان الإسلامية، أن يحلّوا تدريجياً محل المعلمين والمدرسين والمبلغين المبعوثين إلى تلك الأقليات من البلدان الإسلامية. وعلى منظمة المؤتمر الإسلامي أن تقوم بتأسيس عدد من المدارس النموذجية في مستويات مختلفة في البلدان التي تقطنها جاليات إسلامية.

٥. ينبغي لمنظمة المؤتمر الإسلامي تشكيل لجان خاصة للاشراف على الذبح الشرعي والاطعمة المحللة لتوفيرها لأبناء الأقليات الإسلامية.

٦. لابد أن يتم التخطيط في منظمة المؤتمر الإسلامي لاقامة مغاسل إسلامية لأموات المسلمين في البلدان غير الإسلامية.

٣. مشكلة الاختلاط

ليس للأقليات المسلمة القاطنة في بلدان غير إسلامية مناص من مراعاة الجو الاجتماعي والعادات الاجتماعية السائدة في تلك البلدان وارتداء الألبسة التي يرتديها الآخرون، فهي ترى نفسها مضطرة لذلك، ومن أجل حل هذه المشكلة لابدَّ من الاهتمام بملابس النساء اهتماماً خاصاً؛ لأنَّ لهذا الأمر آثاراً في نمط تفكيرها وسلوكها، ويجعلها مصونة من انحرافات ووساوس المجتمعات غير الإسلامية. ولابدَّ أن يتَّخذ هذا اللباس صفة الطابع العام بين نساء المسلمين هناك. وينبغي الاهتمام بالجمعيات والاتحادات الإسلامية أكثر، لكي تولي اهتماماً خاصاً بهذا الأمر. ويمكن استخدام البرامج التي تبث عبر القنوات الفضائية الإسلامية لارشاد النسوة المسلمات كي يحافظن على اصالتهن، وان لا يقلّد الناشئة والشباب والشابات المسلمات أبناء المجتمعات التي يقطنون فيها، من حيث الظاهر وطبيعة الملابس التي يرتدونها.

٤. مشكلة الاعلام

وهذه المشكلة شأنها شأن التعليم، وفي الحقيقة انهما وجهان لعملة واحدة، ويمثلان افكار المجتمعات غير الإسلامية. وبشكل عام فإن وسائل الإعلام العامة تشغل حيزاً واسعاً من اذهان الناس وتفكيرهم في تلك المجتمعات، فهذه الدول لا تشحن اعلامها بالمفاهيم القومية والوطنية فحسب، بل أن الإعلام في هذه الدول مشحون بالمفاهيم المنحرفة والمروّجة للفساد والهادفة إلى تحقيق الغايات والأهداف المادية والسياسية.

والعلاج الوحيد لهذه القضية ترسيخ أسس وأركان شخصية المستمع والمشاهد للبرامج الاعلامية لوسائل الإعلام وما فيها من مفاهيم مناوئة للإسلام ومناقضة لأفكار المسلمين. هذه الأفكار تشغل حيزاً واسعاً من برامج وسائل الإعلام المذكورة مما أدى إلى انكماش تلك الأقليات عن مجتمعاتها وعدم تقبُّل تلك المجتمعات لهذه الأقليات في الوقت نفسه.

الاقتراحات

١. إرسال آلاف النسخ من المجلات الإسلامية، التي تصدرها المنظمات الدعوية الإسلامية، إلى أبناء الأقليات الإسلامية القاطنة في البلدان غير الإسلامية، من قبل منظمة المؤتمر الإسلامي وسائر البلدان الإسلامية.

٢. دراسة إمكانية إصدار مجلة بإحدى اللغات العالمية الحية ـ كالانجليزية، أو الفرنسية، أو الألمانية، أو الاسبانية ـ تصدر بشكل فصلي مرة كل ثلاثة أشهر وتضم بين دفتيها موضوعات مختارة بعناية، ومقالات تتضمن الأفكار الدينية والمثل السامية.

٣. إرسال أشرطة الفيديو المتعلقة بالأمور الثقافية للبلدان الإسلامية والمسلمين، ليتحقق توازن ـ عبر هذا السبيل ـ مع تأثير الإعلام الاجنبي على الأقليات، وتستطيع هذه الأقليات التعرف أكثر على تراثها وثقافتها الدينية.

٤. التواصل المستمر مع الأقليات الإسلامية واللقاء بها في المراسم والمواسم والشعائر الدينية، وتعريفهم على البلدان الإسلامية أكثر فأكثر.

ج. المشاكل الاقتصادية

تعاني الأقليات الإسلامية ـ وعدد ابنائها ليس بالقليل ـ من ضائقة مالية وأوضاع

اقتصادية صعبة، ويضطر الوالدان في تلك الاسر لتخصيص كل أوقاتهم للعمل من أجل كسب لقمة العيش وتوفير المأوى لتلك العوائل، ومن هنا، فإن مثل هؤلاء الأشخاص يصعب عليهم الاهتمام بتعليم ابنائهم.

إن الفقر الاقتصادي يستتبع التدني في الأوضاع الصحية الناتجة عن سوء التغذية، وكلاهما يتظافران لايجاد العوائق والعقبات في حياة الأقليات المسلمة.

وبعض العوائل المسلمة التي تعيش في مستوى اقتصادي متوسط عاجزة هي الأخرى عن بناء مسجد أو مدرسة، خاصة عندما يمتنع بعض أفراد هذه العوائل عن دفع الاعانات والمساهمات المالية. وهنا لابد من القول: إنَّ فقدان التنسيق بين الجهود والإمكانات يؤدي إلى اضعاف موقف المسلمين وعدم تمكنهم من مواجهة المشكلات والصعوبات التي تعترض طريقهم. وبعض الأنظمة والحكومات تحاول صب الزيت على النار وزيادة حدة التناقضات والخلافات القائمة في هذا الصدد.

اقتراحات لحل المشاكل الاقتصادية للاقليات

١. ينبغي لمنظمة المؤتمر الإسلامي ـ باعتبارها تمثِّل العالم الإسلامي أجمع ـ أن تقوم بخلق الظروف الاقتصادية المناسبة للاقليات الإسلامية؛ لان لذلك دوراً كبيراً في تحسين أوضاعها الثقافية.

على سبيل المثال ذكرت الإحصاءات، التي نشرتها منظمة العمل العربية حول أوضاع سوق العمل في فرنسا، أن أكثر من ٥٦٠ ألف من المهاجرين ـ وأكثرهم مسلمون ـ يعيشون في بيوت الصفيح ومحلات قديمة وخرائب. وتضيف الإحصاءات أن ٢٥٠ ألف مهاجر يسكنون بيوتاً مزدحمة تفتقر إلى مياه الشرب وفي ظروف شاقة.

وتؤكد الإحصاءات المتعلقة بعام ١٩٧٥ أن أكثر من ٣٢ بالمائة من العمال العرب في فرنسا يعيشون في مثل هذه الظروف العسيرة.

٢. ينبغي أن تؤسس منظمة المؤتمر الإسلامي جمعية أو رابطة مهمتها التواصل مع الشباب المسلمين الذين غادروا بلدانهم ومسقط رأسهم لغرض الدراسة، وتقوم هذه الجمعية أو الرابطة بتقوية أواصر هؤلاء الشباب مع بلدانهم الأصلية والحيلولة دون انقطاع

صِلاتهم بها نهائياً، والعمل على توفير مهن ووظائف وفرص عمل لهؤلاء الخريجين في بلدانهم نفسها.

٣. تأسيس صندوق دولي لرعاية الأقليات المسلمة بمشاركة واسهام البلدان المسلمة والمنظمات الإسلامية والأثرياء الخيرين من المسلمين. وظيفة الصندوق دعم ومساعدة الأقليات المسلمة في شتى المجالات، كتأسيس المدارس والمعاهد والمكتبات ومراكز تحفيظ القرآن الكريم والتعليم الديني.

٤. يقوم الصندوق المذكور بتوفير ظروف معيشية وفرص عمل مناسبة ووحدات سكنية ومراكز تعليم مناسبة للمسلمين في البلدان غير الإسلامية التي يقطنونها.

٥. من الضروري أن تخصص منظمة المؤتمر الإسلامي المزيد من المساعدات للبرامج والخطط المتعلقة بتحسين أوضاع الأقليات المسلمة، لغرض تمكينها من تأسيس المدارس والمراكز الإسلامية والثقافية.

٦. دعوة الأقليات الإسلامية لمواصلة نضالها ومقاومتها لغرض المحافظة على كيانها وعلى حريتها الاقتصادية والقيام بواجباتها الدينية وشعائرها المقدسة وتوفير التسهيلات اللازمة لأبناء هذه الأقليات، ليؤدوا فريضة الحج وغيرها من الفرائض الدينية.

د. المشاكل السياسية للأقليات الإسلامية

في الحقيقة أن بعض الأقليات الإسلامية فقدت كيانها السياسي ولابدَّ لمنظمة المؤتمر الإسلامي أن تستنفر كل امكاناتها وتستخدم شتى الأساليب السياسية والدولية لاسترجاع كيان هذه الأقليات وترسيخ وجودها.

ولا شك أن الأقليات الإسلامية تتعرض في كثير من دول العالم للتعذيب والمجازر والتدمير. ومن الطبيعي أن مثل تلك الأنظمة التي تنتهك أبسط حقوق الإنسان ترى أن ابرز مشكلة تواجهها هو أن تحافظ الأقليات الإسلامية على كيانها السياسي. ولذلك نرى أن هذه الأنظمة تمارس التمييز العنصري ضد الأقليات الإسلامية وتحرص على حرمانها من حقوقها ومن امتلاك وسائل الإعلام وتعتدي على الثقافة والقيم والعقائد التي يؤمن بها المسلمون في تلك البلدان وتفرض مضايقات متعددة وبأنماط شتى على تلك الأقليات.

ومثلما أن الأقليات الدينية في البلدان الإسلامية لا تتعرض لأية ضغوط من أجل تغيير دينها أو التخلي عن عقائدها الخاصة، فمن المنتظر أن لا يتعرض المسلمون في البلدان غير الإسلامية إلى الضغوط والمضايقات والممارسات التي تستهدف اجبارهم على التخلي عن ثقافتهم ـ كما هو الوضع في بورما ـ ونجد أن كثيراً من العادات والتقاليد والاعراف الاجتماعية في العديد من البلدان تتعارض مع عادات وعقائد المسلمين فيها، ولذلك فإن حيّزاً كبيراً من الإعلام والدعاية في تلك الدول مخصص لمحاربة المسلمين والطعن في افكارهم.

مقترحات سياسية

١. السعي للحيلولة دون فرض أيّ قيود وضغوط على المسلمين في البلدان غير الإسلامية في مجال الدين والجنس واللون والعقيدة ومدى الاستفادة من الخدمات العامة.

٢. اعطاء مسؤوليات أكبر للاقليات في المجالات الحيوية للبلدان المختلفة.

٣. اشراك الأقليات بنسب عادلة في المسؤوليات والوظائف المختلفة.

٤. ينبغي أن يقوم نظام الانتخابات على ركيزة وقاعدة أساسية هي «لكل شخص شخصية وله صوته المستقل».

٥. اشراك ممثلي الأقليات الإسلامية في البرلمانات.

٦. اشراك ممثلي الأقليات في اتخاذ القرارات الحكومية المصيرية المتعلقة بهم.

٧. على قادة الأقليات الإسلامية التفكير بطرق من شأنها تسويغ وتوجيه تصرفات المسلمين واعمالهم في انظار الرأي العام وافهامهم، بأن المسلمين لا يفكرون بتأسيس دولة لهم داخل تلك الدول وانها فكرة وهمية ليس إلاّ.

٨. نظراً لكون منظمة المؤتمر الإسلامي تمثِّل العالم الإسلامي كله يجدر بها الدفاع عن حقوق المسلمين المظلومين، ولابدّ أن تقوم المنظمة بدور أكثر تأثيراً في المجال.

حماية حقوق الأقليات المسلمة في أوربا في ضوء التشريعات الأوربية والدولية[1]

لا شك أن موضوع الأقليات المسلمة من الموضوعات المهمة والأساسية في واقعنا الإسلامي. ورغم ما يثيره هذا الموضوع من قضايا معقدة ترتبط بالتحديات المتجذرة التي تواجه الوجودات المسلمة التي تعيش في وسط غير مسلم، إلاّ أن ما يخفف نسبياً من المعاناة النفسية والواقعية الضاغطة على هذه الأقليات، هو الاهتمام المتزايد الذي أخذ هذا الموضوع يحظى به ـ في السنوات الأخيرة ـ من قبل الرساليين من أصحاب المسؤولية في البلدان الإسلامية والمنظمات الدولية والإقليمية الإسلامية، الرسمية وغير الرسمية. وكمدخل للبحث أشير إلى مقدمتين:

المقدمة الأولى: تعريف الأقلية من الناحية الاصطلاحية القانونية

نحاول في هذه المقدمة طرح فهم عام لمصطلحي الأقلية والأقلية المسلمة، برغم التعاريف الكثيرة المختلفة في هذا المجال. فالأقلية السكانية تقابل الأكثرية التي تعيش في حدودها الجغرافية أو الزمنية. والمحددات الرئيسية التي تقسِّم المجموعات السكانية إلى أكثرية وأقلية، هي في الغالب عرقية أو قومية أو لغوية أو دينية أو مذهبية أو سياسية، في إطار المعيار العددي النسبي، ففي كل بعد من هذه الأبعاد تكون هناك أكثرية غالبة تهيمن ـ عادة ـ

---

١. ألقيت في مؤتمر الأقليات الإسلامية في أوربا، المنعقد بباريس في ٢٠٠١/١/١١، تحت عنوان «الوجود الإسلامي في التشريعات الأوربية».

على النظام العام، ويحدد سلوكها الفكري والعملي طبيعة وضع الأقلية وواقعها. أما بخصوص الأقلية المسلمة، فإن ما يفرِّقها عن الأكثرية السكانية التي تشترك معها في الدولة الواحدة هو محدّد الدين.

وغالباً ما تكون الأقلية المسلمة اقلية عددية قياساً لباقي سكان الدولة الذين ينتمون إلى ديانة أو ديانات أخرى. وقد شكّل المسلمون في بعض الدول نسباً متساوية عددياً مع اتباع الديانات الأخرى. أو ربما كانوا أكثرية عددية نادراً، إلاّ أن النظام السياسي في هذه الدول يبقى خاضعاً لهيمنة غير المسلمين، وبذلك يعدُّ المسلمون أقلية، ومن هنا، فإن المعيار الرسمي المعتمد لدى منظمة المؤتمر الإسلامي هو معيار العضوية في المنظمة نفسها، ويعني ذلك أن الأقليات المسلمة هي التي تعيش في دول لا تنتمي إلى منظمة المؤتمر الإسلامي. ويربو عدد هذه الأقليات على «٤٥٠» مليون مسلم، أي ما يقرب من ثلث عدد المسلمين الذي وصل إلى ما يقرب من مليار و٣٥٠ مليون نسمة.

المقدمة الثانية: ميدان البحث

قبل تحديد ميدان بحثنا، نتطرق إلى بعض الإحصاءات المتعلقة بالأقليات المسلمة في القارة الأوربية، إنّ العدد الإجمالي للمسلمين في أوربا يصل إلى ما يقرب من «٤٢» مليون نسمة، وفقاً لتقديرات عام ٢٠٠٠م، والتي اعتمدنا فيها النسب المئوية التي أوردتها معلومات منظمة المؤتمر الإسلامي، وعلى النحو التالي:

رد	الدولة	عدد المسلمين(نسمة)
١	اسبانيا	٥٠٠/٠٠٠
٢	البانيا	٣/١٠٠/٠٠٠
٣	المانيا	٢/٢٥٠/٠٠٠
٤	اوكرانيا	١/٤٠٠/٠٠٠
٥	ايطاليا	٥٠٠/٠٠٠
٦	البرتغال	١٥/٠٠٠

٧	بريطانيا	٢/٠٠٠/٠٠٠
٨	بلجيكا	٦٠٠/٠٠٠
٩	بلغاريا	١/٤٠٠/٠٠٠
١٠	البوسنة والهرسك	٢/١٠٠/٠٠٠
١١	بولندة	٢٥/٠٠٠
١٢	تشيكيا	٣/٠٠٠
١٣	الدنمارك	١٠٠/٠٠٠
١٤	روسيا الاتحادية	١٥/٠٠٠/٠٠٠
١٥	روسيا البيضاء	١/١٠٠/٠٠٠
١٦	رومانيا	٣٠٠/٠٠٠
١٧	سلوفاكيا	٢/٠٠٠
١٨	سلوفينيا	٢٥/٠٠٠
١٩	السويد	٢٥/٠٠٠
٢٠	فرنسا	٥/٥٠٠/٠٠٠
٢١	فنلندا	٣/٠٠٠
٢٢	كرواتيا	٦٠٠/٠٠٠
٢٣	مالطا	٥٠/٠٠٠
٢٤	المجر	٥٠/٠٠٠
٢٥	مقدونيا	٩٠٠/٠٠٠
٢٦	مولدافيا	٣٠٠/٠٠٠
٢٧	النرويج	١٥/٠٠٠
٢٨	النمسا	١٥٠/٠٠٠
٢٩	هولندا	٥٠٠/٠٠٠

٣٠	اليونان	٣٠٠/٠٠٠
٣١	يوغسلافيا (بما فيها كوسوفا)	٢/٢٥٠/٠٠٠

ووفقاً لهذه الإحصاءات، فإن مسلمي أوربا يشكلون نسبة ٣٪ من مجموع مسلمي العالم، و٩٪ من عدد نفوس الأقليات المسلمة في العالم، ورغم أن هذه النسبة بسيطة كماً، إلا أنها من الناحية النوعية تحظى بخصوصيات متميزة، كموقع أوربا وتأثيره على المستويات العالمية كافة، وتتعرض هذه الأقليات باستمرار إلى ألوان بشعة من الاغتيال الثقافي ومحاولات سلب الحقوق.

وبناءً على جملة من المعايير الموضوعية يمكن تقسيم مسلمي أوربا إلى ثلاث مجموعات رئيسية:

الأولى: المسلمون في الجمهوريات الأوربية المستقلة في الاتحاد السوفيتي المنحل، وهي الجزء الأوربي من روسيا، روسيا البيضاء، اوكرانيا، مولدافيا، وعددهم حوالي (١٧/٥٠٠/٠٠٠) نسمة.

الثانية: المسلمون في الدول الأوربية ذات الأكثرية النسبية المسلمة، وهي البانيا والبوسنة والهرسك، وعددهم حوالي (٥/٢٠٠/٠٠٠) نسمة.

الثالثة: المسلمون في الدول الأوربية ذات الأكثرية السكانية غير المسلمة، وهي: اسبانيا، المانيا، ايطاليا، البرتغال، بريطانيا، بلجيكا، بلغاريا، بولندا، تشيكيا، الدنمارك، رومانيا، سلوفاكيا، سلوفينيا، السويد، فرنسا، فنلندا، كرواتيا، مالطا، المجر، مقدونيا، النرويج، النمسا، هولندا، اليونان، يوغسلافيا، وعددهم حوالي (١٩/٣٠٠/٠٠٠) نسمة.

ونرى أن كل مجموعة من هذه المجموعات الثلاث لابدَّ أن تُدرس أوضاعها بصورة منفصلة، بالنظر للخصائص المشتركة، التي تشد عناصر كل مجموعة، سواء على المستوى البشري والجغرافي والتاريخي والمناخ السياسي والبيئة الاجتماعية ونوعية التحديات والمشاكل التي تواجهها. وبالتالي، فإن ميدان بحثنا هي المجموعة الثالثة من المسلمين، أي الأقليات المسلمة في الدول الأوربية ذات الأكثرية السكانية غير المسلمة.

التحديات الحقوقية التي تواجه مسلمي أوربا

لا ريب أن دراسة القضايا الحقوقية لمجتمع الأقليات المسلمة في أوربا «ميدان البحث»

يعدُّ امراً شائكاً ومعقداً، وتتداخل فيه ابعاد مركبة أخرى غير البعد القانوني، تشتمل على التاريخ والثقافة والتربية والسياسة والاقتصاد.

ومن هنا، فإن التحديات الحقوقية التي تواجهها هذه الأقليات ليست قضايا قانونية وحسب، وإنما هي تحديات ومشاكل تستوعب مختلف مجالات الحياة، ويمكن تصنيفها إلى ثلاثة أنواع رئيسة: ثقافية واجتماعية، تربوية وتعليمية، وسياسية واعلامية، وان كان هناك تداخل وتشابك فيما بينها، فضلاً عن وجود مجالات أخرى أقل أهمية. ونحاول هنا القاء الضوء على تلك التحديات على نحو الاختصار، تمهيداً للحديث عن المعالجات:

١. الهوية الثقافية والاجتماعية

في بحث آخر حول موضوع الأقليات المسلمة في الغرب، أكدت على أن مؤامرة «الاغتيال الثقافي» هي أكبر تحدّ يواجه هذه الأقليات، لأنها مؤامرة معقدة وغير معلنة في الغالب، وهي تستهدف سلب هوية الأقليات المسلمة وتذويبها في البيئة العامة من خلال محاولات دمجها في مجتمع الأكثرية. وفي ذلك البحث اعتمدت مصطلح «الاغتيال الثقافيّ» لاعتبارات منهجية، إذ أن الغزو يتم ـ عادة ـ من قبل مجتمع ضد آخر، أي أنه عبارة عن هجوم وزحف خارجي، أما الاغتيال فيتم ـ عادة ـ من عناصر داخل المجتمع ضد عناصر أخرى في المجتمع نفسه. وبما أن الأقليات المسلمة تعيش في دائرة المجتمعات الأوربية وتتعايش معها بمستويات معينة، فهي تشكل مفردة غير قوية بالمستوى الكافي وتقف على ارضية رخوة، مما يعني سهولة اغتيالها من قبل مجتمع الأكثرية بالنظر لمساحة تأثير مجتمع الأكثرية والأدوات الفاعلة التي يمتلكها. وتكمن الخطورة هنا ـ كما أشرنا ـ في أن الجزء الأكبر من أدوات الاغتيال غير منظورة ولا يترك الفاعل وراءه ـ غالباً ـ ثغرات قانونية أو آثاراً للجريمة.

ولعل المشكلة الأساس التي تواجه الأقليات المسلمة في المجال الثقافي والاجتماعي تتمثل في نوعية البيئة العامة التي يعيشون فيها، والتي تتميز إيديولوجياً بسيادة العلمانية ومختلف الأفكار الوضعية والإلحادية، مما يؤثر بشكل وآخر على البنية الفكرية لأبناء الأقليات وعلى رؤيتهم للدين ودوره ووظيفته، ويأتي الجانب السلوكي والعملي للبيئة الغربية الذي يتميز أيضاً بسيادة أصالة المنفعة والمادة واللذة ليكمل الجانب النظري ويفرز اشكالاً

مختلفة من السلوكيات اللاأخلاقية واللاانسانية، ويعطي لمفاهيم الصلاح والفساد، السعادة والشقاء، الخير والشر، الحب والبغض، الاستقامة والانحراف، الحق والباطل، الحرية والاستبداد، العدالة والظلم، مضامين أخرى تتناقض والمفاهيم الإسلامية. وهذا الأمر يخلق بمجمله ألواناً معقدة من المنهجية الفكرية المتضاربة والسلوكيات المزدوجة لدى المسلمين، ينتج عنه ـ بالتدريج ـ انهيار للحصون الذاتية للفرد والأسرة والمجتمع المسلم، وهو ما يمكن أن نطلق عليه «القابلية لاغتيال الهوية». وهذا الوضع يحتاج إلى جهد كبير لتحويله إلى قضايا ذات صياغات قانونية، ومن ثم التثبت من حيثيات كل قضية بهدف التصدي لمحاولات الاغتيال الثقافي وطمس الهوية الاجتماعية.

والواقع أن مساحة هذا التحدي تتسع لكل ما له علاقة بطبيعة حياة الأسرة المسلمة في أوربا، وحياة مجتمع الأقلية المسلمة ككل، وقدرة هذا المجتمع قانونياً على امتلاك واقع اجتماعي مستقل يحظى بالحقوق المدنية والدينية والسياسية التي تصون هويته من مصادرة مجتمع الأكثرية، وبكلمة أخرى إمكانية مجتمع الأقلية المسلمة على خلق وحدة اجتماعية وثقافية ودينية تستفيد من القوانين نفسها التي يقربها ويستفيد منها مجتمع الأكثرية، سواء القوانين المحلية أو الإقليمية أو الدولية.

ومن المشاكل التي يفرزها هذا الوضع ايضاً، صعوبة ايجاد مراكز دينية واجتماعية تكون محاور لحركة الأقليات المسلمة، ولاسيما على الصعد العامة، كالمراسيم العبادية أو احياء المناسبات الدينية والاجتماعية والثقافية واذا اضفنا هذه المشكلة إلى ما تسبّبه التقاليد الاجتماعية والثقافية لمجتمع الأكثرية من سلوكيات تتناقض مع الشريعة الإسلامية التي يفترض أن يتبعها مجتمع الأقلية، فإن حالة المحاكاة والتماهي الواعية واللاواعية التي تنجر وراءها الأقليات الإسلامية، ستصل ـ احياناً ـ إلى مستوى تسويغ هذا الواقع المنحرف. وتبرز هذه الظواهر بصورة اوضح لدى الجيل الثاني، والثالث من أبناء المسلمين المهاجرين، كما تبرز أيضاً لدى أبناء المسلمين من أهل البلد الأصليين من الذين يبتعدون جغرافياً أو اجتماعياً عن مراكز تجمع المسلمين.

وفي الجانب الحقوقي الاجتماعي البحت، فإن اول ما يبرز هنا هو ما يرتبط بالقوانين المدنية وقوانين الأحوال الشخصية، ولاسيما قضايا الزواج (الشرعي) والإرث والقيمومة

على الأولاد وغيرها. فالدول الأوربية تفرض ـ عادة ـ على مواطنيها، ومنهم المسلمون، القوانين المدنية الوضعية التي يتعارض كثير منها مع الشرع الإسلامي الأمر الذي يؤدي إلى مشاكل اجتماعية وحقوقية كبيرة للمسلمين، لأن الانتماء بالجنسية للبلد الأوربي أو الاقامة القانونية فيه سيترتب عليه الالتزام بقوانين الدولة بمختلف اشكالها ومضامينها، مما يخلق عملية تجاذب شديد بين الانتماء بالقانون للدولة والانتماء بالعقيدة للإسلام.

٢. التحدي التربوي والتعليمي

أول قضية تقفز إلى السطح في هذا المجال قضية اللغة، فاللغة الاجنبية ـ ولا سيما بالنسبة إلى المسلمين المهاجرين ـ تخلق نمطاً جديداً من التفكير بعيداً بمستويات معينة عن روح الإسلام. على العكس من اللغة العربية التي يعمِّق تعلّمها الارتباط بروح الإسلام وتعاليمه، وان كان ارتباطاً عاطفياً وشكلياً. ولهذا نجد أن بعض دول أوربا الشرقية ظلت تسعى لمنع استخدام الأسماء العربية لان الشخص الذي اسمه محمد أو مصطفى ـ مثلاً ـ سيبقى محافظاً على الحد الأدنى من الانتماء الثقافي للإسلام، ومن خلال ارتباطه بالرمز الإسلامي الذي يمثله الاسم. وفي حالات أفضل فإنها تفرض على المسلمين وضع لاحقة (سلافية) لأسمائهم العربية، مثل: احمدوف أوعلييف.

كما أن النظام التعليمي الوطني للدول الأوربية يربط الإنسان المسلم بفكر واقع ومظاهر وتاريخ لا يمتُّ إلى هويته بصلة، ولاسيما من خلال مناهج التربية الوطنية وعلم الاجتماع والجغرافية والتاريخ والأديان. وتتضاعف هذه المشكلة إذا ما أضيف اليها الجانب التربوي؛ لأن دراسة المسلمين في المدارس غير الإسلامية وتحت اشراف معلمين غير مسلمين، واختلاطهم اليومي بزملائهم التلاميذ من غير المسلمين، سيؤثر بشدة على بناء شخصياتهم ورؤاهم. وعموماً فإن المحاكاة التربوية للمسلمين مع مجتمع الأكثرية غير المسلمة، يعني نمو ونشوء مجتمع الأقلية المسلمة في رحم مجتمع الأكثرية غير المسلمة، أي في رحم غير إسلامي، الأمر الذي يحبط مفعول التربية الإسلامية، بل وحتى العادات والتقاليد الموروثة، ويعرِّض أبناء المسلمين إلى تجاذب من قبل نمطين من التربية: أحدهما: ما يريده منه دينهم، والثاني: ما يفرضه عليهم الواقع التربوي الذي تتبناه الأكثرية غير المسلمة وتتحكم باتجاهاته.

٣. التحدي السياسي والإعلامي

تتعرض كثير من الأقليات المسلمة في أوربا إلى أنواع التمييز السياسي، يصل احياناً إلى حد الطرد من العمل الوظيفي والمطاردة والنفي والاعتقال وربما النفي، وهوما يشاهد بوضوح في دول أوربا الشرقية. وتدخل في هذا المجال إشكالية انخراط المسلمين الأوربيين في العمل السياسي والحزبي والحكومي الوطني، وهي إشكالية ذات أوجه متعددة، منها ما يرتبط بالشرعية الدينية لممارسة المسلمين هذا اللون من العمل السياسي وما يترتب على ذلك، ومنها كذلك ما يرتبط بنظرة الفعاليات السياسية والمؤسسات الحكومية في الدول الأوربية لمشاركة المسلمين في العمل السياسي الوطني.

وتتوافق وطأة التمييز السياسي مع وطأة الحرب الاعلامية الغربية التي تعيش الأقليات المسلمة في أوربا تحت رحمتها ليكرّسا حالة الخلل في الحضور الاجتماعي للاقليات المسلمة، ويتلاعبا بمضامين وعي الأقليات ومساراته، بل ويواجها الرأي العام الذي تمثله الأكثرية غير المسلمة بالاتجاه الذي يخدم مصالح سدنة السياسة والمال والاعلام في الدولة. وكنتاج لهذا الواقع ظهرت اتجاهات ثقافية وسياسية وسط الأقليات المسلمة، تتناغم افكارها وممارساتها مع أهداف الإعلام الغربي المضادة، بل وتتشبَّه به، وهي اتجاهات مستلبة تعمل على المساهمة في اغتيال الهوية الإسلامية للأقليات المسلمة في أوربا.

حقوق الأقليات المسلمة في التشريعات الأوربية والدولية

من الناحية التاريخية، ربطت الاتفاقيات الدولية قضية الأقليات بموضوعي الدين والقومية، وان كان للخصوصية الدينية الحضور الأقوى في مجال حقوق الأقليات. ولعلَّ الاعلان العالمي لحقوق الإنسان، الذي أقرته الأمم المتحدة عام ١٩٤٨، يحتوي على اولى النصوص الحقوقية الرسمية المعترف بها دولياً بشأن الحقوق العامة التي تشمل الأقليات أيضاً. ومن ذلك ما جاء في المادة الثانية: «لكل إنسان حق التمتُّع بكل الحقوق والحريات الواردة في هذا الاعلان، دون أي تمييز، كالتمييز بسبب العنصر أو اللون أو الجنس أو اللغة أو الدين أو الرأي السياسي أو أي رأي آخر، أو الاصل الوطني والاجتماعي أو الثروة أو الميلاد أو أي وضع آخر». وكذا المادة السابعة التي نصّت على أن «كل الناس سواسية أمام

القانون، ولهم الحق في التمتُّع بحماية متكافئة منه دون أيّة تفرقة، كما أن لهم جميعاً الحق في حماية متساوية ضد أي تمييز». والمادة الثامنة عشرة ايضاً: «لكل شخص الحق في حرية التفكير، والضمير، والدين، ويشمل هذا الحق حرية تغيير ديانته أو عقيدته، وحرية الاعراب عنهما بالتعليم والممارسة واقامة الشعائر، ومراعاتها، سواء كان ذلك سراً أم مع الجماعة». وفي الاعلان المذكور كذلك ما يمكن الاستفادة منه لدعم حقوق الأقليات، كالمواد التاسعة عشرة إلى الثالثة والعشرين.

وأيضاً المادة السادسة والعشرون، ولاسيما بندها الثالث الذي ينص على أن «للآباء الحق الأوّل في اختيار نوع تربية أولادهم».

وبرغم ما يحتويه الاعلان العالمي لحقوق الإنسان من مواد راقية لحماية حقوق الإنسان، من المجتمعات وبضمنهم الأقليات الدينية والقومية والسياسية، إلاّ أن هناك ملاحظتين أساسيتين تسجلان عليه:

الأولى: إنه لم يحدد ضمانة أو آلية تلزم الدول الموقعة عليه بتطبيقه.

والثانية: إنه يحتوي على مادة تخوِّل الدول انتهاك مبادئه، بحجة تطبيق القانون الوطني وحفظ النظام العام أو أمن الدولة أو مصلحة المجتمع، إذ جاء في البند الثاني من المادة التاسعة والعشرين: «يخضع الفرد في ممارسة حقوقه وحرياته لتلك القيود التي يقررها القانون فقط لضمان الاعتراف بحقوق الآخرين وحرياتهم واحترامهم، ولتحقيق المقتضيات العادلة للنظام العام والمصلحة العامة».

وهناك أيضاً العديد من الاتفاقيات بين دولتين أو أكثر، وكذلك المواثيق الدولية الخاصة لحماية الأقليات أو بعض الأحكام أو القرارات التي تصدرها المحاكم الدولية كمحكمة العدل الدولية، ومن أبرزها اعلان القضاء على التعصب والتمييز الديني، والمنصوص عليه في القانون الدولي العام، فقد نصّت المادة الخاصة من الاعلان على «حق كل طفل في تعلم الدين والعقيدة وفقاً لرغبة عائلته»، فضلاً عن حق الاعتقاد والتعبُّد والتفكير، وإنشاء الأماكن الخاصة بالعبادة، وفق ما تقتضيه العقيدة الدينية، وكذلك ممارسة التقاليد النابعة عن الدين والعقيدة، وكتابة ونشر النصوص الدينية الخاصة، وتعليمها لاتباع الدين في أماكن

يمكن إنشاؤها لهذا الغرض، والتمتُّع بالعطل الاسبوعية الخاصة بكل دين، والاحتفال بالمناسبات الدينية، واخيراً إنشاء الهياكل المؤسسة التي يتطلبها توحيد أتباع الدين والعقيدة وتحفظ لهم خصوصياتهم وهويتهم الدينية والاجتماعية».

ولا شك أن التزام الدول الأوربية بهذه المواثيق باعتبارها من اولى الدول التي وقعت عليها، كفيل بضمان حقوق أقلياتها المسلمة. كما أن دستور كل دولة من هذه الدول يمثل عقداً وطنياً يحمي كل أفراد المجتمع (المواطنين) على مختلف انتماءاتهم العرقية والدينية والسياسية، ويؤكد على المساواة بينهم، ويكون الدستور بذلك ضمانة أخرى تكفل حقوق مسلمي هذه الدول، باعتبارهم مواطنين أو مقيمين. بيد أن التحديات والانتهاكات الجارية لحقوق المسلمين في أوربا تؤكد الازدواجية في الممارسة الاجتماعية والسياسية والقانونية لسلطة الأكثرية، كما تكشف عن الهوة الخطيرة بين النظرية التي تعبِّر عنها المواثيق الدولية وبيانات حقوق الإنسان العالمية والدساتير الوطنية، وبين التطبيق الذي تجسِّده الممارسات اليومية للسلطات.

ولابد في هذا المجال من الإشارة إلى نموذج متميز من الدول الأوربية التي تعاملت مع قضية مسلميها بمضامين وصور متوازنة قانونياً وواقعياً، وهو نموذج الدولة الاسبانية، إذ نرى أهمية دراسته بعناية والاستفادة منه في قضايا حقوق الأقليات المسلمة في الدول الأوربية الأخرى. فقد جاء في تقرير أمين عام اللجنة الإسلامية في اسبانيا، بأن انهيار حكم فرانكوفي اسبانيا عام ١٩٧٥ ثم تدوين الدستور الاسباني عام ١٩٧٨، أدى إلى تحوّل اسبانيا من دولة مركزية مسيحية يمينية إلى دولة اتحادية ديمقراطية متعددة الثقافات والديانات، واقرت بذلك حق المساواة والحرية الدينية كحقوق أساسية لمواطنيها.

وفي عام ١٩٨٠ اعترفت الدولة الاسبانية بالقومية الأندلسية الإسلامية وبمنطقة الأندلس مقاطعة ذات حكم ذاتي، عاصمتها اشبيلية، ولها حكومتها المحلية وبرلمانها وعلمها ونشيدها الوطني الذي يمجِّد تاريخ الأندلس الإسلامي، الأمر الذي دفع إلى تأسيس «الجماعة الإسلامية في الأندلس» في العام نفسه، ثم فتحت لها فروعاً في عدة مدن اندلسية.

وفي عام ١٩٨٩ اعترفت الدولة الاسبانية بالإسلام، كإحدى الديانات الاسبانية التاريخية، واقرت للمسلمين حقوقهم كافة، أسوة بالأكثرية المسيحية.

ثم تم في عام ١٩٩٢ التوقيع على اتفاقية «سانتافي» التاريخية بين ممثلي القوى السياسية الإسلامية في اسبانيا والحكومة الاسبانية، أقرّت فيها الأخيرة أصالة الإسلام المستمرة والبارزة في اسبانيا، وأهميته في تكوين الهوية الإسبانية. وقد اسدلت هذه الاتفاقية الستار على مرحلة دامت خمسة قرون، تعرّض خلالها إلى ألوان الاضطهاد.

وعلى أساس من هذه الاتفاقية أصبحت «اللجنة الإسلامية في اسبانيا» ممثلة للمسلمين الاسبان أمام الدولة الاسبانية. وبعد أربع سنوات على التوقيع عليها، أي في عام ١٩٩٦ قررت الحكومة الاسبانية تعليم الدين الإسلامي لأبناء المسلمين في المدارس الحكومية.

وبذلك نرى أن التجربة الاسبانية جديرة بالتطبيق في الدول الأوربية الأخرى التي تبدي استعدادها لإحقاق حقوق سياسية للمواطنين المقيمين، وكذلك في الدول التي يمكن للمسلمين استثمار قوانينها بالأساليب المشروعة لاحقاق حقوقهم.

تطبيق الحقوق المشروعة اوروبياً ودولياً على واقع الأقليات المسلمة

المواد الحقوقية المثبتة في القوانين الوطنية والأوربية والدولية، وبعض التجارب العملية الناجحة، والتي أشير إلى جزء منها، يمكن استثمارها بشتّى الصور المشروعة لحماية حقوق الأقليات المسلمة في أوربا. ونقترح هنا خطوطاً عامة لجملة من المعالجات المرتبطة بهذا الجانب، وفقاً لنوعية التحديات والمشاكل التي تبناها سابقاً:

١. المجال الثقافي والاجتماعي

إنَّ صيانة الهوية الثقافية والاجتماعية للأقليات من الانحراف والاستلاب والتشويه هو الهدف الأساس التي تسعى إليه المعالجات هنا. ولا شك أن معاناة الأقليات المسلمة في أوربا من سطوة ثقافة الأكثرية غير المسلمة، تجعل مهمة المعالجة الحقوقية لهذا الهدف في غاية الصعوبة. ولكن التخطيط العلمي ولعدم قدرته على المواجهة سيفتت جزءاً كبيراً من هذه الصعوبة.

وبمراجعة للقرار ٨/٤٧ س الصادر عن القمة الإسلامية في طهران، سنرى أنه يضع الاطار العام للمعالجات في هذا المجال، من خلال تأكيده على بذل المساعي لكي تتمتع الأقليات المسلمة بمعاملة متكافئة من حيث الحقوق والالتزامات والواجبات مع الأخذ

بالاعتبار أن الحقوق الثقافية والاجتماعية هي الاطار الذي يشتمل على مجمل الحقوق الأخرى، الدينية والمدنية والسياسية وغيرها.

ولا شك أن صيانة الهوية الثقافية والاجتماعية للأقليات المسلمة تقع مسؤولية القسم الأكبر منها على عاتق الأقليات نفسها، وتبدأ بإشاعة روح التكافل والتكامل والتضامن الاجتماعي وصولاً إلى وحدة الجماعة وتماسكها الاجتماعي والثقافي، وهو مستوى لا يتحقق إلاّ بآليات فاعلة، كإقامة الشعائر الدينية والاحتفالات والمراسم في المساجد والجمعيات الإسلامية وغيرها، وإنشاء صناديق للمساعدات والخيرات والقروض، وجمعيات للبر والإحسان لرعاية الأيتام والمسنين والفقراء، واقامة نواد للشباب تقوم بمختلف النشاطات التثقيفية والاجتماعية والفنية، كالمخيمات والدورات والاحتفالات وغيرها. ومن خلال هذه الآليات يمكن تذويب الاختلافات بين المسلمين، على مختلف اشكالها ومضامينها المذهبية والقومية والوطنية والسياسية وغيرها.

كما أن المشاريع الخاصة بالأسرة تعدّ هي الأخرى على جانب كبير من الأهمية، لأنها قاعدة تقوية البنية التحتية للمجتمع الإسلامي الأوربي الملتزم، والركيزة التي يمكنها حماية جزء أساس من الهوية الإسلامية من الاغتيال والسلب والعبث. وتعمد هذه المشاريع إلى تيسير شؤون الزواج وفقاً للأصول الشرعية، وحل مشاكل الأسرة المسلمة، وتشجيع النشاطات الأسرية العامة التي تعزز الترابط فيما بين المسلمين.

ومن خلال المشاركة الفاعلة للأقليات المسلمة في الوسط الاجتماعي العام، والتحول من حالة العزلة إلى التأثير الاجتماعي والثقافي، فإنّها قد تتمكن من كسب جانب كبير من الرأي العام لدعم حقوقها القانونية في البعد الاجتماعي، ولاسيما ما يرتبط ببعض قوانين الأحوال الشخصية والقوانين المدنية، وحماية أدائها لشعائرها والتزاماتها الدينية والعبادية.

٢. المجال السياسي والإعلامي

لعل من النشاطات الأساسية التي قد تمكّن الأقليات المسلمة من إحقاق حقوقها السياسية وغيرها من الحقوق القريبة منها، كالحقوق الاجتماعية، هو مشاركتها الفاعلة في الحياة السياسية الوطنية، الأمر الذي يتطلب ـ ابتداءً ـ إزالة العوائق السياسية والإدارية

والحقوقية التي من شأنها إعاقة دخول المسلمين هذا الحقل، ثم إعادة النظر في طبيعة تحرك المسلمين في أوربا على هذا الصعيد، ثم بناء الهياكل السياسية اللازمة، سواء على شكل مجموعات ضغط داخل الاحزاب الوطنية القائمة، أومن خلال مؤسسات سياسية جديدة يقوم المسلمون بتشكيلها. ونعتقد أن فكرة البرلمان الإسلامي بإمكانها تحقيق الشكلين معاً، ونلخص الفكرة هنا بقيام برلمان إسلامي في كل دولة أوربية يستوعب كل الشخصيات والفعاليات المسلمة العاملة في المجال السياسي أوالتي تريد اقتحامه، وكذلك قيام برلمان إسلامي أوربي تتمثل فيه البرلمانات الإسلامية القائمة في كل دولة أوربية.

ومن خلال مختلف هذه الالوان من المشاركة السياسية سيدافع المسلمون ـ دفاعاً مباشراً أوغير مباشر ـ عن كياناتهم المحلية وحقوقهم الخاصة، وكذا الدفاع عن قضايا المسلمين الكبرى في العالم، وفقاً لما تسمح به إمكاناتهم وقدراتهم.

وبالنظر للحساسية الشرعية الفائقة لمثل هذا النشاط، ولاسيما ذلك الذي يرتبط بانتماء المسلمين إلى الفعاليات السياسية الوطنية، أي التابعة للأكثرية غير المسلمة، فإنه بحاجة إلى معالجة شرعية وتأصيل فقهي، يحدد اطروحات المصلحة الإسلامية والعناوين الثانوية والمرونة والثوابت الشرعية فيه، لكي يسيِّر المسلم فيه عمله السياسي وفقاً لنظرية شرعية تبرئ ذمته أمام الله تعالى.

ولا شك أن منظمة المؤتمر الإسلامي والمنظمات الإسلامية الدولية والإقليمية الأخرى، وكذلك الدول المسلمة يمكنها بشكل وآخر دعم مشروعات الأقليات هذه، سواء بشكل مباشر أومن خلال التحرك الدبلوماسي والسياسي على حكومات الدول الأوربية، مع مراعاة القواعد القانونية الدولية ومبدأ سيادة الدول وعدم التدخل في شؤونها الداخلية.

وفي الجانب الإعلامي والدعوي نشير إلى الاطار العام الذي وضعه القرار ٤٧/٨س الصادر عن قمة طهران الإسلامية، والذي حثّ الدول الإسلامية على تنسيق جهودها لاعداد كوادر مؤهلة للقيام بالنشاط الاعلامي والدعوي في صفوف الأقليات المسلمة. ولعل من المقترحات التي نعتقد أنها مفيدة في هذا المجال، تكثيف ارسال المواد الثقافية والاعلامية المخصصة للاقليات المسلمة في أوربا، فضلاً عن إنشاء مشاريع اعلامية إسلامية

في دول أوربا نفسها تقوم بمهمة الإنتاج الثقافي والاعلامي، وصولاً إلى إنشاء إذاعات ومحطات تلفزيونية ووكالات انباء ومؤسسات فنية وسينمائية خاصة بالأقليات، على أن تتم هذه النشاطات على أساس نظرية شرعية، كما هو الحال مع الجانب السياسي.

٣. المجال التربوي والتعليمي

يقف التعليم الديني في مقدمة المجالات التعليمية التي تفرض عملية حماية الهوية الإسلامية الاهتمام بها، وأهم محاوره: القرآن الكريم، اللغة العربية، وأحكام الشريعة، وهو على مستويين: عام وتخصصي، فالتعليم العام يستوعب كل المسلمين صغاراً وكباراً، والخاص هو الذي يدخله من يريد التعمق في التعاليم الدينية، ولكلّ منهما مناهجه التي ينبغي اعدادها خصيصاً للاقليات المسلمة. وهناك أساليب نافعة في هذا المجال، كالحلقات التقليدية والدورات والمدارس والمعاهد الدينية، فضلاً عن محاولة ادخال نوع من التعليم الديني للمدارس الرسمية الحكومية خاص بالتلاميذ المسلمين، كما حدث في اسبانيا، وهي محاولة بحاجة إلى معركة قانونية، وخاصة في الدول التي تضم أقليات مسلمة كبيرة، كألمانيا وبريطانيا وبلغاريا وفرنسا ويوغسلافيا.

وتؤدي الاتحادات الطلابية والجمعيات الإسلامية دوراً أساسياً في هذا المجال، ومن الضروري دعمها ورفدها بما تحتاجه بالصورة التي تمكّنها من ممارسة نشاطاتها التربوية والتعليمية المطلوبة، كإنشاء المكتبات العامة واقامة الدروس والدورات والندوات والمؤتمرات الطلابية الدورية، وبناء الأقسام الداخلية (السكنية) ومساعدة الطلبة المسلمين المعوزين.

كما أن هذه الاتحادات ــ ولاسيما الرسمية والمسجلة منها ــ هي الممثل الأنسب للمسلمين أمام الأجهزة التعليمية والإدارية الحكومية للدفاع عن حقوق المسلمين في المجالات التربوية والتعليمية.

وهناك أفكار طموحة جديرة بالدراسة، ترتبط بمشاريع إنشاء مجمعات تربوية وتعليمية للمسلمين، في كل بلد أوربي، تستوعب المراحل كافة، ابتداءً من رياض الأطفال وحتى التعليم الجامعي. ولعل بعض التجارب النافعة والقريبة من هذه الفكرة في بريطانيا واسبانيا جديرة كذلك بالدراسة والتطوير والتطبيق في دول أوربية أخرى.

ويمكن للأجهزة المختصة في البلدان الإسلامية والمنظمات الإسلامية الدولية ـ في حدود مبدأ احترام سيادة الدول ـ الاسهام في مجمل الجهد التعليمي المخصص للأقليات، من خلال دعم برامج الأقليات ومشاريعها، وزيادة المنح الدراسية الاكاديمية والشرعية المخصصة لأبناء الأقليات وبأعداد مناسبة لسد النقص في الكوادر التدريبية المتخصصة الكفوءة في الساحة الأوربية، ولاسيما في حقول التعليم الديني. ويمكن في هذا المجال الاستفادة من بعض التجارب الناجحة في الجمهورية الإسلامية الإيرانية والعربية السعودية، وكذا تجارب أخرى في مصر وماليزيا وباكستان والاردن والسودان.

لجنة إسلامية حقوقية متخصصة

تنوع الموضوعات الحقوقية التي تمليها التحديات والمشاكل التي تمر بها الأقليات المسلمة. وحجم هذه الموضوعات والعقد المركبة التي تكتنفها، بحاجة إلى إطار مؤسساتي متخصص يقوم بمهمة دراستها وتصنيفها ومعالجتها. ومن هنا، فإننا نقترح تشكيل لجنة إسلامية متخصصة تضم نخبة من رجال القانون والفكر والسياسة من العاملين في الساحة الأوربية، سواء كانوا مهاجرين أو سكان أصليين، عددهم بين ١٥ و٢٠ عضواً.

وتتلخص مهمة اللجنة فيما يلي:

١. دراسة القوانين ذات العلاقة بشكل وآخر بموضوع الأقليات، سواء القوانين الخاصة بكل بلد أوربي أو القوانين الأوربية أو الدولية.

٢. دراسة المشاكل والتحديات والانتهاكات التي تتعرض لها الأقليات المسلمة في أوربا، دراسة حقوقية معمقة وتفصيلية.

٣. البحث عن حلول حقوقية للمشاكل والانتهاكات موضوع الفقرة٢ في ضوء القوانين ذات العلاقة موضوع الفقرة ١.

٤. اقتراح لوائح قانونية أو إدارية مكملة ذات علاقة بالجانب الحقوقي للأقليات المسلمة تقدّم إلى الجهات الرسمية في الدول الأوربية بهدف ملء الفراغات القانونية التي تنتج مشاكل للمسلمين.

٥. متابعة الجهات الرسمية المتخصصة في الدول الأوربية والتقاضي أمام المحاكم بشأن قضايا المسلمين.

ومن الضروري أن تكون هذه اللجنة دائمة وشبه متفرغة بالنظر لحجم وحساسية مهمتها. كما ستكون اللجنة ـ في قضايا محددة أو مجمل القضايا ـ بحاجة إلى استشارة رجال قانون أوربيين متخصصين من غير المسلمين، فضلاً عن الاستعانة بحقوقيين من البلدان الإسلامية، وكذا بالاجهزة ذات العلاقة في منظمة المؤتمر الإسلامي وغيرها من المنظمات الإسلامية التي تمتلك باعاً في شؤون الأقليات المسلمة في أوربا. ولعل من المفيد أن تكون هذه اللجنة مركزية لكل الساحة الأوربية، وتبادر لتشكيل لجان فرعية تقوم بالمهمة ذاتها في كل دولة أوربية.

وفي الختام... نسجل ملاحظتين أخيرتين:

الملاحظة الأولى تتعلق بتوصيات وقرارات المؤتمرات التي عقدت لدراسة أوضاع الأقليات المسلمة، إذ نرى اهمية مراجعتها، ولاسيما توصيات وقرارات المؤتمرات الاخيرة، ابتداءً من القرار رقم ٤٧/٨ ـ س(ق١٠) الصادر عن مؤتمر القمة الإسلامية الثامن بطهران عام ١٩٩٧م، وتوصيات مؤتمر لجنة الخبراء بمدريد عام ١٩٩٨م،والقرار رقم٥١/٢٦ ـ س الصادر عن مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية عام ١٩٩٩م، وتوصيات مؤتمر لجنة الخبراء الثاني في ساوباولو عام ٢٠٠٠م بالنظر لما في هذه التوصيات والقرارات من معالجات مدروسة ومفيدة، ولكن ـ مما يؤسف له ـ أن كثيراً منها لم يدخل مسار التطبيق الأمر الذي لا نتمناه.

والملاحظة الثانية ترتبط بتطور قضية الأقليات المسلمة، فأي معني بشؤون الأقليات المسلمة في أوربا يلمس بوضوح التطور المطّرد، بل اليومي، الذي تشهده هذه القضية، الأمر الذي يزيدها تعقيداً وحساسية، ولاسيما في ابعادها الثقافية والحقوقية والسياسية.

ويعود هذا التطور إلى جملة من العوامل، أهمها: ازدياد عدد المسلمين في أوربا، سواء عبر موجات الهجرة الكمية والنوعية للمسلمين إلى أوربا، أو عبر دخول الأوربيين إلى دين الله تعالى أفواجاً، اضافة إلى ازدياد محاولات سلب هوية المسلمين من خلال مختلف الاساليب، وهي أساليب لا تنبع خطورتها من حجم التأثير الذي تتركه ثقافة الأكثرية غير المسلمة على

المسلمين بفعل الإمكانات المادية والمنهجية التي تمتلكها هذه الأكثرية وحسب، ولكن أيضاً من نوعية التأثر اللاواعي للمسلمين بثقافة الأكثرية، والناتج عن خلل عميق في الذات المسلمة بسبب تصدّع الحصون الذاتية للفرد والأسرة والمجتمع المسلم، وهو ما نصفه بـ«القابلية لاغتيال الهوية».

ومن هنا فإن هذا التطور المطرد يستدعي من الدول والفعاليات الإسلامية اهتماماً أكبر حجماً وأكثر تركيزاً ومنهجية لأن الوجود الإسلامي في أوربا إذا ما خططنا لأعوامه الثلاثين القادمة في إطار النتائج التي تفرزها الدراسات المستقبلية الحديثة التي سنخضعه لها، فإنه سيتحول ـ بإذن الله ـ إلى فاعل مهم ليس على مستوى أوربا وحسب، بل على مستوى العالم أجمع. ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

---

١. التوبة: ١٠٥.

الثقافة العالمية والأقليات المسلمة[1]

أود أوّلا أن أعبّر عن سروري لانعقاد ملتقى آخر لدراسة شؤون الأقليات الإسلامية، وأعرب عن تقديرى للجهود التي بذلت من أجل انعقاده، ولي وطيد الأمل بأن نتمكن عبر الدراسة والبحث والنقاش الجاد والعلمي من الخروج من مطاوي المباحث النظرية إلى ميدان العمل والتنفيذ، ونزرع الأمل والثقة في القلوب المتعبة والعيون المرهقة المشدودة إلى عزيمتكم وتعاونكم الوثيق. ومن خلال إلقاء نظرة عابرة على القرارات والتوصيات الصادرة عن باقي الندوات والمؤتمرات التي سبقت لقاءنا هذا، وخاصة ملتقانا الأوّل في إسبانيا، ندرك جيداً أنّ جميع المشاركين في هذا الملتقى مطّلعون عن كثب ـ عملياً ونظرياً ـ على مشاكل المسلمين في شتّى أنحاء العالم وقد طرحوا مقترحات جيدة وآراءً بناءة في هذا المضار.

واستأذنكم أيّها الأعزاء في إلقاء نظرة عامة على الاقتراحات الموجودة، من ناحية، ومن ناحية أخرى، نلقي نظرة معمقة في الوضع الثقافي المعقد والحساس للعالم المعاصر.

ويبدو أنّ أحد عوامل تحقق القرارات النظرية، قرب هذه الآراء والاقتراحات من الواقع والميدان العملي الاجتماعي، وفي هذا الصدد توجد دائماً علاقة جدلية بين الأمرين. فنجاح نظرية ما ـ بالمقارنة مع النظريات الأخرى ـ منوط بمدى كونها تطبيقية وعملية وفعالة. ولذلك لا يمكننا الاكتفاء بإلقاء تبعة عدم التوفيق في الآليات والحلول المطروحة، على عجز أو إهمال شخص أو لجنة أو مؤسسة ما، على الرغم من أن الجدية في العمل امر مبدئي

---

١. قدم إلى الاجتماع الثاني للجنة الخبراء المكلفة بوضع خطة عمل للمحافظة على حقوق الأقليات المسلمة في الدول غير الأعضاء بمنظمة المؤتمر الإسلامي، في ساوپاولوالبرازيل، ١٧ ابريل٢٠٠٠.

وأساسي وبديهي، بيد أنه ينبغي الالتفات إلى أن القانون الجيد يتطلب منفّذين جيدين، واذا لم يكن القانون ـ أوالنظرية ـ عملياً ومجدياً وواقعياً، فإن المنفّذين الجيدين له أيضاً لا يمكنهم تحقيق النجاح في عملهم اعتماداً على هذه الأداة.

وفي الحقيقة أن هناك سياستين عامتين يتم تطبيقهما الآن في العالم، إحداهما قضية «التعددية» في النواحي والميادين المختلفة، والأخرى «العولمة». والتعددية ـ بشكلها البسيط ـ لا تعتبر شيئاً جديداً، ففي تاريخ البشرية هناك نماذج ومصاديق كثيرة للتعددية. وفي إيران أيضاً كانت هناك تيارات ومجتمعات ميالة نحو التعددية، وفي بعض الأحيان وُجِدت ـ على الأقل ـ اثنا عشر مذهباً أودينا منها خمسة محلية المنشأ. فالدين الآري، والزرداشتي، والميتراني والأديان الإبراهيمية «اليهودية، والمسيحية، والإسلام»، كانت متّبعة في هذا البلد، وفي هذا اليوم يوجد في ايران أتباع مذاهب عديدة، رغم قلتهم، وكلهم يتمتعون بحريات طبيعية في نطاق الحكومة الإسلامية وطبقاً لأحكام القانون الأساس «الدستور» والقوانين العادية، وهكذا توجد في كثير من الدول اقليات دينية مختلفة من جملتها الأقليات المسلمة.

إلاّ أن النقطة المهمة هنا هي أنه كان الناس في الماضي يتصورون أن التعايش الاجتماعي بين الأديان امر غير ميسور، ولذلك كان من المعتاد انهم يعيشون منفصلين عن بعضهم بعضاً، ويتجنب احدهم الآخر.

فكان أتباع كل نِحلة أو مذهب يتمركزون في احدى محلات المدينة ـ بحيث ما زلنا نرى هذه الظاهرة مشهودة في البلدان المختلفة ـ وفي القرى نجد أن أصحاب الأديان المختلفة يسكنون في قرى مختلفة، وفي هذه الظاهرة، نجد أن المذهبية والطائفية والعيش في عالم الذات المغلق كان يعد نمطاً من الواجب.

والمسيحيون ربما مضى على اتصالهم وتماسهم مع المسلمين ما يربو على الالف عام بيد أنّهم مازالوا لا يعرفون عقائدهم ولا مراسمهم، بشكل دقيق وموضوعي، والعكس صحيح ايضاً. ويعبّر عن هذا النمط من التعددية بـ«التعددية السلبية».

وكل دول العالم اليوم ـ شاءت أم أبت ـ تشهد هذا النمط من التعددية وتعتبره ضرورياً من الناحية السياسية والأخلاقية، مع اختلاف واحد هو أنّ أصحاب الأديان المختلفة يختلطون مع بعضهم بعضاً، ويرغبون في أن يكونوا ـ جميعاً ـ مواطنين في عالم اجتماعي واحد.

ونحن نطالب بالمساواة الكاملة ونريد الحرية التامة في الإصرار على الخلافات الدينية والثقافية. وهذان المطلبان اللذان يتناقضان ـ إلى حدّ ما ـ مع أحدهما الآخر، يؤديان إلى التفات المذاهب واهتمامها بأحدها الآخر، وهذه قضية جديدة.

ويمكننا أن نتصور أنه بالرغم من أن نوع النظام رهين بالدين والأخلاق ورأي الأكثرية، بيد أن الأقليات تتمتع ـ أيضاً ـ بحقوقها الإنسانية والثقافية وهذا ما يمكن أن يطلق عليه «التعددية الايجابية».

القضية المهمة الأخرى التي غدت تلعب دوراً مهماً الآن في نطاق السياسات الثقافية والاقتصادية والخطط السياسية هي قضية وحدة الثقافات المتباينة وسيطرة ثقافة واحدة على باقي الثقافات. هذه الثقافة المهيمنة ليست سوى واحدة من لوازم الحداثة وهي ترغب في فرض نفسها على الجميع بالقوة والقهر.

النقطة المهمة التي اودّ هنا أن نلتفت إليها هي كيف ستصل العولمة إلى هدفها وبأي نوع من التعددية؟ فمضمون الاعلان العالمي لحقوق الإنسان، وخاصة الميثاق المتعلق بالحقوق المدنية والسياسية، يعطي جميع المواطنين حق حرية الفكر والعقيدة والدين، وحق تأسيس المحافل والتنظيمات السلمية والنقابات والاتحادات المهنية، وحق تشكيل العائلة والمساواة أمام القانون والأهم من كل ذلك، تمتّع الأقليات بثقافة ولغة خاصة بها والقيام بالمراسم والوظائف الدينية والعبادية.

وإنَّ رؤية هذا الاعلان ذات طابع تعددي من النمط الايجابي، بَيدَ أن سياسة عولمة الثقافات قد قبلت في الظاهر بمفاد هذا الاعلان لكنها تميل عبر فرض سيطرة ثقافتها إلى محو وإزالة قضية التعددية الثقافية. وفي هذا السياق فإنها تحاول استخدام التكنولوجيا، والارتباطات والاتصالات، وتسعى لتسخير مفاد المواثيق القانونية وغيرها لتحقيق غاياتها وهنا يظهر التباين والتعارض بين الحداثة وما بعد الحداثة.

من واجب المفكرين المسلمين تعيين إستراتيجية التصدي لهذين النمطين من التفكير، وان جميع الاقتراحات المطروحة في الندوات المختلفة ومن جملتها في قضية الأقليات ينبغي أن تكون في سياق نوع انتخاب هذه الإستراتيجية.

إن انتخاب التعددية السلبية كإستراتيجية، يؤدي اليوم إلى الحرب والمواجهة بين الشعوب والفرق المختلفة في نهاية المطاف، ومن ناحية أخرى يعكس للعالم طابعاً خشناً وارهابياً عن الإسلام والمسلمين، ويشوه صورته في انظار الرأي العام العالمي. علاوة على ذلك، لا يمكن الجمع بين سياسة الحوار بين الحضارات ومبدأ التعددية السلبية، فهاتان قضيتان متناقضتان دائماً.

اذن، لا مناصَّ من أن نتبنى التعددية الايجابية. وهذا ما فعلناه، وان مفاد القرارات ومضمون المقالات المتعلقة بالعلاقة بين الإسلام وحقوق الإنسان، يركز في الغالب على هذه الرؤية ويؤكّدها.

ولكن ينبغي الأخذ بنظر الاعتبار أن التعددية الايجابية يمكن الاستفادة منها بشكلين:

احدهما: في سبيل صيانة حقوق المواطنين ومن ضمنهم المسلمين في البلدان غير الإسلامية.

والثاني: من أجل تكريس ثقافة العولمة.

إن مخططي العولمة هم بصدد القيام بما من شأنه أن يؤدي إلى انتفاء حتى التعددية الايجابية تدريجياً بشكل ذاتي واتوماتيكي وفرض هيمنة ثقافة معينة ذات خصائص محدودة وعناصر خاصة مستمدة من روابط اجتماعية وسياسية جديدة، على جميع الأفكار والفرق والأديان المختلفة.

وهنا ينبغي للمفكرين المسلمين ـ وخاصة في المجتمعات غير الإسلامية ـ أن يركزوا ويؤكدوا على التعددية الذاتية والتنوع الطبيعي في التقاليد والسنن والتراث الديني والثقافي والحضاري، وان يوظفوا جهودهم من أجل الدفاع عن الخصائص التي تشكل هوية الأديان والحضارات المختلفة وان لا يسمحوا بأن يتمكن الاتجاه الساعي لفرض الهيمنة والتسلط بأن يجعل العالم كله ذا لون وطابع واحد يريده هو وحده بنفسه ويبلغ نشوته ويحقق مآربه عبر فرض تلك الهيمنة.

كما أن عليهم أن يُفهموا الآخرين بأن السنن الدينية والتقاليد الثقافية كثيرة ومتنوعة، وان السعي لتوحيدها واضفاء طابع ولون واحد عليها عمل غير مجد بل ومضر جداً.

وبالطبع فإنه من الواضح أن هذا الأمر ينبغي أن لا يتحول إلى ذريعة لانتهاك حقوق الإنسان وسائر المفاهيم والقيم الإنسانية والأخلاقية العامة، وتبديل ذلك إلى وسيلة

يستخدمها المقتدرون والمتسلطون لتحقيق غاياتهم ومآربهم المعادية للإنسانية، أوان نقصّر نحن ونستنكف عن عرض وطرح آرائنا الإسلامية.

وللأسف نجد أحياناً أن بعض المسلمين يميلون إلى النمط السلبي من التعددية، وكما أسلفنا فإن هذه الاستراتيجية لا تعطي للرأي العام انطباعاً جيداً عن المسلمين. ومن ناحية أخرى نرى احياناً أن المسلمين الذين يقبلون التعددية الايجابية غدوا يظهرون بعض التراخي في الإصرار على عقائدهم وحقوقهم، نتيجة لتأثير وتلقين وسائل الإعلام العامة وللروابط القائمة، بل وطفق بعضهم يروّج لفكرة فصل الدين عن السياسة.

وهنا لا أريد أن أطرح استراتيجيه معينة حول تعارض العولمة والتعددية، بشكل قطعي، فهذه القضية لابد وأن تتم دراستها في موقعها، بيد أنني اقترح أن نقر هذه الإستراتيجية، وهي أوّلا: إن نقبل بوجود نمط من التعددية الايجابية، وضمن التأكيد على الأحكام والنظريات الإسلامية الاصيلة، نعترف بشخصية وثقافة الآخرين ونتحاور معهم. ونمارس عملاً ثقافياً ـ اقتصادياً من قبيل ايجاد وصنع الأقمار الصناعية المشتركة للبلدان الإسلامية، واصدار مجلات مشتركة واعداد برامج تلفزيونية مشتركة نافعة وتوعية المسلمين بالإمكانات الجيدة لهذا النوع من الرؤية «التعددية الايجابية» وتعليمهم بأن التقوقع على الذات في ظل الثقافة المعاصرة يؤدي إلى دمارهم هم والأجيال القادمة ايضاً.

ومن ناحية أخرى، فإن القبول بالثقافة العالمية يعتبر ـ في بعض الاحيان ـ من الأمور القطعية التي لا مناصَّ منها، طبعاً بالمقدار الذي ترتضيه مرونة الإسلام، لكن هذه النقطة مهمة وهي أننا في مواجهة التعددية الايجابية وثقافة العولمة ينبغي أن نؤكد على الأمر الأوّل، دائماً.

في هذا النوع من الاستراتيجية، يوجد نمط من سياسة التأييد ذات الجانبين. ونظراً لما تقتضيه الروابط والثقافة الاجتماعية، نجد ثقافة العولمة تحظى بالتأييد، من ناحية، ومن ناحية أخرى، نستفيد من النواحي الايجابية للتعددية.

والآن، وبهذا النمط من الإستراتيجية ينبغي البحث في الاقتراحات والقرارات الصادرة بشأن حقوق الأقليات، وكل ما يؤدي إلى نمط من التعددية السلبية نحاول إزالته أو التخفيف من وطأته، وفي الحالات التي لا نستفيد فيها من التعددية الايجابية نحاول احياءها.

ونقترح ـ من جديد ـ تشكيل لجنة في دائرة شؤون الأقليات المسلمة في الامانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي، تضم في عضويتها الكوادر القانونية والحقوقيين المجربين ـ في مجال القانون الدولي ـ والسياسيين والشخصيات الثقافية، وتقوم ـ على الدوام ـ بدراسة القرارات والمقترحات خلال اجتماعاتها، بالمقارنة مع الإستراتيجية المتبنّاة، ووضع السبل والآليات الكفيلة بتنفيذ القرارات الصادرة في المجتمعات المختلفة.

واعتذر إلى الحضور، لطرحي بحثاً نظرياً بالكامل لا أتمكن من استعراض خطوطه التفصيلية، لكن النقطة التي أودّ التأكيد عليها ـ في ضوء الإستراتيجية المذكورة ـ هي فكرة الحوار الإسلامي، فقد طُرحت هذه الفكرة والاقتراح من قبل الكثيرين خلال الاجتماعات مراراً.

إن فكرة الحوار الإسلامي ـ الإسلامي امر ضروري لحفظ هوية المسلمين، اضافة إلى أن تحقيق شعار «الحوار بين الحضارات» الذي اقترحه رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية ـ السيد محمد خاتمي ـ وصادقت عليه الأمم المتحدة بتسمية عام ٢٠٠١ م بعام «الحوار بين الحضارات» لا يمكن أن يتم بمعزل عن الحوار بين الحضارة الإسلامية مع سائر الحضارات، وان الحضارة الإسلامية بحاجة إلى الحوار الإسلامي ـ الإسلامي لاحياء هويتها.

ومع الأسف نجد الآن أن الأقلية المسلمة في بعض البلدان تفتقر إلى وحدة الكلمة وتثور الخلافات فيما بينها لأتفه الاسباب وابسط الأمور حتى يؤدي ذلك إلى التنافر فيما بين أبناء الأقليات.

ولا ريب أن منطق الحوار يقتضي اجتناب طرح الخلافات القديمة التي لا طائل من ورائها ولا جدوى فيها ولن تسفر سوى عن اهدار طاقات الجانبين وتفتيت قواهما. وبمقتضى الآية الكريمة: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[١] علينا أن نستمع إلى الاقوال والآراء ونقبل افضلها.

وبمقدار علمي وبموجب تجاربي من أسفاري المختلفة وزياراتي للبلدان الإسلامية فقد وجدت أن عدم وحدة المسلمين وفقدان الحوار الإسلامي ـ الإسلامي أدّى إلى نتائج سيئة ومشاكل عديدة في الكثير من البلدان.

---

١. الزمر: ١٧ و١٨.

وتأكيدي في هذا المجال على الحوار الإسلامي ـ الإسلامي انما هو حول المواضيع المعاصرة للمسلمين، رغم أن القضايا النظرية والموضوعات التاريخية هي الأخرى قابلة للبحث والمناقشة، بَيدَ أن علينا أن لا ننسى أن البحوث التاريخية تُعَد سهلة الطرح دائماً وتلقى الاهتمام أكثر من غيرها.

والاحتياج الأساس للمفكرين والسياسيين الإسلاميين هي الحوار بين المستويات التي تؤمن ـ على الأقل ـ بمبدأ التعددية الايجابية.

وفي قضية الحوارات الإسلامية، إذا قبلنا بهذه الإستراتيجية وإذا لم نفسح المجال للذين لا يؤمنون بمستلزمات ومقتضيات المجتمع المعاصر في عالم اليوم، فإن قضية وفكرة الحوار الإسلامي ـ الإسلامي سوف تتحقق، ومن ثمارها أنها ستنعكس بشكل ايجابي على المسلمين كافة وخاصة الأقليات المسلمة.

كما واقترح ايجاد آلية للتواصل والارتباط بين الأقليات المسلمة على مستوى العالم، لكي نستفيد من تجارب بعضها بعضاً.

واقتراحي الآخر هوأن يتَّخذ هذا المؤتمر صفة دائمة وينعقد مرة كل عام في أحد البلدان لدراسة أوضاع ومشاكل الأقليات المسلمة، القائمة والقادمة، ووضع الحلول المناسبة لها.

وختاماً، أشكر حكومة البرازيل على اتاحتها هذه الفرصة لإقامة مؤتمرنا هذا ولتبادل وجهات النظر، كما وأشكر الأخ الدكتور أحمد علي الصيفي وزملائه الذين هم من الكوادر الإسلامية والعناصر الفعالة في هذه الديار، والذين بذلوا جهوداً مضنية لعقد هذا المؤتمر، وآمل أن يوفق مسلمو البرازيل في الأسهام بإقامة المجتمع الإنساني الأمثل والمشاركة الواعية في إعمار وازدهار بلدهم ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[1].

١. التوبة: ١٠٥.

رسالة إلى الندوة العلمية[1]

إنّنا عندما نتحدث عن الغرب لا نتحدث عن منطقة جغرافية مطلقاً وإنما نتحدث عن حضارة معينة لها خصائصها، وربما تكون قد اكتسبت اسمها من موقعها الجغرافي.

إن الجغرافيا ليست حكراً على احد أو عقيدة أو حضارة، أنها تتماشى مع طبيعة الإنسان بما له من خصائص.

ولذلك نتحدث هنا عن الإسلام في أوربا، فهذا الدين عريق في هذه المساحة رغم حوادث الايام، وقد اصبح بمرور الزمان الدين الثاني في المنطقة بعد الدين المسيحي. وهي حقيقة لا يستطيع الكثيرون هضمها، أو حتى تصورها ولكنها حقيقة على أية حال.

إنهم جزء لا يتجزأ من المجتمع الأوربي، يحملون الدم نفسه والذهن نفسه والهمّ نفسه الذي يحمله المواطن الآخر، والفرق بينهم وبين غيرهم أنهم يعتقدون بالإسلام بماله من الخصوصيات التي يختلف بها عن سائر الأديان والاتجاهات الفكرية. ومن هذه الخصوصيات أنه دين ينفذ إلى كل شؤون الحياة وينظم مختلف أنماط السلوك الإنساني، ومن هنا تبرز المشكلة.

فالمواطنون الآخرون والدول الحاكمة قد لا يرغبون في أن يروا للإسلام اي مظهر مهما كان شكلياً، فيعملون على صبِّ هذه المظاهر بشكل ظواهر اصولية تتناقض مع اصول العلمانية الحاكمة في الغرب، وبهذا يتناقضون حتى مع ما تبنّوه بالذات من مبادئ الديموقراطية والحرية الفردية في السلوك والعبادة والرأي والفكر.

---

١. رسالة إلى الندوة العالمية العلمية المنعقدة في براغ ـ روايتا، بتاريخ ٢٥ ـ ١٩٩٧/٤/٢٧.

قد لا يروق لهذه الجهات أن تحتفظ العائلة الإسلامية بعفافها وطهرها وحجابها الإسلامي وسلوكها المحافظ والملتزم باصول الاحترام للوالدين والقيم العائلية.

وقد لا يروق للبعض أن يلتزم المسلمون بأحكام الطعام والشراب ومقتضيات العبادة، والمعاملات المالية المشروعة وامثال ذلك.

وقد لا يعجب هؤلاء أن يؤكد المسلمون هويتهم المتميزة، معتبرين ذلك طعناً في الهوية الوطنية، فضلاً عن كونه طعناً في الهوية الاوربية.

وربما وجد هؤلاء مهمزاً فيما لو طالب المسلمون يوماً بالتعامل الحكومي مع القضايا الإسلامية كقضية فلسطين ولبنان وقضية سلمان رشدي وقضية افغانستان وغيرها تعاملاً إنسانياً منصفاً فاعتبروه نوعاً من التضامن مع الإرهاب، وربما اعتبر بعض المتعصبين أن الوجود الإسلامي كله غريب على الطبيعة الاوربية، فنظم حملات الإرهاب ضد المسلمين ومساجدهم.

وأخيراً ربما دفع الجهل والتعصب ببعض الجهات للقيام بعمليات الابادة الجماعية كما شاهدناه في المحنة الأخيرة في هذه المنطقة الحساسة من العالم.

ماذا يجب أن يفعل المسلمون؟

اعتقد أننا نستطيع أن نجمل واجبات الإنسان المسلم في أوربا ازاء هذه المواقف في النقاط التالية:

أوّلا: السعي الحثيث للحفاظ على الهوية والشخصية الإسلامية الفردية والجماعية.

ولا ريب في أن الهوية الإسلامية تشمل الجانب العقائدي، كما تشمل المنهج الإسلامي في التعامل مع المواقف الفكرية بالاضافة إلى شمولها الطبيعي للعبادات وأنماط السلوك وكذلك الجانب العاطفي.

ثانياً: السعي لتقديم النموذج الاكمل للإنسان الواعي المدرك لواجبه تجاه مجتمعه وعقيدته.

ثالثاً: العمل على تفهُّم الموقف الإسلامي الصحيح واعلانه للآخرين، وتوضيح الموقف الإسلامي أمام الشبهات المثارة ضده.

رابعاً: تحقيق التواصل الإسلامي بين كل المجموعات الإسلامية، والاحساس الكامل بآلامها وآمالها وملء الفراغات الاقتصادية والاجتماعية قدر الإمكان.

خامساً: السعي لا يجاد التوازن المطلوب بين مقتضيات الهوية ومتطلبات المواطنة بالشكل الذي يحقق الاستجابة لكليهما، ولن يعدم المسلم السبل الكفيلة بذلك.

بالإضافة إلى أن هناك القواعد الإسلامية الاضطرارية التي تحل الأمر لو تعقد من قبيل قواعد (الحرج والضرر والضرورة) وغيرها.

سادساً: المساهمة الجادة في كل الخطوات الاجتماعية الايجابية، سواء على الصعيد الوطني أو الإقليمي أو العالمي، والحذر من الخطوات السلبية التي يرفضها الإسلام، وللمسلم متسع في تجنبها.

سابعاً: المطالبة التامة والملحة بالحقوق الاجتماعية والسياسية الطبيعية، واتخاذ مختلف السبل لاعلان الصوت الإسلامي الحق.

ثامناً: الوقوف الصلب مع القضايا الإسلامية الحقة في شتى أنحاء العالم الإسلامي والانسجام الكامل مع المسؤولية الإسلامية العامة.

تاسعاً: التركيز على عملية التوعية الداخلية بأحكام الإسلام ومفاهيمه، وهذا يعني القيام بمختلف النشاطات التي تؤمِّن استمرار التدفق المعنوي للمعلومات إلى العقول والاذهان، مع التركيز في هذا الجانب على الناشئة والشباب؛ لانهم في معرض الخطر الاعلامي المضلل أو اللاأخلاقي المحطِّم للشخصية.

عاشراً: تأكيد حضور الاجتماعات العبادية العامة كالجمعة والعيدين والحج وامثال ذلك.

حادي عشر: السعي الجاد والحثيث لكسب التقدُّم العلمي والاجتماعي المطلوب.

دور المسلمين في مجال الإحياء الديني للمجتمع في روسيا[1]

هناك مقدمات قبل الدخول في الموضوع.

الأولى: لقد عاد غنياً عن التوضيح دور الدين في حياة الإنسان، فقبل الحديث عن نتائجه الاجتماعية والنفسية يدرك الإنسان من خلال تأمله في أعماقه وتزكيته النفسية أنّ هناك ميولا غريزية دائمية للارتباط بالقوة المحركة لهذا الكون، والمفسرة لكل ظواهره المتناسقة، وتقديم فروض التدين له، وإشباع الحاجة النفسية للجوء لهذه القدرة المطلقة التي لن يهدأ روع الإنسان ولن تسكن جوعته الروحية إلا بعد الوصول إليها وتحقيق رضاها.

أمّا على صعيد النتائج الحضارية فإن الدين والإيمان بالله تعالى هو الحل الحقيقي لأعظم المشاكل الحضارية التي سببت كل أنواع الظلم الاجتماعي عبر التاريخ؛ فإنّ كل الأنواع من هذا الظلم عبر التاريخ تعود إلى شكلين رئيسيين هما ـ كما يعبر الشهيد الصدر ـ مشكلتان:

الأولى: اللا انتماء والضياع ورفض الإيمان بأيّ حقيقة من الحقائق المطلقة. **والثانية**: مشكلة الإيمان بالمطلقات الوهمية، وهي الأمور النسبية التي يجردها الإنسان من حدودها ويحولها إلى مطلقات وآلهة ممّا يتركها تجمد حركة الإنسان ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾[2]، وهذه الآلهة الوهمية هي من قبيل (العلم، والطبيعة، والطبقة، والسلطة وغيرها).

والإيمان بالله تعالى هو الذي يحل هاتين المشكلتين مشكلة اللا انتماء ومشكلة الإيمان

---

١. مداخلة ألقيت في المؤتمر الدولي الأوّل المنعقد في روسيا ـ موسكو، بتاريخ ١٩٩٩/٦/٥، تحت عنوان «دور الإسلام في إحياء القيم الروحية في روسيا»، بمناسبة افتتاح جامع موسكو.

٢. الإسراء: ٢٢.

بالآلهة الوهمية، فالإيمان بالله يؤدي إلى الإيمان الحقيقي بحقيقة الكون وعلاقة الإنسان به وبالتاريخ وبالحقائق الأخلاقية الثابتة، وينفي كل إيمان بالآلهة الوهمية. وبدون الإيمان بالله لاتبقى حقيقة تضبط سلوك الإنسان ويعود كل ظلم وتعدٍّ وتجاوز أمراً جائزاً كما يقول داستايفسكي على لسان إيوان كارامازوف «إذا لم يكن لله وجود فإنّ كل شيء يعود جائزاً».

ومن هنا يمكننا أن نؤكد أنّ الضمان لتربية الإنسان وضبط سلوكه هو الإيمان بالله تعالى.

وقد رأينا كيف فشلت كل الدعاوي التي طرحت فكرة تخدير المجتمع بالدين أو جعلت الدين يعيش في الرفوف العالية بعيداً عن الحياة الاجتماعية واعتبرته مجرد حاجة شخصية.

وعلى أيّ حال، فإنّ على المسلمين والمسيحيين وغير هم من المتدينين في هذا المجتمع العمل على تقوية الوازع الديني ونسيان التاريخ المرير الذي مرّوا به.

الثانية: أنّ المتأمل في تاريخ المسلمين في هذه البلاد يجده تاريخاً مليئاً بالآلام والدماء والدموع والتهجير والحرمان دون ذنب اقترفوه إلاّ تمسكهم بإسلامهم وتقاليدهم وعاداتهم الدينية. والغريب أنّ الكثير من الظلم الواقع عليهم ارتكب باسم «العدالة الإنسانية» والمساواة وصهر القوميات في بوتقة «الإنسان العالمي» ونفي الرجعية، وتحقيق الاندماج الاجتماعي التقدُّمي وغير ذلك من الشعارات البراقة.

وقد واجهوا في العهد الشيوعي ضروب العذاب فهدمت مساجدهم التي كانت تعد بالآلاف، وصودرت موقوفاتهم وهجروا وشردوا وواجهوا عملية المحو الثقافي، والتطهير العرقي وفقدوا أبسط حقوقهم الإنسانية.

ولذلك فهم اليوم أكثر من غيرهم يشعرون بنعمة سقوط النظام الشيوعي، وحرية الأديان، وحقوق الإنسان، ومن هنا فإنّهم مدعوون للمساهمة الجادة في عملية الإحياء الديني.

دور المسلمين في عملية الإحياء الديني

بعد هذا نعتقد بأنّ هذا الدور يمكنه أن يتمَّ من خلال ما يلي:

أوّلا: العمل على نشر التوعية بين المسلمين بأحكام الإسلام وتقوية الشخصية الإسلامية فيهم ونشر الفضائل الأخلاقية وترسيخ العقيدة في نفوسهم، واستعادة المؤسسات الإسلامية كالموقوفات وتوجيهها الوجهة الصحيحة حسبما أوقفها أهلها، وإعادة المساجد

الإسلامية لتؤدي دورها الحيوي الهامّ، فالمسجد يمثِّل قاعدة تربوية ضخمة في الحياة الإسلامية. وقد جاءت الروايات الإسلامية لتؤكد هذا الدور وخصوصاً دور المسجد الجامع، فهو محل الاتصال بعالم الغيب، وهو محل تعميق الصلات الاجتماعية، وهو محل الاعتكاف وتربية النفس، وهو محل الدراسة والتعليم والتعبئة الاجتماعية.

وثانياً: بناء العلاقة مع المواطنين من اتباع الأديان الأخرى وخصوصاً مع المسيحيين الارثذوكس. وممّا يجدر بالذكر أنّ هناك عوامل كثيرة تدعو للتلاحم معهم في عملية البناء الاجتماعي وإحياء الروح الدينية، ومنها: روح التسامح الإسلامي والحوار والتعارف لتحقيق الأهداف الخيرة. ومنها: التوجُّه إلى وجود عدو مشترك يقوم بهجوم ثقافي واسع ضد الوجود الديني كلّه ويتمثل في عمليات الهجوم الغربي الإلحادي والعلماني ضد الدين ودوره في الحياة، والهجوم التحللي ضد البناء الأخلاقي، والبناء الاجتماعي كالعائلة والقيم الأخلاقية لها.

وأتذكَّر هنا التاريخ الطويل للمسلمين، وأستعيد إلى الذاكرة المؤتمرين اللذين عقدا في أوائل القرن العشرين وعبر فيهما المسلمون عن وحدتهم واتفاقهم على المساهمة الحضارية. وكيف قهرت الماركسية هذا الوعي وكيف هاجمت المساجد عام ١٩٢٨ وكانت تبلغ الآلاف وصادرت الأوقاف حتى عام ١٩٣٠ وحلت كل المؤسسات الاجتماعية الإسلامية وكممت الأفواه ونفت وشرَّدت.

كما نتذكر أساليب المقاومة المستميتة للمسلمين والذين لم يرضوا لهم مصيراً كمصير إخوتهم في الأندلس حيث محوا عن بكرة أبيهم. وعلى العكس فقد قام المسلمون هنا سواء عبر نهضاتهم المسلحة التي دامت قروناً بكل شجاعة وإصرار، أو باحتفاظهم بعاداتهم وتقاليدهم الإسلامية في الملبس والمأكل والزواج والدفن والإصرار على إبقاء وجودهم حياً عبر الاحتفاظ بلغاتهم، وعدم الاستجابة لضغط السلطات بالهجرة. كما أتذكّر ذلك التعامل السمح الذي تم بين المذاهب الإسلامية، فلم تكن هناك مشكلة الاختلافات المذهبية. ورأينا كيف تحدث المؤتمر الإسلامي الثالث للمسلمين عام ١٩٠٥ عن المذاهب الخمسة وكيف تعايش الشيعة والسنة في آذربايجان.

كما نتذكر المشاعر الرائعة التي عبَّر عنها المسلمون حينما انتصرت الثورة الإسلامية المباركة في إيران الإسلام بقيادة الإمام الخميني(رحمه الله)والوفود التي جاءتنا إلى هناك وعبَّرت عن أحاسيسها الصادقة نيابة عن المسلمين في هذه الديار.

إنّنا نشعر بصدق بالفرح العام، ونشكر الله تعالى على أن وفقنا للحضور هنا والاشتراك في هذا المؤتمر الكبير.

وإنّنا لنهنئكم على هذا الاحتفال ونرجو لكم جميعا كل تقدم وازدهار، وخصوصاً عندما نشهد افتتاح هذا الجامع.

إنّه المسجد الجامع المشمول بقوله تعالى: ﴿في بيوت إذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار * ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله * والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾[1].

وقوله صلى الله عليه وآله: «المساجد بيوت المتقين، قد ضمن الله عزّ وجل لمن كانت المساجد بيوته الروح والرحمة والجواز على الصراط»[2].

والمسجد الجامع هو المسجد الذي يجمع الناس، فكل مسجد إذن محل توحُّد الناس وجمعهم، والمسجد الجامع هو المحور الأساس للحركة الواحدة. نسأل الله جل وعلا أن يوفقنا لخدمة دينه الحنيف، إنّه السميع المجيب.

الوثيقة النهائية للمؤتمر الإسلامي الدولي دور المسلمين في إحياء القيم الروحية في روسيا[3]

خلال اليومين العشرين والحادي والعشرين من صفر عام ١٤٢٠هـ. ق المطابقين ليومي

---

١. النور: ٣٦ـ ٣٨.

٢. اخرجه ابن ابي شيبة في المصنف ١٣: ٣١٧.

٣. المؤتمر الدولي الأوّل لدور الإسلام في إحياء القيم الروحية في روسيا، ٢٠ـ١٤٢٠/٢/٢١ هـ ق، ١٥ـ١٣٧٨/٣/١٦ هـ ش، ٥ـ١٩٩٩/٦/٦ ميلادي.

الخامس والسادس من حزيران عام ١٩٩٩ ميلادي، وبمناسبة حلول الذكرى الخامسة والتسعين لبناء المسجد الجامع في موسكو، وكذلك بمناسبة مرور الذكرى الخامسة لتأسيس الإدارة الدينية للمسلمين الأوربيين الروس في موسكو، أقيم المؤتمر الإسلامي الدولي تحت عنوان: «دور المسلمين في إحياء القيم الروحية في روسيا».

وقد حضر المؤتمر شخصيات دينية ورسمية، وعلماء العلوم الدينية، وأئمة المساجد، ومتدينون عاديون وممثلو المؤسسات الخيرية، والاتحادات الشعبية والثقافية، من عدة دول مختلفة من آسيا وأفريقيا وأوروبا. وهذه هي المرة الأولى ـ بعد سقوط الاتحاد السوفياتي ـ التي يجتمع فيها قادة المنظمات الإسلامية في آسيا المركزية والقوقاز وأوروبا الشرقية.

نظم المؤتمر من قبل الإدارة الدينية للمسلمين الأوربيين الروس بالتعاون مع المنظمة الخيرية الدولية للجنة مسلمي آسيا في الكويت.

وقد لاحظ المشاركون التغييرات الرائعة التي حصلت في حياة المسلمين الروس خلال السنوات الأخيرة. والتي تبلورت، على سبيل المثال، في افتتاح آلاف المساجد والمؤسسات التعليمية لطلاب العلوم الدينية. وفي كثير من المساجد الحالية والمدارس الدينية التي تقوم بنشر الكتب الدينية المختلفة، كما أنّ كل من قدم طلباً للسفر لأداء فريضة الحج استطاع أداءه، وأقيمت علاقات واسعة مع المسلمين المقيمين خارج القطر.

وذكر في المؤتمر أنّ هذه الإمكانات المذكورة إنّما حصلت بسبب التحولات الديمقراطية في روسيا، وكذلك نتيجة حسن توجُّه المسؤولين في الحكومة الروسية ـ بمستوياتهم المختلفة ـ واهتمامهم باحتياجات المسلمين ومنظماتهم.

وقد وضعت المنظمات الدينية إمكانات كثيرة للتأثير في حياة المسلمين، وعلى مستوى المجتمع الروسي عامة. فالتعاليم الإسلامية قادرة على نشر الأخلاق الفاضلة بين المسلمين وحثهم على رعاية القوانين بصورة جيدة، كما ساعدت على تطور المجتمع الروسي الحالي بما توفر لديها من إمكانات، كما تعطي هذه التعاليم للمسلمين الروس في المجتمع الروسي ذي النفوس الكثيرة وفي المجتمعات العالمية قدرة الاعتماد على النفس، كما تشجع هذه التعليمات الروحية على احترام الآداب والتقاليد الأخرى.

إلاّ أنّ القدرات الإسلامية والمنظمات الإسلامية لم تستثمر ـ لحد الآن ـ بصورة تامة.

وأخيراً لوحظت رغبة الإدارات الدينية المذكورة نحو الوحدة، إلاّ أنها مازالت متفرقة، ومازالت الاختلافات قائمة بين البعض منها، والسبب الأساس هو أنّ المنظمات الإسلامية في المجتمع الروسي لم تحصل على الموقع المناسب، وذلك لوجود أكثر من ثلاثين قومية فيه لذا لم تستطع أن تغرس الدين في حياتهم الروحية.

وفضلا عن ذلك، فقد حصلت حوادث وأساليب مختلفة في تاريخ الإسلام الروسي، سببت للمسلمين ـ في تطورهم التالي ـ ظهور مواجهة فيما بينهم، وكذلك بين أتباع الأديان الأخرى، وهي كذلك تستطيع أن تهددِّ أمن واستقرار المناطق الأخرى.

وقد أقرَّ المشاركون في المؤتمر بضرورة تقدير وتعظيم دور الإسلام في إحياء القيم الروحية في روسيا، وأوصوا كبار مسؤولي الدولة الروسية، والحكومات المحلية للمناطق ذات الأغلبية المسلمة في القطر، وزعماء الإدارات الدينية وأئمة المساجد بضرورة الاهتمام بالموارد التالية:

١. لكي تستطيع إدارات المسلمين الدينية أن تنسق بين مساعيها ورغبتها في مواصلة اتحادها مع أعضاء لجنة مفتي روسيا، ولتقوية نشاطاتها، عليها أن تنظر إلى النقاط التالية باعتبارها من أهم وظائفها:

أ) إعداد الأفراد الإسلاميين وتغذيتهم بالمعلومات الإسلامية التي تؤهلهم، في الظروف الحالية، لأداء وظيفتهم، وبالاستفادة من خصوصيات المسلمين الروس للحوار مع ممثلي الأديان الأخرى.

ب) تأليف الكتب والمناهج الدراسية بالاستفادة من اختصاصات العلماء الروحيين الأعلام والعلماء المسلمين، بحيث تبين دقائق حياة المسلمين وميزاتها ونظمهم الدينية.

ج) تركيز النشاطات ضد التيارات المتطرفة والراديكالية في الإسلام لغرض ازدهار الإسلام السائد في روسيا، والحد من حصول التفرقة بين المسلمين الروس.

د) الحوار مع أتباع الديانات الأخرى في مختلف الموضوعات وبصورة أوسع، واكتشاف الطرق المختلفة لاجرائه.

يقترح على الحكومة الروسية إقامة مؤتمر يعمُّ روسيا، لإيجاد الوحدة الروحية بين مختلف الشعوب الروسية.

هـ) يجب أن يكون دور المنظمات الإسلامية ـ على مستوى القطر ـ أكثر نشاطاً في المجالات التالية: إزالة الخلافات بين الشعوب، إزالة الخلافات بين الأديان، النشاطات الخيرية، بيان وسائل الحياة الطيبة، مكافحة المشروبات الكحولية، مكافحة الإدمان على المخدرات، مكافحة الاعتداء على الأطفال.

٢. يرى المؤتمر أنّ زيادة دور الإسلام في إحياء القيم الروحية يتعلّق بتعاون مسؤولي الدولة، ويدعوهم إلى أن يتعاونوا دائماً مع المنظمات الإسلامية، وأن يهتمّوا بها، ولايجاد الحل الإيجابي السليم للمسائل التالية ويتقدم بالطلبات التالية من كبار مسؤولي الدولة:

أ) تكريم الذكرى الأربعمائة بعد الألف لورود الإسلام إلى المناطق الروسية، والذي يطابق الشهر الرابع بعد عام ألفين للميلاد، وعلى مستوى الدولة.

ب) إيجاد برامج دائمية، من قبل قنوات الإذاعة والتلفزيون الحكومية، لنشر تعاليم الإسلام، وماضي دور المسلمين في الحياة الروحية في روسيا، ودورهم الحالي في تنمية ونشر الثقافة الإنسانية.

ج) تدوين وتصديق برامج هادفة لمؤسسات الدولة للتعليم العالي، لتربية كوادر متخصصة بالعلوم الإسلامية، وفي نفس الوقت تخصيص بعض هذه الإمكانات للطلاب الجامعيين، ومن ضمنهم ممثلو الشعوب الإسلامية.

د) تكليف وزارة التعليم العامة والحرف لاتحاد روسيا بالتعاون مع إدارة شؤون المسلمين الدينية في روسيا، وذلك بتأليف الكتب التي تعكس كيفية ظهور الإسلام، وتعاليمه، ودور المسلمين في بناء الحضارة العالمية، وتاريخ وثقافة الشعوب الإسلامية في روسيا، لمؤسسات التعليم العالي والمدارس.

٣. نرجو من الجهاز الإداري في رئاسة الجمهورية أن يشرك ممثل علماء قفقاسيا الشمالية في لجنة رابطة المنظمات الدينية لدى رئاسة الجمهورية.

٤. نظراً لأهمية المؤتمر دولياً، ونظراً للمستوى المرموق للمندوبين المشاركين عن المنظمات الدينية والاجتماعية والحكومة الروسية ودول أوربا الشرقية، ودول الاتحاد

السوفياتي (السابق) والدول الإسلامية والعربية، نلفت نظر رؤساء بعض الدول إلى موارد نقض حقوق الإنسان وتحديد حرية المواطنين في دولهم.

وندعو قادة العراق السياسيين إلى الرحمة وإطلاق الأسرى العسكريين الكويتيين المسجونين في معسكرات العراق وسجونه.

وندعو قادة وزعماء الدول الأوربية والولايات المتحدة الأمريكية ـ الذين يشتركون في صنع حوادث البلقان، ولهم دور مؤثر في الاشتباك العسكري فيه ـ إلى الرحمة والإنصاف، ونؤكد أنه قد حان الوقت لأن ينسوا دعاواهم السياسية، ونظراً لأهمية حياة الإنسان ندعوهم إلى إحلال السلام والصفاء في مسألة كوسوفو.

إنّنا مطمئنون إلى أنه في حالة ترك الشعور بالعداء، والاستعداد للسلام والطمأنينة والحوار بين الأديان والشعوب، يمكن إيجاد تغييرات جذرية في أندونيسيا والهند وكشمير وجنوب السودان وفي كل مكان آخر تراق فيه دماء الإنسان وتثار فيه العداوات بين الأديان.

الأقليات المسلمة في أوربا الشرقية بين عهدين[1]

﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾

إنه لمن دواعي التوفيق أن يتركز كثير من اهتماماتي الاسمية ونشاطي الفكري والعملي خلال السنوات الثلاث الماضية على موضوع «الأقليات المسلمة»، ولا سيما الأقليات المسلمة في الغرب، ولعلّها المرّة السابعة التي أتحدث أو أكتب فيها عن موضوع الأقليات المسلمة منذ مؤتمر القمة الإسلامي بطهران عام ١٩٩٧ وحتى الآن، وهو المؤتمر الذي شكل انعطافاً في مسيرة اهتمام المسلمين بواقع اخوانهم في البلدان غير العضوة في منظمة المؤتمر الإسلامي. وقد كان للجنة العمل الإسلامي المشترك ـ التي كلّفت برئاستها بعد مؤتمر طهران ـ الدور الأساس في لفت الأنظار بشكل أكثر تركيزاً على هذا الموضوع. ولا شك أن هذا الموضوع يحظى بأهمية بالغة في حاضر المسلمين ومستقبلهم، ليس المسلمين في الغرب وحسب، بل المسلمين في كل العالم؛ بالنظر لما يمكن أن يشكله مسلمو الغرب من ثقل ثقافي واجتماعي واقتصادي وسياسي في بلدانهم، مما تصل آثاره الايجابية إلى المسلمين في كل مكان.

وفي هذا المجال يتميز مسلمو أوربا الشرقية بكثرتهم العددية النسبية وأصالتهم العرقية في بلدانهم، ودورهم السياسي التاريخي، وتأثيرهم في تطور المنطقة ورقيها، قياساً بمسلمي اوربا الغربية، التي يعتبر أكثر المسلمين فيها حديثي عهد. هذا العمق يضع مسلمي اوربا الشرقية في موقع الشراكة الحقيقية مع اخوانهم من الديانات الأخرى، في بناء بلدانهم والعمل على ازدهارها، والتأثير في اتجاهات الرأي العام المحلي والوطني حيال القضايا الإسلامية العامة.

---

١. بحث مقدَّم إلى مؤتمر الأقليات المسلمة، صوفيا، صفر ١٤٢٢هـ /مايو ٢٠٠١م.

وهناك ميزة أخرى لمسلمي أوربا الشرقية، لا تزال السبب الرئيس في طبيعة التحديات التي يعانون منها، وتتمثل في المرحلة الصعبة التي عاشوها في ظل الحكومات الإلحادية، والتي استمرت حوالي نصف قرن، فكانت محنتهم مضاعفة.

ولا شك أن أي دراسة علمية حول موضوع الأقليات المسلمة، لابد أن تحدد مساحة بحثها في بلد أو اقليم جغرافي أو سياسي معين؛ بالنظر لتباين الظروف التاريخية والموضوعية التي عاشها ويعيشها المسلمون من بلد أو اقليم لآخر. ومن هنا فأوربا الشرقية تمثّل اقليما سياسياً تلتقي بلدانه في كثير من المشتركات العرقية والتاريخية والجغرافية والسياسية والاجتماعية، بالصورة التي تجعلها وكأنها عينة بحثية واحدة.

ومن هنا فإن ميدان بحثنا يستوعب جغرافياً وسكانيا (١٢) دولة، هي دول أوربا الشرقية التي كانت ترزخ تحت هيمنة الأنظمة الشيوعية، وفقاً للتقسيمات الجغرافية الحالية، ونستثني منها الجمهوريات الأوربية التي كانت جزءاً من الاتحاد السوفيتي. والدول ميدان البحث هي: البانيا، بلغاريا، البوسنة والهرسك، بولنده، تشيكيا، رومانيا، سلوفاكيا، سلوفينيا، كرواتيا، المجر، مقدونيا ويوغسلافيا.

وعلى المستوى السكاني، فإن مساحة البحث تستوعب مسلمي الدول اعلاه، والذين يحدّد عددهم الجدول الاحصائي التالي، وفقاً للنسب التي قررتها منظمة المؤتمر الإسلامي:

	الدولة	عدد المسلمين (نسمة)
١	البانيا	٣/١٠٠/٠٠٠
٢	بلغاريا	١/٤٠٠/٠٠٠
٣	البوسنة والهرسك	٢/١٠٠/٠٠٠
٤	بولندا	٢٥/٠٠٠
٥	تشيكيا	٣/٠٠٠
٦	رومانيا	٣٠٠/٠٠٠
٧	سلوفاكيا	٢/٠٠٠
٨	سلوفينيا	٢٥/٠٠٠

٩	كرواتيا	٦٠٠/٠٠٠
١٠	المجر	١٠/٠٠٠
١١	مقدونيا	٩٠٠/٠٠٠
١٢	يوغسلافيا(بما فيها كوسوفو)	٢/٢٥٠/٠٠٠

فمجموع عددهم (١٠/٧١٥/٠٠) نسمة أي حوالي ٢٥٪ من مجموع مسلمي اوربا البالغ عددهم الإجمالي (٤٢) مليون نسمة، و٢/٢٪ من مجموع الأقليات المسلمة في العالم والبالغ عدد ابنائها (٤٥٠) مليون نسمة، و٠/٨٪ من مجموع مسلمي العالم البالغ عددهم مليار و٣٥٠ مليون نسمة، وفقاً لتقديرات عام ٢٠٠٠ الميلادي.

وكما هو معروف فإن المقصود بالأقليات المسلمة هم المسلمون الذين يعيشون في دول لاتنتمي لمنظمة المؤتمر الإسلامي ولا تمثّل جزءاً من العالم الإسلامي، وهو المعيار الرسمي الذي تعتمده منظمة المؤتمر الإسلامي. أي أن الأقليات المسلمة تعيش في دول تتكون غالبية سكانها من غير المسلمين، أو انهم يعيشون في دول تنتمي أنظمتها السياسية إلى أديان ومعتقدات غير إسلامية، رغم انهم قد يشكلون فيها نسباً عالية من عدد السكان.

وبرغم أن المسلمين في البانيا والبوسنة والهرسك يشكّلون الأكثرية السكانية في هاتين الجمهوريتين، إلاّ أننا فضّلنا ـ لأسباب موضوعية ـ ادخالهما في ميدان البحث؛ لأن مسلمي البوسنة والهرسك كانوا يشكّلون اقلية سكانية في دولة يوغسلافيا السابقة، كما أن مسلمي البانيا تعرّضوا للظروف ذاتها التي تعرضت لها الأقليات المسلمة في دول اوربا الشرقية الشيوعية.

واقع المسلمين في العهد الشيوعي

تميزت الأنظمة الشيوعية، التي حكمت اوربا الشرقية، بتعاملها الإيديولوجي مع الأديان من منطلق فلسفتها المادية الالحادية التي تنظر إلى الدين باعتباره من مصاديق الخرافة والتخلف والاستغلال، ولذا شنت حرباً شعواء على الأديان، عموماً، وكان نصيب المسلمين أكثر سوءًا وأصعب وقعاً، باعتبارهم أقلية سكانية تتمايز دينيا واجتماعياً عن الأكثرية السكانية التي ينتمي إليها الحكام.

وقد سعت هذه الأنظمة إلى تذويب هذا التمايز، إذ استهدفت المسلمين من خلال ذلك في

الصميم. وكانت الهوية الثقافية والاجتماعية للمسلمين هي الهدف المعلن. وفضلاً عن المساعي الحثيثة التي بذلتها الأنظمة الشيوعية لاغتيال المسلمين ثقافياً واجتماعياً وتذويب هويتهم وفصلهم عن دينهم، فإن المسلمين كانوا يعانون أيضاً من ضغط الأكثرية السكانية وما تمثّله من سلوكات ثقافية واجتماعية مغايرة، ويبدأ تحدي اغتيال الهوية الثقافية والاجتماعية والدينية للمسلمين في أوربا الشيوعية السابقة من قضايا الأحوال المدنية وينتهي بمراكز العبادة والتجمع الثقافي والاجتماعي مروراً بالتقاليد التاريخية الخاصة بالمسلمين.

فكل ما يرتبط بالقوانين المدنية وقوانين الأحوال الشخصية، ولا سيما قضايا الزواج والإرث وغيرها، كان يخضع لقوانين الدولة، وهي قوانين وضعية شيوعية تخالف مبادئ الشرع الإسلامي المقدس.

كما كانت الدول الشيوعية تمنع صيانة المساجد أو الاهتمام بها، بل وطالما منعت الشباب ومتوسطي العمر من ممارسة العبادة والصلاة في المساجد، وصولاً إلى المعاقبة على من يلتزم بالشعائر الدينية كالصلاة والحجاب وغيرهما، فضلاً عن قيام بعض الأنظمة بهدم المساجد ومراكز العبادة وأماكن التجمع للمسلمين.

وفي المقابل بذلت هذه الأنظمة كل ما في وسعها لضمِّ أبناء المسلمين إلى منظمات ومؤسسات الأحزاب الشيوعية الحاكمة، سواء بالقوة أو بالترغيب. وكانت تبادر إلى إدخالهم المدارس الحزبية العقائدية التي تخرجهم شيوعيين يعادون أبناء جلدتهم ويتماهون مع سلوكيات الأكثرية السكانية وأفكار النخبة السياسية الحاكمة. فضلاً عن المدارس الحكومية العادية التي تدرّس الالحاد للتلاميذ.

ولم يكن هناك ـ في مقابل ذلك ـ مؤسسات ومراكز تعليمية وتربوية للمسلمين تحصّنهم من هذا الهجوم الكاسح الذي يعمل على تصفيتهم دينيا وثقافياً واجتماعيا تصفية كاملة. كما كان عدد علماء الدين في هذه البلدان قليلا جدا قياسا بعدد المسلمين، وباعتبارهم موظفين في الدولة فإنهم لا يستطيعون ممارسة أي دور غير الذي ترسمه لهم الدولة، وهو دور شكلي لا يتجاوز بعض المهام الروتينية التي تستوعب الممارسات العبادية لبعض كبار السن، اضافة إلى محاولة ارضاء بعض البلدان الإسلامية التي كانت تحاول ـ بين الحين والآخر ـ التأثير على دول أوروبا الشرقية الشيوعية بهدف تحسين أوضاع المسلمين فيها.

والأنكى من ذلك أن بعض الحكومات الشيوعية كانت تفرض على المسلمين تغيير اسمائهم الإسلامية العربية، أو عدم تسمية أبنائهم بأسماء إسلامية. وفي أفضل الحالات فإنهم كانوا يفرضون لاحقة (سلافية) على الأسماء الإسلامية، فيصبح حسن «حسنوف» وعلي «عليف»، وذلك بهدف فصل المسلمين معنوياً عن الرموز التي تمثلها هذه الأسماء. ولطالما عاقبت السلطات المسلمين الذين يرفضون الالتزام بهذه القوانين التعسفية.

وليس ببعيد عنا زمنياً حملات الاعتقال التي قامت بها بعض الحكومات الشيوعية، ومنها حكومة يوغسلافيا السابقة، ضد بعض الناشطين المسلمين، وتعريضهم لصنوف التعذيب والإرهاب؛ بسبب مبادراتهم الثقافية في التفكير بالحفاظ على الهوية الدينية لأبناء طائفتهم.

وإذا درسنا حصيلة الحرب الشرسة التي مارستها الحكومات الشيوعية في اوربا الشرقية ضد المسلمين، واستمرت حوالي نصف قرن، أي منذ أواسط الأربعينيات وحتى مطلع التسعينات من القرن الميلادي العشرين، فما هي النتيجة التي سنخرج بها؟

صحيح أن المسلمين في هذه البلدان جاهدوا وصمدوا ورابطوا وصابروا من أجل الحفاظ على كيانهم من الانهيار وهويتهم من الضياع ووجودهم من الذوبان، ولكن المعركة كانت في غاية الشدّة، ولم تكن متكافئة، فقد كان النظام الحاكم هو الاقوى على الاطلاق عدة وعدداً، وكانت قوة المسلمين تكمن في عقيدتهم المنيعة، وقدرتهم على الصبر فقط. ومن هنا فقد استطاعت الأنظمة الحاكمة تحقيق كثير من أهدافها في مجال اغتيال المسلمين دينياً وثقافياً واجتماعياً. ومن أبرز الظواهر التي برزت في الوسط الإسلامي على هذه الصعد:

١ ـ اعتناق كثير من المسلمين المعتقدات الشيوعية الالحادية، وانسلاخهم الكامل عن الإسلام ديناً وشريعة وثقافة. وتحوّل بعض هؤلاء إلى أعداء لمجتمعاتهم المسلمة ومساهمتهم في المعركة إلى جانب الأنظمة الشيوعية التي انتموا إليها أيديولوجيا وسياسياً.

٢ـ تفشي ظاهرة السفور لدى النساء المسلمات، بل وتعرّض المسلمات المحجبات في كثير من المجتمعات إلى الازدراء والسخرية والمراقبة.

٣ـ تفشي مظاهر الفساد الأخلاقي والسلوكيات البعيدة عن الشريعة الإسلامية.

٤ـ تفشي ظاهرة الجهل بالتعاليم الإسلامية والعبادات الشرعية، حتى أن بعض المساجد خلت من الرواد، وأخرى لم يكن يتردد عليها سوى بعض كبار السن.

٥ـ شحة وجود علماء الدين، ولا سيما العاملين منهم.

٦ـ لجوء المسلمين إلى دوائر الاحوال المدنية الحكومية، والتزامهم بالقوانين الوضعية الشيوعية البعيدة عن الشريعة الإسلامية.

٧ـ انعدام مراكز التربية والتعليم الإسلامية التي تحافظ على الحد الادنى من الهوية الإسلامية، وندرة الكتاب الإسلامي أو أية وسيلة اعلامية ثقافية للمسلمين.

٨ـ تنكُّر كثير من المسلمين لأسمائهم الإسلامية وتاريخهم ورموزهم.

٩ـ التفكك الأسري وضياع التقاليد الإسلامية الموروثة.

١٠ـ تحوّل كثير من المساجد والمعالم الإسلامية إلى خرائب واطلال.

وغير ذلك من المظاهر المؤلمة التي يطول شرحها، والتي كشف النقاب عن أرقامها أو عن بعض أرقامها والإحصاءات المتعلقة بها. والمهم أنها مظاهر عميقة تجذّر كثير منها في الوسط الإسلامي، ولم يكن سقوط الحقبة الشيوعية في أوربا الشرقية كاف لوحده للقضاء على هذه المظاهر.

المسلمون في المرحلة الانتقالية

ونقصد بها المرحلة التي بدأت بظهور بوادر سقوط الأنظمة الشيوعية في أوربا الشرقية ثم سقوطها من خلال السيناريوهات المعروفة، وانتهت بظهور الأنظمة الليبرالية وتبلورها سياسياً واجتماعيا ودستورياً.

والحقيقة أن معظم دول اوربا الشرقية تجاوزت هذه المرحلة الانتقالية، واستقرت أنظمتها السياسية الجديدة، في حين لا تزال دول أخرى تعيش هذه المرحلة على صعيد وضع المسلمين فيها، ولا سيما يوغسلافيا الجديدة ومقدونيا.

من الناحية السياسية، فإن المرحلة الانتقالية شهدت هزات عنيفة تعرّض لها مسلمو يوغسلافيا السابقة، بينما عاش مسلمو بلغاريا وبولندا ورومانيا والمجر أوضاعاً شبه طبيعية لم يختلفوا فيها عن أوضاع الأكثرية السكانية في هذه البلدان.

وانقسم مسلمو تشيكوسلوفاكيا إلى قسمين تبعاً للتقسيم الذي تعرضت له تشيكسلوفاكيا وتحولت جراءه إلى دولتين هما تشيكيا وسلوفاكيا. وبرغم أن عدد المسلمين في هاتين الدولتين لا

يتجاوز الخمسة آلاف نسمة، إلاّ انهم بحاجة إلى رعاية مضاعفة واهتمام خاص، بالنظر لامكانية ذوبان هذا العدد البسيط في بحر الأكثرية السكانية لهاتين الدولتين.

اما المسلمون في يوغسلافيا السابقة فقد تعرضوا لأبشع ألوان الاستئصال الديني والعرقي، من خلال الحرب الشاملة التي شنتها القوميات الأخرى ضد المسلمين، وفي المقدمة الصرب بالطبع. فقد توزّع المسلمون ـ نتيجة انهيار يوغسلافيا ـ على خمس دول مستقلة كانت جزء من يوغسلافيا السابقة، هي: البوسنة والهرسك، يوغسلافيا الجديدة (التي تضم صربيا وكوسوفو والجبل الأسود)، سلوفينيا، كرواتيا ومقدونيا. وبعد اعلان البوسنة والهرسك ذات الأكثرية السكانية المسلمة عن استقلالها عن يوغسلافيا، فإن المسلمين فيها واجهوا هجوماً عسكريا وحشيا من قبل صرب البوسنة وبدعم من صربيا، استهدف وجودهم بالكامل، كما كانوا يتعرضون بين الحين والآخر لهجمات عنيفة من قبل الكروات وغيرهم، الأمر الذي أدّى إلى قتل عشرات الآلاف منهم.

وذات الأمر تعرض له مسلمو كوسوفو أيضاً، وكذلك مسلمو مقدونيا الآن. وهي في الواقع محنة كبرى قلما تعرض لها مجتمع مسلم على طول التاريخ، سوى بعض ما تعرض له مسلمو الأندلس بعد انهيار دولتهم في في اسبانيا والبرتغال.

المسلمون وتحديات العهد الجديد

تأسس العهد الجديد في دول اوربا الشرقية على أنقاض عهد صعب عاشه المسلمون. ولا يعني العهد الجديد أن المسلمين تخلصوا من تبعات العهد الشيوعي أو المرحلة الانتقالية، بل لا تزال تبعات هاتين المرحلتين ـ كما ذكرنا ـ حاضرة بوضوح في واقع المسلمين. ولتجنب التعميم في الحديث، نرى من الضروري تقسيم واقع المسلمين في أوربا الشرقية إلى ثلاث مجموعات:

الأولى: المسلمون في البلدان ذات الأكثرية السكانية المسلمة، وهي: البوسنة والهرسك والبانيا.

الثانية: المسلمون في البلدان التي يواجهون فيها عمليات الاستئصال، وهي: يوغسلافيا الجديدة ومقدونيا.

الثالثة: المسلمون في البلدان التي يعيشون فيها أوضاعاً طبيعية، وهي: بلغاريا وبولندا وتشيكيا ورومانيا وسلوفاكيا وسلوفينيا وكرواتيا والمجر.

والهدف من هذا التقسيم هو الوقوف على نوعية التحديات التي تواجه المسلمين من بلد لآخر، فهناك تحديات مشتركة تجمع دول كل مجموعة من هذه المجموعات. فمسلمو البوسنة والبانيا بإمكانهم تجاوز محنة العهد الشيوعي والمرحلة الانتقالية أسرع من غيرهم من المسلمين وبصورة نوعيّة في حالة مضاعفة تركيز الدولة والمؤسسات الإسلامية على الجوانب التربوية والتعليمية والثقافية والاجتماعية والحقوقية، فضلاً عن الانخراط في المجتمع الرسمي الإسلامي، وتحديداً في المنظمات الدولية الإسلامية كدول كاملة العضوية.

اما المسلمون في البلدان التي يعيشون فيها أوضاعاً طبيعياً، فإنهم معنيون بالقيام بثلاث عمليات أساسية متكاملة لمواجهة التحديات التي تستهدفهم، وتتمثل في:

١ـ تحصين الداخل، من خلال حماية حصون المسلمين من الداخل. ويستدعي ذلك وجود مؤسسات إسلامية ناشطة تستوعب المجالات العبادية والدينية المحضة والتربوية والتعليمية والتثقيفية، فضلاً عن رصّ الصف الاجتماعي والتكافل والتضامن.

٢ـ مواجهة التأثيرات المحيطة التي تسبب ضغوطات الأكثرية السكانية المغايرة دينياً وثقافياً. وهذه المواجهة تستدعي انفتاحاً مؤسسياً على الأكثرية السكانية والدخول معها في حوار ديني وثقافي وحضاري، بهدف تذويب بؤر التوتر والتقاطع، وإحلال السلام والوئام في المجتمع برمته، ولا شك أن الانفتاح المؤسسي على الدولة أيضاً سيكون له أثر إيجابي على أوضاع المسلمين، من خلال دفع الدولة ومؤسساتها لتفهم وضع المسلمين وخصوصياتهم.

٣ـ التأثير في الوسط المحيط، ونقصد به الوسط غير المسلم الذي يشكل الأكثرية السكانية، وهو التأثير الايجابي الذي يهدف إلى نقل الأفكار والممارسات والسلوكيات والتقاليد الإسلامية الأصيلة إلى الوسط المحيط. ولا شك أن هذا التأثير سيكون له أطيب النتائج على البلد بأسره؛ لأن ما يحويه الإسلام من مبادئ وقيم أخلاقية وانسانية يمكنها أن تساهم في تطوير البلد وازدهاره اجتماعيا وثقافياً واقتصادياً وسياسياً.

اما المسلمون في البلدان التي يتعرضون فيها لحملات الاستئصال الديني والعرقي، فأنهم لابدَّ أن يتحركوا على أساس سلَّم الأولويات وعلى الصعد السياسية والثقافية والدينية والاجتماعية كافة، وأولوية التحرك السياسي تتمثل الآن في العمل على ثلاثة محاور:

١ ـ التحرك السياسي الداخلي على بعض تيارات المعارضة في بلدانهم، فضلاً عن تعبئة جماهيرهم سياسياً ورصّ صفوفهم وتوحيد مواقفهم.

٢ـ التحرك السياسي على بعض حكومات اوربا الشرقية ذات التأثير، ودفعها للتدخل.

٣ـ التحرك السياسي والإعلامي على الدول المسلمة ومؤسساتها الإسلامية الرسمية وغير الرسمية، المحلية والعالمية، لدفعها باتجاه تبني قضية المسلمين في هذه الدول.

٤ـ التحرك السياسي والإعلامي الدولي، سواء على الدول ذات التأثير أو المنظمات الدولية، لدفعها باتجاه التدخل وإنهاء الأزمة لصالح المسلمين.

وفي هذا المجال أؤكد ضرورة مراجعة قرارات منظمة المؤتمر الإسلامي ومؤتمراتها العامة واجتماعاتها التخصصية ذات العلاقة بموضوع الأقليات المسلمة، ولا سيما قرار مؤتمر قمة طهران في عام ١٩٩٧ المرقم ٨/٤٧س، والمؤتمرات التخصصية التي اعقبته وعقدتها المنظمات الإسلامية الدولية بالتعاون مع لجنة العمل الإسلامي المشترك ومنظمة المؤتمر الاسمي، ومنها مؤتمر الدوحة (١٩٩٨) واجتماع طهران (١٩٩٨) ومؤتمر مدريد (١٩٩٩) ومؤتمر ساوباولو (٢٠٠٠) وغيرها.

وقد كان لمنظمتنا العالمية الموسومة بـ«رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية» والتي أتشرف برئاستها، الدور الأساس في التحضير لهذه المؤتمرات وإقامتها. ويأتي مؤتمر صوفيا الذي نحضره الآن في السياق نفسه.

بالتالي فالهدف من مراجعة مجمل القرارات التي خرجت بها تلك المؤتمرات هو الاستمرار في العمل على تفعيلها والاستفادة منها في الجهود التي تقوم المؤسسات الإسلامية المعنية؛ لأنها قرارات على مستوى جيد من الدقة، وقد تم اتخاذها بصورة مدروسة.

الأقليات المسلمة في الغرب وتحديات الاغتيال الثقافي[1]

الحديث عن الأقليات المسلمة يستبطن الكثير من معاني الالم والحزن؛ لأنه يرتبط بمساحة شاسعة من المسلمين الذين يعيشون في بحر من الأكثرية غير المسلمة الأمر الذي يعرضهم إلى ألوان متعددة ومعقدة من المشاكل والتحديات التي تهدد وجودهم وهويتهم وواقعهم.

ونقصد بالأقليات المسلمة: المسلمون الذين يعيشون في البلدان غير العضوة بمنظمة المؤتمر الإسلامي، وعددهم حوالي ٤٥٠ مليون مسلم، يتوزعون على قارات العالم الست، أي ما يقرب من ثلث عدد المسلمين.

وميدان بحثنا هو جزء مهم واساس من هذه الأقليات، وهي الأقليات المسلمة في الغرب، التي يزيد عدد نفوسها على ٢٥ مليون نسمة، منهم ١٦ مليون مسلم يعيشون في أوروبا (عدا البانيا والبوسنة حيث المسلمون أكثرية) و ٨ ملايين مسلم في الأميركيتين، وحوالي نصف مليون مسلم في أستراليا، بينهم سكان أصليون، وآخرون مهاجرون، ويشكلون بمجموعهم نسبة ٢٪ من عدد المسلمين في العالم، و ٥/٦٪ من عدد نفوس الأقليات المسلمة. ورغم أنها نسب بسيطة كمّاً إلاَّ أنها من الناحية النوعية تحظى بخصوصيات متميزة، في مقدمتها موقع الغرب وتأثيره على المستويات العالمية كافة، وتعرض هذه الأقليات ـ و بشكل يومي ـ إلى الوان بشعة من الاغتيال الثقافي ومحاولات خطف الهوية.

والمحافظة على هوية هذه الأقليات وحمايتها من الاغتيال جزء من المسؤولية الإسلامية العامة التي يتحملها الفرد والمجتمع، وتتحملها المؤسسات والتيارات الإسلامية، وكذلك

---

١. القي في مؤتمر الوحدة الإسلامية الدولي المنعقد بطهران في ١٣٧٩هـ. ش.

الدول والحكومات المسلمة، والمنظمات الدولية الإسلامية، وفي مقدمتها منظمة المؤتمر الإسلامي؛ باعتبار أن عملية الاغتيال الثقافي عملية معقدة وغير معلنة في الغالب، وهي أكبر تحدّ يواجه الأقليات المسلمة، فإنَّه يستهدف سلب هويتها وتذويبها في البيئة العامة.

واعتمدنا هنا مصطلح «الاغتيال الثقافي» بدل «الغزو الثقافي» لاعتبارات موضوعية، فالغزو يتم عادة من قبل مجتمع ضد آخر، أي أنه عبارة عن هجوم وزحف خارجي، أما الاغتيال فيتم عادة من قبل عناصر داخل المجتمع ضد عناصر أخرى في المجتمع نفسه. وبما أن الأقليات المسلمة تعيش في دائرة المجتمعات الغربية وتتعايش معها بمستويات معينة، فإنها تشكل مفردة متميزة داخل هذه المجتمعات، وبالتالي فهي جزء منها. من هنا فهي تتعرض لعامل داخلي يستهدف اغتيالها ثقافيا وليس لعامل خارجي يستهدف غزوها ثقافيا. على العكس من المجتمعات المسلمة التي تعيش في البلدان الإسلامية، والتي تتعرض للغزو الثقافي من الخارج، رغم أنه مدعوم بعناصر محلية.

تجربة منظمة المؤتمر الإسلامي في دورتها الجديدة

منظمة المؤتمر الإسلامي هو التنظيم الدولي الرسمي الأساس، الذي يضم جميع البلدان الإسلامية، وقد اخذت المنظمة على عاتقها ـ في حدود اهدافها وامكاناتها ـ الاهتمام بقضايا المسلمين خارج الدول العضوة في المنظمة. إلاّ أن منظمة المؤتمر مرَّت بتجربة متميزة في هذا المجال بعد تسلم الجمهورية الإسلامية الايرانية رئاسة المنظمة في اعقاب قمة طهران عام ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، فقد شكلت هذه القمة نقلة كبيرة في تاريخ المنظمة، دفعت الكثير من المراقبين إلى وصفها بـ«قمة القرن» و «القمة التاريخية». وأناطت هذه القمة بلجنة تنسيق العمل الإسلامي التابعة للمنظمة مهمة متابعة شؤون الأقليات المسلمة. ولازلت اتشرف بمسؤولية رئاسة هذه اللجنة، التي عبرت عن حساسية ملحوظة تجاه قضايا الأقليات المسلمة في العالم في اعقاب قمة طهران.

وكانت قمة طهران قد اصدرت قرارا برقم ٤٧/٨س(ق. إ) بشأن الدفاع عن حقوق الجماعات والأقليات المسلمة في الدول غير الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي، ونص على «الطلب من المنظمات والهيئات الإسلامية الأعضاء في لجنة تنسيق العمل الإسلامي التابعة

لمنظمة المؤتمر الإسلامي عقد اجتماع مبكر لدراسة وضع خطة عمل للحفاظ على حقوق الجماعات والأقليات المسلمة في اجزاء مختلفة من العالم».

وتنفيذا للتوصية هذه قام الامين العام للمنظمة بتشكيل لجنة خاصة لمتابعة هذا الموضوع، عرفت بـ«لجنة الخبراء المكلفة بوضع خطة عمل للحفاظ على حقوق الجماعات والأقليات في الدول غير الاعضاء».

ثم أكد مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية المنعقد في قطر ١٤١٨هـ/١٩٩٨م ما جاء في قرار قمة طهران بشأن الأقليات المسلمة، فقد اصدر قرارا برقم ٢٥/٤٦ـ س، ذكر فيه بأن المجتمعات والأقليات المسلمة التي تعيش في الدول غير الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي تمثل من حيث العدد ما يزيد على ثلث الأمة الإسلامية، واكد ضرورة تبني آليات علمية لرعاية شؤونهم، وأبدى ارتياحه لنشاطات منظمة المؤتمر في اعقاب قمة طهران، ولاسيما بعد اطلاعه على تقرير الامين العام بشأن وضع المجتمعات والأقليات المسلمة، والذي تحول إلى وثيقة رسمية حملت رقم(٢٥/ICFM_١ .MM/D/٩٨).

وبعد حوالي شهرين على مؤتمر الدوحة، عقدت لجنة الخبراء التي شكلها الامين العام مؤتمرا في طهران وكُلّفت بمهمة رئاسة اجتماعاتها، وكان أهم قراراتها عقد مؤتمر في العاصمة الاسبانية تستضيفه رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية بالتعاون مع منظمة المؤتمر الإسلامي.

وهكذا عقد المؤتمر في اواسط عام ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، وحظي بأهمية خاصة؛ بالنظر لنجاحه في تحقيق الاهداف المرسومة وفي إيجاد آليات تمكن المنظمة والدول والاعضاء فيها من رعاية شؤون الأقليات المسلمة على النحو المطلوب.

وركّز المؤتمر في توصياته على الجانب الثقافي، وطالب الجهات والمؤسسات العضوة في لجنة تنسيق العمل الإسلامي تكريس نشاطها في هذا الجانب، فمن مجموع ١٦ توصية أصدرها المؤتمر، اختصت ١١ توصية بجانب المحافظة على الهوية الثقافية للاقليات المسلمة اختصاصا مباشرا، اضافة إلى ٣ توصيات بشكل غير مباشر، أي ١٤ توصية من مجموع ١٦ توصية.

وكرر مؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية المنعقد في بوركينافاسو عام ١٤٢٠هـ/١٩٩٩ مطالبة الامانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي بعقد اجتماع في وقت مبكر لدراسة خطة عمل

للحفاظ على حقوق المجتمعات والأقليات المسلمة، واصدر قرارا بهذا الشأن يحمل الرقم ٢٦/٥١ ـ س.

وبناء على هذا القرار دعا أمين عام منظمة المؤتمر الإسلامي لجنة الخبراء المذكورة لعقد اجتماع آخر، حدد مكانه في مدينة ساوباولو بالبرازيل. وكان لرئاسة لجنة تنسيق العمل الإسلامي ورابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية بالجمهورية الإسلامية الايرانية دور فاعل في التحضير للمؤتمر.

وهكذا عقد مؤتمر ساوباولو في شهر محرم الماضي(١٤٢١هـ/٢٠٠٠م)، بالتعاون بين رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية ومركز الدعوة الإسلامية في أميركا اللاتينية وباشراف لجنة تنسيق العمل الإسلامي ورعاية منظمة المؤتمر الإسلامي.

وبمراجعة لتوصيات المؤتمر الحادى والعشرين، نجد أن (١١) توصية منها ذات علاقة مباشرة بالحفاظ على الهوية الثقافية للاقليات المسلمة ومواجهة محاولات الاغتيال الثقافي، و ٥ توصيات ذات علاقة غير مباشرة، أي ١٦ توصية تختص بموضوع الهوية.

ومن خلال هذا الاستعراض السريع لموقع منظمة المؤتمر الإسلامي وتجربة لجنة تنسيق العمل الإسلامي في عملية حماية المسلمين خارج العالم الإسلامي من محاولات الاغتيال الثقافي، وقفنا على طبيعة النشاط المكثف للمنظمة في هذا المجال في اعقاب قمة طهران.

وبصرف النظر عن نسبة نجاح المنظمة في تنفيذ توصيات لجانها ومؤتمراتها، فإن الدراسات التي تقدمها هذه اللجان والمؤتمرات وتوصياتها بشأن الأقليات المسلمة، تعد مادة نافعة جدا لايمكن تجاوزها لاي جهد آخر يسعى للاهتمام بشؤون الأقليات المسلمة، وهو ما دعاني للحديث عن تجربة المنظمة في هذا المجال.

ومن هنا استثمر الفرصة لأدعو جميع الاخوة اصحاب الاهتمام للاطلاع على هذه الدراسات والتوصيات، وقد بادرت رابطة الثقافة إلى طباعتها في كتب وملفات لتسهيل عملية الانتفاع بها.

تحديد اطار المشكلة

يتمثل اطار المشكلة ـ موضوع الدراسة ـ في التحديات التي تواجه المجتمعات والأقليات

المسلمة في الغرب، على المستويات الثقافية والاجتماعية والاعلامية والتربوية والتعليمية، أو ما يشكل بالمجموع تحدي استلاب الهوية والاغتيال الثقافي.

في الحقيقة أن واقع المشكلة مركب من بعدين: ذاتي وخارجي يكملان بعضهما، أو بكلمة أخرى: وجود ارضية مساعدة توفرها الأقلية المسلمة لاستقبال التأثيرات الخارجي وتفعيلها. ولعل أهم مظاهر هذه الارضية المساعدة هو حالة الانبهار بالغرب وأساليب الحياة فيه، التي يعيشها بعض المسلمين هناك، وهي حالة خطيرة جدا تلاحظ لدى المهاجرين أكثر من السكان الاصليين، ولاسيما حديثي العهد بالإسلام، إذ تبدو حالة الانبهار والتماهي هذه اضعف لدى حديثي العهد بالإسلام. ويمكن أن نسمي هذه الحالة بالقابلية على الاغتيال الثقافي أو القابلية على استئصال الهوية، أي تقبل أي نوع من القصف والتصفية الثقافية، بل والمساعدة عليه، وهو مفهوم فيه محاكاة لمفهوم القابلية على الاستعمار الذي اطلقه المرحوم مالك بن نبي.

ونجمل هذه التحديات ـ التي يفرزها تكامل العاملين الداخلي والخارجي ـ في ثلاثة مجالات رئيسة، وعلى النحو التالي:

١ ـ التحدي التربوي والتعليمي:

إن ثقافة أي مسلم تعتمد على المصادر الثقافية الإسلامية، وفي مقدمتها القرآن الكريم والسنة الشريفة، ومفتاح هذه المصادر هو اللغة العربية، وهذه المشكلة يترتب عليها جهل حقيقي في فهم الإسلام، فعدم المعرفة باللغة العربية والاختلاف بين لغة الأقلية ولغة القرآن يتسبب في فجوة كبرى في الهوية الثقافية لهذه الأقليات، بل قد ينتج عنه نمط خاص من التفكير خلال البحث عن المصادر الثقافية للفكر الإسلامي، الأمر الذي يتسبب في خطر أكبر يهدد هذه الفئات من المسلمين في عقيدتهم نفسها. وحتى الأقليات التي تنحدر من اصول عربية أو شرقية تفهم اللغة العربية، فإنها تفقد علاقتها باللغة العربية بمرور الزمن، وخاصة بالنسبة للجيل الثاني والثالث، مما يتسبب في الذوبان في نمط التفكير الذي تخلقه اللغة الاجنبية الجديدة، وهي حالة خفية ومعقدة من حالات الفقدان التدريجي للهوية.

ومجرد حمل المسلم اسماً عربياً يعني بقاء ارتباطه بالرمز الإسلامي الذي يمثله الإسلام،

أي المحافظة على الحد الادنى من الانتماء الثقافي للإسلام. ولأجل ذلك نرى سلطات البلدان الغربية تعمل بأساليب مدروسة ودقيقة باتجاه محو الهوية الدينية تدريجياً، فبعض دول اوربا الشرقية ـ بلغاريا مثلاً ـ تعمد إلى تغيير هذه الأسماء وتعريض من يخالف للعقوبة.

وفي الاحوال المثالية، فإنها تفرض على المسلمين وضع لاحقه سلافية لاسمائهم العربية، مثلا: احمدوف أو علييف. وهذه القضية تكمل حروب الاستئصال العرقي التي حدثت وتحدث في منطقة البلقان، والتي تهدف ـ أساسا ـ إلى مواصلة محاولات الاغتيال الثقافي.

كما أن النظام التعليمي الوطني للدول الغربية (وتحديدا مناهج الدراسة الابتدائية والمتوسطة والثانوية)، يعمل على تعميق الاتجاهات القومية والوطنية والتاريخية ويربط الإنسان المسلم بواقع ومظاهر وتاريخ لايمتُّ إلى هويته بصلة، وهو من الخطورة بمكان، بحيث يشكل العالم الخارجي الأساس للاغتيال الثقافي. وتبرز هذه الخطورة أكثر من خلال مناهج الجغرافية والتاريخ والتربية الوطنية وعلم الاجتماع والأديان والفلسفة.

وفي الجانب التربوي، الذي يقترن بالتعليم ايضا، فإن الأقليات المسلمة من خلال تعايشها مع مجتمعات غير إسلامية تختلف عنها في العادات والتقاليد والمشاعر والسلوك والثقافة، فإنها ـ بعبارة أخرى ـ تعيش في رحم غير الرحم الإسلامي، على اعتبار أن المجتمع هو الرحم الذي تنشأ وتتربى فيه شخصية الإنسان. ويقترن هذا الأمر بخطرين:

الأول: إنه يؤدي إلى احباط مفعول التربية الإسلامية وجعلها غير مجدية.

الثاني: إنه يؤدي إلى تعرض الأبناء إلى ضغوط وتجاذب شديد من قبل نمطين من التربية، احدهما ما يريده منه دينه، والثاني ما يفرضه عليه الواقع الاجتماعي الذي يعيشه.

وستكتمل المشكلة التربوية بدراسة هؤلاء الأبناء في المدارس غير الإسلامية وتحت اشراف معلمين غير مسلمين، فضلا عن اختلاطهم بزملاء من الدراسة غير مسلمين يعايشونهم يوميا، وربما فاق تأثير هؤلاء على الطلبة المسلمين وعلى تبلور شخصياتهم.

٢ـ التحدي الإجتماعي والحقوقي:

تتسع مساحة هذا التحدي لكل ما له علاقة بواقع الاسرة المسلمة وعلاقات أبنائها مع بعضهم، والعلاقات الاجتماعية داخل الأقليات، وعلاقاتها بالوسط الذي تعيش فيه،

ومقدار الحرية الذي يسمح لها بامتلاك واقع اجتماعي مستقل يحظى بالحقوق المدنية والدينية والسياسية التي تميز هويته الاجتماعية والثقافية والدينية عن البيئة العامة.

لعلَّ من أولى هذه التحديات هو النقص في عدد المساجد، إذ لا توجد في كثير من مناطق المسلمين مساجد تكون بمثابة مراكز دينية واجتماعية ومحاور لحركة الأقليات. والجانب الديني هذا تتبعه مشاكل أخرى ترتبط بصعوبة ممارسة العبادات الأخرى، كصلاة الجمعة والصوم.

وتتسبب الاعراف والتقاليد الاجتماعية السائدة في البلدان الغربية في سلوكيات غير شرعية لدى الأقليّات المسلمة فيها محاكة وتماهي مع تلك الأعراف، وفي مقدمتها موضوع الإختلاط والانفتاح بين الرجال والنساء في كل الأمكان والأزمان، في المجالس الخاصة والعامة، في العمل، في مراكز التعليم.. من الابتدائية وحتى الدراسات العليا، في الرحلات الجماعية، في اماكن الترفيه، كالبلاجات وغيرها، وما يعنيه ذلك من علاقات بين الرجل والمرأة. والأخطر من ذلك أن هذه الأقليات ـ حتى الملتزمة منها ـ قد تصل إلى مرحلة من تسويغ هذا الواقع، بحيث يصعب عليها الفرز بين الحلال والحرام؛ لأنها تعود عليه تماماً وأصبح جزءاً من حياتها.

ويدخل في السياق نفسه موضوع التبرج والسفور والأزياء الشاذة لدى النساء المسلمات، وكذا تسويغ الكثير من المحرمات الأخرى، كشرب وأكل الأشربة والأطعمة واللحوم غير الحلال. وبشكل عام فإن هذا الواقع تخلقه اللاابالية تجاه الأحكام الشرعية، سواء عن عمد أو جهل بها، ويخلقه أيضاً عدم التحسس من سلوكيات البيئة العامة (غير الإسلامية) التي يعيشون فيها.

وهناك حالة أخرى تؤدي إلى هذا الوضع ايضاً، وهي محاولة بعض أفراد هذه الأقليات التكيّف الكامل مع البيئة العامة كي يتعايشوا معها بسهولة ولا يلفتوا الأنظار المريبة اليهم، ويتجنبوا التمييز الاجتماعي فيما لو أبرزوا هويتهم بصورة واضحة.

ومن الظواهر الاجتماعية السلبية لدى بعض الأقليات المسلمة هو التفكك الأسري، وفي ذلك تشُّبه بالبيئة العامة، الأمر الذي يؤدي إلى انحراف الأبناء دينياً وسلوكياً، وتمردهم على الأعراف الأسرية والاجتماعية الإسلامية بالنظر لضعف سلطة الأم والأب وسلطة البيت عموماً، أما بعجز

الوالدين عن ردع الأبناء نتيجة الضعف والفشل، أو لعدم مبالاتهم بهذه الظاهرة. وقد يجد الأبناء في الصداقات مع أبناء غير المسلمين ملجأ للهروب من ضغوطات البيت.

ومما يزيد ـ أحياناً ـ من إهمال الآباء المسلمين لأبنائهم هو الضائقة المالية التي تضطر الآباء لتخصيص كل اوقاتهم للعمل لتوفير لقمة العيش.

لقمة العيش

وهناك ظاهرة قد تكون خاصة بالمسلمين المهاجرين، وهي عدم وجود لغة وفهم مشتركين بين الجيل الأول والثاني والثالث منهم، فالجيل الثالث الذي ولد وتربّى في الغرب ولايعرف غير لغاته واساليب تفكيره، يشعر بغربة شديدة من الجيل الأول وقد لايفهمه ابدا، بالنظر لاختلاف الحاجات والمشاعر والنوازع واختلاف الرؤية للحياة. وهذا الأمر لايرتبط بالاسرة الواحدة فقط، بل بجميع مفردات الواقع الاجتماعي والديني للأقليات.

وكذلك الجوانب الحقوقية المتمثّلة في قضايا الزواج (الشرعي) والارث وغيرها مما يرتبط بالقوانين المدنية وقوانين الاحوال الشخصية. فكثير من البلدان الغربية تفرض على مواطنيها (ومنهم المسلمين) القوانين المدنية الوضعية التي يتعارض الكثير منها مع الشرع الإسلامي، الأمر الذي يقود إلى مشاكل حقوقية كبيرة للمسلمين.

ودون شك فإن الانتماء بالجنسية للبلد الغربي سيترتب عليه الالتزام بقوانين هذا البلد بمختلف ألوانها ومضامينها، الأمر الذي يخلق هذه الاشكالية، أي اشكالية الانتماء بالجنسية للبلد الغربي والانتماء بالعقيدة للإسلام وما يترتب على ذلك من خصوصيات. وفي المجال نفسه تدخل اشكالية الانخراط في العمل السياسي والحكومي والحزبي الغربي بالنسبة إلى المسلمين.

٣ ـ التحدي الثقافي والاعلامي:

من الناحية النظرية والفكرية، فإن وجود الأقليات المسلمة في بيئة فكرية نقيضة، تتميز بسيادة الأيديولوجية العلمانية ومختلف الأفكار الوضعية والالحادية، سيؤثر بشكل وآخر على البنية الفكرية لهذه الأقليات وعلى رؤيتها للدين ووظيفة الدين.

ويتكامل هذا الجانب النظري والفكري مع الجانب السلوكي والعملي الذي يتميز ـ هو الآخر ـ بسيادة آيديولوجيا المادة والمنفعة واللذة التي افرزت اشكالاً مختلفة من السلوكيات

اللاأخلاقية واللاانسانية، واعطت لمفاهيم الصلاح والفساد، والسعادة والشقاء، والحب والبغض، والاستقامة والانحراف، والعدالة والظلم، والحق والباطل، والاستبداد والحرية، مضامين أخرى تناقض المفاهيم الإسلامية التي تتساوق مع الفطرة الإنسانية. وخلق هذا التكامل في الغرب ثقافة خاصة طبعت الحياة هناك بلونها.

ولاشك فإن التأثير، الذي تتركه ثقافة الغرب على الأقليات المسلمة، لايأخذ دائما طابع الهجوم أو الغزو المحدد في وجهته، بل أن العملية كثيرا ما تأخذ طابع التأثُّر اللاواعي الذي ينتج عن خلل عميق في الذات المسلمة، بسبب انهيار الحصون الذاتية للفرد والاسرة والمجتمع المسلم، وهو ما اطلقنا عليه «القابلية على اغتيال الهوية».

والأقليات المسلمة ـ ككل الفئات الاجتماعية الأخرى ـ تعيش دون ارادتها تحت وطأة الإعلام الغربي الذي يأخذ على عاتقه مهمة نشر تلك الثقافة وتعزيزها وتكريس حضورها الاجتماعي، بالصور التي تمكّنه من التلاعب بمضامين الوعي الاجتماعي وتياراته، وتوجّه الرأي العام بالاتجاه الذي يخدم مصالح سدنة السياسة والمال.

والخطر من ذلك ظهور بعض الاتجاهات الثقافية والإسلامية في وسط الأقليات المسلمة المهاجرة، التي تتناغم مع نوعية الإعلام الغربي وتحاكيه وتتشبه به، وهي اتجاهات مستلبة ولاتقل خطورة وبشاعة في محاولاتها اغتيال هوية المسلمين الثقافية عن وسائل الإعلام الغربية. ومعظم هذه الاتجاهات يستقر في الولايات المتحدة الأميركية. اضافة إلى ظهور حركات اجتماعية غير مستقرة على المعتقدات الإسلامية، ولاسيما في اوساط المسلمين السود في أميركا.

المعالجات.. خطوط عامة

لاشك أن الحلول التي تطرح لعلاج اية مشكلة، تفرض دراسة واعية ودقيقة لواقع المشكلة وتفاصيلها وخلفياتها، لتأتي المعالجات منسجمة مع حقائق المشلكة.

ولعل المناهج التي تطرحها الدراسات المستقبلية في استشراف المستقبل والتخطيط له وبلوغ الاهداف الموضوعة، تشكل ادوات نافعة لاكتشاف المعالجات اللازمة لمثل هذه المشاكل المركبة. ففيما يرتبط بمشاكل الأقليات المسلمة في الغرب، فإن استشراف مستقبل هذه المشاكل وما ستشكله من ضغوطات على الواقع، سيحدد نوعية الاهداف التي ينبغي

الوصول اليها، كما يحدد البدائل والخيارات التي تفرضها حقائق الحاضر، لكي تبتعد المعالجات عن حالة التوصيات العامة، ولغة ما يجب وما ينبغي، وهي اللغة التي تقف عادة خارج اطار الزمان والمكان وارقامه. وهذا ما يستدعي فرصا أخرى للبحث والدراسة.

الحديث عن المعالجات التي يمكن من خلالها مواجهة التحديات التي سبقت الاشارة اليها، تسبقه مداخل أساسية، يتمثَّل اهمها في ضرورة وقوف الأقليات المسلمة على حقيقة التحديات التي تواجهها ووعي هذه التحديات ومعرفة مضامينها ونوعياتها، دون تهويل أو الغاء أو تبسيط. حينها ستكون هذه الأقليات ـ كمدخل ثان ـ مهيأة للقيام بثلاث عمليات أساسية تكمل بعضها، بهدف صيانة هويتها وحمايتها من الاغتيال الثقافي:

الأولى: البناء والتحصين الداخلي (تحصين الجبهة الداخلية).

الثانية: مواجهة التأثيرات المحيطة وعمليات الاغتيال.

الثالثة: التأثير في الوسط المحيط (غير المسلم).

والعملية الثالثة التي مر ذكرها، تستدعي أن يتحول المسلمون إلى محاور للتأثير في الوسط المحيط، أي عناصر تبليغية، من خلال السلوك الحسن والأخلاق الفاضلة، والكلمة الطيبة والدعوة الحسنة، وبث التعاليم والمفاهيم الإسلامية، والتواصل الايجابي مع غير المسلمين؛ ليخلقوا صورا مشرقة عن الإسلام والمسلمين في اذهان الآخرين.

وهناك الآلاف من المسلمين الذين يعيشون في الغرب من اصحاب الكفاءات والاختصاصات، وهؤلاء بامكانهم ـ في الوقت الذي يعملون على صيانة هويتهم وهوية اخوانهم في العقيدة ـ التأثير في مجتمع النخب الفكرية والعلمية والثقافية الغربية التي يمارسون تخصصاتهم في اوساطها، بل ويضيفوا البعد الإسلامي إلى الحالة الثقافية والحضارية الغربية. فمن الخطأ الانعزال والتقوقع والانكفاء؛ لأن الانكفاء إذا حقق بعض الايجابيات المؤقتة، فإن سلبياته على المديين القصير والبعيد هي أكبر بكثير.

اما المدخل الآخر، فهو وحدة هذه الأقليات في كل بلد، فمدخل توحيد الصفوف والكلمة هو أساس كل تخطيط أو نجاح يراد تحقيقه. ولعل المؤتمرات العامة الدورية والاتحادات والبرلمانات ومجالس الشورى هي مظاهر ضرورية لهذه الوحدة، وبامكانها استيعاب كل المسلمين في أي بلد، لكي يخرج الحديث عن الآلام والآمال والتحديات

والحقوق من فم واحد يمثل المسلمين جميعا. والطموح أن تتجاوز هذه الكيانات المحلية إلى كيان اوسع يتسوعب كل الأقليات المسلمة في أوروبا وهكذا في أميركا الشمالية وأميركا الجنوبية وأستراليا. والوحدة والتنسيق التقريب هنا يشتمل على كل حالات الاختلاف بين المسلمين، في المذهب.. في اللغة.. في الجنسية.. في القومية.. في المستوى الاقتصادي.. في التوجه الاجتماعي.. في المشرب السياسي وغيرها.

ويمكن لمنظمة المؤتمر الإسلامي واعضائها ممارسة دور كبير في مجال دعم الأقليات المسلمة في الغرب ودعم حقوقها وتنظيم شؤونها. ومن خلال العديد من اللقاءات والقراءات، وضعت المنظمة جملة من الاهداف والمخططات والتوصيات، التي نأمل أن تتحول بمجموعها إلى واقع عملي.

وقد حثَّ القرار ٨/٤٧س الصادر عن قمة طهران الدول الأعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي إلى ايلاء عناية خاصة بالجماعات والأقليات المسلمة التي تتعرض للقمع والاضطهاد بسبب معتقداتها الدينية، والتعرف على احتياجاتها وابلاغها إلى الدول الأعضاء الأخرى، من اجل العمل على توفير الإمكانات المادية والبشرية والعينية للأمة، مع العمل على تكثيف النشاطات الإسلامية المختلفة: ثقافية وتعليمية، وكذا المساعدات الإنسانية المتنوعة، من اجل تقديم المزيد من الرعاية لتحسين الأوضاع العامة للجماعات والأقليات المسلمة.

كما طالب القرار الامانة العامة لمنظمة المؤتمر باجراء اتصالات مع حكومات الدول التي فيها جماعات واقليات مسلمة، من اجل التعرف على مشكلاتها واحتياجاتها، وعلى رؤية هذه الدول لكيفية وضع صيغة للتعاون مع منظمة المؤتمر الإسلامي لتوفير الاسهامات المطلوبة لتحسين احوال هذه الجماعات والأقليات المسلمة، والحفاظ على هويتها الدينية والثقافية، مع اعطاء اولوية للاتصال بحكومات الدول غير الأعضاء التي تواجه الأقليات المسلمة فيها مشكلات ملحة. ثم اعاد المؤتمر الطلب من ادارة الأقليات الإسلامية في الامانة العامة للمؤتمر بمتابعة حالة الأقليات المسلمة، وخاصة ما يتعلق بانتهاكات حقوق الإنسان، وتقديم تقرير سنوي عنها لمؤتمر وزراء خارجية الدول الإسلامية.

وذهب مؤتمر مدريد في توصياته إلى دعوة منظمة المؤتمر الإسلامي والدول الأعضاء في

المنظمة إلى مطالبة الدول الصديقة بتطبيق المواثيق الدولية ازاء الأقليات الإسلامية ورعاية حقوقها الدينية والثقافية.

ولاشك فإن الثقل الاقتصادي وربما السياسي والموقع الاستراتجي الذي تحظى به كثير من البلدان الإسلامية، وعلاقة حكوماتها النوعية مع حكومات الدول الغربية، سيمكنها من استثمار هذه العوامل للتدخل الايجابي المتوازن والمدروس لصالح الأقليات المسلمة في هذه الدول، ولاسيما ما يتعلق بحقوقها الدينية والثقافية.

كما طلب المؤتمر من الحكومات والمؤسسات الإسلامية تسهيل زيارة أبناء الأقليات المسلمة إلى الاقطار الإسلامية، لتعميق انتمائهم بالدول الإسلامية ورسالتها الحضارية العالمية. ووضع خطة لاحتضان المتفوقين من أبناء وبنات الأقليات المسلمة، ودعوة (الايسيسكو) بالتعاون مع البنك الإسلامي للتنمية وصندوق التضامن الإسلامي لتنظيم منح دراسية لهم سواء في داخل البلاد أو خارجها. اضافة إلى دعوة مجمع الفقه الإسلامي والمؤسسات العلمية الأخرى لاقامة ندوات تركز على المشاكل الفقيهة والفكرية التي تواجهها الأقليات المسلمة نتيجة أوضاعها الخاصة وايجاد حلول مناسبة لها. ثم مناشدة الامانة العامة لمنظمة المؤتمر الإسلامي القيام بتجميع نتائج الندوات التي عقدت عن الأقليات المسلمة، والتاكيد على ايجاد مركز معلومات خاص بهذا الامر.

واكد مؤتمر ساو باولو بالبرازيل هذه التوصيات والقرارات، وخاصة ما يرتبط بدراسة موضوع انضمام اتحادات الأقليات الإسلامية لعضوية لجنة تنسيق العمل الإسلامي المشترك التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي.

كما اكد ضرورة استمرار اقامة اللقاءات الإسلامية الدولية في الدول غير العضوة بمنظمة المؤتمر الإسلامي، لاستمرار النظر في حماية حقوق الأقليات الإسلامية ومتابعة تنفيذ توصيات هذه اللقاءات.

وكرر مؤتمر ساو باولو دعوة وزراء اعلام الدول الإسلامية والمؤسسات الاعلامية فيها لمتابعة الدعاية المغرضة أو الطرح المشوِّه للإسلام في وسائل الاعلام، مثل السينما والتلفزيون والانترنيت، والاهتمام بملاحقتها والرد عليها، لتصحيح الصورة في اذهان المثقفين، وتوسيع مجال بث القنوات الإسلامية، والتنسيق فيما بينها لخدمة المسلمين في كل مكان.

وكنت في مؤتمر ساوباولو قد طالبت منظمة المؤتمر الإسلامي بوضع البرامج والخطط الكفيلة باستثمار الكفاءات المسلمة في اوساط الأقليات لأغراض تعليم أبناء الأقليات انفسهم، واشرت إلى وجود حوالي الفي ايراني في الولايات المتحدة وحدها يحملون شهادة الدكتوراه في مختلف الاختصاصات العملية، بامكانهم المساهمة في تحقيق هذا الهدف.

وطالبت ايضا بتفعيل دور دائرة الأقليات في الامانة العامة للمنظمة، لتتمكن من النهوض بواجباتها المهمة في حماية الأقليات المسلمة من الاغتيال الثقافي وصيانة هويتها الدينية، على اعتبار أن تنشيط دائرة الأقليات سيزيد من اهتمام المنظمة بقضايا الأقليات وسيجعلها هما دائما.

ولعل من الخطوات الأساسية التي لابد أن تتدخل منظمة المؤتمر من اجل الاقدام عليها، موضوع اقامة اتحاد دولي للاقليات المسلمة، يجمع كل الاتحادات القارية والقطرية، لغرض دراسة شؤون الأقليات بصورة شاملة، والاطلاع على أوضاعها ومعرفة مشكلاتها واحتياجاتها، وتبادل الخبرات والتجارب فيما بينها، وتوثيق الاواصر بينها وبين العام الإسلامي، والمطالبة بحقوقها على الصعيد الدولي وفي الاوساط والمحافل الدولية، والتخطيط لدعمها وحماية هويتها من الذوبان وسط الأكثرية غير المسلمة التي تعيش في وسطها.

وسنطرح هنا مجموعة تصورات في سياق المعالجات العملية، وعلى أساس نوع التحديات وموضوعها:

١ ـ الجانب التربوي والتعليمي:

تعليم كتاب الله تعالى يقف في مقدمة المجالات التعليمية التي تفرض عملية التحصين الذاتي الاهتمام بها. واساليب تعليم القرآن الكريم ـ قراءة وفهما وتفسيراً ـ مفتوحة وغير محدودة، ابتداء من الاسلوب التقليدي (حلقات المساجد) أو في المراكز الإسلامية والبيوت أو المعاهد.

وتستتبع هذه الضرورة ضرورة أخرى تتمثل في تعليم اللغة العربية، لتكون مدخلا لفهم القرآن الكريم والنصوص الإسلامية والتراث العلمي الإسلامي؛ ولكي تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية في المؤتمرات والندوات التي تعقدها الاتحادات والجمعيات الخاصة بالأقليات المسلمة.

وفي الوقت نفسه، فأبناء الأقليات المسلمة مدعوون ايضا لتعلم لغات المسلمين الأخرى، ولاسيما اللغات الأكثر رواجا وانتشارا، والتي كتب بها كم هائل من التراث الإسلامي، وفي المقدمة اللغة الفارسية.. لغة المسلمين الثانية بعد العربية.

ولعل الاسلوب الامثل في تعليم القرآن الكريم والمعارف الإسلامية واللغة العربية ولغات المسلمين الأخرى، ايفاد أبناء الأقليات إلى البلدان الإسلامية ليدخلوا دورات مكثّفة محددّة بزمن معين (مثلا سنة أو سنتين)، وكذلك ارسال مدرسين واساتذة متخصصين إلى الغرب ليقيموا مثل هذه الدورات، أو استثمار بعض الاساتذة الموجودين في الغرب لهذا الغرض، دون حصر حضور هذه الدورات بالرجال أو كبار السن.

ويقع على عاتق اجهزة اعلام البلدان الإسلامية مهمة أساسية في هذا المجال، إذ بامكان القنوات التلفزيونية الفضائية والاذاعات تخصيص فترات من بثها لاغراض تعليم الأقليات المسلمة.

ومن التصورات الأخرى في المجال التعليمي والتربوي، قيام الاجهزة التعليمية والتربوية في البلدان الإسلامية باعداد وطباعة المناهج التعليمية الدينية وارسالها إلى مراكز وجمعيات ومدارس الأقليات المسلمة، في الوقت الذي تبادر البلدان الإسلامية إلى دعم الأقليات في المشاريع التعليمية الكبيرة، كمشاريع اقامة المجمعات التعليمية بدء من مرحلة رياض الاطفال إلى الابتدائية والمتوسطة والثانوية والمعاهد المهنية، وانتهاء بالجامعة. اضافة إلى توسيع المراكز التربوية والتعليمية التقليدية، وتزويدها بكل ما تحتاجه من وسائل تعليمية كالكتب والوسائل السمعية والبصرية وغيرها، باللغة العربية ولغات الأقليات. ودعم الاتحادات والجمعيات الإسلامية ولاسيما اتحادات الطلبة الجامعيين، بالصورة التي تمكنها من ممارسة نشاطاتها التربوية والتعليمية، كانشاء المكتبات العامة واقامة الندوات والمؤتمرات الطلابية الدورية وبناء الاقسام الداخلية (السكنية) ومساعدة الطلبة المسلمين المعوزين.

ومن البرامج الاستراتيجية القائمة الآن، برنامج اعطاء المنح الدراسية لأبناء الأقليات المسلمة في الغرب للدراسة في جامعات البلدان الإسلامية. ولكن أثبت الواقع أن هذا البرنامج بوضعه الحالي لم يف بالغرض، بل لازال هناك نقص حاد جدا في وجود الاساتذة والمدرسين والمبلغين من أبناء الأقليات نفسها. ومن هنا لابد من زيادة المنح الدراسية هذه،

لكي يستطيع أبناء الأقليات بعد تخرجهم من جامعات البلدان الإسلامية الاحلال تدريجيا محل المدرسين والمبلغين المنتدبين من قبل البلدان الإسلامية.

ولعل تجربة بعض الجامعات الإسلامية مفيدة في هذا المجال، وهي مدعوة لتطوير تجربتها، ونذكر هنا الجامعة الإسلامية في ماليزيا التي تضم طلبة مسلمين من ٩١ بلدا، والحوزة العلمية في قم التي تضم طلبة من ٦٠ بلدا، وجامعة الإمام الخميني الدولية وجامعة التقريب في ايران وغيرهما، وكذلك جامعة أفريقيا العالمية في السودان وجامعة آل البيت في الاردن وجامعة الازهر في مصر وجامعة محمد بن سعود في السعودية. ونشير هنا ايضا إلى تجربة بعض الجامعات الإسلامية في لندن واشنطن وقرطبة وغيرها، التي تستحق التقدير والدعم.

٢ ـ الجانب الاجتماعي والحقوقي:

في ضوء ما اكد عليه القرار ٨/٤٧س الصادر عن قمة طهران بشأن بذل المساعي لكي تتمتع الأقليات المسلمة بمعاملة متكافئة من حيث الحقوق والالتزامات والواجبات، فإن الحقوق الاجتماعية هي الاطار الذي يشتمل على مجمل الحقوق الأخرى، الدينية والمدنية والسياسية وغيرها. واحقاق هذه الحقوق يتأتّى عبر مساع تقوم بها هذه الأقليات مع الاجهزة المختصة في الدول الغربية. واقرار هذه الحقوق وتنفيذها وضمانها هي مهمة تلك الاجهزة بالدرجة الأساس، أي أن هذا الشق من الجانب الاجتماعي والحقوقي يرتبط أساسا بالدائرة العامة التي تعيش في وسطها هذه الأقليات، ولا يرتبط بالدائرة الخاصة للاقليات نفسها.

اما الدائرة الخاصة، فيقع على عاتقها مهام نوعية وكمية كبيرة في الجانب الاجتماعي، ولعل اشاعة روح التكافل والتكامل والتضامن الاجتماعي، إلى المستوى الذي يضمن وحدة الجماعة وتماسكها الشديد. وهذا المستوى لن يتحقق إلاّ بآليات فاعلة، تجعل الفرد المسلم والاسرة المسلمة يحسّان بالانتماء الكامل للجماعة والحاجة اليها والمسؤولية تجاهها وتجاه أفراد الجماعة الآخرين، باعتبارهم اخوانه في العقيدة والاعضاء المكملين لجسد الجماعة.

ولعل التأكيد على حضور المساجد لأداء العبادات واحياء الشعائر الدينية، وكذلك المراكز والجمعيات الإسلامية، واقامة الاحتفالات والمراسم، سواء في الاعياد والمناسبات المختلفة العامة، أو في المناسبات الاجتماعية الخاصة، يعد من بديهيات النشاط الاجتماعي

الحقيقي، ومن الضروري أن يكون للاقليات المسلمة صناديق للمساعدات ولاعطاء القروض الحسنة، وجمعيات للبر والإحسان ولرعاية الايتام والمسنين والعوائل الفقيرة، اضافة إلى مراكز اقتصادية للتشغيل والاستثمار ورعاية مشاريع العمل والكسب، واقامة المشاريع التي من شأنها توفير الاطعمة والمشروبات الحلال، وكذلك مراكز أخرى للشباب تقوم بمختلف النشاطات الاعلامية والفنية والتثقيفية والاجتماعية، كاقامة المخيمات والمعسكرات الثقافية والكشفية الدورية، وتشكيل الفرق الفنية وغيرها.

وفي هذه المجالات يمكن الاستفادة من الحقوق الشرعية كالزكاة والخمس والتبرعات الإسلامية إلى هذه الأقليات، على شكل كتب تعليمية أو عامة ومجلات واشرطة سمعية وبصرية وغيرها، ولاسيما تلك المعدة خصيصا لمخاطبة الأقليات المسلمة في الغرب، اضافة إلى انشاء مشاريع في دول الغرب نفسها تقوم بمهمة الانتاج، أو الترجمة حدا أدنى، وصولاً إلى انشاء اذاعات ومحطات تلفزيونية ووكالات انباء ومؤسسات فنية وسينمائية خاصة بالأقليات. وكذلك الاهتمام باعداد الطاقات الاعلامية والفنيّة من أبناء الأقليات لسدِّ أي فراغ محتمل في هذا المجال، على أن تتم هذه النشاطات ـ بالنظر لخطورة رسالتها وتأثيرها ـ تحت اشراف اساتذة وعلماء كمرجعيات في الجانب الشرعي.

وبالنسبة إلى سدِّ الفراغ في الجانب الشرعي، فمن الضروري وجود علماء ومبلغين اكفاء أو وكلاء لمراجع الدين مقيمين في المدن الغربية التي يتركز فيها الوجود الإسلامي، بهدف رعاية الأقليات دينيا واجتماعيا.

واعيد هنا التاكيد على نقطة في غاية الاهمية، تتعلق بالتعددية المذهبية والقومية واللغوية والاجتماعية للاقليات، فهذه التعددية لابدَّ أن تتحوَّل إلى نقطة قوة وتقارب ووحدة، بدلاً عن أن تكون نقطة اختلاف وافتراق. وعلى هذا الأساس، فإن كل التوصيات والبرامج والمشاريع التي تستوعب الجوانب التي مرَّ ذكرها (التربوية والتعليمية والاجتماعية والحقوقية والثقافية والاعلامية والتبليغية) لابدَّ أن تاخذ بنظر الاعتبار مراعاة موضوع التعددية، وتتجنب اثارة المشاكل والحساسيات التي لاطائل منها، بل وتحول هذه التعددية ـ كما ذكرنا ـ إلى نقطة قوة.

واستثمر فرصة انعقاد مؤتمر الوحدة الإسلامية، لأثمّن اهتمام دورته الحالية بموضوع الأقليات المسلمة، ولاقدم بعض المقترحات الخاصة، والتي يمكن لمجمع التقريب أو المؤتمر نفسه أو رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية والمجامع والمؤسسات الأخرى النظيرة، تنفيذها. فأقترح أن تبادر احدى هذه المؤسسات إلى عقد مؤتمر خاص بالأقليات المسلمة في الغرب، والافضل انعقاده في دولة غربية، ويحضره ممثلون عن هذه الأقليات من مختلف المذاهب والقوميات والجنسيات، ومن السكان الاصليين والمهاجرين، لتدارس أوضاعهم.

واقترح ايضا تشكيل امانات دائمة أو مكاتب خاصة بالأقليات المسلمة، في كلّ من مجمع التقريب ومجمع اهل البيت ورابطة الثقافة وغيرها من المؤسسات النظيرة.

وكذلك اصدار مجلة متخصصة بشؤون الأقليات المسلمة في الغرب، تصدر ابتداء باللغتين العربية والانجليزية.

وأخيراً اتمنّى على الدورة القادمة لمؤتمر الوحدة الإسلامية أن تخصص موضوعها للاقليات المسلمة.

إطلالة على الوضع الثقافي للدول الأفريقية

في الوقت الذي تبذل قارات أوروبا وأميركا وآسيا جهوداً حثيثة وهي على أعتاب القرن الحادي والعشرين وتحاول رفع المستوى المعيشي لمواطنيها عبر تشكيل التحالفات وتوقيع المعاهدات المتعددة الأغراض وتدأب دوماً من أجل توسيع رقعة التقنية والتجارة وترسم خططاً عديدة ومنوَّعة تتناسب مع الألفية الثالثة، تبدو أفريقيا وكأنّها قد غاصت في مشاكلها الراهنة فانشغلت في حرب مع نفسها مبدِّدة بإمكاناتها دون أن تعي المتطلبات الزمنية.

إن كون أفريقيا تقف في هامش الحضارة العالمية وأنها لا تحظى إلاَّ بنزر يسير من الإهتمام في المعادلات السياسية والإقتصادية والثقافية، هوأمر يقره الجميع، ولقد أثيرت حفيظة رؤساء جمهوريات غالبية الدول الأفريقية بسبب تهميشهم وعدم الإهتمام بهم بشكل كاف. الحقيقة هي ما بينها الرئيس النيجيري السابق آباجا حين قال بأن تهميش أفريقيا بات اليوم خطة منظمة.

ورغم أن تسمية أفريقيا من قبل الكثيرين بـ«القارة السوداء» تشير في مدلولها إلى لون أكثر سكان تلك البسيطة، لكنها تحمل في طياتها غالباً تلميحاً دقيقاً بالظروف الصعبة والعصيبة التي يعيشها أهلها. وحسب إحصاءات الأمم المتحدة فإن أربعين بالمائة من سكانها يعيشون تحت خط الفقر، سوى نسبة قليلة ومحدودة.

البقية الباقية هي الأخرى لا تمتلك حياة مناسبة. وفي الحقيقة إن حصة أفريقيا من التجارة العالمية لا تؤلف سوى أربعة بالمائة منها، وهي نسبة ضئيلة جداً قياساً بباقي القارات.

إن الأخبار التي تنقلها وسائل الإعلام للناس عن أفريقيا يومياً والكتب الكثيرة التي تحكي الظروف القاهرة والوضع السيء لأبنائها، تثير دهشة وقلق حتى أكثر اللامبالين من

بني البشر. تحترق القارة اليوم في شمالها وجنوبها وشرقها وغربها بنار النزاعات الداخلية وانعدام الأمن الإجتماعي والإقتصادي والتناحر القبلي فيما يلحظ بكل وضوح في كثير من دول القارة تجاهل مسؤوليها للقوانين الوطنية والدولية.

ولعل المشاكل الإقتصادية والإجتماعية التي تعاني منها دول القارة اضطرتها إلى مد جسور العلاقة سياسياً واقتصادياً وثقافياً مع المستعمرين السابقين لها والإستعانة بهم في إقرار النظام فيها. إن ظروف القارة الأفريقية سيئة ومؤسفة إلى الحد الذي يدفع بمحقق كبير مثل «علي مزروعي» إلى التمني باستعمار أفريقيا مرة أخرى، أملاً في تحسن أوضاع الناس ولوقليلاً. إنه يقسم تأريخ أفريقيا الحديث إلى ثلاث مراحل:

١ـ المرحلة الأولى: وهي ما عرفت باسم مرحلة مقارعة الإستعمار وتمتد من سنة ١٩٤٥ ولغاية ١٩٦٠.

٢ـ المرحلة الثانية: وهي ما عرفت باسم مرحلة طلب الإستقلال وتمتد من سنة ١٩٦٠ إلى ١٩٨٧.

٣ـ المرحلة الثالثة: وقد بدأت بعد عام سبعة وثمانين ويسمّيها بالمرحلة الجديدة من الاستعمار في أفريقيا. إنه يذهب إلى أن المرحلة الثالثة قد بدأت بالفعل، خاصة وأن الدول الأفريقية عاشت بعد استقلالها النزعة التخريبية (التعددية الحزبية، المحورية الحزبية، والدكتاتورية) وتجربة التحضرُّ، وكذلك إدارة شؤون البلاد لكن أيّاً منها لم تثمر عن شيء[١].

على أن إلقاء نظرة عابرة على أوضاع الدول الأفريقية تكفي لإثبات المزاعم أعلاه.. فنار الحرب القبلية وأنانية الزعماء في (رواندا) و(بروندي) و(زائير) قادتا إلى تشريد الملايين لا مأوى لهم ولا ملجأ، فيما نيران الحرب أتت على قدرات وإمكانات البلدان فجعلتها كالرميم.

أما شعوب (الصومال) و(أثيوبيا) و(السودان) و(أوغندا) فأفناها الصراع على السلطة ومساندة الدول الغربية للمسيحيين.

وإلى جانب الجفاف والفقر اللذين تعاني منهما موزنبيق وزامبيا وأنغولا وناميبيا فإنها

١. صحيفة نيشن ١٨/٢/١٩٩٤.

تلقَّت صدمات كبيرة بسبب مشاكل تغيير الحكومة، وكذلك المعارضة التي تتلقَّى أوامرها من دول أخرى.

في غرب أفريقيا صارت (نيجيريا) و(سيراليون) و(ليبيريا) مسرحاً للحروب الداخلية والإضرابات وانعدام الأمن مما أذهب ريح شعوب هذه الدول ونخر قواها.

المتتبع يعرف أن ثروات تلك البلدان وقدراتها الإقتصادية تتحكم بها فئة قليلة تتلقَّى أوامرها من إسرائيل، إنها طردت اللبنانيين كي تستحوذ على ثروات ومعادن هذه البلدان[1]..

إنَّ الدول الأفريقية ظلت تحت وطأة الغرب إلى حد سلبها القدرة على ممارسة أي دور يتناسب مع قدراتها الوطنية وتطلعات شعوبها.

في السياق ذاته، ينبغي اعتبار الكوارث الطبيعية في القارة الأفريقية ناجمة عن التصرفات غير المناسبة لسكانها وحكوماتها، فأفريقيا تئنُّ اليوم من الجفاف والأمراض وقضية القضاء على الغابات، إذ تواجه القارة في كل عام عملية إبادة واسعة لغاباتها. وعلى العموم فإن الفقر والأمراض والجوع والحرب والتشريد والتناحر الداخلي والفساد الواسع النطاق والزعماء الذين صمّوا آذانهم عن أن يستمعوا لكلام المعارضة أو أن يسعوا في تحسين الظروف، كلها تعدُّ من العوامل المؤثرة في المشاكل القائمة.

إن الزعماء الأفارقة حينما اختاروا وزراء ومسؤولين غير اكفاء وذوي نزعات قبلية، لم يعملوا في الحقيقة على تحسين الأوضاع بل على العكس ساهموا في تزايد وخامتها أكثر فأكثر[2].

وعلى نحوالعموم، ليس لأفريقيا أي موقع في آفاق الإقتصاد والسياسة العالميين، وإن الدول المتطورة تنظر للقارة بأنها منطقة متخلِّفة لا بدَّ من استغلالها. الصور التي تنشر عن أفريقيا في دول العالم تعكس في الغالب نوعاً من الصراع والنزاع القبلي وأحداث القتل المأساوية والجفاف والأمراض والجوع التي وإن كانت تخلق نوعاً من الترحُّم والعطف تجاههم لدى مشاهديها لكنها تنطوي في نفس الوقت على حالة من الإحتقار والإهانة لأفريقيا.

أضف إلى ذلك، تعاني أفريقيا من مشكلة أخرى هي النموالسكاني العشوائي فتزايد

---

١. البلاد ـ حزيران ـ ٩٧ ـ العدد ٢٢٦.

٢. صحيفة نيشن٩/٨/١٩٩٤.

السكان في القارة والإفتقار لإدارة صالحة مستثمرة للمصادر بصورة صحيحة وانعدام الإهتمام بتعليم العامة قاد إلى بروز مشاكل اقتصادية وسياسية واجتماعية.

كتبت أسبوعية نيوز الصادرة بتاريخ ١٨ كانون الثاني عام ١٩٩٢ تقول: حينما نالت غانا استقلالها عام سبعة وخمسين كان شعبها يردد شعارين أساسيين، الأول بشأن تأمين الملبس للعراة، والآخر منح الجماهير حريتها. إنهما شعاران يمثلان الحاجات الرئيسة للناس غير أنهما لم يتحققا رغم مضي أربعة عقود.

الأسبوعية نفسها ذكرت أنَّ الجسد الأفريقي يئنُّ اليوم من جراح عميقة وظروفه باتت أسوأ مما كانت عليه في عهد الاحتلال.

إن الإحصاءات التي تنشر عن تلك القارة تثير القلق في النفوس وتحير الأذهان، فالجوع قد حول ملايين الأفارقة إلى هياكل عظمية ينتظرون أن يرخي الموت عليهم سدوله. وبينما ترسل أمراض الأيدز والملاريا والإسهال في كل عام عدداً كبيراً منهم إلى باطن الأرض، يفتقر الملايين بسبب انعدام الأمن والتناحر القبلي والجفاف والقحط إلى أبسط ظروف المعيشة في حين تكتنز القارة ثروات ومعادن لا نهاية لها، ذلك أن الناس يعيشون على جبل من ذهب.

لقد أطلقت منظمة الأمم المتحدة على عام ١٩٩٦ إسم عام " مكافحة الفقر " والقضاء على هذه الكارثة الإجتماعية.

السيد بطرس غالي الأمين العام السابق للأمم المتحدة، وصف الفقر في الدول النامية بأنه عامل رئيس للعنف والجرائم والتناحر القبلي والإنحرافات الإجتماعية. وأضاف: إن الفقراء لا يمكن أن يعتبروا أنفسهم أعضاء المجتمع بحق ويلتزموا بتعهدات معينة إزاءه.

واستناداً للأرقام الصادرة عن الأمم المتحدة سنوياً، فإن ربع فقراء العالم الذين يصل عددهم إلى مليار وثلاثمائة مليون نسمة هم من أفريقيا.. لكن الفقر الموجود في أفريقيا يرتبط في جذوره أيضاً بسياسة وأداء الدول الغربية والمستعمرين، حتى أن السيد والتر رادني بيّن ذلك تماماً في كتابه القيّم «أوروبا وراء تخلف أفريقيا».

أضف إلى هذا أن زعماء الدول الأفريقية قاموا من خلال سياساتهم السقيمة وعدم

اهتمامهم بمصلحة شعوبهم وبلدانهم، بخطوات أسفرت عن تبدد كثير من الفرص وتفاقم المشاكل[١].

إن الفقر في أفريقيا، والذي يعدُّ العامل الأول لكثير من المشاكل، ناجم عن سببين أحدهما خارجي والآخر داخلي. أي أن قسماً منه يرتبط بالإستعمار والسياسات الإستعمارية التي لاتزال متواصلة مع الأسف حتى الآن، فيما القسم الآخر يرتبط بعدم وجود إدارة صحيحة واتخاذ سياسات خاطئة من قبل مسؤولي البلدان إلى حد أخرج المنظمات الدولية من صمتها لتوجِّه انتقادها لأداء زعماء الدول داعية إياهم للإهتمام بالمصلحة العامة والقيام بخطوات مؤثرة وبنّاءة. لقد اعتبر الدكتور «إبراهيم سابا» المدير الإقليمي في منظمة الصحة العالمية الفقر العامل الرئيس لكثير من مشاكل شعوب أفريقيا[٢].

في عام ١٩٥٠ بلغ عدد نفوس أفريقيا نصف عدد نفوس أوروبا، ثم ازداد عدد نفوسها ليعادل نفوس أوروبا عام ١٩٨٥ أي ليساوي ٤٨٥ مليون نسمة تقريباً. أما اليوم فعدد نفوس القارة الأفريقية يفوق بكثير نفوس القارة الأوروبية فيما قدراتها وإمكاناتها في انخفاض مطرد. ليس هذا فحسب بل إن نفوس أفريقيا ستفوق نفوس أوروبا عام ٢٠٢٥ بثلاث مرات وبالتالي فإن هذا التزايد من شأنه أن يزيد من الفقر، وكلٌّ منهما يزيد الطين بلة.

وحينما تحدَّث المدعي العام الكيني (آموس واكو) عن القارة وظروفها، قال: إن أفريقيا قارة اختارتها الشياطين سكناً لها فسلبت أهلها الراحة والهدوء![٣].

لجنة الإقتصاد الأفريقية أعلنت سابقاً بأن أفريقيا تخسر سنوياً ما يعادل ٢٫٦ مليار دولار بسبب تدني مستوى منتوجاتها مقارنة بإنتاج باقي دول العالم، كما أن القرارات المصادق عليها في مؤتمر الأورغواي لا تصبُّ في صالح القارة[٤].

على صعيد التعليم.. تدنى مستوى التعليم في الدول الأفريقية إثر العمل ببرنامج إصلاح

---

١ . صحيفة «استاندارد» ١٩٩٥/١/٧.

٢ . صحيفة نيشن ١٩٩٥/١٢/٢٧.

٣. صحيفة استاندارد ـ ١٩٩٤/٩/٢٠.

٤. صحيفة تايمز ١٩٩٤/١٠/٢٦.

البنية الإقتصادية S A P بعد أن حتم عليها البرنامج الجديد خفض ميزانيتها التعليمية، ولذا لم يكن التعليم في كثير من الدول حقاً يتمتع به كافة المواطنين بل كان حكراً على أبناء الطبقة الوسطى والأثرياء.

خلال الإجتماع الثالث والثلاثين للجنتين الإستشاريتين للدول الأفريقية _ الآسيوية عام ١٩٩٣، قال المدعي العام الكيني (آموس واكو): إن دول العالم الثالث مجبرة، وفي إطار تماشيها مع الدول المشاركة، على العمل بأساليب ومناهج تتنافى مع مصلحة وتطلعات الناس وتؤدي إلى انعدام الأمن الإجتماعي وتفشي الفساد وبالتالي تضطر إلى تخصيص جزء من ميزانيتها للتصدي لحالة انعدام الأمن الأجتماعي.

ونقلاً عن البي بي سي بتأريخ ١٩٩٣/١/١٥ فإن الدول الأفريقية تبيع موادها الأولية بنفس سعر ما بعد الحرب العالمية الثانية في وقت تبتاع البضاعة المستوردة بأضعاف ما كانت تشتريه في ذلك الزمان.

إن برنامج إصلاح البنية الإقتصادية وجَّه ضربة قوية للوضع التعليمي في دول القارة، ذلك أن كثيراً من الأشبال الموهوبين تركوا الدراسة بسبب فقرهم مادياً. في عام ١٩٩٤، أعربت منظمة اليونسكوعن قلقها إزاء الوضع الدراسي في أفريقيا ودعت المسؤولين التعليميين في القارة إلى بذل الجهود من أجل النهوض بمستوى التعليم في بلدانهم[١]. ولعل بالإمكان تصنيف قلة المؤسسات التعليمية الحكومية وغلاء الكتب والقرطاسية وعدم اهتمام المسؤولين التعليميين بالأمر كعقبات مهمة في مجال التعليم.

أحد التقارير أكد أن المشاكل التعليمية وانعدام الأمن والإضرابات في الجامعات دفعت بعض العوائل إلى إرسال أولادها إلى الغرب لمواصلة تحصيلهم الدراسي وهو ما يؤدي إلى ابتعادهم عن ثقافتهم ومجتمعهم. هذا فضلاً عن أن كثيراً من شهادات التخصص التي يحصل عليها هؤلاء لا تتناسب مع ظروف المجتمع الأفريقي وبالتالي لن يكونوا فاعلين ومفيدين لمجتمعاتهم بالمستوى المنشود.

---

١. صحيفة هدف ـ ١٩٩٥/٨/١٧.

مجلة اليونسكو ذكرت في عددها الصادر في تشرين الأول عام ١٩٩٦ أن عدد الأمّيين في أفريقيا عام ١٩٩٠ فاق الـ١٦٨ مليون نسمة أعمارهم من خمسة عشر عاماً فما فوق، علماً أن مائة وخمسة ملايين منهم من النساء.

من جهة أخرى، تواجه أفريقيا مشكلة فرار الأدمغة، الأمر الذي يؤثر سلباً وبشدة على تلك المنطقة. في هذا السياق يفيد تقرير صحيفة نيشن في عددها الصادر بتأريخ ١٩٩٤/٧/٢٥ بأن ما يقارب مائة ألف من الكوادر الأفريقية الماهرة ومن خريجي الجامعات تعمل في دول أخرى وخاصة الغرب.

وحسب تقرير السيد «تيمبرليك» في عام ١٩٨٤ فإن أفريقيا تستخدم سنوياً ثمانين ألف متخصص بنفقات تتراوح بين ثلاثة إلى أربعة مليارات دولار، مهمّتهم حل وعقد شؤون دول القارة. إن الأشخاص الذين يتم استقدامهم من الغرب يتقاضون مرتبات سنوية تصل عادة إلى مائة وثمانين ألف دولار[١].

وبهذه الصورة تتحمّل أفريقيا خسائر مضاعفة. فمن ناحية يتحتم على أبناء أفريقيا تقديم أكبر قدر من الجهود والتفاني في الدول الغربية بأقل قدر من الأجور فيما يجري دفع مرتبات عالية للمتخصصين الأجانب كي يعملوا في أفريقيا، وهذا الأمر يعود بلا شك إلى أداء حكومات غير مؤهلة عاجزة عن استثمار طاقات دولها وشعوبها بصورة جيدة مفضلة التعاون مع الأجانب من أجل المزيد من نهب ثرواتها.

إن بسط الإستعمار الغربي هيمنته قد جرى من خلال محاولات وجهود ثلاث مجموعات؛ الأولى: المكتشفون، والثانية: العسكر، والثالثة: القساوسة والأشخاص التابعون للكنيسة. ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر، حيث بدأت الخطة المعروفة بالهجوم على أفريقيا، قدمت المجموعات الثلاث أعلاه إلى أفريقيا بدعم وحماية الحكومات الغربية وبعد الوقوف على وضع القارة قاموا بدعم من العسكر باستعمار بعض أراضيها.

وفي الواقع أنه لم يكن باستطاعة أيّ من هذه المجموعات أن تحقق بمفردها الأهداف

---

١. Timber Lake 'African Religion in Western Scholarship E.A.E.P. NA/ROB/١٩٨٥ p-٣

المرسومة، فاذا كان العسكر مارس حرب الإبادة في بنين عام ١٨٩٧ ولم يتوان عن ارتكاب كل جريمة بغية الإستيلاء على تلك المنطقة، فإن القساوسة والمكتشفين وما يطلق عليهم بالعلماء الغربيين إستخدموا نفس الأسلوب في إذلال الشعب الأفريقي واستنزافه.

إن جرائم الجنود الأوروبيين والغربيين في أفريقيا لم تقتصر على حرب الإبادة في بنين وقمع ثورة الأكواخ أوقتل ثوار ماو ماو بل إنهم طمعوا في السيطرة على كامل تراب القارة، ولذا قامت المجموعتان الأخريان بالسير في نفس الإتجاه ومهَّدوا الطريق للعسكر.

أحد الكتاب الأفارقة البارزين قال في كتابه «المذاهب الأفريقية من وجهة نظر علماء الشؤون الأفريقية الغربيين»، أنه لاحظ حينما كان يدرس في بريطانيا في عقد الستينات أن علماء الغرب كانوا يستخفون ويحتقرون الأفريقيين ويعتبرون أفريقيا مكاناً للوحوش أو أتباع المذاهب المنقرضة أو الكفار ومن لا شعور له ولا قيمة إنسانية[١].

وفي الحقيقة أن النظام الإستعماري الغربي كان ينوي بمساعدة كافة مؤسساته إذلال القارة ونهب ثرواتها.

تكبَّدت القارة الأفريقية خسائر جسيمة بسبب سياسة التبشير بدين المسيح عليه السلام والقساوسة التابعين للحكومات، فالقساوسة دخلوا أفريقيا تحت يافطة التبشير وإشاعة الدين المسيحي، وعمدوا بالتعاون مع العسكر إلى إيجاد المراكز وتوفير الإمكانات اللازمة لنشر الثقافة الغربية.

وفي الحقيقة أن قرناً من استعمار أفريقيا أثبت أن القساوسة المسيحيين لم يكونوا بمستوى المسؤولية أو الإلتزام في ذاتهم بدين النبي عيسى عليه السلام، بل كانوا مطيعين وأصابع للحكومات الإستعمارية أكثر من كونهم أتباعاً للدين المسيحي.

المتصفِّح لسجل تأريخ استعمار القارة الأفريقية الممتد إلى مائة عام، لا يعثر ولا حتى على نموذج واحد وقف فيه القساوسة والمبشرون إلى جانب أصحاب الأرض لدفع وإزالة ظلم المستعمرين أو أن يسعوا من أجل إحقاق حقوق الزنوج.

---

١. Bilke. O. AFRICAN Religoin in WESTERN Scholaship K.L.B. NINA ob, d.

إن أهم مهام ومسؤوليات المبشرين الدينيين وتيارات الكنائس تتلخص في تغيير أسماء وتقاليد الناس وإجبارهم على قبول الفكر الغربي، بحيث يعتبر الفرد الأفريقي نفسه مواطن دولة مستعمرة ويسعى فقط من أجل سعادة الأم _ المدينة. المستعمرون تمادوا في استغلالهم للأفارقة، إذ عمدوا في زمن الحربين العالميتين إلى إرسال عدد كبير منهم إلى جبهات الحرب ليستفيدوا منهم في القتال وجهاً لوجه.

وفي الواقع أن القسيسين والمبشرين لم يألوا جهداً من أجل تغيير العقائد الدينية للأفريقيين مهما استلزم من خطوات بما في ذلك استخدام منطق القوة والإجبار وصولاً إلى الهدف المحدد. ومن الأمور التي قاموا بها تفنيد النزعة القبلية والتشجيع على نبذ تقاليد وعادات القبائل، معتبرين أنها مذمومة، كما أنهم أدانوا تعدد الزوجات ومراسم تعليم الأسرار التي تعد من ميزات الحياة القبلية في أفريقيا وخططوا للقضاء عليها.

في هذا السياق يوجِّه الرئيس الكيني السابق «جوموكنياتا» في كتابه الذي يحمل عنوان «هلموا إلى جبل كينيا» انتقاداته لهذه السياسة الإستعمارية ويسطّر في فصول كتابه قوله بأن سعادة وحرية الشعب تكمنان في الإبتعاد عن المستعمرين والعودة إلى ثقافته التقليدية.

وهكذا فعل «جنوا آشب» في غرب أفريقيا عندما ألف كتابه «لا شيء يبقى على حاله» حيث انتقد سياسة المستعمرين بما فيهم أساقفة الكنيسة بشأن تفنيد القيم التقليدية والعقائد القبلية.

الحقيقة هي أن أيّاً من المجموعات الغربية لم تترك أثرها في مرحلة الإستعمار على الرؤى المحلية والتقليدية للناس كما فعل القسيسون والأساقفة، فهؤلاء قاموا بتأسيس مراكز تعليمية ومؤسسات صحية إلى جانب الكنائس وتغلغلوا إلى نفوس وأذهان الناس وخاصة الشباب وزعزعوا معتقداتهم.

في هذا السياق، ورغم أنه لا يمكن إنكار المساعي والمساعدات الإنسانية المقدَّمة لسكان أفريقيا في بعض المجالات لكن يجب الإقرار بأن هدفهم هوتوسيع النفوذ الثقافي للدول المستعمرة قبل أن يكون إشاعة ونشر الدين المسيحي وتعاليم النبي عيسى بن مريم عليه السلام .

لقد كانت مجموعة جند السلام الأميركية المؤلفة من مجموعة من الشباب المثقف والمتطلع إلى نشر الدين المسيحي، تسافر في كل عام إلى أفريقيا وتعمل في مناطق نائية منها،

حيث مارسوا تخصصهم في القرى والمدن ووقفوا على مشاكل أهاليهم وقدَّموا حسب إمكاناتهم المساعدة لهم لحل مشاكلهم.

وإلى جانب نشاطهم العلمي المتَّسم بالمنفعة العامة قاموا بالتبليغ والتبشير للدين المسيحي وتمكَّنوا بالتدريج من استمالة الناس لدينهم. هذه المنظمة تأسست قبل أكثر من ثلاثين عاماً، ومقرها الرئيسي في أفريقيا.

في الإطار ذاته، كان لأوروبا منظمات مشابهة لتقديم الخدمات ونشر المسيحية، لكن النقطة المهمة هي أن كافة تلك المنظمات سعت فقط من أجل تطبيق المسيحية التي تؤمن بها دولها ولم تلتق إلاَّ في مجال مكافحة الثقافة والرؤى التقليدية لأفريقيا.

إن عدد الكنائس الناشطة والعاملة في أفريقيا كبير إلى حد أنه يظهر بينها أحياناً نوع من الإنفصام والعداوة، ولهذا السبب عمدوا إلى تأسيس المجلس الوطني للكنائس المتحدة، ومهمَّته إيجاد الصداقة والعلاقة بين المجاميع المسيحية. علماً أن المجلس المذكور الذي مقره (لندن) له فروع في كافة الدول الأفريقية ويسعى جاهداً من أجل تحقيق أهداف الكنيسة.

يحاول قادة الكنائس من خلال جمع المعونات من الشعوب الغربية وإرسالها إلى الأفارقة المحتاجين والفقراء إستمالتهم وجذبهم، وعندما تشتعل نار الحرب الداخلية والنزاعات القبلية أوتحصل الكوارث الطبيعية تجد هذه المجموعة من السباقين إلى جمع المساعدات من الناس ومساعدة المعوزين والمستضعفين الأفارقة، لعلهم يحققوا أهدافهم الدينية من وراء ذلك. ومن هذه المؤسسات مؤسسة (ايجيديو) التي تتشكل من مجموعة مثقفين علمانيين يدعمهم الفاتيكان بملايين الدولارات.

إن العلاقة الثقافية العلمية بين الدول الغربية وبين أفريقيا تعدُّ أحد الطرق الأخرى لبسط الغرب نفوذه.. وسوى جامعة الأزهر التي يعود تأريخها إلى مئات من السنين، حيث شيدها الفاطميون، وبعض الجامعات الأخرى، كالجامعة الأفريقية العربية في الخرطوم، فإن أكثر الجامعات في أفريقيا تم بناؤها في القرن العشرين بمساعدة المستعمرين، ومما لا شك فيه أن الإسهام في تأسيسها لم يخل من مطامع استعمارية. فأكثر أساتذة الجامعات كانوا ممن درس في الغرب.

كما أن المناهج الدراسية معدَّة على نمط مناهج الجامعات الغربية، الأمر الذي دفع ببعض

المثقفين إلى رفع أصواتهم بالإحتجاج والنقد والتأكيد على أن مناهج ومواضيع التدريس في الجامعات الأفريقية لا تتناسب مع تطلعات وحاجة الناس، أي أن الطلبة الأفارقة يتعلمون دروساً ليست لها تطبيقات في مجتمعهم، وهذا الأمر أحد أسباب لجوء كثير من الدول الأفريقية إلى إيجاد تغييرات في مناهجها الدراسية على صعيد الإعدادية، لتأخذ طابعاً تطبيقياً أكثر.

لقد عمل كثير من الأساتذة الغربيين في الجامعات الأفريقية في مجالي التدريس والبحث، وبفضل ما كانت تزودهم به بلدانهم من إمكانات مرموقة، فقد اتجهوا إلى القيام بنشاطات من شأنها خدمة مصالح بلدانهم فضلاً عن مساعي بعضهم في نشر المسيحية.

تسبَّب استعمار الدول الغربية لأفريقيا في المزيد من تعمق العلاقة بين الغرب والقارة السوداء، بحيث أن كفاح الشعب الأفريقي من أجل نيل الإستقلال ومحاربة القوات الغربية لم يؤثرا على كنه العلاقة بينهما. وبالرغم من أن المثقفين والساسة أمثال سدار سنغور، وجوموكنياتا، وجوليوس (نيرره) كافحوا من أجل الإستقلال لكنهم جهدوا في نفس الوقت للمحافظة على جسور العلاقة مع الغرب، ولم يسمحوا بتحقق الإستقلال في بلدانهم بمفهومه الواقعي، أو أنهم فهموا الإستقلال بقيادة الحكومة لدفة الماكنة السياسية لا غير. لهذا السبب ترى الدول الأفريقية تربطها اليوم صلة وثيقة بالدول المستعمرة من الناحية الثقافية والاقتصادية والإجتماعية وحتى الدينية.

من الواضح أن سبب تغلغل الغرب الواسع في أفريقيا ناجم عن معرفته العميقة بثقافة وتقاليد وعادات الأفارقة، خاصة بعد الدراسات والبحوث العديدة والمنوعة التي أجريت من قبل المحققين الغربيين حول أفريقيا. إن غالبية التحقيقات التي تشهدها الجامعات ومراكز التعليم العالي تختص بشؤون أفريقيا، فضلاً عن إقامة العديد من الندوات حول أفريقيا في الغرب، حيث يجري استعراض نتائج آخر الدراسات التي قام بها خبراء الشؤون الأفريقية. (راجع الكتاب المشهور للسيد جان أمبيتي حول الفلسفة والمذاهب الأفريقية، وقد جمعت فيه محاضرات هذا الأستاذ وخطبه في الجامعات الألمانية).

آثار التغييرات الاجتماعية على وضع النساء والشباب

الحقيقة هي أن التغييرات العالمية الكثيرة التي حصلت مؤخراً تركت أثرها على دول العالم الثالث وشعوبها أكثر منها على العالم الصناعي الغربي، وفي هذا السياق كان الشباب والنساء هم الأكثر تأثراً.

كتبت صحيفة (ويست آفريكا) تقول بأن نسبة النساء بين السجناء الأفارقة المحبوسين في سجون الدول الغربية تصل إلى أربعين في المائة في حين لم تكن نسبتهن في العقدين أوالثلاثة الماضية ولا حتى خمسة بالمائة.

لقد واجهت أفريقيا على مدى القرنين الأخيرين أزمة هوية شديدة تركت بصماتها على كافة قطاعات وشرائح المجتمع، حتى أن بعض المشاكل الإقتصادية للقارة منبثقة من نفس أزمة الهوية وغياب الرحمة بين المجاميع والقبائل. فمن كان يعتبر نفسه خلال العقود الماضية _ مثلاً _ مرغماً بمقتضى العادات القائمة على التبعية لرئيس القبيلة أو رئيس الحكومة، بات اليوم يفكر بأمور أخرى ويدعو إلى إيجاد تغيير جاد في وضعه.

ولعله يمكن تصنيف شباب ونساء كينيا في هذا النمط، فهؤلاء لا يقرون بالنهج التقليدي والنماذج التي جرى تعريفها لهم في السابق ويرون أنها لا تستطيع تلبية متطلباتهم واحتياجاتهم الحاضرة.

لقد تعلمت المرأة الأفريقية ضمن تقاليدها أن تجعل الصبر والتحمل ديدنها وتعتبر نفسها أقل شأناً من الرجل وأنها خلقت لخدمته وعائلته، ورغم أن هذا الأمر خلق للمرأة مشاكل كثيرة لكنه ضمن إلى حد ما سلامة العائلة والمجتمع.

أما في الوقت الراهن فالمرأة الأفريقية باتت تبحث عن سبيل لتغيير أسلوب الحياة وتختار أسوتها من بين النساء الغربيات والفنانات والنساء المشهورات، وهوما لا يعدُّ أمراً صحيحاً ومناسباً من الناحية الأخلاقية.

لا شك أن ظروف المرأة في أفريقيا يمكن وصفها بالمزرية وهي تعيش القيود والتضييق من كافة الجوانب، أي أنها تفتقر في كثير من البلدان، وحسب القوانين العرفية والمدنية، للأهلية اللازمة للتصدي للشؤون الإقتصادية والملكية أوحضانة الأولاد أوحتى اختيار الزوج، والرجال وكبار القبيلة والعائلة هم المعنيون بالتقرير بشأنها. غير أن المشكلة الراهنة

هي أن المرأة الأفريقية المتعلمة والمثقفة التي ترفض الوضع الذي تعيشه النسوة هناك وتعتبره إذلالاً وإهانة لبنات جنسها، تتطلّع إلى أن تجعل من المرأة في الدول الغربية أسوة لها، وتحاول إيجاد تغييرات ليست بعيدة كل البعد عن ثقافتها وسننها المحلية فحسب بل وتقود في النهاية إلى نوع من استغلالها.

في هذا المجال، سجلت المنظمات النسوية المدعومة مادياً ومعنوياً من قبل الدول الغربية نشاطاً كبيراً حتى أنها تقيم في كل عام عدداً من المؤتمرات حول وضع المرأة في القارة الأفريقية وتعمل على تلقينها وتوجيهها. الملفت للنظر هو أن عدد النسوة المشاركات من قبل المنظمات غير الحكومية في مؤتمر المرأة ببكين فاق بعشرة أضعاف عدد النسوة المبعوثات من قبل دولها[١].

إن للمرأة الأفريقية حصة كبيرة في اقتصاد دولها في حقيقة الأمر لكنه وللأسف لا يجري الإهتمام بخدماتها وجهودها من الناحية القانونية ولا حتى التقاليد القبلية. وحسب باباكو ندياي رئيس البنك الأفريقي للتنمية، أن العنصر النسوي يؤلف أكثر من خمسين بالمائة من السكان في أفريقيا، وللمرأة دور ملحوظ في الوضع الإقتصادي وخاصة الزراعي. ندياي قال بأن (٦٠_٧٠) بالمائة من سكان أفريقيا هم من الفقراء، وأن النساء والشباب وكبار السن مصابون ببلاء الفقر أكثر من غيرهم وهم يتعرَّضون للصدمة من هذه الزاوية.

وفي إطار العوامل المهمة التي أثَّرت في تغيير نظرة المرأة لنفسها ولمجتمعها في أفريقيا، يمكن الإشارة إلى التعليم والهجرة إلى المدن، ووسائل الإعلام وسياسة المنظمات غير الحكومية وتنظيماتها، فبعد الإستقلال تصاعدت وتيرة الهجرة إلى المدن، وسكن عدد كبير من هؤلاء في المدن، مما قاد بالتالي إلى حصول تغيير في أسلوب الحياة القروية دون أن يتم توفير وسائله ومتطلباته.

بل يمكن القول بأن النساء والبنات الأفريقيات كنّ أكثر تأثراً بالتبعات الإجتماعية والإقتصادية لفترة ما بعد الإستقلال من غيرهن، ورغم أنها رفعت من مستوى الوعي لديهن

١. VANCKO KWBRIA Kenya Times ١٦_١١_٩٥.

لكنها جردتهن أيضاً من كثير من الميزات الأخلاقية، فقد بادرت الأفريقيات بعد المجيء إلى المدن وتزايد المشاكل إلى طلب الطلاق حتى صارت ظاهرة العائلة التي يدير شؤونها أحد الأبوين أمراً شائعاً في أفريقيا، وخلافاً لما يحصل في الغرب لا توجد أية منظمة تمارس دور الرقابة والإشراف من أجل تحسين ظروفهم.

في كينيا مثلاً، تجد أن أربعين بالمائة من العوائل المدنية هي عوائل يدير شؤونها أحد الأبوين فتتحمل الأم إذا كانت هي المتبنية لأولادها ألواناً من المشاكل والصعاب من أجل توفير الإمكانات والمستلزمات لهم.

لقد أفردت السيدة كريستيان أوبر اهتماماً خاصاً في كتابها المعنون «النسوة الأفريقيات والسعي من أجل الإستقلال الإقتصادي» بهذا الأمر، حيث كتبت تقول: «خلافاً للماضي حيث كانت المرأة تبقى في القرية ويذهب الرجل إلى المدينة من أجل الكسب والعمل حفاظاً على التقاليد والثقافة، فإن المرأة الأفريقية اليوم صارت تتوجَّه إلى المدينة لتسكنها أملاً في حياة أفضل».

أوبر ترى بأن النساء لن تزل أقدامهن في طرق غير سليمة إذا ما استطعن فور وصولهن للمدينة الحصول على عمل ومقر للسكن. لكن، وبسبب البطالة والكساد الإقتصادي المنتشرين في غالبية الدول الأفريقية، فإن النساء اضطررن إلى ارتكاب ما ينافي العفة والأخلاق وبالتدرج تزعزعت الأركان الخلقية للعوائل[١].

ومنذ أن أعلنت الأمم المتحدة عقد الثمانينات ميثاقاً للمرأة وجهدت من أجل تحسن ظروف المرأة، شهدت مكانة المرأة في أفريقيا جملة من التغييرات، إذ تأسست في أفريقيا منظمات متعددة ومتنوعة، تطالب وتدعو لتفعيل حقوق المرأة. ثم قدمت الكنيسة امتيازات وتنازلات للمرأة تتنافى في الواقع حتى مع أسس الشريعة المسيحية والمبادئ التي تدعو لها، كاختيار المرأة لممارسة دور الحارس والمشرف على شؤون الكنيسة، أوأن بإمكانها أن تتزوج أخ الزوج.

١. صحيفة فوكوس آن أفريكا.

أحد كبار أساقفة كينيا المدعو الأسقف (أنجويا) قال في ندوة لمناقشة أوضاع النساء قبل مؤتمر بكين: إن الثقافة والتقاليد الدينية رمت بالنساء إلى الهامش ولم تمنحهن الأهمية اللازمة، ثم اعتبرهن أعدى أعداء أنفسهن، وعليهن إعادة النظر في أعمالهن وأفكارهن.

أنجويا ذهب إلى ضرورة إيجاد تغيير في هيكلية العائلة، وأن شرعية الوالدين في التقرير بشأن مستقبل العائلة باتت على حد سواء، وأن القانون يدافع عن صاحب الحق لدى حصول أية مشكلة، وأضاف: إذا حرمت المرأة القدرة والأهلية اللازمة ولم تتبّوأ مكانتها الحقيقية في العائلة فهذا يعني أن الحكومة والمنظمات الإجتماعية لم تتحسن نظرتها، وسيكون لها سلوك قهري وإجباري ناجم عن نفس الوضع المضطرب للعائلة[١].

وفيما تؤكد مؤسسات تعليمية وكنائس ووسائل إعلام في أفريقيا وبشدة على النهوض بمستوى ظروف المرأة (بزعمهم) وتسعى من أجل إضفاء صبغة قانونية على الحريات من النمط الغربي بالنسبة إلى المرأة الأفريقية وبالتالي تنشئة عناصر وفية لها داخل العائلة الأفريقية لتقوم بمهمة الدفاع عن الإستعمار الجديد، لم يقم المسلمون والمنظمات الإسلامية بجهود تذكر على مسيرة تصحيح نظرة الناس للمرأة، ولايزالون يعتبرونها دون شريحة الرجل، ولا تمتلك عقلاً وقوة مميزة، وتحتاج إلى الرقابة والرعاية من قبل الرجل.

لذا كان من الطبيعي أن تجد بعض البنات والنساء المسلمات المتعلمات والمثقفات تحررهن وخلاصهن ونجاحهن في تقليد النموذج الغربي للمرأة، ولعل هذا المعنى يتضح جلياً وللأسف عند الإطلاع على ما دوَّنته النساء المسلمات. في حين أن الإسلام رفع صوته قبل أربعة عشر قرنا بنداء الحرية والمساواة المناسبة المنصفة بين الرجل والمرأة، وقدم أمثل نماذج الأسوة للمجتمع البشري.

لا شك أن إحدى مشاكل المسلمين الأفارقة متأتية من الأمية وقلة الإهتمام بالتعلم، في وقت يعدُّ التعلم هناك ميزة يختص بها الأثرياء ومن ارتبط بالمسيحية والمنظمات غير الحكومية المرتبط غالبيتها بالغرب، أمَّا الدول الإسلامية فلا تمنح الأفارقة سوى عدد محدود من المنح الدراسية في ظل ظروف وشروط صعبة نسبياً.

---

١. مجلة هدف ١٧/٨/١٩٩٥.

وإنه لمن نافلة القول بأن جهود الجمهورية الإسلامية الإيرانية في إعطاء المنح الدراسية تستحق الثناء ولا شك أن هذه المنح ستؤتي أكلها وستظهر آثارها في المستقبل، لكن حجم التباين بين عمل الجانبين يتضح كثيراً حينما نعرف بأن في كينيا وحدها واحداً وعشرين مركزاً للتعليم العالي التابع للمسيحية، مهمتها إعداد المعلمين والأساتذة والقسيسين ونعرف أيضاً أن عدد المقاعد الدراسية التي منحتها الجمهورية الإسلامية الإيرانية (عام ١٩٩٦) بلغ ستة عشر مقعداً فقط.

المشكلة الأخرى التي يعاني منها المسلمون في أفريقيا هي أن زعماءها يسعون إلى ربط أنفسهم بإحدى الدول الإسلامية بغية الحصول منها على المعونات والمساعدات، وبطبيعة الحال فإن مثل هذه المساعدات تستدعي نوعاً من الإلتزامات، منها: عدم الإهتمام بأمور وظروف المسلمين والتبليغ للدول المعينة.

إن هذا الوضع لن يحقق للإسلام هدفه الحيوي والسامي.. فالمستشاريات الثقافية للجمهورية الإسلامية الإيرانية تشير دوماً في تقاريرها المتواصلة إلى وجود محاولات لبث الفرقة بين المسلمين الأفارقة تقوم بها المجاميع الإسلامية المتطرفة، وهي بحق تبعث على القلق.

لكنه ينبغي أن لا يفوتنا بأن الدين الإسلامي سيكون له تأثير أكبر على الشعب الأفريقي؛ وذلك بسبب انبثاقه من الحاجات الفطرية والنفسية التي تضمن السعادة والفلاح للإنسان.. إن المسيحية في أفريقيا قد فشلت؛ ولعل أحد أسباب فشلها والذي طرح أيضاً في الفاتيكان الثانية نفس تلك الفرقة والتشتت بين أتباعها حيث أحصت دائرة معارف أكسفورد أكثر من سبعة آلاف فرقة إنقسمت إليها المسيحية في أفريقيا، وكلٌّ منها يحمل مبادئ دينية خاصة مدّعياً صحة ما هوعليه. ومن الطبيعي أن هذه الفرقة تسببت في ظهور العداوات والنزاعات ما يعني أن حلم جعل أفريقيا مسيحية لن يتحقق أبداً.

بيد أن الإسلام يمتاز بميزة هي أن مبادئه مقبولة وممدوحة لدى العامة، ولوتمَّ التبليغ له بصورة صحيحة فإن الكثيرين سيعتنقونه لا محالة. أضف إلى ذلك أن الإسلام لم يدخل إلى أفريقيا عن طريق القوات الإستعمارية بل كان له ماض سلمي، إلى حد ما، فضلاً عن أن احترام وشوق الناس له ساهم في نشره في القارة. في حين أن المسيحية لم يكن باستطاعتها إرساء

دعائمها في أفريقيا دون الموقف العسكري. كما حصل مع الروميين في الحبشة (أثيوبيا حالياً)، إنهم روّجوا لدينهم هناك لكنه بعد عودتهم من أفريقيا لم يستطع هذا الدين تخطي حدودهم.

في القرن الخامس عشر أيضاً، قامت القوات المساندة ـ«فاسكوديغاما» بالترويج للمسيحية في ماليندي وومباسا بل وشيدوا ميناء السيد المسيح عليه السلام لكنه بعد رحيلهم لم يستطع الدين المسيحي النمو ونشر مفاهيمه، وظل على ما هو عليه.

إن الإسلام دين له ماض مليء بالمفاخر في القارة الأفريقية، ولذا فقد احتلَّ مكانة في القلوب، في وقت يشعر الشعب الأفريقي بالنفور والإشمئزاز إلى حد ما إزاء البيض الغربيين بسبب سجلهم الإستعماري، ولو أتيحت لهم الفرصة لطالبوا بغرامة استعبادهم، وهوما أشار إليه السيد موسيني مراراً وتكراراً.

لقد عرفت أفريقيا التعليم الديني منذ زمن قديم، فيما كانت المؤسسات التعليمية تعرف باسم «المدرسة» خاصة في المناطق الساحلية. ينقل السيد بريندر في كتابه «المذاهب الثلاثة» أن تعليم القرآن واللغة العربية كان شائعاً في أفريقيا حتى في القرن الخامس عشر، ووجود هذه المؤسسات إلى جانب المساجد أوبصورة مستقلة يعدُّ فرصة مناسبة لتعليم الشباب والأشبال، علماً أن بعض الحكومات الأفريقية تحاول حالياً تهميش الحوزات الإسلامية وتجاهلها أو وضع العراقيل أمامها وتمنعها من ممارسة نشاطها بشكل كامل.

على العموم، وبالإضافة إلى المدارس الدينية في أفريقيا، مارست الحوزات العلمية في غانا وسيراليون وتنزانيا وكينيا والتي يجري دعمها من قبل الجمهورية الإسلامية الإيرانية دوراً مؤثراً وإيجابياً في نشر الإسلام.

لقد امتاز الإسلام بكونه يقرُّ كثيراً من سنن وأعراف الناس، فمثلاً يحترم كيان العائلة ويوِّقر كبار السن، ويهتم بشؤون الأولاد وباحترام الوالدين، ويوصي بالحفاظ على علاقة دينية متواصلة ومعنوية مع الخالق جلَّ وعلا، واعتبار ذلك مؤثراً في جاذبية شخصية النبي الأكرم وكتابه، ويحترم المرأة ويمنحها حق الملكية والزواج والإرث.

إن القدرة الجيدة على اجتذاب الناس واحدة من الميزات الإيجابية للإسلام ولوجرى إعداد وتعليم مبلغين اكفاء عارفين باللغة من أجل ممارسة مهمة التبليغ في أفريقيا فإنهم

سيكونون قادرين بلا شك وفق جدول زمني بعيد المدى على استمالة عدد كبير من الأفارقة لاعتناق الإسلام.

غير أن الإسلام الخالي من العيب أوالنقص، يواجه في أفريقيا عدوين لدودين يعملان على إضعافه: القوات الصليبية والمبشرون الأجانب الذين يحاولون بمختلف الوسائل والسبل التقليل من شأن القوانين الإسلامية السامية وتشويش أذهان الناس والمسلمين عبر إثارة الشبهات الواهية والعارية من الصحة.

هذا بالإضافة إلى أن القسيسين والمبشرين المسيحيين هم الذين يتولون تدريس المناهج والدروس الإسلامية في الجامعات الأفريقية وهؤلاء سيعمدون بطبيعة الحال ومن خلال هذا الأسلوب إلى إضعاف الإسلام وإثارة الشبهات لدى الجامعيين.

وعلى حد قول المستشار الثقافي الإيراني في كينيا خلال الفترة من ١٩٩٤ ولغاية ١٩٩٦، فإن الدروس الإسلامية كانت تقوم بتدريسها الراهبات والمبشرون المسيحيون. لذا حاول الحضور ما أمكنه ذلك في تلك الدروس والإجابة على بعض الأسئلة والشبهات والرد على بعض المعلومات الخاطئة التي يحكيها الأساتذة.

أما السيد مزروعي، فيرى أن المسلمين، وأتباع الأديان في أفريقيا، يمتلكون خصائص مشتركة وإيجابية لم تتجلَّ بسبب سيطرة المسيحيين على الحكومة والشؤون الدينية معاً، فبسبب هيمنة الإستعمار على الأمور في أفريقيا، قام المسيحيون بفرض ما يرتؤونه على الناس. بل إنهم حاولوا فرض انطباع خاطئ عن المسلمين على أذهان الناس وتعريفهم بأنهم أشخاص يعادون المجتمع ويعارضون تطور القارة، حتى أن صحيفة «إستاندارد» غير الإسلامية أشارت في تأريخ ١٩٩٥/٤/١ إلى الموضوع وكتبت تقول بأن العالم الغربي ووسائل إعلامه تعكس للناس صورة مغايرة وغير حقيقية عن الإسلام والمسلمين وتضلل أفكار الناس.

التغييرات الناجمة عن التعليم

تعدُّ المؤسسات التعليمية في أفريقيا إحدى الجهات المروِّجة للثقافة الغربية وإيجاد التغيير، فقد تعرف الشباب في المدارس على اللغات الغربية (الإنجليزية والفرنسية والألمانية

وغيرها) وأدبها وطالعوا ويطالعون كتبها التي تحكي سنن وثقافة المجتمع الغربي.

إن أكثر الدول في أفريقيا لا تعتبر نفسها مرتبطة بدين أومذهب معين وتزعم أنها تنظر للمذاهب على حد سواء ولا يوجد دليل على تفضيل أحدها على الآخر، لكن الواقع هو أن التلاميذ تعلموا في المدارس الدين المسيحي واطَّلعوا على تأريخه ومالوا إليه بالتدريج أوأنهم على الأقل باتوا ينظرون لأديانهم ومذاهبهم بعين الريبة والشك.

في هذا الصدد ينقل كتاب «الهوية الإسلامية والتغييرات الإجتماعية في أفريقيا تحت خط الصحراء» بأن السير آرتور هارنيك أول مفوض بريطاني في شرق أفريقيا حينما رأى التأكيد الموجود في المدارس حينها على تعلم القرآن واللغة الغربية إقترح الإستفادة من الأموال الموقوفة في المناطق الساحلية لبناء مدارس يتعلم فيها التلاميذ، وإلى جانب العلوم الدينية، التأريخ والجغرافيا والعلوم الأخرى والرياضيات كي يمكن توظيفهم في المجالات السياسية والتنفيذية. وفي الحقيقة أن هذا الإقتراح جاء بهدف إضعاف مكانة المدارس الإسلامية وتهميش دورها في شرق أفريقيا بعد أن كانت تعلم القرآن والعربية والأحاديث الشريفة التي منها اشتقت أسماء المدارس.

على هذا وبعد تظافر جهود الإستعمار والكنيسة في فرض سيطرتها على القارة، تم إيجاد المؤسسات التعليمية التي اعتبرت درس المسيحية واحداً من الدروس الأساسية التي ينبغي للتلميذ تعلمها كما فرضت عليه المشاركة في كافة الأنشطة الدينية للمدارس.

الملفت للنظر أن المسلمين في كثير من الدول الأفريقية يحملون إسماً إسلامياً وآخر مسيحياً كي لا يواجهوا عقبة أومشكلة تعيقهم إذا ما أرادوا العمل في الدوائر الحكومية والمؤسسات التعليمية. وللأسف كان المسيحيون السباقين في مجال التعليم في كثير من مناطق أفريقيا، ولهم تأثير كبير على أذهان وقلوب الأشبال والشباب. فضمن تأكيدهم على التعليم وتوفير الإمكانات والمستلزمات التعليمية، يوحون للناس من خلال مناهجهم بأن المسيحية من جهة والتعلم والحضارة والتنمية والتطور من جهة ثانية أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر فيما المسلمون لا يقيمون وزناً _ حسب زعمهم _ لمثل هذه المفاهيم.

تأثير وسائل الإعلام على أفريقيا

تعتبر وسائل الإعلام من أهم عوامل مد جسور العلاقة مع الغرب واعتماد نمط الحياة الغربية في أفريقيا، وانطلاقاً من كون أفريقيا لا تمارس دوراً متميزاً في جمع الأخبار وانتقائها بسبب مشاكلها الاقتصادية فإنها أصبحت مستهلكة للأخبار.

إن قنوات الإذاعة والتلفزيون الأجنبية قامت بإعداد برامج عديدة ومنوعة والتبليغ لثقافاتها وأهدافها، فالأفلام والبرامج المسلية تتنافى في الغالب مع الثقافة الأفريقية أو أنها لا تتناسب على الأقل مع ظروف القارة.

على صعيد وسائل الإعلام، يجب القول بأنها لا تحمل لأفريقيا مع الأسف إلاَّ الشيء اليسير من الإيجابية رغم ما تطرحه من أمور وقضايا متعددة ومنوعة.

نعم، مثَّلت وسائل الإعلام طريقاً آخر لتغلغل الغرب إلى أفريقيا، وقد بدأ العمل فيها واتَّسع نطاقها بالتدريج بفضل محاولات وجهود المستعمرين.

تأسست أقدم صحيفتين في أفريقيا في العقد الأول من القرن العشرين، الأولى: حملت عنوان «غرب أفريقيا» وكانت تصدر في غرب أفريقيا والثانية: صدرت في شرقها وحملت عنوان «إستاندارد»، بهدف نشر أفكار الاستعمار وإيصال المعلومات إلى أذناب الاستعمار في القارة. فيما حظيت باقي الصحف الأفريقية بدعم وإسناد الوكالات والمؤسسات الخبرية_ الإعلامية التي تهدف بلا شك إلى نشر وإشاعة الفكر الغربي.

في أوائل القرن العشرين أيضاً تأسست مؤسسة «لانغ مان» في شرق وجنوب أفريقيا، وتبنت طباعة المناهج والكتب المدرسية، وظلت المؤسسة قائمة حتى اشتراها رجل من كينيا يدعى «فساتي نياما» عام ١٩٩٤، وقد أكَّد هذا الأخير بأنه غيّر فقط شعار المؤسسة ولن يغيّر شيئاً مما يتعلق بعمل وأسلوب المؤسسة[١].

الناس في أفريقيا اليوم يستمعون للراديو ويشاهدون التلفاز حتى يمكن القول بأن شوقهم لوسيلتي الإعلام هاتين يفوق نظيره لدى شعوب باقي القارات. ورغم ذلك فإننا لا

---

١. صحيفة إستاندارد ١٥/١/١٩٩٤.

نلاحظ خطة هادفة لدى الدول الأفريقية من أجل استثمار وسائل الإعلام بالشكل المفيد، بل إن غالبية الأخبار والأفلام والبرامج المسلية غربية، ما يعني أنها تحمل أهداف تلك الدول التي جرى فيها إعدادها.

إن أفضل مصدر خبري للصحف والمطبوعات هو نفس وسائل الإعلام الغربية، وسوى الأخبار المحلية، فإن الصحف الأفريقية تأخذ أخبارها وتحليلاتها عادةً من وسائل الإعلام الغربية بل حتى أسماء الصحف والإصدارات هي نفسها أسماء الصحف الغربية.

ثم أنه لا ينبغي تناسي دور وسائل الإعلام حينما يجري الحديث عن الفساد الذي صار ظاهرة اجتماعية في أفريقيا، فالتلفاز والإذاعة والصحف المنتشرة في أفريقيا تختار في إطار استمالة المزيد من الناس مواضيع ترتبط بشكل من الأشكال بغرائز وميول الناس وخاصة الشباب. فمثلاً، نشرت جريدة «استب» الأمريكية وهي مجلة مسيحية في عددها لشهر حزيران عام ١٩٩٥ مقالاً تضمن إشارات قيِّمة ومهمَّة حول نشر وإشاعة العنف، فقد اعتبر كاتب المقال السيد «أيوما» أن البرامج التلفزيونية هي التي تعلم العنف والاعتداء وتروج لأفعال تتنافى مع قيم المجتمع. «أيوما» يقول بأن التلفاز يتناول القضايا الجنسية دون الأخذ بنظر الاعتبار عمر وظروف المشاهدين، ويحرضهم للقيام بأعمال مغايرة لثقافة وقيم المجتمع، مضيفاً أن البرامج الغربية تشيع العنف والتعدي والشراسة وباقي القيم الخاطئة والسلبية، كما أن أبطال التلفزيون هم أشخاص وظَّفوا كافة الأمور السلبية لبلوغ هدفهم، وهم يزوِّدون المشاهدين بهذه الأفكار بصورة غير مباشرة.

مما لا شك فيه أن كل مجتمع يحتاج إلى أبطال وأسوة كي يقوم هو بتقليدها. وبطبيعة الحال أن الأديان وحتى الأسلوب القبلي وتأريخ الماضين في أفريقيا حفظت تفاصيل حياة أبرز الشخصيات حتى تقوم الأجيال القادمة وبواسطة إحياء ذكرى هذه النماذج للسير على نهجها وخطاها. لكن وبسبب الفقر والمشاكل الاقتصادية الكثيرة والنمو السكاني العشوائي في المدن على مدى العقود الأخيرة راح الناس وخاصة الشباب لا يهتمون مع الأسف بتأريخ بلدانهم ورموزهم الوطنية والدينية ويتبّعون النماذج التي تقدِّمها وسائل الإعلام والأفلام الأجنبية. وفي الحقيقة إذا أردنا أن يكون مجتمع الغد في أفريقيا قائماً على الشباب الذين تناسوا مبادئهم الأخلاقية والإنسانية بسبب معاناتهم من الفقر والبطالة والظروف السياسية

والاقتصادية التي قطعت عليهم سبيل الحياة السليمة، فيمكن التوقُّع من الآن أن مستقبل هؤلاء الناس لن يكون أفضل ممَّا هو عليه اليوم، وأن الفساد والضياع سيكون أكثر انتشاراً.

إن واحدة من المشاكل التي خلفتها وسائل الإعلام الغربية في أفريقيا هو تناسي الآلام والخسائر التي تكبدها الأفارقة على عهد الاستعمار والاستعباد، فالغرب يحاول عبر وسائل الإعلام العامة تجريدهم من تقاليدهم وثقافتهم. السيد «جينوا أجب» قال في إحدى محاضراته: إنّ الفلكلور المحلي مثل أحد أهم طرق نقل التأريخ وماضي القبيلة، فيما الحديث عن الفلكلور المحلي اليوم في المدن يسيء لسمعة المتحدث به ويضفي عليه صبغة الرجعية.

في الحقيقة أن سياسة الغرب هذه والقائمة على تغيير فكر ورؤية الأفريقيين أضرت جداً بالقارة، خاصة وأن الغرب حقق مع الأسف هدفه إلى حد ما في إيجاد التكتلات عبر إثارته النعرات القبلية.

بيد أن الإسلام يتسم بهذه الميزة، وهي أنه قادر على توحيد صف الناس ومنحهم هوية جماعية، فيما يوجد بين المسيحيين تضاد وفرقة كبيرة، وهو أمر يقلق العلماء الملتزمين. وكما قال السيد مزروعي فإن موضوع التبعية حمل للقارة أضراراً كبيرة.

إن أفريقيا المسيحية متأثرة بالدول الغربية التي عمدت كل منها لنشر ثقافتها الأمر الذي تسبب في بروز النزاع بين الأطراف.

أما الإسلام في أفريقيا فهولا يتعلق بأي بلد ويقر الناس هناك بأنه دين إلهي، لذا فالتأكيد على هذه الناحية يمكن أن يكون مؤثراً. أن الإسلام قادر على خلق حالة من الوحدة الدينية الثقافية بين الناس وتحقيق اللحمة الوطنية.

المقترحات:

إن الشعب الأفريقي على علاقة طيبة مع الكتاب والصحافة، ولو اتخذت الإجراءات الكفيلة بنشر صحف مناسبة تواكب وقائع العصر فسيكون لها بلا شك تأثير إيجابي عليه، وفي الحقيقة أن تأسيس صحيفة مستقلة ونشرها بصورة منتظمة يمكن أن يؤثر على صحوة أفريقيا، خاصة وأن موضوع صحوة أفريقيا من جديد يشكل أحد مواضيع الساعة فيها.

ينبغي التأكيد بشكل أكبر على الهوية الإسلامية في إطار نشاطات التبليغ وإشاعة ثقافة

الإسلام، ونبذ التمايز القبلي وحتى الطائفي. ولحسن الحظ فإن الإمام الخميني ﷺ ينظر له في أفريقيا كنموذج رائع وبطل جسَّد الإسلام على أرض الواقع. ومن هنا فإن كل عمل إعلامي تبليغي جيد هناك يعتبره الناس منطلقاً من تعليمات الإمام، علماً أن الغرب وأعداء الإسلام حاولوا كثيراً المساس بسمعة الإمام الخميني ﷺ ولكنهم لم يفلحوا في ذلك والحمد لله تعالى.

الأقليات الإسلامية في أفريقيا الحالة القائمة والمقترحات حولها[1]

لكي نعرف وضع الأقليات المسلمة اليوم وندرس احتياجاتها واسلوب اشباع هذه الاحتياجات، علينا أن نتوفر على بعض الدراسات الواقعية وذلك:

أولاً: علينا أن نعرف الخلفيات والسوابق التاريخية لحركة الإسلام في أفريقيا، ومسيرة تطوراته وتفاعلاته مع المنطقة، وحركة الصحوة الإسلامية خلال هذه الحقبة التاريخية الطويلة منذ دخول الإسلام وحتى اليوم، وكذلك علينا معرفة تاريخ الحركات والحكومات الإسلامية التي قامت في فترة طويلة من هذا التاريخ، ومدى آثارها على الساحة العامة.. كل هذه الأمور ضرورية جداً لتكوين صورة أكثر احاطة بالوضع الحالي القائم.

إننا نعرف أنَّ الإسلام دخل إلى أفريقيا حتى قبل الهجرة، يعني من خلال الهجرة الأولى للمسلمين للحبشة، ومنها إلى السودان عام ٣١ هـ، وهكذا امتد الإسلام حتى رأينا دخوله منطقة المقره بعد خمسة قرون، وبعد قرنين ونصف دخلت منطقة العلوه إلى الإسلام، وبعد ١٣ سنة من سقوط الأندلس بيد الافرنج قامت حكومة إسلامية في أفريقيا المركزية.

وتمتعت انغولا والكونغو بإمارة إسلامية ولكن البرتغاليين تعقبوا المظاهر الإسلامية مئات السنين.

وفي النصف الأول من القرن الأول الهجري شمل الإسلام شمال أفريقيا ومن هناك دخل إلى عمقها. وقد اقيمت حكومات إسلامية من القرن الرابع وحتى السابع وفي مالي من القرن

١.طرح في الملتقى الدولي للأقليات المسلمة في افريقيا والذي عقد في اكرا ـ غانا ـ بتاريخ ٢٢ يناير ٢٠٠٣ ـ ١٦ ذي القعدة ١٤٢٣.

السابع إلى العاشر والسنغال من القرن العاشر فما بعد. وانتشر الإسلام انتشاراً واسعاً حتى قيل إنه يوجد ـ اليوم ـ من كل ٣ افارقة مسلمان، ومازال الإسلام ينتشر.

ولا ريب إن لهجوم أوروبا على أفريقيا في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي تأثيراً كبيراً في تأجيج روح المقاومة وتأسيس الحركات الجهادية في شمال وغرب أفريقيا[1] إلاَّ أن النفوذ الإسلامي يسبق ذلك بقرون، فقد قامت امبراطورية كانم في القرن ١١ م ثم استمرت إلى قرن ١٤ م وبعد ذلك انحصرت في احدى الولايات، وهي (بورتا)، وهنا قامت أقطار إسلامية قوية في (كانو، زاريو، دارو، كامير، كادسينا) ولم تكن تقل اهمية عن تلك الأقطار الإسلامية في حوض البحر الابيض المتوسط.

وبعد الحكومة الإسلامية التي سميت بحكومة (كانو) قامت امبراطورية (سنكهاي) وعاصمتها (كاهوي) الواقعة على بحر النيجر في مالي اليوم، وقد قامت هاتان الدولتان بتوحيد الأقطار الإسلامية المتفرقة، وكان على رأس هذا التوحيد (محمد آسكاي الكبير).

ثم تمزقت الوحدة بعد ذلك ثم اتحدت دولة (بورنا وكيبي) وتمَّ تجديد النهضة الإسلامية على يد الإمام (عثمان بن فودو) في القرن ١٨، هذا الرجل الزاهد العابد الأديب الذي زار الأقطار الإسلامية واستطاع أن يقيم دولة واسعة تمتد من (كاندوا) إلى (آداما) وتشمل لفترة معينة دولة (برونا)، ثم جاء بعده ابنه بلو(سلطان سكوتو).

وفي عام ١٨٩٣ قاد (رباح زبير) المقاومة ضد الأوروبيين ولكنه قتل على يد الفرنسيين[2].

وفي عام ١٨٥٠ زحفت الهيئات التبشيرية إلى نيجيريا وأنشأ الاستعمار الانكليزي مستعمرة له في لاغوس (١٨٦١) وانشأ بعدها الشركة الملكية للنيجر ثم دخلت نيجيريا الجنوبية تحت الحماية ثم تبعتها نيجريا الشمالية.

وهكذا رأينا استقلال نيجيريا ١٩٥٣ ومجيء أول رئيس هو (ابو بكر تفاوابيلوا) وفي انقلاب عسكري عام ١٩٦١ قتل هو واحد القادة الآخرين المعروفين، وهو المرحوم (أحمد

---

١. دراسات افريقية رقم ١٠ كانون الثاني ١٩٩٩، البروفيسور عون الشريف قاسم.

٢. الأقليات الإسلامية في العالم اليوم للمرحوم د. علي الكتاني ـ الترجمة الفارسيةـص٢٠٣.

بلو) وهناك حركة تاريخية إسلامية نشطة في شرق أفريقيا وفي جنوبها فضلاً عن السيطرة الإسلامية الكاملة على شمال أفريقيا.

هذه امور يجب أن تدرس بدقة وعناية، ومن المؤسف له أن المصادر التي توضح الموقف في هذا المجال قليلة جداً وغير معروفة. ومما له الأثر الكبير في توضيح الصورة الدور الكبير الذي لعبته الحركات الصوفية ذات التأثير الواسع في المجتمع الإسلامي في أفريقيا ومنها التيجانية ـ القادرية ـ السمانية ـ الختمية ـ الشاذلية. وهي طرق قامت من جهة لتعميق دور الإيمان في النفس الإنسانية ومن جهة أخرى ضمنت عدم تسلل الاعداء إلى واقع المجتمع وتمزيقه وابعاده عن إسلامه.

هذه الدراسة نراها ضرورية جداً لتكوين الصورة الحقيقية، ومن خلال ذلك ندلُّ إلى واقعنا الإسلامي في القارة الأفريقية، وعلينا أن نلاحظ المؤسسات المدنية الإسلامية الكثيرة ومدى تأثيرها على الساحة كما علينا أن نلاحظ المراكز الإسلامية المنتشرة هنا وهناك. ولهذه المراكز الإسلامية دورها الكبير خصوصاً في دول منظمة المؤتمر الإسلامي، حيث تقوم بشؤون الدعوة كما تقوم بالشؤون الاجتماعية.

ولنضرب على ذلك مثالاً، حركة الشباب المسلم في جنوب أفريقيا التي تأسست عام ١٩٧٠ في دوربان وقد التحقت بها الشخصيات الإسلامية المعروفة هناك كما تركت آثارها الكبرى في المجال الاجتماعي وقد عقدت لقاءات كثيرة حضرتها شخصيات متنوعة، وأسست فروعاً وفتحت صفوفاً لتعليم الشريعة الإسلامية والقرآن الكريم بين الشباب والنساء، واتصلت بالأقليات الإسلامية في دول أخرى، واصدرت نشرات مفيدة وجمعت الزكاة وانشأت لجاناً للمحامين والاطباء والمحاسبين. وشعاراتها تدعو للوحدة وتشجيع التعليم وجعل المسجد المحور الحاكم، ومطالعة السيرة واشراك المرأة في النشاط.

وهناك جمعيات مشابهة كثيرة هنا وهناك، وهي تمثِّل في الواقع نقطة قوة في المجتمع الإسلامي الأفريقي، كما أنَّ هناك نشاطاً واسعاً لكثير من المنظمات الدعوية الإسلامية ومنظمات الاغاثة الإسلامية في انحاء أفريقيا اليوم، كنشاطات رابطة العالم الإسلامي ونشاطات المؤسسات التي تهتمُّ بأفريقيا في الكويت والخليج الفارسي بالاضافة إلى المنظمات

القائمة في الدول الإسلامية على الساحة الأفريقية الأخرى، كمنظمة الدعوة الإسلامية والجامعة الأفريقية في السودان ورابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية وما إلى ذلك من منظمات على الرغم من البدايات المتأخرة لها في السبعينات.

وممّا ساعد في نجاح عمل هذه المؤسسات طبيعة الإسلام المنسجمة مع الفطرة الإنسانية وتاريخه البعيد عن القهر والإجبار والظلم ومرونته في السماح للتقاليد التي لا تتنافى مع العقيدة والشريعة، وقد حوربت أخيراً واتُّهمت بالتهم الكثيرة كالإرهاب، ورغم ذلك فقد قامت بكثير من المشروعات من قبيل:

١ـ الخدمات الاجتماعية كإيجاد المؤسسات الاقتصادية والزراعية، وبعث القوافل الطبية، وانشاء المعامل المفيدة والخدمات التأهيلية للمرأة والشباب وغير ذلك.

٢ـ المشاريع الثقافية كإنشاء الجامعات، ونشر التعليم في مختلف المراحل، وتربية الدعاة، وتقديم المنح الدراسية، ونشر كتب تعليم اللغة العربية والكتب التثقيفية، ونشر نسخ القرآن الكريم، ودعم بعض الإذاعات بل وعقدت اتفاقيات مع بعض الجامعات لتطوير دراساتها.

ومع ذلك فإن هذه الجهود تبقى قاصرة وقليلة إذا ما قورنت بالجهود الأخرى.

وأما ثانياً فإن علينا أن نعرف تاريخ التحديات التي واجهت المسلمين، ومن أهم هذه التحديات حركة التبشير، ونحن نعلم أن المسيحية دخلت أفريقيا في القرن الرابع الميلادي بواسطة المذهب القبطي اليعقوبي في الاسكندرية وانتقلت إلى الحبشة ثم إلى غيرها[١] ولكن الدخول القوي كان في اواخر القرن الخامس عشر الميلادي، الذي أجَّج من جهة كما قلنا روح المقاومة ولكنه فسح المجال لنشر المسيحية والتعامل مع الإسلام بشدة.

وكان الاستعمار قد طال حضوره هناك حوالي قرن من الزمان أو أكثر ممّا وفَّر مجال عمل للتبشير وشجَّع على تجهيل المسلمين وفصلهم عن تراثهم العربي.

وكان مما عمله ايجاد طبقة مسيحية مثقفة في كل بلد كان لها الدور الكبير في تحقيق اهدافه. وحتى بعد الاستقلال قامت هذه الطبقة بتمرير مخططاته، وربما بأكثر مما كانت عليه قبل

---

١. دراسات افريقية، مصدر سابق.

الاستقلال. وقد عملت على حذف السنن والعادات المحلية واستبدالها بأخرى غربية. وهذا (جوموكينياتا) في كتابه (نحوجبل كينيا). وجنوا آجب في كتابه (لن يبقى اي شيء ثابتاً) يدينان الاساليب التي استخدمت لمحوهذه العادات بقوة، ففي انغولا نجد أن عدد الكاثوليك لا يتجاوز ٣٠٪ لكنها تسيطر على البلاد (رغم الدستور العلماني) وتمنع المسلمين من ممارسة نشاطهم الديني مطلقاً، فلا يوجد لحد الآن مسجد واحد وعدد خريجي الجامعات ثلاثة رغم أن عددهم يصل إلى ٢٥٠٠٠ نسمة[١].

وهكذا انتشر النفوذ المسيحي بشكل قوي جداً، وقد ذكرت الجمعية العالمية للتحقيقات الاعلامية المسيحية[٢] أن عدد المؤسسات التبشيرية والمؤسسات التابعة لها بلغ ١٢٠. ٨٨٠ مؤسسة، وبلغ تمويل التبشير ٣٢٠ مليار دولار.

وذكرت هذه الجمعية أنَّها قدَّمت لحد الآن ١٦٣ مليار دولار، وان وسائل الإعلام المسيحية كسبت حوالي ٨. ٩ مليار دولار، وان هناك ٨٢ مليون جهاز حاسوب لنشر المعلومات كما تم نشر حوالي ٨٨. ٦١٠ كتاباً وان هناك ٢٤٩٠٠ نشرة اسبوعية، وانه تمَّ توزيع ٥٣ مليون نسخة من الانجيل، وان محطات الاذاعة والتلفزة التي تبلّغ للمسيحية تصل إلى ٢٣٤٠ محطة، وتصل كلفتها إلى ١٨١ مليار دولار، كل ذلك في عام ١٩٩١م.

وقد نشرت مجلة تايم تقريراً عام ١٩٨٠ ذكرت فيه أنه يوجد من بين ٦٤٠ مليون أفريقي ٥٣ مليون مسيحي كاثوليكي، يضاف اليه في كل سنة ٦ ملايين، ويتوقع أن يصل عددهم إلى ٨٠٠ مليون حتى نهاية القرن. وهنا نشير إلى أن التقويم العالمي لعام ٢٠٠٢ يشير إلى تناقص عدد المسلمين في أفريقيا إلى مستوى ٣٥٣. ٥٥٦. ٠٠٠ مليون نسمة في حين يبلغ عدد المسيحيين ٣٦٨،٢٤٤،٠٠٠، فهم أكثر.

وهنا يقول (البابا جان بول الثاني): إن أفريقيا ارض خصبة يجب أن يتم استغلالها. وتقول المجلة: إن نمو المسيحية كان بصورة درامية بعد استقلال هذه الدول، ففي حين

---

١. يراجع ما قاله د. خالد وكيل في مؤتمر أكرا للاقليات بتاريخ ٢٠٠٣/١/٢٠.

٢. دراسات افريقية، مصدر سابق.

كانت النسبة أقل من ٣٠٪ قبل سنة ١٩٦٠ عادت في ١٩٨٠ لتصل إلى ٥٠٪ وهكذا اعلن أن انتهاء القرن العشرين يعني انتهاء الإسلام جنوب خط الاستواء في أفريقيا، وتم التأكيد على ايجاد دولة مسيحية جنوب السودان لايقاف حركة التبليغ الإسلامية جنوباً.

ولا ريب أن للحكام الدور الكبير لتشجيع هذا التحرك، وكمثال على ذلك نجد أن رئيس الجمهورية التنزانية يعلن بشكل واضح مدحه للاسقف جان رمضان، المشرف على الكنيسة الانجلوأميركانية في زنجبار، وهو مسلم متنصر ودعا إلى الاقتداء بهذا الرجل. والغريب أن يطرح هذا المعنى في زنجبار ذات نسبة ٩٠٪ من المسلمين.

وتبدو أهمية هذه التصريحات إذا علمنا أن أول كنيسة أنشئت في دار السلام كانت قبل ١٥٠ سنة، وفي زنجبار قبل ١٢٠ سنة إلى أن بدأ المسيحيون ينتشرون بكثرة في هذه الدول.

وهنا نشير إلى دور الجامعات المسيحية في أفريقيا في دعم هذا الانتشار، ومن هذه الجامعات الجامعة المسيحية في اوغندا، وقد انشأت عام ١٩٩٢ تحت اشراف الاسقفية، ونحن نعلم أن المسيحية دخلت اوغندا عام ١٨٧٧م، وانشأت أول جامعة لها سنة ١٩٠٥.

ولا ننسى دور المعسكرات في هذا المجال، فهذا معسكر للسلام يشكله المتعلمون الأميركيون للتربية والتعليم في انحاء أوروبا، وهذا مجلس أفريقيا الذي يعمل على ايجاد العلاقة بين السود في أميركا وأفريقيا، وقد بدأ في السنغال، وراح ينظم استراتيجيات حضوره في كل أفريقيا، وهكذا حضور المنظمات الأميركية والسويدية والالمانية المتنوعة من قبيل الـ(أس أو أس) للاطفال والـ(أس آي أس) المسيحية للاغاثة.

ثالثاً: دراسة التحديات الأخرى التي تواجه المسلمين بل ربما الأفريقيين عموماً وخصوصاً المناطق جنوب خط الاستواء، من قبيل الأمية والفقر ومسائل المجاعة[1] والأمراض كمرض (الايدز) والابولا وإن كان هذا المرض يقل في المجتمعات الإسلامية وكذلك التحديات والتأثيرات الاجتماعية ومسألة عدم الاستقرار السياسي.

وهناك ايضاً مسألة الهجوم التي تتعرض له القارة من قبل بعض الفرق الضالة كالبهائية

١. ووفقاً لبعض الدراسات: فإن الدخل الافريقي كله لا يعادل دخل هولندا التي تقل عن عشر نفوس القارة.

والقأديانية، ونحن نعرف أن البهائية دخلت عام ١٩٥١ في اوغندا وشكلت مركزها الأفريقي عام ١٩٥٨، وربما كان لفرار البهائيين من ايران بعد الثورة الإسلامية المباركة الدور الكبير في انتشارهم في أفريقيا، لكننا مطمئنون إلى أنها لا تستطيع أن تشكل ظاهرة عامة؛ نظراً لضعف منطقها وارتباطها العضوي بالنظام الصهيوني. وفي هذه المناسبة نقول إننا نعتقد أن الصهيونية ساهمت في تضعيف الحركة الإسلامية وترجيح الاتجاهات الأخرى عليها، بل والقضاء على الارادة الشعبية وتسليط فئات عميلة على البلاد.

ومن الأمور التي يواجهها المسلمون الهجوم الاعلامي الضخم ضدهم وضد عقائدهم ومقدساتهم، ونستطيع أن نضرب لذلك مثلاً ما حدث اخيراً في نيجيريا وكيف حاولت احدى الصحف المساس بشخصية الرسول الأكرمﷺ مما أدى إلى اعتراض كبير ورفض اقامة مسابقات ما سمي بـ(انتخاب ملكة جمال العالم) في المنطقة؛ لأن هذا العري الغربي يشكل نوعاً من التحدي للمشاعر الإسلامية.

ونضيف هنا أن الإعلام المعادي في أفريقيا يحاول أن يشوه الصورة الإسلامية بين المسلمين والآخرين، فقد تنسب بعض الظواهر التي تنشا من تعصب قومي اوقبلي إلى العقيدة الإسلامية ويظهر الإسلام وكأنه دين عنف، فمثلاً رأينا بعض الصحف في تنزانيا تنقل حادث قطع رجل امرأة بواسطة زوجها وحكم محكمة في كانو بالنسبة لحمل امرأة قبل زواجها، معتبرة ذلك من نتائج العقيدة الإسلامية.

والحقيقة أن هذه الأمور لا تختص بالمسلمين، وقد نقلت اذاعة بي بي سي عن باول سونيكا الحائز على جائزة نوبل من نيجيريا نقده الشديد للأحكام الإسلامية.

كما تجري الصحف بعض المقابلات مع شخصيات تسيء الظن بالإسلام، كما حدث في مؤتمر الايدز في أفريقيا الجنوبية. وراح الكل ينتقدون المسلمين، لأنهم لا يهتمون بالنظافة والتعلم حتى أدى هذا الإعلام المعادي إلى شك بعض المسلمين في قدرتهم على التحدي.

ويستفيد الغرب في ذلك من قدرته الاعلامية الخارقة في مجال وسائل الإعلام الحديثة والكتب والمجلات ومراكز المراسلة وعمليات السياحة الواسعة.

ولا ننسى سياسات التصفية التي نشهدها هنا وهناك، وكمثال على ذلك ما تعرض له

المسلمون في الحبشة من تصفية وما تعرضوا له في كينيا، وكذلك وصلتنا انباء قيام القوات الاثيبوية باحراق أكثر من ١٥٠٠ قرية وقتل أكثر من ٨٠٠٠٠ مسلم في اريتريا اثناء النزاع الاثيوبي الاريتيري.

كما أن من التحديات التي يواجهها المسلمون مسألة هجرة المتخصصين إلى الغرب، فقد نقلت الانباء إنه يوجد في أوروبا حوالي ٣٠٠٠٠٠ متخصص أفريقي، وان أكثر من ٦٠٪ من اطباء كينيا وتنزانيا هاجروا منها[١].

ومن التحديات التي نستطيع أن نذكرها هنا مسألة ضعف التخطيط الاعلامي والتبليغ للدعاة المسلمين، فإن الدعاة غالباً ما لا يكونون بالمستوى المطلوب في مجال الدعوة، كما أننا نشهد نوعاً من التنافس الغريب بين هؤلاء الدعاة ممّا يؤدي إلى اساءة الظن بهم.

وكذلك نشهد الضعف الكبير في مجال المفكرين والمؤلفين المسلمين. وهذا يبدوواضحاً حينما نقارن الوضع الحالي بعدد المؤلفين والمفكرين سابقاً الذين كانوا قد انتجوا أكثر المؤلفات في مجالات الدعوة الإسلامية إلا أن تلك الحركة الواسعة خمدت في العصر الحاضر.

ومن المشاكل والتحديات اختلاف المسلمين انفسهم نتيجة نزاعات لا ربط لها بعقيدتهم، ومنها النزاع المذهبي بين هذا الاتجاه التبليغي وذلك الاتجاه، وكذلك ضعف الاتصالات بين المراكز الدعوية والاجتماعية في أفريقيا وبين نظيراتها في العالمين الإسلامي والعربي. وهذه مشكلة خطيرة ينبغي تجاوزها. ومن هنا نجد أنه من اللازم علينا التوفر على كل هذه المقدمات، كما يجب ملاحظة كل نقاط الضعف والتحديات لنستطيع التحرك لتلافيها والحفاظ على هوية المسلمين في أفريقيا.

ونجد هنا من الضروري الاشارة إلى المحاور التالية والتي أكدت على بعضها الندوات المشابهة السابقة وهي:

١ـ لزوم المحافظة على وجود الأقليات الإسلامية في كل مكان وخصوصاً في أفريقيا، وحمايتها من الاستئصال والطرد الجماعي.

---

١. www. undp. Org

٢ـ المحافظة على هوية الأقليات الإسلامية ومعالم شخصيتها الثقافية حتى لا تتعرض للذوبان والتصفية الفكرية والثقافية.

٣ـ لزوم التأكيد على احترام حقوق هذه الأقليات باعتبار أفرادها مواطنين، لهم كامل الحقوق في الدول التي يعيشون فيها.

٤ـ تفعيل دور الشعوب والدول الإسلامية والمنظمات والهيئات التابعة لها في دعم ومساعدة هذه الأقليات على أساس احترام سيادة الدول وعدم التدخل في شؤونها.

٥ ـ الطلب إلى الأقليات المسلمة في أفريقيا لكي تنظم نفسها من داخلها وتوحد صفوفها، وتعمل على ايجاد المؤسسات المدنية والدعوية الخاصة بها وبالتالي تتفق هذه المؤسسات فيما بينها لتمثِّل الأقلية المسلمة في البلدان التي تعيش فيها، وتخطط لنموها الثقافي والتعليمي والأقتصادي وتسهم في عمليات البناء الاجتماعي العام، نابذة الخلافات المذهبية والقبلية والحزبية وكل ما من شأنه اضعاف الصف الإسلامي.

٦ ـ نقترح تشجيع الأقليات المسلمة على اقامة مؤسسات تعليمية بكل المراحل الدراسية ونطلب من حكومات الدول الاعضاء في منظمة المؤتمر الإسلامي والمنظمات الإسلامية الدولية أن تقوم بدعم المشروعات التعليمية للاقليات الإسلامية وفتح المجال للمنظمات غير الحكومية للقيام بواجبها في هذا المجال.

٧ ـ نطالب الحكومات والمؤسسات الإسلامية بتسهيل تبادل أبناء الجماعات المسلمة في الدول غير الاعضاء إلى الاقطار الإسلامية لتعميق انتمائها للأمة ورسالتها الحضارية.

٨ ـ علينا أن نزيد ونفعِّل البرامج التي تقدمها الدول الإسلامية لزيادة الاعمار في شتّى المجالات العلمية والشرعية، وزيارة الشخصيات الاجتماعية لمناطق هذه الأقليات، والتعرف على أوضاعها في اماكن وجودها، ومتابعة احوالها، والاسهام في النهوض في هذا المجال.

٩ ـ علينا أن نضم إلى لجنة العمل الإسلامي المشترك في مجال الدعوة الكثير من المؤسسات الدعوية الأفريقية لنستمع إلى صوتها في هذا المجال.

١٠ ـ العمل على اعطاء قضايا المرأة والاسرة المسلمة في الأقليات الاهتمام الذي تستحقه ودعم مؤسساتها العلمية والاجتماعية حتى نساهم في تربية الجيل واقامة البيت والمجتمع المسلم الفاضل.

١١ ـ علينا أن نفعِّل ادارة الأقليات في منظمة المؤتمر الإسلامي ونمدها بالإمكانيات التي توفر لها القدرة على تأدية اعمالها على الوجه المطلوب.

١٢ ـ العمل على اصدار نشرة فصلية تهتم بشؤون الأقليات وتغطي انشطتها وتشكل حلقة وصل بينها وبين الدول والمجتمعات الإسلامية.

١٣ ـ العمل على تأسيس مركز معلومات شامل عن أوضاع الأقليات المسلمة في الدول غير الإسلامية يغطي تركيبتها الديموغرافية وتاريخها ومكانتها في دولها.

إن تاريخ الحركة الإسلامية ومسيرة الإسلام في أفريقيا تاريخ عامر بالاحداث، وان هناك مجموعة قليلة من المصادر، ولذلك علينا التحقيق والتنقيب لكتابة تاريخ جامع لمسيرة الإسلام في أفريقيا؛ لما له من أثر كبير في هذا المجال[١].

---

١. تؤكد معلمة العالم الإسلامي الصادرة بطهران على أننا لا نملك عن التاريخ في افريقيا جنوب الصحراء مصادر كثيرة، ويمكن الرجوع للكتابات التاريخية المتعارفة للمؤلفين المشهورين، وان اقدم كتب المؤرخين في المنطقة يعود إلى أواخر القرن العاشر في برونا. حيث قام الامام الكبير احمد بن فورطوا بشرح السنين الاولى من حكومة السلطان ادريس آلوما. طبع وترجمة د. لانگه. في سنة ١٩٨٧م.

ويقول المؤلف: ان كتابه مأخوذ من كتاب اقدم يتعلق بالسنة العاشرة، وكذلك قدم تقريراً عن حملة هذا السلطان ضد امبراطورية كانم..

وهذه التقارير، رغم انها تميل إلى جوانب معينة، تمتلك قيمة خاصة لأن المؤلف قد شاهد الحوادث في تلك الدورة.

وفي منتصف القرن ١٣ يوجد هناك اثران تاريخيان مهمان في منطقة النيجر المركزية احدهما تاريخ السودان لمؤلفه عبدالرحمن السعدي وتاريخ الغتاش في اخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس لمؤلفه محمود الكعتي ابن المختار. هذان المؤلفان حول تاريخ امبراطورية سنكاي. من اواسط القرن ٩ إلى انتصار السعديين في سنة ١٠٠٠. ويوجد ايضاً تاريخ پاشالق تنبكتو. لمسألة انتصار السعديين إلى حدود ١١٥٠م ومؤلفه مجهول واسمه تذكرة النسيان في اخبار ملوك السودان.. وهناك مؤلف لمولاي قاسم بن مولاي سليمان يشتمل على حوادث سنة ١١٦٠ ـ ١٢١٥.

ومن المؤلفات ما جاء حول جهاد ناصر الدين البدادي في القرن ١١ وآخر مؤلف حول الانساب، وهومن الموضوعات الرائجة في موريتانيا.

وهناك مؤلف اسمه الشيخ موسى كمره المتوفى سنة ١٩٤٥ الف كتاب المعلمة المفضلة عن الشعوب في الوادي في غير السنغال بعنوان زهور البساتين في تاريخ السوادين، وترجم قسم منه إلى الفرنسية، وطبع.

←

١٤ـ دعوة وزراء الإعلام والمؤسسات العلمية لمتابعة الدعاية المغرضة أو الطرح المشوِّه للإسلام في وسائل الإعلام، مثل السينما والتلفزيون والانترنيت، والاهتمام بملاحقتها والرد عليها، ومحاولة دبلجة الافلام الإسلامية الصحيحة وإرسالها إلى مناطق الأقليات الإفريقية لتصحيح الصورة في اذهان المتلقين، وتوسيع مجال بث القنوات الإسلامية والتنسيق فيما بينها لخدمة المسلمين في كل مكان.

١٥ـ العمل بالخصوص على تشجيع دراسة اللغة العربية بين الجماهير الإسلامية وتوسعتها في أفريقيا لربطهم بالثقافة الإسلامية ونشر الكتب المناسبة بينهم لتعريفهم بالفهم الإسلامي الصحيح.

١٦ـ لزوم الاهتمام وتقديم الخدمات الاجتماعية للاقليات المتضررة في أفريقيا للنهوض بها اقتصادياً.

وفي القرن ١٩ و٢٠ نشطت حركة التأليف حول جهاد الشيخ عثمان بن محمد فوديو. وحكومته الإسلامية، ومنها: كتاب انفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور، وقام عبدالله اخوالشيخ عثمان بانشاد مرثيات واشعار كثيرة في تكريم هذه الانتصارات الجهادية. وبعد ذلك ضمنها كتاباً يشبه سيرة ابن هشام في عام ١٢٢٨ هـ باسم تزيين الورقات..

ومن الكتابات القديمة روضة الأفكار. لمؤلفه عبدالقادر مصطفى الذي هوتاريخ لكويير. في القرن ١٢م.

وهناك مؤلف للجنيد بن محمد النجاري يعد من اجمع المؤلفات اسماه ضبط الملتقطات من الاخبار المتفرقة في المؤلفات، وهناك كتب حديثة مفيدة ككتاب انتشار الإسلام في غرب افريقيا. لمروين هيسكت.

والنوع الثاني من المؤلفات هي الكتب الرجالية، وهي قليلة، ككتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج، تأليف أحمد بابا تنبكتي، عن رجال الفقه المالكي، وكتاب كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج، وكذلك كتاب فتح الشكور لمعرفة اعيان علماء التكرور، وكذلك عنوان منح الرب الغفور في ما أهمله صاحب الفتح الشكور.

والمجموعة الثالثة كتابات متفرقة تاريخية ربما يجهل مؤلفوها جاءت تشرح بعض الوقائع وسير الحوادث..

راجع الجزء السادس من هذه المعلمة ص ١٦٥ ـ ١٧٠.

هذا بالنسبة إلى شرق أفريقيا أما عن غرب افريقيا فإن الجاحظ أقدم مؤلف عربي تحدث عن أهل بمبا وزنجبار، وكذلك تحدث الادريسي والمسعودي وابن بطوطة، وهناك كتب أخرى من قبيل السلوة في أخبار كلوة. وكتاب الزنوج. وتاريخ المزروعي. وتاريخ زنجبار.، وتوجد مجموعة جيدة في مكتبة جامعة دار السلام ومؤسسة الدراسات الشرقية في لندن.

١٧ـ لزوم الاهتمام بالاتجاه الصوفي العرفاني وتقوية ركائزه ونزع الانحرافات عنه ليقوم بدوره كمرب كبير في تعميق العقيدة وصيانة الهوية الثقافية للمسلمين في أفريقيا.

١٨ـ لزوم تنظيم حملة خاصة لتنظيم الحج من أفريقيا بالتثقيف والتوجيه الصحيح، ولتكون هذه البعثات واسطة حية لايجاد العلاقة الثقافية بين أفريقيا والعالم الإسلامي.

١٩ـ الاقتراح الأخير هولزوم الطلب من الدول الإسلامية لتستفيد من علاقتها السياسية والاقتصادية لدعم هذه الأقليات والحصول على حقوقها.

ونود أن ننبه هنا إلى الأمر التالي وهو أن دوائر المعارف الغربية تحاول أن تقلِّل من عدد المسلمين مهما استطاعت، فيجب أن تقدم الصورة الحقيقية لعددهم في كل مكان، وخصوصاً في أفريقيا، ومن باب المثال نجد أن موسوعة (بريتانيكا) في الاعوام ٦٨ ـ ٧٢ تذكر أن المسلمين في تناقص وان نسبة المسيحيين في ارتفاع مع أن ذلك يخالف ما نعرفه في الواقع القائم. وقدَّرت موسوعة (نيويورك تايمز) عدد المسلمين عام ١٩٧٠ ٤٩٣ مليون فرداً، وهذا العدد تكذِّبه كل الظواهر، وقد ذكرت رابطة العالم الإسلامي أن عددهم عام ٧٣ حوالي ٧٤٠ مليون، ونحن نتصور أن العدد أكبر من ذلك، كما يبدو، فيجب أن نحصل على الاحصاءات في المناطق؛ لأن الاحصاء يساعدنا على تقييم الحالة في افضل وجه.

وفي الختام يجب أن لا ننسى أن مؤتمر (كولارادو) الذي عقد عام ١٩٨٧ لدراسة تبليغ المسيحية وضع خطة واسعة للهجوم على العالم الإسلامي، وهي خطة يتم تنفيذها بإحكام.

وقد تنبّأت مجلة التايمز اللندنية عام ١٩٨٠ أنَّ نهاية القرن العشرين سوف تشهد شخصين مسيحيين من كل ٣ أنفار بعد أن كانت النسبة عبارة عن شخصين مسلمين من كل ٣ أنفار في أفريقيا.

ومن البديهي أن مشكلات المسلمين في العالم في المجالات الاجتماعية والثقافية والسياسية متنوعة، ومن هذه المشكلات التأثير الواسع للعولمة، وكذلك ما يسمى بحملة مكافحة الارهاب اليوم، والتي تتناول الجوانب الثقافية والتعليمية والتمويلية الإسلامية. كل هذه الأمور تدعونا إلى اعادة النظر في حساباتنا وأساليب عملنا.

إن حل مشكلات المسلمين لا يتمُّ إلاَّ بالعمل المشترك والجامع، وهذا الأمر يتطلَّب

تناسـق الجهـود وانسـجام الخطـى واسـتراتيجية واسـعة وتأسـيس المؤسسـات النشـطة والمتعاونة فيما بينها لمقابلة هذا الهجوم الثقافي على عالمنا الإسلامي. والحقيقة أننا نستطيع أن نستفيد من اساليب الآخرين وحتى من تجارب المبلغين المسيحيين لتطوير اساليبنا في خدمة قضيتنا الإسلامية.

الأقليات الإسلامية بين التقيد بالثوابت والقيام بمقتضيات المواطنة[1]

فقبل الدخول في صلب الموضوع لا بدَّ من إلقاء نظرة إجمالية على أوضاع المسلمين خارج البلاد الإسلامية والتعرف على عناصر القوة والضعف لديهم.

الأوضاع العامة:

من المعروف أن عدد المسلمين خارج العالم الإسلامي راح يقرب من عددهم داخله، كما أن عددهم داخل بعض البلدان، كالصين والهند وفرنسا وروسيا وأميركا، يربو على عدد سكان كثير من البلدان الإسلامية، ويتمتع هؤلاء المسلمون بميزات كثيرة أخرى لعل أهمها:

أولاً: التنوع

فهم ينتمون إلى شتّى الاعراق والأمم حتى ليمكن القول بأن انتماءاتهم يقارب عدد الاعراق في العالم، إذ لاتجد قومية إلاَّ وفيها مسلمون أما يمتدون مع الزمن إلى تاريخ طويل أوأنهم اسلموا في اوقات متأخرة.

وكمثال على ذلك نلاحظ أن كاتبة غربية هي (اكيينر) كتبت تقول: «في الاتحاد السوفيتي يوجد الآن خمسة واربعون مليونا ونصف مليون مسلم، وهؤلاء يمثّلون احد التجمعات الإسلامية الكبيرة في العالم، والثاني من حيث الحجم بعد بلدان مثل اندونيسيا وبنغلادش والهند وباكستان، وهو مجتمع له صفات استثنائية من حيث البنى والثقافة والاختلاف الإقليمي.

ويتوزع المسلمون السوفيت على ارض غربا إلى حدود بولندة، وشرقا إلى حدود الصين،

---

١. قدم إلى مجمع الفقه الإسلامي الدولي في دورته السابعة عشرة المنعقدة في عمان ٢٤ حزيران يونيو. ٢٠٠٦م.

يتواجدون في مناطق سيبرية شمالاً، وفي وسط آسيا وعبر القفقاز جنوبا.. انهم يمثّلون لوحة واسعة من المجموعات العرقية، فهناك الاجناس التركية كالتتار والآذربايجانيين والاوزبيك والاليغور، وهناك الايرانيون مثل الطاجيك والاوستينياس والاكراد والبلوش، وهناك القوقاز والليزغبين والتاباصار، وهناك مجموعات عديدة صغيرة أخرى مثل العرب والارمن والكيمثيلز والصينيين الانفار وغجر آسيا الوسطى والمنغول والفينلانيين الخ»[١].

وهذا التنوع نشهده كذلك في التوزع الجغرافي، فلا تكاد منطقة تخلو من وجود مجموعة مسلمة، وهكذا نشهده في اللغات والثقافات والأعراف والمستويات العلمية، ومدى المساهمة في مجرى الاحداث والسياسات المحلية والخارجية، ومدى تمتعهم بحقوقهم الاجتماعية، وقدراتهم الاقتصادية وغير ذلك.

ثانياً: الاعتزاز بالإسلام وتأصله في النفوس

وهذه ظاهرة واضحة نرجعها نحن إلى طبيعة الإسلام نفسه باعتبار طاقاته الذاتية على النفوذ إلى اعماق النفس وتوجيه السلوك الإنساني ومجمل الثقافة، وباعتبار انسجامه مع الفطرة الإنسانية.

ولقد تحوَّل الإسلام في بعض المناطق إلى حالة قومية كاملة، وهو ما نلحظه في البوسنة وروسية والصين وحتى في أميركا وأوروبا احيانا.

تقول الكاتبة السابقة: «والواقع أن ظاهرة بقاء الإسلام هي في الواقع أكثر إثارة للاهتمام من نهوضه، وقد اعتقد كثير من الناس أن الإسلام خلال القرن التاسع عشر قد افلس روحيا، وقد تحدث رحالة مثل (شبيلر) و(فامبيري) عن الغياب الظاهر للدين الحقيقي في وسط آسيا. ولا بدّ أنه كان من الصعب عليهما أن يدركا أنه بعد قرن من ذلك الوقت وفي ظل نظام مختلف أن اولئك المواطنين ما زالوا يعرفون أنفسهم على انهم مسلمون، والواقع أن كثيرا من المسلمين السوفيت لم يمارسوا واجباتهم الدينية كما يجب... وهكذا فانه ليس أي شيء ريائي أو وهمي بالنسبة للمسلم السوفيتي بأنه ينتمي لمجتمع مسلم، القومية بلا ادنى شك

١. الشعوب الإسلامية في الاتحاد السوفيتي السابق ص ٢٥.

كانت عنصرا في تأكيد تأثير الإسلام»[١].

وهذا النص يشع بكثير من الأمور ويوضح التفاعل بين الإسلام والقومية، ومدى تأصله في النفوس حتى عندما يكون الضغط بمستوى قهر السوفيت الطاغي والشامل والمتعمق بكل تخطيط لمحو الإسلام قبل كل شيء.

وقد حضرت مؤتمرا في جمهورية آذربايجان تحدَّث فيه رئيسها المتوفى (حيدر علييف) وكان مستشارا لبريجنيف رئيس الاتحاد السوفيتي فأكد أن الشيوعيين رغم محاربتهم للدين عموما باعتباره ـ كما تدعي الماركسية ـ أفيون الشعوب، فقد مسوا المسيحية مسا خفيفا وركّزوا كل همّهم على الإسلام وتمزيقه. وتبين للعالم بعد انتهاء الحكم الشيوعي أن الإسلام اقوى من كل تخطيط لضربه مهما كان واسعا.

ويمكن أن نكتشف من خلال مطالعة هذه الحالة تأثير أبعاد الإسلام في عملية الصمود، وحتى أن بعض الأحكام الفرعية في العقد والزواج والطلاق والدفن كان لها تأثير كبير في الحفاظ على الهوية.

ثالثاً: الشعور باللحمة التي تربطهم بالعالم الإسلامي بقوة

وهي ظاهرة عامة وان كانت تختلف شدة وضعفا من منطقة إلى أخرى، وهي ايضا ناتجة من طبيعة الإسلام وتخطيطه للحياة. وتعتبر من أهم العناصر الايجابية التي يجب تقويتها بشدة، وهي نفسها ما يرعب اعداء الأمة، وتشكل هاجسا مستمرا لهم، وربما يظهر هذا الهاجس احيانا في فلتات ألسنتهم.

إن المسلمين اينما كانوا يشبحون بانظارهم إلى العالم الإسلامي ويتوجهون في صلواتهم إلى قلب هذا العالم، ويعشقون لغة القرآن ويتفاعلون بشكل طبيعي مع آلامه وآماله.

رابعاً: المشاكل المشتركة

ويشتركون جميعا في مواجهة حملة شرسة تعمل على افقادهم هويتهم وتقاليدهم وربما

---

١. ن.م. ص ٣٩.

استهدفت وجودهم في تطهير عرقي فضيع كما شاهدنا الأمر في البوسنة. وتكاد المشاكل تتَّحد في أكثر الأماكن.

وبالطبع فإن هناك تفاوتا كبيرا بينهم في الشدة والضعف، وفي القدرة على المواجهة إلاّ أنَّ الملاحظ تماما هو عملية الاستهداف المنسق والذي يزداد يوما بعد يوم وخصوصا بعد حوادث الحادي عشر من ايلول في أميركا.

بعض المشاكل المشتركة

والمشاكل التي يواجهونها كثيرة ومتنوعة، فهناك مشاكل ثقافية ترتبط بالتشكيك في العقيدة واعطاء الجيل الناشيء معلومات مادية. ويزداد الأمر خطورة عندما يتم ذلك في اجواء مادية بعيدة عن المعنويات تترك أثرها السلبي عبر ايجاد حالة اللامبالاة وتعميق روح استغناء الفرد عن العائلة، وعدم الاكتراث والاهتمام بتطبيق الواجبات والحذر من المحرمات. وهناك مشاكل اجتماعية خطيرة تعليمية وتربوية واعلامية قد ذكرنا في بحث آخر بعضها.

الثوابت الإسلامية

وهي مالا يمكن التنازل عنه من وجهة نظر الإسلام، وتشمل:

أولاً: مجال العقيدة وتشمل كل أبعاد العقيدة الإسلامية التي تتمحور حول الإيمان بالتوحيد والنبوة والمعاد بتفريعاتها التي تثبت بالعقل أو النقل الصحيح، ولا ضرورة لدخولنا في التفاصيل.

ولما لم يكن هذا الجانب يقبل الضغط لأنه واقع نفسي فإن عمليات التشكيك الواسعة من جهة، وعملية الدفاع عن العقيدة الصحيحة من جهة أخرى، (الأمر الذي قد لا تسمح الظروف القائمة في تلك المنطقة به) مما يدخل الحالة في عملية الصراع ويتطلب ذلك البحث عن العلاج.

ثانياً: مجال التشريع الالزامي، وتدخل فيه كل الأحكام التكليفية الالزامية، (الواجبة اوالمحرمة) بما يلازمها من أحكام وضعية مشابهة كقضايا الملكية والزوجية والصحة والفساد. وتدخل جميعاً في الثوابت مع اختلاف في درجات الأهمية.

ثالثاً: مجال الأحكام غير الالزامية ويشمل التقاليد الإسلامية والمستحبات والمكروهات التي يحرص المسلم على تنفيذها في حياته. ولا ريب في أن هذا المجال مما يمكن التسامح فيه إلى الحد الذي لا يتنافى مع الصبغة الإسلامية العامة. فقد تشكل بعض الأمور غير الواجبة معلماً إسلامياً يؤدي التنازل عنه إلى نوع من الانكسار أمام العدو وحينئذ لا يمكن التفريط به.

فقه الغربة عن العالم الإسلامي

ويستعين هذا المركز المقترح بمجموعة من الاضواء الكاشفة، ومن هنا احتاج الأمر إلى عنصر مهم يجب العمل على تحقيقه مهما كلف الأمر، وهوتوفر مركزية فقهية معترف بها وذات نفوذ بين اوساط المسلمين، بحيث يمكنها أن تنظم الأمور وتنسق المواقف مع امتلاكها لتصورات فقهية تحقق التوازن المطلوب بين الحفاظ على الثوابت والاستفادة الجيدة من عناصر المرونة لمواجهة الضغوط وتحقيق المصالح ودرء المفاسد.

وتقوم هذه المرجعية بالعمل في المرحلة الأولى على توفير الجو الطبيعي لتطبيق كل توجهات الإسلام حتى على مستوى الأحكام غير الالزامية؛ ذلك أن هذه الأحكام تشكّل في الغالب طريقاً لتطبيق الأحكام الالزامية وضمانة للاداء الجيد لها، فإن مستحبات شهر رمضان مثلاً توفر اجواء التنفيذ الجيد لواجب الصوم، ومكروهات التعامل بين الرجل والمرأة تعمل على ابتعادهما عن المحرمات وهكذا.

وقد يصل الحال ببعض الأمور المستحبة أن تشكل معالم للمجتمع المسلم ـ كما قلنا ـ من قبيل بناء المساجد أو افشاء السلام أو امتلاك مقابر خاصة أو عقد صلوات الجماعة الكبيرة، أو اقامة مراسم الافطار الجماعي. وحينئذ يتم الاصرار مهما امكن على الاحتفاظ بها بل وتوسعتها.

واذا كانت الضغوط أكبر من هذا المستوى فمن الطبيعي أن يتمَّ التركيز على الواجبات والمحرمات قبل كل شيء فتمنع عملية المساس بالزاميتها، ويتمّ الحث على الالتزام بها، ويستفاد في سبيل ذلك من كل الوسائل التوعوية والضغوط الاجتماعية والحقوقية والسياسية الداخلية والخارجية.

الاضواء الكاشفة ـ المساهمة في عملية تكوين الموقف الإسلامي

ويستعين هذا المركز المقترح بمجموعة من الأضواء الكاشفة، فهناك أحكام وقواعد وتعليمات اصولية وفقهية وعامة تشكل اضواءً في مسيرة التعامل مع الآخرين، يمكن أن يعتمدها هذا المركز أو هذه المرجعية للوصول للموقف الصحيح. وقد تجد هذه الأمور تطبيقاتها في كل الظروف لكن البعض منها يجد مصاديقه بشكل اوضح في حياة المغتربين والأقليات الإسلامية. ومنها مايلي:

١ـ المقاصد الشرعية العامة.

٢ـ قاعدة توخي القسط كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾[١].

٣ـ قاعدة الدفاع عن حقوق المستضعفين. قال تعالى: ﴿وَما لَكُم لا تُقاتِلونَ في سَبيلِ اللَّهِ وَالمُستَضعَفينَ مِنَ الرِّجالِ وَالنِّساءِ وَالوِلدانِ﴾[٢].

٤ـ قاعدة قضاء حاجة المحتاجين واطعامهم وكسوتهم: قال رسول الله ﷺ : «ان لكل كبد حرى لأجراً» أو«في كل ذات كبد رطبة أجر»[٣].

أو«وان لنا في البهائم لأجر»[٤].

٥ـ قاعدة اتيان الرخص الشرعية: قال رسول الله ﷺ : «ان الله يحب أن توتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه»[٥].

٦ـ قاعدة الطهارة: كما ورد في الحديث «كل شيء لك طاهر حتى تعلم أنه نجس بعينه».

٧ـ قاعدة الاباحة حتى تثبت الحرمة.

٨ـ قاعدة الاستصحابّ فقد ورد أنه «لا تنقض اليقين بالشك» و«ابق ما كان على ماكان».

---

١. المائدة: ٨.

٢. النساء: ٧٥.

٣. جاء في البخاري في ابواب متعددة.

٤. جاء في الموطأ باب صفة النبي.

٥. مسند احمد ج ٢، ص ١٠٨.

٩ـ قاعدة الحوار السليم المتسم بالموضوعية ونسيان الماضي واستهداف الحقيقة وعدم المجادلة، وتطلب النقاط المشتركة والابتعاد عن التهويل واعتماد البرهان وامثال ذلك من الشروط التي يمتلك كلٌّ منها سنداً من النصوص الشريفة.

١٠ـ قاعدة المنع من الإفراط والتفريط واتباع المنهج الوسطي، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾[١].

١١ـ قاعدة التعاون على البر والتقوى، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾[٢].

١٢ـ قاعدة المودة، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾[٣].

١٣ـ قاعدة احترام الإنسان باعتباره إنساناً، قال الإمام علي: «فإنهم صنفان إمّا أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»[٤].

١٤ـ الاستفادة من أحكام الهجرة اللازمة عند التضييق في الدين.

١٥ـ الاستفادة من أحكام الطهارة المتنوعة من قبيل:

أـ طهارة اهل الذمة.

ب ـ الحكم بالطهارة عندما لا يعرف شيء عن الطرف المتعامل معه.

جـ عدم انتقال النجاسة إلاَّ مع البلل.

د ـ السوائل طاهرة إلاَّ مع العلم بنجاستها.

هـ ـ الحكم بطهارة الكحول الصناعية.

و ـ اساليب تطهير المطهرات.

ز ـ أحكام الجلود المحتمل استيرادها من البلاد الإسلامية. وغير ذلك من الأحكام.

---

١. الفرقان: ٦٧.

٢. المائدة: ٢.

٣. الممتحنة: ٨.

٤. نهج البلاغة بشرح محمد عبده، ج ٣، ص ٨٤.

١٦ـ أحكام الصلاة المتنوعة من قبيل:

أ ـ كيفية تحديد القبلة.

ب ـ معرفة اوقات الصلوات.

حـ ـ أحكام التقصير في السفر والاستيطان.

جـ ـ أحكام الصلاة في وسائل النقل كالطائرة.

د ـ حكم مزاحمة العمل للصلاة.

هـ ـ حكم الصلاة في الامكنة المشكوك غصبها.

١٧ـ أحكام الصوم ومنها:

أ ـ تعيين مبدأ النهار ومنتهاه.

ب ـ حكم الاعتماد على المراصد الفلكية.

حـ ـ أحكام العلاج المغذي.

١٨ـ أحكام الدفن.

١٩ـ أحكام الطعام والشراب من قبيل:

أ ـ حكم اكل الطعام إذا خلا مما يحرم على المسلم.

ب ـ حكمه في حالة الشك.

حـ ـ حكم المعلبات مع احتمال التنجيس.

د ـ أحكام التذكية.

هـ ـ حكم الجلوس على موائدهم وفيها الخمر.

و ـ حكم الجلود ومشتقاتها.

٢٠ـ أحكام التعامل مع القوانين النافذة هناك من قبيل:

أ ـ حرمة مخالفة الحقوق المعترف بها للآخرين اوللدولة بشروط.

ب ـ جواز النشاطات المدنية بشروط كما تاتي الاشارة إلى ذلك.

حـ ـ جواز اللجوء للمحاكم بشروط كما تأتي الاشارة إلى ذلك.

د ـ حرمة الغدر والخيانة ونقض العهود، وهذا أمر مهم.

٢١ـ أحكام العمل والتداول المالي من قبيل:

أ ـ حرمة اذلال المؤمن لنفسه.

ب ـ حرمة العمل في محلات القمار والملاهي.

جـ ـ جواز الشركة مع الآخرين في الاعمال التجارية.

د ـ مسائل الايداع في البنوك المحلية.

هـ ـ حرمة شراء منتجات الدول المحاربة للإسلام والمسلمين.

و ـ الحقوق المعنوية وبيعها.

ز ـ أحكام التوارث.

حـ ـ أحكام بيوع الصرف وبيع اواني الذهب والفضة.

٢٢ـ الأحكام الاجتماعية من قبيل:

أ ـ وجوب صلة الرحم.

ب ـ وجوب احترام الوالدين.

حـ ـ حقوق الجيران.

د ـ حكم تهنئة غير المسلمين باعيادهم.

هـ ـ المداراة الأخلاقية.

و ـ التخلق بالأخلاق الحسنة.

ز ـ أحكام المؤلفة قلوبهم.

هذا وهناك الكثير من الموارد التي يمكن ذكرها ولكننا نكتفي بما ذكرناه؛ باعتبارها نماذج وإشارات ينتفع بها فقه المغتربين بملاحظة الظروف هناك، وهي متنوعة من قطر لآخر ومن حكومة لأخرى.

ثم أنه قد تستجد اوتفرض ظروف قاهرة تمنع من تطبيق هذه الأحكام التي نسميها (الأحكام الأولية) باعتبارها تترتب على الشيء بعنوانه وطبيعته، وهذه الظروف القاهرة تمنح الموضوع عنواناً استثنائياً ولذلك نسمي ذلك (العنوان الثانوي).

العناوين الثانوية المتقدمة على العناوين الأولية

اذا استنفدت كل الوسائل وخيف من أخطار مهمة وتعرضت الكيانات الإسلامية للخطر فإن هناك مجالاً للركون إلى العناوين الثانوية والتي تتقدَّم في ظروفها على الأحكام الاصلية.

وقد ذكر العلماء هذه العناوين كما يلي:

الف: عنوان الضرورة والاضطرار وقد جاءت نصوص كثيرة لتقرَّ هذا المبدأ منها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[١].

باء ـ عنوان الضرر وهومنفي بمقتضى النصوص الإسلامية ومن اهمها حديث (لا ضرر ولا ضرار في الإسلام) المشهور بين المسلمين[٢].

جيم ـ العسر والحرج والمشقة الزائدة حتى لو لم يستتبعها ضرر، ودلَّت على نفيه آيات من قبيل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[٣]. وروايات من قبيل حديث (الرفع)[٤].

دال ـ تزاحم الاهم والمهم في التنفيذ حيث يقدم الاهم بحكم العقل المؤيد بالشرع.

هاء ـ أن يقع العمل مقدمة للواجب أو للحرام فيكتسب حكمه.

إلى ما هنالك من عناوين ذكرها العلماء.

وهنا ننبَّه إلى أنه يجب التأكد من تحقق موضوعات هذه العناوين والاحتراز عن الوهم والظن الباطل. كما يجب التفريق بين حالات الضرورة والحرج وبين حالة فقدان بعض المكاسب مما يعتبر في بعض الأعراف حالة حرجية.

الموقف من محاولات الدمج والتوطين

وهي محاولات مغرية ومنطقية في الظاهر، إذ يقال: إنَّ المسلم الذي يعيش في ظل دولة

---

١. البقرة: ١٣٧.

٢. راجع مثلاً الوسائل، ج ٣، ص ٢٧٠.

٣. المائدة: ١٥٨.

٤. خصال الشيخ الصدوق، ص ٤٨٥.

وقانون معين يجب أن يتحمل كل المسؤوليات الاجتماعية ليتمتع بامتيازات المواطنة. وهذا الكلام إلى هذا الحد منطقي لكن العملية تسير به إلى ابعد من ذلك، فتحاول التأثير على نمط حياته، وتصرفاته العبادية والسلوكية، واسلوبه التربوي لأطفاله، وحتى سلوكه الشخصي، واسلوب تعامله مع الآخرين، الأمر الذي لا تسمح به حتى مبادئ الحرية الشخصية التي يُدَّعى التمسك بها.

وقد لاحظنا بعض الدول كالاتحاد السوفيتي، وبلغاريا الشيوعية تتخذ حجة الدمج الاجتماعي وتفرض على المسلمين حتى التسمي بأسماء محلية رافضة الأسماء المتعارف عليها إسلامياً.

والمعيار الذي يجب أن يطبق في هذه الحالات، وطبعاً إذا امكن اختيار الموقف هو التمسك بالثوابت، ومنها الحفاظ على الطابع الالزامي، وعدم فقدان الهوية الإسلامية فضلاً عن السماح بالاندماج الأخلاقي المتميع، أو التصوري والمفاهيمي المنافي للتصور الإسلامي.

الاسهام في الانشطة السياسية والاجتماعية وغيرها

ولا مانع بل من المحبذ الاسهام في هذه الأنشطة باعتبار ما سيعود منها على الفرد والفئة المسلمة بل وعلى المجتمع كله من خير وعطاء شريطة التحرز عن ما يلازمها من أمور ممنوعة شرعاً، كالاعتداء على الآخرين، والإعانة على الإثم والكفر والفساد ولا يدخل المورد تحت قانون التزاحم بين الأهم والمهم بملاحظة قلة المعصية مثلا في قبال كثرة العوائد؛ لأنَّ قانون التزاحم انما يجري إذا لم يكن هناك مناص من ارتكاب احد الخطأين.

الموقف من التعددية في المجتمعات موضع البحث

العولمة والتعددية:

إن هناك سياستين عامتين يتم تطبيقهما الآن في العالم، إحداهما قضية (التعددية) في النواحي والميادين المختلفة، والأخرى (العولمة). وان التعددية ـ بشكلها البسيط ـ لا تعتبر شيئا جديدا، ففي تاريخ البشرية نماذج ومصاديق كثيرة للتعددية.

وفي ايران ايضا كانت تيارات ومجتمعات ميالة نحوالتعددية، وفي بعض الاحيان وجد ـ على الأقل ـ اثنا عشر مذهباً أو ديناً منها خمسة محلية المنشأ. فالدين الآري، والزرادشتي،

والميترائي والأديان الابراهيمية (اليهودية، والمسيحية، والإسلام)، كانت متَّبعة في هذا البلد، وفي هذا اليوم يوجد في ايران اتباع مذاهب عديدة، رغم قلتهم، وكلهم يتمتعون بحريات طبيعية في نطاق الحكومة الإسلامية وطبقا لأحكام القانون الأساسي (الدستور) والقوانين العادية، وهكذا توجد في كثير من الدول اقليات دينية مختلفة من جملتها الأقليات المسلمة.

إلا أن النقطة المهمة هنا هي أنه كان الناس في الماضي يتصورون أن التعايش الاجتماعي بين الأديان أمر غير ميسور، لذلك كان من المعتاد أنهم يعيشون منفصلين عن بعضهم بعضا، ويتجنب احدهم الاخر.

فكان أتباع كل نحلة أومذهب يتمركزون في احدى محلات المدينة ـ بحيث مازلنا نرى هذه الظاهرة مشهودة في البلدان المختلفة ـ وفي القرى نجد أن اصحاب الأديان المختلفة يسكنون في قرى مختلفة، وفي هذه الظاهرة، نجد أن المذهبية والطائفية والعيش في عالم الذات المغلق كان يعد نمطا من الواجب. وربما اشار القرآن الكريم إلى نمط مشابه حين طلب النبي موسى عليه السلام من بني إسرائيل أن يجعلوا بيوتهم قبلة.

مضى على اتصال المسيحيين وتماسهم مع المسلمين ما يربو على الالف عام، بيد انهم ما زالوا لا يعرفون عقائدهم ولا مراسمهم بشكل دقيق وموضوعي، والعكس صحيح أيضا. ويعبر عن هذا النمط من التعددية بالتعددية السلبية.

ويمكننا أن نتصور أنه بالرغم من أن نوع النظام رهين بالدين والأخلاق ورأي الأكثرية بيد أن الأقليات يمكن أن تتمتع ـ أيضا ـ بحقوقها الإنسانية والثقافية وتتعاون وتتعارف فيما بينها، وهذا ما يمكن أن يطلق عليه بالتعددية الايجابية.

القضية المهمة الأخرى التي غدت تلعب دورا مهماً الان في نطاق السياسات الثقافية والاقتصادية والخطط السياسية هي قضية وحدة الثقافات المتباينة وسيطرة ثقافة واحدة على باقي الثقافات بمقتضى العولمة. هذه الثقافة المهيمنة ليست سوى واحدة من لوازم الحداثة ـ كما يدَّعى ـ وهي ترغب في فرض نفسها على الجميع بالقوة والقهر.

ولكن هل يمكن أن تصل العولمة إلى هدفها وبأي نوع من التعددية؟ فمضمون الاعلان العالمي لحقوق الإنسان وخاصة الميثاق المتعلق بالحقوق المدنية والسياسية، يعطي جميع

المواطنين حق حرية الفكر والعقيدة والدين، وحق تاسيس المحافل والتنظيمات السلمية والنقابات والاتحادات المهنية، وحق تشكيل العائلة والمساواة أمام القانون، والاهم من كل ذلك تمتع الأقليات بثقافة ولغة خاصة بها والقيام بالمراسم والوظائف الدينية والعبادية.

فنظرة هذا الاعلان ذات طابع تعددي من النمط الايجابي، بيد أن سياسة عولمة الثقافات رغم أنها قبلت في الظاهر بمفاد هذا الاعلان لكنها تميل عبر فرض سيطرة ثقافتها إلى محو وإزالة قضية التعددية الثقافية. وفي هذا السياق فإنها تحاول استخدام التكنولوجيا والتواصل، وتسعى لتسخير مفاد المواثيق القانونية وغيرها لتحقيق غاياتها، وهنا يظهر التباين والتعارض بين الحداثة وما بعد الحداثة.

إن من واجب المفكرين المسلمين تعيين استراتيجية التصدِّي لهذين النمطين من التفكير، وان جميع الاقتراحات المطروحة في الندوات المختلفة ومن جملتها في قضية الأقليات ينبغي أن تكون في سياق نوع انتخاب هذه الستراتيجية.

انتخاب التعددية السلبية كستراتيجية، يؤدي اليوم إلى النزاع والمواجهة بين الشعوب والفرق المختلفة في نهاية المطاف، كما يعكس للعالم طابعا خشناً وارهابياً عن الإسلام والمسلمين، ويشوِّه صورته في انظار الرأي العام العالمي.. علاوة على ذلك، فإنَّه لايمكننا الجمع بين سياسة الحوار بين الحضارات ومبدأ التعددية السلبية، فهاتان قضيتان متناقضتان دائما.

اذن، لا مناص من أن نتبنّى التعددية الايجابية، وهذا ما فعلناه، وان مفاد القرارات ومضمون المقالات المتعلقة، بالعلاقة بين الإسلام وحقوق الإنسان، يركِّز في الغالب على هذه الرؤية ويؤكدها.

وهنا ينبغي للمفكرين المسلمين ـ وخاصة في المجتمعات غير الإسلامية ـ أن يركِّزوا ويؤكِّدوا على التعددية الذاتية والتنوع الطبيعي في التقاليد والسنن والتراث الديني والثقافي والحضاري، وأن يوظفوا جهودهم من اجل الدفاع عن الخصائص التي تشكِّل هوية الأديان والحضارات المختلفة، وان لايسمحوا من تمكُّن الاتجاه الساعي لفرض الهيمنة والتسلط بأن يجعل العالم كله ذا لون وطابع واحد يريده هو ويحدده بنفسه ويبلغ نشوته ويحقق مآربه عبر فرض تلك الهيمنة.

كما عليهم أن يُفهموا الاخرين بأن السنن الدينية والتقاليد الثقافية كثيرة ومتنوعة، وان السعي لتوحيدها واضفاء طابع ولون واحد عليها عمل غير مجد بل ومضر جداً.

بالطبع، فانه من الواضح أن هذا الأمر ينبغي أن لايتحول إلى ذريعة لانتهاك حقوق الإنسان وسائر المفاهيم والقيم الإنسانية والأخلاقية العامة، وتبديل ذلك إلى وسيلة يستخدمها المقتدرون والمتسلطون لتحقيق غاياتهم ومآربهم المعادية للإنسانية، أو أن نقصر نحن ونستنكف عن عرض وطرح آرائنا الإسلامية.

وللأسف نجد احياناً أن بعض المسلمين يميلون إلى النمط السلبي من التعددية، وكما أسلفنا فإن هذه الستراتيجية لا تعطي للرأي العام انطباعاً جيدا عن المسلمين. ومن ناحية أخرى نرى احيانا أن المسلمين الذين يقبلون التعددية الايجابية غدوا يظهرون بعض التراخي في الاصرار على عقائدهم وحقوقهم، نتيجة لتأثير وتلقين وسائل الإعلام العامة وللروابط القائمة، بل وطفق بعضهم يروج لفكرة فصل الدين عن السياسة، وهذا وجه خطير آخر للمشكلة.

مدى مشروعية التحاكم للقضاء غير الإسلامي؟

إن الحكم الأولي في الموضوع واضح، فلا يجوز التحاكم إلى قضاء غير إسلامي لأمرين أساسيين:

الأول: إن حكم الحاكم لاينفذ على أحد؛ لأنَّه خلاف الاصل إلاَّ أن يمتلك الحاكم ولاية وفق قانون شرعي أو أن يتفق عليه المتحاكمان بارادتها الحرة. والحاكم غير المسلم وتحت ظل حكومة غير مسلمة لايمتلك حق القضاء هذا.

الثاني: أن القوانين التي يقضي بها الحاكم ليست قوانين شرعية ملزمة إلاَّ أن يقال إن التزام الفرد بحق المواطنة يعني الدخول في عقد اجتماعي ملزم، وحينئذ فلا ينفذ هذا الالتزام إلاّ في الحدود المقبولة شرعاً.

فالاصل ـ إذن ـ أن لا يتمَّ التحاكم إلى القضاء غير الإسلامي اللّهم إلاَّ إذا عدم القضاء الإسلامي وتوقف استنقاذ الحق على مثل هذا التحاكم[١]. واذا شعر المسلم بأن القاضي اعطاه

١. راجع القرار رقم ٩٥/٨/د٩ من قرارات مجمع الفقه الإسلامي الدولي الصادر في دورته التاسعة في ابوظبي بدولة الامارات العربية المتحدة.

فوق حقه فعليه الامتناع عن التمتع به.

أسس وتوصيات تجب ملاحظتها

وفي ختام البحث نقترح ما اقترحناه سابقاً في اجتماعات عقدت بهذا الشأن.

فندعو إلى مراعاة جملة من المبادىء والأسس أهمها ما يلي:

١) ترابط الأمة الإسلامية وتضامنها وتعاونها على اختلاف شعوبها وأقطارها.

٢) الثوابت الإسلامية يجب العمل على احترامها والالتزام بها بدقة.

٣) احترام حقوق الإنسان وضرورة المحافظة عليها بكل الصور الممكنة على أساس مراعاة القواعد والمبادىء الدولية في التعامل.

٤) القبول بالتعددية الايجابية واحترام الرأي والدعوة للحوار الايجابي بين الأديان والحضارات بهدف البحث عن كل صور التفاهم والتعاون الممكنة لتحقيق خير الإنسان ومصلحته.

٥) احترام مبدأ سيادة الدول وعدم التدخل في شؤونها الداخلية.

٦) دعوة المسلمين في كل بلد يعيشون فيه إلى أن يكونوا مواطنين صالحين يسعون لتقدم بلادهم ورفعتها في اطار تقابل الحقوق والواجبات.

٧) ضرورة اعتماد المبادىء نفسها في التعامل مع الأقليات، مسلمة كانت أم غير مسلمة، في الدول الإسلامية أو غيرها.

٨) تشابك العلاقات الدولية واهتمام الدول بصورتها أمام المجتمع الإنساني وبعلاقاتها الدولية، سياسية كانت أواقتصادية أوثقافية.

٩) اعتماد المعلومات الصحيحة واتخاذ المواقف بعيداً عن الانفعال والتوتُّر والحرص على الحكمة في المعالجة والاستفادة من كل الظروف المتاحة ومن كل صيغ العمل المتوفرة.

ويلاحظ أن أهم ما يجب ملاحظته عند التصدي لموضوع الأقليات هو اختلاف أوضاع الأقليات من بلد إلى آخر، فلايمكن النظر إليها جميعاً بمنظار واحد، فبعضها قد نال حقوقه وبعضها ما يزال يعمل لتأكيدها في المجتمعات التي تعيش فيها، وبعضها تهدد وجودها عمليات الاستئصال والتطهير العرقي.

وعلى ضوء ذلك فإننا نؤكد على معالجة موضوع الأقليات بكل ابعاده وأنه يجب أن يقوم على المحاور التالية:

أولاً: المحافظة على وجود هذه الأقليات وحمايتها من الاستئصال والطرد الجماعي.

ثانياً: المحافظة على هوية الأقليات المسلمة وذاتيتها الخاصة حتى لا تتعرض للذوبان والتصفية الفكرية والثقافية.

ثالثاً: احترام حقوق هذه الأقليات باعتبارهم مواطنين لهم كامل الحقوق في الدول التي يعيشون فيها.

رابعاً: تفعيل دور الشعوب والدول الإسلامية والمنظمات والهيئات التابعة لها في دعم ومساعدة هذه الأقليات على أساس احترام سيادة الدول وعدم التدخل في شؤونها.

خامساً: الاستفادة من الإمكانات المتاحة لدى هذه الأقليات العملية والاقتصادية في مختلف الميادين في الدول الاعضاء.

نماذج من تساؤلات الأقليات والجواب عليها

ونحن نعتمد في هذه النماذج على مجموعة من الأسئلة قدمها المركز الإسلامي في واشنطن إلى مجمع الفقه الإسلامي الدولي بجدة وهي كمايلي:

س١: ما حكم التجنس بالجنسية الاجنبية، علماً بأن معظم الذين قبلوا التجنس أو يعتزمون الأقدام على ذلك يؤكدون على أنهم ما فعلوا ذلك إلاَّ لأنهم قد أوذوا واضطهدوا في بلادهم الاصلية؟

الجواب: التجنس بنفسه أمر غير محرم، ولا دليل على حرمته بذاته بل هو محكوم بقاعدة الحلية، ولكنه إذا أدى إلى محرم آخر، من قبيل ما يأتي:

أ ـ منعه من ممارسة واجباته الدينية،

ب ـ اجباره على فعل المحرمات، من قبيل لزوم تأييد احد الحزبين الظالمين مثلاً، أو ممارسة الأعمال المحرمة، كالربا والقمار والاعتداء على الشعوب الأخرى من خلال التجند في جيش محتل معتد على الآخرين وامثال ذلك.

ج ـ تعريض اولاده أوزوجته للانحراف وامثال ذلك،

ففي هذه الحالات لا يجوز التجنس.

س٢: ما حكم الهجرة إلى البلدان غير الإسلامية مع وجود احتمال تعرض الأبناء لاكتساب عادات لا يرضاها الإسلام، وخصوصاً في حالة انشغال الوالدين أو وفاتهما؟

الجواب: الهجرة في هذه الحالة بنفسها جائزة إلاَّ إذا لازمها ما اشرنا اليه في جواب السؤال الأول، فاذا اتخذ كل الاحتياطات اللازمة ثم غلب على أمره غفر الله تعالى له ذلك بلطفه ورحمته.

س٣: ما حكم زواج المسلمة بغير المسلم إذا طمعت في إسلامه بعد الزواج، حيث تدَّعي

مسلمات كثيرات أنه لا يتوافر لهن الاكفاء من المسلمين في غالب الاحيان وانهن مهددات بالانحراف أو يعشن في وضع شديد الحرج؟

الجواب: لا يجوز زواج المسلمة بغير المسلم اجماعاً. وتدل عليه الآية الشريفة ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾[1]. بالاضافة إلى الروايات الكثيرة.

ومسألة الحرج لا تبيح هذا العمل المحرم قطعاً.

س٤: ما حكم استمرار الزوجية والمعاشرة بين زوجة دخلت الإسلام وبقي زوجها غير مسلم ومن اهل الكتاب، ولها منه اولاد تخشى عليهم الضياع والانحراف وتطمع في هداية زوجها إلى الإسلام؟

الجواب: على الزوجة أن تعتد عدة الطلاق، فلو اسلم الزوج قبل انقضاء العدة فهما باقيان على نكاحهما وإلاَّ ثبت انفساخ العقد من حين إسلامها. هذا في فرض السؤال، أمّا لوفرض كون الزوجين تحت ذمة الحكم الإسلامي فإن العقد لا ينفسخ ولكن لا يحق للزوج أن يخرجها من دار الإسلام، ولا يحق له أن يكون مع زوجته ليلاً.

س٥: ما حكم دفن المسلم في مقابر غير المسلمين، إذ لا يسمح بالدفن في غيرها، ولا توجد مقابر خاصة للمسلمين إلاّ في بعض البلدان؟

الجواب: إن أمكن نقل الميت المسلم إلى مقبرة المسلمين ولو في بلد آخر فهو، وإلاّ تمَّ دفنه في المقبرة العامة اضطراراً.

س٦: ما حكم بيع المسجد بعد أن ينتقل المسلمون إلى محلة أخرى واستبداله بمكان آخر؟ واذا لم يمكن استبداله فما هي اقرب الوجوه التي يمكن صرف الثمن فيها؟

الجواب: المسجد وقف مؤبَّد امضاه الشارع، فلا يصح بيعه، فيجب استنفاد كل الطرق التي تبقيه على المسجدية. نعم إذا لم يمكن واقتضت المصلحة الاكيدة ذلك تم بيعه واستبداله أو صرف الثمن في محل يصلى فيه وان لم يعنون بعنوان المسجد.

س٧: كثيرات من بنات المسلمين ونسائهم تدعوهن ظروف العمل أو الدراسة إلى السفر إلى ولايات أخرى بدون محرم ومن غير رفقة، فما حكم هذا السفر؟

---

١. الممتحنة: ١٠.

الجواب: من الواضح أن النصوص التي منعت من السفر بدون محرم كانت لوجود الاحتمال العقلائي للاذى والاعتداء، الأمر الذي لم يعد مطروحاً عادة، فلا مانع من مثل هذا السفر. نعم مع عدم الامن يجب اصطحاب محرم أومن تثق به.

س٨: بعض النساء أو الفتيات تضطرهن ظروف العمل أو الدراسة إلى الاقامة بمفردهن أو مع نسوة غير مسلمات، فما حكم هذه الاقامة؟

الجواب: لا نرى مانعاً في ذلك.

س٩: يترتب على بعض المسلمات في بلاد المهجر، بمقتضى لوازم العمل أو الدراسة، كشف ما عدا الوجه والكفين فما حكم ذلك؟

الجواب: لا يجوز ذلك حتى لو استلزم الأمر ترك الظرف المشار إليه، نعم للضرورات أحكامها التي تقدر بقدرها.

س١٠: هل يجوز للطلاب العمل لتغطية مصاريف الدراسة في المطاعم التي تقدم الخمور ولحم الخنزير؟

الجواب: يجوز ذلك، ويتجنب هو القيام بالاعمال المحرمة.

س١١: ما حكم بيع المسلم للخمور ولحم الخنزير لغير المسلمين؟

الجواب: قيل إن ثمن الخمر لما كان سحتاً فانه يعم المشتري الكافر والمسلم، ويحتمل اختصاص ذلك بالمسلم وفي بلاد المسلمين، والذي يبدو للنظر لزوم أن يطهر الإنسان المسلم نفسه وماله من هذا العمل وهذا الثمن.

س١٢: هناك كثير من الادوية تحوي كميات مختلفة من الكحول تتراوح بين ١٪ إلى ٢٥٪ إلى الحد الذي يصعب فيه الحصول على الادوية الخالية منه، فما حكم تناولها؟

الجواب: هذه الادوية نجسة حتى لو احتوت على نسب قليلة جداً ولكن لا يأتي هذا في مثل الموارد التالية:

١ـ ما إذا احتملنا أن الكحول فيها صناعي.

٢ـ ما إذا كان الاستعمال بمثل الاستشمام والتقطير في العين والإلصاق على البدن أو مداواة الفم من دون الابتلاع.

٣ـ حالات الاضطرار.

س١٣: ما حكم اقامة حفلات الزفاف في المساجد مما تلجئ اليه ضرورات الحالة؟

الجواب: إذا لم يتخلل ذلك محرم فلا مانع من ذلك، ويجب مراعاة حرمة المساجد وقداستها.

س١٤: بعض الحكومات تفرض على رعاياها التسمّي بالأسماء النصرانية، فما حكم ذلك؟

الجواب: لا مانع من ذلك في هذه الحالة إلاَّ أن يكون في الاسم هتك لحرمة من حرمات الله تعالى، أمّا في حالة الاختيار فينبغي استعمال الأسماء الإسلامية.

س١٥: ما حكم زواج الطالب أو الطالبة المسلمة زواجاً ينوي انهاءه عند انتهاء مدة الدراسة رغم كونه عقداً دائماً في الأصل؟

الجواب: لا مانع من ذلك بل يجوز تسمية التوقيت منذ ابتداء العقد.

س١٧: ما حكم ظهور المرأة في محلات العمل والدراسة مكتحلة أو مأخوذاً شعر حاجبيها؟

الجواب: لا بأس في ذلك؛ لأنها من الزينة المستثناة من التحريم.

س١٨: بعض المسلمات يجدن حرجاً في عدم مصافحتهن للرجال الاجانب، فما حكم ذلك؟

الجواب: المصافحة بين الاجنبيين الرجل والمرأة حرام، أمّا الضرورات والحرج فلها أحكامها.

س١٩: هل يجوز استئجار الكنائس لاقامة الصلوات الخمس مع ما فيها من تماثيل؟

الجواب: لا مانع من ذلك، وحبذا لو تمَّ ستر التماثيل.

الحوار مع الذات والآخر

محمدعلى التسخيرى

الإقبال العالمي على الإسلام

بمثابة المقدمة

عزيزي القارئ! وجّهت إليّ مجلة رسالة الثقافة الصادرة في طهران في عددها المرقم ٢٣/٣ سؤالا عن «سر هذا الإقبال العالمي على الإسلام»، فأجبتها بما يلي:

هناك عوامل كثيرة أوجدت هذا الإقبال العالمي على الإسلام في الفترة الأخيرة وربما كان أهمها ما يلي:

١. ما يتمتع به الإسلام من تعاليم منسجمة تمام الانسجام مع الفطرة، تشبع حاجة الوجدان، وتسمو بالأخلاق وتتعامل مع طبيعة الإنسان تعاملا واقعياً، وتنظر إليه ككل وتعمد إلى حل كل مشكلاته وتحقق الانسجام بين الجانب العقائدي، والجانب العاطفي، والجانب السلوكي.

وهذه الجوانب وإن كانت تتمثل في الإسلام منذ انطلاقته قبل أربعة عشر قرناً إلاّ أنَّ الذي أوجد هذا الإقبال الأخير عليه من خلالها ناتج عن حركة فكرية علمية قام بها المفكرون الكبار لشرح هذه الخصائص وعرضها بأسلوب يتناسب ومتطلبات العصر، ويجيب على تساؤلاته ويشرح الجوانب المضيئة في هذه الشريعة وهؤلاء هم من امثال الإمام الخميني، والإمام الصدر، وسيد قطب، والشهيد المطهري، وأبي الأعلى المودودي، ومالك بن نبي وغيرهم.

٢. فشل معظم الأطروحات اللادينية في إشباع حاجة الإنسان إلى المأمن الروحي الحقيقي لا بل فشلها في إشباع حاجاته المادية وتحقيق ما يصبواالیه من سعادة... وقد أدّى تساقط هذه المذاهب الإلحادية لتكوين موجه بشرية هائلة متّجهة إلى الدين من جديد ليشبع

لها نهمها وجوعتها. ولمّا لم يكن هناك من دين فيه كل هذه الجامعية وهذا الشمول وهذه النظرة الحياتية المستوعبة وهذه الواقعية في التعامل، غير الإسلام كان من الطبيعي أن نجد الإقبال الهائل عليه وعلى تعاليمه.

٣. نجاح بعض التجارب الإسلامية في بعض المناطق وفي طليعتها تجربة الثورة الإسلامية الكبرى في ايران بقيادة الإمام الخميني الراحل؛ حيث قدّمت هذه الثورة نماذج كبرى من الشعبية الخالصة التي تتناسى كل المصالح المادية الضيقة في سبيل تحقيق الأهداف المعنوية الكبرى، وحيث استطاعت أن تكسر الكثير من الأساطير من قبيل أسطورة انحصار الثورة بالمبادئ المادية وبالخصوص في الاشتراكية، وأسطورة انقسام العالم المعاصر إلى قوتين لا ثالث لهما، وأسطورة عدم إمكان الاستقلال في المجال السياسي، وأسطورة «الدين أفيون الشعوب» وأمثالها.

وقدّمت للعالم تصوراً جديداً عن مشاكله وحلولها بعيداً عن التصورات السابقة كما أنّها استطاعت أن تعبّئ الجماهير المسلمة وتزرع في نفوسها الأمل الكبير بالمستقبل ممّا فتح أمام العالم كله أفقاً جديداً لم يكن ليتصوّره من قبل.

كما تساءلت المجلة عن «ظاهرة الصحوة الإسلامية»، فأجبت:

إنّ أهم العوامل لهذه الظاهرة الكبرى ـ ظاهرة الصحوة الإسلامية ـ تكمن في ما يلي:

أوّلا: نفس ما أشرنا إليه في جوابنا السابق طبعاً مع ملاحظة التأثيرات الأوسع لتلك العوامل في عالمنا الإسلامي. ذلك أنّ العالم الإسلامي أقرب بكثير من غيره إلى تفهّم تراثه القيم والتعامل بكل تصوراته وتعاطفه مع هذه الرسالة من خلال إيمانه بها حتى ولو كان هذا الإيمان ضعيفاً أو موروثاً إلاّ أنّه على أيّ حال يوفّر جواً طبيعياً للتعامل الايجابي الأكبر مع القضية الإسلامية خصوصاً بعد وضوح جوانبها من قبل أولئك المفكرين الذين أشرنا لهم.

على أنّ فشل الأنظمة الأخرى ارجع الكثير من الشاردين عن المسيرة الإسلامية ـ من المسلمين ـ إليها وأعاد لهم الثقة بإسلامهم العظيم.

ثم إنّ نجاح التجربة الإسلامية أوجد شعوراً جماهيرياً كبيراً بعظمة الإسلام وأعاد للأمة اعتزازها بنفسها وثقتها بمستقبلها وقدرتها على صنع هذا المستقبل.

ثانياً: الدور الرائع الذي لعبته الحركات الإسلامية في نشر التوعية والحماس الثوري بين

أبناء الأمّة، وقد اختلف تأثير هذه الحركات على هذه المنطقة أو تلك، كما اختلف مستوى الوعي والحماس لدى هذه الحركة أو تلك إلاّ أنّها نجحت في تأجيج الشوق الجماهيري نحو تطبيق الإسلام وأوجدت شعوراً ذا مساحة معتد بها بلزوم مقاومة مظاهر الطاغوت والعودة إلى الإسلام.

ثالثاً: ردود الفعل التي اعقبت الهجوم الغربي الفاشل على العالم الإسلامي،برغم التخطيط الدقيق لهذا الهجوم والعمل على أن يستوعب مختلف الجوانب رغم التمزيق القومي والوطني والعنصري، والتاريخي ورغم أنّه زرع في وجود الأمّة البؤرة السرطانية الخبيثة (إسرائيل)، وأثقلها بالحكام العملاء وسرّب إليها سمومه الفكرية والعاطفية وملأ حياتها بالمجون والترف والفسق، فإنّ هذا الهجوم انتج نتائج عكسية إذ أيقظ الأمّة وعلّمها أنّ عزتها تكمن في إسلامها وقد كان تأثير الهجوم بشكل معكوس بأسلوبين:

الأوّل: كشف نفسه وحضارته وأخلاقه أمام أبناء هذه الأمّة،إذ راح ينهب وجودها ويحطم شخصيتها ويعبث بقيمها.

الثاني: أنّه دفع الحريصين المؤمنين بمستقبل الأمّة لأن يتّخذوا موقف المواجهة والتخطيط للصحوة. وكان من جملة ما انكشف زيفه للجماهير المسلمة تلك الصيغ الرجعية للحكومة الإسلامية، وتلك الأطروحات المشوّهة للوحدة الإسلامية.

وهكذا أثّرت كل هذه العوامل أثرها الكبير في الاسراع بالصحوة والنهضة ممّا جعل الأمّة على اعتاب تحوّل تاريخي كبير، نسأل الله ـ جلّ وعلا ـ أن يحققه قريباً عاجلا.

وتساءلت المجلة عن «مركز النهضة الإسلامية الدينية»، فأجبتها:

بطبيعة الحال لا أعدّ ايران في هذا المجال فهي اليوم قلب النهضة الإسلامية الأصيلة، ومنبعها الدفّاق؛ لاأقول هذا محاباة أو تعصباً، وإنّما أقول ذلك عن وقوف حسن على واقع العالم الإسلامي، وتلمّس كامل لكل أبعاد الصحوة والنهضة الإسلامية فالكل اليوم ينظر إلى ايران باعتبارها المحور النموذج والامام والموجّه، بل أستطيع أن أقول: إنّ العالم كله يذعن لهذه الحقيقة، ولا أدلَّ على ذلك من تجمُّع التآمر المعادي للدين ضد ايران وتمركزه على هذه الثورة الإسلامية، وربما أمكنني الإشارة إلى دور ايران في المؤتمرات العالمية للسكان كالقاهرة

وبكين وغيرها حيث وقفت تحمل لواء الدفاع عن الدين عموماً والإسلام خصوصاً بكل قوة وأذعن العالم لهذا الوقوف والصمود.

فإذا تجاوزنا ايران أستطيع القول بأنّ مظاهر النهضة تشمل كل العالم الإسلامي على اختلاف ما بين مناطقه من حيث الوعي والحماس.

كما تساءلت المجلة عن «دور الفكر الإسلامي والفكر الثوري في العلاقات الدولية القائمة»، فقلت:

إذا أردنا أن ندرك عمق هذا الدور علينا أن نلاحظ الأمور التالية:

١. إن مساحة التخطيط والتآمر ضد الإسلام وضد الثورة الإسلامية، مساحة ضخمة حقاً تتمثل في تجمّع العقول السياسية المخططة في مراكز علمية وسياسية لاتحصى لدراسة هذه الظاهرة، واتخاذ الاستراتيجيات الجامعة ضد نموّها وانتشارها ومحاولة الفصل بين الجماهير الإسلامية، لا بل الجماهير المستضعفة وبين قيادتها، كما تتمثل في وسائل الاعلام الموجّهة ضد الإسلام ومظاهره وضد كل ما يمتُّ بصلة إلى الإسلام، وتتمثل أيضاً بالمؤتمرات الدولية الواسعة الأبعاد والتي تعمل على مسخ الهوية الإنسانية ومحو العائلة الإنسانية، ونشر التفكّك والتميّع، والفساد الأخلاقي، كما تتمثل في عشرات المعاهدات والاتفاقيات التي تعقد بين الدول الكبرى نفسها وبينها وبين دول المنطقة لوقف هذا التحرك الإسلامي العظيم، بل إنّنا نجد الغرب يعطي الضوء الأخضر للشيوعين لاستعادة دورهم القيادي في الجمهوريات الإسلامية التي ورثت الاتحاد السوفيتي السابق لا لشيء إلاّ خوفاً من امتداد المد الثوري الإسلامي لهذه المناطق.

ولانستطيع هنا أن نستوعب كل هذه المساحة وإنّما نريد الإشارة إلى أنّ كل ردود الفعل هذه تترك أثرها الكبير على الساحة الدولية وتغير من الاستراتيجيات الدولية والمعاهدات وتفتح مجالا لتصوير عدو كبير للعالم الغربي، وصبّ كل الاهتمامات لمحو هذا العدو الكبير، كما تترك أثرها في سعي الدول الاستكبارية لاستغلال الأمم المتحدة والمحافل الدولية الأخرى للوقوف أمام هذه النهضة ومحاصرتها والعمل على ضربها في مهدها وقطع اتصالها بجماهيرها.

ولذلك استطيع القول بكل صراحة إنّ الحركة الثورية الإسلامية هي الهاجس الأكبر

للطامعين وهي حجر الزاوية في كل تخطيط إستراتيجي عالمي. وهذه الحقيقة ذكرتها بصراحة الإستراتيجية الامريكية التي كشف النقاب عنها عام ١٩٩٧.

وعن «العلاقة بين الإسلام والغرب»، قلت للمجلة:

لتلخيص العلاقة بين الإسلام والغرب اوضح مايلي:

أ. أتصوّر أنّ الإسلام بمقتضى واقعيته المعروفة يسعى عن طريق الدعوة والعرض السليم إلى التحدّث مع الفطرة الإنسانية والتأكيد على أنّ كل ما جاء به من تصوّرات عن الواقع والحياة إنّما يقوم على أساس منطقي سليم ينسجم مع تطلعات الفطرة الإنسانية، وما يطالب به هو أن يحصل الجو الحر الموضوعي للاستماع إلى صوت الإسلام.

ورغم الحرية التي يتمتع بها العالم الغربي أو يدّعيها في فسح المجال للآراء في أن تعرض نفسها إلاّ أنّ الإسلام يواجه عقبات كبرى في هذا الصدد أهمها التشويش والتشويه الدعائي الواسع الأبعاد ضده وضد كل مقدساته، وذلك عبر القنوات الاعلامية الواسعة وبمختلف الأساليب الماكرة التي كثيراً ما تستغل الفن والقصة والعلم لتمرير أفكار معادية للإسلام.

وأؤكد أنّ هذه الحملة تنطلق من منطلقات:

الأوّل: تعصّبي، حيث نجد الجهات المتعصبة الصليبية تحمل حقداً تاريخياً ضد الإسلام دونما تأمل في ما يطرحه الإسلام من أفكار إنسانية.

الثاني: مصلحي، انطلاقاً من النظرة المادية الرأسمالية للحياة؛ ذلك أنّ الإسلام بمقتضى مبادئه لايسمح بخضوع الشعوب الإسلامية للمصالح التوسعية الغربية كما لايسمح بشكل عام باستغلال المستضعفين من قبل الأقوياء المستكبرين الأمر الذي يقف عقبة أمام الاستغلال المادي الوضيع.

الثالث: قومي وطني انطلاقاً من تصور الغرب أنّ المسيحية أو بشكل عام الدين الذي لايتدخّل في معمعان الحياة هو من الخصائص الوطنية والقومية للشعوب الاوربية. وهذا فهم خاطئ للدين والتراث الوطني والقومي، وهو الأمر الذي يرفضه المنطق التغييري للبنية الإنسانية، فالمهم أن يدين الإنسان بدين الحق بعيداً عن مسائل التعصب الطائفي والقومي والوطني.

الرابع: امتلاك الإسلام لخصائص الدين القيم على الحياة وأساليبه المعنوية والأخلاقية هي

الحل البديل للفراغ المعنوي الذي تشعر به الإنسانية وهو أحد العوامل المهمة التي حطمت نظام الإلحاد الشرقي وقضت على احلامه بالتالي أعطت دورا جديداً للتعاليم الإسلامية لتملأ هذا الفراغ بعد أن لم تكن باقي الأديان على مستوى الحاجة الحضارية الموجودة.

ب. اعتقد أنّ أفكار العالم الغربي قد طرحت بشكل كاف في مجال العالم الإسلامي. فالمثقفون المسلمون يطالعون غالباً وباستمرار ما ينتجه هذا الفكر، بالإضافة إلى أنّ الجماهير الإسلامية اليوم مغرقة باحداث العالم الغربى التي تتحدث عنها وسائل الإعلام الغربية.

بل إني أعتقد أنّ ما يُعرض في العالم الإسلامي عن الغرب فيه الكثير من المبالغة المقصودة، الأمر الذي قد يغوي الكثيرين بهذه الجنّة الموهومة، وهم لايعلمون ما تستبطنه هذه الحضارة المادية من نقاط ضعف كبرى تمزّق العلاقات العائلية، وتقضي على الروح الإنسانية وتحرك الكوامن الحيوانية الغريزية دونما سيطرة.

ج. لايمكننا أن ننكر أنّ الكادر الإعلامي الغربي مدرك لرسالته ومنسجم مع حضارته، ويعرف بدقة ما هي واجباته بغضّ النظر عن مدى إنسانية هذه الرسالة وتلك الواجبات.

أمّا الكادر الإعلامي في العالم الإسلامي فالذي أظنه أنّه في الغالب بحاجة ماسّة لتفهّم الرسالة الإسلامية وأهدافها الحضارية وواجباته تجاه هذه الرسالة، وأظن أنّ أكبر نقاط الضعف التي ابتلى بها هذا الكادر هو عدم توفّر ذلك الفهم الكامل من جهة والتبعية العمياء لأهواء الحكومات المصلحية بل والعميلة أحيانا من جهة أخرى، ومن هنا فإنّ عليه أن يحرر نفسه من هذه القيود ويبدأ مرحلة جديدة تحكمها خطوط عمل أساسية مستمدة من معين الرسالة الإسلامية وفي طليعتها: ضرورة نشر الروح التغييرية الثورية التي يريدها الإسلام في النفوس فتجعلها مستعدة لتطبيق كل تعاليم الإسلام على كل شؤون الحياة.

د. أعتقد أنّ كلاً منا لايدرك الآخر وربما كان من الصعب أن نصل إلى قواسم مشتركة، وسرّ هذا الأمر أنّ مبانينا ومنطلقاتنا مختلفة تماماً؛ فالعالم الإسلامي يقوم على أسس تصورية لايؤمن بها الغرب والعكس بالعكس.

وكمثال على ذلك لنلاحظ الأسس التالية:

١. الفطرة الإنسانية: وهي وجود أصيل يسوق الإنسان إلى الحقيقة الإلهية بشكل طبيعي وبدونه يفقد الإنسان إنسانيته.

٢. الأخلاق الفاضلة: العدل، التعاون، الإخلاص للمبدأ وما إلى ذلك هي جزء لايتجزأ من إنسانية الإنسان.

٣. الإنسان الفرد والمجتمع محتاج لتنظيم شؤون حياته كلها إلى الله وإلى الدين والقيم في الحياة.

٤. التكامل البشري من مقومات الحياة الاجتماعية، والفوارق الطبقية العرقية، والقومية، والوطنية أمور منبوذة بشرياً.

٥. الغرائز الجنسية بحاجة لضبط عاقل يضمن قيام علاقات عائلية متكافئة.

٦. الاستغلال والاستعمار والاعتداء وتسخير مصادر الآخرين لمصالح ضيقة واحتلال أراضي الغير وإهانة المقدسات كلها أمور مرفوضة.

هذه بعض الأسس فهل نتفق عليها؟

المسلمون يقبلونها بشكل تام ولكن هل ينسجم معها الغرب؟ أستطيع أن أؤكّد أنّ الغرب قد لايدرك كنهها؛ لأنّها بعيدة عمّا اعتاد عليه مع الأسف.

نعم إذا استطعنا أن نصل إلى مستويات من التفاهم حول هذه الأسس وأمثالها فقد يكون من الطبيعي أن نصل إلى قدر مشترك من الفهم المتبادل لبعضنا البعض.

ولست متشائماً في تحقق هذا الهدف إذا توفرت النية المخلصة الموضوعية المطلوبة لمعرفة الحقيقة.

نعم إنني أعتقد أنّ البشرية جمعاء تسير شيئاً فشيئاً نحو مرحلة فناء النزعات الإلحادية والظواهر الإنكارية لله تعالى رغم إمكان تواجد بعض النتوءات الصغيرة دائماً.

وهناك علامات كبرى تشير إلى هذا الاتجاه الحضاري نستطيع أن نشير منها إلى ما يلي:

١. الاتجاه العالمي لإقرار حقوق الإنسان؛ فرغم أنماط الاستفادة السيئة من المنشور العالمي لحقوق الإنسان من قبل الدول الكبرى إلاّ أنّه يعبّر عن اتجاه معنوي نحو إقرار حقوق الإنسانية التي نادت بها الأديان. وأيّ إنكار للجانب الروحي والفطري للإنسان يفقد الإنسان أيّ ادّعاء للحقوق الإنسانية.

٢. الاتجاه العالمي للجماهير نحو الحلول الدينية بعد فشل كل الحلول المادية، أنّه اتجاه حضاري يحاول الماديون إنكاره ويعمل المستعمرون على كبته وخنقه والتآمر عليه إلاّ إنّه اتّجاه حقيقي؛ فالجماهير سواء في العالم الإسلامي أو في غيره أدركت أنّ السعادة الإنسانية إنّما تكمن في إحياء القيم المعنوية واستعادة وجودها في حياة الإنسان.

والأمر في العالم الإسلامي أوضح، فإنّ الجماهير الإسلامية اليوم تعمل على استعادة دور الدين في الحياة وهي تتوسل بكل الوسائل لإقامة نظام إسلامي للحياة رغم كل العقبات التي تقف في طريقها.

فالعصر اليوم هو عصر السيطرة الإسلامية في العالم الإسلامي، وهو عصر الاتجاه نحو المعنويات.

٣. الانهيار الهائل للنظام الإلحادي الشيوعي نتيجة مخالفته للفطرة الإنسانية، وهو ما أشار إليه الإمام الخمينى(رحمه الله) في رسالته التي وجّهها إلى غورباتشوف قبل الانهيار بأكثر من عامين، حيث قال له: إنّ الشيوعية مرشحة للدخول في متحف التاريخ؛ لأنّها تخالف الفطرة الإنسانية، ودعاه إلى الدين وبالخصوص إلى الدين الإسلامي؛ لأنّه الإشباع الحقيقي للجوعة الإنسانية. وهذا ما اعترف به غورباتشوف في خطاب الاستقالة حيث قال بأنّ الانهيار كان بسبب إنكارنا للنعم الإلهية.

وعلى أيّ حال فإنّنا نستبشر خيراً بعصر الدين والمعنويات. أمّا ما يقال أحيانا من أنّ الحكم الديني سوف يؤدي لاضطهاد الأقليات، فهذا أمر موهون؛ فإنّ القواعد الدينية الإسلامية توجب على الدولة احترام حقوق الأقليات ومنحها درجة المواطنة الكاملة وحمايتها من أي اعتداء، وتاريخ الإسلام شاهد على هذه المعاملة، رغم أنّ الإسلام لم يكن مطبقاً بشكل كامل إلاّ في فترات قليلة.

وتمتع الأقليات في الجمهورية الإسلامية الإيرانية اليوم بكل الحقوق شاهد على هذه الحقيقة.

إنّني أعتقد أنّ عودة الحكومات الدينية سوف يترك أثره الكبير على العلاقات الدولية، حيث ستسود روح التعاون المشترك لنشر الأخلاق الحميدة وتتم عملية تحريك الطاقات الإنسانية الكامنة وتقام الحياة على أسس متينة منسجمة مع الفطرة.

وإنّني لأنتظر عالما تسوده العدالة، والتعاون والمحبة الدينية، والتفاهم الموضوعي وهو ما بشّرت به كل الأديان وتمثّل في الإسلام بالاعتقاد بظهور المهدي القائد الذي سيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلما وجورا. ولهذا فإنّي أعتقد أنَّ البشرية يجب أن تستعدّ بل وتعمل على إقامة نظام ديني عالمي يحقق الأهداف السامية للبشرية.

وتساءلت المجلة عن«علاقة الدين بالحياة»، فأجبت:

من المسلّم به أنّ النظام الاجتماعي لايمكنه أن ينفصل عن الايديولوجية التي يحملها المجتمع (موضوع التطبيق لذلك النظام)، بل لايمكن تصور قيام نظام حياتي شامل دون أن يسبقه تحديد للموقف من الوجود والإنسان والحياة، أي دون أن تسبقه فلسفة معينة. وحتى الرأسمالية التي طرحت فكرة فصل المسألة الاجتماعية عن المسألة الواقعية لم تستطع مطلقاً أن تنجو من نظرة مادية خالصة للحياة.

وعليه فعندما يدخل الدين إلى الحياة فمعنى ذلك أنّه ينفذ إلى عمق الوجدان الاجتماعي ويغيّر القاعدة التي يقوم عليها النظام، ومعنى ذلك أيضاً أنّه ينفذ إلى كل المشكلات الحياتية فيغيّرها وفقاً لتصوراته (طبعاً إذا كان هذا الدين ديناً واقعياً واجتماعياً يطرح حلوله لكل المشكلات الاجتماعية).

ومن هنا أستطيع التأكيد على أنّ الدين إذا دخل إلى أي ساحة، عمل على تغييرها تغييراً جذرياً، وحاول أن يصوغ علاقاتها وسياساتها وفقاً لمنطق جديد.

وأخيراً تساءلت المجلة عن «توقّعي لمستقبل النهضة الإسلامية» فكان جوابي: انطلق في تصوري لمستقبل النهضة الإسلامية من أمور:

أوّلا: من دراسة سير التاريخ الإنساني الذي يتّسم رغم كل النكسات بالسير الصاعد لصالح الأهداف المعنوية.

ثانياً: من قناعتي باللطف الإلهي الذي يسير بالإنسانية نحو الكمال.

ثالثاً: من الوعود القرآنية القطعية بالنصر المؤكّد للحركة الإسلامية إذا صدقت مع نفسها وتحلت بكل الخصائص القرآنية.

واعتقد بعد هذا أنّ الغد أمام النهضة الإسلامية مشرق خصوصاً إذا لاحظنا ما تتمتع به عناصر النهضة من حيوية مبدعة، وإمكانات مادية معنوية، وإيمان جماهيري بمستقبل هذه النهضة وثقافة حضارية مضحية... وأعتقد أنّ كل من له بصيرة يدرك تماماً أنّنا على أعتاب عالم يسوده حكم القرآن الكريم.

عزيزي القارئ!

نقلت هذا الحديث الصحفي ليكون مقدمة لهذا الكتاب الذي أُعدّ ليكون داعية حوار إسلامي ـ إسلامي أوّلا، ثم لينطلق فيصنع حواراً إسلامياً مع الآخرين يوضح لهم مبادئه الإنسانية ويكتشف معهم نقاط الاشتراك ممّا يمهّد السبيل لتعاون إنساني يعود بالنفع على الإنسانية جمعاء.

الفصل الأول: الخطاب الإسلامي والعودة إلى الوسطية

إنا لا نعني بالخطاب الإسلامي هنا الخطاب التعليمي السطحي أو المعمّق، كما لانقصد به الخطاب الادبي والبلاغي، وإنما نريد به الخطاب الاعلامي الذي يلامس حس الجماهير، ويوجّه الرأي العام.

ولسنا بحاجة ـ كما نعتقد ـ للدخول في عملية تفلسف الخطاب وتحدد له تعاريفه وأقسامه وعناصره وضوابطه، فذلك امر يكاد يتّضح ببداهة لدى المفكّرين.

ومقاصد الشريعة واضحة فيه، وتتلخص في كونه يوصل الحقيقة للآخرين أو فلنعبر عنها بعملية ايصال الحقيقة من قبل الشاهدين عليها إلى الغائبين عنها كما قال ﷺ : «ليبلغ الشاهد الغائب»[1].

وللاسلام اسلوبه الرائع في الدفع نحو الحوار البنّاء الموضوعي، والمنطق، بشكل يعد نظرية متكاملة وسبّاقة في تاريخ الفكر الإنساني.

ولكننا نشعر بأدواء يبتلى بها الخطاب الاعلامي الإسلامي بشكل فضيع في عصرنا الحاضر مما يقعده عن تحقيق مقاصده. ولعلنا نستطيع جمعها تحت عنوان «التطرف المرفوض» والابتعاد عن «العقلانية» و«الوسطية» و«التوازن».

ولسنا بحاجة للحديث عن مدى التزام الإسلام بهذه الأمور، فهي ظواهر واضحة في تشريعاته، وضوحها في مفاهيمه وأخلاقياته[2].

---

١. رواه البخاري ومسلم والنسائي واحمد.

٢. راجع كتاب «الظواهر العامة في الاسلام» للمؤلف.

ومن الجدير ذكره أننّا لانريد بالخطاب الاعلامي ذلك الخطاب المتداول والمتدني احيانا إلى مستوى الاهتمام بالقضايا الجزئية والعادية وربما العامّية، بل ما نركز عليه هو إعلام المفكرين الإسلاميين الذي يخاطب عقول الأمّة وثقافتها ونهج حياتها ويحدد موقعها الحضاري البشري.

فمحاولتنا هي نقد ذاتي لحركة المفكرين الاعلاميين ودعوة إلى تحقيق الوسطية:

بين السطحية والتعمق التعقيدي.

وبين الاتجاه المتسرع المتهور والنفس التغييري الطويل.

وبين التخصص وعدم الاحتكار.

وبين الانغلاق والتأثر المفرط.

وبين التعصب والتنازل المبدئي.

وبين الرجعية والتقدمية المزيفة.

وبين الإفراط في التقييم واللامبالاة.

وكلها نماذج غير حاصرة لأدوائنا في الخطاب.

النقد الذاتي لحركة المفكرين الإسلاميين اليوم

تختلف النفوس والآفاق من حيث الموضوعية والسعة إلى حد كبير، فبين من لا يأبه لأي نقد شخصي مهما كان حاداً عنيفاً، وبين من تجرحه كلمة ناقدة مهما كانت موضوعية بنّاءة.

إلّا أنَّ نقد الحركة والاتجاه الفكري أمر طبيعي، وكثيراً ما يدعو الأفراد للتأمل واعادة النظر دون أن يصحب ذلك تأجج حماسي بليد، أو عاطفة جريحة ضارية تسدُّ السبل على التفكير الهادئ.. وتلك هي سنة الغضب الطافح عن حده.

وما نحاوله هنا هو تحريك حسّ النقد الذاتي لمسيرة الفكر الإسلامي السائد اليوم في عالمنا الإسلامي المعاصر، والذي يطالعنا بشكل كتاب أو مقال أو محاضرة تطرح منفردة أو تنضم إلى مجموعة نطلق عليها عنوان ندوة أو مؤتمر فكري.

على أنَّ منهجنا في هذا الحديث لا يتوجّه بالاتهام الصريح إلى الرموز الفكرية التي تطالعنا اسماؤها في هذه الصحيفة الإسلامية أو تلك، وإنما يطرح بعض الأمراض والنقائص التي

لايشك أحد في ماهيتها المرضية، ثم يترك للمفكر نفسه أن يتجرد من دوافعه الذاتية ـ والمفروض أنهّ يعمل مخلصاً في سبيل إعلاء كلمة الله ـ فينظر هل تمسه لفحة من هذا اللهيب، أو تدنّس ثوبه لوثة من هذا القتام؟

وقبل أن نطرح بعض هذه الانماط المرضية نسارع للتركيز على حقيقتين موضوعيتين هما:

الأولى: وجود بعض المفكرين الواعين الذين منحهم الله تعالى القدرة على التحليق الفكري المجرد، والاخلاص له ـ جل شأنه ـ الامر الذي جنّبهم الوقوع في المزالق وجعلهم مهبط الهداية الالهية.

الثانية: توقّع التغيير الشامل للحركة الفكرية الإسلامية، وانسجامها بالتالي مع التغيير الشامل الذي يسري كالعافية الالهية إلى أوصال عالمنا الإسلامي الكبير.. فنحن إذن إلى التفاؤل أقرب منا إلى التشاؤم.. بل إننا لنجدنا نأمل أملاً قريباً في طلوع اسلامي فكري مشرق، يغمر الارض نوراً بحوله تعالى وقوته.

أما وقد ركزنا على هاتين الحقيقتين، نودّ أن نستعرض ـ بما يتناسب وحجم هذا المقال ـ بعض نقاط الضعف، والحالات المرضية التي قد يبتلى بها الفكر، أو فلنقل يبتلى بها المفكرون.

وأولها ـ بكل صراحة ـ (التبعية المكممة للأفواه) والتي غالبا ماتتشخّص بشكل تبعية لذوي النفوذ، وهذه التبعية المقيتة قد تفرضها ظروف الطرف المسيطر، كما قد يلجئ اليها الضعف النفسي للمفكر، وحاجته الاقتصادية أو النفسية إلى مثل هذه التبعية.

ويمكننا أن نفترض لهذه التبعية من آثارالسوء الشيء الكثير، فقد تبدأ بعنصر المجاملة، وعدم التعرض لما يغضب، وتنتهي إلى عملية التزييف المتعمّد بعد أن تمتلئ البطون من الحرام، وتنتفخ الاوداج من دماء المقهورين.

وبين تلك البداية وهذه النهاية يمكن تصنيف الكثير الكثير ممّا يكتب أو يلقى في عالمنا الإسلامي وباسم الإسلام، والتربية، والتوعية!!

فهل فكّر بهذا الامر اولئك الذين باعوا أثمن جوهرة في الحياة وهي (الحياة المعقولة) للصغار التافهين، فراحوا يمتدحون جاهلا لايعقل ما ينطق ولايملك من مسوغات الوجود المسيطر.

نعم؛ لنتائج التبعية درجات، فمنها ما لا يتجاوز الإعراض عن ذكر ما يغضب،

والاقتصار على التوعية البعيدة عن تحريك أبناء الأمّة ضد الظلم، في حين نجد المظاهر الأخريتصل إلى حد التسويغ لما يفعله هؤلاء المسيطرون حتى ولو كان قد بلغ من الوضوح ما لم تبلغه الجريمة نفسها.

والعينة المرضية الأخرى ـ على الصعيد الفكري ـ هذا (التكرار الممض للفكر دونما ابداع وابتكار) لا في مجال الموضوع ولا على صعيد الحلول والاستنباط.. وانه لما يملأ القلب ألماً ألا نجد من يرفع الخطوة التالية لخطوة رفعها مفكر كبير هو المرحوم آية الله الشهيد الصدر[١] في المجال الاقتصادي، وذلك على الرغم من مرور نصف قرن على هذه التجربة من جهة، والحاجة الماسة إلى مثل هذه الخطى الفكرية الكبرى من جهة اخرى.

وأمامنا الساحة الفكرية، فلنسر فيها، ولنبصر هذه المظاهر، ونعمل بالتالي على ادانتها بأي شكل كانت.

أما نقطة الضعف الأخريوالتي تبدو للعيان فهي مسألة (عدم التعامل مع الواقع القائم) و(الابتعاد ـ إلاّ لماماً ـ عن المشاكل الواقعية للأمة) لعوامل كثيرة، منها ما سلف من عدم التعرض لما يغضب ذوي النفوذ، ومنها عدم الاحساس بألم الجماهير بعد تمام عملية التخدير، وغيرذلك.

وإلاّ فكم هي الكتابات التي نشهدها عن الأرضية المناسبة لتطبيق الإسلام كله في اطار وحدة اسلامية شاملة تتناسى الحدود والمصالح الضيّقة؟ وهل تتوفر الدراسات الكافية للمبادئ المنحرفة التي تسود عالمنا الإسلامي كالقومية الضيّقة، والماركسية، والأفكار الرأسمالية والعلمانية والهرمنوطيقيا والعولمة وغير ذلك، مع أنّها مشاكل يعاني منهاجسم الأمّة وفكر شبابها الناهض.

واستطراداً في هذا المجال نجد (الفراغ الهائل في الدراسات الجامعية الإسلامية) فأين هي المناهج التي تشبع هذا النهم؟ وهل استطعنا العمل على تلبية هذا الشوق الجامعي المتطلّع

١. هو الامام الشهيد محمد باقرالصدر، استشهد عام ١٩٨٠ في العراق على يد مجرمي نظام صدام البائد، وافكاره المبدعة في الفقه والفكر والسياسة لاتخفى على احد، له: اقتصادنا، فلسفتنا، دروس في اصول الفقه، الاسس المنطقية للاستقراء وغيرها.

للاسلام وهو واقع قائم لاشك فيه، فماذا نحن في قباله فاعلون؟ وحتى التجارب التي طرحت لأسلمة الجامعات جاءت ناقصة مبتلاة البوزوفيتية وبالاثباتية المستوردة دون ملاحظة عدم انسجامها مع واقعنا الإسلامي.

واذا أردنا أن نستمر في عرضنا لنقاط الضعف فإننا سنجد أمامنا قائمة طويلة ملأى بها وكلها ممّا لايمكن غفرانه.

إننا سنجد أمامنا مثلا: ضعف العرض وقلة التجديد في ذلك، وإهمال مسألة الاثارة الحماسية القائمة على أساس الفكر الأصيل، وهي جانب قرآني أهملناه في بحوثنا، وغير ذلك كثير.

ونعود فنكرر ماقلناه آنفا من أنَّ هذه الآفاق قد تكون غير عامة ولكنها ـ على أي حال ـ تمتلك مواقعها في وجودنا الفكري، الأمر الذي يتطلب نقداً ذاتياً موضوعياً يقوم به كل فرد، وكل مجموعة، مستهدفين القيام بالواجب الالهي التاريخي، عاملين على المواكبة ـ على الأقل ـ لمسيرة تطلعات الأمّة، والتي تطوي المسافات الطويلة لتقع عل الهدف الكبير حيث يكون الدين كله لله، وفي الارض كل الارض بعونه تعالى، والله على كل شي قدير.

الفكرالإسلامي بين السطحية اللامباليةوالتعمّق اللاطبيعي

ولكي نتجنب التعقيد في حديثنا علينا أن نوضح اصطلاحي (السطحية اللامبالية) و(التعمّق اللاطبيعي) إلى الحد الممكن.

فالاصطلاح الأول، يعني محاولة اخذ الأمور بظواهرها، وعرضها على الفهم العرفي العادي، والتغاظي عن كل تساؤل يطرح حولها ويتطلب غوراً في اعماق النفس الإنسانية أو التعقيدات الاجتماعية لتتسنى الاجابة عنها.

أمّا الثاني، فيكاد يكون على العكس من الأول، إذ يعني التأمل الدقيق في كل حركة وسكنة، والعمل على فلسفتها والانطلاق ولو بمناسبة خفية جداً، إلى آفاق قد لا تكون قد خطرت في ذهن من طرحوا تلك الأمور أو قالوا تلك الأقوال.

واذا كان الاتجاه الأول يستبطن بساطة في النظرة، واستهانة بالمشكلة، وتصغيراً للفكرة، وفصلاً لها عن مبانيها وأسسها الحقيقية، فإنّ الاتجاه الثاني يتضمن بدوره اغراقاً لامسوغ له أحيانا، وخصوصا في المجال الاعلامي لا العلمي، وتصوراً مغلوطاً للفهم العرفي، على

أساس أنَّه فهم لمجتمع يكوّنه الفلاسفة والعقلاء الألمعيون قاطبة، وتحميلاً للفظ أو المشكل لما لامسوغ له.

والمستعرض لأساليب البحث في شتّى أنماط الفكر الإسلامي ومدارسه اليوم، يجده في كثير من الحالات قلقاً بين المنهجين آنفي الذكر، الامر الذي يبعده نوعاً ما عن الحقيقة، وبالتالي يفقده القدرة على توجيه ابناء الأمّة الوجهة الصحيحة وايجاد الوعي الجماهيري المطلوب كمقدمة لنهضة هذه الأمّة، وتحقيق آمالها العريضة،و بهذا يعود فكراً حكراً على المتفلسفين والعلماء، أو مبتذلاً سطحياً لا يأبه به من له إلمام بالثقافة الإسلامية والعلوم الإنسانية.

واذا تأملنا في طبيعة الافكار الإسلامية، والمنهج الذي يتعامل به التصور الإسلامي مع المشاكل الإنسانية، وجدناه منهجا متوازناً مرناً يسير مع الفهم الفطري العرفي من جهة، حتى ليتصوّر الإنسان القرآن الكريم كتابا يقرؤه كل الناس، ويفهمه كل الناس، وتتعامل معه مختلف الفئات على اختلاف مستوياتها، ولكنه ـ في الوقت نفسه ـ يتسامى في معانيه، ويبلغ شأواً بعيداً من العمق، حتى لتحار في ادراكه أعظم العقول.. وربما اراد القرآن الكريم أن يعبر عن معاني ضخمة في عالم الغيب ويوصلها إلى الأفهام فيجدها ـ أي الأفهام ـ قاصرة عن الاستيعاب المباشر، ولذا فهو يعمد إلى التشبيه، ولكن لما كان التشبيه عاملاً ايجابياً في تقريب المعنى، وعاملاً سلبيا لما قد يؤدي اليه من ايجاد تطابق بين المشبَّه والمشبَّه به، فإنَّ الآيات الشريفة تطرح فكرة إرجاع المتشابهات إلى الآيات المحكمات التي لا تتخللها دلالة ظنية، لكي يتم لعملية التشبيه أن تحقق دورها التقريبي دون أن يصاحب ذلك أي تصور منحرف... وربما كان هذا بعض أهم التحليلات لفكرة وجود (المحكم والمتشابه) في القرآن الكريم.

هكذا إذن يتّسم التعبيرا لإسلامي والمنهج الإسلامي في التعامل الفكري بصفة التوازن بين الوضوح والعمق، فهل وعى الفكر الإسلامي هذه الحقيقة؟

إنَّ على الفكرا لإسلامي أن يتصور تماماً أنّ التصوّر الإسلامي تصوّر جامع يربط بين كل أجزاء الكون في عملية متناسقة لتحقيق هدف واحد، ويربط بين كل مكونات الفطرة الإنسانية في شكل متسق لتحقيق هدف الخلقة الإنسانية، ويربط بين كل مكونات التشريع الإسلامي في وحدة رائعة لتحقيق الهداية التشريعية للإنسان. ومن هنا فلا يمكن أن نتعامل

مع المشاكل الإنسانية المطروحة ببساطة التلميذ، وسذاجة البدوي، وسطحية العامل البسيط، فنتصوّر هؤلاء جميعاً أهلاً للتعامل المباشر مع النصوص الإسلامية للوصول إلى واقع التصوّر الإسلامي عن الكون، والحياة، والتاريخ، والإنسانية، وأحكامها التشريعية، نعم، لايمكننا أن نمر على مشاكل كبرى كمشكلة (الجبرية) و(الارجاء) و(المعاد الجسماني) و(العدل الالهي) و(الصفات الالهية) و(النظام السياسي) وأمثالها من آلاف المشاكل التي تطرح وتتطلب الحلول والمواقف الصحيحة، لايمكننا أن نمرّ عليها مرور الكرام، وأن نتعامل معها بسطحية لامبالية، وكأننا أمام مسألة رياضية بسيطة، ثم نسخر من كل اولئك الذين أضاعوا أعمارهم في التماس الحلول ووضع التصوّرات المعقدة لها.

إنَّ هذا في الواقع يعني انفصالا عن الحقائق الكبرى، ويعني استهانة غير طبيعية بالفكر الإسلامي الأصيل. بل وربما راح ينفي أصل التأمل والتدبر، وهما من أول ما يأمر به الإسلام.

إلاَّ أنّنا نلاحظ في الطرف المقابل اتجاهاً مضاداً يعمل على إدخال المفاهيم الإسلامية الواضحة في قوالب فلسفية معقدة تحول الثقافة الإسلامية إلى ثقافة الفلاسفة، والمجتمع الإسلامي إلى مجتمع العباقرة، متناسية الواقع القائم، والوضوح الفطري في الافكار، وان الإسلام يراد له أن يستقرَّ في وعي الجماهير ليصوغ لها حياتها كلها، ويسير بها نحو الكمال.

ولن نحاول هنا أن نضرب الامثلة على هذا الاتجاه، فهو واضح لمن يتأمل في أنماط من التفسير العلمي المغرق للحقائق القرآنية والتي تجعل القرآن كتاباً لتعليم العلوم الطبيعية، وفي أنماط من التفسير العرفاني المغرق والتي تحوّله إلى كتاب لتامُّل العرفاء لاغير، وفي أنماط من التفسيرالفلسفي المغرق إلى الحد الذي يظهر فيه وكأنه كتاب مؤلف من رموز فلسفية لاتفهم إلَّا بعد عمر طويل.

وخلاصة ما نريد تحقيقه من هذا الحديث، أنّنا ندعو إلى تحقيق التوازن الذي تركّزه كلمتا (البيان والحكمة)، فلا نغرق في التعامل مع الظاهر متناسين أنَّ الظاهر لا يتحمّلها.

وليس حديثنا هذا مقتصراً على تفسير الآيات أو شرح الاحاديث، وإنّما يعمّ كل تعامل فكري مع المشاكل والتساؤلات المطروحة، فإنَّ الملاك واحد في كل هذه الأمور، والمنهج واحد في شتّى أنماط التعامل الفكري الإسلامي.

فاذا ركّزنا على النظام السياسي الإسلامي ـ مثلا ـ وجدنا أنَّ الاكتفاء ببعض التعبيرات العامة، كالشورى والعدالة، واعتبارها كل المضمون السياسي، يعدُّ أمراً سطحياً بلا ريب بعد معرفتنا لمشاكل الحكم ودوره الأساس في الحياة، في حين أنّنا إذا رحنا نتطلّب من النصوص الإسلامية أن تعطينا تصوّراً مباشراً لموقف الإسلام المحدد من جميع التعقيدات والتفصيلات الدقيقة في التشكيلات السياسية الحاضرة، وتشرحها بالتفصيل، فإنا نكون قد حمّلنا النصوص مالا تتحمّل، فقد تكون هذه التعقيدات في حلولها موكولة إلى خبرة ولي الامر ومايراه عبر الشورى من مصالح.

والحقيقة، أنّنا نجد الخطين الآنفين يتجلّيان في مجال البحوث العقائدية بشكل واضح، وخصوصاً مسألة (الصفات الالهية) وأمثالها، الأمر الذي يجرّ إلى إفراط وتفريط، وكلاهما مضر بالصورة الإسلامية النظيفة التي يراد توعية الأمّة بها.

الثورية بلا إيمان سراب

وهذا الحديث نوجّهه إلى كل من يخفق قلبه بالثورةوالتغيير، ويتلظّى بنار الظلم والكبت، ويعمل لمقارعة الاحتلال والطغيان. وكل ما نرجوه هوالتفكير في خلق السماوات والارض وفي خلق الأنفس وفي الهدف الحياتي المتعالي، عسى أن نكون قد ساهمنا في طرح قضية إنسانية مهمة على صعيدها الفكري (الايديولوجي) والعملي.

ولسنا في هذا نخاطب الأفراد فقط ـ وان كانوا معنيين بكل دقة ـ وإنّما نركّز على تلك النظم والحركات والجبهات التي نعتقد أنَّ هناك الكثير الكثير منها ممّن هو صادق في طلبه للحياة الأفضل، ومن هو مخلص مع إحساسه بالظلم والكبت والجبروت ولزوم الثورة عليها.

ماذا تعني الثورية؟

الثورية ليست منهجا محضاً كما يتصوّره بعضهم، ولذا يطلقون على كل عمل (يتسم بالعنف، ويخرق القوانين المتداولة، ولايبالي بكل العواقب) صفة الثورية، ويظنون أنها ما هي إلّا عمل أهوج يقوم به حاطب ليل، كما أنها ليست هدفاً متعالياً محضاً كما يتصوّره الاخرون، فيرون كل فرد استطاع أن يقدم أهدافاً لأمة فيها بريق الحرية والعدالة والمساواة، ويعد

البشرية بمستقبل افضل، هذا الفرد هو رجل الثورة، دون نظر إلى مدى وضعه وتنفيذه للخطة التي تسيِّر به نحو تلك الاهداف. وإنما الذي نتصوّره من خلال القراءة والفعل الوجداني للثورية هو: أنَّ (الثورية) هدف ونظرية متعالية من جهة، واسلوب تغييري جامع لتحقيق ذلك الهدف والنظرية السامية من جهة أخرى. ونحن وإن كنا نفضل استعمال مصطلح المنهج التغييري فقد جارينا الشائع في الاستعمال.

وصدق من قال:

المتعامل بلا هدف هو حاطب ليل.

وأنّ الهادف بلا عمل طوبائي حالم.

والثورية بمعنى التغيير المحوري ـ كما يبدو من التامل في التعبير السابق ـ ليست بلا ضوابط، أو حركة ضد الضوابط.. كلا، وإنما نعتقد أنَّ الثورية هي المجال الأهم لعمل هذه الضوابط؛ فماهي اذن؟

أنَّ ما نتصوّره من ضوابط يمكن أن تلخص فيما يلي:

أولاً: على صعيد الهدف النظري يجب أن تتوفر العناصر التالية:

أ: الفطريةالإنسانية.

ب: الشمول.

ج:التكامل.

ثانياً: على صعيد العمل يجب تحقيق العناصر التالية:

أ: التغيير المحوري.

ب: الشمول والتنسيق.

ج: الواقعية.

د: العلو على الواقع.

ولمزيد من التوضيح نقول:

إنَّ الهدف يجب أن يكون إنسانياً بلا ريب، وانسانية الإنسان تحددها شخصيته الإنسانية العامة التي يشترك بها أفراده جميعاً والتي بها يتميّز العمل الإنساني عن غيره، وهي المعيار في

تقدّمية الفرد أو الفكرة ورجعيته أو رجعيتها. فما هي هذه الشخصية العامة؟ إنّها لا تعدو ما تعبر عنه النصوص الإسلامية بالفطرة، أي ما فطر عليه الإنسان وعجنت به طينته بما يميزه عن باقي الموجودات. ومهما حاولت النظريات المشوهة، ومهما أنكرالمنكرون، وبالرغم من كل تلك التصورات التي تنتهي بالإنسان إلى حيوانية وضيعة فأن الفطرة هي التي اعطته شخصية متميزة عن غيره وأهّلته لصنع الحضارة والتطور، في حين بقيت مجتمعات الحيوانات (اذا صحت تسميتها بذلك) كما هي منذ ظهرت لحد اليوم، ونحن مطمئنون لبقائها كذلك (ولايعني هذا نسيان التغييرات الطفيفة والعضوية في تشكيلها وبنيتها).

ومن هنا فإنَّ أي رفض للفطرة يعني رفض الوجدان الإنساني، وكل تعارض مع الوجدان مصيرة إلى الزوال والرفض لا محالة.

فاذا عدنا إلى الفطرة وجدنا أنَّ الذي يؤمن بها ينحصر في اطار التصور الديني، فلايمكن بأي حال من الاحوال أن تنسجم (المادية) و(الإيمان بالفطرة). وهذه أمامنا كل النظريات المادية فلنستقرئها وحينئذ سنجد أنها تنكر الفطرة لا لشيء إلاَّ لأنّها جعلت المعايير المادية هي الحكم الوحيد على الفكرة، والفطرة ليست ممّا يقاس بالمعايير المادية.

إنَّ الفطرة بما تحمله من معالم عقلية، وعملية، وخلقية، ودوافع أصيلة وإمكانات تركيبية هي الجو الطبيعي الذي يمكن أن يعرف فيه مدى صحة أيّة رؤية، أو تصور بطلانها، ومدى تقدّمية أية فكرة ورجعيتها، وأنّى تسير مسيرة نحو التكامل، وبالتالي مدى ثورية أية فكرة أو عمل.

هذا عن الفطرية، فماذا عن الشمول؟

الحقيقة هي أننا نعني به كون الهدف ناظراً لمستقبل الإنسانية جميعاً، وعاملاً على تحقيقه كأفضل مايكون، متناسياً كل مصلحية ضيقة، أو امتداد عرقي ضيّق، أو تعلق جغرافي وهمي، أو ارتباط زمني اعتباري، ذلك أنَّ الوجدان والفطرة يشهدان بوحدة المستقبل، ويدفعان لتحقيق هذه الوحدة، ويحمّلان الإنسان مسؤولية العمل لها. وهذا الاحساس الوجداني هو الحافز لاندفاعه نحو العدالة ونفوره من الظلم، وعطفه على الآخرين، وهو سر إطلاقنا العفوي على كل عمل يخدم المجموعة صفة (الإنسانية).

(فالشمول) إذن معلول (للفطرية) وليس نّداً لها،وكذلك التكامل.

أما (العمل) الثوري فإنه لن يكون صادقاً مع ذاته وصفته إلاّ اذا ركّز على محورالبناء الاجتماعي واستهدف تغييره، وهذا يعني الإيمان بالترابط البنيوي للمجتمع، وأنَّ هناك جوانب يترك تغييرها أكبر الأثر على الجوانب الاخرى، كأن نقول: إنَّ نوعية التغيير السياسي تنعكس كأشدّ ما تكون تأثيراً على الجوانب الاجتماعية الاخرى، كما يعني أنّ العمل الثوري يوجّه الخطى كلها نحو هذه النقطة ويعمل عبر هذا الايحاء المركّز، وحتى لو أنه أقدم على إصلاح في جانب من الجوانب القائمة على محور فاسد فإنه يقدم على ذلك بهدف تغيير المحور المذكور، وهذا ما كنا نقصده من الشمول والتنسيق.

أمّا الواقعية: فنعني بها ملاحظة الواقع وعدم الغرق في طروحات طوبائية لا تاخذ الواقع الفطري الإنساني الأصيل، والحاجات الإنسانية الصادقة والاشباع المتناسب العادل لتلك الحاجات، وكذلك الظروف الزمكانية الطارئة للمجتمع مادة للتغيير.

أما الصفة الاخيرة التي اشترطناها في العمل، وهي العلو على الواقع، فهي لازمة من لوازم التغيير، والا فاذا كان الإنسان أسير تصوره التجريبي الانعكاسي الذهني بحيث لاتنعكس في ذهنه إلا ايحاءات الواقع الذي يعيش فيه، ولايجول إلا بين هذه الايحاءات، بل وربما يمنح هذه الايحاءات صفة الثبوت والجمود والاطلاق، فإنه حينئذ لن يستطيع أن يبصر حالة وتركيباً أسمى حتى يعمل على تحطيم هذا التصميم القائم لتحقيق التصميم الاسمى المذكور.

ومن هنا فإنّ الإنسان هو الذي يعلو دائما على واقعة، ويعمل على النظر اليه من عالٍ ومقارنته مع الصورة الايديولوجية التي يملكها كقاعدة لمجموع الحياة، وبالتالي على تحطيم الجوانب اللامنسجمة وتغييرها إلى الصورة والجوانب المثلى.

وبدون هذا العلو قد يستطيع الإنسان أن يحطم واقعاً لهدف السيطرة عليه، إلا أنه سوف يكون ـ كما قلنا ـ حاطب ليل في اسلوب عمله.

دور الإيمان بالله في تحقيق هذه العناصر

وبغضّ النظر عن الأسس الفطرية التي يملكها الإيمان والدوافع الواقعية للمعرفة الالهية، وما تفرضه الفطرة من لزوم التعرف على المنعم والمولى الحقيقي، والقيام بحق العبودية له، بغضّ النظر عن كل ذلك فإنَّ الإيمان بالله تعالى يوفر للإنسان كل العناصر الثورية اللازمة،

سواء على صعيد الفكر أم على صعيد العمل، ذلك إنَّ الإنسان المؤمن على يقين من وجود خط طبيعي إنساني تقود الفطرة الإنسان فيه نحو مراحله المتعالية، ومطمئن بأنَّ المطلق الذي يرتبط به ليس مطلقاً وهمياً صاغه قصوره الذهني ووعيه الاجتماعي ليكون هذا المطلق الوهمي يوما ما قيداً على تطوّره الحضاري، بل إنّه المطلق الحق المستجمع لكل صفات الكمال، وحينئذ فإن المسير اليه متواصل، بل كلما تم القرب منه تعالى ازدادت نعمة الله عليه، فالخطوة اليه يقابلها ميل من العودة الالهية على العبد بالرحمة ـ كما تؤكد ذلك النصوص الكثيرة ـ فالمسيرة صاعدة مسرعة ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾[١].

ومن الطبيعي أنّ الاعتقاد بالوحدانية الالهية، وأنّ الجميع بالنسبة إلى الله تعالى على حد سواء، وأنّ الخلق يستهدف كله هدفا واحدا، ويحمل مسؤولية واحدة؛ من الطبيعي أن يترك هذا الاعتقاد على حركة المؤمن أكبر شعور بالشمول الإنساني في الهدف من تحركه.

وبالمستوى نفسه يترك الإيمان بالله أثره على العمل الثوري ليعود المؤمن حركية ثورية واعية في اطار مسيرة يعلم منطلقها ويبصر هدفها (تماما كعملية السعي الرمزية في فريضة الحج الكبرى)، فهو ينطلق اولا من مركز وجوده الفردي (الروح) و(النفس) فيغيّره التغيير الشامل، ثم ينطلق إلى الساحة الاجتماعية لا مغيّرافحسب بل يقف في طليعة المغيّرين (واجعلنا للمتّقين اماماً) متّجهاً إلى مركز الباطل، ضارباً إيّاه، معيرا الله جمجمته، عالماً أنّ النصر من عند الله يؤتيه من يشاء من عباده، مطمئناً من حسن النتيجة فهي احدى الحسنيين (النصر أو الشهادة)، مقتحماً كل العقبات والآلهة الوهمية من المال والولد والمقام، مضحّياً بالمصالح الذاتية في سبيل المجتمع والمصالح العامة، شاعراً كل الشعور بالمسؤولية الداخلية (بينه وبين ربّه)، منسجماً مع توجّهه الفطري كل الانسجام في خدمة الإنسانية دائماً وأبداً.

وبهذا يتحول الإنسان المؤمن إلى ثوري بكل معنى الكلمة: رؤية فطرية واضحة، وشمول في الرؤية يتجاوز الذات الضيقة، وسعي تغييري ذاتي واجتماعي يركّز على صميم المشكلة دون أن يتناسى أطرافها، ويأخذ الواقع بعين الاعتبار بالرغم من علوّه عليه وسعيه لتغييره إلى الوضع الأفضل.

---

١. فاطر: ١٠.

أسس الثورية الوهمية أو الناقصة:

والذي نعتقده أنّ البشرية جرّت جرّاً إلى ثورية مادية دون أن تشعر في أغلب الأحيان بأنّها طريق مسدودة لاتنقذ صاحبها من سجنه، ذلك أنّها من جهة وجدت نفسها ـ كموجود مكرم ـ تعيش في اقصى درجات الذل والمهانة والاستعباد والاستغلال، تنهشها ذئاب تنتمي لفصيلتها، وتشرب دماءها وحوش لا تسمى بشراً فحسب بل تعتبر نفسها مثل الإنسانية السامية وتنظر للآخرين أناساً عبيداً وهمجاً رعاعاً ودهماء لاتريد إلّا العلف والعنف. نعم وجدت البشرية نفسها كذلك، في حين كانت تستصرخها طاقات الخير والعدل الكامنة في أعماقها وتستحثها نحو النور.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن المسؤولين أو القيمين على الشؤون الدينية كانوا قد تحولوا ـ وخصوصا في أوروبا ـ إلى حاشية في بلاط السلطان وأداة بيد الملوك الاقطاعيين إلى الحد الذي صرخ فيه أحد الثوار بأنّ عليه أن يشنق آخر قسيس بأمعاء آخر ملك! وغرقوا في الخرافة، الامر الذي لم يدع للجماهير فرصة التفكير بالخلاص عن طريق الدين، وهو في الواقع طريق الخلاص الحقيقي.

وهنا كانت الفرصة سانحة لبعض أصحاب الدعوات المادية لطرح دعاواهم والمتاجرة التاريخية بشعارات الثورة والعدالة والإنسانية، ممّا ظن معه المحرومون أنَّ الخلاص يكمن في هذه المادية، بل ظن بعضهم أنَّ المادية تعني الخلاص، وأنَّ الإيمان يعني الرضوخ للظلم والاستعباد. وكانت الردة العظيمة، وانتفخت الأوداج المادية، وتصوّرت البشرية أنها ستصل إلى الجنة الشيوعية الموهومة أو الفردوس الرأسمالي الحر الكاذب خلال سنوات.

ولكن سرعان ما انكشف الوميض عن نار لاهبة أحرقت الاخضر واليابس، والفيت قطعان الغرب لاهثة تسعى نحو ملجأ وملاذ.

أمّا الاسس التي طرحتها المادية للحركات التحررية فيمكن أن نجعل من أهمها: الوطنية الجغرافية، القومية العرقية، المصالح المشتركة، التاريخ، وغير ذلك.

وعلى الرغم من أنّ كلاً من هذه الأسس يمتلك قدرة نسبية على التجميع والتحريك العاطفي، وربما التحريك التعصبي الوهمي، إلّا أنّها:

أ: لايمكن أن تشكّل أي منبع لتلك النظرية الثورية ذات الروح الفطرية والشمول، أو لذلك العمل الثوري بأبعاده المذكورة آنفاً؛ وبالتالي فهي تفقد الدوام الثوري المطلوب، إذ سرعان ما تتحول إلى حركات شخصية أومصلحية تستغلّ لصالح هذا المعسكر المستعمر أو ذاك، فتنفّذ أغراضا امبريالية ولكن بصيغة ثورية، وهذا ما قد ينطبق على الاحزاب القومية ضيقة الأفق ـ مثلاً ـ في عالمنا الإسلامي.

ب: لاتملك ما يضمن تحقيق مسيرة حضارية صاعدة ثورية ومتقدمة، فهي تربط الإنسان بآلهة وهمية مزيفة جرّدها الإنسان ـ نفسه ـ من نسبيتها وأضفى عليها صفة الاطلاق وراح يعبدها ويجعلها معياراً لمسيرته، وحينئذ فسوف تشكل ـ بلاريب ـ قيداً على المسيرة بعد أن كانت وليدة ظرف خاص.

كما أنّها لاتستطيع أن تحقق عنصر المسؤولية الداخلية وتدفع للتضحية بمصالحة الذاتية في سبيل المصالح العليا، وهو شرط القدرة على التغيير الثوري الشامل. وخلاصة الامر؛ أنها لاتستطيع أن تمنح الإنسان تغيراً روحياً ضرورياً للقيام بدوره الحضاري المطلوب.

ج ـكثيراً ما تؤدي إلى التمزيق بدلاً من التوحيد والتحشيد، ذلك لأن هذه الأسس الموهومة كثيرة المصاديق ومتعدّدة الاتجاهات ومتكثّرة في التعريف، ومتناقضة في أحيان أخرى، خصوصاً إذا لاحظنا أساس المصالح المشتركة، فإنَّه بعد التأمل لايبقى لنا أساس يركن اليه الجميع فيكتلهم للثورة، على أنّها اهداف وضعية سرعان ما ينتبه الوجدان والفطرة اليقظان إلى تفاهتها وسخفها، الأمر الذي يدفع الإنسان للتخلي عن تحركه الثوري وربما في منتصف الطريق.

ويشتدّ هذا التناقض اذا أريد لهذه الأسس أن تصنع جيلاً ثورياً في عالمنا الإسلامي بعد ملاحظة تنافيها الواضح مع أسس العقيدة والنظام الإسلامي، الأمر الذي يدع المقاتل الثوري قلقا بين ما يؤمن به بشكل أولي، وما عليه أن يفعله وهو ينتمي إلى هذه الحركة غير الإسلامية.

ومن هنا نفسّر ما جاء في البيان الصادر عن المؤتمرالقطري التاسع لحزب البعث العراقي المنعقد في بغداد في حزيران ١٩٨٢ من توجيه نقد لاذع لبعض البعثيين العراقيين الذين تصوروا إمكان الجمع بين انتمائهم للاسلام وانتمائهم لحزب البعث (العربي الاشتراكي)

فراحوا يمارسون بعض الطقوس الدينية، الأمر الذي عرضهم لهذا النقد اللاذع، حيث قال البيان المذكور آنفاً بالحرف الواحد:

(ان انتشار هذه الممارسات بنسبة معينة خلق حالة من البلبلة في صفوف الحزب ونشأ جدل بين الحزبيين حولها وصار بعضهم في حالة من الحيرة ازاء هذه المسألة.

هل على الحزبي لكي يكون بعثياً جيداً أن يمارس الطقوس الدينية بصورة مفتعلة؟) ثم يضيف: (وقبل ذلك علينا أن نتساءل: اذا كانت مفاهيم وممارسات التدين قد اعتبرت من قبل بعض الرفاق بديلا أخلاقياً أو عقائدياً عن حزب البعث العربي الاشتراكي وسبيلا لحل المسائل الجوهرية في الحياة فلماذا اختاروا حزب البعث العربي الاشتراكي؟!)

الرأي القرآني الفصل:

ومهما كان موقفنا من الحياة فإنّ أحداً لايشك في أنَّ الانبياء: كانوا قادة تحركات حضارية كبرى تركت أكبر الآثار الثورية على حياة الإنسانية. هؤلاء الأنبياء كانوا يركّزون في دعواتهم على محورين أساسين هما: (عبادة الله، واجتناب الطاغوت) وذلك وفقاً للآية الشريفة: وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[1].

أما الالحاد أو الشرك فلا يمكن معهما تحقيق التحرك المطلوب والعمل النافع ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾[2].

ويقول تعالى في سورة العصر: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[3].

فهم وحدهم القادرون على تحقيق النجاح على المدى الإنساني.

ولسنا بصدد بيان نظرية العمل الثوري في القرآن الكريم بقدر ما نريد التاكيد على أنّه

---

١. النحل: ٣٦.

٢. النور: ٣٩.

٣. العصر: ١ـ ٣.

يركّز على ضرورة عنصر الإيمان في كل عمل تغييري ثوري تماماً كما يركّز على أنَّ المؤمنين والانبياء عبر التاريخ كانوا في طليعة الثّوار صلابة وطهارة وعملاً على التغيير الشامل.

يقول القرآن بهذا الصدد: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[١].

ويقول: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾[٢].

ويقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[٣].

ويقول أيضا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾[٤].

فالهدفية والإيمان هما إطار العمل الثوري في التصور القرآني.

اللاموضوعية

يجد المرء ظاهرتين غريبتين في مجال من يعطون رأي الإسلام في مسألة أو موضوع من المواضيع. ولئن عبّرت إحدى هاتين الظاهرتين عن جهل وتعالٍ على الواقع فإن الأخريتعبّر حتما عن عدم التفات للعواقب السيئة التي تترتب عليها.

أما (الظاهرة الأولى) فهي ما نطالعه أحيانا في بعض الصحف والمجلات واسعة الانتشار وحتى ما نلاحظه في أماكن التجمّع العامة من قيام بعض الكتّاب البعيدين عن الاطّلاع على الأحكام الإسلامية ومصادرها التشريعية، قيامهم باعطاء رأي في بعض القضايا ناسبين ذلك الرأي للاسلام، ومستشهدين برواية (أو روايتين) مدّعين أنّها تدل على المقصود.. ولقد استشرى هذا الداء حتى رأينا بعض الخارجين على العرف الديني من أمثال اصحاب

١. القصص: ٥ و ٦.
٢. آل عمران: ١٤٦.
٣. السجدة: ٢٤.
٤. الصف: ٤.

المجلات الخلاعية يحاولون أن يعطوا رأي الإسلام للناس! وأخيراً فقد طالعنا بعض الآراء البعيدة عن روح الإسلام والتي أبداها بعض الرياضيين المشهورين أو بعض الحكام العسكريين البعيدين عن عالم الفتوى والتشريع!! وكلٌّ منهم يصرعلى أنَّ هذا هو رأي الإسلام الذي يجب أن يطبق..

وحتى بلغ الأمر ـ وشرّ البلية ما يضحك ـ أنَّ أحد رؤساء الولايات المتحدة الأميركية هو الآخر أدلى بدلوه، وصار يصنف المسلمين، بل ويعلن أنَّ هذا الأمر ـ مثلاً ـ يتطابق مع الإسلام أو لا!!!

والمفارقة العجيبة هي أنَّ الذين أشرنا اليهم آنفاً ينادون بالتخصص وفصل الدين عن المجالات الأخرسياسية كانت واقتصادية، ويعترضون على تدخل العلماء في شؤون السياسة وغيرها، ولكنهم سياسيين كانوا أو عسكريين يسمحون لأنفسهم باعطاء الآراء والتدخل في شؤون الدين.

وعندما يعترض على أمثال هؤلاء بأنّهم ليسوا بأهل لذلك، يتعللون بحجة أنَّه ليس الدين وقفاً على احد وأن الإسلام جاء لجميع الناس، وأنه ليس في الإسلام طبقة خاصة تدعى برجال الدين وما إلى ذلك.

والموقف من هذه الفئة واضح للواعين، ويجب أن يكون واضحا للجميع وألّا فالخطر الشديد يهدّد مصيرنا ويدفعنا إلى تصوّر اسلام لا يمتّ إلى الواقع بصلة.

إنّنا نقول: نعم ليس الدين وقفاً على أحد، وكذلك فانه ليس في الإسلام طبقة خاصة تدعى بـ(رجال الدين) كما هو الامر في المسيحية الكنسية، كل ذلك صحيح، ولكن أين هي الموضوعية؟

أليست الموضوعية تقتضي منا أن نقوم ـ قبل إصدار أي حكم أو التعبير عن أي رأي من آراء الإسلام العظيم ـ بمعرفة مصادر التشريع والاطلاع على اسلوب الشارع والتفقه في النواحي الدينية ومعرفة كل ما يتوقف عليه الاستنباط، وذلك ليس بالأمر السهل الهيّن خصوصا ونحن نبتعد عن عصر التشريع بقرون، ومع هذا فلن يستطيع أحد أن ينكر أنَّ مقام اصدار الرأي يتطلّب مستوىً رفيعاً وخبرة تخصّصية، وملكة وقدرة على استنباط الرأي الإسلامي وتحديد نوعيته، وهذه الملكة لاتتوفر طبعاً لأيٍّ كان.

إنّ أولئك الذين يقومون بهذا يكشفون عن جهلهم وتعاليهم عن الواقع بعملهم هذا إن لم نقل أنّهم يكشفون عن لامبالاة بالدين واستهتار بأحكامه، وانحراف عقائدي ـ بالتالي ـ عن خطه المستقيم.

و(الظاهرة الغريبة الاخرى) التي نعتبرها أحيانا أخطر من سابقتها ـ وذلك لأنها متفشّية بين من يفترض فيهم أن يكونوا الفئة المتخصصة في هذا المجال ـ هي مانشاهده كثيراً من قيام بعض من تسنّموا مقام الفتوى، أو أشرفوا على البرامج الدينية في بعض الاذاعات أو المجالات الدينية وغيرها، قيامهم بإصدار الآراء السريعة السطحية محتجين بآية أو برواية أو بروايتين، ومن ثمّ فهم يحكمون في القضايا التي قد يتوقف عليها مصير قطاع كبير من الأمّة؛ فكم رأينا من هؤلاء من يحكم بأنَّ العمل الفلاني شرك، والاخر كفر، والثالث انحراف عن طريق الحق، استناداً لرواية تعارضها روايات اخرى، ولربما كانت الروايات المعارضة أقوى منها ومقدّمة عليها؟!

وكم رأينا ممّن دعوا إلى آراء غريبة عن روح الإسلام كمسألة تحليل الربا القليل، ومسألة تجوّل المرأة مع زوجها في النوادي، والأهم من ذلك مسألة الحكم في الإسلام، استناداً إلى رواية أومقطع من آية كريمة لم يلاحظ فيه ما اقترن به؟!

وكم رأينا ممّن قالوا بآراء عقائدية شاذة قد تشكل طعنا في أقدس شخصية اسلامية وذلك بالاستناد إلى مثل رواية (الغرانيق العلى).

وكم رأينا من أمثال من يستدل لكون الإسلام اشتراكيا بالحديث الشريف الذي يتضمّن أن الناس شركة في الماء والنار والكلأ ـ وكفى!!

ولانريد أن نتعدى عن هذا المجال إلى المجال التاريخي لنعرض طرفاً من التشويه الذي حصل نتيجة لهذا التسامح المقيت في تقبّل الروايات التاريخية. وكذلك لانريد التعدّي إلى أولئك الذين يعتبرون مجرد وجود رواية من نوع ما في كتب فريق من المسلمين دليلاً على كفرهم ومروقهم أو على الأقل دليلاً على تبنّي ذلك الفريق لفكرة الرواية عموماً!!

هذا في حين أنّهم يعلمون جيداً أن الأمر ليس بهذه السهولة، فالاخبار ـ مثلا ـ لايمكن الاستناد إليها إلا بعد قطع مراحل دقيقة، وذلك بالتدقيق في سند الحديث وفي متنه ودلالته،

ثم ملاحظة مايمكن أن يعارضه من أحاديث أخرى، أو اجماعات أو غير ذلك ممّا يمكن أن يشكل قرينة على خلاف الظاهر منه، إلى ماهنالك من أمور يجب أن تتوفر حتى يمكن الاستناد إلى الحديث في إعطاء حكم الله. وقل مثل ذلك في مجال الاستناد إلى أي مصدر تشريعي آخر.

ولربما يعترض علينا معترض بأنّكم تسدون بهذا باب الاستشهاد بالآيات القرآنية والروايات الشريفة في كل المجالات. ولكننا نقول: بأنّنا ندعو إلى التفريق بين مجالين، مجال إصدار الفتوى والرأي، ومجال البحث والتحليل والتمحيص بحثاً عن الحكم الواقعي:

فيجب أن يخلو المجال الأول من الاستشهاد إلّا في حالات يتأكّد فيها المفتي من وضوح الدلالة فيها للأغلبية وعدم وجود المعارض، وهي حالات نادرة خصوصا إذا لاحظنا التغيير الطارئ على المفاهيم يوماً بعد يوم، ولاحظنا كثرة التخصيص والتعارض الحاصل في الروايات نتيجة عوامل كثيرة لامجال لعرضها.

أمّا مجال البحث والتحليل والتمحيص فهو المحل الذي يتمّ فيه الاستناد والاستشهاد والذي يتعرض فيه الباحث إلى كل جوانب الموضوع وهو المطلوب، ولكن هذا المجال الاخير ليس مجالا عاما يمكن أن تؤلف فيه كتب للجميع، وإنّما هو للطبقة التي هي في مستوى فهم تلك البحوث وتمحيصها.

هذا واننا نذكّر السادة المفتين بأنّ ذكر بعض الروايات يفتح مجالاً واسعاً لاجتهادات سطحية من قبل من هم بعيدون عن هذا العالم، وذلك يجرّ ـ بالتالي ـ إلى خلط في المفاهيم لا تحمد عقباه، وقد تتجاوز آثاره ماذكرنا من آثار للظاهرة الأولى.

والخلاصة: هي أنّنا ندعو إلى ملاحظة النقاط التالية:

أ ـ يجب أن تنحصر صلاحية الفتوى في الأمور الدينية بالاخصائيين الذين بلغوا مرتبة رفيعة تؤهلهم لملاحظة كل الجوانب في أي موضوع معروف. ويا حبذا لو قامت المجامع الدينية العالمية لتناقش وتحلل ومن ثم لتعطي رأيها بعد القطع به، وذلك لكي نتجنّب بعض الاجتهادات الفردية المنعزلة.

ب ـ يجب أن نتجنب قدر الإمكان مسألة الاستشهاد بالمصدر التشريعي في مقام الفتوى إلّا إذا تأكّدنا بشكل لايقبل المناقشة من وضوح الدلالة وصحة الاستناد وعدم وجود المعارض.

ج ـ يجب أن نعمل بكل جد واخلاص على إشاعة الحقيقة التالية:

(كن على مستوى الحكم ثم أحكم).

وهذا المعنى لا ينحصر في الشؤون الدينية بل يعم كل المجالات الحياتية وله آثار ـ ايجابا أو سلباً ـ على المجتمع.

الإفراط في التأثر داء وبيل

أرتأينا في هذا الظرف الذي تمرّ فيه أمتنا بمرحلة حساسة جداً من مراحل مسيرتها الطويلة، أن نشير إلى مسألة حياتية تمسّ أمتنا في الصميم وهي (مسألة الإفراط في التأثّر) كداء عضال مازال ينخر في التيار العام من جماهير هذه الأمّة المسلمة.

ونقصد بمسألة الإفراط في التأثّر هذا الانعطاف الشديد نحو ما يجري في بلاد الغير من أحداث، وهذه السطحية في النظرة والتي تعتبر أيّة بادرة تصدر من الغير فتحاً مبيناً وبرهاناً ناصعاً على تحرّك الضمير الإنساني عنده، واتخاذه لموقف مبدئي يبتني على أساس العدالة والحق، كل هذا من دون أن نجشم أنفسنا عناء البحث عن خلفيات هذه البادرة ومدى استقامتها.

ومن تطبيقات مسألة الإفراط في التأثّر في مجال العلائق الدولية حالة الوحشية المخيفة، أو الابتهاج الساذج، اللذين ينتابان الكثير ممّن يواكبون الأحداث العالمية ويعايشونها حينما يشاهدون تغيراً يحدث في هذه الدولة الأجنبية أو تلك على مستوى الأفراد أوالأنظمة، ويتّخذ هذا التغيير أبعاداً واسعة التاثير في نفوس الأفراد ويمنحونه من الاهتمام أكثر ممّا يجب وفق ما يستحق.

ونجد تطبيقاته كذلك في مجال السلوك متمثلاً في هذه القابلية الشديدة للتاثر بأية (موضة) جديدة مهما كانت غريبة مادامت قد وصلت من بلاد الضباب.

وهكذا تتأثر الحياة اليومية للجماهير في طريقة المسكن أو الملبس أوالعادات الاجتماعية، وتتغير تبعاً لما يحدث هناك من تغيير وفي هذا ما فيه من فقدان الشخصية وذوبأنّها، وضعفها وتبعيتها.

وقد يتعدى الإفراط في التاثر جانب السلوك والمواقف العملية إلى المجالات العلمية والفكرية، وهذا ما يبدو ظاهراً ـ ومع شديد الاسف ـ عند الكثير من كتّابنا وباحثينا، إذ يفترضون المراجع الاجنبية ـ كمؤلفات المستشرقين ـ مصادر رئيسية للبحث عن تأريخنا

وحضارتنا بل وحتى عن رسالتنا نفسها ومعالمها العامة، مع كل ما هو معروف من الأهداف المشبوهة لحركة الاستشراق الظالمة ومنابتها الأولى.

وكأن تقليد هؤلاء الكتاب للمستشرقين في منهج بحثهم وطرق استدلالهم والتشكيك في كثير من المسلمات والبديهيات يعتبر شهادة ناصعة على تقدّميتهم وتجدّدهم وتحرّرهم من القديم ومخلفاته. ولابدّ من التنويه أنَّ هذا الحكم على كتابات المستشرقين إنّما يتوجه للأكثرية منهم حيث لا نعدم بعض الأقلام التي تتسم بقدر من الموضوعية والانصاف.

وبعد أن قمنا بعرض هذه النماذج وفي شتّى المجالات، نعود لنؤكد أنّنا في موقفنا هذا لا ندعو إلى الانعزالية عن الأحداث العالمية أو ما يستجدّ في البلاد الأخرىمما لاينافي شريعتنا ومفاهيمنا أو عدم الاستفادة من جهود الآخرين وأبحاثهم.

إذ أنّنا نرى ـ وذلك من صميم عقيدتنا ـ أنَّ علينا أن نتلقّف الحكمة من أي مصدر كانت، وان نطلب المعارف والعلوم ولو كانت في الصين. وكذلك نعتقد أنّ على المسلم أن يعايش الأحداث ولاينفصل عنها، وإنما يجب أن يسعها بصدره الواسع وقلبه الكبير ليستثمرها في خدمة رسالته المقدسة التي لاتنحصر بمكان ولاتقتصر على شعب ولاتتفرد بها أمة، وبهذا فإننا في موقعنا هذا إنما ندعو إلى أن يكون للفرد المسلم والأمّة المسلمة موقف الشاهد والمؤثر لا التابع المتأثّر قبل أي شي، ولايمنع هذا من التأثر الواعي والتفاعل المثمر.

وقد حبانا الله تعالى من الإمكانيات ورزقنا من الثروات ما يؤهلنا لاحتلال هذا المركز القيادي في العالم، فهناك أولاً تلك العقيدة الفعّالة التي اشتملت على كل عناصر القوة والبقاء، وعندنا كذلك هذا الموقع الاستراتيجي الذي لامثيل له في العالم، فالبلاد الإسلامية تتوزع على قارتي آسيا وأفريقيا وتتحكم في الكثير من الطرق البحرية والجوية المهمة، وبعبارة جامعة فإنَّها تتحكم في عصب التجارة العالمية وشريانها.

واما الثروات الطبيعية فحدّث عنها ولا حرج، ويمكن أن نكتفي بذكر الذهب الاسود (النفط) الذي نملك أكبر احتياطي منه في العالم، والذي برهن على قوة فاعليته في الآونة الاخيرة وكيف بدأت الدول من كبراها إلى صغراها تطرق أبواب البلدان الإسلامية، مدركة اهميته بعد أن لم تكن تقيم لنا وزناً في مجال العلائق والاحداث الدولية.

وأخيرا فإنّنا نرى أن ليس أمامنا للخلاص من الداء الوبيل ـ داء الإفراط في التأثّر ـ إلّا أن تقوم حملة فكرية واعية يرعاها مفكرون وعوا المشكلة والداء ونذروا أنفسهم لتخليص جسم الأمّة منه. إنَّ واجب المفكرين اليوم هو تحسيس هذه الأمّة بأنّها هي ربّان سفينة الحياة الحرة الكريمة في العالم المتلاطم بأمواج الانحراف، وبهذا ينفض الغبارالذي تجمع من قرون وقرون عاشتها الأمّة القائدة بعيدة عن مركز المسؤولية والقيادة.

فلنتّجه جميعا إلى الإسلام ننهل من نميره العذب ونستمدّ من مفاهيمه المشرقة زاداً ونوراً في هذه المسيرة المقدسة، فإنّ الإسلام يركّز على تربية الارادة الحية المدركة في النفوس والتقبل الناقد لكل الأمور صغيرها وكبيرها تعبيراً عن واقعيته الأصلية، ولزوم التلاقي بين أفراد الإنسان على مختلف الصعد وتلاحم الجهود في السير نحو الهدف المنشود. وها هي نصوص القرآن الكريم والسنة المطهّرة تشتمل بين طياتها على أروع التعاليم في مجال اعطاء الأمّة شخصيتها القوية المتميزة، فتفترض فيها أن تكون الأمّة الشاهدة على الناس، والأمّة الوسط، المترابطة في مابينها، والمتكافلة اجتماعياً، والواعية لكل الاحداث.

التقدُّمية المزيّفة

أصبحنا ـ وياللأسف ـ نجد أنَّ من المتعارف في منطقتنا الإسلامية بالاضافة إلى المناطق الاخرى، تصنيف الايديولوجيات إلى يمينية ويسارية، ثم تصنيف اليمين إلى ايديولوجيات انعزالية واستعمارية وأخرى رجعية، ولاتحظى الايديولوجية الدينية إلّا بآخر رتبة من القائمة الصارمة!!

ويمكن أن يعتبر هذا التصنيف أحد الشعارات البراقة الخداعة التي حملها المتاجرون بالشعارات والذين أرادوا امتصاص تطلعات الناس في أمتنا نحو الحرية والعدالة والتقدم وأمثال ذلك.. ليحتلوا هم مركز قيادة تطلعات الجماهير ويعزلوها عن القيادة الدينية التي شكلت أهم عامل لاستقلالها وامتناعها على الاحتلال بالرغم من ضعف الصلة بين العقيدة التي تقدّسها هذه الجماهير والسلوك العملي لها نتيجة تاريخها الطويلوما أفرزه من عوامل التكاسل والاضمحلال.

وقد ساعدت حالة شبه الانفصال بين العقيدة والعمل، وبين النظرية والواقع التنظيمي، بل وبين النظرية وما يفهم منها على ضيق افقه.. ساعدت كلها على تقبل هذه الشعارات

وملء الفراغ الفكري والعاطفي بها مما جرّ إلى حالة غريبة، حتى ظننا في بعض اللحظات أنَّ وجودنا نفسه مستعار من قبل طارحي تلك الشعارات البرّاقة! والمفاهيم المتضاربة!

ومن هنا كان من المحتّم علينا ـ لا كمهاجمين فحسب بل لما تقتضيه طبيعية رسالتنا ـ أن نقوم بعملية توعية كبرى لتوضيح الخلط الكبير بين المفاهيم وتعيين مدلول كل لفظ بدقة، وموقع هذا المدلول من مسيرة التقدم البشري ومدى انسجامه مع تطلعات الإنسان بما هو إنسان، وموقع رسالتنا الإسلامية في هذا الزحام من المفاهيم؛ هل تتصف بها أو تحتضنها؟ أم هل ترفضها؟ أم هي حيادية تجاهها لأنها تتفق ومناطق الفراغ في الرسالة؟

فما هي التقدّمية ـ مثلا ـ وماهي الرجعية في المقابل؟ وما مقوماتها؟ إنَّ الاجابة عن هذا السؤال تختلف باختلاف النظرة للإنسان ولمسيرة تقدّمه، ولذا فلا يمكن أن تحاكم كل إجابة على حدة إلّا بمقدار انسجامها مع المبدأ الذي انطلقت منه.. فاذا أردنا الواقع الموضوعي كانت الموضوعية تقتضينا أن نقارن بين النظريتين من حيث واقعهما أولاً ومن حيث مردوديهما الإنسانيين.

وبتعبير آخر فإنّا لا نستطيع أن نصف مسيرة ما بأنّها مسيرة متقدّمة أو مسيرة متراجعة إلا بعد أن نعيّن هدفاً متفقاً عليه يشكل الاقتراب منه تقدّما والابتعاد عنه تراجعاً.. وقد لايكفي تعيين الهدف ليتحقق مفهوما (التقدم والتراجع) نظراً لاختلاف جهات القرب والبعد وتنوع زوايا النظر للمسيرة وهدفها.. ومن هنا فإنّا نحتاج لتعيين أطر عامة مرنة يكون السير خلالها سيراً على الخط المستقيم الذي هو أضمن الطرق للوصول إلى الهدف.

وبمقدار تقدّم الأمّة على الخط يكون انطباق المفهوم عليها أقوى.. وبمقدار إعمالها لكل طاقاتها واستنفاد كل جهدها يكون اتصافها بحب التقدم والتكامل.. هذا بالنسبة للأمة.

أمّا بالنسبة للمبدأ المحرك للأمة فبمقدار انسجامه مع هدفه الذي عيّنه وطريقه العام وطاقته الحركية الدافعة يستحق أن يكون مبدأ تقدمياً منسجماً مع نفسه، وبمقدار انسجام هدفه الذي عينه مع الواقع الكوني والإنساني يكون مبدأ تقدميا منسجما مع المسيرة الإنسانية الحضارية الكبرى.

إنّ الواقع الإنساني ـ كما يوحي به الوجدان الذي لايقهر وكما يؤكده التواجد الغريزي في

العمق الإنساني ـ هو التكامل الإنساني المطّرد بمختلف أبعاده الجسمية منها والمعنوية، بما يشمل البعد الفكري والأخلاقي والعاطفي. وأمثالها.. فإنّ وجود غرائز (حب الاستطلاع، وحب الكمال، وطلب الارتباط بالمطلق وأمثالها) يؤكد أن الخلقة العامة غرست في وجدان الإنسان صورة هدفه الكبير وهو: (التكامل في مختلف المجالات والكشف المتواصل للمجاهيل والارتباط الأوثق بالمطلق)

وكل مبدأ استمدّ هدفه من هذا الواقع كان أقرب إلى التقدمية، وكل نظرة أكّدت على المطلق وركّزت صفاته المطلقة وشدّت الناس اليه شداً متواصلا لا وقفة فيه ولاتراجع ولا اهمال طاقات فهو الأكثر تقدمية، وعلى العكس من ذلك يعتبر المبدأ الذي يبتعد بالإنسان عن هذا الواقع مبدأ رجعياً، وكلما أوغل في الابتعاد يكون قد أوغل في الرجعية المقيتة.

بهذا المقياس الذي لانظن أنّ أحداً يجانبه إلّا وهو يشعر في قرارة نفسه ببعده عن الحق يجب أن نقيس تقدّمية الرسالات والمبادئ وعدمها.

وبهذا المقياس نستطيع أن نقول إنّ الإسلام هوالمبدأ التقدّمي الأصيل الوحيد الذي يعيّن هدف التكامل ويصبّه في قالب السير نحو الله ذلك المطلق الحقيقي الذي يبقى فوق كل تكامل، يشدّ اليه المسيرة الإنسانية ويحرك فيها كل الطاقات الفعالة، ولن تصل المسيرة يوماً إلى نقطة يقف فيها تكاملها في هذه الحياة مادامت منشدة إليه تبتغي أن تصل إلى واقعها العبودي الكامل ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] وتسعى بكل جد نحو ذلك المطلق ومعرفته ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[2].

ولا نتوقع ـ مع الانشداد بهذا الهدف الكبير ـ التهاون والتكاسل،وقد جنّد الإسلام، لإبقاء الروح الدافعة، نظماً تربوية وتوجيهات وتعاليم فكرية رائعة تبقي الإنسان المسلم ـ لو وعاها وتفاعل معها ـ شعلة وهاجة على طريق العمل في سبيل الله.

هذا، مع إهمال التطبيق الخاطئ للاسلام وآثاره وعدم حساب أي قيمة لأولئك المنتسبين اسماً للاسلام، فإنهم لا يشكّلون خطيئة تنسب إلى الإسلام بحال.

---

١. الذاريات: ٥٦.

٢. الانشقاق: ٦.

إنَّ روح العمل والتوكّل هي السارية في مختلف مجالات التوحيد الإسلامي، فالعمل الجاد يستمد من التوكل ـ الذي يعني الانشداد بالمطلق ـ طاقة حركية دائمة دافعة نحو التطوّر والابداع المتواصل.

وهكذا كان الانشداد الكامل بالله ـ المطلق الحقيقي ـ هو الهدف، وكانت تعاليم القرآن والإسلام هي الصراط المستقيم الذي يجب الثبات عليه وعدم الانحراف عنه...

فبمقدار التزام الصراط ووعي جوانبه وعدم ادّخار أي جهد في المشي على هديه يكون التقدّم الحثيث:

﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾[1].

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا﴾[2].

﴿وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[3].

﴿أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبًّا عَلَى وَجْهِهِ أَهْدَى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾[4].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ﴾[5].

فأي توقف في سبيل الأتجاه إلى الله وأي خروج عن الطريق يعتبر مرفوضاً في المنطق الإسلامي: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[6].

أما مدى استقامة هذا الطريق المطروح فهو أمر له مجاله، ويمكن اثباته إجمالا بملاحظة الأدلة القاطعة، وبمقارنته وانسجامه مع الهدف الكبير، وتخلصه من نقاط الضعف الموجودة في المبادئ الاخرى. ويكفية فخراً أنَّه المبدأ الذي أشبع جوانب الوجود الإنساني فكراً

١. الانعام: ١٥٣.

٢. هود: ١١٢.

٣. آل عمران: ١٠١.

٤. الملك: ٢٢.

٥. فصلت: ٣٠.

٦. الحمد: ٦ـ٧.

ينسجم مع الفطرة، وقوانين مترابطة تتناول مختلف الجوانب الحياتية وتعالج كل المشاكل أروع علاج.

ومن هنا نعرف: أن المبادئ التي ابتعدت عن هدف الكمال المرتبط بمطلق حقيقي، والتي شدّت الإنسان بالتراب والمادة الخرساء والاقتصاد غير الشاعر، أو الحرية غير المسؤولة، أو الغريزة الجامحة ـ من أمثال الرأسمالية، والاشتراكية، والوجودية والفرويدية ـ إن هذه المبادئ أرجعت الإنسان طفلا يتعامل مع واقعه المادي وينسى القسم الإنساني الأصيل المعنوي فيه.. وان هذه المبادئ لاتمتلك أي مسوغ يدفع الإنسان للتكامل الصحيح، ويضمن بقاء المسيرة متكاملة، لأنَّ مطلقاتها (الاقتصاد، الحرية، الغريزة.. وأمثالها) هي امور نسبية تصبح قيوداً على المسيرة الحضارية الصحيحة في يوم ما، فهي لا تجيب على سؤال: وماذا بعد أن تتحقّق هذه الأمور؟ وثم هي تخلق الانفتاح في جانب من جوانبها على حساب الجوانب الاخرى، وهذا هو الواقع الذي نشاهده في التمدّن القائم بكلا جناحيه الغربي والشرقي.

التنازلات المبدئية أحد الأدواء المعاصرة

كانت نغمة نشازاً تلك التي رددها بعض كتّاب هذا العصر حول الدعوة إلى حل الخلافات الفكرية، والاختلافات المتنوعة في وجهات النظر على أساس جذري (!!) عبر الرجوع إلى المبادئ وتغييرها(!)

ولئن وجدت هذه الدعوة من يؤيدها ـ ولو بطرف خفي ـ فإنّها على الأغلب قد رفضت من قبل الكثيرين، بل الأكثرية الساحقة ممّن تعرّضوا لها بالخصوص أو بطريقة غير مباشرة. لأنها، وبأبسط عبارة، تتعارض ـ على الأقل ـ مع الإيمان بالمبدأ، أياً كان ذلك المبدأ وأيا كانت الأسباب اتي أدّت إلى اعتناقه.

وقد لانعجب لو كانت هذه الدعوة منطلقة من أناس يختارون مبادئهم اعتباطاً، ووفقاً لميولهم الشخصية.. ولكن العجب أن تكون منطلقة من أمة وعت أنّ حياتها في مبدأ معين دون غيره، وأنَّ فطرتها والواقع يركّزان عليه.. فاعتنقته... فأحياها بعد موت، وأيقظها بعد غفوة، وجعلها محور الحضارات بعد أن كانت تركض وراء السراب!!

كان هذا كله على الصعيد الشعوري حيث وجهت هذه الفكرة بالرفض الشامل.

ولكن الذي يدعو إلى الأسف أن نشاهد بعض أفراد الأمّة الذين تصدّوا لمراكز حساسة فيها، من قيادة فكرية أو اجتماعية، قد تنازلوا عن قضايا مبدئية بشكل لاشعوري ـ كما يبدو ـ حتى عدنا نرى هذا التنازل يتعدّى جانباً أو جانبين ليصبح ظاهرة مرضية خطيرة، تتطلب المزيد من العناية والبحث عن أسبابها وطرق علاجها ومحو مظاهرها.

وعندما نحاول التصدي لمعرفة أسباب هذه الظاهرة الغريبة ـ خصوصا ـ على أمتنا تبرز لنا ظواهر أخرى، تشكل بدورها المبررات الموضوعية والعلل الرئيسة لها.

وأبرزها جميعاً انعدام (الوعي الشامل) للشريعة الإسلامية، وعقائدها ونظراتها العامة ونظرياتها الشاملة لكل نواحي الحياة.

وهذه الظاهرة لاتشكّل علة بروز المرض الذي نتحدث عنه فحسب بل هي ـ في الواقع ـ علة العلل في كل مشاكلنا الاجتماعية.

ولقد أثّرت هذه الظاهرة في ايجاد صنفين من المؤمنين، لايرى الإسلام أنّهما ممّن يصح أن يوصف بـ(الإيمان).

الأول: صنف المؤمنين المقلدين للآباء والمحيط.

الثاني: صنف ضعاف الإيمان الذين هم في أية لحظة مستعدون للتخلي عن نقاط مبدئية في سبيل خلق التلاؤم بين عقيدتهم والآراء الوافدة.

وقد زاد الطين بلة تلكم النكبات الاجتماعية المريرة التي مرّت بها أمتنا.. فلم تصح إلّا والأعداء يحيطون بها من كل جانب، والغزو بكل أوجهه يحطمها ويفرض عليها نفسه رائداً وبانيا.

وهكذا تهيّأت الارضية الملائمة ـ مع الأسف ـ لبروز ظاهرة التنازلات اللاشعورية على مختلف الصعد.

والذي يهمنا أن نتعرض له هنا ونشير اليه من مظاهر هذه الظاهرة هي بعض تأثيراتها في المواقف الفكرية فيمكننا أن نلمحه بكل سهولة حيناً.. وبشكل معمّق أحيانا أخرى.

فمن الأشياء التي ما عادت بدعاً ـ وهي بدع ـ ما نلاحظه من مؤلفات فكرية كثيرة كلها تركز على أن تلبّس الأفكار الغريبة تماما على الروح الإسلامية لبوساً مبدئياً يجعلها تتجاوز مرحلة قبول الإسلام لها إلى مرحلة تبنيها وإشاعتها، في حين أنّها في الواقع تتعارض مع

المبادئ الإسلامية معارضة جوهرية، ولا تعني عملية التوفيق بينهما إلّا التنازل عن مقتضيات المبدأ نفسه.

ومن الأمثلة الشائعة في هذا المجال ما نسمعه أحيانا من نغمات «الاشتراكية الإسلامية، والوطنية في الإسلام، والقومية المؤطّرة باطار الإسلام، والديمقراطية في التشريعات الإسلامية».

كما ويمكننا أن نصنّف إلى جنبها كل الدراسات التي تحاول أن تنطلق في دراستها للحياة الفكرية والعملية الإسلامية من منطلق (البحث الاجتماعي) الذي يفسّر كل شيء بعامل اجتماعي، متناسياً كل مبادئه ومسلماتها الأوليّة.. أو أولئك الذين يحاولون أن يبنوا ما يعتقدون على أساس من المنافع المادية التي يمكن تصورها لذلك، تماما كما تقول نظرية (البراجماتزم)، وقد تسمح لنا فرصة أخرى نتعرض فيها بالتفصيل لهذا الجانب وما يعكسه من ظواهر.

وأما المواقف العملية التي نشاهدها اليوم تتكثّر على الساحة الاجتماعية ومجال التعامل مع الأعداء التقليديين للأمة فهي ذات أمثلة كثيرة، نقتصر منها على مثال واحد، لأهميته وارتباطه بمستقبل مصيري لهذه الأمّة. وهذا المثال هو «القضية الفلسطينية» والمواقف المتنوعة منها. والمتتبع لتدرج المواقف من القضية منذ إرهاصات الهجوم اليهودي وحتى اليوم يجد التناقض العجيب بينها أولاً، ويشاهد التنازلات المبدئية الكبرى بعد ذلك.

فلقد كانت مواقف المسلمين من القضية واحدة في البدء، وهي كلها تؤكد أنّ الإسلام لم يقبل مطلقا أن يضام أهله، وأن تسلب ارض هي جزء حبيب من أراضيه، وعلى هذا الأساس فقد قاوم الجميع وتعاون الجميع، وكادوا أن يدفعوا العدوان لولا تدخّل القوى الكبرى الكافرة على اختلافها واحتضانها القضية الصهيونية، ودعمها بكل وسائل الدمار: الفكرية العسكرية، وحلّ الاحتلال واقتطعت الارض، وأصيبت الأمّة بهذه النكبة.

وهنا لم تكف اليد الآثمة عن العمل بل عملت على أن تنسي الأمّة قضيتها هذه وتهونها لديها.. فما قيمة أرض صغيرة أمام كل تلك الصعاب التي يجب أن تواجهها الأمّة في تحريرها أولا؟ ثم ليست هي إلّا قضية تخصّ طائفة من هذه الأمّة، وهنا بدأت التنازلات الغريبة بحصر القضية بالأمّة العربية ثم بدول المنطقة ثم بدول الطوق ثم بالفلسطينيين فقط، وإماتة كل مساهمة فعّالة في مجال مساهمة المجموع الإسلامي في التحرير.

ولئن تجاوزنا عن التنازلات الأخرى ـ وهي بدورها خطيرة ـ فإننا نعتبر رفع شعار «الدولة العلمانية» هو المرحلة التالية التي تشكّل تنازلاً خطيراً، فأنىّ ياترى يمكن أن نسوّغ رفع هذا الشعار في وسط معركة الإسلام والصهيونية الحاقدة، ومن قبل من يعتبرون رأس الرمح في العمل نحو تحرير فلسطين؟ ثم ألا يعتبر رفع هذا الشعار تفريطاً بكل ما يمكن أن تقدّمه الوحدة الإسلامية من عون فعّال في سبيل التحرير الكامل؟!

قد يقول بعض الاشخاص من أصحاب الشعار أنَّه السبيل الوحيد لاقناع أوروبا بأننا لانريد أن نلقي اليهود في البحر.. ولكن هذا المنطق بعيد عن الصواب، إذ متى رأت أوروبا المجتمع الإسلامي يلقي أهل الكتاب في البحر.. إنّ اليهود والنصارى عاشوا في كنف المجتمع الإسلامي قرونا وقروناً يتمتعون بحقوق هي فوق الكفاية ماداموا ملتزمين بقوانينه العامة، هذا بالاضافة إلى أنَّ رضا الرأي العام الغربي لايعني إلأ التنازل التام لاغير، وذلك مضمون قوله تعالى: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ ... تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[١].

اللّهم إنَّ هذا تنازل خطير وإن لم يشعر به أهله.

واليوم نجد على الساحة الإسلامية أشباحاً أخريلتنازلات أعمق وأبعد غوراً من أمثال الشعبين المنفصلين.. وأخيراً الفكرة القائلة بأن النزاع إنّما هو في جوهره اختلاف وجهة النظر بين الدول العربية وإسرائيل، ولا دخل للقضية الفلسطينية في البين!

ويجب التنبيه هنا على أنّ مثل هذه التنازلات تعني الاستسلام للأمر الواقع، وهو يحمل في ثناياه ضياع الكثير من ممتلكاتنا، ويتطلّب منا فيما بعد الكثير من التنازلات الأخرى التي يضيق عنها الحصر.

وأخيراً فإننا نذكر الاخوة المسلمين بتعاليم الإسلام الخالدة التي لن تتغير أو تتبدل، وبطريقته التي ستبقى هي الطريق الأمثل لنجاة البشرية، وبأوامر القرآن الحكيم ووعوده بالنصر لو استقمنا على الطريقة ﴿وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا﴾[٢].

---

١. البقرة: ١٢٠.

٢. الجن: ١٦.

﴿قُل هٰذِهِ سَبيلي أَدعو إِلَى اللَّهِ عَلىٰ بَصيرَةٍ أَنا وَمَنِ اتَّبَعَني﴾[١].

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[٢].

كما ونذكّرهم بأنَّ أي تنازل عن أي جزء من مقتضيات العقيدة يعني في الواقع تنازلاً عنها كلها، وهذا ما يمكن أن نستفيده من إنكار القرآن على من يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعضه الآخر، وذلك أنَّ العقيدة والنظام الإسلاميين كلٌّ مترابط لايقبل التجزيء.

اللامبالاة في الشخصية الحاضرة

قد يكون الانتقاد الشديد الأكيد الذي يتوجّه إلى مجتمعات المدنية الحاضرة متركزاً في عمليات التحلل المتعددة الجوانب.. التحلل من سماع نداء الفطرة.. التحلل المفرط من كل ما هو إنساني واجتماعي.

وهذا العري الاجتماعي والأخلاقي إنّما هو في الحقيقة ظاهرة مرضية نفسية خطيرة لمرض (اللامبالاة) وهي تصيب الشخصية الفردية فيتيه الفرد في دروب انعزالية تارة، وفوضوية أخرى. وتصيب الشخصية الاجتماعية فتسلبها أهم عنصر مقوّم لتماسكها وكينونتها وبقاء إطارها الاجتماعي وهي (الكون بمستوى المسؤولية) حيث لايكون له أي مفهوم عند طروء ذلك المرض الخبيث.

ويمكن أن نمدّ أعيننا إلى أية حضارة منحلّة في أي عصر، فنلاحظ أنَّ الأمّة التي كانت تحمل شعلتها كانت متماسكة قوية مادامت روح المسؤولية والتألم، وحمل همّ إبقاء الحضارة روحاً سارية فيها، ولكن ما إن تبدأ تلك الروح بالذوبان حتى يبدأ المؤشر الحضاري بالميل نحو علائم السقوط.. فيمكننا ـ والحال هذه ـ أن نؤرخ للنموّ الحضاري في الأمّة بمسيرة نموّ الشعور بالمسؤولية وتعاظمه، حيث ينتفي موضوع اللامبالاة نتيجة للوعي العام.

في حين نلاحظ الانحسار الحضاري التدريجي يتبع عمليات نقصان الشعور بالمسؤولية

---

١. يوسف: ١٠٨.

٢. فصّلت: ٣٠.

وتعاظم مرض اللامبالاة في الفرد والمجتمع.. ويكفينا أن نلاحظ انطلاق المسيرة الإسلامية الظافرة من مهدها الأول.. وكيف كانت نتيجة الوعي الأقصى في الرسول الكريم أن حمّلته السماء مسؤولية تربية البشرية وإيصالها إلى نهاية مطافها الذي أراده الله لها.. وكذلك كيف كانت الانتصارات ـ تلو الانتصارات ـ تتبع تركّز شعور المسلمين الأوائل بالمسؤولية التي تجاوزت مسؤولية فرد أو قطر أو امة، فبلغت إلى مسؤولية عالمية وهم إنساني يتجاوز حتى حدوده الزمانية.. ليركّز نظرة المجتمع الإسلامي الأول على «أليوم الموعود» الذي يكون الدين كله لله فيه.

وهكذا يمكننا أن نتابع بعد ذلك الهبوط الحضاري الذي أصاب الأمّة نتيجة لدخول عنصر اللامبالاة بالعقيدة أو بمقتضياتها وترك الأمور على عواهنها، وانشغالها بامور توافه جانبية، وأهداف مادية رخيصة.. ممّا أورثها الانحلال والضياع، وأفقدها حتى أرضها كما في تجربة الاندلس.. وانتهت إلى مانراه اليوم من وضع لا يطاق تحمله.

ترى هل نستطيع أن نوفق ـ ولو في مرحلة الخيال ـ بين المسؤوليات الجليلة الملقاة على عاتق الفرد والأمّة من جهة، وهذه «اللامبالاة» التي نلاحظها متفشية في كل تصوراتنا ومجالات حياتنا الفردية والاجتماعية ـ من جهة أخرى ـ حتى عادت بعض صور المسؤولية التي حملها الينا التاريخ في مجتمع صدر الإسلام، عادت خيالاً وحلماً، وهي واقع طبيعي في الأصل، وذلك يتضح في أمثال قول أمير المؤمنين علي عليه السلام:

«ولكن هيهات أن يغلبني هواي، ويقودني جشعي إلى تخيّر الأطعمة، ولعلّ بالحجاز أو اليمامة من لاطمع له في القرص ولاعهد له بالشبع.. أو أبيت مبطانا وحولي بطون غرثى.. أأقنع من نفسي بأن يقال امير المؤمنين، ولا أشاركهم في مكاره الدهر.. أو أكون أسوة لهم في جشوبة العيش! فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة، همّها علفها»[1].

إنّ المسلم والإعلام الإسلامي اليوم على الرغم من إيمانه بالإسلام ومسؤولياته الجسام ليعيش حالة قلق في مجال التوفيق بين هذه المقتضيات وأعراض هذا المرض الخبيث «اللامبالاة»، وقد يكون قد توصّل إلى توفيق خيالي بينهما جاء به كمسوّغ، نتيجة لانحراف

---

١. نهج البلاغة ـ تحقيق صبحي الصالح، ص ٤١٨.

بعض المفاهيم الإسلامية في ذهنه كالزهد والقناعة والصبر عن مدلولاتها الأصيلة، ونتيجة لتهويلات وأباطيل المرجفين الذين صاغوا صيغاً شوهاء لهذا التوفيق من جهة، وقصروا أنظار كل قطعة من أجزاء المجتمع الإسلامي على ظروفها البيئوية فحسب.

... هذا هو المرض.. فكيف العلاج؟!

والحقيقة.. أنَّ مثل هذه الأمور لن يستطيع أن يعالجها مقال أو كتاب.. كما يجب أن لا نتوقع اعجازا سماويا جديداً بعد أن توضّحت مسالك الرشاد والانحراف ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[١].. ولذا فإنَّ مشروع علاج الأمّة من هذا الداء يجب أن يستمده الجهاز التربوي والاعلامي في المجتمع من الاسلوب الإسلامي في علاج حالة الموت الحضاري بمفهومه الصحيح والتي كانت سائدة في مجتمع ماقبل الإسلام.

إنّنا لو تابعنا ذلك العلاج إلالهي لأمكننا أن نلخصه بأمور ثلاثة (الإيمان.. الوعي.. العمل ألمجسّد لهما).

فلقد كانت خطوات الرسول الأعظمﷺ الأولى تركّز على مسألة خُلق المؤمن، وتغيير النظرة إلى الكون، وتحديد مركز الإنسان كمخلوق يقف إلى صف كل أجزاء الكون المخلوقة في مجال الاحتياج للخالق الرازق الواحد المهيمن.. (قولوا لا اله إلا الله تفلحوا).. وكان التركيز شديداً حتى عاد الإنسان المسلم الأوّل يحسّ إحساساً عميقاً بهذه الرابطة بينه وبين خالقه فهانت في نظره كل الالهة المصطنعة.

كان الوعي الذي غرسه الرسول في النفوس المؤمنة، وعي مقتضيات الإيمان بالله والرسول العظيم والإسلام.. وعي خلافة الإنسان المسلم للأرض.. وعي كون الأمّة المسلمة الطليعة الحضارية لكل أمم الأرض.. وعي العمل لانقاذ الأرض من براثن الظلم والإلحاد والضياع، وعي دخول آخر مرحلة من مراحل التكامل الإنساني والعمل على إيصال القافلة البشرية إلى الغاية، كان ذلك الوعي هو الذي رسم على جبين الإنسانية أروع صور التلاحم والتماسك، وهو الذي أذن للمؤشر الحضاري أن يبدأ خطه التصاعدي، فغيّر

١. البقرة: ٢٥٦.

وجه العالم الكئيب، خلال فترة لاتعدّ شيئاً في عمر الإنسان، إلى وجه مشرق مليء بكل الصفات الإنسانية الحية.

وجاءت مرحلة العمل، فعمل الإسلام على أن يخصّص شطراً من سلوك الإنسان، فيوجّهه فيها بتوجيهات اسمها (العبادات) محاولاً فيها ـ أروع محاولة ـ أن تكون المناخ الملائم لتجسيد ذلك الإيمان والوعي، وكذلك التصميم والعزم والتزوّد من الطاقات الخيرة، والتخطيط للعمل الإنساني العام في مختلف الحقول.

وهكذا كان الدور التركيزي العملي للعبادات يواكب نمو الإيمان والوعي. ويذكّر بدرجتهما في الإنسان.. فكان المسلم حينما يقف للصلاة يشعر ـ بعمق ـ بحرارة الإيمان الواعي، وبروعة الصلة بينه وبين خالقه، ويحاول أن يجسّد هذه العلاقة تجسيداً حينما يقول في صلاته: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أو (سبحان ربي العظيم وبحمده).. بما لايمكن للقلم هنا أن يستوعب جوانبه.

وهكذا كان الأمر في عملية الصوم الرائعة التي استهدفت ضمن الاطار العام للعبادات تركيز الإيمان بالله ـ من جهة ـ حيث تتحول العلاقة بين الصائم وربّه إلى علاقة مراقبة ورحمة في كل آن، إذ يشعر أنَّه في ضيافته الخاصة التي تعبّر عن الضيافة العامة وهي حياته ضمن عطاء الله العام. واستهدفت عبادة الصوم تركيز الوعي، إذ أشعرته بمقتضيات إيمانه وإسلامه ولزوم الائتمار بها، وحملها والعمل بها، والقضاء على كل المشتهيات التي تعوق تطبيقها.. وامتلاك الارادة الواعية المؤمنة في أي مجال من مجالات العمل العام.

إنّنا هنا لن نستطيع أن نستعرض الدور الفعّال للعبادات بصورة عامة في هذا المجال، ولكننا نريد أن نذكر بأنّ العطاء العبادي كان فعالاً ـ حينما كانت العبادة تلامس روح الإنسان وتنفذ إلى أعماقه وتتفاعل مع وعيه.

فإلى رجال التربية الإسلامية، وإلى رجال الإعلام الإسلامي، والى كل فرد مؤمن متحسّس بقضيته نوجّه هذه الدعوة المخلصة، لنقوم جميعا بعملية تركيز الإيمان في الأمة بمبادئها أولاً، ثم توضيح مقتضيات ذلك الإيمان وأبعاده الحقيقية الخالصة من أي شوب.. وبالتالي تحسيس الأمّة ورفد شعورها بمركز العبادات وأسلوب أدائها الأمثل الذي يتمثل في

الصلاة مثلا حينما تصل إلى مرحلة (النهي عن الفحشاء والمنكر) واقعا وفي الصوم عندما يصبح سبيلاً رحباً للوصول إلى التقوى.

الطائفية: أنواعها وتطبيقاتها

لانجدنا بحاجة للبحث عن جذور هذه الكلمة، ومقارناتها، فمعناها واضح وإن كان هذا المصطلح يعدُّ حديثاً في حين كان التعبير السائد بدلاً عنه هو (التعصّب)، ولسنا نرى بينهما كثير فرق في الاستعمال، ومن هنا فإنَّ مانقوله عن أحدهما يقال ـ البتة ـ عن الآخر.

واذا تمّ هذا وعدنا إلى الحياة الإنسانية، (الفردية والاجتماعية) وجدنا هذه الصفة تكمن في أنماط متنوّعة من السلوك الإنساني بل وتشكّل جوهرها المتحرك، وصفتها الغالبة أحياناً، وربما تحولت إلى شعار يتبجح به أصحابه مفاخرة.

إنّنا نجد الطائفية العقائدية إلى جنب الطائفية العنصرية، تماما كما نجد الطائفية النسبية والعشائرية والجغرافية إلى جنب الطائفية الحزبية والسياسية.

وبالجملة؛ فأينما سرنا لاحظنا ظلاً للتعصّب والطائفية يلوح لكل راء، وخصوصاً في أنماط معينة من الخطاب الإسلامي السائد، ولسنا من أولئك الذين يتصوّرون الطائفية شراً على الاطلاق، بعد أن كانت تمتلك ـ على أي حال ـ جذوراً في عمق التركيبة الإنسانية، وإنما نقول بوجود حالة طبيعية معقوله وايجابية لها، في حين يسير بها العمى والإفراط إلى الانحراف والسلبية.

واذا أردنا أن نجد لها مقارنا من هذه الجهة، لاحظنا أنَّ الغفلة الإنسانية حالة فطرية، لها إيجابياتها بلا ريب، والّا لتجلّت كل مصائبنا وآلامنا في لوحة أذهاننا تماما، وهو أمر ينغّص علينا الحياة بلا ريب، إلّا أنَّ الغفلة إذا تجاوزت حدودها الطبيعية تحوّلت إلى ضياع وسلبية ما بعدها سلبية.

فلنلحظ ـ إذن ـ الجانبين في الطائفية والفروق التي تميزهما عن بعضهما.

أما الجانب الايجابي فيمكن أن نلحظ تطبيقاته في الميول الطبيعية نحو الطائفة التي ينسجم معها الإنسان عقائديا وعاطفياً ونسبياً وجغرافياً ومسلكياً وغير ذلك.

فذلك طبيعي خصوصا إذا اقترن بمصالح طبيعية؛ كاستمداد القوة، والأمان، والتعاون

لتحقيق الاهداف المشتركة، ولن يكبت الإسلام أي ميل طبيعي على الاطلاق.

يقول امير المؤمنين علي عليه السلام في نهج البلاغة:

ومن يقبض يده عن عشيرته، فانما تقبض منه عنهم يد واحدة، وتقبض منهم عنه أيد كثيرة، ومن تلن حاشيته يستدم من قومه المودة)[١].

وان الإسلام يستفيد من هذا الميل الطبيعي لتقوية الآصرة الاجتماعية، وتحكيم التماسك النوعي بشكل رائع. فـ﴿أُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾[٢] وصلة الرحم من أهم ما يندب اليه ـ مثلا ـ.

وقد أسلفنا القول إن لهذا جذوراً في الفطرة، فالميل إلى القربى والارض، وكل البيئة المنسجمة عقائديا هو ميل طبيعي يتلوه عمل طبيعي على ايجاد الانسجام بين السلوك وهذا الميل.

ومن هنا أيضا نجد أنَّ اطلاق عبارات التعصّب والطائفية السلبية على المواقف المبدئية، انما هو اطلاق غير مسؤول أو متعمد مغرض.

ونعني بالمواقف المبدئية: تلك التي تتطلّبها تصوّرات الإنسان المنطقية، المبرهنة عن الكون والحياة والإنسان: تاريخاً وتركيبة، وحاضراً ومستقبلا، ومنهجا سلوكياً عاماً نحو تحقيق الأهداف السامية. فاذا ما استقرّ الوعي الإنساني في هذه الجوانب على أرضية صلبة مبرهنة، كان من الطبيعي أن يصوغ كل مواقفه وفق مبادئه، وليس لنا ـ والحال هذه أن نصمه بالطائفية والتعصب.. نعم نستطيع أن نناقش مبادئه الواحد بعد الآخر.

أمّا أن نلومه على الانسجام مع مبادئه فذلك هو المنطق المعوج؛ إذ نطلب إليه ألّا يكون إنسانا يحقق التوازن بين (العقيدة والعواطف والسلوك)، بل اللوم التام يقع عليه لو لم يحقق هذا الانسجام.

إننا لانعتبر التعصب ـ مثلا ـ لمقتضيات التوحيد الالهي، والإيمان بالنبوة، والإسلام منهج الحياة، ومكارم الأخلاق، ومنهج الدفاع عن العدل، ومحاربة الظلم ـ وخلاصة الامر: الالتزام بما تقرره الفطرة الأصيلة الموجودة لدى أفراد البشر جميعاً ـ لا نعتبر هذا إلّا الايجابية الفاعلة بعينها.

---

١. بحار الانوار، ج٤، ص ١٦٤.

٢. التوبة: ٧٥.

ومرة أخرى نعود لنهج البلاغة لنجد أميرالمؤمنين علياًعليه السلام يقول: (فإن كان لابد من العصبية، فليكن تعصّبكم لمكارم الخصال، ومحامد الأفعال، ومحاسن الأمور التي تفاضلت فيها المجداء والنجداء من بيوتات العرب ويعاسيب القبائل بالأخلاق الرغيبة، والأحلام العظيمة، والأخطار الجليلة، والآثار المحمودة)[١].

(فتعصّبوا لخلال الحمد من: الحفظ للجوار، والوفاء بالذمام، والطاعة للبرّ، والمعصية للكبر، والأخذ بالفضل، والكفّ عن البغي، والإعظام للقتل، والإنصاف للخلق، والكظم للغيظ، واجتناب الفساد في الارض)[٢].

والواقع أننا لو اعتبرنا السلوك المبدئي تعصّباً مرفوضاً، كان علينا أن نصِم سلوك الأنبياء العظام وكل الربانيين والمجاهدين ومواقفهم الصارمة؛ نصمها ـ والعياذ بالله ـ بهذه الصبغة، وهو أمر لو تمّ فانه لايبقي قيمة إنسانية واحدة، والويل لانسانية تضيع فيها القيم والمعايير.

وإنّنا ـ مثلا ـ لانعدّ من التعصّب مقولة بني يعقوب التي ينقلها القرآن:

﴿إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾[٣].

باعتبار أنّها تعبّر عن وعي وإدراك للحقيقة الكبرى.

وأمّا الجانب السلبي القابل للرفض من الطائفية والتعصب فهو يعبّر عن انحراف في مسيرة المقتضيات الطبيعية ـ كما مرّ بنا قبل قليل ـ ذلك أنّ الفرد والأمّة قد يبتليان ـ نتيجة عوامل معينة ـ بالضعف في الشخصية المحدّدة سواء على الصعيد العقائدي أو العاطفي أو السلوكي، فاذا ما صادف ذلك توفّر عامل خارجي تحريفي أدّى الأمر إلى ما نشاهده من أوهام عقائدية ـ من جهة ـ وتعصب جاهلي مقيت ـ من جهة أخرى ـ. ونعني بالعامل الخارجي التأثيرات التي يمتلكها ذوو المصالح الضيقة، ويسعون لايجادها في النفوس، تحقيقاً لمطامعهم، وتمويهاً على الآخرين، وتسخيراً لهم لتحقيق تلك المآرب الدنيئة. وكمثال على

---

١. نهج البلاغة، ج ٢، ص ١٥٠.

٢. نهج البلاغة، ج ٢، ص ١٥٠.

٣. البقرة: ١٣٣.

ذلك (المترفون) الذين يتحدّث القرآن عن وساوسهم وايحاءاتهم الشيطانية، وفي طليعتهم الفراعنة، الذين يستخفّون قومهم ليتأكّدوا من طاعتهم:

﴿وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ * فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾[١].

ولو لم يكونوا قد فقدوا الحالة الطبيعية الإنسانية؛ حالة الوعي (وهو المقصود من الفسق ـ كما نتصور) لما خفّت شخصيتهم إلى هذا المستوى. ذلك هو ديدن المترفين أن يعملوا على اشاعة الفسق ـ بهذا المعنى ـ ليستطيعوا تحقيق مآربهم وراء ذلك: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[٢].

وربما كان الترف نفسه عاملاً من عوامل التعصب لدى هؤلاء المترفين.

كما أنّ التكبر يشكل أحد العوامل لهذه الحالة السلبية وربما كان المثال القرآني أصدق تعبيراً عن هذا المعنى حيث يقول تعالى: ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبى وَ اسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ الْكافِرِينَ﴾[٣].

﴿قالَ ما مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ * قالَ فَاهْبِطْ مِنْها فَما يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيها فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصّاغِرِينَ﴾[٤].

وعلى أي حال؛ فالضعف في الشخصية الفردية أو الاجتماعية، والاعجاب بالنفس أو الطائفة والإفراط في الولاء، وتأثيرات النفعيين والمترفين.. كل هذه الأمور لها دورها المهم في تحويل الأمور النسبية إلى مطلقات. فالقبلية، والنسب، وأمثالها أمور نسبية قد تكون طبيعية في حدود معقولة، أمّا الخطر كله فيكمن فيما لو حاول إنسان أن يصعد بهذه الأمور إلى مستوى المطلقات والمعايير العامة، فحينئذ تكون الكارثة وعندئذ تكون الطائفية قد تجلت بأبشع صورها وأخسّ أشكالها.. وحينئذ يتحول النسبي النافع إلى قيد على الذهن الإنساني يمنعه من

---

١. الزخرف: ٥١ ـ ٥٤.

٢. الإسراء: ١٦.

٣. البقرة: ٣٤.

٤. الأعراف: ١٢ ـ ١٣.

الانطلاق الحضاري البناء، باعتبار أنَّ هذا النسبي يرتبط بظروفه الموضوعية، فاذا جعله مطلقاً لم يمكن للإنسان أن يتخطى هذه الظروف، وحينئذ فالجمود والانحطاط المقيت مآله.

إذن فنحن عندما ندين الطائفية وندعو إلى نبذها على الصعيدين الفردي والاجتماعي؛ لانقصد مطلقا: أن يتنازل الفرد أو المجتمع عن عقيدته وإيمانه، أو ألّا يميل عاطفياً إلى قومه أوطائفته أو وطنه أوحزبه الذي يشترك معه في هدفه الاجتماعي وأمثال ذلك. كما لانقصد إلا يدافع عن مبادئه التي آمن بها بقوّة ولا يعلن رأيه بكل صراحة، وألّا يعمل على تقوية الخط الذي يؤمن به بالسبل الايجابية الحصيفة. وإنّما الذي نعنيه ـ ويعنيه كل من ينطلق لإدانة هذه الصفة ـ من أسباب موضوعية إنسانية ـ يتلخّص في رفض كل انحياز غير موضوعي إلى عقيدة أو طائفة أو وطن أو قومية أو حزب أو غير ذلك، وكل ابتعاد عن المنطق السليم، والحوار الحرّ البنّاء، ومنع الآخرين من إبداء آرائهم بكل حرية، ومنع ذوي الاختصاص من مناقشة فكرة ما والوصول فيها إلى صخرة الواقع ولب الحقيقة.

وكذلك نقصد رفض كل عمل لئيم يبتني على احتلال المراكز وملئها بالعناصر الموالية دون لحاظ كفاءتها وآثارها السلبية على الدائرة التي ستتسلّط عليها ومدى خدمتها من خلال موقعها للهدف المعلن، وكذلك مدى التزامها الخط الأصيل.

ونقصد أيضا ـ فيما نقصد ـ إدانة كل المواقف التي لاداعي إنسانياً لها سوى نصرة هذا العنصر أو هذه الطائفة، بل وحتى لو كانت هذه في خط معاد للقواعد الإنسانية والأسس الفطرية للعدالة.

وأمامنا الكثير من الظواهر الطائفية والتعصبية نشاهدها على مختلف الصعد وهي تمتد في حياتنا البشرية من أعلى المستويات حتى تصل إلى التصرفات الشخصية.

والواقع أنَّ التعددية المذهبية شكّلت غنىً واسعاً للأمة وخيارات إسلامية للتطبيق، إلّا أنّها حينما تحوّلت في خطابها وتعاملها إلى طائفية عمياء جرّت الويلات وسالت لأجلها أنهار الدماء والدموع. فعلى المخلصين اليوم أن يعيدوها إلى الحالة الطبيعية بعد أن يطهّروا الخطاب الإسلامي منها.

الفصل الثاني: الدور الحضاري للأمّة

الأمّة الإسلامية وخيار السلام العالمي في إطار العلاقة المتوازنة بين الحضارات[1]

إنّ التحركات الجادة التي شهدتها الساحة العالمية خلال العامين الماضيين؛ بهدف بلورة فكرة الحوار بين الحضارات بصيغتها العلمية الموضوعية، تمثل نقلة أساسية في أساليب تفكير البشرية الرامية إلى تحقيق التوازن في العلاقة بين التيارات الحضارية والدينية والفكرية والقومية التي تتقاسم البشرية، وبالتالي العمل على تحقيق الطموح الذي طالما حلم به الإنسان منذ بزوغ فجره، وهو حلم تحقيق الأمن والسلام في الأرض. ومهمة كبرى بهذا الحجم، تستدعي التعامل معها بمزيد من التنظير العلمي الجاد والتخطيط الموضوعي، من ثم التنفيذ الواقعي الذي يستبعد التحركات الانفعالية السطحية أو الخطاب الاعلامي الدعائي؛ إذ أنّ المشاريع التي تتعامل مع مصير الإنسانية ببنى هشّة تعتمد الشعار والأهداف الدعائية، تؤول ـ دون شك ـ إلى الإخفاق، بل وقد يكون لهذا الاخفاق مردودات سلبية.

ومن هنا فنحن نكرّر التأكيد على ضرورة التعامل مع موضوع الحوار بين الحضارات تعاملا علمياً عقلانياً، ينطلق من مساحات الاشتراك التي تقف عليها البشرية، وينظر إلى التقسيمات الحضارية والدينية والاثنية نظرة واقعية تستبطن كل عوامل الاختلاف وإمكانيات اللقاء، ولايتجاوز المسلم فيها مبادئه العقائدية وأسسه الشرعية. وسنحاول في هذا البحث الانطلاق من هذه الحقائق في النظر إلى موضوع العلاقة بين الحضارات؛ بهدف

---

١. ألقي في ندوة الايسيكو «في الذكرى ١٥ لتأسيسها» المنعقدة بالرباط، بتاريخ ١٩٩٧/٣/٢.

تركيز دعائم الطريق الذي يوصل البشرية جمعاء إلى التفاهم من أجل أمنها وسلامها.

وهذا الطريق محفوف بالمخاطر والصعوبات والعقبات، وقضية إزالتها تحتاج إلى تعاضد الجهود وتلاقي الرؤى الخيِّرة لأبناء الإنسانية الذين يجمعهم مصير مشترك وواقع مشترك، سواء في حياتهم على الكرة الأرضية التي يتقاسمون تاريخها وجغرافيتها، أو في حياتهم الآخرة التي سيحصلون فيها على نتائج ماكسبت أيديهم.

الحوار حاجة إنسانية

منذ أن أحسّ الإنسان بحالة التنوع في المعتقد والمستوى المعيشي التوزيع الجغرافي والعمق التاريخي والانتماء الاثني مع الإنسان الآخر، فإنّه دخل في حلبة الصراع من أجل البقاء ومن أجل حياة أفضل أو من أجل فرض واقعه على الآخرين. وأثبتت هذه التجارب للإنسان طيلة آلاف السنين أنّه بحاجة إلى تقنين حالة الصراع والتدافع، وخفض نسبة سلبياتها إلى أدنى حد. ودفعته هذه الحاجة إلى تفهّم وجهة نظر الآخر، من خلال الحوار وتبادل الرؤى والأفكار. وأخذت أساليب الحوار مظاهر وألواناً مختلفة.

وقد تناولها كثير من المفكرين والباحثين وعلماء الدين ورجال السياسة من منطلقات مختلفة ولغايات متنوعة، ولكن القاسم المشترك الذي كان يجمع هذه الرؤى والدعوات هو ضرورة الحوار الإنساني بشتّى مضامينه ومجالاته. فظهرت دعوات للحوار بين الثقافات، وأخرى بين الأديان، وثالثة بين المذاهب، هكذا بين الشعوب والحكومات والقوميات وغيرها، فضلا عن الحوار بين الحضارات، والتي ظلت من الدعوات الأساسية والمهمة.

وفي هذا المجال هناك رؤى متنوعة أيضاً، فهناك من يرى بأنّ حوار الحضارات يجب أن يتمَّ بين الحضارات المتماثلة موضوعياً، مثلا: بين الحضارات الدينية أو الحضارات القديمة أو الحضارات القائمة أو المستمرة في وجودها أو بين المدنيات وغيرها. ولاشك أنّ لكل مجال أو مضمون من مضامين الحوار أساليبه ومناهجه المستنبطة من طبيعة موضوع الحوار نفسه.

وأوّد هنا الإشارة إلى أنّ دعوة الجمهورية الإسلامية الايرانية للحوار بين الحضارات، جاءت تتويجاً للجهود الكبيرة التي قامت بها، ومنذ تأسيسها؛ لتركيز حالة الحوار في كثير من مجالاته، ومنها الحوار بين المذاهب الإسلامية، والذي تجلّى بعشرات الندوات والمؤتمرات

العالمية والكتب والدوريات وغيرها، وكذلك الحوار الفكري بين المفكرين الباحثين من مختلف بلدان العالم الإسلامي، وأيضاً الحوار بين الأديان، ولاسيما بين الإسلام والمسيحية بمختلف مذاهبها. ويزيدني فخراً أن أكون أحد الداعين لهذه المظاهر الحوارية والقائمين عليها منذ أكثر من ثمانية عشر عاماً وحتى الآن.

ولايفوتني هنا أن أُذكِّر بأنّ الإمام الخمينيّ‏ؒ كان داعية الحوار الأوّل: إذ لم تقتصر دعواته على الحوار بين المسلمين، بل أنّه تجاوزها إلى الحوار مع غير المسلمين، بل ومع غير المتدينين، وأبرز مثال في هذا المجال هو رسالته إلى آخر رئيس للاتحاد السوفيتي ميخائيل غورباتشوف، والتي فتح فيها باب الحوار مع الحضارات والمدنيات والقوى الدولية. ولكن الموت حال بينه وبين إكمال مشروعه في هذا المجال... تغمّده الله بواسع رحمته.

الحوار مبدأ إسلامي

من خلال نصوص القرآن الكريم والصحيح من الحديث الشريف، نجد أنّ الإسلام دعا ـ وبصيغ مختلفة ـ إلى الحوار. كما دعا إلى التعاون مع الآخر المختلِف دينياً، كمقدمة ضرورية للحوار، فالتعارف هو مدخل الحوار ﴿يا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا﴾[1]. ويتمثّل التعارف بدراسة كل طرف .

لمتبنّيات وأفكار الطرف الآخر من مصادره نفسها، لتكون حجّة عليه؛ فضلا عن تبادل المعلومات ولقاءات المجاملة؛ لتكون مقدمة للحوار.

أمّا الحوار الذي يدعو إليه الإسلام، فهو حوار هادف، ويتّسم بالتجرّد والموضوعية والعلمية. وقد وضع القرآن للرسول‏ﷺ قواعد هذا الحوار في دعوته ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ﴾[2]، ويريد بذلك الاتفاق على حد معين من أسس الحوار الموضوعي. كما أنّ الرسول‏ﷺ في قوله لنصارى نجران ﴿إِنّا أَوْ إِيّاكُمْ لَعَلى هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[3]، يقصد التجرّد

---

١. حجرات: ١٣.

٢. آل عمران: ٦٤.

٣. سبأ: ٢٤.

في الحوار للوصول إلى الحقيقة مهما كانت، على الرغم من أنّه موقن بصحة معتقداته، إذ أنّ هذا اليقين لم يمنعه من الإيحاء إلى الطرف الآخر بأنّه سيدخل الحوار دون أن يحمل مواقف مبيّتة أو أحكاماً معدّة سلفاً.

والقرآن الكريم مليء بمختلف ألوان ومظاهر الحوار، ولاسيما الحوارات التي يقف الأنبياء والصالحون طرفاً فيها، والطرف الآخر أقوامهم أو الحكّام أو أتباع المعتقدات والديانات الأخرى. وقد رسم القرآن الكريم الخطوط العامة لمناهج وأساليب كل مظهر من مظاهر الحوار تلك. كما وضع أهدافاً مدروسة للحوار، فالحوار ليس هدفاً بذاته، بل هو وسيلة أهداف تعود بالفائدة على الدين الحنيف والإنسانية. وفيما يرتبط بفكرة حوار الحضارات بثوبها الجديد، فإنّها فكرة هادفة جادة، ولاتخرج عن كونها مبدأً إسلامياً ولغة قرآنية. ولعل من أبرز أهدافها محاولة التمهيد لتوازن دولي ووفاق علمي يكون فيه للحضارات والثقافات والحكومات والشعوب دور أساس، ومحاولة سدّ الباب أمام قوى الظلام والشر التي تمارس مختلف ألوان التمييز السياسي العنصري الجغرافي بين شعوب العالم، إضافة إلى كونه محاولة لتحقيق التكافؤ والشعور بالمسؤولية لدى كل من يقيم على هذا الأرض، تجاه الأرض وسكانها وبيئتها ومستقبلها. وبالتالي العمل المشترك على نشر السلام والأمن في كل العالم، وهو الهدف الذي يدعو إليه الإسلام... دين السلام والحوار.

المناخ المناسب للحوار

لاشك أن أيّ شكل من أشكال الحوار لابدّ وأن يتمّ في مناخ مناسب، يسوده الأمن والسلام، ويتّسم بتكافؤ الفرص بين المتحاورين، وحرية التعبير عن الرأي؛ وأن لايكون حوار القوي والضعيف أو الحاكم المستبد والمحكوم، ففي هذه الحالة يضيع أي تكافؤ بين المتحاورين، ويكون منطق السيف والخوف هو المتحكم بمسار الحوار، ومن الطبيعي أن لاينمّ مثل هذا الحوار عن أيّة نتيجة نافعة. وإذا خصّصنا الأمر في الحديث عن الحضارات، فإنّ إيجاد المناخ المناسب للحوار بينها، هو الشرط الأساس لدخول مثل هذا الحوار؛ لأنّ الحضارات تتباين فيما بينها في حجم القوة ونوعية الامتداد والاستمرار وطبيعة أدوات التعبير التي تمتلكها. والمناخ المناسب الذي يتمثل في الحوار المتوازن هو الوجه الآخر للعلاقة

المتوازنة المتكافئة بين الحضارات، والتي تختفي فيها أدوات الضغط ومنطق الترغيب والترهيب. ولانقصد هنا بأدوات الضغط الأدوات العسكرية فحسب، بل أدوات الضغط بكل أشكالها ومضامينها، والتي تعبِّر عن تفوق طرف على آخر، ومنها الأدوات السياسية والاقتصادية والعلمية والتكنولوجية، وصولا إلى أدوات التواصل والتعبير عن الرأي، بل حتى مناهج العلوم الاجتماعية والإنسانية، التي تؤسس لايديولوجية التفوق والقوة لدى عرق دون آخر ولون دون آخر. فهذه المناهج يمكنها أيضاً أن تكون أدوات للضغط خلال الحوار، فيستثمرها المتفوق في هذه المرحلة الزمنية[1] للقيام بالتأثير النفسي على الأطراف الأخرى ومحاولة مصادرة آرائها، وإيقاع الهزيمة بها بسلاح المنهج العلمي المزعوم.

الحوار وهدف تحقيق الأمن والسلام

الأمان مطلب إنساني فطري يستمد جذوره من أهم غريزة وجدت في فطرة الإنسان، وهي غريزة «حب الذات». وتعمل هذه الغريزة مع باقي الغرائز الأخرى بشكل متناسق لتحقيق سير إنساني متوازن نحو الأهداف التكاملية العليا للإنسان؛ فلا يكفي وجود الدوافع الغريزية لتأمين المسير المتوازن، وإنّما يجب تأمين جو طبيعي للذات الفردية والذات النوعية؛ كي تدفعها ـ تلك الدوافع ـ نحو أغراضها المنشودة.

وتأكيداً من الفطرة نفسها على توفير الجو الآمن، نجد العناية الإلهية قد غرست فيها بديهيات الحكمة العملية، والميول نحو العدل، والنفور من الظلم والاعتداء، بل ومنحتها القدرة على تعيين الكثير من مصاديق العدل والظلم، ممّا يمهّد لها السبيل للاتصال بالخالق العظيم وتقديم معاني الولاء له، وحينئذ تنفتح لها آفاق الوحي، وتكتشف بذلك الأطروحة السماوية الرحيمة التي تعطيها المخطط الكامل للمسيرة، وتضمن لها كل ما يوصلها إلى أهدافها.

فالأمن ـ إذن ـ حاجة إنسانية دائمة لاتغيّرها الظروف، وليست ظاهرة عرضية حتى

١. ونقصد به التفوّق عسكرياً وسياسياً واقتصادياً في هذه البرهة الزمنية التي نعيشها الآن، هذا التفوق النسبي الزمني يحاول المتفوق أدلجته في إطار ما يسمّيه بمناهج العلوم الإنسانية والاجتماعية، واعتباره حقيقة علمية ثابتة على مستوى المكان والزمان. بيد أنَّ حقائق الزمان والمكان تشير إلى عكس ما تذهب إليه تلك المناهج.

يقال؛ بأنّها معلولة لوضع اجتماعي معين إذا ما تبدّل تبدّلت هذه الظاهرة معه. ومن هنا فمن الطبيعي أن نتصوّر الحاجة إلى نظام شامل يتكفّل حماية الأمن الفردي والاجتماعي على مدى مسيرة الإنسان الطويلة. ولايمكننا أن نتصور حدوداً لمسألة حماية السلام والأمن إلاّ في إطار مسألة التكامل الإنساني ذاتها. وذلك أمر طبيعي، بعد أن ندرك أنّ الفطرة هي ـ إجمالا ـ معيار الحقوق الإنسانية كلها، وأنّها أيضاً تحدد إنسانية الإنسان وأهدافه، وتفرض حماية الأمن الإنساني لتحقيق الهدف الكبير. وحينئذ لن يقبل الأمن تحديداً إلاّ إذا خرج عن وظيفته الحياتية، وعاد عنصراً ضد الأمن نفسه، فلا معنى ـ إذن ـ لضمانه. وإلاّ فكيف نتصوّر الفطرة التي أعلنت الحاجة إلى الأمن وهي تسمح للفرد بالقضاء على أمن نفسه هو، أو أمن الآخرين، وبالتالي على أمن المسيرة الإنسانية كلها دون أن تحدده بما يردعه عن فعلته، حتى لو أدّى ذلك إلى تهديد أمنه؟

وإذا شئنا تتبع المحاولات الإنسانية الحضارية الجادة لتوفير جوٍّ آمن للبشرية جمعاء، فإنّ علينا أن نتتبّع ـ أوّلا ـ محاولات الأديان، باعتبارها أقدم الظواهر في حياة الإنسان وأكثرها دعوة للكمال كهدف إنساني، وأشدّها سعياً لتحقيقه، ثم نستعرض ـ ثانياً ـ محاولات الفلاسفة المتنوعة لبناء القوة العادلة العاقلة التي تضمن للبشرية هذه الحاجة، ونصل ـ ثالثاً ـ إلى المحاولات الشخصية والجماعية لضمّ العالم تحت حكومة واحدة، منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا، بشتّى الحجج والدوافع والشعارات، وفي طليعتها شعار تأمين العدل لكل البشرية، والدفاع عن حقوق المحرومين وتوفير السلام العالمي.

خيارات البشرية لتحقيق الأمن والسلام

هناك عدة خيارات أمام البشرية، متمثلة في الأطروحات التي جرّبتها البشرية أو لم تجرِّبها، وكلها ترفع شعار تحقيق الأمن والسلام العالمي، ولكنّها تختلف في المضامين والوسائل والأساليب، وأهمها:

١. السيطرة الدكتاتورية على كل العالم بالحديد والنار، بذريعة أنّها الوسيلة الوحيدة لضمان الأمن العالمي. هذه الأطروحة ـ كما نرى بوضوح ـ تحمل في داخلها تناقضاً تصعب

إزالته أو تسويغه، حتى من قبل الذين يتبنونها، الأمر الذي يضطرهم لرفع شعارات أخرى لتسويغ نواياهم الحقيقية غير السليمة. وأبرز من تبنّى هذه الأطروحة: «النازية».

٢. السيطرة الطبقية، أي سيطرة طبقة معينة على باقي طبقات المجتمع العالمي؛ باعتبارها المقدمة الوحيدة لخلاص البشرية من شرور الاستغلال والعدوان والاستعمار، والتي تحقق الانسجام الوحيد مع نوعية الإنتاج الاقتصادي؛ الأمر الذي يؤدّي إلى توفير كل حاجات الناس دون استثناء، وقيام المجتمع الشيوعي الذي يحقق كل الرغبات العامة، وتختفي فيه الذاتية وتسوده الـ«نحن» الإنسانية، حتى لاتبقى هناك أيّة حاجة للقانون أو القضاء أو الدولة. وهذه الأطروحة ليست إلاّ خيالا جامحاً لاينسجم مع فطرة الإنسان وأصالتها؛ بل إنّها تنفي أيّة جذور فطرية، مما يؤدّي بالتالي إلى نفي إنسانية الإنسان نفسها. وهذه النتيجة يرافقها بطبيعة الحال ـ اعتداء تاريخي مرير على كل مرافق الأمن ووسائل السلام، وسلب قاس للحريات والحقوق الإنسانية، وهو ما حفلت به التجربة التاريخة للأطروحة، من ممارسات عنف واضطهاد وسفك للدماء صادرت كل دعامة للأمن والسلام، ثمّ إنّها تجربة انهارت قبل أن تحقّق أياً من أهدافها الأساسية.

٣. الشعوب الحرة المتعايشة التي تحكمها النظم الديمقراطية، والتي تتنافس فيما بينها تنافساً حراً يعود على الإنسانية جمعاء بالخير والأمان. برغم أنّ هذه الأطروحة لم يصرح بها أحد بصورة نظرية متكاملة. ولكنّها تعبير عن الواقع الذي تدعو له الأطروحة الرأسمالية الليبرالية والديمقراطية تحت اسم «العولمة»، والتي تعتقد بأنّ الحرية هي أساس السعادة الإنسانية وهي التي تكفل تحقيق التكافؤ بين الشعوب، وبالتالي تعميم السلام في الأرض. وتفسِّر هذه الأطروحة الحرية بما ينسجم وتحقيق الفرد لطموحاته، باعتبارها مدخلا لتحقيق المجتمع لطموحاته وتقدمه على المدى البعيد. وتفترض هذه الأطروحة إمكانية قيام حكومات ديمقراطية ـ بكل ما للديمقراطية من معنى نظري ـ في كل أنحاء العالم. وأنّ هذه الحكومات تتعامل مع بعضها على أساس التنافس البنّاء دون تعدٍّ على الحدود والحقوق. ويتم ذلك في إطار عرف دولي مدوّن يضمن طرح أسس عادلة للعلاقات الدولية. وهذه الافتراضات هي في حقيقتها ـ مجرّد خيال؛ لأنّها لاتمتلك اي أساس إنساني واقعي ولاتؤيدها

التجربة التاريخية الحضارية الإنسانية. إذ أنّ الإنسان الذي يملك أبعاده النفسية ونزعاته الذاتية، إذا لم نضمن التربية الروحية التامة له، وسلبناه كل ما يؤدي إلى تربية إنسانية، وسرنا به نحو حيوانية منظّمة! فإنّ من المستحيل تصوّر سير تكاملي طبيعي ومتوازن له. وإذا تجاوزنا الجانب النظري إلى الجانب التطبيقي فسنرى أنّ التجربة التي مارستها الأنظمة الديمقراطية التقليدية منذ انبثاقها وحتى الآن وما أسفر عن ذلك من حروب وحركات استعمارية وانتهاك لحقوق الشعوب الأخرى وعدوان على الحريات الإنسانية، والتي حولت العولمة إلى أمركة صارخة، هذه التجربة لايمكنها خلق أيّة أرضية للأمن والسلام العالمي.

٤. القبول بالواقع القائم على ما هو عليه، وقيام منظمة دولية على غرار منظمة الأمم المتحدة، تأخذ على عاتقها تنظيم العلاقات بين الدول والشعوب، وإصدار بيانات ومقررات وبروتوكولات عالمية ملزمة، بهدف ضمان السلام العالمي، ومن ثم السهر على استمراره من خلال مختلف الآليات. ومن هذه الآليات، أنّها منحت كل الدول ـ على اختلاف عدد سكانها وحجم مساحتها قوتها ـ مقعداً واحداً وصوتاً واحداً في الجمعية العامة. بينما منحت مجموعة من القوى العظمى حق النقض «الفيتو» في مجلس الأمن الدولي، والذي شكّلته هذه الأطروحة لحفظ الأمن العالمي وضمانه! وهذه الأطروحة ـ هي الأخرى ـ مليئة بالسلبيات، وأبرزها آلية ضمان حفظ الأمن نفسها، والتي أعطت من خلالها للدول الكبرى حق النقض في مجلس الأمن، وهي دول تسعى لتحقيق مصالحها على حساب الدول الأخرى. اضافة إلى أنّ هذه الأطروحة لم توجد أيّة آلية لإلزام الدول بقوانينها، وبذلك يمكن لأية دولة أن لاتنضم للمعاهدة أو البروتوكول الذي لاتجده منسجماً مع أهدافها ورؤاها. وإذا ما وجدت قوانين عقوبات دولية رادعة ـ وهي نادرة ـ فإنّ القوى الكبرى هي التي تنفّذها وفقاً لما تمليه عليه مصالحها وليس وفقاً لمصلحة الأمن العالمي. وبذلك فإنّ السلام العالمي في هذه الأطروحة يُنظر إليه من خلال مصالح القوى العظمى فقط، فهو ـ إذن ـ سلامٌ ضد السلام.

٥. الدولة العالمية الواحدة، القائمة على أساس التوحيد الإلهي، والقسط والعدل، والشورى، والقيادة الإنسانية الرشيدة، والنظام الإنساني الذي يقرّ حرية الإنسان وحقوقه في مضامينها وأشكالها التكاملية الطبيعية. هذه الأطروحة تتمتع بكل نقاط القوة التي تجعل

منها الضامن الوحيد للسلام العالمي، فضلا عن أنّها لاتحتوي على نقاط الضعف الموجودة في الأطروحات الأخرى التي استعرضناها. إلاّ أنّ هذه الأطروحة ـ برغم واقعيتها ووجود الإمكانية ـ الكاملة لتحقيقها ـ تواجه عقبات كأداء، وتحتاج إلى تضحيات جسيمة، ولكنها تبقى الخيار الوحيد للبشرية. ومن هنا نرى ضرورة الاتجاه نحو المبادئ التي تدعو لها هذه الأطروحة، واكتشاف المبدأ الأصلح الذي ينسجم مع أسسها ومعالمها وروحها، ثم التعرّف إلى الأمّة التي تحمل هذا المبدأ، والعمل على تأصيل خصائص هذه الأمّة والانطلاق ـ بعد ذلك لنشر حالة الإيمان بهذه الأطروحة بين أبناء البشرية. ولكي لانتّهم بأنّنا نجنح إلى الخيال في عرضنا لهذه الأطروحة، فإنّنا نؤكد على أنَّ هذه الأطروحة هي الخيار الذي يطرحه الإسلام نفسه لانقاذ البشرية ونجاتها من الظلم والجور ونشر القسط والعدل والسلام في ربوع الأرض. وينبغي أن نلاحظ حقيقة مهمة، وهي أنّ مثل هذه الدولة العالمية لاتوجب ـ بالضرورة ـ أن يكون أبناؤها على دين واحد ومذهب واحد، وإن كانت الوحدة في هذا الجانب من مقوّمات الترابط الكامل بين المجتمع العالمي الذي تستوعبه هذه الدولة، إلاّ أنّ ذلك ليس شرطاً ضرورياً لقيام هذه الدولة.

ونحن نعتقد بأنّ البشرية ستسير باتجاه تحقيق هذا الهدف ـ عاجلا أم آجلا ـ إذ أرادت لنفسها أن تضمن مسيرة متوازنة واحدة متكاملة تحقّق أهداف الإنسان، وتضمن تناسباً بين الثروة الموجودة في الطبيعة وسرعة التكاثر الإنساني واحتياجات الأجيال الجديدة، وتضمن سلاماً عالمياً يغني العالم عن الحروب والنزاعات التي لا طائل من ورائها غير إفناء الإنسانية وإهدار ثرواتها، وتضمن ـ أخيراً ـ الحقوق والحريات للإنسان بصورة حقيقية، وفقاً للموازين المعنوية العادلة التي تخدم تقارب البشرية عموماً وبالتالي فإنّ هذا التصوّر هو طموح نسعى إليه ويجب أن نعمل للتمهيد له[١].

حكومة السلام العالمية والتمهيد لها

إنّ حكومة السلام العالمية هي حقيقة إنسانية، كما هي حقيقية دينية وإسلامية؛ فالبشرية

---

١. انظر: للكاتب نفسه، الإسلام والأمّة والسلام العالمي، بحث القاه في مؤتمر عقد في عام ١٩٨٨ بمدينة لاهاى بهولندا.

على مختلف معتقداتها وايديولوجياتها تراهن على الزمن الذي تقوم فيه حكومة العدل العالمية، وهو رهان يستند على قاعدة الوعود التي تحتويها الفلسفات والأديان، والمتمثلة بحتمية استتباب السلام في أرجاء العالم في ظل حكومة تربط عدالة الأرض بتعاليم السماء. وهذه الوعود لاتقتصر على الإسلام فحسب برغم أنّ الإسلام يعطيها شكلا ومضموناً عقائدياً في غاية الوضوح، ويتحدّث عنها كحقيقة تربط بين ماضي الإنسانية وحاضرها ومستقبلها، ويطلق على هذه الحقيقة اسم حكومة المهدي المنتظر، التي ستعمُّ العالم أجمع، وتنشر العدل والقسط والسلام فيه وتقضي على كل ألوان الظلم والجور والعدوان. ومن هنا فقضية المهدي ترتبط بمصير الإنسانية جمعاء أو مصير الأرض برمتها، وحري بجميع سكان الأرض أن يجعلوها مادة للحوار فيما بينهم ونحن كمسلمين مكلفون بالتمهيد لعصر ظهور هذه الحكومة، وهو ما أطلقت عليه الأدبيات الإسلامية مصطلح «الموطّئون»[١].

ونطرح هنا مجموعة من المقدمات التي ينبغي لهؤلاء «الموطئين» توفيرها في إطار عملية التمهيد لتحقيق الحتمية الموعودة:

١. إعادة القيم المعنوية التي تدفع الإنسان باتجاه التخلص من معايير القيم المادية الأرضية، والتمسّك بالقيم الروحية السامية، وهي مهمة تقع على عاتق كل الأديان والمعتقدات الروحية والإنسانية الصافية.

٢. تركيز حالة الحوار بين الأديان، دون أن تقتصر محاوره على القضايا اللاهوتية، بل تتعداه إلى التعاون في جميع قضايا الإنسان، ومحاولة تلبية حاجاته المادية والروحية.

٣. معالجة المشاكل الاجتماعية معالجة عصرية وافية، من خلال دراستها بعمق ودقة وموضوعية.

٤. العمل الجاد على تطبيق مبادئ حقوق الإنسان وتوسيعها ورفع ما يشوب نظريتها من نقاط ضعف واستغلال، ومنها إمكانية الاستغلال السياسي والازدواجية بين النظرية والتطبيق وسياسة الكيل بمكيالين.

٥. إشاعة مفهوم الحكومات القائمة بصورة حقيقية على إرادة الشعوب، والتي تحفظ للإنسان كرامته وحقوقه.

---

١. انظر: للكاتب نفسه، مقدمة كتاب بحث حول المهدي. للامام الشهيد محمد باقر الصدر.

٦. الدفاع عن الثقافة العالمية القائمة على الفطرة الإنسانية، أي الثقافة التي تنسجم مع فطرة سكان الأرض وتمثّل المساحة الإنسانية المشتركة فيما بينهما، وفي الوقت نفسه تحترم الخصوصيات الثقافية للشعوب. وهذا يعني رفض ما يعرف بالعولمة بكل ألوانها ولاسيما العولمة الثقافية التي تقوم على أساس هيمنة ثقافة المتفوقين سياسياً وعسكرياً وإعلامياً واقتصادياً، أو التي تضمن مصالح القوى العظمى بذريعة عولمة الثقافة.

٧. إشاعة روح التسامح الديني والثقافي بين أتباع مختلف الأديان المعتقدات مع الاحتفاظ بالقيم الفطرية، وهذا لايعني توزيع الحقيقة بنسب متوازنة على الجميع بالصورة التي تقول بها فرضية التعددية بمناهجها الغربية، بل يعني السماح للرأي الآخر، والقبول به كرأي مختلف، والتحاور معه، للوصول إلى مساحات وقناعات مشتركة.

٨. تقوية بنية العائلة وتركيز قيم التعاضد والتكافل والتعاون فيها، باعتبار العائلة اللبنة الأساسية للمجتمع الإنساني.

عالمية الإسلام وطموح تحقيق الأمن والسلام

لا شكّ أنّ الإسلام يحمل في داخله القابلية المطلقة على تحقيق كل طموحات الإنسان في حكومة الأمن والعدل التي تنشر السلام في كل الأرض، يعلن الإسلام عن هذه القابلية ويقيم الأدلّة على صحتها. فالإسلام ـ ابتداءً ـ هو دين عالمي ورسالته موجّهة لكل البشرية، فهو ـ إذن ـ الصيغة التي يريدها الله تعالى للبشرية: ﴿يا أَيُّهَا النّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾[١]،﴿وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنّاسِ بَشِيراً وَ نَذِيراً﴾[٢]. كما أنّه الصيغة التي تنسجم مع الفطرة بكل أبعادها وقيمها: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[٣]. وهو دين التكامل والحياة الحقة: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذا دَعاكُمْ لِما يُحْيِيكُمْ﴾[٤]. والإسلام أيضاً هو الدين الذي يدعو إلى تشكيل دولة

---

١. الأعراف: ١٥٨.

٢. سبأ: ٢٨.

٣. الروم: ٣٠.

٤. الأنفال: ٢٤.

عالمية تقوم على أساس التوحيد، وتسعى لبناء القسط، ونشر العدل، وتحقيق مبدأ الشورى في شتّى نواحي الإدارة ونظم الحياة، ويضع نظاماً لقيادة عادلة رشيدة، ويعترف بالحرية الإنسانية الفكرية والشخصية والسياسية والاقتصادية، ولكن في أطُر عادلة حكيمة تضمن بقاء الحرية دعماً لمسيرة التكامل، بدلا من تحولها إلى معول يهدم أركان هذه المسيرة، كما تضمن حقوق الإنسان كأروع ما يكون الضمان بعيداً عن الادعاءات الفارغة والتناقضات التي وقّع بها «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان»، بالرغم مما فيه من جوانب إيجابية. ومن تلك الحقوق حق أتباع الأديان الأخرى التي تعيش في كنفه وتنعم بما يضمنه لها من قوانين تجعلها تحيى حياة ملؤها الأمان والرقي.

كما أنّ الإسلام ـ بعد أن ينفي كل معايير التمايز المادية، من قبيل التمايز العرقي، واللوني، والمالي، والجغرافي، والمقامي وغير ذلك، يقيم بناءه الاجتماعي على أساس معايير الالتزام المبدئي، والعلم، والخدمة التضحوية في سبيل الإنسان ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[1]، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2]. هذا في حين يركّز على المحرومين والمستضعفين من الناس ويعمل على إنصافهم من ظالميهم المستكبرين، ويقاتل في سبيلهم حتى يستنقذ حقوقهم.

وبالنسبة للسلام والأمن في العالم، نجد الإسلام ـ بمقتضى انسجامه مع الفطرة ـ يعتبر «الأمن» من نِعم الله الكبرى على الإنسان: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هٰذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَ آمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾[3]. ويعتبر الأمن العبادي من أرقى حالات الإنسانية التي وعد المؤمنون بها عبر التاريخ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾[4] ولكي يوفّر لكل المؤمنين في الأرض ميداناً

---

١. الزمر: ٩.

٢. الحجرات: ١٣.

٣. قريش: ٣ و ٤.

٤. النور: ٥٥.

حُرّاً يلتقون فيه في ظل ولاية الله تعالى وفي ظل رحمته ويقولون فيه كلمتهم الحقة، فقد جعل البيت الحرام مثابة للناس وأمناً: ﴿وَ إِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثابَةً لِلنّاسِ وَ أَمْناً وَ اتَّخِذُوا مِنْ مَقامِ إِبْراهِيمَ مُصَلًّى﴾[١].

فالأمان هبة الله للبشرية ـ يجب أن يتوفّر لها بشكل دائم، اللّهم إلاّ أن يعمل بعضهم على محاربة دين الأمان والوقوف في وجه التكامل الإنساني وتهديم المسيرة المتوازنة، وحينئذ فلا معنى للأمان، مع ذلك نجد الإسلام يدعو الدولة الإسلامية إلى الجنوح للسلام إن بدت مثل هذه الرغبة من الطرف الآخر فقال: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَها وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[٢]. ولكي لايتحول الاختلاف العقائدي إلى صدام دموي عنيف يدعو الإسلام مخالفيه إلى كلمة سواء بينه وبينهم، فيقول: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنّا مُسْلِمُونَ﴾[٣] كما يربّي الإنسان المسلم دائماًعلى الدفع بالتي هي أحسن لنفي العداوة والبغضاء. إلاّ أنّنا نؤكّد أنّ هذا كله إنّما يتم مع أولئك الراغبين في السلام. أمّا المحاربون لله ورسوله ونظامه والساعون للفساد في الأرض من المستكبرين فليس لأحد أن يهادنهم ويسالمهم في مسعاهم الهدام.

الأمّة الإسلامية والمسؤولية تجاه السلام العالمي

إنّ الأمّة الإسلامية بطبيعة الحال ـ هي حاملة رسالة الإسلام، والأجدر بالسعي الحثيث لتنفيذ توجّهات الإسلام الإنسانية على الصعيد العالمي. الإسلام يصف هذه الأمّة بأنّها خير أمة: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ تَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾[٤]وهل هناك شيء أقرب للنفوس السليمة من السلام والأمن القائم على أسس رصينة؟

---

١. البقرة: ١٢٥.

٢. الأنفال: ٦١.

٣. آل عمران: ٦٤.

٤. آل عمران: ١١٠.

إنّ الإسلام يعطي مفهوم الأمّة مساحة إنسانية واسعة تتجاوز الحدود الزمانية والمكانية عندما يخاطب مجموع الأمم الموحدة بقوله: ﴿إِنَّ هٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾[١] وعندما يجعل كل الأنبياء في مسار واحد لتحقيق هدف واحد: ﴿وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَ اجْتَنِبُوا الطّاغُوتَ﴾[٢] ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنا رُسُلَنا بِالْبَيِّناتِ وَ أَنْزَلْنا مَعَهُمُ الْكِتابَ وَ الْمِيزانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[٣]. وهو يحمّلها المسؤولية العالمية في شتّى المجالات عندما يجعلها الأمّة الشاهدة على الناس، وهو مفهوم حضاري واسع: ﴿وَ كَذٰلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[٤].

ونعرف هذا المضمون الحضاري من التقابل بين شهادة الرسول على الأمّة وشهادة الأمّة على الناس باعتبارها شهادة النموذج والمعيار على كل السلوكات الأخرى، وعلى هذا الغرار تأتي الأوصاف الأخرى من قبيل الأمّة الخليفة، والأمّة القائمة بالقسط وغير ذلك.

وعليه، فمسؤولية الأمّة الإسلامية كبيرة تجاه السلام بمعناه الحقيقي هي كمسؤوليتها تجاه توفير الأجواء المناسبة لمجموع البشرية لتتجلّى طاقاتها البشرية في مجال عبادة الله ونفي مظاهر الطاغوت ـ وهو المرض الخطير الذي يعمي الفطرة ـ وبالتالي السير لإعمار الأرض وتكوين المجتمع العالمى الذي يعبدالله آمناً لايشرك به شيئاً: ﴿وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾[٥].

وعندما نتصوّر المسؤولية يتبادر إلى الذهن تصوّر الشروط الطبيعية التي يجب أن تتوفر أوّلا حتى يمكن القيام بالمسؤولية الجسيمة، والتناسب بينها وبين شروطها أمر طبيعي. وما نتصوّره من شروط يتلخّص في مايلي:

١. وعي الأمّة الإسلامية ـ بكل تأكيد ـ لإسلامها بأسسه العقائدية ومفاهيمه ونظمه التي تمتد إلى كل مجالات الحياة.

---

١. الأنبياء: ٩٢.
٢. النحل: ٣٦.
٣. الحديد: ٢٥.
٤. البقرة: ١٤٣.
٥. النور: ٥٥.

٢. سعيها الحثيث لتطبيق التعاليم الإسلامية وتجسيدها في حركتها الاجتماعية، وتحكيم النظم الإسلامية سياسياً وفردياً.

٣. وجود سعي حثيث أيضاً لبناء الذات المسلمة بناءً أخلاقياً يضمن لها الرقي المعنوي والتكامل النفسي كما يغذّيها بكل عناصر تغليب المصلحة الاجتماعية على المصلحة الفردية الضيّقة وذلك عبر اليقين بسعة الحياة إلى حد الخلود وتركيز الحب الإلهي في النفوس بشكل يسمو بالإنسان على أنماط التعلّق الشديد بالدنيا، وهي أخوف ما يخاف على الإنسان المسلم الواعي.

إنّنا نؤكد على ضرورة توفّر عنصر البناء الروحي باعتباره المموّن الرئيس للإنسان بعناصر الصبر والتضحية في سبيل المبدأ وتجاوز العقبات الكبرى: ﴿فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَ ما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُّ رَقَبَةٍ * أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مِسْكِيناً ذا مَتْرَبَةٍ * ثُمَّ كانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ تَواصَوْا بِالصَّبْرِ وَ تَواصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾[1].

٤. على أنّ البناء الأخلاقي يجب أن يصاحبه بناء نفسي ثوري عاطفي حار، يدفع المسلم للتحرق الدائم لإسلامه ولقرآنه وقوانينهما والجهاد لتطبيق هذه التعاليم والتفاعل العاطفي مع كل الحوادث التي تلم بالرسالة وبالأمّة، لايقف منها، موقف اللامبالاة والرهبنة والانعزال عن التيار العام. فيجب أن تورقه كل ضربة توجه للمستضعفين في الأرض، ويجب أن تؤلمه كل خطوة ظالمة يخطوها المستكبرون الظالمون، ويجب أن لايقرّله قرار عندما ينتهك حكم من أحكام الله، أو يسلب منصب إسلامي من قبل المتسلّطين، أو تهدر ثروة إسلامية في سبيل تحقيق الأهداف المحرّمة، أو تنهب أرض أو يقتل شعب، أو تنتهك حقوق المسلمين. ونحن نعتقد أنَّ فقدان مثل هذه الروح الثورية يعني فقدان خصيصة حركية ضخمة قد تؤدي إلى موت الأمّة أو قعودها عن واجباتها التاريخية.

٥. حصول التقدم العلمي والحضاري المطلوب، فلاتستطيع أمة أن تدّعي لنفسها أنّها الطليعية في حين تسبقها الأمم الأخرى في المضمار العلمي والتقني والتطبيقي والإداري، وفي مجال إدارة دقّة السياسة الخارجية، ووعي الأحداث العالمية، واتخاذ المواقف المناسبة منها.

---

١. البلد: ١١ ـ ١٧.

٦. الوحدة الإسلامية هي أهم عامل يجب توفره في الأمّة الإسلامية، وبدونها لن تستطيع الأمّة أن تحقّق أياً من أهدافها الحضارية، بل ستبقى لقمة سائغة بيد أعدائها. وقد وضع الإسلام خطة واسعة الأبعاد لتحقيق هذه الوحدة الإسلامية بأمتن ما يمكن، وأهم هذه الأبعاد:

أ. إنّ الإسلام وضع تصوّراً كونياً موحّداً وركّزه في أذهان المسلمين ليشعروا بوحدة الكون وترابطه في إطار التوحيد الإلهي الخاص.

ب. إنّه أقام العلاقة بين حلقات التاريخ الإنساني على أسس واحدة.

ج. إنّه وحّد المنطلقات الإنسانية والأهداف والسبل بين المنطلقات والأهداف.

د. إنّه أقام دوائر متداخلة من العلاقات الاجتماعية التي تعمل كلها على تحقيق الغرض.

هـ. إنّه ركّز نوعاً رائعاً من الترابط في المشاعر والمقاييس الموحّدة.

و. قامت النظم الإسلامية المختلفة بعملية تقوية الأواصر الإسلامية في شتّى المجالات العبادية والاجتماعية والحقوقية والاقتصادية وغيرها بما لايتّسع المجال له هنا.

وأخيراً... فإنّ مجمل هذه التصورات نضعها بين أيدي دعاة الحوار بين الحضارات للتأمُّل فيها وتدارسها، بغية الوصول إلى مساحات مشتركة تقف عليها البشرية، وتحقّق من خلالها الأمن والسلام في العالم.

قيم الحوار والتعايش في الرؤية الثقافية الإسلامية[1]

الرؤية الثقافية الإسلامية رؤية هادفة، تنطلق من مرجعية مقدّسة للحياة الإسلامية تعطيها شكلها ومضمونها المتميّزين. وتستبطن هذه الرؤية مجمل أسس عملية التغيير الاجتماعي الشامل، فهي الإطار الذي يجمع في داخله مختلف مجالات التغيير. ومهما اختلف علماء الإجتماع والنفس والانثربولوجيا والإعلام في تحديد مفهوم الثقافة أو الرؤية الثقافية، فإنّهم يتفقون على دورها الأساسي في رسم تفاصيل حياة المجتمع والفرد وتحديد أنماطها، أي أنّها بكلمة أخرى: العنصر المركب الذي يحدّد الأفكار والسلوك والظواهر الاجتماعية.

١. قدم إلى مؤتمر «التنمية الثقافية في العالم الإسلامي وتحديات المستقبل»، بتاريخ ٦/٥/٢٠٠٠، في الرياض السعودية والذي نقل بعد ذلك من قبل الإيسيكو إلى برلين في ألمانيا.

ويعدّها الأمام الخميني «المصنع الذي يصنع الإنسان» و«طريق إصلاح المجتمع»[١] أو أنّها ـ كما يقول المرحوم مالك بن نبي ـ الدستور الذي تتطلّبه الحياة العامة، بجميع ما فيها من ضروب التفكير والتنوع الاجتماعي[٢].

وهنا يأتي الحوار ليعطي للاختلاف بعداً إنسانياً يضعه في شكله الطبيعي، ولا يسمح له بالتحوّل إلى طاقة تدميرية، بل أنّ الحوار يخفض من مستوى سلبيات الاختلاف ويرفع من مستوى إيجابياته ليكون الاختلاف في هذا الإطار رحمةً وخيراً، ودافعاً للإصلاح والمراجعة المستمرة. وهذا البعد يمنح الحوار مضموناً مصيرياً وموقعاً استراتيجياً في استمرار الحياة بطعمها المستقر، وإبقاء الجنس البشري بمستوى ما حباه الله من عقل وقدرة على التفكير والاختيار.

إنّ الحوار أداة للكشف عن الحقائق والأشياء الخفيّة، ومن خلاله تتمّ الإجابة على كثير من علامات الاستفهام والإشكاليات العالقة في الذهن، أو تزيد من القناعات الذاتية، كما يمكن من خلاله كشف الباطل ودحضه وكشف مؤثّرات ودلائل بطلانه.

وبشكل مجمل فإنّ الحوار ينضج الأفكار والقرارات؛ ففي الجانب الفكري والثقافي مثلا ـ ينمّي الحوار الأفكار ويعمّقها، ويشذّبها مما يعلق بها من انحراف أو جمود أو شوائب، ويحرّك العقل باتجاه الإبداع والتجديد والتحرّر، في الحدود التي تفرضها مرجعية الاختلاف. وفي الجانب السياسي الاجتماعي، يلعب الحوار الدور نفسه في تنضيج القرار الاجتماعي والسياسي وإشعار الآخرين بالمسؤولية وأهمية الموقع الذي يحتلونه، بل أنّ بعض الأنماط تعدُّ في دائرة المسلمين لوناً من ألوان الشورى.

وبالتالي فالحوار في الإسلام يعبّر عن قيمة حضارية؛ لأنّه أسلوب الأنبياء في التبليغ والدعوة. فقد انتشر الإسلام بالحوار والوعظ والمحاجة والقول الحكيم، والذي أوصله إلى أقاصي الدنيا، ولا سيما أفريقيا وشرق آسيا وامريكا، هو الحوار. هذه البلدان التي يقطنها اليوم مئات الملايين من الناس، دخلت الإسلام بالحوار، فالإسلام هو دين الحجّة ودحض

---

١. «النظرات الثقافية للإمام الخميني»، إعداد: كبرا أسدي.

٢. «شروط النهضة»، ص١٣٠.

الباطل بأسلوب الحكمة ﴿ادْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1] ولابدّ من الإشارة هنا إلى أنّ الحوار ليس الاستراتيجية الوحيدة في نشر الدين والدعوة والتبليغ، رغم أنّه استراتيجية أساسية، ورغم أنّه موقف يتّخذه المسلم أساساً في الحركة، إلاّ أنّ الاستراتيجية تتغيّر وفق موقف الطرف الآخر.

مجالات الحوار

تتنوّع مجالات الحوار الإسلامي بتنوع أطرافها ووسائلها وموضوعاتها ولهذا التنوّع أكثر من معيار للقيم، فعلى أساس معيار أطراف الحوار، يمكن تقسيمه إلى:

ـ حوار بين الأفراد (عامة الناس، أو النخب، علماء دين ومفكّرين أكاديميين ومثقفين وغيرهم)؛

ـ حوار بين الشعوب؛

ـ حوار بين الجماعات؛

ـ حوار بين المذاهب؛

ـ حوار بين الحكومات (ثنائي أو في إطار المنظمات والمؤسسات)؛

ـ حوار مع الأديان الأخرى؛

ـ حوار مع المدنيات والحضارات الأخرى.

كما ينقسم على أساس معيار الوسائل إلى:

ـ حوار مباشر، يتم بين أطرافه بحضور عامة الناس أو عبر وسائل الاعلام (التلفزيون، الإذاعة... الخ)، وهو الحوار المباشر المفتوح الذي يصطلح عليه عادة بـ«المناظرة»، أمّا الحوار المباشر المغلق، فهو الذي يجري بعيداً عن الآخرين، ويقتصر على المتحاورين وبعض المراقبين.

ـ حوار غير مباشر، عبر الصحافة أو الرسائل (أو المراسلات) أو عبر طرف ثالث.

وعلى أساس معيار المادة أو الموضوع، ينقسم الحوار إلى:

---

١. النحل: ١٢٥.

ـ علمي (فقهي، عقائدي، أو مختلف العلوم الإسلامية والإنسانية الاجتماعية أو البحتة والتطبيقية)؛

ـ سياسي (ما يرتبط بالشأن السياسي العملي أو النظري)؛

ـ فكري؛

ـ ثقافي؛

ـ اجتماعي؛

وغيرها.

ومن خلال استعراض هذا التنوع في الحوار، نريد القول أنّ لكلٍّ منهما أساليبه الفنية وآدابه وقواعده ومنهجه، وبالتالي فإنّ القيم العلمية والأسلوبية تختلف إلى حد ما بينها. ولكن القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية تبقى قاعدة مشتركة لها جميعاً. وقد ركّزت المرجعية الإسلامية من خلال النصوص على هذه القيم، وفصّلها وشرحها الفقهاء وعلماء الكلام والأخلاق، كلٌّ من زاويته ومدخله العلمي. ومع التطوّر الهائل والتغييرات المتسارعة في أنماط الحياة وأساليب الحوار والتخاطب، دخلت معادلات قيمية جديدة في صياغاتها، وليست جديدة في أصولها، وهي ممّا ينبغي اكتشافه والتعرّف عليه وأسلمته.

عناصر الحوار

يمكن تقسيم أهم عناصر الحوار إلى: الأطراف، الموضوع، الأهداف، الإدارة والتحكيم، الزمان، المكان، المنهج، الأسلوب، النتائج.

ومن خلال استعراض هذه العناصر بشيء من التفصيل نأتي على البعد القيمي الإسلامي حيال كلٍّ منها، بالصورة التي تحقّق غايات الحوار، كالغاية الفنية المتمثلة بتقنين حالة الاختلاف والتركيز على إيجابياتها وتفتيت سلبياتها ـ كما ذكرت.

١. **أطراف الحوار:** ينبغي توفّر مجموعة من المؤهلات في شخصية المتحاورين، على الصعد الذاتية والموضوعية، تكفل لنجاح الحوار مدخله الأساسي. ومن أهم هذه المؤهلات:

أ. التساوي في الرغبة والتكافؤ في حرية الطرح، فلابدّ أن لا يكون أحد أطراف الحوار مقحماً أو مجبراً على الحوار أو مضطراً له تحت ضغوط التهديد، بأنواعه: الاجتماعي،

السياسي، بالسجن أو الموت أو الطرد أو تلبيس التهم، أو تحت ضغوط الحياة والاغراء. فمثل هذاالحوار مهما كانت نتائجه، ليست له قيمة علمية أو دينية أو أخلاقية؛ لأنّه يفتقر إلى أبسط أسس الحوار الحقيقي وآدابه؛ لأنّ أطراف الحوار هنا لن تكون متكافئة في القدرة والحرية، فبعضها يحاور من موقع القوة والاقتدار والاستكبار والآخر من موقع الضعف والاضطهاد. فهناك ـ إذن ـ فرق كبير بين الحوار (الثقافي والفكري والسياسي) بين أطراف متكافئة، والحوار بين الغازي (العسكري والثقافي والسياسي) والمنهزم أو المدافع، والحوار الثقافي والحضاري الحقيقي مثلا يدور في إطار الاحتكاك أو التبادل الثقافي، في حين أنّ الحوار في إطار الغزو ليس له أي معنى؛ فالغازي الثقافي يسلب من الحوار كل إيجابياته، ويمكن أن يجري الحوار حتى خلال المعارك العسكرية، فضلا عن المعارك الفكرية والسياسية، بهدف إلقاء الحجة على الخصم، شرط ضمان عنصر التكافؤ في حرية الرأي، وإلاّ يكون حواراً من طرف واحد. وفي السيرة والتاريخ الإسلامي نماذج فذّة من مواقف الحوار أثناء الحرب لإقناع الخصم ومحاجته في محاولة لتجنُّب ويلات الحرب وليكفي المسلمون شرها.

ب. التسلّح بالعلم والمعرفة في موضوع الحوار، فهو أساسي لدخول الحوار وكسبه موضوعياً: ﴿هٰا أَنْتُمْ هؤُلاٰءِ حٰاجَجْتُمْ فِيمٰا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمٰا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾[1]؛ فالحوار الحقيقي ينبغي أن توضع له مقدمات موضوعية ويسير وفق أسس علمية. ولا يتحقّق هذا الجانب دون تخصّص المتحاورين في موضوع الحوار وإحاطتهم الكافية بحقائقه. ويضرب الله تعالى مثلا في من يحاور في أمر وجود الله ووحدانيته وهو لا يفقه شيئاً في هذا المجال ﴿وَ مِنَ النّٰاسِ مَنْ يُجٰادِلُ فِي اللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لاٰ هُدىً وَ لاٰ كِتٰابٍ مُنِيرٍ﴾[2]وحتى لو كان الحق مع الطرف الضعيف علمياً؛ فإنّ هذا الحق سيضيع بين ثنايا الجهل، وقد تترتب عليه آثار سلبية تؤدّي إلى ظهور الباطل بمظهر المنتصر، ممّا يتسبّب في تزييف الحقيقة وانحراف وجهات نظر عامة الناس. وإذا كان الهدف من الحوار تحقيق فائدة علمية، فينبغي كذلك أن تكون الأطراف ضليعة في مجال موضوع الحوار. وهنا يشترط الإمام الغزالي على طرف الحوار

---

١. آل عمران: ٦٦.

٢. الحج: ٨.

«أن يناظر مع من هو مستقلٌ بالعلم ليستفيد منه إن كان يطلب الحق»[١].

ج. التحلّي بسلوكية لائقة، فالغضب والتشنُّج والتهريج والحقد والرياء والفرح بمساندة الطرف الآخر والاستكبار عن الحق، ستنزع من الحوار أيّة قيمة وتدخله في دائرة المنازعات والصراع، في حين سترفع الصفات المعاكسة كالهدوء والتروّي وضبط النفس واللين والمرونة وعموماً التوازن في المشاعر، سترفع من مستوى الحوار إلى دائرة النجاح والتأثير وتحقيق أفضل النتائج.

وهنا يبيّن الله تعالى لرسوله الكريم قاعدة عامة في التحاور مع الآخرين، تقف على أساس اللين والمرونة والتسامح: ﴿وَ لَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَ شَاوِرْهُمْ﴾[٢]. فالله تعالى يأمر الرسول ﷺ بالتشاور مع من قد أساءوا إليه، بعد أن يعفو عنهم ويستغفر لهم كما أمر من قبل موسى وهارون عليهما السلام : ﴿اذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾[٣] ونقل المفضّل ـ أحد تلاميذ الإمام جعفر الصادق عليه السلام ـ حادثة تحمل دلالة قيمية مشرقة في هذا المجال: فخلال تحاوره مع أحد الزنادقة، تشنّج الموقف وغضب المفضّل عليه، فقال له الزنديق: إن كنت من أصحاب جعفر بن محمد الصادق فما هكذا يخاطبنا ولا بمثل دليلك يجادل فينا، ولقد سمع من كلامنا أكثر ممّا سمعت، فما أفحش في خطابنا ولا تعدى في جوابنا، وأنّه الحليم الرزين العاقل الرصين، لا يعتريه خرق ولا طيش ولا نزق، يسمع كلامنا ويصغي إلينا ويتعرّف حجتنا، حتى إذا استفرغنا ما عندنا وظننّا أنّا قطعناه وغلبناه، دحض حجتنا بكلام يسير وخطاب قصير، يلزمنا به الحجّة ويقطع العذر ولا نستطيع لجوابه رداً فإن كنت من أصحابه فخاطبنا مثل خطابه»[٤].

---

١. الفيض الكاشاني، «المحجة البيضاء في شرح احياء الدين»، للغزالي، ج١، ص١٠١.

٢. آل عمران: ١٥٩.

٣. طه: ٤٣ و ٤٤.

٤. كتاب التوحيد للمفضّل ـ انظر أيضاً ـ في مجال أدب المناظرة والحوار ـ ماورد عن النبى ﷺ وأهل بيته في كناب الاحتجاج للطبرسي.

٢. موضوع الحوار: ينبغي قبل بدء الحوار تحديد نقاط الإبهام والاختلاف، والمادّة التي يتعيّن التحاور فيها ليكون الموضوع واضحاً ومحدّداً، فالحوار قد ينحرف باتجاهات أخرى ويكون مضيعة للوقت إذا تبيّن لأطرف الحوار أنّهم كانوا يتحاورون في موضوعين أو موضوعات مختلفة. وهذا العنصر أطلق عليه العلماء القدامي اصطلاح «تحرير محل النزاع» وقالوا بضرورة تشخيص أبعاد النزاع ليكون الاستدلال منتجاً وعدّوه شرطاً منطقياً لا حاجة للاستدلال عليه[1] ويفترض هنا لحاظ جميع الجوانب ذات العلاقة بالموضوع؛ فهناك جوانب مهمة قد لا تلحظ، ولكنها تترك أثرها على النتائج.

٣. أهداف الحوار: تكمن قيمة الحوار في هدفيته، والمتمثّلة في اكتشاف الحقيقة والتعرُّف عليها وبلورة شكلها ومضمونها، على اعتبار أنَّ «الحكمة ضالة المؤمن». وهذا الهدف يعطي للتجرّد والنزاهة والموضوعية في الحوار معنىً حقيقياً، بالصورة التي يطرحها القرآن الكريم: ﴿وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[2]. أمّا الحوار الذي لا يحمل هدفاً معيناً ولا يترك أثراً علمياً أو فكرياً، فهو عديم القيمة والفائدة. وتنطبق هذه القاعدة أيضاً على الحوارات التي تدور حول أمور افتراضية وخيالية ولا علاقة لها بالواقع[3]. وتتنوّع مناهج الحوار ـ كما سيأتي ـ بتنوّع أهدافه، فهناك الحوار النقدي، الذي يتلخّص في تقويم كل طرف لممارسات وأفكار الطرف الآخر بشكل نقد موجّه. وللنقد من جانبه آداب وشروط، تبقيه في حدوده الشرعية والعقلانية، وتحافظ فيه على روح الانعتاق والتقويم الصحيح والمحاسبة الهادفة والنقد البنّاء. وهناك أيضاً المدارسة التي هي لون من ألوان الحوار، وهدفها يدور حول الموضوع فقط، ليست لها أهداف خاصة أو ذاتية، وبالتالي الوصول إلى نتائج متّفق عليها، ولا توجد لدى أطرافها أحكام نهائية مسبقة. أمّا المحاجّة فهو حوار الإقناع وإقامة الدليل، وهدفه تفنيد وجهات نظر الطرف الآخر ومحاولة استيعابه وجذبه وهدايته، أو

١. انظر: الجويني، «الكافية»، ص ٥٤٠، والسعدي، «قاموس الشريعة»، ج٣، ص٦.

٢. سبأ: ٢٤.

٣. يقول الغزالي بأن المناظرة لابدّ أن تدور حول «واقعة مهمة أو مسألة قريبة من الوقوع». انظر: «المحجة البيضاء»، ج١ ص١٠٠.

إيصال رسالة إلى الآخرين وتنبيههم وتوعيتهم.

٤. الإدارة والرقابة والتحكيم: هذا العنصر الفني ضروري جداً لتحسين أداء الحوار وضمان تحقيق أهدافه وتنفيذ نتائجه. فالإدارة لا تدخل طرفاً في الحوار، بل تتلخّص مهمتها في تنظيم الحوار وضبطه وتوفير الفرص المتكافئة للمتحاورين ومراقبة أساليبهم ومناهجهم، ثم التحكيم بينهم في حالات معينة. وتفرض هذه المهام شروطاً ومواصفات في عنصر الإدارة والرقابة والتحكيم أهمها: المقبولية لدى أطراف الحوار كافة، والحياد والموضوعية والتجرّد، وحساب النتائج بدقة، وعدم تغليب طرف على حساب آخر، إلاّ في حدود الحقيقة، وحتى لو كان لهذا الجهاز أو بعض أفراده خلفيات فكرية وسلوكية ورؤى تتفق أو تختلف مع أحد الأطراف، ولكن ينبغي أن لايكون لها مدخلية في الإدارة والتحكيم.

٥. مكان الحوار: عدم وجود أي نوع من المؤثّرات التي تنعكس سلباً على أحد الأطراف أو مجموعهم أو على المراقبين، هو ما ينبغي أن يكون عليه مكان الحوار. وقد يتمثّل هذا المؤثّر في أجواء استفزازية أو انفعالية أو صاخبة، أو مؤثّرات ناتجة عن أجواء التهويل؛ فيكون المتحاورون منساقين حينها وراء تأثيرات العقل الجمعي، ومن أمثلة ذلك ما ذكره القرآن الكريم من أجواء الانفعال والاستفزاز التي كان المشركون يخلقونها للتأثير على مسير الحوار الذي يقوم به الرسول ﷺ، ولاسيما بعد اتهامه ـ والعياذ بالله ـ بالجنون، وهنا يطلب القرآن من الرسول ﷺ أن يدعوهم إلى نبذ هذا التهويل والصخب، والتأمل في التهم التي وجّهوها له بغية استئناف الحوار في إطار الموعظة الحسنة ولكن بعد أن يتفرّقوا ويبعدوا عنهم هذا الجوّ المصطنع: ﴿قُلْ إِنَّما أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلّٰهِ مَثْنىٰ وَ فُرادىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾[١].

ولا شكّ أنّ ذلك يترك أثره في خلق أجواء خاصة وتأثيرات نفسية هائلة على المتحاورين أو الحضور أو المراقبين.

٦. زمان الحوار: وهو عنصر مهم في اختيار الموضوعات والأهداف ينبغي في تحديد زمان الحوار مراعاة ظروف أطراف الحوار من النواحي الاجتماعية والنفسية والاستعداد العلمي،

---

١. سبأ: ٤٦.

وظروف انعكاس الحوار على الآخرين، وأهمية موضوع الحوار زمانياً؛ فربّما يكون لموضوع بعينه أهمية خاصة في زمان ما، ثم تعدم هذه الأهمية في زمان آخر.

٧. منهج الحوار: وهو النظام الذي يسلكه الحوار وفقاً لمجموعة من القواعد العامة[١]. ومن بديهيات الحوار العلمي أن يكون منهجه واضحاً ومرسوماً سلفاً، ويفترض بأطراف الحوار أن تكون متفقّة على قواعده؛ لكي يكون ملزماً لها جميعاً، كما تذكر الآية الكريمة: ﴿أَ تُجادِلُونَنِي فِي أَسْماءٍ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما نَزَّلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ﴾[٢]، فهذه الأسماء أراد المشركون أن يفرضوها جزءاً من منهج الحوار، ولكنّها لا يمكن أن تكون ملزمة لمن لا يؤمن بهذا الجزء من المنهج.

ونطرح هنا أهم معايير منهج الحوار العلمي في إطار الرؤية الثقافية الإسلامية.

أ. التعارف والتوعية والمقصود منه تعرّف كل طرف على حدود معينة من حقائق الطرف المقابل ومعتقداته وآرائه، من مصادرها نفسها، وليس من مصادر غيره، ولا سيما أعدائه، بهدف التمكُّن في إلزامه بما ألزم به نفسه الاحتجاج عليه بمصادره نفسها. وكذلك مبادرة أطراف الحوار إلى التعريف بمعتقداتها ووجهات نظرها ويدخل في هذا الإطار مبدأ التوعية؛ فالإسلام دين التوعية والتربية، وهو بمقتضى واقعيته وفطريته يقرر لزوم القيام بتوعية أي إنسان يراد له أن ينضمّ إلى معسكره، وأي مجتمع يراد للإسلام أن ينفذ إلى عمقه... أنّه يعرض جوهرته الثمينة؛ لأنه يعلم أنَّ قيمتها ستنكشف بكل وضوح للجميع، ولذا فهو يرفض التقليد في العقيدة، ويرفض عملية الإكراه العقائدي، ويدعو أتباعه إلى أن يكونوا أقوياء في البصر والبصيرة ويأمر ـ في مجال التعامل مع الآخرين ـ بالدعوة الواضحة قبل كل شيء[٣].

﴿وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللهِ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ قالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٤]، ﴿قُلْ

---

١. انظر: الصحاح في اللغة المعجم الوسيط.، مادة نهج.

٢. الأعراف: ٧١.

٣. للكاتب نفسه، «الاسس المهمة في النظام الاسلامي»، ص ١٢٧.

٤. فصّلت: ٣٣.

هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي﴾[١]. وبالنسبة إلى الحوار مع غيرالمسلمين، فإنّ البداية تكون بحقائق الرسالة ومعالمها الرئيسية، معزّزة بالحجج والبراهين، وفي إطار النقاش المنطقي السليم[٢]. وتنقل كتب الحديث أنّ الرسول ﷺ حين بعث الإمام علي عليه السلام إلى اليمن قال له؛ «يا علي لا تقاتلنّ أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام، وأيم الله لأن يهدي الله عزوجل على يديك رجلا خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس وغربت[٣]».

ب. الوضوح: أي استخدام المنهج الصحيح بصورة واضحة دون لبس أو تورية أو التواء، وعدم الخلط بين الحق والباطل، حتى من أجل الوصول إلى الحق كغاية تبرّرها الوسيلة! يقول الإمام الصادق عليه السلام : لا تمزج الحق بالباطل، وقليل من الحق يكفي من كثير من الباطل[٤]. ومن أساليب الإبهام في الحوار كما يقول الإمام الجوينى: الاحتيال على المحاور حتى يخرجه عن محل تساؤله، وتوجيه كلامه إلى وجوه محتملة[٥]. إضافة إلى استخدام المغالطات والسفسطة في المنهج.

ج. الموضوعية: ومن أبرز عناصرها التجرّد ونبذ التعصّب والابتعاد عن القناعات السابقة والمواقف المبيّتة والأحكام المعدَّة سلفاً خلال تنفيذ الحوار، حتى لو كانت أطراف الحوار على يقين مطلق بمعتقداتها ووجهات نظرها؛ فهذا التجرّد يخلق جواً من الصدق في الوصول إلى الحقيقة كهدف نهائي للحوار، مهما كانت هذه الحقيقة، على النحو الذي يدعو فيه النبي ﷺ الآخرين ﴿وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[٦] وهذه الدعوة هي قمة التجرّد والاستعداد لتقبُّل نتائج الحوار مهما كانت وأينما كانت، رغم اليقين المطلق للرسول الأعظم ﷺ بصحة معتقداته. يقول الفيض الكاشاني في حديثه عن شروط الحوار:

---

١. يوسف: ١٠٨.

٢. الشهيد السيد محمدباقر الصدر، «اقتصادنا»، ج١، ص٢٧٥.

٣. رواها الحر العاملى في «الوسائل»، ج١١ ص٣٠.

٤. الكافيالكليني.ج١،ص١٧٣.

٥. الجويني، «الكافية»، ص٥٤٢ ـ ٥٤٩.

٦. سبأ: ٢٤.

أن يقصدبها إصابة الحق وطلب ظهوره كيف اتفق، لظهور صوابه وغزارة علمه وصحة نظره، فإنّ ذلك مراء منهي بالنهي الأكيد.

ويضيف: «أن يكون في طلب الحق كمنشد ضالّة، يكون شاكراً متى وجدها، ولا يفرق بين أن تظهر على يده أو يدي غيره، فيرى رفيقه معيناً لا خصماً، ويشكره إذا عرّفه الخطأ وأظهر الحق»[١]. وهذا يعنى أنّ الموضوعية لا تلتقى مع هدف استعراض القابليات العلمية خلال الحوار، أو القدرة على امتلاك أدوات الجدل، أو التنكيل بالخصم. ومن شروط الموضوعية في منهج الحوار تقديم الدليل على الرأي والفكرة برهاناً على صحتها وصدقها: ﴿قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾[٢]. والشرط الآخر هو التقيّد بالحقائق والأفكار التي يعتقدها الطرف الآخر، والاحتجاج بها، وفقاً لقاعدة «الزموهم بما ألزموا به أنفسهم»، وعدم الاحتجاج بما يفهم المحاور من حقائق الآخر، أو الاعتماد على ما ينقله الخصوم والأعداء، وهذا الشرط هو تتمة لمعيار التعارف، كما ذكرنا.

د. اعتماد المشتركات: فلابدّ ـ ابتداءً ـ من اكتشاف الحقائق والمرتكزات المشتركة بين الطرفين؛ لتكون قاعدة رصينة يقف عليها المتحاورون، مقدّمات واقعية ينطلقون منها للوصول إلى حقائق كلية: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ﴾[٣].

٨. **أسلوب الحوار:** ويقصد به آداب الحوار وسلوكيات المتحاورين، وقدّمنا في الحديث عن أطراف الحوار قسماً من المؤهلات السلوكية التي ينبغي أن يكون عليها أسلوب الحوار كاللين والمرونة وضبط النفس والتوازن في المشاعر وغيرها، إضافة إلى الانفتاح السلوكي المدروس على الطرف الآخر، واحترام مشاعره ومعتقداته، ومحاورته بالحكمة والموعظة الحسنة وبالتي هي أحسن، فهذه الأساليب كافية لتترك في نفسه انطباعاً جيداً عن شخصية المحاور وطبيعة أهدافه ومعتقداته. أمّا الأساليب السلبية، كالتحريض وإثارة الفوضى والشغب، والتحامل والتشنج والتعصب الأعمى والتكبر، واستخدام أسلوب المغالطة،

---

١. «المحجة البيضاء»، ج١، ص٩٩ ـ ١٠٠، و«احياء علوم الدين»، ج١، ص٤٣.

٢. البقرة: ١١١.

٣. آل عمران: ٦٤.

والانكماش والتهرب، والاستهزاء والسخرية، فهي مرفوضة في الحوار المنشود، وقد نهى الإسلام عن ذلك: ﴿وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[١]، فكيف بالحوار بين المسلمين أنفسهم! فقيمة الحوار في الرؤية الإسلامية لا تعرف المهاترات والسباب؛ لتسببها في انعكاسات سلبية حادة. يقول تعالى ﴿وَ لا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْواً بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[٢]. وتدخل هنا قيم سلبية أيضاً، كالاتّهام والافتراء والتفسيق والتهديد بالإخراج عن الدين والرمي بالارتداد، دون تمحيص وبحث عقيدي وفقهي واف، فللارتداد والتكفير معايير وقواعد دقيقة جداً بحثها الفقه الإسلامي بعناية، بالصورة التي لا يكون فيها هضم لحق أحد وسلب لحقوقه الاجتماعية الإنسانية. فالتسرّع في إطلاق الأحكام خلال الحوار، لتحقيق أجواء غير موضوعية، تتقاطع تماماً مع الرؤية الإسلامية، فضلا عن أنّ هذه الأساليب ـ لا سيما التهديد بالعدوان وسلب الحقوق الاجتماعية والحكم المتسرِّع وغير المدروس بالردّة والكفر ـ تؤدّي إلى وضع عكسي، ونجد أنّها تسبّبت في بروز ردود فعل عنيفة ضد الدين، بالصورة التي حدثت حيال أساليب الكنيسة في التعامل مع الآخرين خلال عصور أوربا الوسطى، ثم أدّت إلى ظهور ألوان فاقعة من الإلحاد والانحراف والعلمانية والسقوط والتطرُّف.

والإسلام يأمر بعدم مواصلة الحوار عند تجاوز الطرف الآخر حدود الحوار وآدابه كممارسة الاضطهاد والتهديد والافتراء والتهريج:﴿أُولئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللهُ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَ عِظْهُمْ﴾[٣]، أو إصراره على عدم قبول الدليل والحجة والبرهان، رغم وضوحها وقاطعيتها: ﴿وَ ما نَحْنُ بِتارِكِي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ وَ ما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾[٤]، حينما يدخل الحوار مرحلة العبث وتضييع الوقت، ويستحيل خلالها تحقيق فائدة بالصورة التي يصف فيها القرآن الكريم حوار رسول الله ﷺ مع الكافرين: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَواءٌ

١. العنكبوت: ٤٦.
٢. الأنعام: ١٠٨.
٣. النساء: ٦٣.
٤. هود: ٥٣.

عَلَيْهِمْ أَ أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ * خَتَمَ اللهُ عَلىٰ قُلُوبِهِمْ وَ عَلىٰ سَمْعِهِمْ وَ عَلىٰ أَبْصارِهِمْ غِشاوَةٌ وَ لَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾[١].

من جهة أخرى ينبغي اتفاق الأطراف على لغة حوار مشتركة[٢]، وعلى مستوى علمي وفكري معين من اللغة؛ لكي يحصل التكافؤ في إيصال الرأي والرأي الآخر، كما في الحديث الشريف: «نحن معاشر الأنبياء أُمرنا أن نكلّم الناس على قدر عقولهم»[٣]. والواقع أنّ الخطاب الإسلامي الجديد المتطور، ينبغي أن يسود لغة الحوار الإسلامي المعاصر؛ فلكل مرحلة خطابها ولكل مرحلة لغتها وأساليبها الفنية الناجحة في الحوار، على اعتبار أنّ هذا الجانب متجدّد يدخل في إطار المتغيرات، شرط أن لا يخرج التجديد عن الثوابت الاسلوبية في الحوار الإسلامي، وهذا التجديد تعبير عن دينامية الإسلام وقدرته المطلقة على استيعاب كل متطلبات الزمان والمكان وتلبية حاجاتها.

٩. نتائج الحوار: وهي ما يترتب على الحوار بعد انتهائه من حقائق وأرقام جديدة تعلن عن تفوق أو انتصار أو براءة أحد أطراف الحوار، وتؤدّي بالطرف الآخر إلى التحوّل في الرأي كلياً أو جزئياً أو تدفعه لمراجعة ذاتية لآرائه ومعتقداته التي تعرّضت للنقد والاهتزاز والهزيمة، وكذلك مراجعة أخرى لأساليبه ومنهجه وخطابه. وقد ينتهي الحوار بتراضي الطرفين وتفاهمهما أو تساويهما في النصر والهزيمة، أو إقدامهما على حالة وسط جديدة. والمهم هنا هو قبول كل أطراف الحوار بالنتائج مهما كانت، وعدم التعصّب والاعتزاز بالخطأ. وبديهي أن يكون لجهاز الإدارة والتحكيم الدور الأساسي في حساب النتائج، بالوسائل الموضوعية التي سبقت الإشارة إليها.

وقد يكون مفيداً هنا طرح تجربة الجمهورية الإسلامية الإيرانية في مجال الحوار، فهذه

---

١. البقرة: ٦ و ٧.

٢. المراد هنا الجانب الفني في اللغة أو الخطاب، كاستخدام المصطلحات التخصصية، والمستوى العلمي في التعبير عن الرأي وأسلوب طرحه، والاستفادة من بعض المعارف والعلوم التخصصية، التي ربما يجهلها الطرف الآخر؛ فيكون الحوار حينها كحوار الطرشان ـ كما يعبرّون ـ.

٣. المحاسن، ج١، ص ١٩٥.

التجربة دون شك غنية كمّاً ونوعاً ولعلّ نجاح الجمهورية الإسلامية في دفع هيئة الأمم المتحدة لإقرار مشروعها بتسمية عام ٢٠٠١ م عاماً لحوار الحضارات، هو تعبير عن نضوج تجربة الحوار فيها، وبناءً على ذلك، تم تأسيس مركز علمي تخصّصي في طهران يأخذ على عاتقه المساهمة في تنفيذ مشروع الحوار بين الحضارات. وسبق للجمهورية الإسلامية أن طرحت عدة مشاريع رائدة أخرى، تحوّلت بمرور الزمن إلى مؤسسات وأجهزة فاعلة، وفي مقدمتها مشروع الحوار بين المذاهب الإسلامية، الذي نشط منذ أوائل الثمانينات، ثم تبلور في المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، وكذلك المؤتمر العالمي السنوي للفكر الإسلامي، ومشروع الحوار بين الأديان الذي يمتلك أمانة عامة دائمة تعقد ملتقيات ومؤتمرات دورية على مدار السنة. أمّا في الشأن الداخلي، فإنّ الحوار الدائم والمناظرات بين الجماعات السياسية الاتجاهات الفكرية والثقافية عبر وسائل الاعلام والصحافة أو في التجمُّعات والندوات، يكاد يكون المنشط الأساسي الذي يميّز الساحة الإيرانية. ولعل آلية الحوار والنقد التي اقرّتها الثورة الإسلامية منذ اليوم الأوّل، ساهمت كثيراً في كشف السلبيات، وفي النظرة إلى المشاكل والمعوّقات نظرة موضوعية وواقعية. وما زال الحوار والنقد البنّاء يعطيان لمناخ الثورة مرونة عالية في التعامل مع قضاياها؛ لتأتي المعالجات والحلول في إطار دراسات واعية تستوعب الرأي والرأي الآخر.

التعايش في الرؤية الإسلامية

في أجواء الاختلاف يكون التعايش على أساس التعدّدية التي يرتضيها الإسلام، هو الحل الكفيل بتجنب مشاكل الصراع والتضارب في الرؤى والأفكار والمعتقدات بشتّى ألوانها ولا يعني التعايش القبول بنسق واحد من التفكير والسلوك، وصهر الجميع في بوتقته، كما لا يعني التنازل عن الحق أو توزيعه على المتعايشين بنسبة متساوية، وفقاً لمفهوم التعدّدية «بلوراليزم» الذي يفهمه الغرب، بل يعني أن يحتفظ كل طرف بوضعه الخاص، ويمارس نشاطه الديني أو المذهبي أو الفكري أو السياسي، في إطار الحقوق والحريات العامة التي يكفلها الإسلام بمضامينها المتوازنة والمرشدة، والتي لا تسمح لأي طرف بسلب حقوق الآخرين أو الإخلال في أمن المجتمع، مهما بلغت قوة هذا الطرف عدّة وعدداً. والصورة المثلى للتعايش هي صورة دولة المدينة التي كان اليهودي والنصراني يعيشان فيها بأمان إلى

جانب المسلم وفي كنف الدولة الإسلامية، وكان الحبشي والرومي والفارسي يتمتّعون فيها بكل حقوق المواطنة كالعربي تماماً، وهكذا تعايش المهاجرون إلى جانب الأنصار، تعايش الأوس والخزرج معاً، بل كان يعيش فيها أتباع التيارات الفكرية والسياسية التي تشكّل لوناً من المعارضة، وفي المقدمة تيار المنافقين والمشركين: ﴿قُلْ يا أَيُّهَا الْكافِرُونَ * لا أَعْبُدُ ما تَعْبُدُونَ * وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ * وَ لا أَنَا عابِدٌ ما عَبَدْتُّمْ * وَ لا أَنْتُمْ عابِدُونَ ما أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَ لِيَ دِينِ﴾[١] لقد استندت الرؤية الإسلامية في مجال التعايش مع الآخرين إلى أساسين رئيسيين، هما:

١. المصلحة الإسلامية العليا على ضوء الواقع القائم؛

٢. الصلات والرحمة الإنسانية والعلاقات الأخلاقية.

ويستقي التشريع الإسلامي في كل مجالاته من هذين المعنيين فيعتبران من أهم سمات التشريع الإسلامي في شتّى جوانبه.

أمّا العناصر الرئيسية التي تحدّد نوعية العلاقة بين المسلمين وغيرهم كآلية للتعايش، فأهمها:

١. الأمّة... النموذج: يصف القرآن الكريم الأمّة الإسلامية بالوسطية، يريد به النموذج الأسمى، والأمّة الشاهدة التي كانت خير أمة اخرجت للناس، وهذا العنصر يدفع الأمّة باتجاه السمو والتكامل في كل المجالات، والاستفادة الأكمل من تجارب الآخرين، ويعني ذلك الانفتاح على مجالات الحياة وحمل رسالة إنسانية حضارية كبرى.

٢. المبدئية: وتقضي بنوعين من التعايش: الأوّل بين المؤمنين، وهو تعايش أخوي. ويعني وحدة الأفراد في مجمل الشؤون، والنوع الثاني مع الآخرين، ويحدّد طبيعته مقدار قرب أو بعد هؤلاء عن المبدأ الإسلامي، الذي يحدّد مضمون التعايش معهم، كأن يكون ودّياً أو حسناً أو يشوبه القلق.

٣. نفي السبيل على المؤمنين: ويعني أنَّ أيّ تصرف أو وضع معاهدة تؤدّي إلى تفوّق الكافرين على المسلمين يعدّ ملغياً من أصله ﴿وَ لَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ

---

١. الكافرون: ١ـ٦.

سَبِيلاً﴾[١] وهذه القاعدة تعدّ من القواعد الثانوية التي تستطيع الحكم على الأحكام الأوّلية بمجموعها. وهذا التوجُّه لا يعبِّر عن نوع من التكبُّر، إذ تعمل هذه القاعدة على أساس معايير إنسانية.

٤. التوعية والدعوة: فالتعايش لا يعني تجاوز حقائق الإسلام التي تؤكّد على استمرار التوعية والدعوة. ويقتضي التعايش المتوازن والعلاقات السلمية بين فئات المجتمع أن تركّز التوعية على أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن: ﴿فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ﴾[٢].

٥. العدالة: يشكل العدل أهم أصول التصوّر الإسلامي للواقع، وأهم الأسس عند التعامل الاجتماعي ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلّهِ﴾[٣] ولعل الآية الكريمة: ﴿فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَ اسْتَقِمْ كَما أُمِرْتَ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ﴾[٤] تعبّر بدقة عن أهمية العدل في معادلات التعايش، حتى في حالات التوتر التي يكاد أن ينسى فيها العدل. ومن خلال النظر إلى طبيعة تعامل دار الإسلام مع غير المسلمين، ندرك البعد الإنساني في عنصر العدل، وهو ما يفسّر أيضاً وقوف الإسلام إلى جانب المستضعفين والمحرومين في كل مكان.

٦. تأليف القلوب: في الأجواء التي يحكمها تأليف القلوب، تنفتح النفوس على الحقيقة وتتقرّب إلى الواقع ويعود هذا العنصر إلى تشريع سهم المؤلفة قلوبهم في مصارف الزكاة، والذي فتح المجال للوقوف إلى جانب المستضعفين والدفاع عن قضاياهم واجتذابهم نحو الإسلام، والإنفاق عليهم بما يحقق مصلحة الإسلام العليا، وتعميق التعايش الإيجابى بين مختلف اتجاهات المجتمع.

٧. الوفاء بالعهد: ويقصد به الوفاء بكل العهود والاتفاقات التي تعقد بين المسلمين وغيرهم ﴿وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً﴾[٥]. ومن هذه العقود ما صرّح به الإسلام وحدّد لها

---

١. النساء: ١٤١.

٢. الشورى: ١٥.

٣. النساء: ١٣٥.

٤. المائدة: ٨.

٥. الإسراء: ٣٤.

قوانينها العامة، ومنها ما يرى ولي الأمر ضرورتها لتحقيق مصلحة إسلامية عليا. ومثال الأولى: عقد الهدنة وعقد الأمان، ومثال الثانية؛ العقود الاقتصادية والعسكرية وغيرها.

٨. التعامل بالمثل: مبدأ جزاء الإحسان بالإحسان، ومبدأ القصاص، مبدآن واقعيان يرتضيهما المنطق الإنساني والتعامل الفردي والاجتماعي[١]، هدفهما ردع الاعتداء واستقطاب القلوب. يقول تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ فَمَنِ اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ﴾[٢]. وهو يعني باختصار التعامل مع الآخر .

بالمثل: ﴿لا يَنْهاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَ لَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَ تُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾[٣].

ولعل تجربة الجمهورية الإسلامية الإيرانية في مجال التعايش هي من التجارب المهمة على صعيد التطبيق؛ لما تمثّله ايران من دولة تتميّز بالتعددية في كثير من المجالات، فهناك أتباع ثلاث ديانات ـ النصرانية، اليهودية، الزردشتية ـ يعيشون إلى جانب المسلمين، وستّ قوميات ـ الفارسية، التركية، العربية، الكردية، التركمانية، البلوشية ـ وخمسة مذاهب إسلامية، فضلا عن الجماعات والتيارات الفكرية والسياسية التي أذعنت جميعاً لمعادلات الشورى وآلية الممارسة الديمقراطية. هذه التجربة الفذّة التي أبرزت الوجه المشرق للرؤية الإسلامية في مجالي الحوار والتعايش، جديرة بالدراسة المراجعة المستمرة.

الدور الحضاري المستقبلي للأمّة وموقع منظمة المؤتمر الإسلامي[٤]

المقدمة

لابدّ قبل الحديث عن الدور الحضاري للأمّة في عالم الغد من إلقاء نظرة سريعة على واقع الأمّة اليوم بل وربما احتجنا إلى استعادة هذا الواقع عبر تاريخه الطويل المجيد.

---

١. انظر: للكاتب نفسه، الأسس المهمة في النظام الإسلامي، ص ١٢٣ ـ ١٣٤.

٢. البقرة: ١٩٤.

٣. الممتحنة: ٨.

٤. قدم إلى كتاب «الأمّة» في قطر، بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي التاسع.

إلاّ أنّ الطبيعة المقدمية تفرض علينا الاقتصار على التاريخ القريب وليكن القرن الرابع عشر الهجري وبعضاً من قرننا الحالي، وهو ما يوافق القرن العشرين الميلادي تقريباً. ففي هذه الفترة المليئة بالأحداث نجد أنّ الأمّة الإسلامية قد مرّت بثلاثة أدوار رئيسية هي:

الدور الأوّل: دور الاستعمار والاحتلال

فالأرض الإسلامية في هذا الدور احتلّت كلّها تقريباً إمّا احتلالاً مباشراً كما هو الحال بالنسبة للعراق وسوريا ولبنان والاردن وشمال أفريقيا وغيرها أو بشكل غير مباشر كما هو الحال بالنسبة لتركيا وايران، حيث وفّق الاستعمار لفرض كل ما يريد بقوة العملاء الرسميين له. وتمتدُّ هذه الفترة من الحرب العالمية الأولى إلى الحرب العالمية الثانية تقريباً.

الدور الثاني: دور الاستقلال ولكن باتجاه قومي

فبعد سقوط المانيا الهتلرية بدأت وتيرة ما يسمّى باستقلال الدول والحكومات في العالم الإسلامي والتحرر من براثن الاستعمار. ولكن صاحب ذلك اتجاه قومي عارم تجلّى كأقوى ما يكون في الحركة الناصرية القومية العربية وحركة سوكارنو وغيرهما، حيث ظنت الشعوب المتحرّرة أنّ الاتجاه القومي هو البديل الأفضل للحالة الاستعمارية.

الدور الثالث: دور الاتجاه الإسلامي الشمولي

ويبدأ هذا الدور تقريباً من أواخر الستينات الميلادية حيث تنامى الشعور بقضية الإسلام والوحدة الإسلامية، وظهرت بوادر صحوة إسلامية شاملة لها مظاهرها وآثارها ومن أهم هذه المظاهر الإحساس بوحدة المنطلق والمسير والهدف ممّا يؤدي للإحساس بوحدة الشخصية لهذه الأمّة.

وربما أمكننا القول أنّ هذه الحالة هي الوليد الجديد بعد مرحلة جنينية مطوّلة نسبياً لكل ما قامت به الحركات الإسلامية السياسية والاجتماعية، المحافظ منها والمتحرر، والمنطلق على أساس وعي كامل للمسيرة، أو المنطلق على أساس احساس بالظلم والضغط، وعلى اختلافها في الفهم والأسلوب والهدف إلاّ أنّها كلها نمّت هذا الجنين في رحم هذه الأمّة الولود وانتجت هذه الصحوة المباركة.

وكان الظلم الاستعماري، وخواء الاتجاهات القومية، وضغط النظم الدكتاتورية وقيام الكيان الصهيوني عوامل مساعدة قوية في ظهور هذه الصحوة، وربما كان ظهور منظمة المؤتمر الإسلامي على أثر الجريمة الكبرى التي أقدمت عليها الصهيونية بإحراق المسجد الأقصى مظهراً وعاملاً على تنامي هذا الشعور الشمولي الإسلامي، كما أنّ ممّا لا ريب فيه أنّ انتصار الثورة الإسلامية في ايران عام ١٩٧٩... وانهيار المعسكر الشيوعي الإلحادي شكّل عوامل كبرى في تنميتها واتساعها.

ولسنا ننسى هنا المسيرة العلمية والثقافية والاقتصادية لهذه الأمّة فإنّ لكلٍّ من هذه الجوانب موقعها الكامل في تشخيص موقع الأمّة إلاّ أنّ ما ذكرناه يمثل الشكل العام لهذه المسيرة.

وعبر هذه النظرة السريعة ندرك أنّ الأمّة المسلمة رغم ما ابتليت به من نكبات كانت منطقة ساخنة تهتم بها الأمم وتتفاعل مع الأحداث وترك أثرها القوي أو الضعيف على مجمل المسيرة الإنسانية بكل تفاعلاتها. كما ندرك أنّها وهي تقف على عتبة تحوّل زماني كبير لتشعر بتحديات كبرى تتطلب منها التخطيط الحكيم للمواجهة الإيجابية الفاعلة.

الدور الحضاري للأمّة في عالم الغد

إنّنا إذا لاحظنا العناصر التالية أدركنا بكل وضوح ضرورة اتخاذ دور فاعل في المسيرة الحضارية الإنسانية يتناسب وحجم هذه الأمّة ومسؤوليتها الحضارية:

أوّلا: الموقع الحضاري الذي أراده الإسلام لهذه الأمّة ويمكن تلخيص ذلك بالعبارة القرآنية الشريفة: ﴿وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى النّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[1]، ولا ريب في أنّ الوسطية هنا تعني القمة في المثل الحضاري وخصوصاً بعد ملاحظة التقارن بين شهادة الأمّة على الناس وشهادة الرسول ﷺ على الأمّة ونحن نعلم أنّه ﷺ خير قدوة وأكمل إنسان يتمتع بكل صفات الإنسان.

فإذا أضفنا إلى هذه الحقيقة حقيقة أخرى هي أنّ الإسلام جاء لكل الإنسانية ولكل العصور ديناً خالداً ينظّم للبشرية مسيرتها الحضارية التكاملية أدركنا أنّ الإسلام يريد لهذه

---

١. البقرة: ١٤٣.

الأمّة أن تحتل موقعها الريادي في كل عصر ـ والحديث في هذا المجال واسع.

ثانياً: الإمكانات الحضارية التي تتمتع بها هذه الأمّة من حيث:

أ. الطروحات الفكرية والاجتماعية التي استمدّها الإسلام والتي أثبتت قدرتها الرائعة على تخطّي العصور وإعطاء الحل الناجع لمشكلات الإنسان.

ب. الثروة العلمية والفكرية الهائلة التي ورثتها من تاريخها المجيد.

ج. الموقع السياسي والجغرافي والاقتصادي الذي تحتله حيث تمتلك أكثر المناطق حساسية وتمتدّ في قلب العالم عملاقاً يعمل أعداؤه على أن ينام وتتحرك أطرافه للانطلاق على مختلف الصعد.

د. الطاقات الإنسانية الكبيرة التي يمتكلها ويستطيع تجميعها وتعبئتها لصنع الغد الأفضل.

ثالثاً: مقتضيات الواقع: ذلك أنّ البشرية اليوم تسير نحو تنافس الأمم في صنع الحضارة الإنسانية وهو مضمون اتفاق الأمم كلها على جعل العام ٢٠٠٢ الميلادي عام «الحوار بين الحضارات» باقتراح من رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية، رئيس الدورة الثامنة لمنظمة المؤتمر الإسلامي وبطبيعة الحال فإنّ التوالي الحضاري في المعسكر الآخر يتطلّب منّا توالياً حضارياً إسلامياً نستطيع معه أن نعيش على ظهر هذا الكوكب وإلاّ فالفتنة والفساد قال تعالى: ﴿وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلاَّ تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فَسَادٌ كَبِيرٌ﴾[١].

إنّ الواقع يفرض بدوره على هذه الأمّة أن تبرز شخصيتها الحضارية المتميزة وأن تلعب دورها المطلوب. وهنا نقول:

إنّ الأمّة تواجه تحديات كبرى يمكن أن نجملها بالتحديات السياسية، والعلمية، والاقتصادية والثقافية، والعقائدية والاجتماعية والمعلوماتية.

ومن أهم التحديات السياسية: اتجاه العالم إلى عصر القطب الواحد المسيطر على مجمل السياسة العالمية.

ومن أهم التحديات العلمية: هذا التقدم العلمي الكبير للغرب والذي يستغله الغرب لفرض هيمنته في مختلف الصعد على العالم.

---

١. الأنفال: ٧٣.

ومن أهم التحديات الاقتصادية: فكرة العولمة الاقتصادية التي لا تبقى للأمة قدرتها على السيطرة على اقتصادها وإنّما تربط ذلك بمجمل الوضع الاقتصادي العالمي ولا ريب في أنّ القدرات الهائلة للغرب لا تفسح المجال للقدرات الصغيرة الأخرى.

ومن أهم التحديات الثقافية والعقائدية هذا الهجوم الثقافي والأخلاقي والعقائدي الكبير على كل أبعاد شخصية هذه الأمّة وربما شكلت العلمانية أهم مظاهرة وأشدّها اتساعاً.

كما أنّ أهم التحديات الاجتماعية هذا التخطيط الرهيب لتغيير تعريف العائلة وحذف دورها الاجتماعي الركين.

وأخيراً فإنّ التحدي المعلوماتي اليوم يدع العالم الإسلامي منحصراً في زاوية ضيّقة من سيطرة معلوماتية واسعة.

وكل هذا يتطلّب تخطيطاً واقعياً مخلصاً واعياً للمواجهة الإيجابية الفاعلة كما أسلفنا ويلقي مسؤولية كبرى على عاتق منظمة المؤتمر الإسلامي باعتبارها تدّعي تمثيل الأمّة بكل جوانبها وبشكل رسمي كما تلقي بمسؤوليات أكبر على الفئات غير الرسمية بلاريب.

نظرة على منظمة المؤتمر الإسلامي واقتراحات لتفعيل دورها العالمي

مرّت عقود على ذكرى إحراق المسجد الأقصى بأيد صهيونية عام ١٩٦٩م وقد ثارت لذلك مشاعر المسلمين وعمّ الغضب كلّ العالم الإسلامي ضد كل الكيان الصهيوني الغاصب، وكانت ردة فعل المسؤولين في العالم الإسلامي وبدوافع سياسية مختلفة قد تمثّلت في إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامي لتحقيق التضامن الإسلامي، والعمل على ترشيد أحوال الأمّة الإسلامية في مختلف المجالات.

وكمنظمة عالمية استطاعت هذه المنظمة أن تعقد مؤتمرات لوزراء الخارجية وأخرى للقمة، وعشرات المؤتمرات الفرعية والتخصصية، وأنشأت بعض المؤسسات الفرعية في مجالات تخصصية، وبذلت مئات الملايين من الدولارات سعياً لتحقيق أهدافها.

والسؤال المطروح هنا هو:

هل استطاعت المنظمة أن تحقّق الهدف المعلن الذي أنشئت لأجله؟

وفي مجال الإجابة ربما نجد من يفرط في التفاؤل فيتصوّرها من أنجح المنظمات، ومن

يمعن في التشاؤم فيراها لم تحقّق أي شيء غير إهدار الأموال والأوقات وتضييع الآمال، ودعم الاتجاهات الرسمية؛ إلاّ أنّ الحق يقتضينا التأمُّل أكثر فأكثر لنقع على صخرة الحقيقة.

وإذا درسنا الموقف من جوانبه، وتأمّلنا النتائج والقرارات التي صدرت من الاجتماعات العديدة، وتتبعناها في مجال التطبيق العملي، والآثار المترتبة عليها، نجد أنّ هناك فرقاً شاسعاً بين المسارين السياسي والاقتصادي من جهة، والمسار الثقافي من جهة أخرى، طبعاً كما نعتقد نحن، وللآخرين ما يعتقدون.

ولسنا هنا بصدد التفصيل في دراسة المسارين السياسي والاقتصادي، غير أنّنا نستطيع القول بإجمال أنّ المنظمة لعبت بعض الأدوار السياسية، ولم توفّق في أكثرها لعوامل عديدة.

فبالنسبة لفلسطين كانت قراراتها من حيث المجموع أفضل من غيرها، وربما بلغت قرارات بعض المؤتمرات العشرين صفحة، تناولت فيها القضية الفلسطينية من جميع الجوانب، وأعطت رأيها بصراحة فيها، إلاّ أنّ الملاحظ أنّ هذه القرارات كانت تذوب عند التطبيق، فلا تجد لها الاستجابة الكافية، فكل دولة كانت تتخذ مسارها تجاه القضية، وتمشي لوحدها على ضوء ارتباطها بالغرب، الأمر الذي كان ينعكس حتى على نفس هذه القرارات، فتعمل على التراجع عن المواقف المبدئية السابقة، حتى عاد الأمر كما نشهده اليوم من الذل والمساومة والإذعان لكل الضغوط، وبالتالي الاعتراف بالعدو الغاشم.

وبالنسبة لقضية الحرب العراقية الإيرانية، لم تستطع المنظمة أن تفعل شيئاً رغم أنّها اتخذت بعض الخطوات. وكذلك الأمر بالنسبة للاعتداء العراقي على الكويت.

وربما تحقّق الإجماع الإسلامي تجاه قضية البوسنة والهرسك كأقوى ما يكون، واستطاعت المنظمة أن تتخذ منها بعض المواقف القوية، إلاّ أنّها لم تحقّق المطلوب بشكل كامل. وها نحن نراها عاجزة عن التدخل بشكل قوي في قضية كوسوفو كما كانت عاجزة عن المساهمة في الحل في قضيتي الصومال، والنزاع الاريتيري الاثيوبي، وكذلك قضية كشمير وغيرها.

أما على الصعيد الاقتصادي فإنّ انجازاتها يمكن أن تتلخص في القيام ببعض المشاريع الاقتصادية المفيدة للعالم الإسلامي، وفي طليعتها مجموعة البنك الإسلامي للتنمية وغيرها في حين بقيت بعيدة عن تحقيق هدف السوق الإسلامية المشتركة بل أنّها لم تستطع أن تفعل شيئاً أمام السقوط المريع لأسعار النفط مثلاً.

بعد هذا لنركّز على المسار الثقافي لهدف المنظمة لنعرف مدى ما حقّقته من نتائج، ويمكن أن نقسّم الإنتاج الثقافي إلى حقول:

الحقل الأوّل: المراكز الثقافية التي تمّ ايجادها أو الدعوة لذلك

وأهمها ما يلي:

أوّلا: الجامعات الإسلامية.

قرّر مؤتمر القمة الإسلامية الثاني المنعقد في لاهور في الباكستان في فبراير ١٩٧٤ من إنشاء جامعتين إسلاميتين في أفريقيا، إحداهما في النيجر لتخدم البلدان الأفريقية الناطقة باللغة الفرنسية، والثانية في أوغندا لتخدم البلدان الناطقة بالانجليزية. ويذكر أن في لاهور جامعتين إسلاميتين.

كما قرّر المؤتمر العالمي الأوّل للتعليم الإسلامي المنعقد بمكة المكرمة عام ١٢٩٧هـ الموافق ١٩٧٧م إنشاء الجامعة الإسلامية في ماليزيا، وقرّر المؤتمر الإسلامي الرابع عشر لوزراء الخارجية المنعقد في دكّا في بنغلادش في ديسمبر ١٩٨٤م إنشاء الجامعة الإسلامية في بنغلادش.

وأوضاع هذه الجامعات مختلفة، فجامعة النيجر قبلت لحد الآن بعض الطلاب، ولكن لما كانت الصعوبات المالية تواجهها بقوّة ممّا أدّى إلى حصول اضطرابات بين الطلبة، دعت السلطات المحلية لإغلاقها في بداية السنة الدراسية «١٩٩١ ـ ١٩٩٢م» وقد تم القيام ببعض الخطوات العملية لإعادتها إلى النشاط.

وجامعة أوغندا بدورها تم افتتاحها عام ١٩٨٨ أي بعد أربعة عشر عاماً، وتضم حالياً ثلاث كليات، ويقدر عدد طلابها بـ٣٠٢ طالباً ومازالت تعاني من نقص مالي. وكانت جامعة ماليزيا العالمية هي المشروع الأكثر نجاحاً، حيث افتتحت عام ١٩٨٣م وفيها الآن أكثر من ٨٠٠ طالب، كما أنّ هيئة التدريس فيها تزيد على ٥٠٠ عضو، وأخيراً فإنّ جامعة بنغلاش الإسلامية تحوي الآن ١٣٠ طالباً، وتعاني من نقص مالي أيضاً.

ثانياً: المراكز الإسلامية التابعة، وهي:

أ. مسجد الملك فيصل والمؤسسات التعليمية الثقافية التابعة له في انجامينا في تشاد.

ب. المعهد الإقليمي للدراسات والبحوث الإسلامية في تمبكتو في مالي.

ج. المعهد الإقليمي للتعليم التكميلي في إسلام آباد في الباكستان.

د. المركز الإسلامي في غينيابيساو.

ح. المنظمة الإسلامية الدولية للمرأة ودورها في المجتمع الإسلامي.

و. المعهد الإسلامي للترجمة في الخرطوم.

والملاحظ أنّ هذه المراكز تمّت الموافقة على إنشائها في أحد المؤتمرات الإسلامية، لهدف نشر الثقافة الإسلامية، وهي عادة ما يتمّ التعاون في تمويلها بين المنظمة ودولة المقر، ولكنّها لم تصل بعد إلى الحد المطلوب، طبعاً على اختلاف بينها فيما حقّقته من خطوات.

وكمثال على ذلك نجد أنّ موضوع المنظمة الإسلامية الدولية للمرأة ـ رغم أهمية موضوعه إذ يتناول قضية ترشيد دور المرأة في المجتمع الإسلامي بقي خلال سنتين قيد الدرس والمداولة.

فقد طرح لأوّل مرّة في الاجتماع العاشر للجنة الإسلامية للأمور الاقتصادية والثقافية والاجتماعية باقتراح من الباكستان، وأوصى المؤتمر الرابع عشر والمؤتمر الخامس عشر لوزراء الخارجية بتشكيل لجنة متخصصة لدراسته، واجتمعت اللجنة في اكتوبر ١٩٨٥م في إسلام آباد ودرست الموضوع، وقدّمت النتائج إلى الاجتماع السادس عشر لوزراء الخارجية، الذي كلّف الأمانة العامة بتهيئة مشروع الميثاق، وقد قامت الأمانة العامة بذلك، وعرضته على الاجتماع الثامن عشر. وتتابعت تأييدات وزراء الخارجية في مؤتمراتهم التالية. «التاسع عشر، والعشرين، والحادي والعشرين، والثاني والعشرين» مع الترحيب باقتراح مقدّم من الجمهورية الإسلامية الإيرانية لاستضافة اجتماع للخبراء لدراسة هذا الموضوع.

وقد سعت الأمانة العامة في الاجتماع الحادي والعشرين لوزراء الخارجية لطرح مشروع قرار يخلط هذه المنظمة، وموضوع دور المرأة في المجتمع الإسلامي، ممّا يؤدّي إلى حذف الفكرة في النهاية، إلاّ أنّ نشاط الوفد الإسلامي الإيراني حال دون ذلك.

وقد عملت الجمهورية الإسلامية الإيرانية على متابعة هذا الموضوع، إيماناً منها بأهمية الموضوع، ولكن نشاط بعض الدول القوية في المنظمة حال دون الوصول إلى قرار حاسم، إلى أن انعقد مؤتمر القمة الثامن بطهران وتوج الجهود بصدور قرار متوازن عن المرأة ولكنه

مازال ناقصاً ومازلنا ننتظر رأي مجمع الفقه الإسلامي حول نتائج دورة طهران، وقد دامت دراسته أربع سنوات!! هذا ومازال الطريق طويلاً أمام المنظمة لتصدر قراراتها القوية في قضايا «الشباب أو الأطفال» وغيرها.

الحقل الثاني: المواضيع العامة

وتندرج تحت هذا العنوان المواضيع التالية:

١. مشروع المبنى الجديد لجامعة الزيتونة بتونس.

٢. وضع تقويم موحد للشهور القمرية والأعياد الإسلامية،ولكنه لم يصل للنهاية.

٣. مشروع إنشاء مركز إسلامي للتدريب والبحوث الطبية المتقدمة في بنغلادش.

٤. مشروع الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي،ورغم الموافقة عليها إلا أنّه لم يجد طريقه للتطبيق.

٥. مشروع اللائحة الإسلامية لحقوق الإنسان،ورغم الموافقة عليها إلا أنّها لم تصل إلى مرحلة الآليّة المطلوبة.

٦. مشروع القيام بخطة لمكافحة المفاسد الأخلاقية،و لم يصل إلى نتيجة.

٧. موضوع الموقف الموحّد تجاه الاستهانة بالمقدّسات والقيم الإسلامية.

٨. مشروع استراتيجية العمل الإسلامي المنسّق في مجال الدعوة.

٩. موضوع رعاية الطفل وحمايته في العالم الإسلامي.

١٠. التآخي بين الجامعات الفلسطينية في الأراضي المحتلة والجامعات في الدول الأعضاء.

١١. تدريس مادة تاريخ وجغرافية فلسطين في الدول الأعضاء.

١٢. الوضع التعليمي في الأراضي الفلسطينية المحتلة والجولان السوري.

١٣. تقوية وضع الجامعات في الأراضي المحتلة.

١٤. دراسة مشكلات التعليم في الأراضي المحتلة.

١٥. المحافظة على الهوية العربية والطابع الإسلامي لمدينة القدس الشريف.

١٦. تدريس المعلومات حول الجامعات المسلمة في البلقان والقوقاز في مادتي التاريخ والجغرافيا.

١٧. تقديم مساعدات لمسلمي كوسوفو وسنجق.

١٨. حماية التراث الثقافي والمؤسسات التعليمية في البوسنة والهرسك.

وغيرهاالملاحظ في هذه المشاريع قبل كل شيء أنّها تناولت في أغلبها قضايا مهمّة جداً، ولها آثارها الواسعة على مستوى العالم الإسلامي إلاّ أنّها بدورها اختلفت من حيث حماس الدول الأعضاء لإنشائها وتنفيذها، وبالتالي اختلفت من حيث المصير والنتيجة، وها نحن نذكر بعض الأمثلة على ذلك.

أ. مشروع اللائحة الإسلامية لحقوق الإنسان

مشروع اللائحة الإسلامية لحقوق الإنسان في الإسلام مرّ بكثير من اللجان والمؤتمرات منذ بدأت فكرة كتابته رسمياً عام ١٩٧٩م، حيث قرّر المؤتمر الإسلامي العاشر لوزراء الخارجية تشكيل لجنة مشاورة لإعداد لائحته، وقد أحيلت إلى المؤتمر الحادي عشر، حيث قام بدوره بإحالتها إلى لجنة قانونية، وعرض النصّ المعدّل على مؤتمر القمة الثالث، ولكن هذا المؤتمر أحاله إلى لجنة أخرى، ووافق المؤتمر الرابع عشر للخارجية في دكّا على المقدمة وأوّل مادة فيه، وأحال باقي المواد على لجنة ثالثة، ثم تتابعت المؤتمرات مؤكّدة عليها، إلى أن عقد اجتماع طهران في ديسمبر ١٩٨٩م وأعدّ الصيغة النهائية التي تمّت الموافقة عليها نهائياً في المؤتمر التاسع عشر بالقاهرة.

وهكذا تكون قد مرّت بعشرة مؤتمرات للخارجية، وثلاثة للقمة بالإضافة لجلسات الخبراء التي كان آخرها في طهران، وقد تشرّفت برئاسة هذه الجلسة الأخيرة، كما شاركت في جلسات غيرها كرئيس مناوب أو كعضو مسؤول.

والحقيقة فإنّ النتيجة كانت رائعة من حيث الجانب النظري، إلاّ أنّ المشكلة الأساسية تكمن في التطبيق على صعيد العالم الإسلامي، تماماً كما المشكلة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ولكن على الصعيد العالمي كلّه.

فلقد أصرّت بعض الدول الاعضاء على أن يقيّد تنفيذ هذا الإعلان بما إذا كان ينسجم مع القوانين الداخلية لها!! وهذا أمر غريب حقاً.

وعلى أي حال، ينبغي السعي الجاد لضمان التنفيذ بمختلف الطرق، ولا يتمُّ ذلك إلاّ من خلال إنشاء لجنة محايدة لمراقبة حقوق الإنسان على ضوء اللائحة الإسلامية، وهذا ما ندعو إليه بقوّة.

ب. الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي

وهو مشروع مهم جداً انطلق من مؤتمر القمة الثالث وأكّد عليه مؤتمر القمة الإسلامي الخامس في الكويت عام ١٩٨٩م عبر مشروع قدّمته السنغال، وشكّلت لذلك لجنة للخبراء الحكوميين، حيث عقدت ثلاثة اجتماعات شاركتُ في بعضها، بل وقمت بتهيئة الفصل الثاني من المشروع، وهو فصل «الأهداف».

وهكذا قامت هذه اللجنة في اجتماعها المنعقد بالقاهرة عام ١٩٩٠م بدراسة الخطة، وتوالت الاجتماعات حتى تمَّ وضع مشروع متكامل رفع إلى مؤتمر القمة السادس في دكار، فصادق على المشروع بأكمله، وتمَّ العمل على ملاحظة السبل الكفيلة بتطبيقه عبر خطة تنفيذية، ولم تصل هذه الخطة بعد إلى الحد الكامل.

وقد قام المؤتمر السابع بالدار البيضاء بالمصادقة على مشروع قرار برقم CS/DR/١٥ تمَّت فيه التوصية على وضع هذه الاستراتيجية موضع التنفيذ، عبر دراسة الخطة التنفيذية من قبل اللجنة الدائمة للإعلام والشؤون الثقافية، وطلب من الدول اتخاذ الخطوات اللازمة لإدخال هذه الاستراتيجية ضمن سياساتها الوطنية في المجالات الثقافية والتعليمية والتربوية.

وعلى أي حال فما زال هذا المشروع باقياً على الصعيد النظري ينتظر صياغته بشكل مشروع عملي تنفيذي، مثله تماماً كمثل اللائحة الإسلامية لحقوق الإنسان.

ج. مشروع وضع خطة لمكافحة المفاسد الأخلاقية

مرّ هذا المشروع بعقبات كثيرة وضعتها بعض الدول الأعضاء، لأنّه يتنافى مع ما هي عليه من تبنّ لبعض السلوكيات اللاأخلاقية وسماح لبيع الخمور، وترويج للسفور، وفسح المجال للقمار والبلاجات الخليعة، وأمثال ذلك من أنماط الانحراف السائد في أرجاء العالم الإسلامي.

ورغم كل العقبات، فقد أصررنا على طرحه في المؤتمرات، حتى تمّت الموافقة على صيغة معدّلة منه، حذفت منها كل عبارات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخفّفت مواده حتى كادت تفقده فاعليته.

إلاّ أنّ الغريب أنّ الأمانة العامة ومن ورائها بعض الدول عملت على حذفه من قائمة

مشاريعها، حتى لم نعد نشهد له أثراً في القرارات التالية، الأمر الذي يشكّك تماماً في مصداقية الكثير من نشاطات المنظمة مع الأسف الشديد.

والحقيقة أنّ القرار لم يترك أي أثر على صعيد إصلاح الأوضاع الأخلاقية، نظراً لفقدان العزيمة اللازمة لتحويل هكذا مشروع إلى واقع التنفيذ.

د. موضوع الموقف الموحّد من التجديف والاستهانة بالمقدسات الإسلامية

وهذا الموضوع انطلق من خلال الآثار العالمية التي تركتها الفتوى التاريخية الخالدة للإمام الخميني(قدس سرهم) بحق المرتد سلمان رشدي، الذي عمل من خلال كتابه المشؤوم «الآيات الشيطانية» على الاستهانة بأهم المقدسات الإسلامية، وقد ساندته في موقفه التآمري كل الدول الغربية، معبّرة عن حقدها ضد الإسلام والمسلمين. إلاّ أنّ فتوى الإمام التاريخية أفشلت هذه المؤامرة، بل حوّلت الموقف إلى تجلٍّ جديد للوحدة الإسلامية بوجه أعداء الأمّة الإسلامية... وقد عرض الموضوع على المؤتمر الثامن عشر لوزراء الخارجية بالرياض عام ١٩٨٩م،و بذلتُ والوفد الايراني المرافق جهوداً حثيثة في سبيل الموافقة عليه، فأصدر بيانه التاريخي حول «العمل المشترك إزاء أنماط الاستهانة بالقيم الإسلامية» وقد أيّد المؤتمر الإسلامي التاسع عشر عبر أحد قراراته هذا الاتجاه، وطالب بالوقوف أمام نشر هذا الكتاب الضال.

إلاّ أنّ ضغط الدول الغربية وتقاعس البعض من الأعضاء أضعف هذا الموقف، الأمر الذي تجلّى في إدخال عناصر أخرى في هذا القرار، مثل مؤامرة الكيان الصهيوني لتدمير المسجد الأقصى، والضغوط الهندية الهادفة إلى هدم مسجد بابري فضمت إلى موضوع كتاب الآيات الشيطانية. وهذه المواضيع وإن كانت بنفسها مهمة، إلاّ أن ضمّها لهذا القرار يضعفه بلا ريب.

هذا وقد صدر عن كلٍّ من المؤتمرين العشرين والحادي والعشرين للخارجية قرار يطالب الأمين العام بدراسة إمكانية إعداد وثيقة قانونية دولية لكفاية احترام القيم والمقدّسات الإسلامية في برنامج عمل مجمع الفقه الإسلامي.

وفي المؤتمر الثاني والعشرين للخارجية الذي تبعه مباشرة المؤتمر السابع للقمة تم تأكيد البيانات السابقة، وبعد التنديد بالاعتداءات الصهيونية على المسجد الأقصى والمسجد

الإبراهيمي والاعتداءات الهندية التي أدّت إلى تدمير مسجد بابري والاعتداءات الصربية على الأماكن المقدسة في البوسنة والهرسك، تمَّ التأكيد على ضرورة إبرام الوثيقة القانونية الآنفة الذكر.

وهكذا نجد أنّ المنظمة تتردّد بين الإقدام والإحجام في كثير من المواضع، ومنها هذا الموضوع، وبدلاً من تقوية موقف المؤتمر الثامن عشر، راحت المسيرة تضعف من خلال ضمّ موضوعات مهمة أخرى كلها تستحق قرارات مستقلة إليه حتى يمكن تغطيته بالأحداث، وصرف الأنظار المركّزة على الغرب في ذلك.

هذا في حين يصعّد الغرب من دعمه لهذه المؤامرة، ويستقبل رؤساؤه هذا المجرم، ويمنحه المكافآت والأوسمة كبطل للحرية التعبيرية، بل ويحاول تشجيع أمثال تسليمة نسرين المعتدية أيضاً على المقدسات في المسيرة، دون أن يأبه بالموقف الإسلامي الرافض.

الحقل الثالث: المؤسسات المتفرعة

وهي مؤسسات شكّلتها المنظمة، وتعتبر الدول الأعضاء بشكل طبيعي أعضاء أيضاً في هذه المؤسسات، وتبلغ في الحال الحاضر سبع مؤسسات في المجالات الثقافية والاقتصادية، وتقع مقرّاتها في بلدان مختلفة. وها نحن نقدّم نبذة مختصرة عن أهم مؤسستين ثقافيتين فيها وهما:

أوّلا: «الارسيكا» مركز الدراسات التاريخية والفنية والثقافية الإسلامية باستانبول.

وقد انشئ هذا المركز بقرار من المؤتمر السابع لوزراء الخارجية، وتمّت الموافقة على نظامه الأساسي في المؤتمر التاسع وبرنامجه العملي في المؤتمر العاشر، وافتتح عام ١٩٨٢م. و للمركز نشاطات متعددة منها:

ـ إصدار ٤١ كتاباً في الشؤون التي يختص بها.

ـ إصدار ٣٤ نشرة أخبارية.

ـ إنتاج شريطين وثائقيين حول الفنون الإسلامية.

ـ اقامة ٨٩ معرضاً في مجالات الفنون والصور التاريخية.

ـ شارك في أو نظّم ٢٤ ندوة في مختلف المناطق.

ـ نظّم ٨٨ محاضرة علمية في مركزه باستانبول.

ـ يقوم بأعمال اللجنة التنفيذية للجنة الدولية للحفاظ على التراث الحضاري.

هذا ويعتبر المركز من المراكز الناجحة، إلاّ أنّه مازال يعاني من النقص المالي، وكذلك مازال يهتمُّ بكثير من الأمور الجانبية، في حين توجد قضايا مهمة جداً لم يتطرّق إليها بعد.

ثانياً: مجمع الفقه الإسلامي.

وهو مجمع فقهي عالمي، تشترك فيه كل الدول الإسلامية على مستويات تمثّل فيه كل المذاهب الإسلامية السبعة «الحنفي والحنبلي والشافعي والمالكي والإمامي والزيدي والأباضي» وتسوده روح حرة إلى حد جيد، ويدرس في كل عام قضايا مستجدة مهمة. واتشرف بتمثيل الجمهورية الإسلامية الإيرانية فيه، بل أمثّل فيه كلّ أتباع ومدارس المذهب الإمامي في العالم... وقد عقد لحدّ الآن إحدى عشرة دورة في مدن مختلفة، درس فيها عشرات المواضيع المهمة، وأمينه العام هو الشيخ محمد الحبيب بن الخوجة.

ونظراً لأهمية هذا المجمع، وبطلب من مندوب الجمهورية الإسلامية الإيرانية فيه، فقد تفضل سماحة قائد الثورة الإسلامية فأمر بتشكيل «مجمع فقه أهل البيت عليهم السلام ليقوم إلى جانب دراسة القضايا المستجدة دراسة معمقة بالإشراف على الدراسات المعدة لهذا المجمع وأمثاله.

ويعدّ هذا المجمع من أفضل المشاريع التي أقدمت عليها المنظمة على الإطلاق ولنا تعاون مستمر معه.

الحقل الرابع: المؤسسات التخصُّصية التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي

وهي مراكز متخصّصة تعمل في إطار المنظمة، لكن انتماء الدول الأعضاء لا يتمُّ بتشكيل طبيعي، بل هي حرة في الانتماء وعدمه، ولها مقرّات في بلدان متنوعة، وها نحن فيما يلي نشير إلى أهم مؤسسة فيها وهي:

«الإيسيسكو» المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة.

وقد طرح مشروع تأسيس هذه المنظمة في الاجتماع العاشر للخارجية، وتمّت الموافقة على نظامها الأساس في الاجتماع الحادي عشر، ووافق مؤتمر القمة الثالث عام ١٩٨١م. على تأسيسها، وعقدت اجتماعها التأسيسي عام ١٩٩٢ م، وانضمّت إليها آنذاك ٢٣ دولة وتستهدف ما يلي:

أ. تمتين أواصر التعاون التعليمي والعلمي والثقافي بين الدول الأعضاء.

ب. إقامة السلام والتفاهم عبر الاستفادة من مختلف الوسائل.

ج. تجسيد معالم الثقافة الإسلامية في البرامج الدراسية في مختلف المستويات.

د. إحياء الثقافة الإسلامية الأصيلة وردّ الشبهات.

هـ. الدفاع عن الهوية الإسلامية للمسلمين في الدول غير الإسلامية.

هذا وقد انضمّت الجمهورية الإسلامية الإيرانية إليها عام ١٩٩٤م، فبلغت الدول المنتمية ٣٩ دولة.

أما المؤسسات الأخرى فهي:

ـ الاتحاد الرياضي للتضامن الإسلامي ـ ومقرّه في الرياض.

ـ اللجنة الإسلامية للهلال الدولي ـ ومقرّه في بنغازي بليبيا.

ـ الاتحاد العالمي للمدارس الدولية ـ العربية الإسلامية.

ـ لجنة تنسيق العمل الإسلامي والدعوة.

وخلاصة الأمر: أنّنا نجد للمنظمة تأثيراً لا بأس به في المجالات الثقافية، وربما فاق هذا التأثير بكثير آثارها الاقتصادية والسياسية، إلاّ أنّه لم يصل مع هذا إلى الحد المطلوب من منظمة عالمية تحمل أهدافاً كبرى، وتعمل على الرقي بمستوى أبناء الأمّة في مختلف المجالات، ذلك أنّ التوعية الحقيقية تتطلّب العمل على تعميق المفاهيم الإسلامية الأصيلة حول الوحدة الإسلامية، وتطبيق الشريعة الإسلامية، ونشر الفضائل، وإيجاد التوازن المطلوب على مختلف المستويات، وحذف كل مظاهر الفساد الأخلاقي والسياسي والثقافي والاقتصادي، وإحياء الشعائر الإسلامية بما لها من روح حقيقية، وبالتالي على إيجاد المجتمع الإسلامي الأصيل الواحد والفرد المسلم الملتزم. وهذه أمور لم تستطع المنظمة القيام بها مع الأسف ولعل أهم الأسس التي أقعدتها عن تحقيق أهم وظائفها تكمن في أنّها تستمد قوّتها من أعضائها، والبعض من هؤلاء الأعضاء يصوغون سياساتهم على أساس التبعية للغرب أو للشرق، بالإضافة للمصالح الوطنية أو الحزبية أو القومية المغلقة، مكتفين من الإسلام ببعض الصفات السطحية. وهو الأمر الذي وجدنا الإمام الراحل الخميني﴿ قد حذّر منه

في مجالات عديدة ودعا العالم الإسلامي شعوباً وحكومات للتحرر من التبعية والاستقلال في صياغة القرار.

هذا بالإضافة إلى أنّ المنظمة تسير عادة وفق المجالات المسموح بها من قبل الدول وبعض هذه الدول محكومة تماماً لعاملين أساسيين: التبعية السياسية للغرب، والأفق الضيق للثقافة القشرية والتصوّر الجامد للإسلام، وكل ذلك يمنع المنظمة من القيام بدورها الفعّال في التوعية الإسلامية، أو الارتفاع بمستوى المرأة، أو محاربة الفساد الأخلاقي وأمثال ذلك.

كيف تتمّ عملية التفعيل؟

رغم اعتقادنا في أنّ الحالة الطبيعية هي الوحدة السياسية والقانونية لكل العالم الإسلامي إلاّ أنّ ملاحظة الظروف القائمة تجعلنا نفكر في البدائل ومنها هذه المنظمة. إنّ هذه المنظمة كبديل تستطيع أن تلعب أدواراً أكبر على الساحة الدولية في القرن الحادي والعشرين شريطة أن تتوفّر في أعضائها إرادة التغيير المطلوب.

إنّ المنظمة يجب أن تحقق المستويات التالية:

أوّلا: الانسجام الداخلي المطلوب عبر التقدّم في المسارات الاقتصادية والثقافية والسياسية وتجاوز المنافع الضيقة نحو الأهداف العليا.

ثانياً: معرفة القدرات الهائلة التي تمتلكها الدول الأعضاء والعمل على الاستفادة الأفضل من هذه الإمكانات الضخمة.

ثالثاً: التدخُّل بكل قوة في الأحداث العالمية خصوصاً بالنسبة لما يرتبط بالعالم الإسلامي.

رابعاً: التعاون الدولي في مختلف المجالات والإسهام الواسع في حل المشكلات الحضارية القائمة، ومن الطبيعي أنّ تحقيق هذه المستويات لن يتمَّ إلاّ إذا توفّرت الظروف التالية:

١. إعادة النظر بكل جدّية في النظم التي تحكم نشاطاتها والآليات القائمة واعتماد آليات فعّالة تمتلك القدرة التنفيذية المطلوبة وتعلو على العقبات المصلحية الضيّقة لتفرض الواقع المطلوب، ولا ريب في أنّ هذا المعنى بحاجة إلى إرادة قوية للتغيير.

٢. امتلاك القدرة المالية المطلوبة، والاكتفاء الذاتي المالي دون انتظار المعونات الإضافية التي تتبرّع بها هذه الدول أو تلك وإلاّ بقيت تابعة ذليلة لمطامعها وقعدت عن تحقيق آمالها الكبرى.

٣. اعتماد عنصر العقوبات الرادعة للدول المتقاعسة عن القيام بواجباتها.

٤. اعتماد فكرة إشراك الجماهير والمنظمات غير الحكومية في مجال تحقيق الأهداف المطلوبة لو من خلال الضغط على حكوماتها للانسجام مع الخط الإسلامي العام.

٥. الاتجاه نحو تطبيق الشريعة الإسلامية في مختلف مجالات الحياة الاجتماعية للدول الاعضاء وتطهير العالم الإسلامي من كل الظواهر اللاإسلامية وهو هدف كبير يعلنه الجميع ولكنهم يتوانون عن تحقيقه.

وفي خاتمة المقال نودّ أن نقول: إنّ المؤتمر الثامن للقمة الإسلامية في طهران شكّل نقلة نوعية لعمل المنظمة من حيث قوة التماسك الذي ظهر في المؤتمر والصدى الاعلامي الذي تركه والقرارات المتقدّمة التي وافق عليها وقبل ذلك من حيث تحدّيه لسياسات الاستكبار العالمي التي كانت تستهدف عزل الثورة الإسلامية حتى على المستوى السياسي والدبلوماسي فضلاً عن المستويات الاقتصادية والثقافية.

وكان للخطاب الهام الذي ألقاه قائد الثورة الإسلامية واقتراحاته البنّاءة لتسلّم الدور اللائق بالمنظمة في نظام الاقتدار العالمي، وكذلك الخطاب الذي ألقاه رئيس المنظمة السيد الخاتمي الأثر الكبير في اتجاه منظمة المؤتمر الإسلامي نحو مستقبل أفضل واقتدار أسمى.

إلاّ أنّ ذلك كله كما قلنا يتوقّف على استمرار الإرادة وقوة التصميم وروح التحدّي التي يجب أن يتحلّى بها أعضاء المنظمة كي تستطيع تحقيق هذه الأهداف.

نسأل الله جلّ وعلا أن يوفّقنا جميعاً لتحقيق مرضاته، إنّه السميع المجيب.

دور منظمة المؤتمر الإسلامي في دورتها الحالية[1]

محمد كريشان: الآن وقد انتهت الأجواء الاحتفالية التي تصاحب عادة المؤتمرات الإسلامية، انتهت رئاسة إيران للمؤتمر الإسلامي وبدأت رئاسة قطر. ما الذي يمكن أن يقال لضمان استمرارية ما في عمل المؤتمر الإسلامي ولضمان نجاعة هذا العمل؟

---

١. اجرت قناة الجزيرة في قطر عبر المذيع محمد كريشان مقابله تلفزيونية بعد انتهاء مؤتمر القمة الإسلامي التاسع وها نحن نقدم مقتطفات منها لتتم الفائدة.

الشيخ محمد علي تسخيري: بسم الله الرحمن الرحيم، أعتقد أنّ منظمة المؤتمر الإسلامي تشكّل وسيلة ضخمة من وسائل هذه الأمّة للوصول إلى طموحاتها، طبعاً ليست الوسيلة الوحيدة، ولكنّها مهمة في هذا الصدد. وأعتقد أنّ هذه الأمّة مؤهلة لتلعب دوراً كبيراً في مستقبل الحضارة الإسلامية باعتبار الموقع القيادي الذي أعطاها إياه الإسلام، باعتبار ما تملك من طاقات حضارية، وباعتبار أنّ المسيرة الإنسانية اليوم لا تفسح المجال إلاّ للأمة الفاعلة المؤثّرة في المسيرة، ومن هنا فمنظمة المؤتمر الإسلامي يمكنها أن تفعل الكثير في تحقيق هذا الطموح، ولها دور كبير مستقبلي في هذا الصدد.

محمد كريشان: ولكن سماحة الشيخ يعني.. رغم أهمية الإسلام كجامع لهذا التجمّع الدولي يبقى تنوّع الدول داخل هذه المنظومة وتعدّد ولاءاتها السياسية وتعدّد أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية يجعل من مثل هذا التجمّع تجمعاً مناسباتياً أكثر منه شيء آخر، يعني.. هل فعلاً يمكن للمؤتمر الإسلامي أن يكون تجمعاً فعالاً وله كلمة في رسم السياسة الدولية؟

الشيخ محمد علي تسخيري: أعتقد أنّ هذه المنظمة لو بقيت على وضعها السابق فلن تستطيع أن تفعل الكثير، لكن أمامها سبل للتطوير، عليها ـ أوّلا ـ أن تعيد النظر في آلياتها، وعليها ـ ثانيا ـ أن تمتلك القدرة المالية المستقلة إلى حدٍّ كبير، وعليها أيضاً..

محمد كريشان (مقاطعاً): عفواً... يعني مستقلة عن الحكومات؟

الشيخ محمد علي تسخيري (مستأنفاً): نعم، يجب أن تمتلك شخصية مستقلة... حتى تمتلك الاستقلال في القرار أيضاً.

محمد كريشان: ولكن هي أصلاً تجمُّع لحكومات.

الشيخ محمد علي تسخيري: هذا صحيح، ولكن مع ذلك هناك دور كبير للأمانة العامة، وهناك دور كبير للرئاسة في هذا المجال، ولو أنّها ضمنت شيئاً كما يمكن أن يطلق عليه من الجزاء للدول التي لا تمتثل للقرارات، ولو أنّها ضمنت أو فسحت المجال للتجمّعات الشعبية أيضاً لتساهم في عملها، فإنّي أعتقد أنّها تستطيع أن تلعب دوراً أكبر ممّا هو عليه الآن، وبالمناسبة أعتقد أنَّ رئاسة المؤتمر يمكنها أن تؤثر أكثر من ذي قبل، لم يكن للرئاسة دور فاعل، ولكنه بدأ يقوى خصوصاً بعد مؤتمر القمة الثامن بطهران. وبدأت الرئاسة تدخل في

المساحات المختلفة وتشترك مع الأمانة العامة لتحقيق أهدافها، وإنّي لأرجو لقطر أن تستمر في هذا المجال وتعطي للرئاسة الدور الفاعل إلى جانب الأمانة العامة، لكي تستطيع هذه المنظمة أن تكون بالمستوى المطلوب لتحقيق تلك الطموحات التي أشرتُ إليها.

محمد كريشان: سماحة الشيخ، هل تراهنون أكثر على الرئاسة أكثر من الأمانة العامة؟ يعني الرئاسة الإيرانية مثلاً ما الذي أضافته؟ وما المطلوب من قطر إذا أردنا أن نكون عمليين وواضحين في الطرح؟

الشيخ محمد علي تسخيري: في الواقع الرهان يجب أن يكون على عناصر ثلاثة، أوّلا: على آليات المنظمة، والتي قرّر مؤتمر القمة تطويرها. وثانياً: على فاعلية الأمانة العامة نفسها. وثالثاً: على القيادة الفعلية لرئيس المؤتمر.

وأعتقد أنّ الرئيس خاتمي عندما كان رئيساً لمؤتمر القمة الثامن بذل كل جهده ليسير مع القضايا ومع الأمانة العامة لتحقيق ما لديها من طموح ولتقوية مسيرتها، ولا أدلّ على ذلك من الدور الذي لعبته منظمة المؤتمر الإسلامي في مسألة تحويل قضيَّة الحوار الحضاري أو حوار الحضارات إلى قضية عالمية بحيث قبلت الأمم جميعاً هذه الفكرة، وأعلنت الأمم المتحدة بالإجماع عام ٢٠٠١ عام الحوار بين الحضارات في مقابل نظرية الصراع التي طرحتها النظرة الأمريكية أوالمُنَظِّر الأمريكي هنتنجتون، فهذا نموذج من الدور الذي لعبته المنظمة، ولها أدوار أكبر وأكثر تأثيراً في هذا المجال.

محمد كريشان: هل تعتقدون بأنّ الجانب الثقافي هذا جانب مهم جداً، أنتم رأستم اللجنة الثقافية للمؤتمر الثامن للمؤتمر الإسلامي في طهران، سواء حوار الحضارات أو غيره من هذه القضايا، هل ربما تنجح فيها منظمة المؤتمر الإسلامي، أكثر من القضايا السياسية الشائكة أو الاقتصادية المعقدة؟ هل الرهان على الجانب الثقافي رهان مضمون إلى حدٍّ ما؟

الشيخ محمد علي تسخيري: لا ريب أنّه رهان مضمون، وتاريخ المنظمة يثبت أنّها نجحت في الجانب الثقافي أكثر منها في الجوانب السياسية والاقتصادية أيضاً، يعني منظمة المؤتمر الإسلامي اليوم تملك مؤسسة ضخمة باسم مجمع الفقه الإسلامي الدولي، التي جمعت العلماء من شتّى أقطار العالم الإسلامي، ومن المذاهب الثمانية، والتي تطرح في كل عام قضايا

تهمّ العالم الإسلامي أو قضايا لم تحل بعد، وتصدر الرأي فيها، وهي خطوة رائعة على طريق التقريب بين الآراء والمذاهب الإسلامية، وهذه المنظمة نجحت في تشكيل الإيسيسكو وهي منظمة ثقافية متعدّدة الجوانب، وفي تشكيل (الأرسيكا) أو في الإعداد لجامعات ومراكز ضخمة في شتّى أنحاء العالم الإسلامي، أو في كتابة أو في إقرار الاستراتيجية الثقافية الرائعة للعالم الإسلامي، كل هذه منجزات ضخمة تذكر وتشكر لهذه المنظمة، لكنّها على الصعيد الاقتصادي مثلاً لم تحقّق الكثير، وإن كانت حقّقت مثلاً تشكيل بنك التنمية الإسلامية، أو طرح فكرة السوق الإسلامية المشتركة، وتشكيل المؤسسات التي تجمع مؤسسات الدول المختلفة، ولكن لا يصل هذا العمل إلى مستوى الإنجاز الثقافي.

في المجال السياسي أعتقد أنَّ المنظمة نجحت في كثير من الحقول، لكن هذا النجاح ـ كما أعتقد ـ لا يصل إلى نجاحها الثقافي.

محمد كريشان: إذا بقينا في المجال الثقافي قبل أن نتطرّق للمجال الاقتصادي ربما والسياسي، من الأفكار المثيرة التي طُرحت مؤخراً إمكانية الحديث عن إطلاق فضائية إسلامية بمناسبة رئاسة قطر للمنظمة، كيف تنظرون إلى هذا المشروع؟ إلى أي مدى يمكن فعلاً إطلاق فضائية تليفزيونية إسلامية؟ وكيف يمكن أن نجد لها التصوّر الذي قد تتفق عليه أغلب الدول الإسلامية رغم تعدّد اتجاهاتها سواء السياسية العامة أو غيرها؟

الشيخ محمد علي تسخيري: الحقيقة هذا أمر كنا ننتظره، والفضل للرئاسة الحالية، وهنا يظهر دور الرئيس في تحقيق هذا الحلم، وأعتقد أنّ جماهيرنا في أنحاء العالم الإسلامي تنتظر هذه الفضائية، وأرى أنّها تستطيع أن تنجح، ذلك أنّ المساحة المشتركة بين المسلمين أكبر بكثير من مساحات الاختلاف، اختلاف الأذواق، اختلاف السياسات، اختلاف المناطق والثقافات المحلية، المساحة المشتركة أوسع، يمكن لهذه الفضائية الإسلامية أن تركّز على المساحة الثقافية المشتركة التي لا يختلف فيها اثنان في عالمنا الإسلامي، منابعنا القرآن الكريم، السنّة الشريفة، تاريخنا الإسلامي المتفق عليه، كل هذه الأمور يمكنها أن تفتح آفاقاً رحيبة مشتركة، ويمكن لهذه الفضائية أن تقوم بدور كبير في عملية التوعية، لأنّ التوعية هي الأساس الأوّل لنهضة أي أمّة وانطلاق دورها تحت الشمس.

محمد كريشان: على ذكر مساحات الاختلاف... من بين الأشياء التي ـ ربما ـ تؤَرِّق عديداً من الباحثين والمتابعين للشأن الإسلامي هذا التعدّد في المذاهب، وأحياناً تضخيم البعض للخلافات المذهبية، يعني أنتم عضو في اللجنة العليا للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية... كيف يمكن لهذه الفضائية أو لغيرها من فضاءات الفعل الثقافي أن تتجه لمعالجة هذه القضية بكثير من الروية وبكثير من الحكمة، حتى نبتعد عن هذا التشتّت الذي ـ أحيانا ـ يضخم ـ ربما ـ إعلامياً حتى أكثر من اللازم؟

الشيخ محمد علي تسخيري: الحقيقة هي أن الاختلاف المذهبي هو غنى فكري، وإضافات حضارية تضاف لمسيرة الحضارة الإسلامية، هذا هو المراد، وهذا هو الذي أراده الإسلام من فسح المجال للاجتهاد الحر، وهكذا فهم القادة الأئمة هذا الاختلاف المذهبي، إلاّ أنّ عصور الانحطاط وعصور التشرذم ـ مثلاً ـ في أواخر القرن الرابع الهجري ثم الخامس ثم ما بعد، عصور الدويلات والطغاة الذين كانوا يتستّرون ـ أحياناً ـ بهذا المذهب أو ذاك حوّلت هذا الاختلاف الرائع المذهبي إلى طائفية مقيتة، وأَصَّلَت هذه الطائفية في نفوس الأتباع، وكان ما شهدناه في خلال التاريخ الإسلامي من فجائع وفظائع يندى لها الجبين، أما الواقع فهو يسمو على هذا... على ما جرى، الواقع إنَّ المساحات المشتركة بين المذاهب، وخصوصاً بين السنة والشيعة، هي مساحات ضخمة جدّاً، حدّثني الأستاذ المرحوم محمد المبارك أنّه رأى ٩٥٪ من المساحة الفقهية يشترك فيها السنة والشيعة برأي واحد، ويبقى ٥٪ من هذه المساحة يُشكل موارد الاختلاف، ولكن ـ الأسف كل الأسف ـ أنَّ البعض يركّزون على الـ٥٪، وينسون تلك المساحة الضخمة، الحقيقة هذه الفضائية تستطيع أن تعيش في مساحة الـ٩٥٪، وأن توسّع ـ حتى ـ هذه الـ٩٥٪، ليفهم بعضنا بعضاً، وإذا تفهمنا بعضنا البعض حصل التفاهم المطلوب، وحلّقت الأمّة ـ بكل أجنحتها ـ إلى المستوى الذي يريده الله لها.

محمد كريشان: يعني شيخ هذا على مستوى ـ ربما ـ على المستوى الفقهي الديني الفكري العام، يعني عندما يتحدّث البعض عن تخوفات من إيران الإسلامية والتوجُّه الشيعي لدى إيران الإسلامية.. هل تعتقدون بأنّ هذا الحديث عن هذا التخوّف ـ خاصة في منطقة الخليج ـ وعندما يتمّ الإشارة إلى القضايا السياسية سواءً الشيعة في العراق أو الشيعة في منطقة الخليج، يُشار إلى إيران ببعض الريبة، هل هذا الشك تراه في محله؟ وهل هناك من يغذيه أصلاً؟

الشيخ محمد علي تسخيري: الحقيقة عندما تحرّك الشعب الإيراني ضد النظام الشاهنشاهي كان يعلم ماذا يريد، النظام الشاهنشاهي كان يسعى لإبعاد الشعب في إيران عن جسم الأمّة، وجعل إيران قاعدة أمان ـ كما عبّر الرئيس الأمريكي ـ لآمال المستعمرين، الثورة الإسلامية أعادت الأمور إلى موضعها الطبيعي، والشعب أعلن أنّه يثور لأجل القرآن، ولأجل الإسلام، وبعد ذلك رأيناه يمشي في مجال دعم الأمّة الإسلامية، وضرب المصالح الصهيونية، وشهدنا الكثيرين من الأعداء ـ كما أعتقد ـ أو الجاهلين الذين يعملون على حصر هذه الثورة في إطار مذهب ما، أو في إطار منطقة جغرافية ما، أو مصلحة إقليمية ما، إلاّ أنّ روح الثورة الأصيل يتجاوز كل هذه الحدود الضيقة، ويعيش آمال الأمّة الإسلامية، والدستور الإسلامي يرقى على كل هذه الأمور؛ الثورة أَصَّلَت اللغة العربية، ونشرت ثقافة القرآن بشكل رائع، وراحت تمدّ الجسور إلى العالم الإسلامي. إنَّ عملية التخويف طبيعية من العدو، العدو يُخَوِّف بعضاً من البعض، كما يخوِّف العرب من إيران يخوَّف إيران من العرب، وأرى أنَّ على المخلصين ـ أوّلا ـ أن يحتفظوا للثورة بنصاعتها وأصالتها، وأن يمدّوا الجسور الواسعة المهيعة بين إيران وكل الدول الإسلامية، وخصوصاً كل الدول العربية، وخصوصاً دول الجوار، ونحن نشهد ـ والحمد لله ـ تطوّراً جيداً في هذا المجال.

محمد كريشان: يعني مثلما يقع التخويف بإيران أحياناً يقع التخويف بالإسلام بشكل عام، يعني كل هذا الحديث في أحداث معينة عن هذا الربط بين الإسلام والإرهاب والحركات التحررية في بعض البلاد العربية وتوجّهها الإسلامي وبين الإرهاب والتطرف، يعني أنتم كرجل دين وكرجل سياسة ـ أيضاً ـ كيف يمكن أن تقع معالجة هذه النظرة للإسلام والمسلمين، سواء على الصعيد الثقافي أو غيره؟

الشيخ محمد علي تسخيري: الحقيقة يجب أن ندرك أنّ هناك منظومة تعمل على تحقيق هذا الهدف، نفس التنظير ونظرية صراع الحضارات. نفس العمل على خلق عدو وهمي للغرب بعد أن سقط العدو الحقيقي وهو الشرق، كل هذه الأمور وهذه الاتهامات، وربط الإسلام بالإرهاب ـ مثلاً ـ وأمثال ذلك. كل هذه المنظومة يجب أن نتفهّمها جيداً، ولا نفسح المجال في أمورنا لتسلل هذه الأمور. المرحوم محمد الغزالي كان عنده تعبير جيد يقول عن الأعداء: إنّهم يمتدّون في فراغنا؛ لأنّنا تركنا فراغاً ونقاط فراغ وخلل امتدّ الأعداء إلينا. الحقيقة أنّ

الإسلام دين حضاري ودين حوار، حتى مع المشركين، نجد القرآن يوصي الرسول بأن يعلن الموضوعية الكاملة ليقول: وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين، بهذه الروح الموضوعية يدخل الحوار، والقرآن يقرّر شروطاً رائعة للحوار لو درسناها بعمق، وطبّقناها في مجال تعاملنا مع الآخرين أعتقد أنّ هذه الشائعات سوف تزول.

أعتقد أنّ هناك مجالات للقائنا مع الغرب أيضاً، فأننا نستطيع أن نتحدّث حول حقوق الإنسان، نستطيع أن نتحدّث حول العائلة، نستطيع أن نتحاور حول العدالة، نستطيع أن نتحاور حول السلام العالمي، هناك مجالات كثيرة للحوار، ونفس تقبُّل العالم لفكرة حوار الحضارات يبشرنا بخير، ويبشر أيضاً بأنّ عصر التهم الزائفة الموجَّهة إلى الإسلام في طريقه إلى الزوال.

الإيسيسكو والقرن الحادي والعشرون التحدّيات والمسؤوليات[١]

مسؤوليات الإيسيسكو في تنمية العالم الإسلامي

تعتبر المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة ـ الإيسيسكو ـ وهي تحتفل بالذكرى الخامسة عشرة على تأسيسها، منظمة دولية تفتخر بها الدول الإسلامية، لما تقوم به من نشاطات أساسية واسعة. لقد جاء تأسيس هذه المنظمة استجابة حقيقية لمتطلبات الدول الإسلامية من أجل التخطيط والتعاون في سبيل الارتقاء بمستوى الأجيال الإسلامية من الناحية التربوية والعلمية الثقافية، إلى قيادة الحضارة الإنسانية، واستعادة الدور الريادي الذي كان للمسلمين في ثقافة الإنسان.

وقد خطت المنظمة الإسلامية خلال السنين الماضية، خطوات إيجابية كثيرة رغم كل التحدّيات التي واجهتها خلال الفترة الماضية. إلاّ أنّنا ونحن على أعتاب القرن الحادي والعشرين، نجد أنّ التطورات العالمية والإسلامية تدعونا لخوض مرحلة جديدة تدعو إلى كثير من التفاؤل بالدور الإسلامي القادم.

إنّ استعادة الدور الحضاري للأمّة الإسلامية ينطلق من تربية الجيل القادم تربية تؤهله لحمل المهمة، وتوفير ظروف ملائمة لممارسة الفئة المفكرة دورها في عملية البناء الحضاري.

---

١. ألقيت في ندوة الإيسيسكو بمناسبة مرور ١٥ عاماً على تأسيسها وقد عقدت بالرباط.

مصادر التحدّي وعناصره

وقبل أن نتحدّث عن ضرورات المرحلة القادمة، نجد من الضروري ملاحظة العناصر التالية، والتي ترتبط مباشرة بقضيتنا هذه:

أوّلا: التغيرات العالمية

ومن الواضح أنّنا نواجه خلال القرن الحادي والعشرين تغيرات عالمية كبرى ترتبط تماماً بنوع التحرك الدولي الإسلامي من قبيل (التحولات الضخمة على مستوى الإعلام والعلاقات المعلوماتية، وكذلك ارتفاع مستوى التدخُّل الدولي في الشؤون التعليمية والاجتماعية والعائلية، وحتى التقنين الداخلي في هذه المجالات، وهو ما يتجسّد في الاتفاقيات الدولية العامة في إطار منظمة الأمم المتحدة)، ويجب أن تؤخذ كل التغيرات بعين الاعتبار.

ثانياً: التحوّلات على مستوى الأمّة الإسلامية

ذلك أنّ الأمّة الإسلامية دخلت عصر الصحوة الإسلامية الكبرى بعد مرحلة طويلة من الفتور الحضاري، وراحت تسترجع خصائصها القرآنية وتحقّق معالم شخصيتها وتعمل على تحكيم شريعة الله في كل شؤونها وفي علاقاتها الداخلية والدولية، ومن الطبيعي فإنّ الأرضية المناسبة لأنشطة المنظمات الإسلامية الدولية سوف تتسع، وبالتالي تلقى على عاتقها مسؤوليات ضخمة في هذا المجال.

على أنّنا نتوقع حضوراً إسلامياً أكبر ولو على مستوى الأقليات في شتّى أنحاء العالم ممّا يضيف بعداً جديداً لهذا التحرك.

ثالثاً: التحوّلات على مستوى الحوار بين الأديان والحضارات

فإنّ هذا الحوار رغم ما انتابه من ظروف موضوعية أهمّها التشكيك في نوايا الداعين إليه وعدم توفّر القاعدة المناسبة، عاد اليوم ضرورة عالمية لا مناص منها لتعيين نقاط الاشتراك، سواء على الصعيد الفكري والعقائدي، أو على الصعيد العملي السلوكي الفردي والاجتماعي، أو على الصعيد الحضاري الدولي، باعتبار أنّ الجبهة الدينية يجب أن تتوحّد بوجه الاتجاهات المعادية للدين، كالعلمانية والمذاهب المهدمة للعلاقات العائلية والإنسانية.

وهذا المعنى يلقي بظله بلاريب على الساحة، ويعتبر تحدّياً قوياً للقوى العاملة.

رابعاً: التحولات على مستوى منظمة المؤتمر الإسلامي

فإنّ هذه المنظمة يراد لها أن تلعب دوراً أكثر فاعلية من ذي قبل، سواء على الصعيد السياسي أو الثقافي أو الاقتصادي؛ فالمنظمة ماتزال لحدِّ الآن تفتقد بعض الجوانب التنفيذية المطلوبة، ممّا جعلها مع الأسف، لاتعيش في صميم القضايا المهمة؛ فالاستراتيجيات ماتزال معطّلة، ولائحة حقوق الإنسان الإسلامية ماتزال تتلمّس طريقها للتنفيذ. وما نرجوه هو أن يتبدّل هذا الوضع إلى حالة أكبر تأثيراً. وهنا يبرز تحدٍّ جديد للمؤسسات التابعة لها لتقوم بالدور الحساس المطلوب منها بشكل أكثر نشاطاً.

إذا لاحظنا هذه العناصر الأربعة، واستعرضنا الأهداف التي رسمتها منظمة المؤتمر الإسلامي للإيسيسكو، نجد أمامنا مستقبلا زاخراً بالتحدّيات الجديدة يتطلّب منها مواقف أكثر اتساعاً وعمقاً وتخطيطاً.

التحوّلات العالمية على مستوى الإعلام

فبملاحظة التحولات العالمية؛ نجد أنّ التطوّر الحاصل في تكنولوجيا الاتصالات ووسائل الإعلام اختزل الفوارق بين الزمان والمكان، ممّا سيحدث في القرن الحادي والعشرين نقلة كبيرة في هذا المجال، ولابدّ للعالم الإسلامي أن يأخذ حظّه من هذا التطوّر ويكشف للعالم إسهامات علماء المسلمين في البناء الحضاري، ويبيّن مواقفه وأهدافه للمجتمع الدولي، ويعلن عن قيمه التي تدعو إلى السلام الحقيقي والمساواة بين الشعوب والأفراد والعدل واحترام العهود والمواثيق الدولية. وبما أنّ الأقمار الصناعية والمحطات الفضائية ستلعب دوراً مهماً، بل ستشكل ضرورة من ضرورات القرن الحادي العشرين، ونظراً لظروف العالم الإسلامي الاقتصادية والسياسية والعلمية الحرجة، فإنّه يمكن للإيسيسكو باعتبارها منظمة عالمية، أن تقوم بدراسة التعاون الدولي الإسلامي في إيجاد شبكة أقمار صناعية والتنسيق في مجال إنتاج ما يحتاجه العالم الإسلامي وما ينسجم مع ثقافته وأهدافه.

ومن جملة ما سيشكل ضرورة من ضرورات الأمّة الإسلامية في القرن الحادي

والعشرين، الاستفادة من الحاسب الآلي وشبكة الأنترنيت لتبادل المعلومات، وهذا أيضاً بحاجة إلى دراسة علمية دقيقة.

إنّ علوم الأقمار الصناعية والحاسوب الآلي يجب أن تأخذ طريقها للكتب المنهجية في الدول الإسلامية، وفي البحوث الجامعية والمعاهد الفنيةو المختبرات العلمية، وذلك بعناية وباهتمام من المنظمة الإسلامية إيسيسكو من أجل زيادة الكفاءات الإسلامية في نشر العلوم العصرية في عالمنا الإسلامي.

التحوّلات العالمية في مجال التدُّخل الدولي في عملية التقنين

ثم إنّ الإيسيسكو مطالبة بإلحاح في إطار وظائفها العامة بالتعامل الحكيم مع الاتجاه الدولي للأمم المتحدة ومن ورائها الدول العظمى للسيطرة على التقنين الداخلي لكل الشعوب، وخصوصاً شعوب العالم الثالث، ذلك من خلال:

١. رصد كل التحرُّكات العالمية والتخطيط المطلوب لطرح المبادئ الإسلامية ووجهات نظر العالم الإسلامي.

٢. استباق الأحداث ووضع التصّورات العامة والأسس المقبولة إسلامياً وتعميمها على الدول الإسلامية لتتمّ التوعية المطلوبة.

٣. عقد الاتصالات الدولية، والحضور الفعّال في المؤتمرات واللقاءات التي تتمّ في هذا الصدد وتنسيق الجهود الإسلامية. ونذكر بهذا الصدد أنّ منظمة المؤتمر الإسلامي، لم تستطع أن تلعب دوراً نشطاً في مؤتمرات مكسيكوسيتي، وبخارست، والقاهرة، وكوبنهاغن حول التنمية، أو مؤتمري نيروبي وبكين، وأمثالهما حول المرأة، ممّا فسح المجال لهجوم صاعق من قبل أعداء القيم الإنسانية تحت غطاء التحرّك الدولي للتنمية.

٤. التعامل مع الجوانب الإيجابية من هذا التحرك بكل رحابة صدر والوقوف الحازم بوجه الجوانب السلبية.

فوثيقة القاهرة مثلا حول السكان والتنمية، ووثيقة بكين حول المرأة، تحويان بلاريب، عناصر إيجابية كثيرة لإصلاح وضع المهاجرين والمهاجرات، وتنظيم شؤون المبعدين واللاجئين، وقوانين العمل، خصوصا بالنسبة للمرأة والطفل، وإصلاح الوضع التعليمي،

وهي أمور ينبغي تشجيعها وتطويرها، ولكنهما في الوقت نفسه حوتا الكثير من العناصر السلبية الخطيرة كموضوع ما يسمى بالحقوق الجنسية، والصلات بين الجنسين خارج حدود الزواج، وتغيير مفهوم العائلة التقليدي، وفسح المجال للإجهاض، والمساواة المطلقة في جميع الشؤون، بل وتأليب جنس ضد جنس آخر، وهي جميعاً وغيرها أمور ينبغي دراستها والاستعداد الكامل للردّ عليها، الأمر الذي كنا نفتقده مع الأسف.

الصحوة الإسلامية ومسؤوليات الإيسيسكو

لم تعد الصحوة الإسلامية مجرد إحساسات جماهيرية، بل أخذت أبعاداً جديدة على مختلف الصعد، مما أثار حفائظ أعداء الأمّة الإسلامية، وهذا يتطلّب من الإيسيسكو دوراً فاعلا في ترشيد الصحوة الإسلامية وتوجيهها توجيهاً يصبّ في المساواة الصحيحة لتحقيق أهدافها ضمن خطوات كثيرة، نشير منها إلى ما يلي:

١. تشجيع دراسات الصحوة الإسلامية (أسبابها _خصائصها ـ نتائجها) والعمل على ترشيد هذه الصحوة لتقوم بدورها المطلوب في تحقيق الغد المشرق.

٢. العمل على بعث عطاء الصحوة في كل عروق الأمّة وتحقيق التوازن التوعوي المطلوب.

٣. المساعدة في تحقيق مقتضيات الصحوة من قبيل دفع عملية تطبيق الإسلام إلى الأمام ونشر المظاهر الإسلامية، وتحريك الحماس المطلوب للقضية الإسلامية.

٤. مراقبة التخطيط المعادي للصحوة وتوعية الأمّة بأخطاره وفضح أساليبه.

٥. العمل على تنفيذ كل الاستراتيجيات التي تمّت الموافقة عليها والسعي للحفاظ على شخصيتها، والدفاع عن حقوقها، وإمكان قيامها بمهمة الدعوة الإسلامية.

٦. العمل على رفع المستوي الثقافي والعلمي والتقني في الدول الإسلامية، وتطوير أنظمة التعليم بما يخدم أهداف الدول الإسلامية حقيقة، وتشجيع الباحثين والمفكرين والدارسين، وإقامة أُلمبياد الدول الإسلامية في مختلف المجالات العلمية.

ونقترح هنا إعداد تقرير سنوي عن أوضاع العالم الإسلامي في المجالات التي تعنى بها الإيسيسكو، وتحديد ميزان التقدُّم أو التراجع الحاصل فيها، وعرض هذا التقرير على المؤتمرات الإسلامية لوزراء الخارجية ومؤتمرات القمة الإسلامية مع عرض الحلول الناجعة

للمشاكل واقتراح مشاريع قرارات مناسبة.

٧. الاهتمام بمساعدة الدول التي تعاني ظروفاً ثقافية واجتماعية سياسية حرجة كالعراق وأفغانستان والصومال وفلسطين والبوسنة والهرسك والشيشان، لتخطّي هذه المصاعب.

ونسجّل هنا أنّ منظمة المؤتمر الإسلامي لم تكن على مستوى الأحداث الضخمة التي واجهت الأمّة الإسلامية حتى في الجوانب الاجتماعية والصحية والثقافية، فضلاً عن الجوانب السياسية والاقتصادية، ممّا يتطلّب جهوداً حثيثة لمعرفة نقاط الضعف وحذفها ونقاط القوة ودعمها وتقويتها. وإلاّ فمن المخجل حقاً هذه الفروق الاقتصادية الهائلة بين أنواع الدخل، وأنماط التعليم والمستويات الصحية، وهذه العادات السخيفة المنتشرة هنا وهناك، وهذه المفاسد الأخلاقية التي تعجّ بها بعض المناطق، ولانكير ولانذير.

ونحن وإن كنا نسعى لكي نحسن الظن بالمسؤولين عن الأمور، لكننا لا نستطيع أن نغضّ النظر عمّا تعانيه شعوبنا خصوصا أثناء الويلات والنزاعات العسكرية، من تشريد وتقتيل قد يدوم سنوات طويلة وثقيلة، في حين تنعم أجزاء أخرى من عالمنا الإسلامي بالدعة والراحة وكأنّ شيئاً لم يكن.

٨. توظيف العقول الإسلامية المهاجرة في تنمية العالم الإسلامي ففي الوقت الذي تعاني فيه الدول الإسلامية من نقص كبير في الخبراء، نجد الدول المتطوّرة تعتمد على المفكرين المسلمين في البحث العلمي والدراسات العليا، مع أنّهم لايتقاضون إلاّ مايتقاضاه عامل التنظيف، وأسباب ذلك كثيرة، منها أمنية ومنها سياسية، لكن السبب الرئيس هو انعدام وسائل العمل العلمي وغياب العناية الكافية برجال العلم في كثير من الدول الإسلامية.

وحبّذا لو بادرت الإيسيسكو بإجراء دراسة لتسهيل عملية الاستفادة من العقول الإسلامية وتوظيفها لخدمة العالم الإسلامي أو على الأقل وضع خطة لاستثمار وجود هذه النخبة في المجتمعات غير الإسلامية لخدمة القضايا العلمية والإعلامية والثقافية في العالم الإسلامي.

٩. تطوير مستوى التعامل مع الأقليات الإسلامية المهاجرة أو المقيمة في الدول الأخرى بشكل يضمن لها الرفاه المستمر والحفاظ على الشخصية والدفاع عن الحقوق، وإمكان القيام بمهمة الدعوة الإسلامية.

الحوار الحضاري

الأمّة الإسلامية قد قطعت مرحلة صعبة من التبعية والعزلة، وماتزال تبذل محاولات عديدة لعزلها عن مسيرة الحضارة الإنسانية وعن المجتمع البشري، وعلينا أن نسعى لأن تكون المرحلة القادمة مرحلة الانفتاح على المجتمع البشري، ولذلك فلابدّ أن تضع الإيسيسكو نصب عينها مغزى الرسالة الإسلامية وأهدافها العالمية النبيلة ودعوة الآخرين للتعاون في تحقيقها لخدمة المجتمع البشري.

إنّنا نعيش في عالم يتجاهل دور الدين والجانب المعنوي في الحياة الإنسانية ويعاديه في بعض الأحيان، لكنّ الأمّة الإسلامية استطاعت أن تضرب للعالم أكثر من مثال، وهو مثال عملي على دور الدين في تفجير المواهب الفردية والجماعية، وما نريد من الإيسيسكو أن تبرهن عليه، هو أنّ الأمّة الإسلامية غير منطوية على نفسها، وأنّها لاتعيش بأمجاد ماضيها فقط، بل إنّها قادرة على أن تلعب دوراً فاعلا في بناء الحاضر والمستقبل أيضاً.

إنّ الأوضاع العالمية القادمة تتطلّب مزيداً من التفاهم والاحترام والمساواة بين مختلف الحضارات.

وعلى هذا فيجب أن يتم تخطيط دقيق للأمور التالية:

أوّلا: معرفة الجهات التي ينبغي أن نتحاور معها.

ثانياً: تحديد موضوعات الحوار الفكرية منها والعلمية.

ثالثاً: تحديد مقومات الحوار والسعي لإعطاء صورة تفصيلية عنها.

رابعاً: تحديد الجهة التي يمكنها أن تتحدّث باسم الأمّة الإسلامية وتمنح التعهدات المطلوبة.

خامساً: السعي لإيجاد المؤسسات المتخصّصة في هذا الموضوع لتتمّ دراسة النتائج بدقة حتى لاتضيع سدى.

سادساً: تعيين المدى الذي يجب أن يسير إليه الحوار، والمستويات التي يجب أن يتم التعاون فيها بشكل منضبط.

التحوّلات المستقبلية لمنظمة المؤتمر الإسلامي

أمّا بالنسبة للتحوّلات التي نتوقع أن تشهدها منظمة المؤتمر الإسلامي، فمن الضروري أن

تستعد الإيسيسكو لمرحلة تنفيذية أكبر تستطيع معها أن تنفذ إلى التخطيط التعليمي والثقافي للدول الأعضاء، وأن تراقب سير عملية التنفيذ للإستراتيجيتين الثقافية والإعلامية، وأمثالهما من الوثائق الدولية التي تشكّل من حيث المجموع، حصيلة ثقافية مهمة لهذه المنظمة.

و إنّنا لنتوقّع أن تقوم المنظمة بإرجاع أمر الكثير من القرارات الثقافية الاجتماعية إلى منظماتها العاملة، وفي طليعتها الإيسيسكو لتشرف هذه عليها بكل دقّة وتواصل، وهذا ماحدث بالنسبة لبعض الجامعات والمراكز الثقافية، طبعاً مع ملاحظة وجوب تأمين الموازنة اللازمة.

اقتراحات عامة

وفي الختام نقدّم بعض الاقتراحات في سبيل الارتفاع بقدرة الإيسيسكو على تحقيق أهدافها المقدسة.

الأوّل: كثيراً ما نجد العجز المالي يقف مانعاً مهمّاً من تحقيق الأهداف المطلوبة، ومن هنا فنحن إذ ندعو الدول الأعضاء لتسديد مساهماتها المالية بانتظام، نؤكّد على ضرورة تنظيم مشروع اقتصادي متكامل يمكنه أن يحقّق الاكتفاء الذاتي نسبياً. ولم نجد في ميثاق المنظمة مايمنع من ذلك، وإذا كان هناك مانع وجب العمل على رفعه.

الثاني: مضاعفة النشاط في إطار المنظمة للعمل على عقد اتفاقيات مستمرة ثنائية مع الدول الأعضاء وغيرها، وكذلك مع المنظمات الأهلية ليتحمّل الطرفان فيها تكاليف المشروعات الثقافية، وهذا المعنى يتماشى مع البند الثاني من المادة السابعة عشرة للميثاق، ويوفر للمنظمة قدرة أوسع على التحرّك.

الثالث: بناءً على ما تضمّنه الميثاق من وظائف، نجد من الضروري أن ترصد المنظمة كل اللقاءات الثقافية والدينية على المستوى العالمي، وتعمل من خلال فتح الصلات مع منظميها، على الحضور الفعّال فيها، والدفاع عن الثقافة الإسلامية والشخصية الإسلامية، كما يمكنها أن تشكّل حلقة بين هذه الجهات وكل المنظمات الإسلامية المؤهّلة.

الرابع: تعتبر الإيسيسكو من منظمات المؤتمر الإسلامي التي يسمح لها بالعمل على الصعيد غير الرسمي، إلاّ أنّ التعامل مع هذا القطاع مازال غير حاصل على النصيب الأدنى. ومن هنا نقترح أن تعمل المنظمة على التعامل والتعاون الأكبر مع هذا القطاع، بل يمكنها أن

توازن بين القطاعين الرسمي وغير الرسمي، وهذا المعنى يمنحها قدرة أوسع، وسمعة أكبر، ومجالاً أرحب لخدمة قضاياها الكبرى.

القيم الإنسانية المشتركة ودورها في تعزيز التضامن بين الشعوب والامم

تمهيد

كيفما عرفنا الحضارة فانه يجب أن نقرّ بأنّ الصفة الإنسانية ـ بمعنى: امتلاك الاتجاه العام لخدمة الإنسان وتطوير إمكاناته الذاتية والعرضية ـ هي أهم مقوماتها بلا ريب.

ولا يمكن أن يتّسم أي مذهب أو تخطيط أو حتى مجرد سلوك بالسمة الحضارية إلّا اذا اتّسم بالصفة الإنسانية.

والصفة الإنسانية، عبر إدراكات الوجدان، وبلا حاجة إلى استدلال، تلازم الإيمان بمجموعة من القيم المطلقة والمشتركة، فلا يمكن أن نفترض النسبية في كلّ شيء ثم نفترض وجود خصائص إنسانية، فإنَّ ذلك يستبطن نوعاً من التناقض:

مفاده: الاعتراف ـ من جهة ـ بأنَّ الإنسان له هويته المتفرّدة جزئياً ـ إن لم يكن التفرّد كلياً ـ ورفض أي تمايز إنساني أو قيمة ثابتة فيه من جهة أخرى.

فما هي هذه السمة الثابتة المميّزة؟

إنّ الجواب الوجداني (ونؤكّد على وجدانيته، لأنّ ذلك يغنينا عن الاستدلال) هو: الفطرة الإنسانية.

والمقصود بالفطرة هو أنَّ الإنسان مخلوق إلهي أودعت الحكمة الإلهية في وجوده وطينته الأصلية مجموعة من القضايا البديهية والقدرات العقلية والميول والغرائز التي تضمن له سيراً طبيعياً نحو تكامله المرسوم له.

وكل الحضارات والمذاهب والأديان إنّما جاءت لتثير له دفائن العقول ـ كما يعبّر الإمام علي عليه السلام ـ وتهيّئ الجو المناسب لبروز هذه الطاقات الكامنة على سطح حياته فتهديه سبيلاً يختلف كل الاختلاف عن السلوك الذي تسلكه الحيوانات العجماء التي لا تتمتّع بما يتمتّع به من طاقات.

أمّا القضايا البديهية فهي التي تمنحه القدرة على المعرفة: معرفة نفسه ومعرفة الكون والواقع، وفلسفة الوجود والعلاقات القائمة بين الأشياء وتلك من قبيل: الإيمان بمبدأ

العلية، والإيمان بمبدأ استحالة التناقض (الجمع بين النقيضين، وارتفاع النقيضين) وبعض القضايا الأخرى فهذه قضايا مغروزة في القناعة والوجدان الإنساني لا يحتاج للاستدلال عليها وإلّا دخل في طريق مسدود؛ لأنّ الاستدلال نفسه يتوقّف عليها كما هو واضح.

أما القدرات العقلية فهي نفس قدرة النفس الإنسانية على التأمّل والتفكير وتجريد القضايا من ملابساتها والصعود من مرحلة الجزئيات إلى مرحلة الكليات، والقيام بقياس الأشياء للوصول إلى تصوّرات جديدة والتخطيط الذهني لمراحل غير موجودة على صعيد الواقع القائم. إنَّ هذه القدرة الذهنية هي من مختصات الإنسان وهي سرّ مسيرته التكاملية وإبداعه ونموّه.

وأمّا الميول الغريزية فهي التي تقوده نحو كماله وتدفعه للاستفادة من طاقاته في هذا المجال:

ومن هذه الميول: ميله نحو الكمال، والسير نحو الكمال المطلق، ومحاولة سد جوانب العجز في وجوده، والركون إلى هذا المطلق القادر وأداء حقّه وشكر نعمه والقيام بحق طاعته ـ فهذه أمور يجدها الإنسان مغروزة في الطينة الإنسانية وإن اختلفت تجلياتها وتعددت أساليبها وربما غطّت الشبهات على هذه الميول وكبتتها.

ومنها أيضاً غريزة حبّ الذات والعمل على تحقيق طموحاتها، فهي من الغرائز الأصلية في الإنسان والتي لا يمكن تجاوزها والقضاء عليها، كما تصوّرت الماركسية يوماً ما أنّها ظاهرة فوقية يمكن حذفها من الوجود الإنساني من خلال تحريم الملكية.

ومنها التذوّق الفني: والابتهاج لعناصر الجمال التي يزخر بها هذا الكون.

وعلى هذا فالذي يبدو لنا بكل وضوح أيضاً أنَّ مسألة الإيمان بنظرية الفطرة الإنسانية يفسح المجال للحديث عن جملة مفاهيم من قبيل مفاهيم (الحقوق) و(التكاليف) و(العدالة) و(الإنسانية) و(الأخلاق) و(الذوق الفني العام) و(القيم المشتركة) و(الحضارة) و(الحوار) و(الدين) و(المعرفة) و(التصديق) و(المنطق) بل وحتى (البرهان والاستدلال) و(العلم) لأنّهما يعتمدان على عنصر ثابت بدونه لا تسلم لهما حدود ومعالم.

وبدون الإيمان بهذه النظرية يبقى الإنسان حبيس نفسه ولا يتّصل إلّا بصوره الذهنية ـ كما يعبر جورج باركلي ـ بل يمكن القول بأنّه لا يستطيع الإيمان بذاته هو وهذا منتهى الخواء.

وبدونها فكل حديث عمّا مضى إنّما هو حديث بلا معنى كما نتصوَّر. وهذه حقيقة كبرى تصطدم بها الاتجاهات المادية بقوّة، ومن هنا جاءت النصوص الإسلامية لتؤكّد على (الفطرة) وأنَّ الدين في الحقيقة ينسجم مع (الفطرة) لأنّها واقع أصيل والدين مشروع واقعي لاصلاح الإنسان، يقول تعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[١]. وهذه الآية الكريمة تقرر ـ كما يقول الإمام الشهيد الصدر ﷺ ـ الأمور التالية[٢]:

أولاً: أنَّ الدين (بكل مافيه من حقوق وتكاليف ومنظورات للعدالة) هو من شؤون الفطرة الإنسانية التي فطر الناس عليها جميعاً لا تبديل لخلق الله.

ثانياً: أنّ هذا الدين الذي فطرت الإنسانية عليه ليس هو إلّا الدين الحنيف الخالص، أمّا أديان الشرك والإيمان بالآلهة الوهمية النسبية فهي لا يمكن أن تحلّ المشاكل الإنسانية.

يقول سيدنا يوسف لصاحب السجن: ﴿ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاّ أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَ آباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ﴾[٣].

وثالثاً: إن الدين الحنيف الذي فطرت عليه الإنسانية يتميز بكونه ديناً قيماً على الحياة قادراً على التحكم فيها وصياغتها في إطارها العام.

ذلك أنّ المسألة الاجتماعية المهمة في تاريخ الإنسان هي التعارض الذي ينشأ بين المصالح الفردية (وهي تؤدي لأنَّ يتصوّر الإنسان لنفسه حقوقاً في الحصول عليها بمقتضى حبّ ذاته و(المصالح الاجتماعية) التي يطرحها النظام الاجتماعي الذي يعيشه ويفرض عليه (تكاليف) تجاهها باسم (العدالة) وهذا التناقض بين المصالح الفردية والاجتماعية لم يستطع العلم أن يحلّه، فإنَّ علم الإنسان لن يقف مطلقاً أمام ترجيح مصالحه الشخصية.

ولم تستطع المادية التاريخية من خلال قوانينها التاريخية أن تقدّم الحلّ ويبقى للدين الحل النهائي لهذا التعارض وتحقيق العدالة وذلك من خلال ربطه بين المصالح الذاتية وسبل

---

١. الروم: ٣٠.

٢. اقتصادنا، ص ٣١٠ـ٣١٢.

٣. يوسف: ٤٠.

الخير، إذ يقول القرآن الكريم: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزىٰ إِلاَّ مِثْلَها وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ﴾[١] ويقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَساءَ فَعَلَيْها﴾[٢].

وهكذا تتلاحم المصلحة الفردية والمصلحة الاجتماعية و(الحقوق) و(التكاليف) تلاحماً رائعاً ينفي التعارض.

وهنا يؤكد المرحوم الشهيد الصدر ﷺ:

«فللفطرة الإنسانية إذن جانبان، فهي من ناحية تملي على الإنسان دوافعه الذاتية التي تنبع منها المشكلة الاجتماعية الكبرى في حياة الإنسان (مشكلة التناقض بين تلك الدوافع والمصالح الحقيقية للمجتمع الإنساني) وهي من ناحية أخريتزوّد الإنسان بإمكانية حل المشكلة عن طريق الميل الطبيعي إلى التديّن»[٣].

ونضيف إلى ماسبق أنَّ الإنسان بفطرته يطمح إلى (التغيير) أي تغيير الواقع الذي يعيشه إلى الأفضل باستمرار. فهذا من نوازعه الفطرية التي قد تخمد لديه أحياناً ولكنّها لن تنمحي من صفحة الذات، وهو مجهّز بإمكانات التعالي على الواقع والخلاص من ضغوطه وتصوّر الحالة الأفضل تصوّراً إجمالياً ـ وربما كان تفصيلياً ـ ثم العمل على تغيير الواقع إلى الصورة المفروضة. وهي حالة لا يتمتّع بها أي حيوان آخر. ومن هنا تنشأ عملية التغيير وتطبع الحياة الإنسانية بطابعها الحضاري دون غير الإنسان من الموجودات.

وهكذا يمكن أن نقرر أنَّ العملية الحضارية تحتاج في كل مراحلها إلى الإيمان بالقيم الثابتة وعلى النحو التالي:

أولاً: في مرحلة إيمان الإنسان بذاته.

ثانياً: في مرحلة العبور إلى خارج الذات.

---

١. غافر: ٤٠.

٢. فصلت: ٤٦.

٣. اقتصادنا، ص ٣١٠ـ ٣١٢، طبعة مشهد.

ثالثاً: في مرحلة صياغة الفكر وتكوين الصورة عن الحاضر والمستقبل انطلاقاً نحو التغيير إلى الأفضل.

رابعاً: في مرحلة نقل الفكرة إلى الآخرين واستلام أفكارهم.

خامساً: في مرحلة السبر والتقسيم والتمحيص والتداول.

سادساً: في مرحلة الاستنتاج والاقتناع.

سابعاً: في مرحلة التخطيط للتغيير.

وأخيراً: في مرحلة تنفيذ التغيير وتحقيقه.

وخلاصة الأمر:

إنّ هناك تلازماً تاماً بين المسيرة الحضارية الإنسانية التغييرية وعملية الحوار والإيمان بالقيم المشتركة والمطلقة.

القيم المشتركة مطلقة واقتضائية

إنّنا وبالتحليل النفسي الوجداني الذي اعتمدناه في مسيرتنا هذه ندرك وجود منظومتين من القيم إحداهما مطلقة التأثير لا تحدّها حدود أو ظروف معينة والأخرى هي قيم الحالة الطبيعية أو (قيم الأصل) ممّا يعني تحوّلها إلى النقيض أو فقدانها التأثير المطلوب إذا طرأت ظروف أخرى.

ومن أمثلة المجموعة الأولى:

قيمة العدالة فهي مطلوبة مهما كانت الظروف.

وكذلك تقديم الشكر للمنعم المتفضل.

ومن أمثلة المنظومة الثانية:

حفظ الذات، حفظ الكرامة، التعاون، الدفاع عن المستضعفين والسلام والأمن، التغيير إلى الأفضل، الرحمة، الإيثار، الأمانة.

فقد يكون الصدق في بعض الأماكن نتيجة ما يؤول إليه من تبعات ظلماً لا عدالة، وكذلك السلام أحياناً بما يؤدّي إليه من جرأة على حرمات الإنسانية. فإذا كانت العدالة قيمة مطلقة فإنَّ السلام قيمة نسبية نعمل على تحقيقها إذا عادت وجهاً من وجوه العدالة،

ونرفضها إن كانت ظلماً، ولكن التساؤل الأساس هو: ماهي معايير العدالة؟ وكيف نتأكد من تحقيقها.

إنّ الأديان السماوية كلها تؤكد على معيارين:

الأول: معيار تعبّدي نستفيد فيه من علم العالم المطلق، وهو الله تعالى، وهو تعليمات الدين الثابتة، والتي نتأكّد من كونها صادرة من الله سبحانه ذلك أنّنا نتأكّد قبل ذلك من علم الله الشامل، ومن لطفه ورحمته بالإنسان المخلوق ومن عدالته وتمتّعه بكل صفات الكمال، فهو لا يريد بالإنسان إلّا الخير ولا يخدع الإنسان وإنّما يكشف له كل الواقع ويريد له كل الخير.

الثاني: معيار وجداني يكفي فيه التأمل في الأعماق وقناعاتها أو فلنعبّر بأنَّه يكفي فيه الرجوع إلى الفطرة نفسها.

وما يساعدنا في اكتشاف العمق الفطري هو كون هذه القناعة ـ أيّة قناعة كانت ـ من ملازمات الطبيعة الإنسانية، ولذلك نجدها متوفرةً لدى كل أبناء الإنسان في مختلف ظروفهم وحالاتهم الفردية والاجتماعية وأزمنتهم وأمكنتهم.

ولكي نتأكّد من هذا المعنى نستطيع أن نطرح هذا السؤال على أي إنسان (هل تعتبر أنَّ السلوك الفلاني سلوكاً إنسانياً أم سلوكاً حيوانياً) فمثلاً لنركّز على (قتل اليتامى والعجزة والمستضعفين للتلهّي والتشهّي) مثل هذا السلوك يعدُّ سلوكاً وحشياً من قبل أي إنسان بلا ريب، والقرآن الكريم أحياناً يعيد الإنسان إلى تأمّله الوجداني وقناعته الفطرية حينما يقول: ﴿أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾[١] ويترك أمر تعيين الطيّبات له، ويقول ﴿إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ﴾[٢] ويترك أمر تعيين الفواحش له أيضاً ويعتبر الخروج عن الحالة الإنسانية (فسقاً) وانحرافاً عن الطبيعة ﴿وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾[٣].

وهكذا ننتهي إلى هذه الحقيقة وهي:

أنَّ الأديان تؤمن بالفطرة الإنسانية، وأنَّ الفطرة تقرّر كون العدالة مطلوباً مطلقاً وكون

---

١. المائدة: ٥.

٢.الاعراف: ٣٣.

٣. الحشر: ١٩.

السلام مطلوباً إذا شكّل مصداقاً من مصاديق العدالة وتجلياً لها، ومن هنا كان التأكيد الدائم على (السلام العادل) تأكيداً إنسانياً صحيحاً.

السلام العالمي والموقف منه:

قلنا لا ريب في كون الأمان مطلباً إنسانياً فطرياً يستمدُّ جذوره من أهمّ غريزة وجدت في فطرة الإنسان، وهي غريزة (حبّ الذات). وهذه الغريزة تعمل مع باقي الغرائز بشكل متناسق لتحقيق سير إنساني متوازن نحو الأهداف التكاملية العليا للإنسان.. فلا يكفي وجود الدوافع الغريزية لتأمين المسير المتوازن وإنّما يجب تأمين جو طبيعي للذات الفردية وللذات النوعية كي تدفعها تلك الدوافع نحو أغراضها المنشودة.

وتأكيداً من الفطرة نفسها على توفير الجوّ الآمن، نجد العناية الإلهية قد غرست فيها بديهيات الحكمة، والميول نحو العدل، والنفور من الظلم والاعتداء، بل ومنحتها القدرة على تعيين الكثير من مصاديق العدل والظلم، ممّا يمهّد لها السبيل للاتصال بالخالق العظيم وتقديم معاني الولاء له، وحينئذ تنفتح لها آفاق الوحي، وتكتشف بذلك الأطروحة السماوية الرحيمة التي تعطيها المخطط الكامل للمسيرة، وتضمن لها كل ما يوصلها إلى أهدافها.

فالأمن إذن حاجة إنسانية دائمة لا تغيّرها الظروف، وليس ظاهرة عرضية حتى يقال، بأنّها معلولة لوضع اجتماعي معين إذا ما تبدّل تبدّلت هذه الظاهرة معه. ومن هنا أيضاً يكون من الطبيعي أن نتصوّر الحاجة إلى نظام شامل يتكفّل حماية الأمن الفردي والاجتماعي على مدى مسيرة الإنسان الطويلة.

ولا يمكننا أن نتصوّر حدوداً لمسألة حماية السلام والأمن إلّا في إطار مسألة التكامل الإنساني ذاتها، بعد أن ندرك أنَّ الفطرة هي معيار الحقوق الإنسانية كلها بشكل اجمالي. وأنّها هي التي فرضت حماية الأمن الإنساني لتحقيق الهدف الكبير. وحينئذ لن يقبل الأمن تحديداً إلَّا إذا خرج عن وظيفته الحياتية، وعاد عنصراً ضد الأُمن نفسه، فلا معنى إذن لضمانه.

وإلاّ فكيف نتصوّر الفطرة التي أعلنت الحاجة إلى الأمن، وهي تسمح للفرد بالقضاء على أمن نفسه هو، أو أمن الآخرين، وبالتالي على أمن المسيرة الإنسانية كلها دون أن تحدّده بما يردعه عن فعلته، حتى ولو كان ذلك بتهديد أمنه؟

الحوار بين الديانات واسع الأبعاد:

بعد ما سبق نستطيع بكل وضوح أن نقرّر إمكان الحوار بشكل واسع الأبعاد بين الأديان وذلك:

١ـ لأنّها جميعاً تؤمن بنظرية الفطرة الإنسانية وتوابعها.

٢ـ لأنّها جميعاً تؤمن بقيم مشتركة كثيرة حتى ليلمح الإنسان تطابقاً تاماً في أصول القواعد. وربما ذكر بعض المؤلفين المسلمين القدامى مجمل تعليمات المسيح واعتبرها تعليمات اسلامية[1].

وقد قام محققان فاضلان مسيحيان بإعداد بحث جيد عن القيم والقواعد المشتركة للأحكام القانونية انتهيا فيه إلى نتائج جيدة، فهما يقولان:

«تكفى محاولة اقامة جسور حول السؤال الذي يطرحه الناس نساءً ورجالاً، عندما يريدون أن يعيشوا بمقتضى إيمانهم: ما هي مشيئة الله؟ ماذا يتوجّب عليّ أن أفعل؟ يبدو لنا أنَّ الديانات الإبراهيمية الثلاث تسير في جوابها في اتجاه واحد»[2].

وهما يقرران في النهاية: وحدة الناس في الله.

٣ـ أنَّ الأديان كلها تدعو إلى الحوار المنطقي ولمّا كانت الأديان هي روح الحضارات فإنَّ الحوار بينها يفسح المجال لحوار حضاري أصيل ممتد إلى مختلف المساحات الحياتية، ويوجّه الحوار الحضاري نحو مسارات أكثر إنسانية.

الحوار بين الحضارات ودور القيم فيه

بعد ملاحظة ماسبق يمكننا القول إن السير الطبيعي للبشرية يقتضي أن يسود منطق الحوار بين الحضارات. باعتبار أنَّ الحضارات تحمل بشكل واضح بصمات الفطرة ـ اعترفت بها بشكل فلسفي أو رفضتها[3]. ولذا ففيها جوانب مشتركة تفسح المجال للحوار لا محالة.

---

١. لاحظ مثلاً ماذكره الشيخ ابن شعبة الحراني وهو من علماء القرن الرابع الهجري. في كتابه المشهور تحف العقول. إذ ذكر الكثير من الحكم والمواعظ الحياتية عن عيسى عليه السلام .

٢. الاستاذ عادل خوري والاستاذ فانوني، كما جاء في تقرير الندوة الايرانية النمساوية المشتركة المنعقدة في فينا عام ١٩٩٩م، ص٢٦٠.

٣. ولتوضيح ذلك يلاحظ أنّ كل فلسفات التشكيك في الحقائق المطلقة في مجال الفكر أو السلوك كالماركسية ←

كما أنّنا ذكرنا من قبل أنَّ الأديان تشكّل جوهر الحضارات ـ حتى ولو أنكرت الحضارات ذلك ـ وبالتالي تبقى التأثيرات الدينية واضحة المعالم وأخيراً نجد المجالات المشتركة بين الأديان تفسح المجال لحوارات مشتركة بين الحضارات.

هذا بالإضافة إلى حقيقة امتدّت مع البشرية وتعاظمت مساقطها باستمرار، وهي هذا الترابط المصلحي بين إعمار الارض وساكنيها على مختلف الأصعدة.

وهو ترابط عبّرت عنه طموحات الأديان العالمية، والفاتحين الكبار بشتّى التعابير منذ أقدم العصور، واشتدَّ على مرّ الأيام حتى عدنا اليوم نشبه العالم بقرية صغيرة. والعالم هذا لم يصغر ولكن وعينا لترابطه وشدّة الالتحام بين أجزائه هو الذي أوصلنا إلى هذه النتيجة.

فلم يعد بمقدور أي بلد أو دولة أن تخطط لبيئتها ولطاقاتها وقوانينها الجوية والبحرية ومواصلاتها ومخابراتها بل وتعليمها وتربيتها وثقافتها ونهضتها واقتصادها ودفاعها، بمفردها بعيداً عن ملاحظة مايجري في العالم.

ومن هنا نعتبر أنَّ الاتجاه نحو العالمية اتجاه طبيعي لا معنى لمقاومته، بل يجب تشجيعه ودعمه. وإذا كنا نقف بوجه (العولمة) ونعتبرها تحدّياً خطيراً فإنّما ذلك لأنّ هذا النمط يعني تفسيراً خاصاً لهذا الاتجاه يصبُّ في مصلحة القوى العظمى أو فلنقل يعني سيطرتها على مقود المسيرة وتحويلها لصالح أمّة بعينها مهما كان الأمر، وأمركة للعلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية وغيرها بمختلف الوسائل وشتّى السبل القمعية. ولذلك وصفت بالعولمة المتوحشة والمجنونة و(أن تأكل أو تؤكل) وأمثال ذلك.

وعلى أيٍّ فإنَّ الحوار هو مقتضى الترابط ووحدة المصير الإنساني ولا بديل له إلّا الصراع، وهو منطق الغابة لا الإنسان بلاريب.

فيجب إذن تأكيد إنسانيته وتعميقها بتأصيل القيم الإنسانية فيه.

ويمكننا الحديث عن هذه القيم في ما يأتي كنماذج فقط وإلَّا فمجال هذه القيم واسع جداً.

والفرويدية والدور كهايمية والكانتية وفلسفة باركلي وغيرها، هذه كلها تحمل نوعاً من الجزم والقطع لا محالة وإلّا لشكَّت في نفسها أيضاً، وهي لا تفعل ذلك.

نماذج من القيم المشتركة التي يجب أن تسود

١ـ قيم الحوار المنطقية.

وهي قيمٌ إنسانية ثابتة. لا تتغير باختلاف الظروف فيجب أن يكون الحوار قائماً على مفروضات متّفق عليها بين الطرفين وإلّا لم يعد منتجاً.

ويجب أن يدخله الطرفان بروح طلب الحقيقة، وأن تكون أطراف الحوار بمستوى دراسة الموضوع ويجب أن يتوضح محور الحوار بشكل تام، كما يجب أن يكون امراً عملياً لا طوبائياً.

ويجب أن تسوده روح احترام الآخر، كما يجب أن يتخلّص من رواسب الماضي أيضاً.

ويجب أن يتمَّ في جو حرّ بعيد عن الضغط والعنف والتحايل والضوضاء والتهويل.

وغير ذلك من مقتضيات الحوار السليم.

وأستطيع بكل اطمئنان أن أقول: إنَّ القرآن الكريم أشار إلى كل هذه القيم الحوارية الثابتة في أصالتها.

٢ـ قيم العدالة ومعاييرها ومساحاتها.

فمهما اختلفت الآراء وتنوَّعت المذاهب فإنّه تبقى هناك مساحات لا يختلف عليها اثنان. وهل يختلف أحدٌ على ضرورة إعطاء الحق لأهله، وأن سلب الشعوب حقوقها في الأرض والمصير ظلم، وأنَّ التنمية والاستثمار الصحيح للموارد أمر حميد وغير ذلك.

فيجب إذن اكتشاف هذه المساحات والسعي لتعميمها وتعميم الالتزام بها.

٣ـ الاتفاق على الحقوق الأساسية للإنسان، والسعي لتوسعة هذا الاتفاق ليشمل الحقوق التفصيلية الأخرى، وهو أمر غير صعب إذا حسنت النوايا؛ لأنَّ البحث بحث في عمق الوجدان الإنساني وفي قيم تدرك بالفطرة الصافية.

٤ـ الاتفاق على حدود الحرية الإنسانية ومحاولة ترجمتها إلى معالم واضحة وتطبيقات عملية.

٥ـ الانطلاق من القيم الإنسانية لتحديد الايديولوجيات الهدّامة: كالارهاب والعنصرية والاستبداد والتفرقة العنصرية والاستعمار وغير ذلك.

٦ـ وضع مبادئ سلامة البيئة وتعميمها.

٧ـ الاتفاق على مبادئ الفن الرفيع بما يخدم البشرية ويستجلي كوامنها.

٨ـ الاتفاق على القيم الاجتماعية ومقومات المجتمع السليم الخالي من الشذوذ والتسيّب.

٩ـ الاتفاق على نوع التخطيط للصراع ضد التحدّيات المتفق على رفضها من قبيل: الأمراض والفقر والجهل والأمية. والتخطيط لتقليل آثار الكوارث الطبيعية كالزلازل والسيول والحرائق وغيرها.

١٠ـ تنظيم الحقوق الدولية المشتركة في مجال الملاحة والمواصلات والمعلومات وأمثال ذلك.

١١ـ بناء المؤسسات الدولية العاملة بمقاييس متعادلة واحدة بعيداً عن الازدواجية والتفرقة.

١٢ـ الوصول إلى آليات عملية لتعزيز التضامن وتعميم المسؤولية الإنسانية تجاه عملية السلام ونشر العدالة.

معاً لتعميم منطق الحوار

وفي ختام حديثنا المختصر هذا لابدّ أن ندعو بقوة لتعميم منطق الحوار بعد أن آمنا بأنَّه أمر تقتضيه الحكمة والفطرة والعقل السليم، في قبال مقتضيات العاطفة الجامحة والعصبية المقيتة والانحباس في بوتقة الماضي.

وفي هذا الصدد ندعو لتكوين أمّة من المفكرين من كل الأطراف القائمة في الواقع العملي تعمل على تهيئة الظروف لهذا التعميم، وتضع الخطة اللازمة لذلك، وأرى أن نسمّيها بـ(الوسطية العالمية)، أسوة بما ندعو إليه ونسمّيه داخل الهوية الإسلامية بـ(الوسطية الإسلامية). وذلك انطلاقاً من إيماننا بأنَّ هذه الوسطية لها مفهوم شمولي يعمُّ تصوّرنا عن الوجود (باعتباره متوازناً)، وموقف الإنسان منه موقفاً متوازناً، كما يشمل تصوّرنا عن التاريخ والعوامل المؤثرة فيه، فضلاً عن كونه تعبيراً عن طبيعة الإسلام وموقفنا منه أيضاً.

ومن هذا المنطلق (الوسطي) نرى أن تعتمد الخطة العالمية الدعوات التالية:

١ـ الدعوة إلى التفرقة الجادَّة بين الثنائيات الحدية المتناقضة أو المتضادة بحكم العقل القطعي من قبيل ثنائيات (الوجود والعدم) و(التوحيد والشرك) و(الاطلاق والنسبية) وأمثالها، وبين الثنائيات اللاحدية أو المصطنعة من قبيل (انا الخير والآخر الشر) (إمّا محاربة الارهاب أو الكون معه) (إمّا أن تكون ماركسياً أو فانت لا تفهم الماركسية). (أنا التوحيد وما عداي الشرك) (أنا التمدن وما عداي التوحش) (مبادئي هي منتهى التاريخ وما عداها

هي التي يجب أن تزول) (أما أنا أو الهمجية) وأمثالها، فإنَّ النمط الأول ممّا يمكن الاتفاق عليه وإن شكّك في ذلك الماركسيون. أمّا النمط الثاني فهو من قبيل الأصنام الفكرية التي تتم عبر عملية (تصعيد) ذهنية أو نفسية أو تاريخية أو عصبية فيتحوّل (النسبي) فيها إلى (مطلق) وبالتالي يقيّد كل عمليات التفكير ويمنع كل احتمالات التطوّر. نعم يجب الإذعان للقيم الإنسانية المشتركة التي أشرنا إليها ودلّ عليها الوجدان.

٢ـ العمل على إشاعة روح الانفتاح الواعي على الحاضر، وعدم الانحباس الأعمى في الماضي أو حتى في النظريات التي تمَّ القبول بها مع احتمال وجود ثغرات فكرية فيها.

٣ـ السعي لتعميم ما قلناه من قبل من أنَّ كل الحضارات لابدَّ أن تستقي من الفطرة بعض مكوناتها أو على الأقل نبقي احتمال استقائها وارداً، وحينئذ تنفتح أمامنا كوى الحوار.

٤ـ الاتجاه نحو تعميق مفهوم التطور الفكري والإبداع الجديد وعدم التأثُّر بمفهوم (ليس في الإمكان أبدع ممّا كان) وإبقاء روح اكتشاف الحقائق حية دافعة متدفقة.

٥ـ السعي نحو تعميم الإحساس الإنساني المشترك بالاخطار التي تهدِّد البشرية جمعاء ولا تفرّق بين حضارة وحضارة، وقومية وأخرى، ومنطقة وثانية كالمرض والجهل ونقص المعنويات وتلويث البيئة وتفكّك العائلة وسيادة منطق العدوان وغيرها.

٦ـ الدعوة إلى تغليب التعقّل على عنصر التطرّف فهو أمر يعمي البصيرة ويمنع من التفكير بهدوء مهما كانت الايديولوجية.

٧ـ السعي للتوصُّل إلى حل متوازن بين الاتجاه العالمي وبين احتفاظ الشعوب والأمم بخواصها الثقافية وغيرها. وهذه الجادّة الوسطى هي التي تضمن نجاح الاتجاه العالمي من جهة لكيلا يصطدم بالعقبات الجادة، كما يحفظ للبشرية والأمم ثرواتها المتنوعة على مختلف الصعد. فنحقق بذلك مبدأ فلسفياً يقول بـ(الكثرة في عين الوحدة).

٨ـ ضرورة تثقيف الجميع بأنَّ مصالح الأمم هي جزء من ماتؤكّد عليه قيمها. وحينئذ لن يقوم هناك تناقض بين القيم والمصالح وتتهيّأ فرص واسعة للحوار.

٩ـ تعميق الروح الموضوعية الإنسانية لمحو الروح الاستعلائية العنصرية من جهة وعدم التأكيد على القيم الحضارية الخاصة واعتبارها قمة الانتاج الحضاري واعتبار ماعداها تخلّفاً. نعم يجب الإيمان بالقيم الإنسانية المشتركة.

وقبل أن ننهي حديثنا نؤكّد أنّ بوادر الأمل بالمستقبل الواعد ـ من وجهة نظرنا ـ كثيرة:

فهذا القبول العالمي بحوار الحضارات في الأمم المتحدة، وهذه اللقاءات المتتابعة منذ الثلاثينات في القرن الماضي وعلى مختلف المستويات، وهذا الانفتاح من قبل المرجعيات الدينية المتنوّعة على الحوار، وهذا الاتجاه الواسع نحو المعنويات، وهذه المعلوماتية المنتشرة والتي تكشف الحقائق أمام الجميع، كل هذا وغيره يعدنا بمستقبل مثالي رغم ما نواجهه من تحديات العولمة المصلحية، والنظريات الاستعلائية، والظلم الفاحش ضد الشعوب، والاحتلال والإرهاب الفردي والرسمي، والتعامل المزدوج. ذلك أنّنا نؤمن ونرى أنّ قوى الخير تنتصر على عوامل الشر وفقاً لسنن الله في الحياة.

الفصل الثالث: العلاقة مع الأديان

القيم والمصالح أساس العلاقات بين المسلمين والمسيحيين

لا شكَّ أنَّ هناك في العالم الإسلامي صحوة اسلامية شاملة وقد تجلّت بشكل أكثر وضوحاً في منتصف القرن الماضي، وقد رأينا بعض مظاهرها والتي قد تكون أيضاً عناصر مساعدة على اتساعها وتعميق جذورها، متمثّلة في قيام المؤسسات الشمولية في أواخر الستينات كرابطة العالم الإسلامي ومنظمة المؤتمر الإسلامي، ونجاح الثورة الإسلامية في ايران، وهزيمة الاتحاد السوفيتي في افغانستان، وانتشار المطالبة بتطبيق الإسلام في شتّى أنحاء العالم الإسلامي، وتنامي الشكوك تجاه نوايا الغرب تجاه العالم الإسلامي، وانتشار العادات والظواهر الإسلامية خصوصاً بين الشباب وأمثال ذلك.

وقد دفع هذا التحوّل الكبير بعض الدول العظمى كأميركا لتغيير استراتيجياتها، وبعض المفكّرين ليعيدوا النظر في تحليلاتهم الحضارية واسلوب التعامل بين الحضارات، كما دفع بعض ذوي النظريات المتطرّفة إلى العودة إلى نظريات تقسيم العالم إلى متحضّر ومتوحّش، وبالتالي تطبيق مبدأ قانون الغابة مع سكّانها، وأنَّه لا معنى للتعامل معهم وفق المبادئ الإنسانية.

وقد انجزت اعمال تحقيقية لها قيمتها الدراسية في هذا المجال[1].

وقد كانت المحاولات تنصبُّ على عناصر ثلاثة في مجال تبيين سبب الظاهرة، وهي:

---

١. من قبيل ما كتبه الكثير من الكتّاب الاسلاميين كمحمد محمد حسين والعقاد، ومحمد حسنين هيكل، والمطهري، والسيد الصدر، والندوي، وكتّاب غربيون مثل جون اسبيزيتو وب. بيسكاتوري، وفرانسوا بورجا، وجيل كيبيل ور. ديكميجيان، وشيرين هنتر، وابراهام برايان وغيرهم.

١ـ مسألة انقسام المجتمعات الإسلامية إلى خطوط ثقافية ثورية أو رجعية وصراع هذه الخطوط.

٢ـ مسألة سعي الغرب أو الحكومات الموالية له إلى تهميش العنصر الإسلامي والمظاهر الإسلامية.

٣ـ عمل المفكّرين الإسلاميين على الاستفادة الجيدة من ظروف الانفتاح الإنساني وحقوق الإنسان لغرض إثارة الحماس في العالم الإسلامي.

وهم بذلك ينقسمون في مجال التعامل الإسلامي الغربي إلى فريقين:

الأول: من يرون أنَّ مجال التصالح بين الغرب والإسلام مغلق ونفقه مظلم، لأنَّ السرَّ يكمن في أنَّ الإسلام نفسه يرفض الغرب قيمياً ولا يسمح مطلقاً بالتعايش أو ما يسمّونه بالانسجام مع الحداثة أو التغريب. وتسمّيهم الكاتبة شيرين هانتر بالمستشرقين الجدد[١]، أمّا نحن فيمكن أن نسمّيهم بفلاسفة (اليأس الحضاري).

ومن هؤلاء مثلاً مارتن كرامر الذي ينعى على مخالفيه تساهلهم في الأمر ويسمّيهم (الاعتذاريين) ويرى أنَّ عملية الإحياء الإسلامي ستقضي على نفسها في نهاية القرن كما يرى أموس برلموتر في مجال العلاقة بين الإسلام والديمقراطية (أنَّ المسألة ليست الديمقراطية بل الطبيعة الأصلية للاسلام)[٢].

ولا نعدم في عالمنا الإسلامي من يصوّر العلاقة في ثنائية متنافرة تنافر الإسلام والجاهلية.

الثاني: يرى إمكان التعايش نتيجة حيوية الإسلام وقدرة التجربة الإسلامية على التغيّر والتكيّف، كما يرى أنَّ الانبعاث الإسلامي ناتج لا من قدرات الإسلام الذاتية بل من الحرمان الاقتصادي والاستلاب الاجتماعي والحرمان السياسي أيضاً وهذا ما يؤكد عليه فرانسوا بورغات كما يرى أيضاً بعداً ثقافياً لهذه الحركة كجهد للاستقلال الثقافي ويقول:

نحن نشهد الوجه الثالث لعملية إزالة الاستعمار. فالوجه الأوّل كان سياسياً ـ حركات

---

١. مستقبل الاسلام والغرب صدام حضارات أم تعايش سلمي للكاتبة الشرقية شيرين هانتر الترجمة لزينب شوربا، ص ٩٦.

٢. الواشنطن بوست، ١٩ يناير ١٩٩٢.

الاستقلال والثاني اقتصادياً ـ تأميم قناة السويس في مصر والنفط في الجزائر أمّا الوجه الأخير فهو ثقافي[١]. ويدعو هؤلاء إلى سياسة التعامل بايجابية وتسمّيهم الكاتبة شيرين هانتر بالعالم ثالثيين[٢]، واسميهم بـ(مفكّري التوافق)، وهناك كثيرون من المفكّرين الإسلاميين ينحون هذا المنحى.

وإذا كنت أنعى على الأوّلين بعدهم عن فهم طبيعة الإسلام المرنة، وفهم حقيقة الصراع الطويل بين العالم الإسلامي والعالم الغربي بكل ما فيه من مد وجزر، فإنّي أنكر على أتباع الاتجاه التوافقي الغربي اعتبارهم قيم الحضارة الغربية هي الأصل، ومدى قدرة الإسلام على الانسجام معها هو المعيار في حيوية الإسلام.

فهذا برايان في سلسلة مقالاته عن الموضوع في (الايكونوميست) اللندنية عام ١٩٩٤ يبدو توافقياً داعياً الغرب إلى شيء من الانحياز إلى المعنويات وداعياً العالم الإسلامي إلى الإيمان بكل القيم الغربية معتبراً العالم الإسلامي يمرُّ اليوم في قرنه الخامس عشر الهجري بنفس الحالة التي كان الغرب يمرُّ بها في قرنه الخامس عشر الميلادي، وكما كان الإسلام العامل الخارجي المؤثّر آنذاك لحدوث النهضة فيجب أن يكون الغرب هو العامل الخارجي المؤثّر في نهضة العالم الإسلامي اليوم.

وكذا نجد شيرين هانتر فهي تدعو الغرب إلى شيء من التديُّن وتدعو العالم الإسلامي إلى العلمانية ليتمَّ حل المشكلة[٣].

وكأنَّ الأمر يدور بين حالتين فإمّا أن يتنازل الإسلام عن قيمه ليرضى الطرفان: اليائسون والتوافقيون، أو يوصف بأنّه العدو الحضاري على طول المدى للغرب. ولنصوّر هذه الثنائية الحدّية بشكل آخر، فإمّا أن يكون معيار الصراع القيم فلا تلاقي في البين، أو يكون المصلحة فهناك آفاق للتعاون والتعايش.

ولكي أنتقل بالبحث من التعامل الإسلامي الغربي إلى التعامل الإسلامي المسيحي في

---

١. Paris: Editions La Decouverte ١٩٩٥، ١٠٧.

٢. مصدر سابق ص ٩٨، من الترجمة العربية.

٣. مصدر سابق.

حركة الواقع اليوم ـ وهناك من سحب الواقع الغربي على كل الساحة المسيحية ـ أبدي الملاحظتين التاليتين:

الملاحظة الأولى:

أنَّ هناك خلطاً واضحاً أحياناً بين الإسلام كمنظومة قيم والمسلمين كأمّة تعتنق الإسلام، فالواقع التطبيقي للاسلام ولمسيرة الأمّة لا يعكس في ظروف ليست قليلة حقيقة القيم الإسلامية في حركتها العملية، فلا يمكن مثلاً اعتبار تصرّف حاكم معين منطلقاً من الثقافة الإسلامية حتماً، خصوصاً وأنَّ الحكم الإسلامي ابتلي بفترات استبداد وبعد عن القيم يتبرأ منها المسلمون أنفسهم، كما أنَّ القيم الغربية والسلوك الغربي لا يعني بالضرورة رضاً مسيحياً عنه بل أن محاولات التخلّص حتى من النَفَس المسيحي معروفة.

إلّا أنّنا لا نجانب الحقيقة إذا قلنا إن روح القيم الإسلامية هي التي تحرّك التيار العام في العالم الإسلامي حتى لو افترضناه علمانياً، كما أنَّ الروح المسيحية تفعل فعلها وتترك تأثيرها الجذري على مجمل الحياة الغربية. ولكنهما (الإسلام والمسيحية) يبقيان مصونين عن أي انحراف في العالم (الإسلامي والغربي) لا يمتُّ إلى قيمهما بصلة.

ومن هنا نجد الفرق واضحاً في مجال النظرة أو في مجال التعايش في الغرب عنهما في العالم الإسلامي حتى أنَّ المرء لا يحس بكثير من الفوارق بين المسلم والأرمني الايرانيين أو القبطي والمسلم المصريين.

ومن هنا نقول: إنَّ الحوار الإسلامي المسيحي له تأثيره القوي على العلاقة بين الحضارتين الإسلامية والغربية.

الملاحظة الثانية:

إنَّنا لا نجد أنفسنا محصورين في الزاوية الضيقة فإمّا أن نترك الساحة للقيم المتناقضة فالصدام والصراع أو نلجأ إلى المصلحة فتُسحق القيم ويتم التعايش ـ والمفروض أنَّ التنازل عن القيم يعني الاغتراب عن الذات. إنَّ هذه المعادلة باطلة على صعيد العلاقة الإسلامية الغربية وأكثر بطلاناً على صعيد العلاقة الإسلامية المسيحية.

فهناك الكثير الكثير من نقاط الاشتراك بين الإسلام والغرب يمكنهما أن يتفاهما عليها

دون التنازل عن القيم. من أمثال (حقوق الإنسان، والديمقراطية، والسلام، والحرب ضد الارهاب، ومقاومة العنصرية والنازية والفاشية وغير ذلك).

وهناك المصالح المشتركة التي تزيد العلاقة قوة.

أمّا المساحات المشتركة بين الإسلام والمسيحية ففيها اتساع ملحوظ.

فهناك تراث قيمي مشترك لا يقدّر بثمن، فإنَّ الملاحظ للنصوص الإسلامية يجد كماً كبيراً من النقل عن عيسى عليه السلام وأمّه الطاهرة نقلاً يوجّه الحياة وينقيها. وكمثال على ذلك نجد الشيخ الكليني وقد توفي في أوائل القرن العاشر الميلادي في كتابه المعروف (الكافي)[1] ينقل نص مناجاة الله (عز وجل) لعيسى كأروع ما يكون حيث يبدو كما يعبر محمود ايوب (عبداً متواضعاً لله، لكنه في الوقت عينه ولي مقرب عند الله) ثم يعقب فيقول:

«من خلال مفهوم التجلّي الإلهي هذا تلتقي صورتا المسيح الإسلامية والمسيحية حول نقاط عدة: فالإسلام يؤكد أنَّ في مقدور الإنسان، بل من واجبه أن يتقرّب إلى الله والتقرّب إلى الله يتّضح جلياً في معراج النبي محمد صلى الله عليه وآله حيث وقف أمام الله مباشرة وصعود المسيح ليجلس عن يمين الله» ورغم وجود بعض النقاش في هذا النص إلّا أنّه يكشف عن تلاحم بين التراثين.

على أنَّ هناك تلاقياً في مجالات كثيرة منها:

- التركيز على عبادة الله ومحاربة الظلم والطغيان.
- الإيمان بالفطرة الإنسانية المبدعة.
- الإيمان بمنظومة أخلاقية تكاد تكون واحدة.
- الإيمان بحقوق الإنسان.
- الإيمان بقيمة التشكيل العائلي.
- الإيمان بضرورة التكافل الاجتماعي.

---

١. روضة الكافي، الجزء الثامن، ونقله عنه ابن شعبه الحراني في آخر كتاب تحف العقول. وتحدث عنه بالتفصيل البروفيسور محمود أيوب في كتابه دراسات في العلاقات المسيحية الاسلامية. ج١، ص٦٤.

ـ الإيمان بضرورة إحياء الذكريات المصيرية.

ـ الإيمان بقيمة الحياء والعفة الاجتماعية.

ـ الإيمان بالحياة الإلهية المسجدية أو الكنسية.

ـ الإيمان بضرورة خدمة الحضارة الإنسانية.

ـ الإيمان بمنظومة من العبادات والصلوات المزكّية للنفس.

وغيرها كثير كثير.

وهناك مساهمات حضارية مشتركة. على أنَّ المصلحة وهي في نفسها قيمة دينية تقتضي هذا التعايش.

إنّ التعاون في الحرب ضد الفقر والمرض والجهل، والعمل لنفي التعصّب، والانهيار الأخلاقي، وإشباع الحاجات المعنوية ومقاومة المخططات الشيطانية لتقويض الكيان العائلي والتشكيك في القيم الدينية، ومقاومة الارهاب بشتّى أنواعه ومنه الإرهاب الرسمي، ورفض أدعياء الدين الذين يخلقون الحروب لمصالحهم الشخصية والفئوية والحزبية ويتستّرون بالدين، وغيرها، كلها مصالح تدعو الطرفين للتعاون البنّاء.

سيدنا إبراهيمعليه السلام نموذج الإنسان الحضاري الكامل[1]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[2].

يكاد يكون سيدنا إبراهيمعليه السلام الشخصية الوحيدة التي تجمع البشرية المتألهة على اعتبارها الأسوة الحسنة، وما نسعى إليه في هذا البحث هو دراسة نقاط الالتقاء الإنساني التي تنسجم مع أصولنا العقائدية جميعاً لنجعلها منطلقاً حيّاً لمسيرة إنسانية واحدة، ومن ثمّ

١. بحث ألقي في مؤتمر الأديان الإبراهيمية المنعقد في قرطبة باسبانيا، بتاريخ ١١/٢/١٩٨٧.

٢. الحج: ٧٧ ـ ٧٨.

لنعمل على تقريب الفرد المساهم في الحضارة الإنسانية من هذا النموذج الفريد.

وقبل استعراض ما يقرره القرآن الكريم حول هذه الشخصية العظيمة يجب أن نلاحظ بعض النقاط كمقدمات تمهيدية توضّح توجه النظرية الإسلامية للحياة أوّلاً بأبعادها العامة، ثم نستعرض الدور الذي يلعبه الفرد في هذا التوجه الحضاري الإنساني.

كما نركّز على العقبات التي تنطرح أمام مسيرة هذا التوجُّه نحو أهدافه الكبرى مشيرين إلى العلاج المتصوَّر. كل ذلك يؤكّد أنَّ الصورة القرآنية عن هذا الرجل الموحِّد يمكنها أن تشبع تماماً كل الحاجات التي تفترضها تلك النظرية في الرجل الذي يصنع التقدُّم الحضاري ويترك بصماته على التطور الحقيقي ـ من وجهة نظر الإسلام ـ أي التطور المنسجم مع خط الفطرة الصاعد إلى الله تعالى.

أهم المبادئ للنظرية الإسلامية حول الحياة الحضارية الإنسانية

الأوّل: أنَّ الحياة الإنسانية نعمة الهية منّ بها الله ـ الرحمن الرحيم ـ تعالى على هذا الموجود وكرّمه بها ليوصله إلى كماله الوجودي المناسب له.

الثاني: أنَّ هذا الموجود الإنساني لا يصل إلى كماله إلاّ من خلال عمل اجتماعي حضاري تاريخي ومتدرج ومتكامل، تقوده إلى تكامله هدايتان تشكّل إحداهما نبيّه الداخلي، وهي الفطرة بكل ما فيها من طاقات للمعرفة النظرية والعملية، ودوافع نحو استكناه المجهول، والاتّجاه للكمال والتديّن للإله المطلق، وقدرات للتعقّل والتجريد والاستدلال، وتجاوز الحدود المادية، وهذه هي الهداية الفطرية. في حين تشكل الأخرى عقله الخارجي الذي نسميه(بالوحي) وهي الهداية التشريعية التي تكمل عنصر الإرشاد لديه وتهيئه للوصول إلى الهدف.

الثالث: أنّ المسيرة الإنسانية تصادفها مشكلات جمّة يمكن تلخيصها بما يلي:

١ . مشكلة عدم الإيمان بأي وجود أعلى، وبالتالي عدم التسليم لأي قيمة أو قانون، وهو ما نسميه أحياناً بـ(الإلحاد).

٢ . مشكلة الإيمان المفرط بآلهة وهمية تأتي نتيجة عملية تصعيد ذهني لبعض الوجودات المؤثرة حقيقة أو حتى وهماً وبالوصول بها إلى مستويات مطلقة، وجعلها موجَّهة تمام التوجيه للحياة.

٣. مشكلة التعارض بين المصالح الذاتية والمصالح الاجتماعية.

٤. مشكلة عدم وجود الدافع الذاتي للتسليم للحدود الاجتماعية وتطبيق النظام الأصلح حتى ولو كان يعارض المصالح الشخصية.

٥. مشكلة خمول الطاقات الفطرية نتيجة التخلّف الاجتماعي. وغير ذلك من المشاكل التي تترك أعظم الآثار السلبية على المسيرة الحضارية الإنسانية.

فالمشكلة الأولى: إذا تحكّمت في المجتمع ـ وكذلك المشكلة الرابعة ـ فإنهما تؤديان إلى تحلل عارم، وعدم انتماء مقيت فظيع لا تستقر معه حياة، ولا يسلم فيه قانون، وبالتالي لا تفترض معه مسيرة سالمة.

والمشكلة الثانية: إذا انتشرت مزّقت البشرية إلى جماعات متناحرة، وأوقفت عجلة التقدُّم الإنساني؛ باعتبار أنَّ هذه الآلهة الوهمية تتحوّل إلى قيود على الذهن الإنساني الحضاري؛ لأنّها وليدة وضع متخلّف، فلا تسمح ـ إذن ـ بوضع أكثر تطوراً.

والمشكلة الثالثة: تكاد تكون هي سرّ كل هذا الظلم والحيف والجور والتعدّي على حقوق الجماعة، وما إلى ذلك من الفسق والانحراف عن المسيرة الإنسانية السلمية.

أما المشكلة الرابعة: فهي قد تحوّل الإنسان إلى مجرد حيوان وديع مسخر للطبيعة أو لمصالح الإنسان الآخر، وبالتالي تفقده القدرة على احتلال دوره الحضاري المنشود، وهنا نذكّر بأنَّ هذه المشاكل قد تكون أحياناً ناشئة من طبيعة الإنسان نفسه، كما قد تكون ناشئة من عوامل خارجية طارئة، إلاّ أنّ النظرية الإسلامية ـ والواقع يؤيدها ـ تؤكد أنّ الحلول الحقيقية لهذه المشاكل الحضارية تكمن في الدين، وهو ما تقود إليه الفطرة والطبيعة الإنسانية نفسها، وبالتالي فإذا تجسّد الدين في الرجل الحضاري استطاع أن يغيّر المسيرة.

أما كيف يتمّ الحل على يد الدين فهو ما يمكن تلخيصه بالأمور التالية:

أوّلاً: يعتمد الدين الإلهي مسألة الإيمان بالله العظيم، وهو المطلق الحقيقي الذي تنزع إليه الفطرة كل النزوع، ولا تستريح إلاّ بالوصول إليه والاطمئنان بذكره﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[١]. وهو الوجود الحقيقي الذي لم يصنعه الذهن القاصر بل هو خالق الوجود.

---

١. الرعد: ٢٨.

وثانياً: يعتمد مسألة الوحي وامتداد الرحمة الإلهية إلى البشرية لتستمدَّ من(العلم الإلهي) و(اللطف الرباني) ما يعطي الإنسان المخطط التفصيلي لحياته الصاعدة بعد ما أعطته فطرته المخطط الإجمالي لذلك.

وثالثاً: يعتمد مسألة الآخرة والحياة الإنسانية الممتدة إلى عوالم الخلود، وبالتالي تتحوّل الحياة من وجود محدود إلى حياة خالدة.

ورابعاً: ينظّم كل الشؤون الحياتية ويربّي النفس الإنسانية على حبٍّ يتعالى على الأمور الدنيا ليذوب في الله العظيم. ويتحوّل إلى تسليم حنيف خالص له جلّ وعلا لا يرى حقيقة في الوجود إلاّ هو، ولا مولى في الكون إلاّ هو، ولا محبوباً غيره، ولا مؤثراً سواه. جلّت قدرته وآلاؤه. وعندما يتأصل الدين في وجود الإنسان ويملأ عليه وجوده وإحساساته فسوف لن تبقى أية مشكلة من المشاكل السابقة على الإطلاق، ولا معنى لتصوّر الإلحاد، أو التأليه الكاذب، أو التغليب الجشع للمصالح الفردية، أو العصيان، أو حالات الخمود الفطري، كلاّ وإنما يعود السير طبيعياً نحو الكمال المطلق، وكادحاً نحو الله ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾[١].

الرابعة: أنَّ الإنسان الفرد يستطيع أن يغيّر نفسه ومجتمعه ومسيرته الحضارية، لا بل إنَّ الإسلام يطلب من الإنسان المؤمن أنَّ يدعو ربَّه دائماً ليجعله إمام المتقين.

وبهذا الإحساس نقول: إنّ النظرية الإسلامية لا تذيب الفرد في دوامة المجتمع في نفس الوقت الذي تعترف فيه بالإطار الاجتماعي النظيف مجالاً خصباً للتحول التكاملي للفرد. وبهذا يمكن أن يكون الفرد في سلوكه(أمة) على سعتها إذا امتلك تأثيرها المطلوب، وتفجرت لديه طاقات الفطرة الكامنة، وطفحت على سطح سلوكه دفائن العقل والنفس اللامادية الفاعلة، وهكذا كان إبراهيم عليه السلام[٢].

---

١. الانشقاق: ٦.

٢. للتعمق في هذا المجال راجع ما كتبه الإمام الشهيد الصدر في نهاية كتابه «الفتاوى الواضحة» حول دور العبادات في حياة الإنسان.

إبراهيمعليه السلام نموذج الرجل الحضاري القائد

إنَّ القرآن الكريم ليركّز على شخصية إبراهيمعليه السلام تمام التركيز والتأكيد، بما لا نظير له من بين الشخصيات القيادية التي يطرحها اللّهمَّ إلاّ شخصية الرسول العظيم محمدصلى الله عليه وآله التي يعتبرها تجلياً لدعاء سيدنا إبراهيم، وأسوة للبشرية الصالحة.

وقبل أنَّ نستعرض بشكل إجمالي خصائص هذه الشخصية نشير إلى نقطتين مهمتين في البين هما:

أوّلاً: أنَّ ملاحظة دقيقة لهذه الخصائص توضّح لنا أنَّ إبراهيمعليه السلام كان يتمتّع بكل الخصائص الحضارية للفرد القائد المغيِّر، وأنَّه استطاع ـ أو أنَّ القرآن الكريم استطاع من خلال إبراز هذه الخصائص ـ أن يصوّر أروع كيفية للتغلب على كل نقاط الضعف التي أشرنا إليها من قبل.

ثانياً: أنَّ القرآن الكريم يؤكّد بكل دقة على علاقة الأمة الإسلامية بإبراهيمعليه السلام وذلك بأساليب كثيرة. فهو تارة يجعله والذين معه أسوة حسنة للمسلمين ﴿قَدْ كانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْراهِيمَ وَ الَّذِينَ مَعَهُ﴾[١].

وأخرى يجعل الأمة الإسلامية مظهر إجابة لدعائهعليه السلام ﴿رَبَّنا وَ ابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِكَ وَ يُعَلِّمُهُمُ الْكِتابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ يُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٢].

ويطلق عليه ـ تارة ثالثة ـ اسم (الأب) ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾[٣].

كما أنّه يأمر هذه الأمة باتباع هذه الملة الحنيفة ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٤].

وهكذا جاء في قوله تعالى:﴿وَ جاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهادِهِ هُوَ اجْتَباكُمْ وَ ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَ فِي هٰذا لِيَكُونَ الرَّسُولُ

١. الممتحنة: ٤.
٢. البقرة: ١٢٩.
٣. الحج: ٧٨.
٤. النحل: ١٢٣.

شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَ تَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى النّٰاسِ﴾[١]. حيث يتمّ الربط بين إبراهيم والدور الحضاري للأمة وبالتالي فإنَّ أولى الناس بإبراهيم هم أتباعه وهذا النبي والمؤمنون ﴿إِنَّ أَوْلَى النّٰاسِ بِإِبْرٰاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هٰذَا النَّبِيُّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[٢].

ويتجلّى هذا الربط أروع تجلٍّ بعملية الحج حيث تبدأ العملية تاريخياً برفع قواعد هذا البيت.

﴿وَ إِذْ يَرْفَعُ إِبْرٰاهِيمُ الْقَوٰاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَ إِسْمٰاعِيلُ رَبَّنٰا تَقَبَّلْ مِنّٰا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنٰا وَ اجْعَلْنٰا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِنٰا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَ أَرِنٰا مَنٰاسِكَنٰا وَ تُبْ عَلَيْنٰا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوّٰابُ الرَّحِيمُ﴾[٣].

ثم بذلك النداء التاريخي يطلقه عليه السلام منادياً كل فصائل التوحيد لتطوف حول البيت الحرام: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[٤].

وبذلك يتم الربط العظيم بين إبراهيم وهذه الأمة وكل ما تقوم به من عمل حضاري (تردد نفس النشيد وتعمل نفس العمل وترفع نفس الشعار).

من الخصائص التي يذكرها القرآن لإبراهيم عليه السلام

لعل أهم الصفات التي يتحدث عنها القرآن الكريم، وأجمعها؛ هي صفة (الحنيفية) والتي تعني باختصار (صفاء الإيمان، وعمقه في النفس، وتحوله إلى تسليم مطلق لله تعالى)، يقول تعالى: ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرٰاهِيمَ حَنِيفاً وَ مٰا كٰانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٥].

﴿قُلْ صَدَقَ اللّٰهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرٰاهِيمَ حَنِيفاً وَ مٰا كٰانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٦].

﴿وَ مَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّٰهِ وَ هُوَ مُحْسِنٌ وَ اتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرٰاهِيمَ حَنِيفاً وَ اتَّخَذَ اللّٰهُ إِبْرٰاهِيمَ خَلِيلاً﴾[٧].

---

١. الحج: ٧٨.
٢. آل عمران: ٦٨.
٣. البقرة: ١٢٧ و ١٢٨.
٤. الحج: ٢٧.
٥. البقرة: ١٣٥.
٦. آل عمران: ٩٥.
٧. النساء: ١٢٥.

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١].

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢].

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٣].

وهذه الصفة هي مقتضى المسير الفطري السليم وهو ما أكّد عليه الأنبياء جميعاً، فبعد ذكر قصة إبراهيم والتركيز على خطه يأتي هذا المقطع القرآني: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عابِدُونَ ﴾[٤]. ولذلك يعتبر القرآن ملة إبراهيم هي الطريق السليم، وما عداها لا يعدو السفه ﴿ صِبْغَةَ اللهِ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عابِدُونَ ١٣٨ ﴾[٥]. ويؤكّد سلامة خطه عن كل لون آخر ﴿ما كانَ إِبْراهِيمُ يَهُودِيًّا وَ لا نَصْرانِيًّا وَ لكِنْ كانَ حَنِيفاً مُسْلِماً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٦].

ويعتبر شريعته الصراط المستقيم ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدانِي رَبِّي إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً وَ ما كانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٧].

﴿إِنَّ إِبْراهِيمَ كانَ أُمَّةً قانِتاً لِلهِ حَنِيفاً وَ لَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شاكِراً لِأَنْعُمِهِ اجْتَباهُ وَ هَداهُ إِلىٰ صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾[٨].

وخلاصة الأمر أنَّ (الحنيفية) والإخلاص لله هي سرّ الوجود الحضاري الفاعل.

بعد هذا لنستعرض بإجمال أهم الصفات التي يذكرها القرآن لهذه الشخصية وهي:

أوّلاً: الإيمان البالغ حدّ اليقين النافذ للقلب والوجود كله، وهو ما نلحظه في مجموع الآيات.

ثانياً: التأمل والتفكُّر والتعقل الدائب:

---

١. الأنعام: ١٦١.

٢. النحل: ١٢٠.

٣. النحل: ١٢٣.

٤. البقرة: ١٣٨.

٥. البقرة: ١٣٠.

٦. آل عمران: ٦٧.

٧. الأنعام: ١٦١.

٨. النحل: ١٢٠ و ١٢١.

﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَباً قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ * فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١].

ثالثاً: الدعوة إلى التوحيد بشتى الوسائل ومنها إقامة بيت التوحيد.

رابعاً: الحجاج الفطري السليم في مجال الدعوة إلى الله:

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ * إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَاغَ إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ * فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ * قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[٢].

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ * قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ * قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ * فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾[٣].

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ

---

١. الأنعام: ٧٦ ـ ٧٩.

٢. الصافات: ٨٣ ـ ٩٦.

٣. الأنبياء: ٥١ ـ ٦٤.

صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَن فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾[١].

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ * قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾[٢].

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٣].

خامساً: التسليم المطلق لله تعالى يقول القرآن المجيد:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ... * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ * أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاء إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٤].

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ... * مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ اللّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ

١. مريم: ٤١ ـ ٤٥.

٢. الشعراء: ٦٩ ـ ٧٧.

٣. العنكبوت: ١٦ و ١٧.

٤. البقرة: ١٢٦ ـ ١٣٣.

ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ﴾[١].

﴿الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ * فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ... * قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٢].

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[٣].

سادساً: الاهتمام بالمسيرة الإنسانية كلها والبدء بالذرية.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء * الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[٤].

سابعاً: الصراع الفكري والعملي ضد الأصنام وإعلان البراءة الدائمة من خطها العملي:

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾[٥].

---

١. التوبة: ١١٣ ـ ١٢٠.

٢. آل عمران: ٦٠ ـ ٦٤.

٣. النساء: ١٢٥.

٤. إبراهيم: ٣٥ ـ ٤١.

٥. الممتحنة: ٤.

ثامناً: عدم التخوّف من الشرك وآلهته المزيفة وتهديداته:

﴿وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاء رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[١].

تاسعاً: التضحية التامة في سبيل الهدف، وكل حياة إبراهيم تضحية بالنفس والأهل والولد في سبيل الهدف....

عاشراً: توفير البيئة الصالحة لتلقّي الرحمة والبركة الإلهية:

﴿قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾[٢].

حادي عشر: امتلاك الصفات الإنسانية العليا:

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا * وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً﴾[٣].

﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾[٤].

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى * وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى * أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاء الْأَوْفَى﴾[٥].

﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ * وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنْ الْأَخْيَارِ * هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ﴾[٦].

---

١. الأنعام: ٨٠ و ٨١.

٢. هود: ٧٣.

٣. النساء: ١٢٤ و ١٢٥.

٤. هود: ٧٥.

٥. النجم: ٣٦ ـ ٤١.

٦. ص: ٤٥ ـ ٤٩.

ثاني عشر: الدعاء واللجوء الدائم إلى الله:

﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء﴾[١].

ثالث عشر: الجهاد المتواصل:

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾[٢].

وبعد كل هذا ألا يحق لنا أن نعبِّر عن إبراهيم بأنَّه النموذج الإنساني الحضاري الكامل، وأنَّه (الأمة) القائمة لوحدها، وأنَّه المحور الذي يجب أن تجتمع حوله الأديان جميعاً .

وتسير في ظلّه محققة هدفه وهدف الأنبياء جميعاً، وهو تعبيد الإنسانية لله، والصراع ضد الطاغوت والاستكبار ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾[٣].

ولذا فإنّنا ندعو البشرية جمعاء إلى هذا المستوى الرفيع، وإلى نبذ كل الأطروحات المادية التي سلبتها وجودها الإنساني الأصيل ومقامها المكرم، وذلك رغم ما طرحته من شعارات برّاقة كالحرية والديمقراطية، والضمان والاشتراكية، والعلاقات الاقتصادية المتوازنة، وما إلى ذلك، وما هي في الواقع إلاّ جسور لتحقيق المطامع الجشعة لأرباب الكارتلات النفطية، وشركات الاحتكار العالمية، ومؤسسات النقد الدولية الجاثمة على صدور الشعوب الضعيفة.

وإنّنا بعد هذا لندعو البشرية إلى أن تؤطِّر كل نظمها الحياتية(التربوية، والاقتصادية، والحقوقية وغيرها) بإطار أخلاقي إنساني رفيع، يعتمد عناصر الثبات الفطرية، ويتّجه نحو الكمال المطلق بفلسفة شاملة تركّز على خصائص الإنسان الأصيلة(التعقل، الاندفاع

---

١. إبراهيم: ٣٧ و ٣٨.

٢. الحج: ٧٨.

٣. النحل: ٣٦.

المتحرك دائماً نحو الكمال، الإرادة الواعية) والحضارة إذا فقدت هذه العناصر فقدت روحها وسارت بالبشرية إلى وديان العذاب والدموع، فإلى حياة القرآن الكريم ندعو كل الشعوب.

خلاصة نظرة الإسلام إلى العلاقة بين الحق والتكليف والعدالة[١]

لكي ندرك هذه العلاقة لابدَّ من أن نعرف هذه المصطلحات وندرس كيفية نشوء العلاقة بينها وندرك سر الإشكال وكيفية حلّه.

الحق: هو في اللغة (الثبوت) ولذا يطلق على البارئ جلّ وعلا، فهو تعالى (الحق المطلق) ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ﴾[٢]. ويطلق أيضاً على الخبر المطابق للواقع.

والكون كلّه ـ كما يصوّره القرآن الكريم ـ يقوم بالحق أي يوجد عبر رحمة إلهية. ﴿وَ ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ وَ ما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ السّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾[٣]. ومن هذا المفهوم الحقيقي الواقعي انتزع مفهوم اعتباري ليساهم في تنظيم العلاقات الاجتماعية. ﴿وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ * أَلاّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ * وَ أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَ لا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ﴾[٤].

وعليه: فيمكن القول بأنّ الحق الاجتماعي يمتلك بعدين:

الأوّل: النشوء من حالة واقعية (تركيب تكويني أو مصلحة واقعية).

الثاني: اعتبار شرعي أو عقلائي أو عقلي (قائم على الفطرة).

منشأ الحقوق:

والذي يبدو من النصوص الإسلامية، ومن التأمّل الذاتي هو أنَّ كل الحقوق ترجع في أصولها إلى الفطرة الإنسانية وتشكّل بذلك مجالاً لتحقّق مفهوم للعدالة. ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ

---

١. بحث ألقي في مؤتمر الحوار في فينا، بتاريخ ١٩٩٩/٩/١٧.

٢. الأنعام: ٦٢.

٣. الحجر: ٨٥.

٤. الرحمن: ٧ـ ٩.

أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[١].

والعدالة أمر يدرك حسنها العقل بشكل مطلق. ولذلك فإنَّ الله تعالى، وهو الحق، يأمر بالعدل ﴿إِنَّ اللهَّ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَ الْإِحْسانِ﴾[٢] وتوضيح هذا الأمر:

إنَّ نظرية الفطرة (التي تقبل بها الأديان) تؤكّد أنَّ الإنسان موجود متميّز يحمل إمكانات ذاتية أودعها الله تعالى في طينته.

وهذه الإمكانات تقود الإنسان إلى كماله المطلوب إذا توفّرت لها الظروف المناسبة. وتشمل الأمور التالية: قضايا العقل النظري وقضايا العقل العملي والدوافع الفطرية الغريزية نحو الكمال وحب الذات والتدين وغيرها.

ولن ندخل في تفاصيل هذه المكونات وإنّما نكتفي بهذه الإشارة لننتقل إلى القول بأنَّ الوجدان الإنساني قد يدرك بشكل واقعي بعض الحقوق الإنسانية مباشرة من قبيل إدراكه لحق الإنسان في الحرية المعقولة. وقد جاء في النصّ التاريخي «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

وحق الإنسان في الحياة ولوازمها. ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً ... فَكَأَنَّما قَتَلَ النّاسَ جَمِيعاً﴾[٣].

وتقابل ذلك (تكاليف) الآخرين بحفظ هذه الحقوق. حيث يؤكّد القرآن ﴿وَ لا تَبْخَسُوا النّاسَ أَشْياءَهُمْ﴾[٤].

فإذا ضممنا إلى ذلك حكم النفس الإنسانية الدائم بحسن العدل. والمقصود به اعطاء كل ذي حق حقه أدركنا بأنَّ هناك منظومة أساسية تنطلق منها الحقوق، والتكاليف على أساس من العدالة.

الحقوق والتكاليف والعدالة الدينية:

والنصوص الإسلامية تؤكد أنَّ الفطرة الإنسانية نفسها تقود الإنسان إلى عالم رحب

---

١. الروم: ٣٠.

٢. النحل: ٩٠.

٣. المائدة: ٣٢. اقتباس.

٤. الاعراف: ٨٥.

وسيع وأفق عظيم هو أفق (الدين) باعتباره متقوّماً بالعلم الإلهي الواسع والقدرة الإلهية المطلقة واللطف الإلهي الشامل.

فإنَّ قضايا العقل الفكرية تقود الإنسان إلى الإيمان بالله تعالى إيماناً عقلياً، كما أنَّ قضايا العقل العملية تؤكّد له ضرورة اللجوء إلى هذا الوجود المطلق والاستمداد منه والتعبّد له وطاعته طاعة كاملة مناسبة لحقه كمولىً حقيقي لهذا الكون كله وحينئذ ينفتح أمام الإنسان عالم واسع للحقوق والتكاليف وأنماط العدالة هي في الواقع مستمدَّة من تلك المنظومة الفطرية الصغيرة التي يدركها بوجدانه. فالعقل هنا يقوم بدور الهادي إلى الله والداعي إلى طاعته في حين يفتح الدين أمامنا آفاقاً واسعة من الحقوق على ضوء العلم الإلهي بالعلل الواقعية والكمالات الإنسانية.

وعندما ندخل العالم الديني نجد أنّ النصوص الدينية تتحدَّث عن مقولات كثيرة من قبيل:

أوّلا: التوسّع في مجال الحقوق بما يكفل قيام نظام اجتماعي سليم يكفل سيراً طبيعياً للفرد والمجتمع نحو الكمال (وذلك وفق العلم الإلهي الواسع بمايصلح الإنسان، وهنا تأتي الحقوق الاعتبارية والشرعية الواسعة في مختلف المجالات الفردية والاجتماعية، والتربوية والاقتصادية والسياسية وغير ذلك).

كما تأتي (التكاليف الإلهية) في تلك المجالات كما يأتي توضيح دقيق لكيفية التعادل بين الحقوق والتكاليف.

وثانياً: فإنَّ النصوص الدينية تؤكّد أنَّ هذا النظام الحقوقي الذي أعطاه الله تعالى يقوم على أساس العدل العام ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ وَ اتَّقُوا اللهَّ﴾[١]. وان هناك موازاةً للتوازن التكويني مع التوازن التشريعي.

﴿وَ السَّماءَ رَفَعَها وَ وَضَعَ الْمِيزانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ﴾[٢].

ثالثاً: طرح الفقهاء المسلمون مسألة مفصّلة ليفرّقوا فيها بين الحقوق والأحكام (التكاليف) ولا نرى حاجة للدخول فيها فهي من تفاصيل البحوث الفقهية وهي تتبع

١. المائدة: ٨.

٢. الرحمن: ٧ و ٨.

الدليل الذي يثبتها من حيث اللوازم التابعة كالإسقاط والنقل والانتقال وغير ذلك.

والخلاصة هي:

١. أنّ هناك منظومة لهذه العلاقة يُدركها الإنسان بفطرته.

٢. أنّ الفطرة تهدي الإنسان إلى الدين (كعالم ارحب).

٣. أنّ الدين ينظم العلاقة على أساس من علم الله وقدرته ولطفه بالإنسان.

٤. وأنّ نظام الحقوق الديني يقوم على القسط والعدل وتحقيق المصلحة الإنسانية والتوازن المطلوب.

سرّ الإشكال وسبيل الحلّ:

والذي يبدو لنا من خلال ما تقدّم أنَّ مسألة الإيمان بنظرية الفطرة الإنسانية تفتح مجالاً للحديث عن (الحقوق) و(التكاليف) و(العدالة) و(الإنسانية) و(الأخلاقية) و(الذوق الفني) وغير ذلك.

بل إنَّ هذه المسألة هي التي تفتح مجالاً لتحقّق (المعرفة الإنسانية اليقينية).

وبدونها فكل حديث عمّا مضى إنَّما هو حديث بلا معنى كما نتصوَّر (وهذه حقيقة كبرى تصطدم بها الاتجاهات المادية بقوة) ومن هنا جاءت النصوص الإسلامية لتؤكّد على (الفطرة) وأنَّ الدين في الحقيقة ينسجم مع (الفطرة) لأنَّها واقع أصيل والدين مشروع واقعي لإصلاح الإنسان يقول تعالى:

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النّاسَ عَلَيْها لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[١] وهذه الآيةالكريمة تقرّر ـ كما يقول الإمام الشهيد الصدر ـ الأمور الآتية:

أوّلا: أنَّ الدين (بكل ما فيه من حقوق وتكاليف ومنظورات للعدالة) هو من شؤون الفطرة الإنسانية التي فطر الناس عليها جميعاً لا تبديل لخلق الله.

ثانياً: أنَّ هذا الدين الذي فطرت الإنسانية عليه ليس هو إلاّ الدين الحنيف الخالص، أمّا أديان الشرك والإيمان بالالهة الوهمية النسبية فهي لا يمكن أن تحلّ المشاكل الإنسانية.

---

١. الروم: ٣٠.

يقول سيدنا يوسف لصاحب السجن: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ﴾[1].

وثالثاً: أنَّ الدين الحنيف الذي فطرت عليه الإنسانية يتميَّز بكونه ديناً قيّماً على الحياة قادراً على التحكُّم فيها وصياغتها في إطار العام.

ذلك أنَّ المسألة الاجتماعية المهمة في تاريخ الإنسان هي التعارض الذي ينشأ بين المصالح الفردية (وهي تؤدي لأن يتصور الإنسان لنفسه حقوقاً في الحصول عليها بمقتضى حب ذاته و(المصالح الاجتماعية) التي يطرحها النظام الاجتماعي الذي يعيشه ويفرض عليه (تكاليف) تجاهها باسم (العدالة) وهذا التناقض بين المصالح الفردية والاجتماعية لم يستطع العلم أن يحلّه، فإنَّ علم الإنسان لن يقف مطلقاً أمام ترجيح مصالحه الشخصية.

ولم تستطع المادية التاريخية من خلال قوانينها التاريخية أن تقدّم الحلّ ويبقى للدين الحل النهائي لهذا التعارض وتحقيق العدالة وذلك من خلال ربطه بين المصالح الذاتية وسبل الخير إذ يقول القرآن الكريم:

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلاَ يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[2] ويقول: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾[3].

وهكذا تتلاحم المصلحة الفردية والمصلحة الاجتماعية و(الحقوق) و(التكاليف) تلاحماً رائعاً ينفي التعارض.

كما يقول المرحوم الشهيد الصدر ﵀:

«فللفطرة الإنسانية إذن جانبان، فهي من ناحية تملي على الإنسان دوافعه الذاتية التي تنبع منها المشكلة الاجتماعية الكبرى في حياة الإنسان (مشكلة التناقض بين تلك الدوافع

---

١. يوسف: ٤٠.

٢. غافر: ٤٠.

٣. فصّلت: ٤٦.

والمصالح الحقيقية للمجتمع الإنساني) وهي من ناحية أخرى تزوّد الإنسان بإمكانية حل المشكلة عن طريق الميل الطبيعي إلى التديّن»[١].

فلسفة العلاقة بين السلام والعدالة[٢]

انطلقت دعوة الحوار بين الأديان على أسس منطقية سليمة، وراحت تترك أثرها الجيد في مجال تحقيق التفهّم والتفاهم المنشود وتقليل مناطق الصدام، وتوفير مجالات التعاون المستمر على صعيد خدمة القضية الإنسانية والقضية الدينية، والقيم المعنوية.. ونحن نرجو لها التوسّع من مرحلة التفاهم بين المتخصصين إلى مرحلة صيرورتها ثقافة عامة تعشقها الشعوب وتتعامل على أساس منها في مختلف قضايا التماس الحضاري بعيداً عن محاولات الاستغلال والتشكيك.

ومن أوليات قضية الحوار ـ أي حوار كان ـ ضرورة الإنطلاق من قناعات متفق عليها مسبقاً.. لتكون هذه القناعات هي الأضوية الكاشفة التي تحلُّ العقد وتفتح السبل المسدودة لعملية الحوار، وتقضي في موارد الخلاف.

وما نتصوَّره أنَّ الإيمان بالفطرة هو من القناعات المشتركة بين جميع الأديان السماوية:

والمقصود بالفطرة هو أنَّ الإنسان مخلوق إلهي أودعت الحكمة الإلهية في وجوده وطينته الأصلية مجموعة من القضايا البديهية والقدرات العقلية والميول والغرائز التي تضمن له سيراً طبيعياً نحو تكامله المرسوم له.

وإنّ الأديان إنّما جاءت لتثير له دفائن العقول[٣] ـ كما يعبر الإمام علي عليه السلام ـ وتهيئ الجو المناسب لبروز هذه الطاقات كامنة على سطح حياته فتهديه سبيلاً إنسانياً يختلف كل الاختلاف عن السلوك الذي تسلكه الحيوانات العجماء التي لا تتمتّع بما يتمتع به من طاقات.

أمّا القضايا البديهية فهي التي تمنحه القدرة على المعرفة معرفة نفسه ومعرفة الكون

---

١. اقتصادنا، ص ٣١٠ ـ ٣١٢، طبعة مشهد.

٢. بحث ألقي في مؤتمر الحوار بموسكو، بتاريخ ١٩٩٩/٦/٥.

٣. نهج البلاغة، ج١، ص٢٤.

والواقع، وفلسفة الوجود والعلاقات القائمة بين الأشياء وتلك من قبيل: الإيمان بمبدأ العلية، والإيمان بمبدأ استحالة التناقض (الجمع بين النقيضين، وارتفاع النقيضين) و(بعض القضايا الأخرى) فهذه قضايا مغروزة في القناعة والوجدان الإنساني لا يحتاج للاستدلال عليها وإلّا دخل في طريق مسدود؛ لأنّ الاستدلال نفسه يتوقّف عليها، كما هو واضح.

أمّا القدرات العقلية فهي نفس قدرة النفس الإنسانية على التأمّل والتفكير وتجريد القضايا من ملابساتها والصعود من مرحلة الجزئيات إلى مرحلة الكليات، والقيام بقياس الأشياء للوصول إلى تصوّرات جديدة والتخطيط الذهني لمراحل غير موجودة على صعيد الواقع القائم.. إنَّ هذه القدرة الذهنية هي من مختصات الإنسان وهي سرّ مسيرته التكاملية وإبداعه ونموّه.

وأمّا الميول الغريزية فهي التي تقوده نحو كماله وتدفعه للاستفادة من طاقاته في هذا المجال.

ومن هذه الميول: ميله نحو الكمال، والسير نحو الكمال المطلق، ومحاولة سدّ جوانب العجز في وجوده، والركون إلى هذا المطلق القادر وأداء حقّه وشكر نعمه والقيام بحقّ طاعته ـ فهذه أمور يجدها الإنسان مغروزة في الطينة الإنسانية وإن اختلفت تجلّياتها وتعدّدت أساليبها وربّما غطّت الشبهات على هذه الميول وكبتتها.

ومنها أيضاً غريزة حبّ الذات والعمل على تحقيق طموحاتها، فهي من الغرائز الأصلية فى الإنسان والتي لا يمكن تجاوزها والقضاء عليها، كما تصوّرت الماركسية يوماً ما أنّها ظاهرة فوقية يمكن حذفها من الوجود الإنساني من خلال تحريم الملكية.

ومنها التذوّق الفني: والابتهاج لعناصر الجمال التي يزخر بها هذا الكون.

ولسنا نريد استعراض كل العناصر الفطرية وإنّما نريد أن ننطلق إلى هذه الحقيقة وهي: أنّ الاقتناع بأنَّ (العدالة شيء حسن دائماً) و(أنَّ الشيء الحسن ينبغي فعله) هي من القناعات الفطرية التي لا تحتاج إلى دليل... فإذا اقتنع الإنسان بأنَّ الموضوع المعيّن حسن اقتنع بأنّه ممّا ينبغي فعله دونما تشكيك، فهو موضوع مطلق كما أنّ من المواضيع المطلقة حكم الوجدان الإنساني بأنَّ قضية (إطاعة المنعم الحقيقي، والمالك الحقيقي للكون والإنسان) هي قضية

مطلقة لا تتخلّف أيضاً وهناك من القضايا التي زرعت في الوجود الإنساني كمصاديق لمسألة العدالة (أصلاً) الصدق، والأمانة، والرحمة، والإيثار، والسلام.

فهذه الأمور حسنة في أصلها، ونقصد من عبارة (في أصلها) أنّها قد تطرأ عليها بعض الحالات التي تفقد معها حسنها الطبيعي الفطري وتخرج من كونها تجلّيات للعدالة ومصاديق واقعية لها لتعود من تجلّيات الظلم والتعدّي.

ونستنتج من هذا أنَّ الفطرة الإنسانية تحكم بنوعين من الحكم:

أحدهما مطلق من قبيل: العدالة نفسها وطاعة الخالق الحكيم.

والثاني مقيد ونسبي من قبيل: الصدق والسلام.

فقد يكون الصدق في بعض الأماكن نتيجة ما يؤول إليه من تبعات ظلماً لا عدالةً وكذلك السلام أحياناً بما يؤدّي إليه من جرأة على حرمات الإنسانية فإذا كانت العدالة قيمة مطلقة فإنَّ السلام قيمة نسبية نعمل على تحقيقها إذا عادت وجهاً من وجوه العدالة، ونرفضها إن كانت ظلماً ولكن التساؤل الأساس هو: ما هي معايير العدالة؟ وكيف نتأكّد من تحققها.

إنَّ الأديان السماوية كلها تؤكد على معيارين:

الأوّل: معيار تعبّدي نستفيد فيه من علم العالم المطلق وهو الله تعالى وهو تعليمات الدين الثابتة، والتي نتأكّد من كونها صادرة من الله سبحانه، ذلك أنّنا نتأكّد قبل ذلك من علم الله الشامل، ومن لطفه ورحمته بالإنسان المخلوق ومن عدالته وتمتّعه بكل صفات الكمال، فهو لا يريد بالإنسان إلّا الخير ولا يخدع الإنسان وإنّما يكشف له كل الواقع ويريد له كل الخير.

الثاني: معيار وجداني يكفي فيه التأمّل في الأعماق وقناعاتها أو فلنعبّر يكفي فيه الرجوع إلى الفطرة نفسها.

وما يساعدنا في اكتشاف العمق الفطري هو كون هذه القناعة ـ أيّة قناعة كانت ـ من ملازمات الطبيعة الإنسانية ولذلك نجدها متوفرةً لدى كل أبناء الإنسان في مختلف ظروفهم وحالاتهم الفردية والاجتماعية وأزمنتهم وأمكنتهم.

ولكي نتأكّد من هذا المعنى نستطيع أن نطرح هذا السؤال على أي إنسان (هل تعتبر أنَّ

السلوك الفلاني سلوكاً إنسانياً أم سلوكاً حيوانياً) مثلاً (قتل اليتامى والعجزة والمستضعفين للتلهّي والتشهّي) مثل هذا السلوك يعدُّ سلوكاً وحشياً من قبل أي إنسان بلا ريب، والقرآن الكريم أحياناً يعيد الإنسان إلى تأمّله الوجداني وقناعته الفطرية ﴿أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّباتُ﴾[1] ويترك أمر تعيين الطيبات للإنسان ﴿إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَواحِشَ﴾[2] ويترك أمر تعيين الفواحش أيضاً ويعتبر الخروج عن الحالة الإنسانية (فسقاً) وانحرافاً عن الطبيعة ﴿نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾[3].

وهكذا ننتهي إلى هذه الحقيقة وهي:

أنَّ الأديان تؤمن بالفطرة الإنسانية، وأنَّ الفطرة تقرّر كون العدالة مطلوباً مطلقاً وكون السلام مطلوباً إذا شكّل مصداقاً من مصاديق العدالة وتجلّياً لها، ومن هنا كان التأكيد الدائم على (السلام العادل) تأكيداً إنسانياً صحيحاً.

السلام العالمي والموقف منه:

قلنا لا ريب في كون الأمان مطلباً إنسانياً فطرياً يستمدُّ جذوره من أهم غريزة وجدت في فطرة الإنسان، وهي غريزة (حب الذات). وهذه الغريزة تعمل مع باقي الغرائز بشكل متناسق لتحقيق سير إنساني متوازن نحو الأهداف التكاملية العليا للإنسان... فلا يكفي وجود الدوافع الغريزية لتأمين المسير المتوازن وإنَّما يجب تأمين جو طبيعي للذات الفردية وللذات النوعية كي تدفعها تلك الدوافع نحو أغراضها المنشودة.

وتأكيداً من الفطرة نفسها على توفير الجوّ الآمن، نجد العناية الإلهية قد غرست فيها بديهيات الحكمة، والميول نحو العدل، والنفور من الظلم والاعتداء، بل ومنحتها القدرة على تعيين الكثير من مصاديق العدل والظلم، ممّا يمهّد لها السبيل للاتصال بالخالق العظيم وتقديم معاني الولاء له، وحينئذ تنفتح لها آفاق الوحي، وتكتشف بذلك الاطروحة السماوية

---

١. المائدة: ٥.

٢. الأعراف: ٣٣.

٣. الحشر: ١٩.

الرحيمة التي تعطيها المخطط الكامل للمسيرة، وتضمن لها كل ما يوصلها إلى أهدافها.

فالامن إذن حاجة إنسانية دائمة لا تغيّرها الظروف، وليس ظاهرة عرضية حتى يقال، بأنّها معلولة لوضع اجتماعي معين إذا ما تبدّل تبدلت هذه الظاهرة معه. ومن هنا فمن الطبيعي أن نتصوّر الحاجة إلى نظام شامل يتكفّل حماية الأمن الفردي والاجتماعي على مدى مسيرة الإنسان الطويلة.

ولا يمكننا أن نتصوّر حدوداً لمسألة حماية السلام والأمن إلَّا في إطار مسألة التكامل الإنساني ذاتها، بعد أن ندرك أنَّ الفطرة هي معيار الحقوق الإنسانية كلها بشكل إجمالي. وأنّها هي التي فرضت حماية الأمن الإنساني لتحقيق الهدف الكبير. وحينئذ لن يقبل الأمن تحديداً إلّا إذا خرج عن وظيفته الحياتية، وعاد عنصراً ضد الأمن نفسه، فلا معنى إذن لضمانه.

وإلاّ فكيف نتصوّر الفطرة التي أعلنت الحاجة إلى الأمن، وهي تسمح للفرد بالقضاء على أمن نفسه هو، أو أمن الآخرين، وبالتالي على أمن المسيرة الإنسانية كلها دون أن تحدّده بما يردعه عن فعلته، حتى ولو كان ذلك بتهديد أمنه؟

الحوار بين الإسلام والمسيحية الموانع والحلول[1]

إذا كان السيد المسيح العظيم جاء هذه الأرض الطاهرة ليقدّسها ويربطها بالله العظيم، وإذا كانت جحافل الظامئين عبر التاريخ جاءت عيون هذه الأرض الطاهرة فارتوت منها، وراحت تسقي من نميرها كل الظامئين الآخرين، وتغذّي كل أولئك الذين يتضوّرون جوعاً للمعرفة والحقيقة، وإذا كانت الصفات التي تحلّى بها هذا الشعب العظيم تتألّق في سماء عالمنا اليوم، وإذا كانت المقاومة اليوم تتجلّى قدرة حقيقية تبهر الأنظار؛ فحقيق على جميع الظامئين وجميع العاشقين في أيّ مكان حلّوا أن يحجوا إلى هذه الأرض وأن يعيشوا مع حاضرها... مع مقاومتها، وحينئذ ليس غريباً أن يكون بينكم هذا الرجل الصغير ليعيش أروع أيام حياته، أنا أعتقد أنّ الكثير من الجوانب التي يتوفّر عليها الحوار بين أتباع الديانات الإبراهيمية التوحيدية بقي مجهولا تحت أطمار من النظريات الضيقة والتعصب وادعاء احتكار الحقيقة

١. حديث ارتجالي في جامعة الحكمة المسيحية بلبنان، بتاريخ ١٩٩٧/٦/٣.

ومنعها عن الآخرين، ممّا أفقد البشرية ـ وأؤكد أفقد البشرية ـ الكثير من العطاء الذي لو أثمر لغذّى طريق الأجيال.

هدف الأنبياء

الإسلام ينظر للإنسان خليفة الله، والإسلام ينظر للدين عطية إلهية منطلقة من منطلق اللطف الإلهي بالبشرية، أليس الله خالق الإنسانية؟!إنّه الأعلم بخبايا النفس، وإنّه الأعلم بما يصلح هذا الإنسان ويقوده إلى هدف خلقته، وهذه نقطة أركّز عليها.

يخطئ من يتصوّر أنّ الله كان بحاجة لشيء، فالله غني مطلق، لطفه اقتضى أن يوجد هذا الإنسان ليسير إلى الكمال، وكمال الإنسان قربه من الله، الدين إذاً هدية، والمسيرة الدينية واحدة، الأسس واحدة، هذه حقيقة قرآنية أصيلة، الأنبياء جميعاً إنّما جاؤوا ليحققوا هدفين وفق منطق القرآن:

الهدف الأوّل: تعبيد الحياة لله وتعميق معالم الشخصية الفردية الاجتماعية والدينية.

والهدف الثاني: هو الصراع ضد مظاهر الطاغوت والطغيان، ومظاهر الطاغوت تعني كل فسوق عن المسيرة الفطرية الصافية، كل نبو عن المسيرة الإنسانية الحقيقية. يقول القرآن الكريم: ﴿وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَّ وَ اجْتَنِبُوا الطّاغُوتَ﴾[1] هل ترون نبياً حاد عن هذا الهدف؟ إذا كان الأمر كذلك فكل ما جاء به الأنبياء عطاء على هذا الطريق، وإذا كانت هذه هي الحقيقة فكل تقارب بين أتباع الأديان سوف يثري الفكر الإنساني، ويمنح المسيرة الإنسانية قدرة وثباتاً على الخط وتسمّراً للأحداق في الهدف.

القاعدة القرآنية للتقارب

لا أريد أن اتحدث عن تاريخ العلاقة بين الإسلام والمسيحية، والكثير منكم أعلم مني في هذا المجال، ولا أريد أن أتحدث عن الاحترام الخاص الذي يقيمه القرآن لتعاليم الأنبياء، وبالأخص تعاليم السيد المسيح، وعندنا هنا علماء يعلمون أنّ الكثير من النصوص

١. النحل: ٣٦.

الإسلامية تستقي بالنص من تعاليم السيد المسيح، تستقي بالنص لتقول لأتباعها أنّ هذه التعاليم هي تعاليم سماوية، وأنّ الإسلام جاء ليعمّق هذه التعاليم، ويا حبذا لو نهض المفكرون لاستخراج هذه النصوص لندرك جميعاً عمق تأثير تلك التعاليم التي جاءت من منبع واحد في ثقافتنا الإسلامية.

إذاً لاأريد أن استعرض، وإنّما أذكر لاستنتج، أيضاً، أريد أن أنسى الماضي الطويل لحالات التداول في الصراع بين المسلمين كدول والمسيحيين كدول، هناك تاريخ طويل من الصراع تارة تتقدّم فيه القوة الإسلامية إلى قلب العالم المسيحي، وأخرى تتقدّم القوة المسيحية إلى قلب العالم الإسلامي، وتزهق نفوس ونفوس وتمحى حضارات وحضارات ـ مع الأسف الشديد ـ باسم الإسلام وباسم المسيحية، وكم كان حرياً بنا أن نجلس جميعناو نتحاور وفق القاعدة القرآنية الكبرى: ﴿تَعالَوْا إِلىٰ كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلاّٰ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَّ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِّ﴾[1].

إذاً أعبر كل هذه الحوادث أعبر حوادث الأندلس، وأعبر الحروب الصليبية، وحتى أنّي أعبر ـ أحياناً ـ الصراع على السواحل الأفريقية والجنوب آسيوية لأصل إلى واقعنا الحاضر، وأعبر كل الكتابات التي ـ مع الأسف ـ انطلقت من منطلق تعصب أو من منطلق حقد، ولا أفرّق فيها بين الكتابات المسيحية والإسلامية، فكل من ينطلقون خلاف الحقيقة مدانون، وكل من يكتبون من منطلق الحقد والتعصب مرفوضون، أمّا المقبولون فقط فهم الذين ينطلقون من منطلقات الحقيقة وخدمة القضية الإنسانية.

نقاط الضعف في مسيرة الحوار

الحوار بين الإسلام والمسيحية ليس قديماً، وإن كان التماس قديماً، ولكن الحوار بشكله الحاضر يكاد يكون مستحدثاً، إلاّ أنّ أكثر محاولات الحوار قد ابتليت بنقاط ضعف كثيرة، واسمحوا لي أن أذكر بعض النقاط الأساسية:

الأولى: إنّ الحوار ركّز على العنصر العقائدي المجرّد، على الحوار اللاهوتي فقط، حتى

١. آل عمران: ٦٤.

دون أن يدرك مدى أثر التوصّل إلى قناعة في ذلك الجانب على الحياة العملية، ومن الطبيعي أن تبقى الاستغلالات قوية لدى الجانبين. نسيان الحديث عن الجوانب الفكرية أو الجوانب الايديولوجية المبنية على تلك الأسس والأصول المشتركة، نسيان الحديث عن القيم الأخلاقية التي يؤمن بها الطرفان، نسيان الحديث عن القيم الاجتماعية التي يؤمن بها الطرفان أفشل كل محاولات الحوار.

الثانية: إنّ كل فريق كان يدخل ساحة الحوار وكأنّه يدخل ساحة معركة ليحسم الموقف لنفسه، يقول للآخر أنت على باطل وأنا على حق، ويجب أن يحذف الباطل ويحق الحق وأنا الحق، إذا كانت هذه الروح اللاموضوعية هي المحور فلن نتوقع نتيجة. اسمحوا لي أن أنقل لكم آية قرآنية تقول لرسول الله، لمحمدﷺ وهو المؤمن برسالته تمام الإيمان، تقول له يجب أن تدخل إلى الحوار مع الآخرين بروح حذف المسبقات الذهنية كلها، تدخل بهذه الروح وتقول لمحاوريك ﴿وَ إِنّٰا أَوْ إِيّٰاكُمْ لَعَلىٰ هُدىً أَوْ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ﴾[1] قد تكون أنت على الحق وأنا على الباطل، والعكس بالعكس، وقد يحمل كلٌّ منا جزءاً من الحقيقة فإذا تكاملنا تكاملت الحقيقة.

الثالثة: هي أنّ كل إنسان يريد أن يتحاور يطلب من الآخر أن يعترف به أوّلا، المسلم يقول للمسيحى اعترف بي أوّلا حتى أحاورك، والمسيحي يقول للمسلم اعترف بي أوّلا حتى أحاورك، هناك بعض الموانع، ولابدَّ من التفاهم على الحدّ الأدنى من الاعتراف بالآخر،وربّما اكتفينابأن يحترم بعضنا البعض الآخر. وحينئذ لايبقى المسلم سجين ذاته ولا يبقى المسيحي سجين نصوصه، ويكون الحوار منتجاً.

الرابعة: إنّ الحوار كان يجري بين شخصين أو بين طرفين كلٍّ منهما يشكُّ بالآخر، يدخل المسلم إلى الحوار ويقول للمسيحي أنت تحاورني لتحقق أهدافاً سياسية، ويدخل المسيحي إلى الحوار ويقول للمسلم أنت تحاورني لتحقق أهدافاً سياسية أخرى، وفي إطار الشك لايمكن للحوار أن يثمر.

---

١. سبأ: ٢٤.

الخامسة: هي أنّ الحوار كان يجري بشكل عفوي، لاتنظّمه مؤسسة، ولايبدأ الآخرون من حيث انتهى الأوّلون، يجري بشكل متقطّع متجزئ لايعبر عن مسيرة، ولايستفيد من السوابق، على الأقل أنا أشهد أمامكم من الجانب الإسلامي.

النقطة الأخيرة: التي أود الإشارة إليها، أنّ كلا الجانبين كان يفتقد المرجعية الرئيسية في الحوار، لنفترض أنني أقنعتك أو أنّك أقنعتني، أو أنّنا اتفقنا على خطة، فمن الذي يقبل بهذه الخطة؟ ألم يكن الأحرى أن تكون هناك مرجعية دينية تتصدى نيابة عن هذا الجانب، وأخرى عن ذاك الجانب حتى إذا ما اتفقنا على شيء عاد قاعدة للجميع!!

هذه مجموعة نقاط، وهناك نقاط أخرى لم أتعرّض لها ولكنها تنفعنا كثيراً عندما نحاول أن ندخل مرحلة جديدة من مراحل الحوار. أعتقد أنّه من الطبيعي أن تتولى المرجعيات الدينية تنسيق مواقفها في كل طرف، وأن تتولى هذه المرجعيات سحب رواسبها النفسية والتاريخية والقاءها جانباً، قد لانستطيع أن نتحرّر من هذه الرواسب تماماً فلنتخلَّ عنها على الأقل في لحظات الحوار، لنصل إلى نتيجة.

وهنا أريد أن أقول إنني أفضّل أن ينتقل الحوار من الحوار الكلامي اللاهوتي المحض إلى الحوار الفكري العلمي، وما أكثر القضايا التي يمكننا أن ندرسها فكرياً؛ أليست مسألة صراع الحضارات مسألة تستحق أن نفكّر فيها معاً ونتحاور؟! هل قُدّر للحضارات أن تتصارع؟ هل قدرنا جميعاً أن نعيش الحرب، أمّا السلام فيجب أن لانحلم به؟ هل هناك مجال لمساحات مشتركة في التعامل الحضاري؟ هل علينا أن نتّبع «هانتينغتون» مثلا؟ أم نتّبع نظريات «بريان» وأمثاله، أم أنّ هناك مجالا قوياً للتعاون بين أتباع الأديان؟

مساحات مشتركة للحوار

أ. حقوق الإنسان

حقوق الإنسان ـ مثلا ـ مسألة ضخمة يمكننا أن نتعاون وندرسها بقوة، هل صحيح ما يقال من أنّ الدين يقف أمام حقوق الإنسان؟ أنا أعتقد، وأنطلق في هذا من منطلق إسلامي مسيحي، لأنّي أُؤمن بأنّ الدين وحده يؤمن بشيء اسمه الفطرة، ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ

النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[١] أؤمن بأنّ الفطرة تعني أنّ التركيبة الإنسانية صاغها الله لتسير بشكل طبيعي نحو المحبة والخير، أرأيتم هذا النص الذي قرأه علينا رئيس الجامعة، لو أنّك حملت كل معاني العلم والمعرفة الإيمان وفقدت المحبة فإنّك لاتساوي شيئاً. الفطرة هي منبع المحبة، الفطرة هي مجموعة النوازع والطاقات التي يملكها الإنسان تقوده نحو كماله، إذا جردنا الإنسان من فطرته جردناه من إنسانيته، ما الفرق بين الإنسان والخشب، الخشب تصنعه باباً أو تحرقه لم تخالف فيه فطرته، أما الإنسان إذا سلك سلوكاً فإنّه يقال هذا السلوك سلوك وحشي لا إنساني. ما الذي يميز بين السلوك الإنساني واللاإنساني؟ أليس ما يشير إليه الوجدان؟ والوجدان جزء من الفطرة. على أساس الفطرة يقوم نظام الحقوق، بل على أساسها يقوم نظام الأخلاق، ويقوم نظام المعرفة الإنسانية.

عندما يقول الفلاسفة العقلانيون إنّ الإنسان ينطلق من سجن ذاته الخارج وفق البديهيات العقلية، يشيرون إلى أنّ هناك أموراً غرست في فطرة الإنسان وهذه الأمور بديهية لا مناقشة فيها: الإيمان بالعلية، الإيمان باستحالة اجتماع النقيضين، الإيمان بوجود العالم الخارجي، هذه أمور فطرية نعبر من خلالها إلى العالم، وبدونها فنحن حبيسو ذاتنا، الفطرة هي مساحة جيدة نتحاور حولها ونتحدّث. أنا أؤمن بأنّ المعرفة مقسّمة، وأنّ الفكر الإنساني إذا دأب وفقه الله تعالى إلى مساحات، لماذا لا أستفيد من مساحات فكرك ولاتسفيد من مساحاتي الفكرية؟ الإيمان بالقيم العائلية والقيم الإنسانية أليست أموراً من صميم الدين؟!

أنقل إليكم تجربة من «مؤتمر السكان والتنمية»، هذا المؤتمر الضخم الذي عقد في القاهرة، أعدّت له وثيقة مملوءة بتصوّرات مادية فردية محطمة لكل العلاقات الاجتماعية والعائلية، مملوءة بنصوص تخالف الوجدان الديني، تدعو إلى الإباحية الجنسية، بل تدعو لطرح مصطلحات لايعرفها القانون، هل سمع أحد القانونيين بما يسمى « Rights Sexual» الحقوق الجنسية؟ هذه الحقوق تطرحها هذه الوثيقة بقوة، وتؤكد أنّ الحقوق الجنسية تعني أنّ كل فرد له الحق في أيّ اتصال جنسي وليس لأي فرد آخر أن يشرف عليه

---

١. الروم: ٣٠.

مطلقاً، حتى الأب والأم والعائلة أوأنّ الاقترانات الأخرى، غير الاقتران بالزواج، مقدّسة كالزواج تصرح بذلك في تعاريفها. بل تدعو هذه الوثيقة لتغيير تعريف العائلة ـ كما ذكرت في مكان آخر العائلة: هذا الذي نعرفه في الأديان أب وأم وأولاد، وعلاقات قانونية، وحجر زاوية في البناء الاجتماعي، أليس كذلك؟! الوثيقة تدعو لتغيير تعريف العائلة وجعله (كل مجموعة يصرف عليها مال واحد)، هل تعلمون ماذا يعني هذا؟ يعني أنّك لو نظرت إلى مجموعة من الذين يتناولون المخدرات فى مكان واحد لأسميتهم عائلة، أو نظرت إلى مجموعة من الشواذ جنسياً ـ وأرجو المعذرة ـ لاسميتهم عائلة؛ ومعنى ذلك تحطيم كل الروابط العائلية، وإذا ماتت العائلة مات المجتمع، وإذا مات المجتمع ماتت كل القواعد الأساسية لإقامة النظام والدين.

هذه الوثيقة طرحت أمام العالم وناقشتها دول، كثيرون رفضوا أن يشاركوا، قلنا لماذا نرفض؟ ندخل الساحة ونبيّن رأينا، ودخلنا وأصرّت دول «النورديك» على الموافقة على هذه الوثيقة بقضها وقضيضها، وقلنا ديننا لايسمح، وتعاونّا مع الفاتيكان أروع تعاون، واستطعنا أن نغيّر أكثر نقاط الضعف في هذه الوثيقة من خلال هذا التعاون، وخرجت الوثيقة نظيفة إلى حد كبير، مع بقاء بعض نقاط الضعف أليس هذايشكّل مجالاً للتعاون؟ لم أقل للفاتيكان أنت على حق ولم يقل لي أنت على حق ولم أطلب منه أن يعترف بي تماماً، ولكنّنا قلنا نتعاون فيما اتفقنا عليه.

ب. القيادة والشورى

و هناك قضية، لاأظن أنّها تخفى عليكم، أنّها قضية العلاقة بين القيادة والشورى، أو الحكم الفردي والحكم المجلسي، أليست هذه القضية موجودة بين الكنائس؟ هناك من يؤمن بولاية البابا ـ مثلا ـ وهناك من يؤمن بولاية شورى عامة لاتخصُّ فرداً، هل هذه قضية مسيحية فقط؟ أنا أقول لكم إنّها قضية إسلامية، حتى أنّنا عندما انتصرنا على ما يسمى بعرش الطاووس وكان عرش الدم والحديد، واجهنا هذه المشكلة، هل الإمام حرٌّ فيما يحكم وله الولاية الكاملة ـ أسميناها ولاية الفقيه ـ وإذا كان الأمر كذلك فما دور الشعب؟ أم نترك الأمر للشعب كيف ينتخب وأنّى ينتخب وأي قانون يريد؟ وهذا لاينسجم مع التعليمات

الإسلامية والنظام الإسلامي الذي اختاره الشعب نفسه. كان هناك حوار مطول، وانتهينا إلى هذه الصيغ، صيغ توجيهات المرشد وقيادة الولي الفقيه للساحة، وكذلك تدخل الشعب بمجالسه البرلمانية وانتخاباته للرئاسة وما إلى ذلك ـ بكل قوة ـ فإذا وصل الحكم إلى طريق مسدود تدخّلت ولاية القائد لتفتح هذا الطريق المسدود. وكان هذا التعاون الرائع، وأقمنا نظاماً أسميناه الشورى في ظلّ ولاية الفقيه، أنّها قضية يمكننا النقاش حولها.

ج. الهجوم المادي الغربي

لقد زرت بطريرك الكنيسة الارثوذكسية الروسية، وإذا به يقول لي: نحن في روسيا، بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، نتعرَّض لهجوم ثقافي مادي غربي، وأنتم تعرَّضتم لهذا الهجوم، ولكم تجارب ضخمة في هذا المجال، لماذا لانتعاون ونستفيد من تجاربكم وتستفيدون منا لكي نواجه الهجوم المادي،ألسنا جميعاً ضد الإلحاد والمادية؟ نعم كلنا نرفض الاتجاهات المادية لأنّنا نؤمن بالله جميعاً. هذا مجال نتعاون عليه كثيراً.

الحوار مع كل الأديان

لا أريد أن أطيل كثيراً في هذا المجال، وإنّما أريد أن أفسح مجالا للأسئلة عسى أن أقف على شيء ممّا يعتلج في بعض الصدور من أسئلة، وربما استطعت أن أقدم توضيحات لها، ولكني أريد أن أقول إنّنا بدأنا وأصررنا على أن نفتح باب الحوار مع كل الأديان: المسيحية واليهودية والزرداشتية، المجوس نحن نعتبرهم أهل كتاب وبالتالي فتحنا معهم حواراً، بل حتى الأديان غير الإلهية، مثل البوذية والهندوسية دخلنا معها في حوار؛ لأنّنا نعتقد أنّ لها جذوراً إلهية؛ بل الحوار مع الغرب بدأناه حواراً فكرياً، وتوصّلنا فيه لنتائج جيدة. أنا أفتخر بأنّي التقيت بزعماء الكنيسة الكاثوليكية والارثوذكسية،المجلس العالمي للكنائس، والكنيسة الانجيلية والايرلندية،زعيم الكنيسة في كرواتيا، والكنيسة الأميركية، وغيرهم كثيرون. ولنا معهم حوارات مختلفة وندوات متصلة ومتتابعة.

و أفتخر بأنّي استجبت لدعوة من سيادة الكاثيلوكوس آرام الأول، هذا الرجل العامل لصالح الحوار، والذي زارنا في ايران، وافتخرنا بزيارته، ورأى الإخوة الأرمن هناك وهم

يعيشون ككل فرد في شعبنا، يضحّون كما نضحّي، يشعرون بكل ما نشعر، ويتمتّعون بكل ما نتمتّع به، كجزء لايتجزأ من كل هذا الوجود. ولي كل الفخر أن ألتقي هنا بالقادة الروحيين من شتّى الكنائس ومن علماء المسلمين، وأتعرّف على وجوه طيّبة.

و قبل أن أختم كلمتي، أودّ أن أخصَّ بالشكر هذه الجامعة وزعيمها المحقق الكبير، وأساتذتها وكل المسؤولين فيها، لأنّها قدمت خدمة جليّة للفكر، وأسأل الله تعالى أن يجعلنا جميعاً على طريق الحق. والآن أنا مستعد للإجابة على الأسئلة، إذا سمحتم.

أسئلة ومداخلات المطران بسترس، مطران بعلبك

عندما سمعنا سماحتكم في هذا الفكر، شعرنا بأنّكم تعبرون عن فكرنا أيضاً، ونشكر لكم هذا الانفتاح، ونشكر لكم هذا التقارب، ونتمنّى أن يكون الجميع من مسلمين ومسيحيين على هذا القدر من الانفتاح والتفاعل. كنت في لجنة الحوار الإسلامي المسيحي رئيساً للجنة المكلّفة من قبل البطاركة الأساقفة في لبنان وبدأنا نوعاً من التعاون بين المسيحيين والمسلمين ونهيّئ لمؤتمر مسيحي إسلامي ننشر فيه هذا الفكر، وسنبدأ إن شاء الله السنة القادمة بمؤتمر نوجز فيه ما توصَّل إليه الفكر المسيحي، وبنوع خاص الفكر الكاثوليكي، من بعد المجمع الفاتيكاني الثاني؛ وسررت أن أرى في محاضرتكم القيّمة موجزاً ومطابقة لكل ما نعدُّ له، ونتمنّى أن يتجاوب معنا الأصدقاء المسلمون لكي ينجح هذا المؤتمر. اللبنانيون بأجمعهم يريدون الحوار يريدون التعاون ولكن هناك الشعب، الشعب لايزال عائشاً ـ كما قلتم ـ في رواسب قديمة. أريد أن أطرح ـ بكل بساطة ـ هل تطور الفقه الإسلامي إلى ما يفسح في المجال لهذا التعاون، مثلا حقوق الإنسان أصبحت أمراً معترفاً به في جميع الدول ومنها الحرية الدينية، وقد تكلّمتم أنّ الأرمن في ايران يعيشون هذه الحرية، فهل يسمح لهم بأن يكون لهم مدارس على غرار المدارس الخاصة، لا أعرف ما هي القوانين التي تشرّع المدارس في ايران، ولكن في لبنان توجد حرية المدارس فهناك المدارس الرسمية والمدارس الخاصة، وكل الطوائف اللبنانية مسيحية وإسلامية لها الحق بأن يكون لها مدارس خاصة، أريد فقط أن أستوضح من سماحتكم حول موضوع المدارس في ايران.

(الجواب) تطور الفقه نحو تعاون مشترك

شكراً لسيادتكم على هذا التعبير وأجدني ممتناً لهذه الكلمات الطيبة، أتصوّر أنّ هناك سؤالا سبق مسألة المدارس في ايران وهو عن تطور الفقه. أنا لا استطيع أن أقول إنّ الفقه الإسلامي استطاع أن يحقق أوج عليائه، فهو أيضاً يقطع مرحلة بعد مرحلة، ولكني أجد الفقهاء نهضة كبرى، وأجد انفتاحاً على القضايا العالمية، وخصوصاً بعد نجاح الثورة الإسلامية وخصوصاً بعد أن وجهوا بطلب عظيم من النظام الإسلامي ليقول الفقه كلمته في مختلف النظريات التي يجب أن تطرح حتى تحل المشكلات؛ وأرى فيه تحولا كبيراً.

أمّا بالنسبة لحقوق الإنسان، فأعتقد أنّ مسألة حقوق الإنسان في عالمنا الثالث، وحتى في عالمنا الإسلامي، ما زالت تحبو في مدارجها النظرية، وما زلنا بحاجة إلى ترجمة حقوق الإنسان في الإسلام، على لائحة قدّمت إلى مؤتمر القمة الإسلامي فوافق عليها بدوره، وكان قد كتب في آخرها عبارة تقول: «تعمل الدول الأعضاء على تطبيق هذه الحقوق في واقعها الداخلي»، فقالت بعض الدول يجب أن نضيف عبارة «إذا وافقت قوانينها الداخلية». قلت له: إنّ هذا يعني أنّكم تقولون للإسلام أو للدين، وأنتم ترون أن هذه حقوق إسلامية، يمكنك أن تدخل بيتى إذا طابق قدك أو طولك طول الباب الذي نملكه، فإذا كنت أطول من هذا الباب عليك أن تقطع رأسك أو تقصّ رجليك.

الإنسان له حقوق بحدودها المعقولة، ولا أوافق على الحق المطلق فى كثير من هذه الحقوق، لأنّ المطلق يتعارض مع حقوق الآخرين في كثير من الأحيان، إذا آمنا بأنّ هذا الحق هو من الحقوق المعترف بها شرعاً؛ فإنّ علينا أن نطبّقه حتى لو خالف قوانيننا الداخلية، علينا أن نغيّر هذه القوانين بدل أن نغير هذا الحق الذي آمنا بأنّه حق.

مدارس الأقليات الدينية في الجمهورية الإسلامية

أمّا المدارس في ايران، فإنّ للإخوة الأرمن مدارسهم الخاصة، كما لكل الأقليات المسيحية وغير المسيحية ـ اليهودية ـ مدارسهم الخاصة، ويرأسها مدراء أرمن. كما أنّ لهم نائبين حرّين في البرلمان الإسلامي، يتحدثان بقوة أمامهما الميكرفون المفتوح للشعب كله، لأنّ البرلمان مفتوح للشعب،هناك إذاعة خاصة يستمع الشعب من خلالها لكل المناقشات.

كما أنّ للأقليات خمسة نواب، وأحد علماء الارمن معنا هنا، الأستاذ سركسيان، وهو ممّن نحب وربما يشهد أروع التحام بين المسيحية والإسلام، فإنّ الأطروحة التي قدّمها هذا المسيحي المؤمن تتحدث عن ثورة أبي عبدالله الحسين عليه السلام بأسلوب جميل، نطلب من حضرته أن يطبع هذه الأطروحة لنستفيد منها.

و ما أكثر مؤلفات لبنان حول أئمة أهل البيت عليهم السلام بالأمس ذكرنا جورج جرداق وملحمته الخالدة «علي صوت العدالة الإنسانية»، تغنينا بهاونحن شباب، ومؤلفات سليمان كتاني والآخرين، والملاحم الشعرية للشعراء أمثال: بولس سلامة ونصري سلهب... كلهم عظماء، تسري كلماتهم في عروقنا كالعافية، تغنينا وترسم لنا ملحمة الوحدة.

على أي حال، أمامكم هنا أقول: مائتا ألف أرمني لهم نائبان في المجلس،وهذا امتيازاً، يعني أن لهم أكبر بالنسبة لأفراد الشعب الآخرين، فلكل مائة وخمسين ألف من الشعب نائب. ولهم الحرية الكاملة فيما يقولون، كذلك لهم مدارسهم التي تدرس باللغة الأرمنية، وقد زارنا ـ كما قلت ـ الزعيم الروحي كاثوليكوس الارمن آرام الأوّل، وزار هذه المدارس، وزار الكنائس فاسألوه وسوف يحدّثكم.

الحرية والكرامة

الدكتور بطرس ديب، رئيس الجامعة اللبنانية السابق، (سفير ومثقف ومورّخ)

«لايستحين أحد إذا كان لا يعلم الشيء أن يتعلمه»[1]، كلمة من نهج البلاغه الخالد، كنت أذكرها وأتأملها وأنا أنتشي ممّا كنت أسمع.

تحدّثتهم يا سيدى عن التقارب، والإنسان أخ الإنسان، والتقارب هو القاعدة، والعكس هو الشواذ غير المقبول، فمتى سمى الفكر إلى تلك الأعالى تتضاءل الفروع الصغيرة، وتصغر في عين العظيم العظائم.

تحدّثتم عن حروب صليبية وعففتم عن التوقّف عندها وحسناً فعلتم كما في سائر ما تقولون، وإذا كانت الحروب إجمالا وسيلة سخيفة في التعامل بين البشر فيما تفترضه من

١. نهج البلاغة، ج٤، ص١٨.

فرض الحل بالقوة لا بالفعل والعدل، فربما كانت الحروب الدينية من أسخف الحروب؛ لأنّ الذين يستميتون في القتال وبكل شراسة لايعرفون لماذا يقتلون ويقاتلون، الحروب الصليبية لها ربما بعض الأهداف الدينية، ولها الأهداف السياسية والاقتصادية إلى ما هنالك، وأقول: الحمدلله أنّ هنالك أهدافاً غير دينية؛ لأنّها تخفّف من فظاعة الجريمة.

كما تكلمتم سيدي عن حقوق الإنسان، حقوق الإنسان الحرية والمساواة المشتقتان من كرامة الإنسان، والحرية تتصدر الدساتير عادة وتسمّى بحق طبيعي للإنسان، ربما كانت أكثر من ذلك، أنّها جزء لايتجزأ من إنسانية الإنسان بالذات، لأنّ من خصائص الإنسان أن يكون مسؤولا، ولا مسؤولية حيث لاحرية. يا سيدي ندّدتم بما قامت به الدول في الماضي وقد يقوم بها بعضها حالياً، وفي تلك الأمور بذور شر علينا أن نقاومها، القضية الكبرى هي عدم انتقال تلك الشرور من صعيد الدولة إلى صعيد الشعوب، وتلك هي الأمانة الكبرى التي بين أيديكم وأيدى أمثالكم. أرجو أن تقولوا لنا كلمة فيها.

الجواب: ليعذرنا إخوتنا، أننّا إذا ذكر إمامنا بطل الإنسانية (علي) ننتشي، وإذا انتشينا غنينا، وإذا غنينا يطيب الحفل (علي) يقول لأحد ولاته ـ لمحافظ من محافظيه ـ وهو مالك الأشتر الذي أرسله إلى مصر، وسجّل له أروع وثيقة سياسية إدارية، أرجو من إخواني أن يطالعوها في نهج البلاغة، رسالته إلى مالك الأشتر تقول: «الناس صنفان إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق» ولا ثالث لذلك أخ في الدين وحتى إذا لم يكن متديناً فيكفي أنّه إنسان، والإنسان له حقّه وكرامته، لعلي الكثير الكثير من الحكم يعزّ عليّ أن لا أذكر سطراً واحداً من مناجاته مع ربّه حيث يقول: «إلهي أنت كما أحب فاجعلني كما تحب»[١].

أنا أعتقد أنّ الأديان كلها تتفق على تعريف للحرية، وتعريف للكرامة، وتعريف للحياة، وهذه أسس الحقوق الإنسانية: الحرية، الكرامة، الحياة ولا حياة بلاحرية وكرامة، ولا كرامة بلاحياة وحرية، ولا حرية بلاحياة وكرامة، هذا التعريف عن الكرامة يقول: إنّ الإنسان بما هو إنسان كريم عند الله، وفي القرآن ﴿وَ لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾[٢] هذه كرامة ذاتية من منبع

١. الخصال للصدوق، ٤٢.

٢. الإسراء: ٧٠.

الكرامة وهو الله، الله منبع القداسة وهو تقديس للإنسان كإنسان، هذه كرامة نسمّيها الكرامة الطبيعية، كرامة طبيعية ذكرت في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، (كرامة الإنسان) أعتقد أنّ الأديان تقول بكرامة إضافية، هذه الكرامة غير موجودة في الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ومن نواقصه، كما أنّ هناك نواقص أخرى وإن كان هذا الإعلان يمثّل خطوة رائعة على طريق إحقاق حقوق الإنسان.

أنا أقدر لهذا الإعلان دوره التاريخي، ولكني أعتبره ناقصاً، وأعتبر الدين أكثر تقدّماً منه، وعندما أقول الدين أقصد كل دين، وفي طليعة هذه الأديان الإسلام والمسيحية. الدين يؤمن بأنّ هناك كرامة فوق طبيعية نسمّيها الكرامة المكتسبة، هذه الكرامة يكتسبها الفرد إذا كان عاملا في خدمة الإنسانية، الإنسان المتّقي والإنسان الصالح، الصلاح والتقوى تعطي الإنسان كرامة مكررة، كرامة مكتسبة، هي فوق الكرامة الطبيعية، ولاريب أنّ الكثير من الأناس العاديين لهم كرامة، ولكن هل تضعون إلى جانبهم الأنبياء؟ إنّهم أكرم من الأناس العاديين؛ لأنّهم أناس قادوا الصلاح في التاريخ وسجّلوا تغيير الإنسانية.

هناك آية قرآنية تقول:﴿يا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾[1] هنا التقوى تدخل كعنصر جديد للكرامة، وفي التقوى يندرج الجهاد ﴿فَضَّلَ اللهُ الْمُجاهِدِينَ عَلَى الْقاعِدِينَ﴾[2] كذلك يندرج في التقوى العلم: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ﴾[3] وهناك عناصر كثيرة تكمل هيكل التقوى وتعطينا كرامة معقولة، ثمّ إنّ الحرية والحياة والكرامة يجب أن تكون مقيدة بالعقل: الحياة المعقولة، الكرامة المعقولة، الحرية المعقولة، أمّا إذا تحوّلت الحرية إلى تهديم للإنسانية باسم الحرية فنحن ضدها، أو إذا كانت الحياة ضد الحياة أي إذا كانت الحياة حياة «هولاكو» و«تيمور لنگ» فإنّ هذه الحياةهي ضد الحياة، وإذا كانت الكرامة تعني إهانة كرامة الآخرين فهذه الكرامة ضد الكرامة، إذاً الأديان تقيّد هذه القواعد الثلاث بما أسميه

---

١. الحجرات: ١٣.

٢. النساء: ٩٥.

٣. الزمر: ٩.

المعقول وسمّها أنت المنطقية، أو سمّها الإنسانية، أو سمها ما شئت، أريدها كرامة مكتسبة، وحياة في إطار الأخلاق، وحرية لصالح الحرية.

هل الدين إلاّ الحبّ

المطران الزغبى مداخلة:

يقولون: «نحن في معهد الحقوق» العدل سيد الأحكام، هذا صحيح إذا حمل العدل على أجنحة الحب، تكلّم آية الله العظيم عن المحبة، وتكلم مدير المعهد الأب الحبيب بولس عن المحبة والحب، وهذا ما شجّعني على أن أقول هذه الكلمة وأوجهها إلى أخي الكبير آية الله الضيف العظيم أهلاً وسهلاً بك.

أخي قبل أن أكون مسيحياً، وأنا بالطبيعة أخوك قبل أن تكون مسلماً، فكل منا ينتمي شاء أم أبى إلى ذينك الأبوين الأوّلين وإلى الخالق لا إله إلاّ هو، إنّ الانتماء الديني هو الذي طرأ على ذات الإنسان، وليست الذات هي الطارئة على الانتماء الديني، أنت أخي في الخلق والخالق وفي أبوينا الأوّلين، أنا أحبك لأجل من خلقني وخلقك، ولأجل اليدين اللتين جبلتاني وإيّاك من ذات التراب، على حد ما قال صاحب «المزامير» «يداك صنعتاني وجبلتاني»، أحبّك لأجل من شملني وشملك بذات الحب، كما أحب أخي شقيقي من أبي وأمي، لكنّي لا أحبك فقط لأجل الله الذي أحبني وأحبك، بل أحبك بذات الحب، حب الله الذي أبدعني أبدعك. أي أنّ حبي لك مشتق من الحب الذي غمرني به الخالق، ومن الحب الذي أحمله في قلبي، أنا لا أحبك بمعزل عن حبي لله كما لاأحبك بمعزل عن حب الله لك ولي، وإذا تقدمت وحدي إلى الله عابداً ومصلياً سألني كما سأل يوماً (قايين): «أين أخوك؟» وإذا شئت أن أقدم للهيكل قرباناً ولك عليّ شي بادرني المسيح بالقول اذهب أوّلا وصالح أخاك ثم قدّم قربانك، حب واحد ينبثق من الله ليشمل كليناير تفع إلى الله من قلب كل منا مروراً بالآخر، إن حبنا المتبادل لايدوم يوم يكون ثنائياً ويقتصر على كلينا، إنّ حبي لك وحبك لي إلى زوال ما لم ينبثقا من حب الله وينتهيا إليه، أنت وأنا نؤمن بالله الواحد فإذا اختلفنا في مفهوم هذه الوحدانية لا في جوهرها ـ والعياذ بالله ـ فأنا وأنت موحّدان، وقد ميّز

القرآن الكريم بين المسيحيين والمشركين فأنا وأنت موحّدان في ذات الحب، لأنّ الحب واحد سواء هبط من الله إلينا أو صعد إلى الله من كلينا، حب واحد دائري ينبثق من الله مصدر كل حب ومآله إليه عز وجل عبر حبي لك وحبك لي يا أخي.

الجواب: أنا لا كلام لي إلاّ أن أقول: هناك رواية عن أهل البيت عليهم السلام تقول: «وهل الدين إلاّ الحب».

الحرية بالمفهوم القرآني (إشكالية)

الدكتور شوقي ريا، أمين عام المنبر الحر

أحب أن أشكرك على هذه المرتكزات الفكرية التي نورتنا من خلالها نحو أسس جديدة للحوار الإسلامي ـ المسيحي ـ وأحب أن ألفت نظرك إلى مسألة تهم المسيحيين من الناحية الفقهية ومن ناحية التشريع الإسلامي، مع أنّني تلميذ صغير ولا زلت مستمعاً عبر التاريخ يرتبط ترابطاً تقريباً جزئياً، أو يجسّد الحضارات البيئية أو التاريخية أو العادات الاجتماعية، هذه الإشكالية الاجتهادية والفقهية هي مسألة الحوار المستمر من الناحية الاجتماعية. ثانياً: بالنسبة لي، وحسب دراستي للقرآن الكريم، أجد الحرية التي يخاف منها الكثير من المسلمين، أجدها حرية مطلقة في القرآن الكريم، بالمعنى اللاهوتي بالمعنى المسيحي، مثلا أعطيك آية صغيرة تعبّر عن الحرية المطلقة التي يعطيها الله من خلال القرآن الكريم للإنسان. في سورة الأنفال يقول: ﴿وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قالُوا سَمِعْنا وَ هُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾[1] السمع هنا يعني العقل، ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ * وَ لَوْ عَلِمَ اللهُ فِيهِمْ خَيْراً لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ﴾[2] هل هناك أروع من هكذا آية تعطي الإنسان الحرية المطلقة؟ ويقول أيضاً: ﴿فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَ مَنْ شاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[3] ﴿قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذا يُتْلىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقانِ سُجَّداً﴾[4].

---

١. الأنفال: ٢١.

٢. الأنفال: ٢٢ و ٢٣.

٣. الكهف: ٢٩.

٤. الإسراء: ١٠٧.

الذي أقوله هنا أنَّ الحرية بالمفهوم القرآني وبالنصّ القرآني حرية مطلقة، تعطي حقوقاً طبيعية وحقوقاً سياسية، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ * واحِدَةٍ﴾[1]، نرجع ونجد مشكلة عبر التاريخ الإسلامي أو التاريخ العربي بالأخص، أنّنا بدلاً من أن نتّبع النصّ بالمفهوم، نتّبع العادات الاجتماعية التاريخة ثم ننطلق منها لشرح الإسلام، لذلك أحببت أن ألفت نظركم لهذه النقطة الأساسية وأحب أن أقول لكم إنَّ مفهوم الحرية أنّه لا جبرية في الإسلام، الحرية مطلقة في القرآن الكريم.

الحرية من منظور الاجتهاد الإسلامي (إجابة)

شكراً للدكتور وحيّاه الله على هذه الروح المتوثبة، روح الشباب لدى الشيوخ، في الحقيقة أنّ الاجتهاد هو الطريقة المثلى لمعرفة موقف أيّ دين أو أيّ قانون من الوقائع المختلفة، لايمكننا أن نحذف الاجتهاد من أىّ دين سواء كان سماوياً أو غير سماوي، أو من أيّ قانون، الاجتهاد هو عملية إعمال نظر دقيق لمعرفة رؤية النصوص لهذه الواقعة أو هذه الحادثة الجديدة، وهو عنصر مرن في أىّ تشريع دينياً كان أو وضعياً، لكنّ الاجتهاد فيه خطر، هذا الخطر هو الذاتية، وهو ما أشرتم إليه، قد تنعكس الذاتيات الفردية والتركيبية النفسية على ذهن الإنسان المجتهد فتجعله يستنبط شيئاً ربما يخالف ما ترمي إليه النصوص، ولكن هل لدينا طريق لمعرفة الواقع غير الاجتهاد؟ الاجتهاد في القانون الوضعي أيضاً هناك مجتهدون للمعرفة، في النصوص القانونية؛ القاضي يجتهد لمعرفة موقف هذا النصّ القانوني من هذه الحادثة، الاجتهاد هو عنصر مرن قوي ويجب أن يلاحظ المجتهدون الذاتيات لئلا تترك أثرها، ومن هنا توجد دعوة للاجتهاد الجماعي، هناك دعوة لتكرر الاجتهاد حول النص،عندما يتكرر تحذف الذاتيات ويقرب المجتهدون إلى الواقع.

(برايان) الانكليزي في العام ١٩٤٧ ينشر في ال«Economsit»» يقول: «علينا نحن الغربيين أن نحذف عنصر الاجتهاد من العالم الإسلامي؛ لأنّ الاجتهاد يكرّس احتكار العلماء للساحة الثقافية فى العالم الإسلامي، فإذا أردنا أن نحدث انقلاباً على الوجود

١. اقتبست من عدّة آيات كالآية الأولى من سورة النساء.

الإسلامي علينا أن نحذف الاجتهاد»، وهذه حالة خطيرة جداً، الاجتهاد هي حالة صحية جيدة شريطة أن لاينفذ من خلالها التأثير البيئي والتأثير النفسي إلى النتيجة، وهناك شروط وضعها المجتهدون ودقّقوا فيها، أذكر أنّ أحد المجتهدين أراد أن يدرس قضية عندنا، في الفقه الإمامي قضية تسأل لو فرضنا أنّ هناك بئراً، ماؤها قليل لكنّ لها مادة تمدّ هذا الماء، وقع فيها حيوان ميت، فهل هذا الماء يتنجس؟ (هناك حكم الطهارة والنجاسة في الفقه)، وهل عليّ أن أنزح كل هذا الماء؟ المجتهد درس ووجد أنَّ هناك نوازع نفسية تقوده لأن يقول بطهارة هذا الماء، فأمر بإغلاق هذه البئر بكاملها، يعني قطع أمله من هذه البئر، ثم درس المسألة وتوصّل إلى نتيجة، يعني المجتهد يجب أن يعمل قواعده الفقهية، والاجتهاد هو عنصر مرونة للفقه.

هناك قضايا مستحدثة، وقضايا العقود المستجدة، عقود التأمين، قضية الاستنساخ البشري ينقلون خلية من جلد إنسان ويضيفونها للخلية الجنسية لبويضة جنسية، وحينئذ تنمو هذه البويضة طبق عملية تنقسم إلى قسمين شبيهين لبعضها، ثم تتطوّر إلى أربعة؛ لأنّ الخلية الجنسية تنقسم إلى اثنين وثلاثين ثم تتفرع، وهذه العملية مطروحة الآن على ساحة العلم وأثبتتها التجارب في«النعجة دوللي» فهل نسمح أو لانسمح؟ هل يؤدي ذلك إلى إنسان «كاتالوك» هل أنّ الإنسان الذي يريد أن ينمّي طفلا ينظر كاتلوك ويقول: أنا أريد أيتها الشركة إنساناً بهذا الشعر وبهذه العين وبهذه البشرة؟ هل نسمح بموت العلاقات العائلية من خلال عملية الاستنساخ أم لا؟ هذه تحتاج إلى اجتهاد، وأنا أقول لك بأنّ القضية لم تدرس جيداً، هناك من هاجمها بقوة، أنا شخصياً قد لا أجد لدي ما يبرر مهاجمتي لهذه العملية، فربما فتحت آفاقاً للعلم واستفدنا من نظريات الوراثة للقضاء على أمراض السرطان ومعرفة الجينات التي تحمل خللا وتؤثر في جيل تجعله جيلا مختلا، أنا أعتقد بأنّ العلم يجب أن يفتح ولكن نراقب هل يؤدّي بالتالي إلى ضرر اجتماعي أم لا؟ المهم المصلحة الاجتماعية والمصلحة الإنسانية، إذاً الاجتهاد له دوره في مختلف القضايا المستجدة. اريد أن أؤكد أنّ الاجتهاد حرٌ في الإسلام،و لذلك تختلف الآراء.

الفطرة في ظلّ المعايشة اليومية لأمور الحياة (سؤال)

الاباتی الدکتور بولس نعمان، مؤرخ ورئيس الرهبنة اللبنانية سابقاً

كلامك الليلة بالنسبة إلينا هو اكتشاف يكاد يوازي اكتشاف (كريستوفر كولومبس) لأمريكا، وقد قلتم كلاماً هو شبيه بكلام الرسول بولس، كلام رائع ساحر، لم أكن أنتظر أن أسمعه مطلقاً، ولكن أريد أن أسألكم سؤالا قلتم كلاماً رائعاً بالنسبة للفطرة الإنسانية، والفطرة الإنسانية كما فهمتها منكم الطبيعة الإنسانية أو العنصر الإنساني للإنسان، وهذا يرفعه الدين إلى مرتبة القداسة، من خلال خبرتكم فى ايران، أريد أن أعرف هل تدخُّل الدين في الأمور اليومية وفي الأمور العادية من شأنه أن يرفع هذه الفطرة أو بالعكس من ذلك أن يضرَّ بهذه الفطرة، وهذا الاختيار الذي شهدناه في قلبكم وعقلكم وصدركم كم يلزمه من السنين حتى ينحدر إلى الطبقات الشعبية عندنا في المسيحية وعندكم في الإسلام وشكراً.

الفطرة على ضوء المنهج القرآني (إجابة)

أشكركم كل الشكر، وأنا أحقر بكثير ممّا قلتم، ما زلت تلميذاً صغيراً يحبو ويحبو في مدارج الأنبياء، وأسأل الله أن يهبنا جميعاً عيوناً نافذة تستطيع أن تبصر جنانهم وتعيش آفاقهم، كلنا متطفلون على موائدهم، الأنبياء سادة البشرية، والرسل والأوصياء حملة رسالة الأنبياء.

بالنسبة لما تفضلتم أنطلق من منطلق إسلامي، ومن منطلق ديني عام أيضاً، وأعتقد أنّ كل التعاليم، شريطة أن يثبت أنّها تعاليم السماء، شريطة أن نثبت أنّ التعاليم التي جاءت بها الأديان هي تعاليم موحاة وليست من صياغة ذهن إنساني لا علاقة له بالوحي، شرط واحد عندي وهو أن تكون هذه التعاليم موحاة، ونحن نعتقد أنّ النبي ليس كالفيلسوف، تأتيه الفكرة فيطبخها مع وجدانه ويعطينا معجوناً أو تركيبة فيها من خارج الذهن وفيها احتمالات النفس، النبي حسب اعتقادنا هو أمين صادق يحمل كلمة الله ويوصلها: ﴿وَ ما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوىٰ * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحىٰ﴾[1] وفي آية أخرى:﴿وَ لَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ * لَأَخَذْنا

١. النجم: ٣ و ٤.

مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[١] يعني لقبضنا على يده بقوة وقطعنا حياته، النبي مؤتمن فإذا ثبت لنا أنّ الحكم هو حكم إلهي فأنا أعتقد أنّ كل الدين منسجم مع كل الفطرة لأنّهما ينطلقان من منبع واحد ومن خالق واحد ومن حقيقة واحدة، الآية الكريمة تقول: ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[٢]، أعتقد هذا بقوة، وأعتقد أنّ الدين يعطي الإطار ولايتدخَّل في كثير من الجزئيات، يعني يعطي الإطار العام.

يعطي القاعدة العامة في العمل وفي السلوك، القاعدة يجب أن تدخل في الساحة الحياتية، الدين يجب أن يوجّه مجمل الحياة الإنسانية، وتبقى المصاديق حرّة ينتخبها الإنسان، ﴿إِمَّا شَاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً﴾[٣] ـ كما في التعبير القرآني ـ ومن هنا أعود لكلمة شيخنا عن الحب، أرى أنّ الإنسان المؤمن يعيش الحب كله، يحب ذاته، الدين يقول له ليس لك أن تؤذي حتى ذاتك، عندنا رواية عن الإمام الصادقعليه السلام تقول: «إنّ الله فوض إلى المؤمن أموره كلها إلاّ أن يذل نفسه»[٤] ليس له أن يذل نفسه، هو يحب نفسه، وهو يحب مجتمعه، هو يحب إخوته، هو يحب الكون، هو يحب الجمادات. رسول الله محمدصلى الله عليه وآله مرّ يوماً على جبل «أُحد» وهو جبل يقرب من المدينة، قال: «هذا (أُحد) يحبنا ونحبه»[٥]، الجبل يحبنا ونحبه. ونحن عندما نصلي ونسلم على كل عباد الله الصالحين عبر التاريخ. نقول: السلام علينا وعلى عبادالله الصالحين، لأنّ الجميع ينطلقون من منطلق واحد ووفق فطرة واحدة.

أنا أؤكد سيدي أنّ الدين يجب أن يدخل إلى الساحة العملية بقوة، وان كان الدين لا يشخّص الكثير من المصاديق، هو يقول: ﴿وَ أَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾[٦]، أعدوا لهؤلاء الذين يتحدّونكم القوة، وتبقى القوة قاعدة عامة تنسجم مع القوة العسكرية والقوة الاقتصادية والقوة الذرية والقوة الثقافية. كل هذه هي منطلقات دينية.

---

١. الحاقة: ٤٤ـ٤٦.

٢. الروم: ٣٠.

٣. الإنسان: ٣.

٤. الكافيالكليني.ج٥، ص٦٣.

٥. مسند أحمد بن حنبل، ج٢،ص٣٣٧.

٦. الأنفال: ٦٠.

وضع المسيحيين في الجمهورية الإسلامية

الاستاذ ابراهيم عطوي، صحفي في جريدة النهار

أحب أن أضيف كلمة على ما قاله سماحة الشيخ التسخيري حول المسيحية في ايران، من خلال عملي الصحفي تجوّلت كثيراً وكنت أسمع أنّ المسيحيين في ايران ـ بعد الثورة ـ مضطهدون، وأنّهم إلى ذوبان، لم أنفِ ولم أصدق ولم أسلّم، وكنت منذ البدايات أحلم بزيارة ايران، وقبل أسبوعين تحديداً في الأوّل من نيسان الماضي، كنت مع وفد المجمع الثقافي العربي في ايران وأصررت على زيارة إحدى الكنائس، زرت كنيسة «وانغ» في إصفهان هي للأرمن، وعرفت هناك أنّ للمسيحيين في مجلس الشورى الإيراني خمسة نواب من أصل خمسمائة ألف مسيحي ـ على ما أعتقد ـ يعني النسبة أكثر بكثير من نواب المسلمين، وهذه الكنيسة فيها دير وفيها أيقونات وجداريات وفيها متحف أناجيل من القرون الغابرة: انجيل من القرن الحادي عشر، وانجيل من القرن الثاني عشر، وما لفتني الجيل الجديد، جيل الفتيات المسلمات وهن يتأمّلن الأناجيل ويدوّن بعض الملاحظات؛ كما تأمّلت جيداً لوحة للرسام العالمي «رامبران» موجودة في الكنيسة ـ وهي من اللوحات النادرة ـ تمثّل أبناء إبراهيم.

و سألت هناك عن وضع المسيحيين ـ طبعاً سألت الأرمن المسيحيين ـ قالوا لي إنّهم ـ كما تفضّل سماحة الشيخ ـ يتمتّعون بحرية كاملة، لهم طقوسهم... لهم عباداتهم... لهم كتبهم، وفي منازلهم يصنعون الخمرة، يعني أنَّ بإمكانهم أن يصنعوا الخمرة في منازلهم، وأنّهم كسائر المواطنين الإيرانيين عليهم نفس الواجبات ولهم نفس الحقوق.

العقول المتنورة في مجتمع الثورة الإسلامية (استفسار)

الاب الدكتور مونس، أستاذ جامعي وعميد معروف

السادة الحاضرين، لن أطيل عليكم، لكن حديث آية الله كان «كالنبيذ» لطيف، ولو كان ذلك محرماً في كتاب الله، آية الله صدقني سمعتك بكثير من النشوة، وشهادتي فيك أضيفها لشهادة الأب نعمان وسيدنا الزغبي بالحقيقة أنّ الصورة التي أعطيتها هي غير الصورة المعروفة، التي هي في أذهان جميع الناس.

أنا أستاذ علم الأديان في الجامعة وعلم الاجتماع الديني، لم يقرأ رجل ديني قراءة كتابه الديني بهذا الوضوح وبهذا النقض وبهذه الصراحة وبهذا العقل وبهذا الإيمان وبهذه المحبة، شكراً لهذا الفكر المنّور. اسمح لي يا آية الله أن أقول خوفي، أنا أخاف من رجال الدين عندما يتكلمون في الدين، كما يقول نابليون: «الحرب شيء صعب لايمكن أن تعطى للعسكر يجب أن تعطى للمدنيين»، الدين شيء صعب يجب أن لايعطى لرجال الدين للتكلم به، لكنّك قلبت الآية الكريمة يا آية الله، فشكري العميق لما قلت.

سؤالي هو التالي، كم من العقول المنوّرة في مسارك تقرأ كما تقرأ سماحتك؟ هل هذه حالة جامعية أكاديمية، أم أنّك... منفرد، رائد، متطلّع، جريء، تُقدم ـ كما قال الاباتي نعمان ـ بكتاب بولسي كأنّك كربلائي جديد، فقلوبنا معك ولو كانت سيوف الآخرين عليك؟!

ما علاقة الدين بالوحي؟

و سؤالي الثاني، هو التالي: ما علاقة الدين بالوحي، الدين فعل صاعد من الذات نحو الله، والوحي عطية ـ كما قلتم ـ مجانية من الله إلى الإنسان، أي يمكن للإنسان أن ينتج ديناً، لكن صعب عليه أن ينتج وحياً، الوحي هو ما تقول عنه الديانات السماوية الثلاث لايقرأ إلاّ من فوق، الدين يقرأ في المجتمع، وهو علّة للتحوّلات الاقتصادية والنفسية والسياسية والعسكرية والتاريخية، علينا كي ننقذ الدين أن نبتعد عن الخلط بين قراءة الوحي الهابط من فوق إلى المجتمع بين قراءات الجلية تخلط أحياناً بين عواطفنا وبين قراءاتنا التاريخية.

التنوّر اتجاه كبير (توضيح)

الجواب:سيدي شكراً، أن أكون كربلائياً فلي أعظم الفخر، فكربلاء بقعة سالت عليها دماء أعظم شهيد، وظنوا أنّهم قتلوا الحسين، ولكن الحسين قتل ألف يزيد وقتل ألف ظالم، وتبقى كربلاء خالدة خلود الفكر والعطاء. أن يفكر كل المسلمين كما أفكر فلا أدّعي ذلك، أن تفكر الأغلبية كما أفكر لاأستطيع أن أوكد ذلك، ولكن أن أتفرّد أنا أو بعض زملائي فهذا غير صحيح، هناك اتجاه كبير بهذا المنحى، فيكفيكم أن تعلموا أنّ القائد الإمام الخامنئي مطلع على كل تفاصيل هذه الأمور، وهو أستاذي في ذلك ويشجعني، كما وأنّه مرجع من

مراجع المسلمين الكبار، لقد طالع كل وثيقة القاهرة بنفسه ـ رغم كل مشاغله ـ قلت له إنّ دولاً رفضت مناقشة هذه الوثيقة وقالت إنها ظالمة ومنحرفة، فقال: وهل نريد أن نسير على طريق الجنة؟ يجب أن نمشي على طريق الاشواك ونصلح الطريق، نبدأ ونقول كلمتنا فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فعليها.

أنا أعتقد أنّ الكثيرين يفكرون كما يفكر هذا العبد، وأعتقد أنّ هناك الكثيرين ممّن يعملون على دعم القضية الدينية في العالم، يسعون لتحريك ما قلت، وأودّ لو كثر أمثالي وكثر أمثالك في العالم المسيحي والعالم الإسلامي، فحبذا لو صعدنا إلى أوج (عليّ) حين يقول: «الناس صنفان: إمّا أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق»[1].

علاقة الوحي بالدين (إجابة)

أمّا العلاقة بين الوحي والدين فأعتقد أنّ علينا أن نعرف الوحي أوّلا، ثم نعرف الدين ثانياً، ثم ندرس العلاقة بينهما. ما هو الدين؟ هل الدين هو تنظيم للحياة الفردية، أم أنّ الدين هو نظام جامع للبشرية، يقود جموعها نحو التكامل؟ وما هو الوحي؟ هل الوحي عملية اتصال بين الله والإنسان تقول له عن أشياء عقلية مجردة؟ لقد عاش الكثير من المسيحيين فى فترات الضعف، يفكرون في أمور لاهوتية لايتصل بعضها بالواقع؛ وكذلك عشنا نحن المسلمين نفكر فى أمور لاتتصل بالواقع، نزاع طويل عاشه المسلمون أيّام الخليفة العباسي المأمون حول «خلق القرآن»، هل القرآن مخلوق أو غير مخلوق؟ كم قتل وكم سجن بسبب جدال لافائدة منه، البعض قال: القرآن مخلوق، والبعض قال: القرآن هو كلام إله وهو غير مخلوق، ما علاقة هذه الحالة بعلاء الإنسان؟ لنفترض أنّه مخلوق أو أنّه غير مخلوق، ما الفائدة التي نرجوها من هذا الجدل.

الدين هل هو ايحاء أفكار مجردة بعيدة عن الحياة، أم هو صياغة أيديولوجية حياتية للإنسان يسير عليها نحو التكامل؟ مانفهمه من الدين أنّه صياغة للحياة، وقد قلت لكم أنّ

---

١. نهج البلاغه، ج٣، ص٨٤.

الآية القرآنية تقول: ﴿وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً﴾[١] (نداء الرسل)، ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَ اجْتَنِبُوا الطّاغُوتَ﴾[٢] اقيموا دين الله في الأرض وقفوا ضد الطاغوت وكل مظاهر الطاغوت، الصنمية والرجعية الحجرية، أنا أعتقد أنّ الوحي يعني إعطاء الإنسان ما يسير به نحو كماله.

قلت: إنّ الدين لطف إلهي، يوحي الله به للإنسان ليرسم له طريقه، إنّ الإنسان له نوازع تجري كالسيول، هذه المياه لو تركت كما هي لفاظت وحطمت، أو لقلّت وعطش الإنسان. يأتي الفكر فيقول: نضع سدّاً فتجتمع كل هذه المياه خلف هذا السّد، يقف على هذا السّد إنسان متحكم، يجمع المياه حينما لاتكون هناك حاجة إليها، ويعطيها حينما تكون هناك حاجة إليها. إنّ العقل هو الذي يقف على السد يستوحي معلومات من فوق، توضح له هكذا افعل وهكذا لاتفعل، تعطيه الخطة؛ الإنسان أعطي من قبل الله ارادة وأعطي عقلا ينمّي هذه الإرادة ولكن هذا العقل قاصر لايكتشف كل الحقيقة، يأتيه الوحي فيعطيه عقلا الهياً، ينزل إليه صورة كاملة للحياة تساعد هذا العقل في توجيه الإرادة، لتنظيم عملية تنفيذ إرادة هذه الغرائز في السلوك الإنساني. أنا أعتقد أنّ الوحي الحقيقي، الذي هو نطق الهي، هو الوحي الذي يرسم للإنسان مايخطط فيه حياته، وليس وحياً عقلياً فلسفياً مجرداً، وحينئذ إذا كان الوحي هو هكذا، وإذا كان الدين يعني تنظيم الحياة، فأعتقد أنّ الدين هو الحصيلة الطبيعية للوحي وشكراً.

بيروت ملتقى الأديان والمذاهب والثقافات[٣]

جئتك يا بيروت، ويا كل لبنان .

أحمل منجلا، منطاداً مبتور الجناح، بدراً تعلّقت به نجمة مسحورة .

---

١. النحل: ٣٦.

٢. النحل: ٣٦.

٣. ألقي في الاحتفال الذي أقامته جمعية أدبية لبنانية في بيروت بمناسبة انتخابها عاصمة للثقافة العربية، بتاريخ ١٩٩٩/١١/٢٤.

نعم جئتك أحمل علامة استفهام كبيرة لقد طلبوا مني أن أتحدّث عنك كملتقى: والملتقى قد يكون افقياً تلتقي فيه الحضارات المتعاصرة، وقد يكون عمودياً يلتقي فيه الحاضر والماضي والمستقبل وأنت على كلا المعنيين كذلك وحينئذ، فلست أدري من أين أنطلق؟ أأبدأ بداية أدبيةً والشعر حوار الإنسان أنت يا معشوقة الأدب والشعر، مسرحه ومنبعه.

لقد وقف عندك أمير هائم ليقول:

إذا شـــــئت تصـــــابرت ولا أصـــــبر إن شـــــيت
ولا والله لايصـــــــــــبر في البريّـــــة الحـــــوت
ألا يـــا حبّـــذا شـــخص حمـــت لقيـــاه بـــيروت

و نادى ابن خراسان (أحمد بن الحسين بن حيدرة الطرابلسي)

وان جهلــت جهّــال قــومي فضــائلي فقــد عرفــت فضــلي مَعَــدٌ ويعــرب
ولاتعتبــوني إذ خرجــت مغاضــباً فمن بعض ما في ساحل الشام يُغضَب
وكيــف التــذاذي مــاء دجلــة معرقــاً وأمـــواه لبنـــان ألـــذ وأعـــذب

و نادى شاعر المهجر:

وطـــن النجـــوم أنـــا هنـــا حـــدّق أتـــذكر مـــن أنـــا
أنـــا ذلـــك الولـــد الـــذي دنيـــاه كانـــت هاهنـــا
ولكـــم تشـــيطن كـــي يقـــول النـــاس عنـــه تشـــيطنا

كلا فالمراد أن أعرض صورة تاريخية فكريةً لك يا ملتقى حوار الحضارة والسلام والوحدة فلنتّجه إذاً صوب المراد.

و عندما أتوجّه إلى تاريخك العظيم أجدك في العصر المسيحي كرسياً اسقفياً، تعجّين بالقساوسة والكرادلة والرهبان وتنشرين الروح والحنان...

و جاءك الفتح الإسلامي بالخير وأعطاك الوجه المشرق فتحوّلتِ قاعدة كبرى للدعوة

الإسلامية تتخذين طريقك في البحر سرباً، وفي البرّ لاحباً حيث المعمورة تعلنين كلمة الله، وترفدين الجائعين بالمعارف الإلهية السامية.

و انطلقت قوافل العلماء شرقاً وغرباً، فها هي قافلة تنبعث إلى فارس وغيرها تضمّ عشرات العلماء من مدرسة أهل البيت عليهم السلام وفيهم ألمع نجوم العلم.

كالشهيد الأوّل الشيخ محمد بن الشيخ جمال الدين مكي العاملي الجزّيني.

الرجل الذي الّف أروع الكتب الفقهية في سجنه. وعلّق عليه الشهيد الثاني العاملي أيضاً بكتاب هو اليوم محور الدراسات العلمية في الحوزات الشيعية وفيهم المرحوم الشيخ البهائي العقل المفكّر الكبير الذي لم يكتشف عمقه بعد.

أجل وفيهم الكثير الكثير.

ولقد قام الإمام محمد بن الحسن الحرّ العاملي المتوفى سنة ١٠٣٣ بإصدار كتابه العظيم «أمل الآمل في علماء جبل عامل» ليحصي علماء عامل في القرن السادس الهجري وما بعده.

إلّا أنَّ المرحوم السيد محسن الأمين يؤكّد أنّه كان هناك علماء كبار قبل هذا القرن وقد ذكر المرحوم العاملي أنَّ أحد المؤمنين توفي فسار خلف جنازته سبعون مجتهداً وكان ذلك في عصر الشهيد الثاني.

و ذكر صاحب (روضات الجنات): «إنّ مدينة جزين خرج منها ما يقرب من خُمس علماء جبل عامل رغم أنَّ مساحتها لاتتجاوز عشر العشر من المنطقة»[1].

أمّا الحديث عن الإمام الاوزاعي(رحمه الله) الذي سطر له التاريخ دفاعه عن أهل الكتاب دفاع واع رشيد، وكذلك الإمام الوليد بن مزيد العذري البيروتي وغيرهما فهو واسع الأبعاد ولانستطيع أن نحيط به.

لقد كنت مسرحاً للعلماء وملهمةً للمفكرين من مختلف الديانات والمذاهب. ولقد مرّت القرون والمسيحيون والمسلمون سنةً وشيعةً يتعايشون بسلام،قد يختلفون إلّا أنَّ المثل العليا هي فوق الاختلاف.

---

١. روضات الجنات، ج ٧، ص ٤.

حتى شهدنا أخيراً لقاء جمع المسلمين والمسيحيين في ١٤ حزيران ١٩٩٦ التحم فيه مجلس الكنائس العالمي، رابطة العالم الإسلامي، وهيئة الدعوة الإسلامية، وجمعية الحوار بين الأديان في روما، وعلماء الشيعة الكبار ليعلنوا وقوفهم بوجه الجرائم التي ترتكبها إسرائيل بحق المقدسات الإسلامية المسيحية، وأنّهم سيكونون جميعاً صوت القدس الواحدة، وأنّ القدس مرتقاهم إلى السماء هم مولودون منها بالروح وشاخصون إليها بالحب.

هل اركز على ما سبق أم أُركّز على بعدك الاجتماعي لالمح الشعوب تتعاقب: الاكاديون، والكنعانيون والفينيقيون والأموريون والاراميون والحثيون والعبرانيون والكلدانيون والاشوريون والفرس والمصريون والانباط واليونان والايطوريون والرومان والموارنة والأرمن والسريان واللاتين والعرب المسلمون ومنهم الهمدانيون الذين حملوا معهم الولاء لأهل البيت عليهم السلام ؟

وصدرك الرحب يضم كل الشعوب ويسحرها ويصهرها، اخوةً في الدين والوطن والهدف الأسمى يطبعهم التسامح بطابعه والأصل عندهم التعايش بسلام، بل والتآخي المتأصل في النفوس.

و يحدثنا كتاب «لبنان» الشهير عن العادات الاجتماعية، فيقول:

«و طالما سمعنا من آبائنا ومن تقدّمهم أنّ الأصحاب والجيران يحافظون بعضهم على بعض في أيام الوقائع التي تحدث بين طوائفهم المختلفة أو أحزابهم، ولايغدر أحدهم بالآخر بل يحمي عرضه ودمه، ويحافظ عليه محافظته على نفسه ممّا يدل على طيب الأعراق وكرم الأرومة ولاسيما عند الدروز المعروفين بآداب الصداقة وشهامة النفس، وإذا تآخى اثنان أو أكثر ولو من طوائف متباينة توارث أولادهم تلك المودة فيبقون على عهود أسلافهم مهما حدث بينهم من الضغائن الجديدة، وهي عادة غريبة فاشية في لبنان الجنوبي خاصة وكثيراً ما يقول الواحد منهم للآخر أخي وابن عمي مع تباين النسب»[١].

و حق ما قيل من أنّه (ليس هناك بلد كلبنان قط امتزجت فيه عناصر الأمم).

---

١. كتاب لبنان،، ص ٢٠٧.

واضيف (ليس هناك بلد كلبنان كان فيه المعذَّبون إخوة محبوبين في عين الله).

أما عن الوحدة الإسلامية:

يا بيروت ويا لبنان: فلقد لمعت في سمائك نجوم الوحدة الإسلامية حتى لاتكاد تأفل وهل ينسى المسلمون الجهود المضنية التي بذلها الكبار لتحقيق التقارب بين المسلمين على مستوى العالم الإسلامي ويقف الإمامان الكبيران السيد محسن الأمين العاملي والسيد عبدالحسين شرف الدين في الطليعة.

أما الأمين العاملي فقد دعا إلى تعميم المساواة وآخى بين الناس ورفض التحزّب الضيق المقيت، كما أنَّه خاض غمار حملة إصلاحية ضخمة لدى الشيعة أنفسهم ليصرفهم عن كثير من الخرافات التي علقت بشعائرهم الحسينية، جاهد في سبيل ذلك حتى اعتبره بعض السذّج اموياً، هذا إلى جانب تعبئته للجماهير ضد الاحتلال الفرنسي.

وكان أجمل تعبير لديه في مسألة النزاع في الخلافة، وهي أهم مسألة بين السنة والشيعة هو قوله: «لم نزل نتخاصم على شرعية الخليفة حتى صار المندوب السامي الفرنسي هو خليفتنا». وقد عارض قانون الطوائف الفرنسي قال مخاطباً المفوضية الفرنسية: «فأنا بصفتي الرئيس الروحي للطائفة الإسلامية الشيعية في سوريا ولبنان أرجو فخامتكم أن تحيطوا علماً باستنكار الشيعيين عامة لهذا القرار وهذه التفرقة المصطنعة بين المسلمين»[١].

وأما الإمام شرف الدين فهو رجل الوحدة الإسلامية إذ ركَّز على (الحوار الموضوعي) وألَّف كتاب (الفصول المهمة في تأليف الأمة) مبرراً ذلك بأنّه ازهاق لنفس العصبية واعتناء باتحاد التشيع والتسنن، ثم جاء كتابه الرائع (المراجعات) مثالا للحوار الهادئ المخلص.

وها أنت بيروت بالأمس تعقدين مؤتمر التقريب بين المذاهب الإسلامية لتعلني السير على هذا الخط اللاحب.

كما عقدتِ بالأمس مؤتمراً للحوار بين القوميين والإسلاميين.

و قبل ذلك مؤتمر الصرخة المسيحية الإسلامية ضد العدو الصهيوني.

---

١. أعيان الشيعة، م ١٠، ص ٣٧٠.

إنّها الروح السمحاء التي قد لانشهدها في أي مكان آخر.

لقد أعجبني تعبير قائمة (العوائل الكنسية) الذي يعبر عن تجانس اجتماعي ديني بين الكنائس وقد أعدَّ القائمة الاستاذ (الامين العام لمجلس كنائس الشرق الأوسط) فعائلة الكنائس الارثوذكسية تشمل:

ـ كنيسة الاسكندرية وسائر أفريقيا للروم الارثوذكس.

ـ كنيسة الروم الارثوذكس وسائر الشرق للروم الارثوذكس.

ـ كنيسة الروم الارثوذكس في القدس.

ـ كنيسة الروم الارثوذكس في قبرص.

و عائلة الكنائس الارثوذكسية الشرقية التي تشمل:

ـ كنيسة الاسكندرية والكرازة المرقسية للأقباط الارثوذكس

ـ كنيسة انطاكية وسائر الشرق للسريان الارثوذكس

ـ الكنيسة الارمنية الرسولية ـ كاثوليكوسية الأرمن الارثوذكس لبيت كيليكيا

و عائلة الكنائس الكاثوليكية التي تشمل:

ـ الكنيسة الانطاكية السريانية المارونية

ـ كنيسة الروم الملكيين الكاثوليك

ـ كنيسة الاقباط الكاثوليك

ـ كنيسة السريان الكاثوليك

ـ كنيسة بابل للكلدان

ـ كنيسة اللاتين في القدس

ـ كنيسة الأرمن الكاثوليك

و أيضاً عائلة الكنائس الانجيلية التي تشمل:

ـ السينودس الانجيلي الوطني في سورية ولبنان

ـ اتحاد الكنائس الانجيلية الأرمنية في الشرق الادنى

ـ الكنيسة الاسقفية في القدس والشرق الأوسط

ـ الكنيسة الانجيلية اللوثرية في الاردن

- سينودس النيل الانجيلي
- الكنيسة الاسقفية بالسودان
- الكنيسة الانجيلية بالسودان
- الكنيسة الانجيلية الوطنية في الكويت
- الكنيسة البر وتستانتية في الجزائر
- كنيسة مارجرجبس - تونس / قرطاجة
- الكنيسة الانجيلية الوطنية - البحرين
- الكنيسة الانجيلية المشيخية في ايران

إنَّ لبنان يشكّل محور هذه الكنائس الشرقية والغربية كلها، وقد جاء في مقدمة الدليل: «وفي الطريق من فلسطين إلى دمشق دعا المسيح شاوول فلبّى النداء وأغمد سيف الاضطهاد رافعاً راية التبشير والولاء حتى الاستشهاد وفي انطاكية دُعي المؤمنون مسيحيين لأوّل مرة».

هذا في الجانب المسيحي وفي الجانب الإسلامي نجد:

الشيعة طائفة واحدة من المسلمين، والسنة طائفة إسلامية واحدة رغم تعدد مذاهبها أيضاً، والدروز والعلويين ثم نجد اليهود باتجاهاتهم ومذاهبهم.

كل هذه المذاهب والأديان الشرقية والغربية وجدت في لبنان وبيروت محلا آمناً تتعايش فيه ونظمت حياتها بشكل يرفع التناقض حتى في كيفية اللبس والأكل والشرب والتقاليد، والأعراف والأعراس، وبالتالي الدفن وأمثال ذلك.

إنّ هذا التنوع الكبير ليكشف عن صدر رحيب وقلب كبير لانجد له مثيلا في مكان آخر.

إنّ المسيحي ليؤلّف في العلوم الإسلامية فيبدع.

وإنّ المسلم ليؤلّف في المفاهيم المسيحية فيبدع.

وإنّ السني ليكتب في الإطار الشيعي فيبدع.

وإنّ الشيعي ليكتب في الإطار السني فيبدع.

وهكذا هي الحياة: تعايش واحترام، وإثراء، هو عطاء للبشرية جمعاء.

يكتب جورج جرداق (الإمام علي صوت العدالة الإنسانية).

وينظم بولس سلامة ملحمته عن (الغدير)، ويكتب سليمان كتاني (فاطمة وتر في غمد)،

ويجمع المرحوم صبحي الصالح (نهج البلاغة) ويشرحه وينظّم فهارسه، ويؤلّف عبدالله العلايلي عن الحسين عليه السلام.

وعندما يقف كمال الصليبي على تاريخ لبنان ومراحله ويطرحها بتسلسلها نجد التلاحم بين التاريخين الإسلامي والمسيحي كاروع ما يكون:

يتحدث عن عام ٦٨٠ م / ٦٠ ـ ٦١ هـ

ـ مقتل الحسين بن علي عليه السلام في واقعة كربلاء في العراق

ـ ثورة عبدالله بن الزبير في الحجاز

ـ تكفير المجمع المسكوني السادس، في القسطنطنية لمذهب المشيئة الواحدة

ـ الانفصال في الكرسي الانطاكي بين الملكية والموارنة

ـ انتخاب يوحنا مارون بطريركاً على الكنيسة المارونية.

ولاننسى هنا قول البطريرك الماروني الماروني الياس الحويك عندما بلغه نبأ وفاة السلطان العثماني عبدالحميد الثاني إذ قال بوجوم وحزن:

«لقد عاش لبنان وعاشت طائفتنا بألف خير وطمأنينة في عهد السلطان الفقيد، ولانعرف ماذا تخبئ لنا الايام بعد موته رحمة الله عليه»[١].

وقد نقل الاستاذ القرضاوي أنَّ الاستاذ فارس الخوري ـ وهو مسيحي ـ دعا إلى تحكيم الشريعة الإسلامية بعبارات هي أقوى من عبارات المسلمين.

و روح التسامح مسيحية إسلامية بلاريب.

يقول القرآن الكريم ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾[٢] ويقول عن الرسول: (اللّهم اغفر لقومي فإنهم لايعلمون)[٣] ويقول الانجيل: «عندما كان بعض القرويين لايستقبلون المسيح اكّد بعض التلامذة على استنزال النقمة عليهم فكان يرفض ذلك» وهذا التسامح ادّى إلى قيام تواصل ثقافي عبر التاريخ بين الفكر الإسلامي والفكر المسيحي.

---

١. أوراق لبنانية ـ آب / اغطس ١٩٥٦ ج ٨ ص ٤٠٣.

٢. الأعراف: ١٩٩.

٣. بحار الانوار، ج٩٥، ص ١٦٧.

فإنَّ كتب التراث حافلة بذكر التواصل الثقافي مع المسيحية.

فهذا الشيخ الصدوق المتوفى سنة ٢٨٠ ه ينقل اربعة أنماط من الحوار بين كبير النصاري والائمة عليهم السلام، وهذه كتب الشيعة تنقل سيرة السيد المسيح عليه السلام بشكل مفصل كما في (نهج البلاغة) وما روي عن الإمام الصادق عليه السلام في نصائحة لعبدالله بن جندب، وما ذكره ابن شعبة الحراني المتوفى سنة ٣٨١ ه في كتابه «تحف العقول» حيث بلغ ١٦ صفحة (و يبدو أنّه كان أكثر اطلاعاً على المؤلفات المسيحية لأنّه حراني) ومن أروع ما جاء في وصف المسيح ما قاله الإمام علي عليه السلام في الخطبة رقم ١٥٩:

«و إن شئتُ وقلتُ في عيسى بن مريم، فلقد كان يتوسَّد الحجر ويلبس الخشن ويأكل الجشب وكان إدامه الجوع وسراجه بالليل القمر، وظلّه في الشتاء مشارق الشمس ومغاربها، وفاكهته وريحانه ما تنبت الأرض للبهائم ولم تكن له زوجة تفتنه ولا ولد يحزنه ولامال يلفته ولاطمع يذله دابّته رجلاه خادمه يداه»[١].

و لاتعدم كتب أهل السنة النقل عن هذه السيرة المباركة، فهذا الجاحظ في كتابه (البيان والتبيين) يذكر بعض الكلمات القصار ورواية مفصلة عن السيد المسيح عليه السلام.

وإن هناك تواصلا ثقافياً وسيعاً بين المتكلمين من الطرفين[٢].

والمنطلق الأساس لدى المسلمين هو الدعوة القرآنية لأهل الكتاب كي يجتمعوا مع المسلمين على مساحة مشتركة يقول تعالى: ﴿قُلْ يا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَ بَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَ لا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَ لا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ﴾[٣].

و هذه المساحات كثيرة واسعة فالإيمان بالله تعالى ربّاً لهذا الكون وخالقاً ومرسلا الانبياء لهدايته حيث كماله،والإيمان بالفطرة الإنسانية منبعاً ثرّاً لكل المقوّمات التي تهدي الإنسانية لذلك الكمال، والإيمان بالشريعة الإلهية التي تنظم الحياة الاجتماعية، والقيم الإنسانية في

١. نهج البلاغه، ج٢، ص٥٨.

٢. يراجع مقال السيد الداماد حول الموضوع في كتاب «الإسلام والمسيحية الارثوذكسية»، نشر جمعية الصداقة الإيرانية ـ اليونانية، ص ٦٧.

٣. آل عمران: ٦٤.

المجال العائلي، والدفاع عن كينونة العائلة وقيمها،والإيمان بالمستقبل الإنساني الكريم للبشرية حيث المصلح المنقذ المهدي ومعه المسيح يبنيان الحياة المليئة بالعدل والقسط بعدما ملئت بالظلم والجور،والإيمان بباقي حقوق الإنسان والدفاع عن المحرومين والمستضعفين، كلها مساحات مشتركة تتحاور حولها الأديان وتسعى للتعاون فيما بينها؛ يقول القرآن الكريم: ﴿وَ ما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ وَ الْوِلْدانِ﴾[١]، والكتاب المقدس يؤكّد «الرب يحكم للمظلومين، يحكم لصالحهم»؛ ثم الاتفاق على مقاومة العدو الصهيوني الغاصب، ورفض ادعاءاته الباطلة من أنّه «شعب الله المختار» يقول القرآن الكريم: ﴿قُلْ يا أَيُّهَا الَّذِينَ هادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِياءُ لِلهِ مِنْ دُونِ النّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ﴾[٢]، ويقول الانجيل: «الله قادر على أن يقيم من الحجارة أولاداً لإبراهيم» فالمعيار هو طاعة إبراهيم وتبعيته ﴿إِنَّ أَوْلَى النّاسِ بِإِبْراهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَ هٰذَا النَّبِيُّ﴾[٣].

ولكن هل انتهت تساؤلاتي؟ يا بيروت!

كلا فهناك علامات استفهام كثيرة في حياتك.

ترى يا بيروت!

هل مرّبك المسيح ليقدسك؟ وما معنى الوصف المقدس لشخصيته الكريمة بأنّه كان فتىً كالارز وأنَّ طلعته كانت كلبنان؟

و ما هي أسرار الهجرة إلى أنحاء الأرض؟ وماذا تركته من أصداء؟ وهل غيّرت ثقافتها أم انصهرت في تلك الثقافات؟

وما هي أبعاد الهجرة العلمية إلى ايران وآسيا الوسطى والهند والباكستان؟

حيث يروي المرحوم الحر العاملي «ان الشيخ عبد النبي بن احمد العاملي النباطي كان فاضلا جليلا فقيهاً معاصراً قاضياً في حيدرآباد (الهند) »[٤].

---

١. النساء: ٧٥.

٢. الجمعة: ٦.

٣. آل عمران: ٦٨.

٤. روضات الجنات، ج ٤، ص ٢٧٣.

و ما هي قصة الصحابي الجليل ابي ذر رضي الله عنه ومشهدية المنسوبين إليه في (الصرفنة الساحلية) و(ميس الجبل) فهل حل هذه الديار وبنى أسس التشيع لعلي عليه السلام ؟

و ما هي قصة هجرة قبيلة (همدان) إلى هذه البلاد؟

و ما هي قصة المدارس العلمية الكبرى في جبل عامل؟

و ما هي قصة المقاومة ـ وهي أروع ما تكون ـ ضد العدو الغاصب؟

إنّها وغيرها من مئات الأسئلة ما زالت مبهمة يضمّها صدرك الكبير ذو الأسرار فحدثينا ونحن الساعون للاستماع وكلنا إذن واعية.

ايه بيروت يا ذات الربيع الثر الدائم وأنت تلبسين حلة جديدة فأنت عاصمة الثقافة أمس واليوم وغداً تواصلين أمسك المفعم بغدك المشرق.

ايه فاتنة الدنيا... كم راق لسعدي الشيرازي أن يناجي طيفك بترانيم شعره وأن يحثّ السير إليك ناصر خسرو (الرحالة العظيم) ليدوّن لنا بكل دقة في «سفرنامته» طولك وعرضك حتى بالأمتار، وبريشته الأحاسيس الجياشة والحب الولهان.

أجدني في ختام هذه الرحلة ما زلت غارقاً في النقطة التي تقع تحت علامة الاستفهام أو تحت بائك الساحرة التي تبارك خالقها أحسن الخالقين فاغرق العالم في جمالها الفتان.

الفصل الرابع: العلاقة مع الغرب

تأمّلات في رؤية غربية[1]

تبلورت نظرة الغرب إلى الإسلام عبر مراحل زمنية طويلة، تعددت فيها رؤى المستشرقين والمفكرين والباحثين والسياسيين الغربيين، تبعاً للخلفيات والمداخل المنهجية والدينية والفكرية والسياسية لكل رؤية. وعلى الرغم من تعدد هذه الرؤى، إلّا أنّها تتفق، غالباً، على جملة من المبادئ التي تشكّلت وتكاملت بالتدريج، حتى باتت تمثل وعي الغرب بالآخر، وهو جزء من وعي الغرب بذاته، وفي إطار هذا الوعي منح الغرب لنفسه موقع «الحقيقة» و«القوة» و«المركز» و«العقل» و«التقدُّم»، وأبقى للآخر موقع «التمثيل» و«الضعف» و«الاطراف» و«الجنون» و«التخلّف»، وبالتالي مارس الغرب هذا المنهج في الواقع بأشكال مختلفة، كالغزو العسكري والسيطرة الاقتصادية والهيمنة الثقافية والسياسية والحرب النفسية والاعلامية.

ومن الرؤى المهمة التي طرحت في الغرب، في عقد التسعينات، رؤية المفكر الانجليزي «بيدهام برايان» التي عرضها في سلسلة المقالات التي نشرها في مجلة «الايكونوميست»، خلال عام ١٩٩٤، ولكنها لم تحظ بالاهتمام الذي حظيت به رؤيتا هانتينغتون في «صدام الحضارات» وفوكوياما في «نهاية التاريخ»، على الرغم ممّا تحتويه من نظرات لافتة إلى علاقة الغرب بالإسلام؛ وهي رؤية تكشف، في حقيقتها، عن نوع من الإستراتيجية الغربية تجاه التعامل مع العالم الإسلامي وأوضاعه العامة، ولا سيما ما يرتبط بمضامين الحضور

١. نشر في مجلة المنهاج اللبنانية، العدد ٢٢.

الإسلامي الفاعل في مسيرة الحضارة الإنسانية.

مضمون رؤية برايان

يبدأ برايان عرض رؤيته بالقول: «ان الجو السائد في القرآن الكريم هو الجبرية، وان الإسلام ليس إلّا التسليم الجبري للإنسان أمام الخالق». ثم يعقد مقارنة بين نظرة الانجيل ومفهوم القرآن لما يسمّيه بالخطيئة الأولى. ويقول أيضاً: «ان الطبقة التي تحول دون التقارب بين الإسلام والغرب هي طبقة علماء الدين التي تتسلح بالاجتهاد الحرّ لتقرير المواقف العامة».

ويعقّب على ذلك بقوله: «انّنا لو نظرنا إلى القرآن فسوف لن نجد سوى ثمانين آية تشير إلى النظم العامة، وغالبية هذه النظم ليس لها تأثير يذكر في مسيرة الحضارة الان». ثم يدعو الذين يؤكّدون على التقارب بين الإسلام والغرب إلى رفع احتكار الفقهاء للاجتهاد، وتعميمه للجميع، ليكون لكل فرد قراءته الحرة للقرآن. ويضيف: «واجب كل مسلم النظر إلى المستقبل، ولا يمكن للأمة الإسلامية أن تتقدم إلّا بازاحة علماء الدين وتعميم الاجتهاد على كل الافراد». كما «أن الإسلام إذا أراد دخول عالم الديمقراطية فإنّه بحاجة إلى الاصلاح».

وهنا يعقد مقارنة بين وضع العالم الإسلامي في القرن الخامس عشر الهجري ووضع أوربا في القرن الخامس عشر الميلادي، ويرى أن كلا الوضعين متشابهان في توافر الارضية المناسبة للاصلاحات، وفي نوعية المؤسسات الدينية لدى المسلمين السنّة حالياً ومؤسسات الكنيسة في القرن الخامس عشر الميلادي، وفي مستوى اليأس لدى المسلمين اليوم والأوربيين آنذاك، وفي التشوق لتحسن الأوضاع.

ويتحدّث برايان عن عامل آخر له أثره في تحقيق الاصلاحات، ويتمثّل في العامل الخارجي الذي يحرّك الحالة ويدعمها، ففي الوقت الذي شكّل فيه المسلمون العامل الخارجي المحرّك لتطوير أوربا حينها، فإنَّ الغرب اليوم هو عامل دفع العالم الإسلامي نحو التطوّر والتقدّم. ويطرح هنا اشكالية حول الزمن الطويل الذي استغرقه التحول في أوربا، إذ يقدَّر بمئة وخمسين عاماً، بينما لا يستطيع العالم الإسلامي اليوم أن ينتظر مثل هذه المدة. ويجيب على هذه الاشكالية بأنَّ التحوّلات اليوم تطرأ وتؤثر بسرعة، فلا يحتاج الأمر إلى هذه المدة الطويلة، ولكن من أين يبدأ التحرك؟

يرى برايان أنَّ التحرك يبدأ من الإسلاميين المحررين الذي يؤمنون بالديمقراطية، ولا بدَّ من التحرك بقوة لدعم هؤلاء، ولكنه يعترف بأنَّ القسم الأعظم من العالم الإسلامي اليوم على أعتاب الدخول في أزمات سياسية كبرى تخلق جواً من القلق وتداخل العلاقات، وعلى الغرب أن يتحمّل هذه التحوّلات، إذ يعتقد أنَّ الغرب إذا أراد أن يحرك التحوّل في العالم الإسلامي، فعليه أن يدخل في نظمه (أي في نظام الغرب) هو أيضاً مسحات أخلاقية واجتماعية، يعبَّر عنها بالميول نحو اليسار الجديد، كما يشير إلى أنَّ ابتعاد الغرب عن الاعتقاد بالآخرة هو سبب الكثير من مشكلاته، ولذلك يدعو الغرب للعودة، ولو قليلاً، للاعتقاد بالآخرة، ليكون أقرب إلى المسلمين.

وهنا يطرح برايان هذا السؤال: هل هناك بين الإسلام والغرب حرب محتومة؟ هذا السؤال أجاب عليه «هانتينغتون» بالايجاب في نظريته المعروفة بـ«صراع الحضارات». لكن برايان يرفض هذه النظرية حاذفاً من أطراف الصراع كل ما عدا الغرب والكونفوشيوسية والإسلام، معتبراً أن الاطراف المحذوفة لا تشكل حضارات أخرى.

أما الكونفوشيوسية فهي، كما يقول، غير مؤهلة لتقديم بديل حضاري للعالم، فيجب حذفها من الصراع، وفرض الصراع بين الغرب والإسلام، ولكنه يعتقد أنَّ الصراع بين الإسلام والغرب غير محتوم، رغم ما يعبّر عنه بالعنف الإسلامي، هنا وهناك، وكذلك تاريخ الصراع العنيف بين الإسلام والغرب، تارةً بالهجوم الإسلامي على الغرب حتى وصل إلى «بواتييه»، وأخرى بالهجوم الغربي على الإسلام حتى احتل الكثير من المناطق الإسلامية، فعلى الرغم من هذا التاريخ إلَّا أنَّ نوع الصراع غير مؤكد. ويفسر ذلك بأنّه رغم الاختلافات العقدية بين المسلمين وبين الغرب المسيحي، فإنَّ هناك أرضية مشتركة يمكنهما أن يتحاورا عليها، ويرى أنّ الدين نفسه لا يسوّغ الصراع الماضي، ويضيف: أن هذين الطرفين يمكنهما أن يتعامل أحدهمامع الآخر، حتى الثوريون في ايران يمكنهم أن يتعاملوا مع الغرب بحكمة.

ثم يوجّه اهتمامه إلى شمال أفريقيا، معتقداً أنّه قد تقوم فيها نظم معادية للغرب، فتقف في وجه هذا التقارب. ويبدي حساسية خاصة من هذا الاحتمال.

وبعد هذا يوجّه إلى العالم الإسلامي توصيات ثلاث لكي يتأهل للتعامل مع الغرب والدخول في ركب الحضارة الإنسانية السائدة:

الأولى: الانسجام مع الاقتصاد الحديث.

الثانية: القبول بفكرة المساواة بين الرجل والمرأة.

الثالثة: العمل على تمثل القواعد الديمقراطية وتطبيقها في نظم الحكم فيه.

وقبل أن يشرح هذه التوصيات الثلاث يركّز على ما كان يجري، آنذاك، في الجزائر من زاوية نظرته الغربية، ويؤكّد ضرورة التدخّل الغربي في الصراع في الجزائر، ويتخوّف كثيراً، من عواقب الانتصار الإسلامي هناك.

وحول قضية الصحوة الإسلامية، يطرح رأيين متعارضين: أحدهما متفائل، وخلاصته أنَّ قيام النظم الإسلامية قد يوجد هجرة جماعية للغرب وجواً من القلق، ولكن هذا الجو القلق سوف ينتهي بسلام، أما الرأي الثاني فمتشائم، ومفاده أنَّ قيام النظم الإسلامية يعني احتدام الصراع، وبالتالي تحقق نظرية «هانتنغتون».

بعد هذا، يرى أنَّ على الغرب أن يغيّر الكثير من فرضياته، وعلى المسلمين أن يعيدوا النظر في التعاليم التي رُويت عن الرسول محمدﷺ قبل أربعة عشر قرناً، ليروا هل يمكن أن تؤثر هذه التعاليم في القرن الواحد والعشرين؟ ثم يعود إلى توصياته السابقة ليطرحها بالتفصيل.

فحيال المسألة الاقتصادية، يشكك برايان في وجود نظرية اقتصادية إسلامية، ثم ينتهي إلى أنّ الإسلام يعتمد النظم الفردية، وأنَّ الاقتصاديين المسلمين يعتقدون بلزوم تحديد دور الدولة في الحياة الاجتماعية، ويقول: إنّ الفكرة السائدة هي أنَّ المسلم يجب أن يتوخّى العدالة، مثلاً، في أن يقوم الإنسان بتبديل مزرعة للحنطة إلى مصنع للكامبيوتر، ولكن كيف يمكن أن نعرف رأي الإسلام في هذا التغيير؟!

ويعود ليوصي النظام الرأسمالي بشيء من الانضباط الأخلاقي، الأمر الذي لم تستطع أن تحققه الماركسية بانقلابها على النظام الرأسمالي، ثم يشير إلى نظام الزكاة فيعدُّه نظاماً تبرعياً، ولذلك فهو لا يحل المشكلة، ويقول: إنَّ الزكاة في عصر الرسول كانت تركّز على المعادن والزراعة، وتوسَّعت بعد ذلك، ولكن هذا النظام من الضرائب لا يمكنه أن يواجه احتياجات اليوم، أما الربا، فيرى أنَّ تحريمه شيء مفيد، وإن كانت الآراء في العالم الإسلامي، كما يدَّعي، تختلف في مسألة الربا، فقد أحلها «الطنطاوي» ـ شيخ الازهر ـ في بعض الحالات

ورفضها من عداه في جميع الحالات.

ويميل برايان إلى مثل هذا الأسلوب، ويوصي البنوك الغربية باعتماده نوعاً ما، ولكنه يُشكل على هذا بالقول: إنّنا إذا لم نكن نطبق نظام الربا فكيف يمكن السيطرة على التوازن في عرض المال.

هذه المسألة هي المسألة الأولى، التي يتلخّص رأيه فيها بعدم امتلاك الإسلام نظاماً اقتصادياً، وإنّما يملك بعض التعليمات العامة التي يمكن بشيء من التحوير وشيء من المرونة الغربية، الجمع فيها بين الاقتصاد الإسلامي والاقتصاد الحر.

أما في مسألة مساواة الرجل والمرأة؛ فهو بعد أن يقدّم شرحاً تفصيلياً لوضع المراة اليوم، يقول: إنَّ السلوك الإسلامي، اليوم، لا يمتلك جذراً قرآنياً، وإنّما خلقته التفسيرات الذكورية للقرآن، وقد يبدو أنَّ القرآن يقوم بنوع من التفرقة بين الرجل والمرأة، ولكن هناك طريقاً مفتوحاً لتفسيرات جديدة، ويدعو العالم الإسلامي إلى تجديد النظر في الأحكام القرآنية التي تقول بالتفرقة بين الرجل والمرأة.

وآخر بحث يطرحه هو المسألة الديمقراطية، ويراها المانع الأكبر لتقارب العالمين: الإسلامي والغربي؛ وذلك لأنَّ سبعة بلدان فقط من مجموع ثمانية وثلاثين بلداً إسلامياً لها نظم ديمقراطية، وما عداها يحكم بالحديد والنار والديكتاتورية.

ويرى أنَّ العالم الإسلامي، إذا أراد أن يصل إلى الانموذج الغربي، عليه أن يعمّم الديمقراطية في أرجائه جميعها. أمَّا التمسك بنظام الشورى فهو لا يقوم بالدور الذي تقوم به الديمقراطية.

هذه هي خلاصة رؤية الباحث الغربي برايان حول منهج التقريب بين العالم الإسلامي والعالم الغربي؛ وهي توضّح، تماماً، التخطيط الغربي الواسع لتحقيق نظم العولمة المطروحة اليوم، ليس على الصعيد الاقتصادي وحسب، وإنَّما على الصعيدين الثقافي والسياسي أيضاً.

ملاحظات على رؤية برايان

نجمل مداخلتنا على رؤية برايان في جملة من الملاحظات هي:

الأولى: أنَّ هذا التصوّر الذي يذكره الباحث يعتمد النظام الغربي، اليوم، أصلا يحتذى به بين الأمم، ويطلب من الأمم الأخرى أن ترتفع بنفسها ونظمها، كما يدّعي، حتى تصل إلى هذا المستوى الذي يراه أصلاً.

والحقيقة أنَّ برايان يتغاضى عن المساوئ الكثيرة التي يحملها النظام الغربي، وذلك على الرغم من اشارته إلى بعضها؛ إذ أنَّ النظم الغربية تفتقر، عادة، إلى المعاني الإنسانية والاتجاه الأخلاقي، بل وتفتقر، أيضاً، إلى الحالة الاجتماعية المتعاضدة. والأغرب من كل شيء أنَّه يدَّعي أنَّ الماركسية جاءت لتقيم نظاماً اجتماعياً أخلاقياً، ولكنها أخفقت في ذلك. والحقيقة أنّ الماركسية كانت تعاني من الداء الذي ابتليت به الرأسمالية والنظام الغربي اليوم، ألا وهو المادية في التصوّر وفي النظرة؛ إذ تصوَّرت أنَّ النظام الرأسمالي، بتشريعه الملكية، أوجد هذه التناقضات والآلام والآثار الاستعمارية جميعها، ونسيت أنَّ داء النظام الرأسمالي ليس بقبوله الملكية، وإنَّما يكمن في الاتجاه المادي الذي يحمله.

ولمّا كانت الماركسية تحمل الاتجاه المادي نفسه، فقد ابتليت بالأعراض نفسها، كما ابتليت بالحالة الاستعمارية والتوجُّه السلطوي؛ حيث كانت الطبقة، هنا، تقوم مقام الفرد في النظام الرأسمالي، فتظلم باقي الطبقات وتستأثر بها. وبشكل عام يمكن الاشارة إلى ألوان من مساوئ النظام الرأسمالي، أو النظام الغربي، كالتدنّي الأخلاقي والتفكّك الأُسري وشعور الفرد بالوحدة، وتفشّي حالات الانتحار. والأسوأ من كل شيء، استمرار مجالات الهيمنة على الآخرين، وهو الداء الذي تعبّر عنه «العولمة» اليوم، والتي تعني هيمنة الوضع الاقتصادي الغربي على الوضع الاقتصادي العالمي، والوضع الثقافي الغربي على الوضع الثقافي العالمي، والوضع السياسي الغربي، أيضاً، على الوضع العالمي. ومن هنا فإنَّه حري بنا أن نسمّي العولمة بـ«الغربنة» أو «الأمركة».

والغريب أنَّ الباحث برايان ينصح الأمة الإسلامية بالتبعية (السياسية والاقتصادية والثقافية) للغرب حتى يمكن تحقيق التقارب المطلوب. هذه هي النقطة الأهم في رؤية برايان. وغريب، أيضاً، أنَّ يرى أن العالم الإسلامي الذي يعيش في القرن الخامس عشر الهجري بحاجة إلى نهضة شاملة، كما كان العالم الغربي في القرن الخامس عشر الميلادي على أبواب نهضة شاملة، ويرى أنَّ العامل الخارجي الذي حرّك الغرب نحو النهضة هو العالم الإسلامي، وهنا يرى أنَّ العالم الخارجي الذي يحرّك العالم الإسلامي هو الغرب. فالغرب إذا عامل الاصلاح، وهدف الاصلاح هو الكينونة وفقاً للصورة الغربية.

الثانية: أنَّ برايان يوجّه نقده إلى نقطة القوة والحيوية في عالمنا الإسلامي المتمثلة بعلماء

الدين الذين يصفهم رسول الله ﷺ بأنّهم ورثة الانبياء عليهم السلام باعتبارهم فقهاء الشريعة وباعتبارهم يمنحون الحياة الإنسانية صورتها الإسلامية، بهم تحفظ الصفة الإسلامية للأمة.

كما يوجّه نقده للمنهج التخصُّصي للفقهاء وهو الاجتهاد ويدعو لسلبهم هذا السلاح الحيوي ـ وهو كما نعلم ـ سر من أسرار المرونة الإسلامية والخلود الإسلامي. لان المجتهد هو الذي يعمل على استكشاف الحكم الشرعي وهو الذي يعمل على تطبيق القواعد واستكشاف حكم الوقائع من الاصول التي لديه، فاذا فقدت الأمة علماءها واجتهادهم المطلوب الذي يحقّق كل الشروط المطلوبة عادت أمة تائهة لاترتبط بأصولها، ولاتعرف منابعها، وهذا ما يريده الباحث برايان، فهو يدعو إلى أن تنفصل الأمة عن ماضيها، وأحياناً يكشف عن ارادته هذه ـ حينما يوصي الأمة بأن تعيد النظر من جديد في كيفية تطبيق تعاليم نزلت قبل اربعة عشر قرناً على واقع متطور متحضر هو الواقع اليوم، أو عندما يقول: إنَّ هناك فقط ثمانين آية تشير إلى الأحكام العملية لتنظيم الحياة، وهي لاتصلح للتطبيق في واقعنا القائم. كل هذه التعبيرات تكشف عن الغرض الأصلي من هذا التنظير، إنَّه محاولة سلب الأمة صفتها الإسلامية، وإبعادها عن دورها وعن واقعها وعن سر إسلاميتها وبقائها واقتدارها. وفي الوقع أنَّ مثل هذا التهديد ينبّهنا إلى مكمن الخطر ويشدّنا إلى عملية تحصين هذا المكمن، وينبّه العلماء إلى دورهم الكبير في الحفاظ على شخصية هذه الأمة، واتصالها بواقعها.

الثالثة: يحاول برايان أن يغير الحقائق، أو يفرض فهمه المغلوط للقرآن الكريم ليبني على أساس منه تصوّرات نظرية، فمثلا نجده يؤكد بأنَّ الجو الغالب فى القرآن هو الجبرية، والإنسان المسلم يشعر بأنَّه، مجبور في حياته وفي مسيرته، مما لايؤهله للتطوير، ولايؤهله للنهضة والاصلاح[1]، وهذا أمر مغلوط تماماً، فالقرآن الكريم يؤكد للإنسان أنَّه يستطيع أن يغيّر نفسه، وأنَّ التغيير الإلهي يتبع تغييره الذاتي ﴿إِنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيِّرُوا ما

---

١. وهذه فكرة كررها الغربيون كثيراً؛يقول الشهيد آيت الله مطهري: اننا عندما نلاحظ الكتابات الأخرى للغربيين نجدهم جميعاً يرون الاسلام مسلكاً جبرياً. وينقل نصوصاً عنديورانت.وغوستاف لوبون. بهذا الشأن. الانسان والقدر ص٣٩ من الترجمة العربية.

بِأَنْفُسِهِمْ﴾١. ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَها عَلىٰ قَوْمٍ حَتّٰى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ﴾٢، فالاتجاه القرآني ـ خلافاً لما يتصور ـ يقرر الإرادة الإنسانية وتقوية الارادة الإنسانية، ولكن في إطار اللطف الإلهي.

و نراه أيضاً يفسّر الإسلام بالتسليم للقدرة الإلهية دون أن يشعر بوجود ارادة حرة، وهذا تفسير مغلوط ايضاً؛ لأن الإسلام يعني التسليم الطوعي للإنسان، للأوامر الالهية باعتبارها الطريق إلى التكامل، وحيال مقارنته بين قراءات الانجيل قراءة القرآن للمعصية الأولى، أو ما يسميّه المعصية التي ترتبط بالحياة الإنسانية، فالحقيقة أن ما نعلمه من القرآن هو أن كل الآيات القرآنية ترتبط ارتباطاً مباشراً أو غير مباشر بالحياة وسلوك الإنسان، حتى آيات الآخرة وآيات التوحيد وآيات العدل الإلهي، فإنها كلها تصب في صياغة الشخصية الإنسانية الموحِّدة والعادلة والمتوازنة في سلوكها ومايذهب اليه برايان مغاير للحقائق تماماً وهو الأمر نفسه مع تصوره بأن تعاليم القرآن هي تعاليم إنسانية، جاءت لتصلح وضعاً قديماً، في حين أن القرآن الكريم جاء من خالق الإنسان، ليصلح الإنسان، ويعلمه طريق الكمال الوحيد، وينسجم مع فطرته التي لا تتغير مهما تغيرت الاحوال والظروف.

ومن هذا القبيل ما نشاهده من عرض خاطئ ومبسط للاقتصاد الإسلامي، فكأنّ الاقتصاد الإسلامي يتلخص في اتجاهين أخلاقيين، أحدهما: الزكاة التبرعية، والثاني: تحريم الربا، في حين أن الاقتصاد الإسلامي له نظريته الكاملة في توزيع ما قبل الانتاج الإنساني، وفي الانتاج نفسه وتطويره، وفي عملية توزيع ما بعد الانتاج الإنساني، كما أن له تصوراته الكاملة عن أهم عناصر الاقتصاد، ولا ينحصر بما تصوره برايان. كما أن المذهب الاقتصادي الإسلامي يطرح مختلف المشاكل الإنسانية، ويعطي حلوله المتكاملة، فيستوعب الحياة كلها. فأي سلوك اقتصادي في المجتمع لا بدّ و أن ينطبق عليه أحد الأحكام الخمسة، وهذا يعني أنَّ النظرية الاقتصادية الإسلامية ـ مذهبياً ـ عامة وشاملة لجميع نواحي الحياة.

أمّا القوانين الاقتصادية والنتائج العلمية التي تكشف ما هو الواقع في الخارج فإنّها أمور

---

١. الرعد: ١١.

٢. الانفال: ٥٣.

ليست من وظيفة الدين، إنّما على الدين أن يعطي قواعده المذهبية وخطوطه العامة. ومن هنا تصوّر برايان أنَّ المسلمين يمكنهم أن يضعوا نظريتهم الاقتصادية جانباً ليلتحقوا مباشرة بالنظام الغربي العالمي لقاء أن يقوم الغرب ببعض التعديلات الأخلاقية على نظمه. وهذا التصوّر، في الواقع، تصور غريب جداً، ينطلق من فكرة العولمة الاقتصادية التي أشرنا إليها.

الرابعة: أنَّ برايان يقدّم أحيانا اعترافات مفيدة، فيقول مثلاً: إن كثيراً من النظم القائمة في العالم الإسلامي صنعها الاستعمار الغربي، وهو يتحمل وزرها، وعليه إذا أراد أن يقرّب العالم الإسلامي إليه، أن يتحمّل تغيير هذه النظم الدكتاتورية إلى نظم ديمقراطية. وفي مكان آخر يرى الباحث أنَّ ابتعاد الغرب عن الاعتقاد بالآخرة هو سبب الكثير من مشاكله، ولذلك فهو يدعوه للعودة إلى هذه العقيدة؛ لكي يكون أقرب للمسلمين كما يقول: إنَّ على الغرب أن يغيّر الكثير من فرضياته ونظرياته، لأنّها لم تعد تمتلك صفة علمية. ويوصي النظام الرأسمالي بمقدار من الانضباط الأخلاقي والاتجاه الاجتماعي واعتماد سياسة اليسار الجديد، أي الاتجاه نحو العدالة الاجتماعية. وبالنسبة إلى الربا فإنه يرى فيه أضراراً كبيرة، ويرى أنَّ تحريم الإسلام للربا هو اتجاه صحيح يجب أن تحتذيه البنوك الغربية، ويجب أن يأخذه الاقتصاد الغربي بعين الاعتبار.

وهكذا نجد برايان، بين الحين والآخر، يحاول الاعتراف بالحقائق الدامغة من قبيل اذعانه بأنَّ النظام الإسلامي الإيراني هو نظام ديمقراطي كامل.

الخامسة: هناك تركيز كبير، في هذه الرؤية، على أوضاع الجزائر وتخوّف عظيم من التحول الإسلامي فيها، فهو يرى أنَّ أي تحول في هذه المنطقة يعني انقلاب العالم الإسلامي كله باتجاه النظام الإسلامي، ويرى أنَّ الغرب يجب أن يبذل جهده للوقوف أمام هذا التحول الذي يقع لا محالة.

والحقيقة أنَّ الجزائر حالة من الحالات الإسلامية العامة، وأنَّ الصحوة الإسلامية تسري في عروق العالم الإسلامي أجمع، وتضعه على أبواب تحول كبير لاكتشاف ذاته الحقيقية والعودة إليها، واسترجاع هويته وخصائصه الأصيلة.

السادسة: يرى برايان أنَّ المساواة بين المرأة والرجل، في المجالات جميعها، أمر طبيعي إنساني، يجب أن تسعى الحضارة الإسلامية والعالم الإسلامي للوصول اليه.

والحقيقة أنَّ هذا التصوّر مغلوط من أصله، إذ أنَّ الرجل والمرأة يقومان بدورين متكاملين، وكلٌّ منهما يحمل مسؤوليات جساماً، وله حقوق تماثل هذه المسؤوليات. يقول تعالى: ﴿وَ لَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾[١].

إنَّ التصور الإسلامي لحقوق المرأة والرجل قائم على أساس من هذا التكامل، وعلى أساس من مقتضيات الطبيعة التي تشكل الرجل والمرأة. وحينئذ فإنَّ منطق التساوي الكمّي منطق يرفضه حتى الواقع القائم اليوم في العالم الغربي. فلا بدَّ من النظر إلى واقع المسؤوليات ومجموع الحقوق، وحينئذ سوف نجد أنَّ الإسلام وضع كل شيء في محله، وأقام نظاماً اجتماعياً سليماً متوازناً. أمّا المفهوم الغربي لحقوق المرأة وحقوق الرجل، والذي يدعو إلى المساواة الكاملة، فهو منطق لا يلاحظ إلى الاختلافات الفيزيولوجية، ولا ينظرالاختلافات الوظيفية في الحياة الاجتماعية، ولا ينظر إلى الأهداف التكاملية الإنسانية. ومن هنا، فإنّنا نرى أنَّ ما أوصى به برايان العالم الإسلامي بإقرار المساواة بين المرأة والرجل، هو توصية في غير محلها، وتحاول أن تقلب الأمور الواقعية والحقائق الطبيعية رأساً على عقب.

السابعة: يرى برايان أنَّ الشورى لا تفي بالمطلوب، وأنَّ الصحيح هو الحل الديمقراطي بمنطقه الغربي. وهذا الأمر، قائم على المنطق الغربي الذي يجعل الدين شأناً فردياً لا علاقة له بالحياة. أمّا المنطق الإسلامي فإنّه يعطي الدين المرجعية الكاملة في الحياة الإنسانية الفردية والاجتماعية، ولا يمكن أن ينسجم هذا المنطق مع الفهم الغربي للديمقراطية القائل: إنَّ الشعب هو الحاكم في مصيره وفي تشريعاته وفي كل شيء يرتبط بحياته الاجتماعية.

إنَّ التصوّر الإسلامي يقوم على أساس الهداية الالهية للأمة لتحقيق الخلافة الإنسانية عن الله تعالى، وبالتالي، يفسح مجالات معيّنة ليقوم الشعب، عبر نظام الشورى، باختيار الأفضل لتطبيق الحكم الإسلامي، أو لحل المشكلات الاجتماعية الموكَّلة إليه. فالحدود العامة

---

١. البقرة: ٢٢٨.

(العقوبات) حدود إلهية، والتطبيقات تترك، أحياناً، للأمة؛ لتنتخب الفرد الحاكم، ولتنتخب النظام الأفضل لتطبيق الحكم الإسلامي.

فإنَّ الشورى، إذن، هي الأمثل، وهي الأكثر انسجاماً مع التصوّر الإسلامي للحياة السياسية الاجتماعية، وأنَّ المنطق الغربي منطق لا يقوم على أساس أخلاقي أو ديني أو واقعي متين.

وعلى الرغم من أنَّ برايان يعارض نظرية «هنتغتون» في الصراع بين الحضارتين الغربية والإسلامية، ويعتقد أنَّ التصورين يمكنهما أن يجتمعا ويتآلفا، فهو يرى أنَّ طريق الحل يتمثّل في أن ينسجم العالم الإسلامي مع الوضع الغربي، وهذا الحل غير الواقعي سيفرز علاقة غير متوازنة، وبالتالي فهي علاقة مرفوضة.

تساؤلات حول العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب[١]

وردت من الأخ صلاح عبد الرزاق في هولندا مجموعة أسئلة في الفقه السياسي تدور حول موضوعات مهمة وحساسة، حيث إنَّ الأخ السائل في صدد إعداد رسالة ماجستير تحت عنوان: «العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب وتأثيرها على القانون الدولي الإسلامي»، لذا وقع اختياره على الكتاب الأوّل من سلسلة كتاب التوحيد: «الدولة الإسلامية... دراسات في وظائفها السياسية والاقتصادية»، ليكون أحد مصادره في مجال الفقه السياسي، فأثار الكتاب لديه مجموعة تساؤلات ذكرها في رسالته وملخصها:

إنني طالب مسلم في جامعة ليدن بهولندا، أقوم حالياً بتحضير رسالة الماجستير في الدراسات الإسلامية، تحت عنوان «العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب وتأثيرها على القانون الدولي الإسلامي». ويعلم سماحتكم أنّه لابدَّ من ادراج وجهة نظر الفقه الإسلامي التي تتضمن أحكام الشريعة الإسلامية في القضايا المطروحة والمتعلقة بالبحث. وأنّكم خير من يمثّل رأي الشريعة الإسلامية في هذا الزمن المعاصر، ولديكم أبحاث عميقة وآراء قيّمة فيما يتعلق بالدولة الإسلامية.

وإنني أرجو من سماحتكم إبداء رأيكم في القضايا التي أطرحها، كي يمكن إدراجه

---

١. نشر في مجلة التوحيد الصادرة في قم، ايران، العدد ٨٥، الصفحة ١٥٩.

ضمن البحث كمصدر شرعي وأكاديمي.

ولا يخفى عليكم أنَّ الإسلام في الغرب يتعرَّض لشتّى الاتهامات والأباطيل في شتّى المجالات، الإعلامية والسياسية وحتى الاكاديمية التي يفترض بها أن تتمتّع بالموضوعية والمنهجية ألعلمية، بعيداً عن الدوافع والتأثيرات والأحقاد. ولا ريب أنَّ الرَّد العلمي الموثَّق بآراء العلماء والفقهاء، خير رد على تلك الاتهامات، وربما يساهم في عرض المفاهيم الإسلامية والأحكام الشرعية الأصيلة.

والأسئلة المطروحة هي:

١. ذكرتم في كتابكم (الدولة الإسلامية)، أنَّ أحد العناصر الأساسية التي تقوم عليها السياسة الخارجية الإسلامية هو «المصلحة الإسلامية العليا على ضوء الواقع القائم»[١].

فما هو تعريفكم للمصلحة، وما هي حدودها؟ ومن الذي يقوم بتحديدها؟ وهل يمكن من خلال السعي للمصلحة تجاوز حكم إسلامي أو قاعدة إسلامية؟

ألا تعتقدون أنَّ ذلك يفتح الباب واسعاً أمام خرق القانون الإسلامي، تحت ذريعة المصلحة الإسلامية؟ وماذا يبقى من الالتزام بالشريعة الإسلامية إذا كانت المصلحة مسوّغاً لتجاوزها؟

وإذا كانت المصلحة هي الأساس في التعامل، فما هو الفرق ـ على المستوى القانوني والسياسي ـ بين الإسلام والنظم الوضعية المعمول بها في العالم؟

٢. (نفي السبيل على المؤمنين) أهو هدف تطمح إليه الدولة الإسلامية أم واقع متحقّق في السياسة الخارجية الإيرانية، ومواقفها الدولية ومعاهداتها واتفاقياتها؟ مثلاً هل تستطيع ايران التحكّم بأسعار نفطها أم تلتزم بما تفرضه السوق الدولية ومنظمة الأوبك؟

٣. ذكرتم القواعد الثانوية والقواعد الأوّلية، وأن الأولى تستطيع أن تحكم على الثانية[٢]. هل تتفضلون بتعريف كل واحدة منها، ودورها في التشريع الإسلامي وتطبيقها في العلاقات

---

١. انظر كتاب: الدولة الإسلامية... دراسات في وظائفها السياسية والاقتصادية، الشيخ محمد علي التسخيري، سلسلة كتاب التوحيد١.، ط ١٩٩٤، ايران، ص ٨٠.

٢. م. ن.

الخارجية للجمهورية الإسلامية؟

٤. ايران من الدول الموقّعة على اتفاقية جنيف ١٩٦١ الخاصة بالبعثات الدبلوماسية، والتي تضمن الحصانة للدبلوماسيين وعدم تعرضهم للتحقيق والمحاكم والعقوبات في البلد المضيف. فهل يأتي الالتزام بهذه الاتفاقية ومنح الحصانة للدبلوماسيين المسلمين وغير المسلمين من باب المصلحة الإسلامية، أم الوفاء بالعهد بعد التوقيع عليها أم لغرض تمتّع الدبلوماسيين الإيرانيين بنفس الامتيازات؟

٥. هل يجوز للدولة الإسلامية توقيع معاهدة عدم اعتداء مع دولة غير مسلمة؟ وهل يعني ذلك توقّف الجهاد الابتدائي مستقبلاً، عند من لا يرى وجوب حضور الإمام المعصوم؟

٦. يقول سماحتكم: «لا نوافق على قيام الدول المتعددة في دار الإسلام»[1]، فما الأسس الشرعية التي تعتمدونها في ذلك؟ إنَّ السوابق التاريخية تشيرعكس ذلك، فالدولة الصفوية التي كانت تحت إشراف فقهاء الشيعة الكبار، كانت دولة قائمة بحدودها ولها علاقات واتفاقيات مع دول إسلامية أخرى كالدولة العثمانية. ولم يطرح موضوع التوحيد، بل كانت بينهما حروب عديدة. والجمهورية الإسلامية الإيرانية تسري قوانينها داخل الحدود الجغرافية المعترف بها دولياً. كما أنَّها تتعامل مع مواطنيها على أساس أنّهم يحملون جنسيتها التي تمنحهم الحقوق والامتيازات، والتي لا يتمتّع بها المسلمون غير الإيرانيين. كما أنَّ دخول الأجانب وحتى المسلمين يتم وفق اجراءات القانون الدولي في الحصول على ترخيصة الدخول (الفيزا) وحمل جواز السفر والاقامة وغيرها. ألا تعتقدون أنَّ ايران لا تختلف عن غيرها من دول العالم في ذلك؟ ألا ترون أنَّ الاعتراف بدول إسلامية متعدّدة أكثر واقعية وعدالة وانسجاماً مع الأوضاع الدولية التي تعترف لكل شعب بدولته المستقلة؟

٧. في العصر الحديث، أصبح لكل دولة مؤسسة عسكرية متخصّصة، فإذا كان الجيش قادراً على مواجهة العدوان والانتصار على العدو، فهل هناك حاجة لإعلان الجهاد، الذي يبقى مجرد سلاح يلوّح به لإرهاب العدو، أم يجب استخدامه لتعبئة الشعب كمصدر قوة

---

١. ن.م.

اضافية؟ وهل أعلن الإمام الخميني ﷺ الجهاد أثناء الحرب مع العراق؟

٨. ما رأي سماحتكم بانضمام الدول الإسلامية إلى المنظمات الدولية كالأمم المتحدة، والتوقيع على احترام النظام الداخلي لها، وهل يمثّل ذلك الزاماً شرعياً لقبول قراراتها؟

٩. إن بعض الاتفاقيات الدولية ذات طبيعة تنفيذية داخل البلدان الإسلامية فمثلاً تنفيذ قوانين العمل كتحريم عمل الأطفال دون سن معينة، أو التدخّل في قضايا الأحوال الشخصية، والتجارة والجمارك وغيرها، فهل يجب تطبيقها؟ وما هو المسوّغ الشرعي؟

١٠. العديد من الدول الإسلامية لجأت إلى محكمة العدل الدولية في لاهاي، لفض المنازعات والخلافات سواء فيما بينها أو مع الدول غير الإسلامية، مثلاً تحاكمت ايران وأمريكا لديها.

فهل يجوز التحاكم شرعاً إلى هذه المحكمة، الذي ورد في الآية الكريمة ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِما أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ ما أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحاكَمُوا إِلَى الطّاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَ يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً﴾[١].

وهل تعتبرون المحكمة الدولية أفضل وسيلة لحل النزاعات، بدل اللجوء إلى القوة وشنّ الحروب، انطلاقاً من أنّ رسالة الإسلام تدعو للحق والعدل والسلام أم أنَّ اللجوء إليها يأتي من باب المصلحة الإسلامية واسترداد الحق الذي قد لا يتحقق إلَّا بواسطة هذه المحكمة.

١١. هل يعتبر توقيع الدولة الإسلامية على لائحة حقوق الإنسان ملزماً لها بتنفيذ موادها داخل الدولة، حتى لو كانت تعارض القوانين أو أحكام الشريعة الإسلامية، مثل الحرية الجنسية أو حرية المعتقد التي قد تؤدي إلى الرّدة عن الإسلام، أم أنَّ الأفضل أن توقّع على ما ينسجم مع الشريعة وتتحفَّظ على المواد المخالفة؟ وهل كان هناك آراء خاصة بقرارات مؤتمر السكان في القاهرة ١٩٩٤ ومؤتمر المرأة في بكين ١٩٩٥؟

١٢. حدث أثناء غزو العراق الكويت خلاف، حول شرعية الاستعانة عسكرياً بدولة غير إسلامية، ما رأي سماحتكم؟

---

١. النساء: ٦٠.

١٣. إن الدول الإسلامية حالياً تعتمد مفهوم المواطنة وامتلاك جنسية الدولة أساساً في منح الحقوق المدنية في العمل والاقامة والوظائف بشكل يتساوى فيه مواطنو تلك الدول سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين، ففي ايران مثلاً لا يوجد نظام الجزية. أيبقى هناك مكان لمفاهيم وأحكام (أهل الذمة) و(الجزية) أم يجري تطبيق القوانين المدنية التي تساوي بين المواطنين؟

١٤. هل يجوز قتل غير المسلمين أو إلحاق الأذى بسبب خلاف مع الدولة التي ينتمون اليها، في بلدهم أو في البلد المسلم أو في بلد ثالث أو في طائرة أو سفينة وغيرها؟

١٥. هل يجوز اكتساب جنسية البلدان الكافرة والغربية؟ علماً بأنَّ القوانين الغربية ستطبق على المتجنّس، ومنها قوانين الأحوال الشخصية، وهي قوانين وضعية وغير إسلامية؟

وقد ينخرط المتجنّس في جيش البلد الغربي وقد يدخل حروباً ضد بلد إسلامي، فما هو الحال؟ علماً بأنَّ اكتساب الجنسية يفتح أمامه مجالات واسعة في التحرّك والعمل حتى لخدمة الإسلام.

كما أنَّ بعض المسلمين ليست لديهم أية جنسية، وجاءوا إلى البلدان الأوربية كلاجئين، هرباً من الأنظمة الظالمة في بلدانهم.

١٦. هل تعتبر الدول الغربية دارحرب على وفق التقسيم الشرعي؟ وما رأيكم بذلك التقسيم الذي يقسم العالم إلى دار إسلام ودارحرب ودارصلح ودارعهد؟

١٧. هل يجوز الانتماء للاحزاب السياسية الغربية، من أجل الوصول إلى البرلمان والدفاع عن حقوق المسلمين في ذلك البلد الغربي؟

إجابات

الأخ العزيز الأستاذ صلاح عبد الرزاق المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد، فأساله تعالى لكم التوفيق والتسديد في عملكم العلمي وإجابة على رسالتكم الكريمة المؤرخة ١٦ محرم ١٤١٧ الموافق ١٩٩٦/٦/٣ م أذكر النقاط التالية:

الإجابة على السؤال الأوّل: أنَّ المصلحة العامة واضحة في مفهومها العام كما هي واضحة في مفهومها الشرعي، فهي في المفهوم العام: «كل ما يعود على الأمة من خير يقوّي

وجودها ويساهم في أداء دورها الحضاري كخير أمة أخرجت للناس».

وهي في مفهومها الشرعي «كل ما يحقق مقاصد الشريعة في الفرد والمجتمع». ويذكر الفقهاء منها: (حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ المال، وحفظ النسل)

وواضح أنَّ هذه الأمور تملك إطاراً أوسع إذا أريد منها المعنى الاجتماعي، فحفظ النفس ـ مثلاً هنا ـ يعني: «حماية الأمة ككل حتى ولو تطلّب الأمر التضحية ببعض الأفراد».

والمهم هنا أن نعرف أنَّنا لو ركَّزنا على المصلحة الفردية قلنا: إنَّ الفقيه تارة يدرك تماماً أنَّ المصلحة تكمن في هذا العمل بلا منازع وبشكل قطعي، فهنا له أن يحكم بمطلوبية العمل ـ على اختلاف درجة المطلوبية ـ أمَّا إذا ظنَّ بالمصلحة أو احتمل وجود مزاحم لها أو احتمل فقدانها لبعض الشروط التي تمنع من تشريعها فإنَّ هذه المصلحة ليست حجَّة عند الشيعة، وإن كانت بعض المذاهب السنية تقول بحجيتها. أمَّا إذا عبرنا الأمر إلى المصلحة الاجتماعية فهي بلا ريب موكولة إلى الحاكم العادل المشاور لأهل الخبرة، ولا يحتاج هذا الحاكم إلى أن يقطع بشكل تام بها، بل يكفي الظن العرفي، باعتبار أنَّ عنصر الادارة لا يقوم على القطعيات، وإنما يقوم على أساس ما يدرك من المصالح العامة في إطار منطقة الفراغ التي تركها الشارع لولي الأمر كما سنوضح.

أمّا ما طرحتموه من إمكان تجاوز حكم شرعي بها، فالجواب: أنَّ هذا يعتمد على بحوث مدى الولاية التي يملكها الحاكم الشرعي فأنتم تعلمون أنَّ الأفراد في إطار الأحكام الأوّلية لهم الحق كاملاً في الاستفادة من المباحات كما أنَّ عليهم أداء التكاليف، ولكن لـمّا كان حفظ النظام ورعاية المصالح المتغيّرة للأمة، والشروط الحادثة يحتاج إلى قيادة واعية للتجربة الإسلامية ولأساليب تطبيق الإسلام، وتنفيذ أوامره وحدوده، والدفاع عن كيانه، فقد جاءت مسألة الحكومة، ولا ريب في أنَّ الحكومة بلا ولاية أمر غير متصوَّر؛ لأنَّ الأمر يتطلَّب أن يقوم الحاكم بتحديد بعض الحريات الفردية لمصالح المجتمع، والمنع من بعض المباحات أو الأمر بها، لتحقيق الوئام الاجتماعي المطلوب، ولـمّا كان أكثر علماء المسلمين يشترطون الفقه في الحاكم، فقد جاء مصطلح (ولاية الحاكم الفقيه) ليقوم بهذا الدور.

أما حدود هذه الولاية: فهي كما بيناه في كتابنا (الدولة الإسلامية) تشمل مساحة

المباحات بالمعنى الأعم الشامل للمستحبات والمكروهات، فله إذا ادرك المصلحة أن يحدّ منها، وعلى الأمة الطاعة بمقتضى: ﴿أَطِيعُوا اللهَّ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[١]؛ أمّا بالنسبة للأحكام الالزامية فلها بحث واسع، إلّا أنّنا نشير إلى أنَّ بعض الأحكام مشروط وجوبها بالقدرة كالحج، فإذا فرض الحاكم الشرعي الجهاد مثلاً على الفرد المستطيع (في حالته العادية) فإنَّه يفقد قدرته الشرعية على الحج ويقدم الجهاد حينئذ، وكذلك فيما لو وجد الحاكم تزاحماً بين أمرين، من قبيل ما لو ترتّب على الحج إذلال للشعب مثلاً فله بمقدرته الولائية أن يقدِّم ألاهم على المهم، وكذلك لو رأى الحاكم أنَّ تنفيذ حكم من الأحكام أو نظام معين تترتّب عليه آثار سيئة قطعية في بعض الظروف فله الايقاف المؤقت حتى ينتهي ذلك الظرف، من قبيل ما رآه الحاكم الشرعي أول أيام الثورة من أنَّ منع الربا من البنوك من أول الأمر سيصيب البلاد بشلل كبير فقبل مؤقتاً به ثم عمل على تغييره.

فالجواب إذن على تساؤلكم عن الفرق بين النظام الوضعي والنظام الإسلامي: أنّ المصالح في النظام الإسلامي إنَّما يعيّنها الإسلام، وفي النظام الوضعي يعينها الشعب أو الحاكمون، ثم أنَّ الأصل هو تطبيق النظام الإسلامي قبل كل شيء، فاذا حدث ظرف طارئ أوجد تزاحماً كبيراً بين ما جعله الشارع نفسه (من المصالح وما قرره من أحكام) أمكن للحاكم في ظروف استثنائية وبشكل مؤقت تقديم ألاهم على المهم وهذا فارق عظيم.

جواب السؤال الثاني: «نفي السبيل على المؤمنين» قاعدة أصيلة حاكمة، وهي مقدَّمة على كل حكم إسلامي أولي (اي حكم الموضوعات بغض النظر عن الأمور الطارئة) مثلها مثل قاعدة (لا ضرر) و(لا حرج)، ويسعى الحاكم الشرعي من خلالها لتحقيق الاستقلال الإسلامي بل والعلوّ الإسلامي على الآخرين في مختلف المجالات العلمية والعسكرية والحضارية وغيرها. ولكنّ هذا لا يعني التفريط بالمصالح الإسلامية العليا والغرق في الخيال، وهل يمكننا اليوم أن نسوق نفطنا بحرية وبالقيمة التي نشاؤها؟ إنَّ كل ذلك في

---

١. النساء: ٥٩.

حدود المقدورات بلا ريب.

جواب السؤال الثالث: القواعد الأوّلية، هي الأحكام الأوّلية التي تأتي عامة. ويمكن تعريفها بأنّها الأحكام المجعولة للأشياء أوّلا وبالذات، كاباحة شرب الماء، وإباحة المشي، وحرمة الخمر، ووجوب الصلاة.

الأحكام الثانوية هي الأحكام التي تجعل للأشياء بلحاظ ما يطرأ عليها من ظروف وشروط وعناوين أخرى تقتضي تغيير حكمها الأولي، فشرب الماء المباح إذا توقّفت الحياة عليه يصبح واجباً، وإذا كان يترتّب عليه ضرر يصبح حراماً، والقواعد الثانوية كالتقية والضرر والحرج ونفي السبيل تعبّر عن المرونة الإسلامية.

وهناك تطبيقات كثيرة في مختلف المجالات، نذكر منها: مسألة القبول بالقرار ٥٨٩ ووقف اطلاق النار، فمع أنَّ الحكم الأولي على النظام العراقي أنَّه باغ يجب أن يقاتل ويعاقب على إجرامه الكبير، ولكن الأضرار التي كانت تترتّب على عدم القبول كبيرة، ممّا دعت إلى تقديم هذا الحكم الثانوي على الحكم الأولي.

جواب السؤال الرابع: الوفاء بالعقود والوعود من الواجبات الإسلامية. وبطبيعة الحال، فالالتزام بالاتفاقيات ضروري في نفسه وبذاته إلى الحد الذي تتطلبه الاتفاقية، اللّهم إذا أخلَّ الطرف المقابل بشروط العقد (من قبيل تجسس البعثات الدبلوماسية)، وربما وجد النظام الإسلامي أنَّ هذا الوفاء يعود عليه بأعظم الأضرار، كما لو قادت سفارة ما حركة انقلابية لنقض النظام بالفعل، هنا يأتي قانون التزاحم الذي أشرنا اليه.

جواب السؤال الخامس: لا مانع من توقيع معاهدة عدم اعتداء مع دولة غير مسلمة، بل أن القبول بميثاق الأمم المتحدة يعني ذلك عموماً. أمّا مسألة الجهاد الابتدائي ـ عند من لا يرى وجوب حضور الإمام المعصوم ـ فهي تتوقف فعلاً على غلبة المصلحة العامة وعدم ترتّب الأضرار الكبرى بلا ريب.

جواب السؤال السادس: تعدّد الدول الإسلامية؛ أجبت على هذا السؤال بوضوح في الكتاب واعتبرت هذه الحالة (حالة تعدد الدول الإسلامية) حالة استثنائية في تصوّرنا الإسلامي.

ويكفي للتدليل على وحدة الدول الإسلامية ملاحظة (وحدة القائد الامام، ووحدة المصلحة العليا ووحدة الأمة الإسلامية)، ولا مجال للتفصيل، وما نجده من واقع قائم هي أمور تفرضها الظروف والشروط الحالية بصفة استثنائية ـ كما أعتقد.

أمّا حكاية الدولة الصفوية والدولة العثمانية، فأنا لا أراها دولاً إسلامية بالمعنى الدقيق للدولة الإسلامية.

جواب السؤال السابع: إعلان الجهاد العسكري في المنطق الحديث هو نفس أمر الجيش بالقتال، فاذا اريد الدعم الشعبي توسَّع هذا الأمر، وليس شيئاً وراء ذلك. نعم لو اريد تحريك المسلمين في منطقة ما أو في كل المناطق واستثارة الحسّ العقائدي فيهم، فالأمر يكون شبيهاً بهذا الاعلان في العصور الأولى، والإمام الخميني(رحمهم الله) بأمره الجيش بالقتال يكون قد أعلن الجهاد الدفاعي في تلك الحدود.

جواب السؤال الثامن: نعم يشكّل الالتزام ـ شرعا ـ بالقبول بجميع مقرراتها، مع ملاحظة ما أشرنا إليه من قبل.

جواب السؤال التاسع: يجب تطبيقها عند الانضمام إلى المعاهدة، إلاّ إذا كان الانضمام اليها مع تحفظات مسبقة ممكناً، فيمكن معه التحرر من البنود التي تم التحفظ عليها.

جواب السؤال الحادي عشر: أشرت إلى أنَّ الانضمام إلى أيَّة اتفاقية يعني الالتزام بها، إلّا إذا كان هناك تحفظ، ولا ريب أنّنا تحفظنا على كل ما يخالف الإسلام في هذه الاعلانات. وينبغي أن نشير إلى أنَّ هذه الإعلانات التي أشرتم إليها ليست إعلانات ملزمة، وكذلك إعلانات القاهرة، وبكين؛ وقد قمنا بتوضيح الأمر، (وارفق لكم تقريراً عن نشاطنا مثلاً في بكين).

جواب السؤال الثاني عشر: القضية هنا شائكة، فلا أتحدَّث عن هذا المصداق. أمّا الحكم بشكل كلي من قبيل ما لو دخلت دولة إسلامية في صراع مع دولة كافرة واستعانت الدولة الإسلامية بدولة كافرة أخرى، فلا مانع منه، إلَّا إذا ترتبت أضرار أخرى على هذه الاستعانة، فالقضية تحتاج إلى دراسة الظروف الموضوعية.

جواب السؤال الثالث عشر: أجبت ـ من قبل ـ على مثل هذا السؤال. وقلت: إنَّ هذا الشكل من التطبيق تابع للظروف الحالية.

جواب السؤال الرابع عشر: الجواب الأوّلي هو النفي. فالمؤمنون بعيدون عن الغدر، وقد أدانت الجمهورية الإسلامية الإيرانية ـ بوضوح العمليات الإرهابية، أي إذا كان (أولئك) لهم يد في إذلال الشعب أو احتلال أرضه، كما هو في فلسطين ولبنان. فمقاتلة الجيش الإسرائيلي ومن يناصره، كما يسمى بـ(جيش لبنان الحر) الذي يقوده انطوان لحد والذي يشكل حزاماً أمنياً لإسرائيل ـ مثلاً ـ أمر يقتضيه الدين والعرف والقانون المحلّي والدولي.

جواب السؤال الخامس عشر: التجنّس بجنسية البلاد الكافرة في نفسه لا مانع منه، إلّا إذا ترتّب عليه عمل محرم، فيجب ملاحظة المستلزمات في ذلك، والحقيقة أنَّ هذه المستلزمات موجودة، فإذا أمكنه التخلّص منها فلا مانع، وإلّا فلا، إلّا أن تكون ضرورة.

اما الانخراط في الجيش المترتب على التجنس لمصلحة إسلامية فقد توضّح الجواب عليه في القسم الأوّل منه.

جواب السؤال السادس عشر: لا أرى أنّها من ديار الحرب، إلَّا إذا دخلت حرباً مع العالم الإسلامي؛ بل هي من ديار العهد؛ والتقسيم الذي أشرتم إليه صحيح، إلّا أنَّ التطبيقات مختلفة اليوم.

جواب السؤال السابع عشر: الجواب هنا نفس الجواب على السؤال الخامس عشر.

في الختام سأقوم بإرسال بعض ما طلبتموه مع البطاقة الشخصية لكي يمكن المراسلة من جديد، أسال الله تعالى لكم التوفيق والتسديد.

رسالة إلى المشاركين في ندوة لندن[1]

الأخوات والإخوة المشاركون في المؤتمر الثاني للحوار بين الإسلام والغرب والمنعقد تحت عنوان (الصراع أو التعاون).

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كم كنت أودُّ لو أكون بينكم لنتابع حوارنا الذي بدأناه في المؤتمر الأوّل لولا أنّ السفارة

---

١. رسالة إلى المؤتمر الثاني للحوار بين الإسلام والغرب الصراع ام التعاون.، ١٤١٧/٢/١٥ هـ. ق، ١٣٧٥/٤/١٢ هـ. ش، ١٩٩٦/٧/٢ ميلادي، بريطانيا ـ لندن.

هنا بطهران رفضت منحنا تأشيرة الدخول في آخر لحظة.

ولذا وجدت من اللازم عليَّ أن أبعث لكم ـ على عجل ـ بهذه الرسالة التي كتبتها في الصباح الباكر من هذا اليوم الثلاثاء لأوكّد لكم بكل إخلاص أنّي أشارككم في هذا المسعى الجميل لتحقيق هدف إنساني كبير.

أيّها المشاركون الأعزاء!

خلافاً لما طرحه السيد صاموئيل هانتينغتون رئيس قسم الدراسات الاستراتيجية في جامعة هاروارد الأمريكية من أفكار حول إرجاع الصراع اليوم إلى الأساس الثقافي واعتبار (صراع الحضارات) هو المرحلة المتطوّرة من أنواع الصراع التاريخي، وكذلك خلافاً لما يدّعيه من أنَّ الاختلاف بين الحضارات الموجودة اختلاف جوهري مستمر متصاعد، تغذّيه الصحوة الدينية، فهو لا يقبل التغيير، وهكذا خلافاً لما يذكره من الصراع بين الجبهتين الغربية والإسلامية، ويدعو إليه من ضرورة التحالف الغربي مع الحضارة اليابانية، ومحاصرة الجبهة الإسلامية، والاستفادة من خلافاتها، ودعم العناصر الموالية للغرب فيها.

نعم خلافاً لكل هذا أودُّ أن أعلن لكم جميعاً أن الجواب الحقيقي للسؤال الذي يطرحه هذا المؤتمر هو (التعاون) ولا غير

إنَّ هذا الجواب الايجابي تفرضه أمور هي باختصار:

أوّلا: كون الحضارة منتوجاً إنسانياً تكاملياً... يستهدف إعلاء الإنسان وإسعاده، وحينئذ فالصيغ الحضارية الإنسانية تتكامل بدلاً من أن تنعزل فضلاً عن أن تتصارع، فإذا رأينا حضارة ما تزول فإنّما هي تزول لظلمها ـ كما يقول القرآن الكريم ـ أو انعزالها عن المسيرة وانطوائها على نفسها.

وثانياً: فإنَّ عوامل التواصل بين الحضارتين الإسلامية والغربية كثيرة واهمّها:

أ. تشابه الأصول التاريخية والدينية

ب. التجارب التي تمَّ فيها التعاون التاريخي

ح. التجاور الجغرافي

د. وحدة الشعارات (كشعار الحرية، والعدالة، وحقوق الإنسان)

هـ. وحدة المصير المشترك

ورغم أنَّ هناك بعض العوامل التي تفرّق بينهما من قبيل:

أوّلا: وجود اختلاف في الاتجاه الغربي نحو الحياة الحسيّة والاتجاه الإسلامي نحو الحياة المعنوية

وثانياً: الاتجاه الواقعي الشرقي والاتجاه النسبي الغربي

وثالثاً: في عملية الفصل بين الدين والحياة في الغرب ووحدتهما لدى الشرق

ورابعاً: في القول الغربي بالحرية المطلقة والتعديل الشرقي بينها وبين العدالة

وخامساً: في الاتجاه الفردي الغربي والجماعي الشرقي

وسادساً: في اختلاف المصالح

وسابعاً: في وجود بقايا نفسية من الصراع التاريخي كما في مسألة الحروب الصليبية، والاندلس، والاستعمار

واخيراً: بوجود بعض النظريات الاستعلائية

رغم كل هذا فإنَّ عوامل التواصل أكبر وأقوى، وأن المنطق الإنساني في الحوار هو الأصل.

يقول القرآن الكريم ﴿يا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثىٰ وَ جَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَ قَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ﴾[١].

أمّا واجبنا في مثل هذه المؤتمرات فيتلخّص في ضرورة:

١. العمل على تصحيح نظرة كلٍّ منا إلى الآخر

٢. العمل على تحقيق التعاون الدولي سياسياً واقتصادياً واجتماعياً

٣. العمل على تحقيق التفاهم الديني ـ والفلسفي

٤. العمل على تجاوز الرواسب النفسية التاريخية

٥. التوجُّه نحو المصالح الإنسانية العليا

٦. تجاوز النظرات الاستعلائية وعمليات فرض الهيمنة السياسية والعسكرية والفكرية والاقتصادية

---

١. الحجرات: ١٣.

٧. تقوية الأواصر الثقافية

٨. تقوية إجراءات التعادل بالنسبة للحرية والفردية والمساواة

٩. السعي لإبعاد الاتجاهات القشرية لدى الطرفين

١٠. العمل المشترك لتحقيق القضايا العادلة في مثل كشمير، فلسطين، البوسنة

١١. عدم استخدام القوة لفرض المنطق الذاتي (الاسلوب الأمريكي اليوم)

١٢. امتلاك سعة الصدر الاجتهادية والاجتماعية

الظروف المساعدة اليوم

والظروف اليوم تعيننا على هذا الحوار ومن أهمها مثلاً ما يلي:

١. سقوط الشيوعية

٢. الموقف الأوروبي من الحوار في قبال الموقف الأمريكي المتعنت

٣. قوة الأمم المتحدة

٤. ندوات الحوار المشكّلة هنا وهناك

٥. فشل أطروحات الفرض والتحميل في أفغانستان وفلسطين، والصومال

٦. خفّة الصراع في البوسنة، والعراق، وأفريقيا.

وهنا نقترح الخطوات العملية التالية:

أوّلا: علينا أن ننقل هذه الندوات إلى مؤتمرات عالمية واسعة

ثانياً: علينا أن نعمل على عقد لقاءات قمة بين قادة الأديان

ثالثاً: علينا السعي لتقوية المنظمات الثقافية والاقتصادية الدولية

رابعاً: علينا أن نطوّر لغة الحوار الفلسفي على مختلف المستويات

(ومن هنا نقيم دعوة الإمام الراحل لغورباتشوف للحوار الفلسفي)

خامساً: علينا أن نفتح مجالات أخرى للحوار كالحوار اللغوي والحوار الأدبي، والحوار الموسيقي، والحوار الفني وغيره.

وختاماً: أرجو لمؤتمركم كل نجاح وتوفيق وللسيدة نيكلسون النجاح في إدارة أعمال هذا

المؤتمر الكريم.

أودُّ هنا في ختام رسالتي هذه أن أشكر اليونسكو وبالخصوص سيادة الأستاذ فردريكومايور وأمينها العام على ما يبذله من جهد في خدمة قضية الثقافة والحوار العلمي الموضوعي مع الحضارة الإسلامية، وكذلك سعيه الحثيث في التعريف بدور هذه الحضارة في التراث العلمي للإنسانية جمعاء ويتجلّى بعض هذا السعي في إقراره لمشروع بيت الحكمة.

كما أودُّ أن أنوّه بأنَّ أعلى مجلس ثقافي في الجمهورية الإسلامية الإيرانية وأعني به (المجلس الاعلى للثورة الثقافية) قد وافق على مساهمة ايران في إنجاح هذا المشروع وأوكل تنفيذ الأمر إلى منظمتنا رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية، ونرجو الله تعالى أن يوفّقنا لأداء هذه المسؤولية الثقافية المهمة

بين نظرية القراءات والاجتهاد الإسلامي[1]

يشيع اليوم في الأقطار الإسلامية مصطلح «القراءات» كتعبير حديث عن وجهات النظر المختلفة المفسرة للنصوص الدينية وغيرها، ونظراً لما رافق هذه النظرية من إبهام وما أوجدته من اضطراب فكري فإنَّ من المناسب دراسة حقيقة هذه النظرية ومدى انسجامها مع الثقافة الإسلامية الأصلية.

ولاريب أنَّ هذا المصطلح غربي المنشأ وغريب على الثقافة الإسلامية وقائم على أساس من نظريات الهرمنوطيقيا الغربية الحديثة فهل هناك من جديد فيه؟ وهل لدينا ما يقابله من مصطلحات تفي بالحاجة فلا نضطر لاستيراد مصطلح جديد محاط بإبهامات خطيرة الأثر على نمط تفكيرنا وثقافة أجيالنا؟ فالاجتهاد مصطلح أصيل إسلامي، والفهم العرفي مصطلح أصيل إسلامي أيضاً، وهما يقومان مقام المصطلح الوافد مع فارق كبير هو أنَّهما مصطلحان واضحان محددا المعالم والسمات والضوابط بشكل نكاد أن نتّفق عليه، وما نختلف عليه منه أيضاً محدد واضح. ومع هذه الحقيقة وبملاحظة أنَّ الاجتهاد الإسلامي

---

١. ألقي في المؤتمر الرابع عشر للوحدة الإسلامية في طهران، ١٧ ربيع الأوّل ١٤٢٣.

اليوم يقع غرضاً لسهام كل أعداء الإسلام؛ لأنّه ضمانة ديمومة العطاء الإسلامي وسرّ المرونة الإسلامية التي تؤهّل الإسلام لاستيعاب متغيرات الزمان والمكان والبقاء خالداً يحلُّ مشكلات الأمة ويضع لها الحلول اللازمة، بل ولأنَّ المفروض في الاجتهاد أن يربّي العناصر التي ترشد الأمة وتحل مشاكلها واختلافاتها وتقود مسيرتها نحو الغد الحضاري الأمثل، فهل ـ يا ترى ـ ترويج مصطلح القراءات يعدُّ إهداراً لهذا المخزون الإسلامي العظيم؟

ولـمّا كانت هذه المشكلة ممّا يهم العالم الإسلامي من جهة ولأنَّ المذاهب الإسلامية جميعها لها موقف واحد تقريباً منها فإنَّ مجمع التقريب بين المذاهب الإسلامية ضمن خططه الرامية للمّ شمل المسلمين ورفع العاديات عنهم وتوضيح المبهمات فقد قرر أن يكون موضوع مؤتمره الرابع عشر دراسة نظرية القراءات هذه والتركيز على البدائل السليمة.

ومن الطبيعي أن نركّز قليلاً على الهرمنوطيقيا القديمة والحديثة لنعرف الأمور التي اشرطت بهذا المصطلح.

الهرمنوطيقيا

هذا المصطلح مأخوذ من فعل يوناني يعني التفسير وقد استعمله أرسطو في بعض كتبه بهذا المعنى.

ويرى بعض المحققين أنَّ هذا المصطلح يرتبط بمراحل ثلاث من العمل التفسيري:

١. نفس النص ٢. المفسِّر ٣. انتقال رسالة النص للمخاطبين.

ويعتبر شلايرماخر (١٧٦٨ ـ ١٨٣٤ م) مؤسس الهرمنوطيقيا الحديثة ويبدأ رأيه بهذا التساؤل: كيف يتمُّ فهم الأقوال؟

فالسامع يفهم معنى ما بحدسه. وهذا الحدس عمل هرمونوطيقي والهرمونوطيقيا هي فنّ الاستماع وفهم العبارة والممارسة المكررة للنشاط الذهني للقائل أو المؤلف لهذا النص.

فالمؤلف يصوغ جملة ما والسامع يخوض في أعماق تركيبتها (بواسطة اللغة).

والتفسير عبارة عن نشاط نحوي ذي علاقة باللغة، ونشاط نفسي مرتبط بالنمط الفكري للقائل.

فشلاير ماخر متأثر بأقوال المفكرين الرومانسيين الذين كانوا يعتقدون بأنَّ الحالات الخاصة للفكر هي إنعكاس لروح ثقافية أوسع؛ فالتفسير الصحيح يحتاج لفهم النسيج

الثقافي التاريخي للمؤلف وذهنيته الخاصة، وهذا المعنى يستلزم نوعاً من الحدس بحيث يستطيع المفسر أن يتمثّل وعي المؤلف لمدركاته هو. وقد يستطيع المفسر أن يصل إلى فهم أفضل ممّا توصل إليه المؤلف.

إنه يقول إن التساؤل عن معنى النص يطرح بأسلوبين:

أحدهما: ماذا يقصد المؤلف؟ وهكذا يكتشف من النص، الأفكار وحتى أنّه يكتشف من ملاحظة روح العصر آنذاك.

والثاني: ماذا يعني بالنسبة للمخاطب؟ فاذا كان المخاطب معاصراً فإنّه يبدأ بتحليل النص لفظاً؛ لأنّه يشارك القائل في روح واحدة. أمّا إذا لم يكن معاصراً فإنَّ عليه أن يعيد تركيب فكر المؤلف ورغم اختلاف ثقافتيهما، فإن هناك شبها معنوياً بينهما، فإذا استطاع المخاطب أن يكتسب معرفة كافية عن القائل فإنّه يمكنه أن يمارس من جديد تجربته الفكرية.

اما ديلتاي (١٨٨٣ ـ ١٩١١م) فقد سعى إلى جعل نتائج العلوم الإنسانية شبيهة بنتائج العلوم الطبيعية عبر اعطائها أسلوبا رصيناً. اعتبره أصلا أسلوباً معرفياً للعلوم الإنسانية، ولكنه بسبب النمو السريع للعلوم الإنسانية وابتكار أساليب خاصة لكل علم، لم يوفَّق لطرح الهرمنوطيقيا وفق تصوّره من جديد في قبال التيارات الفكرية الأخرى وهي من قبيل:

١. النظريات الجديدة حول السلوك الإنساني التي طرحت في علم النفس وعلم الاجتماع والتي فسّرته إمّا بالعلل الغريزية أو العوامل الطبيعية.

٢. التطوّر في العلوم المعرفية، وفلسفة اللغة التي قررت أن حقيقة ثقافة ما هي نشاط التركيبة اللغوية لها والتي تفرض نفسها على التجربة الثقافية.

٣. استدلالات فلاسفة آخرين مثل ويتغنشتاين وهايدغر التي تؤكد على أنَّ التجربة الإنسانية لها ماهية تفسيرية ولذلك تعتبر الأديان مجموعة معينة من التفاسير. وعلى أي حال، فإنَّ ديلتاي لم يقبل رأي شلاير ماخر في أنَّ النص محصول لقصد المؤلف واعتبره رأيا معاديا للتاريخ حيث إنَّه ينكر التأثيرات الخارجية.

ورأى أنَّ أسلوب العلوم الإنسانية هو أسلوب فهمي في حين أنَّ أسلوب العلوم الطبيعية هو أسلوب وصفي، وأنَّ اكتشاف الحقائق الطبيعية هو من قبيل تطبيق القوانين الكلية.

والمؤرخ هو مفسِّر يسعى من خلال اكتشاف النوايا والأهداف والطباع إلى معرفة العناصر المؤثرة في الحوادث التاريخية. ولمّا كنّا أناساً أيضاً فإنّنا نستطيع اكتشاف هذه العناصر، فالفهم عبارة عن اكتشاف الأنا في الأنت من خلال المشتركات الإنسانية.

إنَّه يتحدث عن نمطين من الفهم:

الأوّل: فهم الظهورات البسيطة: الكلام والخوف، وهذا ما نفهمه بلا حاجة إلى استنتاجات معينة؛ لأنَّ هناك أمراً مشتركاً هو «الروح العينية».

الثاني: فهم التركيبات المعقدة كالحياة والعمل الفني، وهو فهم متعال. فإذا لم نستطع أن نفهم عمل شخص ما كان علينا أن ندرس ثقافته وحياته. فالفهم المتعالي هو وعي الأفراد، والهدف الأصلي للهرمنوطيقيا هو تكوين وعي أكمل عن المؤلف. ولعلّه لم يتوفر هو عليه.

إنَّ الإنسان يعي نفسه في التاريخ لا في تأمّله الباطني وأنَّ حياته قطعة من الحياة في المجموع.

وهكذا نجد ديلتاي يقلل من ضرورة معرفة قصد المؤلف ويسعى ليطرح منطقاً تفسيرياً باعتباره نشاطاً في العلوم الإنسانية، ويربط إمكانية هذا الفهم بالتركيبة الكلية للطبيعة الإنسانية. وبعد ديلتاي نصل إلى مرحلة جديدة عبر طرح آراء هايدغر.

ويرى هايدغر أنَّ التفسير يستلزم فرضاً مسبقاً. فالمفروضات مفاهيم تلقي بنفسها على التجربة وهي حالة هرمنوطيقية وأنَّ «الدزاين» أو التفسير الإنساني للوجود البشري والوجود كله له دخله في تفسير النص.

إنَّ «الدزاين» يمكن أن يفسّر نفسه حيواناً ناطقاً أو آلةً. ومعنى ذلك أنَّه قد يفسر نفسه تفسيراً سيئاً وعليه يجب أن نحرّر أنفسنا من تبعات التفسير السيّئ.

ويرى أنَّ المصطلحات ليس لها معان ثابتة منفصلة عن استعمالاتها. بل أن العلاقات المتبادلة ترتبط بهذه المصطلحات فالفأس ليس وسيلة للدق فحسب، بل هو يكتسب معناه من محل العمل والمسمار والمشتري.

إنَّ أرسطو لم يكن يفهم من مصطلح المواصلات ما نفهمه اليوم. ولذا ولكي نفهم النص يجب أن نعيد تركيبة عالم المؤلف من جديد. والحقيقة أنَّ هايدغر لم يستطع أن يوضح لنا إمكان تفسير النص أو عدمه.

وهو ينتقل في كتابه «الوجود والزمان» بالهرمنوطيقيا من عملية معرفة الاسلوب إلى عملية معرفة الوجود. إنَّه يؤكَّد أنَّ الفلاسفة ركّزوا على الوجودات الخاصة بدلاً من العمل على وعي معنى الوجود عموماً.

إنَّه يبدأ بتحليل الـ«دزاين» أي التفسير الإنساني للوجود لينتقل إلى تحليل الوجود.

وأخيراً يطالعنا غادامر الذي يعتقد أنَّ التفسير مسبوق بالفهم. وأنَّ المفروضات المسبقة شروط لتحقق الفهم، وأنَّ التفسير مستلزم لعملية تركيب بين أفق النص وأفق المفسر. وهو بالتالي في كتابه «الحقيقة والأسلوب» يؤكّد أنّنا لن نستطيع التأكُّد من أنَّ تفسيرنا هو الصحيح.

الى هنا والهدف من الهرمنوطيقيا هو الوصول إلى قصد المؤلف وإن كانت النتائج مخيبة للآمال أحياناً كما رأينا حيرة غادامر في إمكان فهم النص. ولكن الهرمنوطيقيا المعاصرة اعتبرت هذا أسلوباً تقليدياً متخلفاً.

فمدرسة الاتجاه التركيبي الأدبي ترفض أن تأخذ المؤلف بعين الاعتبار في تفسيرها للنص، إنّه وجود ميت وما علينا إلّا أن نفهم النص من خلال تركيبته الادبية والقرائن التي تحفّه، فهي ترفض الأسلوب التقليدي والهرمنوطيقيا الفلسفية معاً.

ومدرسة «رفض الأسس» أيضاً تبعد المؤلف وتبعد التركيبة اللفظية أيضاً وتعتبر قراءة النص نشاطاً حرّا وتعاملاً مطلقاً من أي قيد مع النص: وأنَّ قراءة النص ليست عملاً دقيقا لكي نغرق في القرائن والبنيات التركيبية للنص، وعليه فمن الممكن أن نمتلك قراءات متنوعة عبر تحطيم أسس النص وبنيته[١].

وهكذا نجد مسيرة الهرمنوطيقيا تبدأ بشكل طبيعي ولكنّها تتعثر وتنحرف حتى تصل إلى مرحلة حذف المتكلم والمؤلف والبنية التركيبية للفظ والقرائن والشواهد وطرح فكرة القراءات المتنوعة دونما مطالبة بدليل يؤيد هذه القراءة أو تلك. وقد يعني هذا الوصول إلى مراحل يرفضها القائل نفسه وحينئذ تتعطّل لغة الكلام ويغلق هذا الجسر الحضاري «اللغة» فلا يسلم للإنسان

١. أغلب ماورد من آراء ونصوص استقيناه هنا من مجلة قبسات الفارسية في عددها المخصص للهرمنوطيقيا الدينية، وهو العدد الثالث للسنة الخامسة.

مراد ولايثبت له تعهد ولايملك إلزام أي أحد بشيء فماذا بعد هذا إلاّ الفوضى!

العوامل التي ساعدت على انطراح هذا البحث في الغرب

هذا البحث انطلق بلا ريب في الأوساط الدينية ثم خرج إلى الساحة الإنسانية العامة وأريد له أن يفسر الوجود كله.

وبالنسبة للأوساط الدينية في الغرب نلاحظ أنَّ المسيحية كانت تحمل رسالة لليهود ملخصها أنَّ الله تجلّى للبشرية وعلى البشرية أن تخلّد هذه الرسالة.

ولكن برزت مشاكل لدى محاولة الاستماع لرسالة العهدين الجديد والقديم.

هذه المشاكل يمكن أن نلخّصها في ما يلي:

أوّلا: كون النص في العهدين معقداً احياناً بحيث لايدرك معناه.

ثانياً: وجود عنصر الأسطورة التي لايمكن تصديقها؛ لانّها غير معقولة بل توجد حالات متناقضة ـ مثلاً في وصف الأنبياء.

ثالثاً: عنصر السند، فإن النصَّ الديني لايمكن الاعتماد عليه ما لم يمتلك الاستناد الكامل للمشرِّع حتى يمكن أن يشكل أمراً تصورياً أو تشريعاً قاطعين، وحينئذ يتم الالتزام التصوّري والتشريعي. ويجمع المسيحيون على عدم كون نصوصهم منتسبة إلى الله تعالى وإن تصوروا أن الأناجيل كتبت بإلهام من الله.

هذه الإشكالات خلقت حيرة كبرى لدى المفكرين فهذا «بل ريكور» يرى أنَّ خارطة الموقع الهرمنوطيقي للمسيحية يمكن رسمها بشكل تاريخي منظم في ثلاث مراحل:

فالمسألة الهرمنوطيقية في المرحلة الأولى تنطلق من سؤال شغل أذهان المسيحيين الأوائل وربما كان في مطلع البحوث في عصر النهضة الاصلاحية. وملخصه: ماهي العلاقة بين العهدين القديم والجديد؟ فمن وجهة النظر التاريخية لم يكن هناك نصان مقدسان بل هو نص واحد، إذ العهد العتيق نص حدث في زمان المسيحية ممّا جعله نصّاً قديما متعلقاً باليهود؛ أمّا العهد الجديد فلا يستطيع أن يكون بديلاً للعهد العتيق بل أن العلاقة بينهما مبهمة وتحتاج إلى تفسير.

أمّا في المرحلة الثانية فتكمن في حديث «بولس» والتعقيد الذي يموج فيه. إذ يؤكّد على المسيحيين أن يفسروا حياتهم بما فيها من جزر ومد ومرونة في إطار مصائب المسيح وظهوره من جديد. وهنا يبدو التساؤل: ما هي العلاقة بين الموت والحياة؟ وبين موت المسيح ومعنى الوجود؟ فنحن نفسر حياتنا ووجودنا على أساس فهمنا عن مصائب المسيح وعلى أساس من تفسيرنا لوجودنا نعود لنفسر مصائب المسيح.

أمّا في المرحلة الثالثة حيث يتعرض العهد الجديد لانتقادات العلوم الدنيوية فإنّه تبدأ مراحل تطهيره من الأساطير.

أمّا المفكر بولتمان فيقول في مقال مشهور له تحت عنوان (العهد الجديد ومسألة معرفة الأسطورة):

«تلوح في العهد الجديد مقولات لايرفضها العلماء والمفكرون فحسب، بل يعتبر الإيمان بها أمراً غير معقول»[١].

هذه المشكلات خلقت حاجات هرمنوطيقية وألجأت المفسرين بالنهاية إلى حلول وهمية رأينا مبلغها. في حين لانجد أيّاً من هذه العناصر في ثقافتنا الإسلامية ونصوصنا المقدسة.

ما هي العلاقة بين الهرمنوطيقيا وبعض العلوم الإسلامية؟

يبقى هنا أن نتساءل عن علاقة التفسير الهرمنوطيقي بالتفسير الإسلامي للقرآن الكريم وشروح السنة الشريفة، وهل هما على مسار واحد؟

الحقيقة أنَّ التفسير المسيحي كما رأينا نشأ لحل المشاكل العويصة التي طرحت أمام النصوص الدينية في العهدين، وكأنَّه جاء ليوجّه ويبرّر هذه النصوص. وقد رأينا هذا التبرير لايصمد أمام الحقائق الدامغة الأمر الذي دفع الهرمنوطيقيا للوصول إلى مرحلة عبثية، هي مرحلة القبول بالقرارات الاعتباطية.

أمَّا التفسير الإسلامي فقد جاء للتوضيح والتعمّق في النص القرآني ومازال باستمرار

١. نفس المصدر.

يتعمق ويكتشف آفاقاً من المعرفة.

وبتعبير آخر فإنّ المفسرين لم يواجهوا المشاكل التي واجهها المفسرون المسيحيون. فالقرآن الكريم يعتمد عنصر البيان بحيث ينهل منه كل وارد وفق مستواه، لقد كان كتاباً عربياً مبيناً. وحتى عندما يكون المعنى سامياً يتطلّب تشبيهاً موهماً؛ فإنَّ مثل هذه المتشابهات أُرجعت إلى آيات محكمات توضح المقصود دون أي لبس.

أمّا عنصر الأسطورة المنافية للعقل فلا نجده مطلقاً في كتاب الله. نعم قد نجد الحديث عن خوارق العادة كتكلم طفل أو طول عمر إنسان أو إحياء ميت، وهذا يفسر بوضوح قدرة الله تعالى الخارقة والتي لاتتنافى مع المسلّمات العقلية بل يؤكّدها العقل المؤمن بالقدرة الالهية المطلقة المؤمنة. بل نجد القرآن ينفي الأساطير التي كانت شائعة كمسألة نفي البحيرة والسائبة والأساطير التي نسجت حول الأصنام ويعتبرها من الأمور التي ما أنزل بها من سلطان.

ويأتي وصف الأنبياء كأروع ما يكون إذ يعتبرهم يمثّلون أسوة الإنسانية ويعطيهم صفة الشهادة على مسيرة الخلافة الإنسانية.

وأمّا الحقائق العلمية فلم يواجه المفسرون أي تناف بينها وبين النصوص القرآنية بل رحنا نكتشف يوما بعد يوم الانسجام بين العلم والقرآن.

بقي لنا أن نشير إلى أمور:

الأوّل: ماذا يعني التأويل في النصوص القرآنية؟

الثاني: ما علاقة الهرمنوطيقيا بأصول الفقه؟.

الثالث: ماهي علاقة مصطلح القراءات بمصطلح الاجتهاد؟

أمّا بالنسبة للتأويل، فنحن نرى أنَّ فارقاً جوهرياً يميزه عن الهرمنوطيقيا ويتلخّص في أنَّ الهرمنوطيقيا إنّما نشأت لتسدّ نقصاً ولتبرّر غموضاً ولتحلَّ تناقضاً في النصوص الدينية المسيحية بينما كان التأويل مصطلحاً دينياً بنفسه جاءت به النصوص لتعبّر عن حقائق مهمة؛ فالتأويل في القرآن كما يبدو لمن تتبّع استعمالاته يعني أحد المعاني التالية:

١. تفسير لنوع من الغموض الذي قد يطرأ على ألفاظ يسوقها النص لبيان معان سامية لايستطيع اللفظ أن يعبّر عنها بدقة فتبقى جوانب غامضة فيه تجعله من «المتشابه» فيأتي

النص «المحكم» ليرفع هذا النقص عبر تأويل وإرجاع المتشابه للمحكم يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ مِنْهُ آياتٌ مُحْكَماتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتابِ وَ أُخَرُ مُتَشابِهاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ ما تَشابَهَ مِنْهُ ابْتِغاءَ الْفِتْنَةِ وَ ابْتِغاءَ تَأْوِيلِهِ وَ ما يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَ الرّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[١].

٢. تعبير للرؤيا كما قيل في مجال التعبير لرؤيا عزيز مصر ﴿أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾[٢].

٣. بيان لنتيجة العمل المعين.

يقول تعالى: ﴿وَ زِنُوا بِالْقِسْطاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذلِكَ خَيْرٌ وَ أَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[٣].

٤. وهناك معنىً رابع ذكره بعض المفسرين وخير من شرحه العلامة الطباطبائي[٤].

وكل هذه المعاني لا علاقة لها بمسألة التبرير والتوجيه ورفع التناقضات مع العقل والعلم والتي أوجدت الهرمنوطيقيا.

أمّا بالنسبة لعلم أصول الفقه، فإنَّ هذا العلم جاء ليدرس العناصر المشتركة في عملية استنباط الحكم الشرعي مركزاً على صغريات الظهور؛ أي ما يظهر للسامع أو القارئ من الكلام المعطى دون اي تجاوز لهذا الظهور إلى غيره؛ فلم يأت لحل رموز وتعقيدات في النص، وإنّما جاء لتشخيص ظهورات الألفاظ وتطبيق قواعد الحجية عليها للوصول لمراد المولى سبحانه والعمل وفق أوامره.

وبالتالي نصل إلى الفروق الملحوظة بين عملية الاجتهاد ونظرية القراءات.

فإنَّ الاجتهاد عرف بأنه ملكة تحصيل الحجج على الأحكام الشرعية أو الوظائف العملية شرعية أو عقلية[٥].

إنَّه بحث للوصول إلى حقيقة الحكم الشرعي الذي أراده الله تعالى وتحقيق مرضاته بطاعته.

---

١. آل عمران: ٧.
٢. يوسف: ٤٥.
٣. الإسراء: ٣٥.
٤. الميزان في تفسير القرآن، ج٣، ص٤٤ـ٤٨.
٥. مصباح الأصول، ص ٤٣٤.

وللاجتهاد مقدماته وضوابطه المحددة. وأخطر إنحراف ابتليت به مسيرة الاجتهاد، هو ما شابه القول بنظرية القراءات وإن كان أسلم منها، وأعني به القول بنظرية الاستحسان كأصل من اصول الفقه.

فإن بعض معاني الاستحسان المذكورة أمر مقبول من قبيل القول بأنه (العمل بأقوى الدليلين)[١]، فإنه يعني العمل بالدليل الحجة ورفض الدليل الذي لايملك الحجية؛ وهذا أمر صحيح وإن كان لايجعل الاستحسان أصلا من أصول الفقه ولكن فسّر الاستحسان أحياناً بأنَّه «دليل ينقدح في نفس المجتهد لايقدر على التعبير عنه»[٢]. أو أنَّه «ما يستحسنه المجتهد بعقله» وهذه أمور رفضها المسلمون، بل اعتبرها بعض الأئمة بدعة؛ لأنَّها تفتح الباب للآراء غير المستدلة وغير المنضبطة.

ولكنها على أي حال أفضل من القول بنظرية «القراءات» التي انتهى اليها البحث في الهرمنوطيقيا الحديثة، ذلك أنَّ القائلين بنظرية الاستحسان بالمعنى المذكور يحصرون الأمر باستحسان المجتهدين دون غيرهم ثم يعتبرونه ينقدح بدليل في النفس يلاحظه المجتهد بين الأدلة ولكنه لايقدر على التعبير عنه. على أنَّ الاستحسان لديهم لايتم حينما يوجد دليل شرعي قطعي أو ظاهر في الموضوع. وعليه فهناك بعض الضوابط التي تميزه عن القراءة في حين نجد أنَّ نظرية القراءات تنفلت عن كل ضابطة فهي تسمح للكل بامتلاك قراءاتهم ولاتطالبهم بأي دليل؛ بل حتى لو خالفت القراءة قطعاً مراد المتكلم. كما أنَّها لاتمانع في تصحيح كل القراءات حتى لو كانت متناقضة. وبالتالي، فإنَّ هذه النظرية تعبّر عن منتهى الفوضى بل وتغلق باب الاستفادة من النصوص الدينية.

دراسة ونقد

رأينا أنَّ فكرة القراءات أمر لاينسجم مع منطقنا الديني وعلومنا الإسلامية ونحن نرى أنَّ آثاره السلبية كثيرة نقتصر منها على ألاهم عبر مايلي:

---

١. مصادر التشريع، ص ٥٨.

٢. ن.م.

١. أنَّ فتح هذا الباب يعني القبول بأي تفسير للنصوص الدينية دون المطالبة بالدليل، ودونما محاولة لترجيح رأي على رأي، وبالتالي القبول بالاستحسانات الظنية التي لا أصل لها، وهو أمر ترفضه التعاليم الإسلامية والثقافة الدينية بل وترفضه كل شريعة تحترم نفسها؛ فلا تترك نصوصها الأصيلة في مهب الأهواء.

٢. أنَّ هذا يعني فتح الباب على مصراعيه لكل الفرق المنحرفة، بل الفرق المعادية للإسلام، بل الرافضة لأسسه اعتماداً على حريتها في التفسير. فلها أن تفسر الحياة الأخرى مثلا بالحياة اللاطبقية التي تسعى لها قوانين الديالكتيك، بل يفتح باب قراءة صنمية للنصوص الدينية.

٣. أنَّها تؤدّي إلى نسبية المعرفة وعدم إمكان الوصول للحقيقة الثابتة الأمر الذي يرفضه الوجدان ويشيع الفوضى الفكرية في الفكر الإنساني، وبالتالي نفقد إمكانية الوصول إلى فهم ديني للحياة.

٤. أنَّ عدم الاهتمام بمراد المؤلف أو المتكلم، يعني فصل المخاطبين عن المتكلم والشارع لهذا الدين، وبالتالي انقطاع الصلة بينه وبينهم. وهذا الأمر يغلق باب التحاور الحضاري والديني إلى الأبد ويؤدّي إلى ضياع المعايير كلها، وبالتالي يترك ذلك أثره على الأخلاق وعلم الحقوق بل وعلى المعرفة الإنسانية ككل.

٥. فتح الباب لمسألة التمرّد والعصيان ورفض الأوامر الالهية. ذلك لأنَّ معيار تنجيز هذه الأوامر وتعذيرها ـ كما يصطلح ـ هو القطع بالمراد، والقطع هنا منتف، فالطاعة أصلا لامعنى لها، وبالتالي ينتفي الهدف والغرض من الدين عموماً.

٦. ضياع الكثير من معايير الحسن والقبح مهما كانت مبانينا في هذه المعايير، فإنَّ الكثير من مواردها معلول لمضمون النصوص الشرعية.

٧. حذف دور الاجتهاد والمجتهدين في فهم الشريعة الإسلامية وهو هدف سعت إليه الدوائر الاستعمارية المعادية[١].

---

١. راجع مقالنا في مجلة المنهاج اللبنانية، العدد ٢٢، ص ٢٤٨ والمنقول في هذا الكتاب ص ١٩٩.

٨. وأخيراً وليس آخراً فإنَّه يفتح باب العلمانية في عالمنا الإسلامي كما فتحه من قبل في الغرب. ولعلَّ هذا هو المقصود الأصلي لأولئك الذين يروّجون لمثل هذه الآراء.

ولا أدلَّ على ذلك من كتاب (الاسس الفلسفية للعلمانية) لعادل ظاهر، فهذا الكتاب يطرح كل الشبهات التي تطرحها الهرمنوطيقيا حول النص الديني من حيث الدلالة ومن حيث السند ومن حيث أسبقية العقل على الدين وكذلك من حيث تأثير المفروضات الذهنية على الوحي لينتهي بالتالي إلى ضرورة المنهج العلماني في التعامل[١].

نقاط تجب ملاحظتها:

١. أنَّ أصحاب هذه النظرية رغم ارتدائهم لبوس البحث العلمي لم يقدِّموا دليلاً مقنعاً عليها.

٢. أنَّ هذه النظرية تستوجب اللغوية في كل أنماط التفاهم الإنساني.

٣. لاننكر أنَّ للمسبقات الذهنية أثرها في لغة المتكلم، إلَّا أن الأمر يختلف بالنسبة للنص الديني وناقل النص المعصوم؛ فهناك ضوابط كثيرة لتشخيص هذا التأثير.

٤. علم أصول الفقه لدى المسلمين قدّم أجوبة شافية على شبهات العلمانيين لتأكيد حصول الحجية المطلوبة من النصوص الإسلامية معتمداً في كثير من الموارد على المعطيات العرفية التي لها حجيتها القطعية.

٥. والحقيقة أنَّ مرادنا المرحلي هو معرفة مراد المتكلم قطعاً، لكي نقوم بتحقيقه للحصول على مرتبة الطاعة لتحقيق الرضا الإلهي والقيام بحق المولوية الثابت بالعقل قطعاً لنيل السعادة في الدارين.

نتيجة البحث

نرى أنَّ نقل مصطلح القراءات إلى ثقافتنا أمر خطير يجب أن نحذّر منه؛ لأنّه يحمل معه اشراطات خطيرة ولوازم سلبية يرفضها فكرنا الفلسفي والديني عموما فضلاً عن أنَّنا نملك مصطلحاً محدداً واضح المعالم هو «الاجتهاد» و «وجهات النظر» فلا حاجة إلى أي مصطلح

---

١. راجع كتابنا حول الدستور الإسلامي، رأي متطرف للعلمانية.

غريب خطير.

الأحداث الإرهابية تداعياتها والموقف الإنساني المطلوب[١]

إنّ التحدّي الذي نواجهه هو تحدٍّ للإنسانية، والقضايا المطروحة على بساط الحوار هي قضايا إنسانية تهمُّ كل فرد يعيش على كرتنا الأرضية، فسكان الأرض على مختلف أديانهم ومذاهبهم واتجاهاتهم الفكرية والسياسية هم جميعاً شركاء في المصير والغاية النهائية، الأمر الذي يفرض عليهم أن يكونوا بمستوى المسؤولية هذه ولا يفرّطوا فيها أو يتجاهلوها؛ وإلاّ فالكارثة ـ أياً كان لونها وشكلها ومضمونها ـ ستطال الجميع دون استثناء. وهذه المسؤولية سنة الهية ثابتة لا تتغير ولا تتحوّل، ويشهد التاريخ على الأمم والأقوام الذين فرّطوا في هذه المسؤولية وخالفوا تعاليم الله، كيف أصبح مصيرهم والى أية نهاية انتهوا. ولكي لا نذهب بعيداً متوغلين في عمق التاريخ، فإنّنا نشير إلى ما شهده القرن العشرون من حروب وأعمال عنف وارهاب ذهب ضحيتها عشرات الملايين من البشر، نتيجة للتفريط في تحمّل عقلاء البشرية لمسؤوليتهم.

ومن هنا أتمنى أن يقف عقلاء البشرية على مسؤوليتهم حيال ما يجري الآن من أحداث مأساوية تشهدها بعض بلدان منطقتنا الإسلامية، جراء المغامرات وأعمال العنف التي يقوم بها بعض المتنكرين لإنسانيتهم وتعاليم أديانهم؛ بدافع الجهل والتعسّف أو بدافع الغطرسة والاستكبار.

قد لا آتي بجديد هنا حين أؤكّد أنَّ جميع الأديان الالهية، وفي المقدمة الإسلام، ترفض الإرهاب والعدوان والعنف، وتستنكرها ولا تجيزها شرائعها. وهذه الشرائع السماوية تلتقي مع الفطرة الإنسانية التي فطرها الله تعالى على حب العدل والسلام والخير. وبالتالي فالعنف والإرهاب اللامشروع مدان دينياً وانسانياً، أينما كان ومن أي شخص أو جهة أو دولة صدر. فالإرهاب والعنف الذي يقوم به الأفراد مدان ومرفوض، والإرهاب الذي تقوم به المنظمات

---

١. حصيلة ما ألقي في لقاءات عديدة في القاهرة وقطر وليبيا.

والجماعات مرفوض أيضاً، وكذلك الإرهاب الذي تقوم به الكيانات والأنظمة والدول. فكل أنواع العنف والإرهاب تغرف من إناء واحد وتشترك في أهداف ترويع الناس وقتل الأبرياء وتدمير الأهداف المدنية، بغض النظر عن الديانة أو الاتجاه الفكري والسياسي الذي ينتمي إليه الإرهابي، نصرانياً كان أم مسلماً أم يهودياً، سنياً كان أم شيعياً.

حول تعريف الإرهاب من وجهة نظر إسلامية وإنسانية

ظهرت بحوث كثيرة في السنوات العشرين عن الإرهاب حتى وصل بها البعض إلى ٦٠٠ بحث، وصدرت مجلات متخصصة، بل وانشئت معاهد علمية، واقترحت استراتيجيات حول محاربة الإرهاب، وصرفت أموال هائلة، ودربت جيوش على كيفية مكافحة الإرهاب ربما فاق عددها عدد الإرهابيين بل وربما ارتكبت الإرهاب باسم مكافحته، وعقدت الكثير من المؤتمرات لمعالجة هذا السرطان[١]، والغريب مع هذا كله هو بقاء مفهوم الإرهاب غامضاً، وبقيت التساؤلات حوله بلا جواب، وكأنّه أمر مقصود يبرّر لمدّعي مكافحة الإرهاب ممارسة أشدّ أنواع إرهابهم وغطرستهم وإبادتهم للأمم والشعوب وسلب حقوقها ومصائرها ومصادرها وكرامتها.

وقد سجل الباحث (شميد) ١٠٩ تعريفات له ثم عرفه هو بما يلي:

(الإرهاب هو أسلوب من أساليب الصراع الذي تقع فيه الضحايا الجزافية أو الرمزية كهدف عنف فعّال، وتشترك هذه الضحايا الفعالة في خصائصها مع جماعة أو طبقة في خصائصها، مما يشكل أساساً لانتقائها من أجل التضحية بها. ومن خلال الاستخدام السابق للعنف أو التهديد الجدي بالعنف فإنَّ أعضاء تلك الجماعة أو الطبقة الآخرين يوضعون في حالة من الخوف المزمن (الرهبة). هذه الجماعة أو الطبقة التي تمَّ تقويض احساس اعضائها بالأمن عن قصد هدف الرهبة. وتعتبر التضحية بمن اتخذ هدفاً للعنف عملاً غير سوي من قبل معظم المراقبين من جمهور المشاهدين على أساس من قسوة، أو زمن (وقت السلم، مثلاً)

---

١. الإرهاب الدولي، د. محمد عزيز شكري، ص ١١.

أو مكان (في غير ميادين القتال) عملية التضحية أو عدم التقيد بقواعد القتال المقبولة في الحرب التقليدية. وانتهاك حرمة هذا يخلق جمهوراً يقظاً خارج نطاق هدف الرهبة...)[١].

وهكذا يمضي في تعريفه الطويل بما لا محصل له.

في حين يعرفه جنكينز بأنَّه (ما يفعله الأشخاص السيئون)!!

وهو تعريف غريب، فمن ذا الذي يحدد السيّئ والصالح والخيّر والشرير؟! أليسوا هم الأقوياء المستكبرون المتحكّمون في مصائر البشرية وعلى رأسهم اليوم أميركا؟

ويعرفه الاستاذ شريف بسيوني بأنَّه (استراتيجية عنف محرم دولياً تحفّزها بواعث عقائدية، وتتوخى أحداث عنف مرعب داخل شريحة خاصة من مجتمع معين لتحقيق الوصول إلى السلطة أو للقيام بدعاية لمطلب أو لمظلمة بغض النظر عمّا إذا كان مقترفو العنف يعملون من أجل أنفسهم ونيابة عنها أم نيابة عن دولة من الدول)[٢].

ورغم كون الاستاذ بسيوني متخصصاً قانونياً، ورغم القبول بهذا التعريف في اجتماعات الخبراء الإقليميين في فيينا عام ١٩٨٨، فإنَّ تعريفه فيه ثغرات أهمّها تركيزه على الإرهاب الفردي، وكون تعريفه غير جامع.

وقد تابع الاستاذ شكري تطبيقات هذا المصطلح في القوانين الوطنية كالقانون الفرنسي والسوري وكذلك على مستوى القانون الدولي فوجده تعريفاً غير مكتمل[٣].

ولقد أيّد القرار رقم ٥/٢٠ ـ س(ق) لمؤتمر القمة الإسلامي الخامس فكرة عقد مؤتمر دولي بإشراف الأمم المتحدة لمناقشة موضوع الإرهاب الدولي والتمييز بينه وبين نضال الشعوب من أجل قضاياها الوطنية الثابتة وتحرير أراضيها. وتمّ عقد الاجتماع في جنيف، وقد وفقنا الله تعالى لحضوره، وكان علينا في هذا الاجتماع أن نأخذ الاعتبارات التالية:

أوّلا: الرجوع قبل كل شيء إلى المصادر الإسلامية لاستحضار الأهداف التغييرية

---

١. الإرهاب السياسي، ص ١ ـ ٢.

٢. حول الإرهاب الدولي، ص ١٦.

٣. الإرهاب الدولي، الباب الأوّل.

الكبرى، ومعرفة المبادئ التي يراها مقوّمة لانسانية الأهداف والأعمال، وجعلها بالتالي الأساس الذي نحكم به على القضايا.

ثانياً: العمل على استقراء الفطرة الإنسانية الأصيلة غير المشوبة بمقتضيات المصالح الضيقة، وذلك لتشخيص أصول إنسانية يمكن طرحها على الصعيد الدولي، كمعيار إنساني عام، ولتكون نتائج دراساتنا شاملة لشتّى مجالات الصعيد الدولي وصالحة لتشكيل إطار عملي عام.

ثالثاً: أن نستخلص من تلك المبادئ الإسلامية والإنسانية تعريفاً عاماً جامعاً مانعاً، أي جامعاً لكل المفردات الحقيقية للارهاب ومانعاً من دخول المصاديق المدعاة للارهاب، والتي لا تسمح المبادئ السامية باعطائها هذه الصفة.

رابعاً: وبعد ذلك كان علينا أن نعمد إلى استعراض كل المصاديق المطروحة على الساحة الوطنية والعالمية على أساس أنّها نماذج إرهابية نعمد إليها فنفحصها على ضوء النتائج ثم نعطيها حكمها المناسب بشكل دقيق لكي لا يقع التباس أو غموض، وينال كل عمل صفته الحقيقية.

وعلى ضوء هذه المقدمة نلخص حديثنا في نقاط:

النقطة الأولى

من نافلة القول أن نذكر أنَّ كل معسكر دولي، أو كل دولة، أو حتى كل مجموعة، لها أعداء ومعارضون، يسعى كلٌ منها للقضاء على الآخر، وعندما يلتحم الصراع فإنَّ كل طرف يحاول تحطيم سمعة الطرف الآخر، باطلاقه عليها صفات منفّرة بطبعها من قبيل (الفوضوية)، و(الاجرام)، (والخروج عن القانون)، (اللا إنسانية)، (الإرهاب) وأمثال ذلك.

بل قد نجد أنَّ أحد الطرفين يطلق مثل هذه الادّعاءات لكي ينفّذ خطة تتضمن سلب حقوق أطراف أخرى بحجة التضامن مع العدو والتآمر ضد المصالح الوطنية.

ولكي تتمَّ عملية التمرير هذه فإنَّ كل طرف يستفيد من نفوذه الدولي لإدخال قوى أخرى إلى جانبه إمّا بشكل عملي وإمَّا بشكل تأييد على صعيد المحافل الدولية، وحينئذ تتخذ القضية صفة عامة تكون الغلبة فيها غالباً لمدى الضغط والنفوذ والقدرة على التأثير بدلاً من

تحكيم المنطق السليم.

ومن هنا يتمُّ التأثير على العواطف، وتستغل الأحاسيس لتنفيذ هذه الخطط المصلحية تحت شعار: (رفض الإرهاب) مثلاً. ذلك أن الإرهاب أمر مدان إنسانياً (إذا غضضنا النظر عن دوافعه وأهدافه)، ولا يمكن أن يرضى إنسان سليم النفس بتهديد ما يرتبط بالإنسان من كرامة وحرية ومال وعرض وأمان وعمل وغير ذلك، وهذا الشعور فطري أصيل لا غبار عليه.

النقطة الثانية

إنّنا إذا تتبّعنا المدلول اللفظي لكلمة (الإرهاب) من جهة واستعرضنا المساقط المطروحة لها على الحياة الإنسانية، لاحظنا أنَّ الإرهاب يمكن أن يتمّ على أصعدة مختلفة. فهناك الإرهاب المهدّد للأمن والعرض والمال وأمثالها، وهناك الإرهاب الثقافي الممزّق للشخصية الإنسانية، والسائق نحو هاوية الضياع واللاهدفية، وهناك الإرهاب الاعلامي الذي يفقد الإنسان حريته في التنفس الحر في فضاء غير ملوث. وهكذا يمكننا أن نسمّي الكثير من أنواع الإرهاب كالإرهاب الاقتصادي، والإرهاب العلمي، والإرهاب الدبلوماسي والإرهاب العسكري وغير ذلك.

إلّا أنَّ هناك تقسيماً فعلياً على أساس القائمين به، وهو تقسيم يجب أن يؤخذ بعين الاعتبار، ونعني به تقسيمه إلى الإرهاب الرسمي والإرهاب غير الرسمي. ويشمل الإرهاب الرسمي ـ وهو أخطر القسمين ـ كل عمل مؤيد من قبل جهة أو دولة معترف بها دولياً سواء كان القائم بهذا العمل هو جيش هذه الدولة، أو عناصر فردية، وربما كانت عملية مسخّرة لصالح الجهة المذكورة. ويقف في قباله الإرهاب غير الرسمي.

النقطة الثالثة

يمكننا أن نركّز في أي عمل أو سلوك على عنصرين مؤثرين:

الأوّل: دوافع العامل.

الثاني: تقبل الإنسانية للعمل نفسه.

وهما أمران غير متلازمين، فقد تكون الدوافع الشخصية للعامل إنسانية في نظره، إلّا أنّها

لا تعتبر كذلك على الصعيد العام. وقد يكون العكس، فلا يستهدف العامل غرضاً إنسانياً، أو ربما استهدف غرضاً لا إنسانياً في تصوّره، إلَّا أنه يعتبر من وجهة النظر العامة عملاً إنسانياً.

ومن هنا تختلف زوايا النظر إلى العمل لكي يتم الحكم عليه بالقبح أو بالحسن (وللعلماء الاصوليين المسلمين بحوث قيمة في مسائل التقبيح والتحسين العقلية لا مجال للتعرض اليها هنا) وما يجب ذكره هنا هو أنّه لا يكفي أي من العنصرين لوحده في منح العمل صفة القبول أو الرفض أو الحكم عليه ايجاباً أو سلباً، وإنّما يجب ضمان الايجابية في العنصرين ليتم المطلوب.

وعليه، فنحن في حاجة لضمان الموضوعية في بحثنا هذا إلى أن نتعرف على المعيار الذي يشخص تقبّل العمل وانسانيته، وذلك من وجهتي النظر: الإسلامية والبشرية العامة.

أما من وجهة النظر الإسلامية، فعلينا أن نرجع لكل الأسس والمفاهيم والأحكام التي ترتبط بأي نوع من الارتباط بقضايا الإرهاب ـ حسب معناه اللغوي ـ وذلك بهدف إعطاء تعريف عام للارهاب المدان، أي الإرهاب المرفوض إسلامياً باعتباره مخالفاً لمسيرة الكمال الإنساني التي رسمها الله ـ تعالى ـ للبشرية من خلال نظرية الفطرة، وخطط لها عبر الوحي.

وعند الرجوع إلى التعاليم الإسلامية نجد الإسلام غنياً جداً في هذا المجال، ونلاحظ أنَّ الفقهاء الإسلاميين تعرّضوا لمختلف الحالات التي ترتبط بالموضوع.

ـ فهناك أحكام البغي، أي خروج الفئة المسلحة على الحكومة الشرعية العادلة، وعملها على إرعاب المجتمع، وتحقيق أهداف سياسية تمزيقية لوحدة الأمة.

ـ وهناك أحكام الحرب وأخلاقها[١].

ـ وهناك أحكام الحرابة التي عرفت بأنّها (تجريد السلاح برّاً أو بحراً، ليلاً أو نهاراً، لإخافة الناس في مصر أو غيره من ذكر أو أنثى، قوي أو ضعيف وهي مستقاة من قوله تعالى: ﴿إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيا وَ لَهُمْ فِي

---

١. راجع مقالنا حول الموضوع تحت عنوان أحكام الحرب والاسرى... بين الرحمة والمصلحة. في الدورة السابعة من دورات مجمع الفقه الإسلامي.

الْآخِرَةِ عَذابٌ عَظِيمٌ﴾[١].

والآية ـ كما يلاحظ ـ ذكرت الموضوع والهدف، وهو حرب المجتمع والإفساد في الأرض، كما ذكرت العقاب الأليم الذي يجازون به، ممّا يدل على اهتمام الإسلام بالموضوع.

ـ وهناك أيضاً أحكام السرقة والقتل.

ـ كما أننا نواجه في النصوص الإسلامية مصطلحات تتصل بهذا اللفظ من قبيل (الفتك) و(الغيلة) و(الائتمار).

ـ كما أنَّ هناك نصوصاً لاحترام العهد والميثاق إلى أقصى حد الاحترام، فتجب رعايته مادام الآخر ملتزماً ببنوده.

هذا، بالإضافة إلى مقتضيات النظام الأخلاقي الإسلامي وهي أمور لا يفهم القانون الوضعي لها معنى، إلّا أنّها ذات أصالة في هذا النظام، فإنَّ الكذب يقبح فيصل إلى مستوى الكبائر، وكذلك النميمة، وهكذا نجد الإسلام يعمل بجد على حماية كل أنماط الحرية الإنسانية الصحيحة، والدفاع عن كرامة الفرد والمجتمع، وتماسكه، ووحداته العائلية ويعتبر أي اعتداء على ذلك جريمة كبرى يعاقب عليها بأشد العقوبات، التي تصل إلى حد الاعدام والصلب وأمثال ذلك.

ويطرح الإسلام مبدأ (المسؤولية الشخصية) ويعتبر أي اعتداء على الأبرياء جريمة كبرى، ويركّز على حماية الضعفاء والمساكين والمستضعفين، وربما أوجب الجهاد لحمايتهم ﴿وَما لَكُمْ لا تُقاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجالِ وَ النِّساءِ﴾[٢].

ويطلب إلى المسلم أن يكون إلى جانب المظلوم دائماً حتى ينتصف له.

فهذا الإمام علي عليه السلام يوصي ولديه قائلاً: «كونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً»[٣] وهو القائل: (الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له، والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه)[٤].

---

١. المائدة: ٣٣.

٢. النساء: ٧٥.

٣. نهج البلاغة، ج٣، ص٧٦.

٤. نهج البلاغة، ج١، ص٨٩.

ولعل ذكر القرآن الكريم لنعمة الأمن ﴿وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ خير دليل على الأهمية التي يوليها له. ولا يسع المجال للتعرّض لكل هذه الأمور وإنّما نريد أن نقرر هنا أن المعيار الأوّل في تشخيص توفر الإنسانية في نية العامل والقبول العامل لها هو (الدين) بمجموع مفاهيمه وأحكامه وروحه العامة والملاخظة في كل الموارد المذمومة وجود عنصر (العدوان)على حقوق الآخرين.

وعندما نحاول الالتفات إلى الاطار الثاني وهو الاطار البشري العام، فإنّنا نستطيع أن نقبل الأصول التي أجمعت على اعتبارها البشرية، ممثّلة بأجهزتها الرسمية، ومنظماتها الشعبية، وحسّها، ووجدانها العام، لنجعلها مقاييس أخرى لتشخيص موضوع توفّر الصفة الإنسانية أو ضدها في نية العامل والقبول العام الآنف ذكره (وإن كنا نعتقد أنَّ المعيارين يلتقيان في الغالب).

وكمثال نضربه لما سبق: لنلاحظ اجماع البشرية اليوم على منح الصفة اللا إنسانية للأمور التالية:

ـ الفحشاء وتمزيق العلائق العائلية.

ـ المخدرات وتمزيق الشخصية العقلانية.

ـ الاستعمار وتمزيق كرامة الشعوب ونهب خيراتها.

ـ العنصرية وتمزيق الاخوة الإنسانية.

ـ الاعتداء على كل الحقوق المعترف بها ونقض المواثيق.

ـ قصف المناطق الآهلة بالسكان، واستعمال الأسلحة الكيمياوية والنووية والبيولوجية، والاعتداء على الطيران المدني، وعلى السكك الحديدية الأهلية، وعلى السفن التجارية والسياحية، وأمثال ذلك من الأساليب المدانة بشرياً في الحروب.

إنَّ هذه النماذج أمور لا يختلف اثنان في عدائها للإنسانية، ولذا فهي وأمثالها تشكّل معايير مقبولة في مجال تعريفنا هذا، كما أنّ أي عمل على محوها ومقاومتها يعدُّ عملاً إنسانياً ينبغي أن يدعم، إن لم يصاحبه خرق لقيم إنسانية اخرى.

النقطة الرابعة: التعريف المختار للإرهاب

بعد كل ما تقدم نستطيع أن نصل إلى تعريف جامع للأعمال الإرهابية المدانة، ونتّفق عليه، ونصوغ مواقفنا على أساسه.

وقبل أن نعرض ما نقترحه من تعريف، نذكّر بأنَّ علينا أن نلاحظ فيه العناصر التالية:

١. الترهيب وخرق الأمن بشتّى أنواعه.

٢. النية والدافع الفعلي اللاإنسانيين.

٣. عدم قبول البشرية لهدف العمل ونوعه.

٤. انسجام الوسيلة والهدف.

ولهذا يمكن أن يكون تعريفنا على النحو التالي:

الإرهاب: هو كل عمل يتنافى من حيث الوسيلة والهدف مع القيم الدينية والإنسانية، ويتضمّن تهديداً للأمن بأي نوع من أنواعه، وعدواناً علي الحقوق.

وللتوضيح نذكر النقاط التالية:

١. أنَّنا نستعمل المصطلح البشري بدلاً من الدولي لكي نحقق الاجماع الرسمي وغيره للتأكُّد من الحكم الإنساني العام.

٢. لاحظنا عنصري الوسيلة والهدف.

٣. أشرنا إلى أنواع الإرهاب بعبارة: (للأمن بأي نوع من أنواعه).

٤. ذكرنا المعيارين الديني والبشري معاً لكي ننسجم مع إيماننا أوّلا، ونعمّم المقياس ثانياً.

٥. وكما يلاحظ، فإنَّ كون العملية عنيفة لايعدُّ شرطاً في صدق صفة الإرهاب.

٦. لاحظنا عنصر (العدوان) وهو جوهر القبح فيه.

وعلى ضوء هذا التعريف يمكننا أن نتحقق من الصفات الإرهابية التي تطلق على هذا العمل أو ذاك، ونتأكَّد من أنَّ هذه الصفة لا تنطبق على:

أ. أعمال المقاومة الوطنية التي تمارس ضد المحتلين والمستعمرين والغاصبين لاغير.

ب. مقاومة الشعوب للفئات المفروضة عليها بقوة الحديد والنار.

ج. رفض الدكتاتوريات وأنماط الاستبداد وضرب مؤسساتها.

د. مقاومة التمييز العنصري وضرب معاقله.

هـ. الردّ بالمثل على أي اعتداء إذا لم يكن هناك مناص من ذلك.

وكذلك لا تنطبق على كل تحرك ديمقراطي لا يصاحبه ارهاب حتى ولو لم يكن يحمل

هدفاً إنسانياً. كما أنَّه لا ينطبق على الأعمال المخربة الفردية التي لاتمتلك تأثيراً اجتماعياً:

وهذه الأعمال ـ وأمثالها وإن كانت مدانة من جهة أخرى إلّا أنّها بالتأكيد ليست أعمالاً ارهابية.

هذا في حين ينطبق التعريف على:

أ. أعمال القرصنة الجوية والبحرية والبرية.

ب. كل العمليات الاستعمارية بما فيها الحروب والحملات العسكرية.

ج. كل الاعمال الدكتاتورية ضد الشعوب، وكل أنماط الحماية للدكتاتوريات فضلاً عن فرضها على الأمم.

د. كل الأساليب العسكرية المخالفة للأعراف الإنسانية: كاستعمال الاسلحة الكيمياوية والنووية والبيولوجية، وضرب المناطق الآهلة، ونسف البيوت، وترحيل المدنيين، وأمثال ذلك.

هـ. كل تلويث للبيئة الجغرافية والثقافية والاعلامية، وربّما كان الإرهاب الفكري من أخطر أنواع الإرهاب.

و. كل تحرّك يؤدّي إلى ضعضعة الاقتصاد الدولي أو الوطني، والإضرار بحال الفقراء والمحرومين، وتعميق الفوارق الاجتماعية والاقتصادية، وتكبيل الشعوب بأغلال الديون الباهضة.

ز. كل تحرك تآمري يعمل على سحق إرادة الشعوب في التحرّر والاستقلال، وفرض الأحلاف الشائنة عليها.

وهكذا يمكننا أن نتابع ضرب الأمثلة على مصاديق التعريف المذكور.

النقطة الخامسة

بالرغم من أنّ الكثير من الاجتماعات والمحاولات قد عقدت لمكافحة الإرهاب إلَّا أنّها اخفقت في الغالب لأمور:

منها: أنّها لم تقم على أساس إنساني، دولي، بل استهدفت تحقيق المصالح الضيّقة قبل كل شيء.

ومنها: أنّها لم تعالج الظروف التي تخلق الإرهاب، ولم تبحث عن علله الحقيقية. ومن الطريف أنّ الولايات المتحدة الأميركية وهي أم الإرهاب الدولي والتي أوجدت كل ظروف قهر الشعوب واحتلالها وتقوية الأنظمة الدكتاتورية واحتلال الأراضي والاعتداء على

المناطق الآهلة وما إلى ذلك هذه الدولة تعمل على عقد ندوات لمكافحة الإرهاب وتقصد به كل عمل يخالف مصالحها الاستكبارية.

قتل امرء في غابة جريمة لا تغتفر وقتل شعب آمن مسألة فيها نظر.

الذي نراه حالياً هو أنَّ الدول الكبرى تحاول بالقوة والإكراه أو بالدعاية والإعلام فرض تعريفها وفهمها للارهاب على الدول والشعوب الأخرى، وهو تعريف وفهم مفصّل على مقاس الدول الكبرى ومصالحها الخاصة، ثم هي تعطي لنفسها الحق في تطبيق فهمها عملياً في كل بقعة من بقاع العالم، وكأنَّ الأرض ملك لها، وكل بلدان العالم تشكّل عمقاً أمنياً لها، ولا ندري من الذي أعطاها هذين الحقين: فرض تعريفها على الآخرين، وتطبيق فهمها على الجميع. بل أنّها راحت تلعب دور المدّعي والقاضي والمنفّذ متجاهلة حتى الأمم المتحدة والمحاكم الدولية!!

وللأسف فإنَّ هذه الحالة يعيشها نظام الولايات المتحدة الأميركية بكل تفاصيلها، فأي عمل لا يلتقي مع تحقيق مصالحها الخاصة، سواء كان سياسياً أم عسكرياً أم اقتصادياً أم ثقافياً، فإنَّها تعتبره عملاً ارهابياً، بل أنَّها تعتبر كل من لا يؤمن بهذه المقولة إرهابياً، ولا أدري أية معادلة هذه وعلى أية قاعدة دينية أو إنسانية أو قانونية تستند؟! حتى قال حكّامها بأنَّ الذي لا يكون معنا فهو مع الإرهاب والإرهابيين!! وهذا دليل صارخ على طبيعة رؤية أميركا لنفسها وللآخر، فهي تنظر للآخر من خلالها. وعلى هذا الأساس نحن نرفض هذه التعريفات الخاصة والفهم الذاتي وندعو لفهم إنساني موضوعي للارهاب وتعريف حقيقي لظاهرته.

احداث ١١ سبتمبر والهجمة ضد الأمة الإسلامية

لا يتردّد عاقل أو متدين في أنَّ أحداث ١١ سبتمبر هي عمل إرهابي مدان وأنَّه عاد على البشرية بالفساد الكبير، وأنَّه دفع بقوة عظمى نحو خطة جهنّمية تسلطية تستهين بكل القيم وتتجاوز كل الأعراف الإنسانية والمعاهدات الدولية لتفرض هيمنتها على الشعوب بل

وتفلسف هذا الاعتداء وتعتبره أخلاقياً[١].

وهكذا شهدنا الإستراتيجية الأميركية التي تمّ وضعها في التسعينات بعد تعاظم أمر الإسلام الشمولي من جهة وانهيار الاتحاد السوفيتي من جهة أخرى والتي وضعت مسألة محاربة ما أسمته بـ(الإسلام المسلح) أو (الإسلام السياسي) أحد أهدافها الكبرى بالاضافة لهدف التفرد في قيادة النظام العالمي الجديد نعم شهدنا التأكيد على هذه الاستراتيجية والإسراع في وتيرتها وخصوصاً ضد الأمة الإسلامية.

وكان التأكيد على خطة واسعة الأبعاد نشير فيما يلي إلى بعض جوانبها:

أوّلا: التشكيك في قيم الحضارة الإسلامية ومفاهيمها وهناك الكثير من الأمثلة التي طالعنا الغرب بها، كتفضيل الحضارة الغربية على الحضارة الإسلامية من قبل مسؤول ايطالي، وتفضيل العقيدة المسيحية في الصفات الالهية على العقيدة الإسلامية. والحملة ضد مفاهيم الجهاد وتصورات الإسلام لحقوق المرأة وغيرها.

ثانياً: تعميق الحقد الغربي والعداء للاسلام وكل ما هو إسلامي ومهاجمة المساجد والمراكز الإسلامية والتضييق ضد الأقليات المسلمة وتوجيه أصابع الاتهام حتى للدول التي كانت تعتبرها صديقة لها، وبالتالي العمل على منع الهجرة حتى القانونية رغم حاجة اوربا للهجرة.

ثالثاً: مهاجمة بعض الشعوب الإسلامية بشراسة بتهمة ايوائها للارهابيين وهذا ما حدث لأفغانستان الجريحة ومازالت بعض الشعوب الإسلامية مهدّدة.

رابعاً: الحكم على بعض الدول الإسلامية بأنها محور الشرّ وما زال الخطر يتهدّدها كل آن، كما أنَّ بعض الجهات شبه الرسمية هدّدت باستخدام القنابل الذرية ضد بعض الدول.

خامساً: تم التخطيط لحملة اعلامية وبوليسية ضخمة لضرب المؤسسات المالية الإسلامية والمؤسسات الخيرية الدعوية وتمَّ الضغط على الدول لتغلق هذه المؤسسات.

سادساً: كما تمَّ التخطيط لضرب المؤسسات التعليمية الإسلامية وإفقادها استقلالها كما تدخّل الغرب بوقاحة لدى الدول الإسلامية لتقوم بتغيير مناهجها التعليمية وفق ما يرتئيه

---

١. راجع نص الوثيقة التي أصدرها ٦٠ من المنظرين الاميركيين وقد قام بعض المفكرين الإسلاميين من شتى الدول بالرد عليها.

الغرب من تصور.

سابعاً: هناك خطوات نلحظها لتهميش دور المؤسسات الإسلامية الدولية.

ثامناً: تصعيد الحملة التي بدأها الغرب بنفسه أو من خلال عملائه قبل الأحداث في مجال نشر المفاسد الأخلاقية والخلاعة والتحلّل والاستهانة بالمقدسات وإضعاف اللغة العربية وترويج العامية ومحاربة الحرف العربي (كما في آسيا الوسطى) وإشاعة العلمانية وتعميق الخلافات بين الدول الإسلامية وتداخلها ومحاربة عنصر (الاجتهاد) والتشكيك في صلاحية الإسلام لهذا العصر وضرورة الاتجاه نحو تطبيق قيم الحضارة الغربية وغير ذلك كثير.

تاسعاً: أهم الجوانب محاولة إغلاق الملفات المزعجة وفي طليعتها قضية فلسطين فقد اعطت أميركا الضوء الأخضر لشارون ليقوم بتصفيتها واستفاد هذا من ظروف الرعب وجعل عمليته ضد الفلسطينيين جزءاً من المرحلة الثانية للحرب ضد الإرهاب وقام بما يندى له جبين الإنسانية وساعدته أميركا بكل وقاحة وصراحة ونسى الغرب كل تاريخه في تمجيد المقاومة وكل شعاراته في الحرية والديمقراطية وحقوق الإنسان والشرعية الدولية، وحتى جرائم العدو الصهيوني في مخيم جنين لم تستطع الأمم المتحدة رغم صدور قرار بذلك أن تحقّق فيها وهي في الأصل واضحة للعيان وموثقة ومشهود لها من قبل شخصيات دولية.

الموقف الصحيح على المستوى الدولي

وكخطوة استراتيجية من أجل ردع الإرهاب بكل أشكاله ومضامينه ومصادره، نرى ضرورة قيام منظمة الأمم المتحدة بالتصدّي لهذا المشروع وتبنّيه، شريطة إحداث آليات جديدة تحول دون قيام الدول الكبرى بحرف المشروع باتجاه مصالحها الخاصة، وممارسة الضغوطات على المنظمة لتسير طوع أهدافها الاستكبارية. ومن هنا يمكن لمنظمة الأمم المتحدة أن تكون مرجعاً عالمياً للحملة الشاملة ضد الإرهاب وفرض السلام العادل في الأرض. ونرى أن مقدمات هذه الحملة تتمثّل في:

١. المساواة في الحقوق والواجبات بين الدول العضوة في منظمة الأمم المتحدة، ومنع هيمنة دولة أو أكثر على قراراتها، ولا سيما ما يرتبط بالآلية غير العادلة التي يضع مجلس الأمن الدولي قراراته من خلالها. فهذه الآلية تسبّبت مثلاً في استمرار الإرهاب في أكثر من بقعة من

بقاع العالم، ولا سيما في فلسطين، إذ استخدمت الولايات المتحدة الأميركية حق الفيتو عشرات المرات لمنع إصدار قرار من مجلس الأمن الدولي يكبح جماح الإرهاب الصهيوني.

٢. رفع الظلم عن الشعب الفلسطيني والشعوب المجاورة لفلسطين، والتي تتعرّض للانتهاكات والإرهاب من قبل الكيان الصهيوني.

٣. إحداث آلية دولية تمنع استمرار دعم الدول الكبرى للأنظمة والكيانات الدكتاتورية والعنصرية، وكذلك المنظمات والجماعات الإرهابية.

٤. محاربة الفقر والجهل والتعصّب الأعمى والمرض وكل مظاهر التخلف وكذلك أمراض المدنية الحديثة، ووسائل الاعلام والفن التي تشجّع على العنف، والعنصرية وتضعف المعنويات والقيم الأخلاقية على مستوى العالم أجمع؛ لأنّها تمثّل الأرضية الطبيعية التي تترعرع فيها النزعات الإرهابية.

ويتمّ العمل بدلاً من ذلك على:

أ. تعميم منطق الحوار بين الحضارات والأديان.

ب. تشجيع الديمقراطية المنسجمة مع القيم.

ج. المساعدة على تنفيذ برامج التنمية في العالم.

د. تقوية المنظمات الدولية وحذف عناصر الهيمنة فيها.

هـ. الارتفاع بالمستوى المعنوي والقيم الأخلاقية وتعميق دور الدين في ذلك واحترام الأدوار العائلية في عملية البناء الاجتماعي.

و. توجيه الحالة المعلوماتية لخدمة البشرية.

ز. انسنة الفن واستخدامه لصالح الأهداف العليا وغير ذلك.

٥. الحيلولة ـ بكل الوسائل ـ دون استغلال الدول الغربية الكبرى للأحداث وتحويلها إلى صراع حضارات وحرب بين الأديان وتصفية حسابات مع بعض الأنظمة، على حساب الشعوب.

٦. تخفيف معاناة شعب افغانستان، ودعمه بالغذاء والكساء والملجأ والدواء وغيرها من وسائل العيش الابتدائية والعمل على تحقيق الانسحاب التام للقوات الأميركية وغيرها.

٧. استمرار الحوار بين عقلاء البشرية من أتباع الأديان والحضارات والمذاهب، وتكثيفه

وتعميقه، بهدف خلق رأي عام عالمي يمارس دوره في نشر العدالة والسلام والمحبة بين جميع شعوب العالم.

ولا شك أنَّ السلام الذي ننشده وتنشده البشرية هو السلام العادل الذي تتكافأ فيه الفرص، ويعطي كل ذي حق حقه، وينصف فيه المظلوم، ويعاقب المعتدي، إذ أنّ السلام العادل هو الكفيل فقط باقتلاع جذور العنف والإرهاب، أمّا السلام المفروض وغير العادل فهو التسطيح للمشكلة والإبقاء عليها ناراً تحت الرماد؛ لأنَّ المجرم يتساوى فيها مع الضحية، وتضيع جرّاءه الحقوق، وتكون سياسة الأمر الواقع هي الحكم. وبالتالي ستعود أعمال العنف كما كانت وربّما بكثافة أكبر. وهذا ما يجعل السلام غير العادل سبباً في استمرار المشاكل وبؤر التوتر، وهو ما نشهده في أكثر من بقعة من بقاع العالم.

الحل على مستوى الأمة

إنَّ الحل على مستوى الأمة يكاد يكون من الواضحات ويتركّز على ما يلي:

أوّلا: رفع مستوى الوعي لدى جماهير امتنا في مختلف المجالات (فهم الإسلام وأهدافه، فهم الواقع القائم، فهم الموقف).

ثانياً: العمل على تعميم تطبيق الشريعة الإسلامية في كل الشؤون الحياتية.

ثالثاً: تطبيق عملية تربية شاملة لمختلف قطاعات الأمة وفق تعاليم الإسلام.

رابعاً: العمل بكل ما من شأنه توحيد موقف الأمة عملياً ولا نريد لهذا العمل أن يكون خيالياً، كما لا نريده أن يكون استسلامياً بل يجب أن يتّبع المنهج الوسطي الواقعي على ضوء الأهداف المرسومة.

خامساً: العمل على تقوية المؤسسات الشمولية الإسلامية وايجاد ما يلزم ايجاده، ومنحها حرية أكبر في التحرّك عبر آليات جديدة وفاعلة وواعدة.

سادساً: وضع خطة شاملة للاستفادة الأفضل من الإمكانات السياسية والاقتصادية والاعلامية والجغرافية والمادية والطاقات الجماهيرية والعلمية والثقافية وتعبئتها في عملية المواجهة.

سابعاً: العمل على حل أو التغافل أو تأجيل بعض النزاعات الجانبية أو الثانوية خدمة للهدف ألاهم واستجابة لقضية التزاحم في الأولويات.

ثامناً: الشدُّ من أزر الأقليات المسلمة ـ وتبلغ حوالي ثلث مجموع المسلمين في العالم ـ بالتأكيد على وجودها أوّلا ووحدتها ثانياً وهويتها ثالثاً، وتقوية مجالات التلاحم بينها وبين الأمة الأم.

تاسعاً: التركيز على دعم مؤسساتنا الخيرية ومؤسسات الاغاثة والدعوة، وعدم تركها في مهب الريح وعدم انزلاقها في مداخل الخلافات الجانبية المذهبية والسياسية.

عاشراً: الاحتفاظ بأصالة التعليم واستقلالية المؤسسات التعليمية وعدم الخضوع للضغوط الخارجية لتؤدّي دورها المطلوب على وجه أتم.

حادي عشر: الاستفادة الأفضل من المؤسسات والمنظمات الدولية الأخرى غير الحكومية لصالح قضايانا العادلة.

ثاني عشر: الوقوف بحزم وتخطيط في قضايانا المصيرية وأهمها قضية فلسطين.

وفي هذا المجال نقترح:

١. تضافر كل الجهود الإسلامية لافشال خطط العدو الصهيوني لتركيع الشعب الفلسطيني وإنهاء الانتفاضة الباسلة بدعم صموده وانتفاضته الباسلة ومقاومته الشجاعة.

٢. القيام بحملة لدعم المنكوبين وترميم الخراب وتكليف كل دولة غنية بسد جانب منه.

٣. ضرورة التأكيد على كون القضية الفلسطينية إسلامية وتعبئة كل الطاقات الإسلامية لذلك.

٤. ضرورة اتخاذ كل الخطوات والاستفادة من كل الإمكانات القانونية والمحافل الدولية لفضح جرائم الصهيونية.

٥. عدم السماح لأميركا للاستفراد بالقضية وأمثالها، وعدم الاعتماد على الحلول الأميركية.

٦. لزوم التفكير الجدّي للعودة لنظام المقاطعة الشاملة للكيان الصهيوني الغاصب ومن يدعمه بل وتنفيذ المقاطعة الشعبية فوراً.

٧. لزوم تفعيل الدور السياسي لمنظمة المؤتمر الإسلامي في هذا المجال خصوصاً في مجال المطالبة بتنفيذ القرارات الدولية.

٨. لزوم العمل دولياً على وضع تعريف شامل للإرهاب والتفريق بينه وبين المقاومة المشروعة.

٩. ضرورة اعطاء الغطاء الشرعي للمقاومة الفلسطينية عموماً وللعمليات الاستشهادية

خصوصاً.

١٠. لزوم الاستفادة الفعّالة من إمكانات المنظمات غير الحكومية على غرار ما جرى في مؤتمر (دوربان) في جنوب أفريقيا.

العولمة وموقف الأمة[1]

الوضع الطبيعي

إذا أردنا أن نعرض الواقع الطبيعي للعالم فإنّه ينبغي أن نعرضه على مستويين. تارة على المستوى النظري، من وجهة نظر الإسلام، وأخرى على المستوى الواقعي الحالي القائم.

أمّا على المستوى النظري فإنَّ الإسلام يرى كون الوضع الطبيعي للبشرية إنّما يتم إذا قام نظام عالمي شامل له قانون واحد، وله إمام واحد، يمتلك قوانين منسجمة مع الفطرة الإنسانية، باعتبار أنّ الفطرة الحد المشترك بين الأفراد. والدين ينسجم تمام الانسجام مع هذه الفطرة، وهي سنة الله في خلقه كما في الآية الشريفة ﴿فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾[2]، وهذه الفطرة تقتضي اللجوء إلى الله تعالى، واستمداد الشريعة في أصولها من الله تعالى؛ لأنَّه أعلم بما يصلح الإنسان، ويحقّق العدالة في هذا الإصلاح، لأنّه تعالى الخالق العليم الرحيم فلا حيف ولا ظلم ولا جهل، والرسالة التي تأتي من الله تعالى تعتمد منطق العدل والإحسان. والعدل يقتضي عدم التمييز إلّا بالصفات التي يكتسبها الفرد، وهذه الصفات هي التقوى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[3]، والجهاد ﴿فَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْراً عَظِيماً﴾[4]، والعلم ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[5]، كما أنّ هذه الرسالة تقتضي اتباع منطق الشورى في الحكم، هذا هو التصوّر

---

١. قدّم إلى المؤتمر الرابع عشر لمجمع الفقه الإسلامي في قطر ١٤٢٣.

٢. الروم: ٣٠.

٣. الحجرات: ١٣.

٤. النساء: ٩٥.

٥. الزمر: ٩.

الاجمالي للوضع الطبيعي للبشرية ـ على المستوى النظري: مجتمع واحد وإمام واحد وقانون واحد يستمدّ أصوله من هداية الله تعالى، ويسير وفق التشريع الإلهي.

أمّا على المستوى الواقعي الحالي فإنّنا إذا لاحظنا الوضع الحاضر فإنّه يبدو أنّ الوضع الطبيعي للعلاقات الدولية والنظام الحاكم في الأرض يقتضي أن تكون هناك أمم متحدة، وقانون دولي واحد ومنظمات دولية واحدة تنظّم هذه العلاقات، ويقوم هذا النظام على أسس منها:

١. احترام سيادة الدول وعدم التدخل في شؤونها الداخلية.

٢. احترام الثقافات المتنوعة.

٣. اتباع سياسة عامة لمحو الفقر ودعم العدالة الاجتماعية.

٤. دعم الديمقراطية في إطار احترام القيم التي يؤمن بها المجتمع.

٥. اتخاذ منطق الحوار للوصول إلى المشتركات والتعاون في هذه المشتركات وذلك على المستويات كافة، سواء كان حواراً بين الحضارات أو بين الأديان أو بين المدارس والمذاهب المختلفة.

٦. الارتفاع بالمستوى العلمي الإنساني، والتعاون بين الدول في هذا المجال.

٧. دعم قضية السلام العالمي العادل.

٨. نفي الاحتلال والظلم والإرهاب بأنواعه.

٩ فتح المجال للمعلوماتية البنّاءة النافعة للبشرية.

١٠. عدم السماح للأفكار الهدّامة التي تسيطر على البشرية بالظهور، من قبيل النازية والفاشية والعنصرية والصهيونية وباقي الأفكار الشيطانية بإجماع البشرية.

عناصر مهمة في العلاقات مع الآخرين في رأى الإسلام

وهنا نودّ أن نجمل الأمر، فنذكر بعض العناصر التي تلعب دورها الكبير في تحديد نوعية العلاقات الدولية للسياسة الخارجية الإسلامية، إلاّ أنّنا قبل ذكر هذه العناصر، نشير إلى الأساسين الرئيسين، اللذين تقوم عليهما السياسة الخارجية الإسلامية، وهما:

١. المصلحة الإسلامية العليا على ضوء الواقع القائم.

٢. الروابط والرحمة الإنسانية، والصلات الخلقية.

والواقع أنَّ كل التشريع الإسلامي يستقي من هذين المعنيين، بل يمكننا القول ـ عند التعمّق ـ أنَّهما يعبّران عن موقف واحد، فلم يكن الإسلام ليقصد إلاّ أن يضع الإنسان على طريق تكامله، ويفجّر طاقاته، وينفي عن حياته كل المعوقات التي تقف في وجه مسيرته، المستمدة من هدي الرسولين، الداخلي والخارجي، أي الفطرة والتشريع.

والواقع الذي لاشك فيه أنّ الواقعية والروح المناقبية تعتبران من أهم سمات التشريع الإسلامي في شتّى جوانبه، وما سنراه فيما يلي من أسس إنّما ينبثق عن هاتين الصفتين الرئيسيتين.

أمّا العناصر التي وددنا التركيز عليها في نظرتنا السريعة هذه، فهي كما يلي:

أوّلا: العمل على إبقاء الأمة نموذجاً أعلى للمجتمعات البشرية:

فالأمة الإسلامية التي يصفها القرآن: هي الأمة الوسط، والوسطية هنا بلا ريب يراد بها النموذج الأسمى، وما يمكن استفادته من تعبير واسطة العقد، حيث الجوهرة الثمينة التي تتبعها الجواهر الأخرى فيه. وهي الأمة الشاهدة، وهي خير أمة أخرجت للناس، وعلى هذا فالسياسة الخارجية الإسلامية تسير بشكل منسجم مع مجموع السياسات الداخلية باتجاه تحقيق هذا الأمر بشتّى الوسائل والسبل، أي سواء على الأصعدة السياسية، أو الاعلامية، أو الاجتماعية، أو العسكرية، أو غيرها.

إنَّ هذا العنصر يدفع الأمة إلى التعالي والتكامل في كل حقل، والاستفادة الأكمل من تجارب الآخرين، واستغلال كل تسابق في سبيل تحقيقه.

إنَّه يعني الانفتاح على كل مجالات الحياة، وحمل رسالة إنسانية حضارية كبرى، نقول هذا ونحن نعترف بأنّ أمتنا ـ نتيجة عوامل كثيرة ـ قد اقصيت عن هذا الدور الطليعي الذي أهّلت له، ولكن هذا لا يعني أن لا تظل تلحّ على الوصول إليه، أو تنساه عندما تحاول أو تؤصل أيّة علاقة دولية.

ثانياً: المبدئية في التعامل:

وهي سمة عامة في كل خط سياسي سواء على الصعيد الداخلي أو الخارجي، ذلك:

إنَّ الدولة الإسلامية دولة عقائدية، تؤمن بمبادئ تصورية تقوم على أساس منها خطوط عملية تستوعب حياة الإنسان الفرد والمجتمع.

ولهذا فهي تقترب من الآخرين بمقدار قربهم من المبدأ، وتبتعد عنهم بنفس المقياس، وهي لا تتعامل معهم إلَّا من خلال الامتدادات التي يسمح بها المبدأ... فعلى ضوء المبدأ يتحدّد نوع العلاقات الدولية، وكونها وديّة، أو حسنة، أو سيئة في الأصل.

أما العلاقات الاخوية فلا تقوم إلَّا بين المؤمنين، وذلك لأنّها علاقات سامية، قد تعني وحدة الأفراد في مختلف الشؤون وليس هناك إمكان أن يصلها أناس يختلفون على قضية الإيمان.

ثالثاً: نفي السبيل على المؤمنين:

وتعتبر هذه القاعدة من أروع قواعد السياسة الخارجية، وربما كانت في بعض جوانبها تطبيقاً للقاعدة الأولى، كما تعبِّر عن علو الإسلام على غيره من الأنظمة، وكرامة المسلمين التي يجب أن لا تُمسَّ مطلقاً.

وبموجب هذه القاعدة فإنَّ أي تصرف أو معاهدة أو عقد يؤدّي إلى تفوق الكافرين على المسلمين يعدُّ ملغياً من أساسه ـ وكما يعبّر الفقهاء ـ فإنَّ هذه القاعدة شأنها شأن قاعدة (لا ضرر ولا ضرار في الإسلام) وقاعدة (نفي العسر والحرج) تعدُّ من القواعد الثانوية التي تستطيع أن تحكم على الأحكام الأولية بمجموعها، اللّهم إلّا تلك التي تتضمن بنفسها تحمّل الضرر في سبيل تحقيق غاية أسمى كالجهاد.

وتستند هذه القاعدة إلى أدلة.

منها: الآية الشريفة: ﴿وَ لَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾[1].

ومنها الأحاديث التي تطبّقها في بعض الموارد، كالحديث الوارد بما نصه:

«الإسلام يعلو ولا يُعلى عليه، والكفار بمنزلة الموتى، لايحجبون ولا يورثون»[2].

---

١. النساء: ١٤١.

٢. من لايحضره الفقيه، ج٤، ص٣٣٤.

كما تستند إلى اجماع الفقهاء، وربما أمكن أن يقال: إنَّ روح التوجّهات الإسلامية، وملاحظة المناسبات بين الحكم والموضوع، تقرّر هذه الحقيقة بوضوح، ﴿وَ لِلّٰهِ الْعِزَّةُ وَ لِرَسُولِهِ وَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاٰ يَعْلَمُونَ﴾[1].

وينبغي أن ننبّه هنا إلى أنّ هذا التوجّه لا يعبّر عن نوع من التكبّر ـ كما يقول البعض ـ وإنّما هو تقرير حقيقة علوّ النظام الإسلامي على غيره، باعتباره النظام الأكمل، وبالتالي أفضلية تابعيه، فهو يعمل على أساس من معيار إنساني. نعم، يمكن أن يناقش أو يتساءل أحد عن أصل المعيار، ويتحول البحث حينئذ إلى الأدلة. أمّا أن يطلق القول على عواهنه، ويعتبر ذلك بشكل عام عملاً عنصرياً، فهو من أشد الظلم.

إنّها قاعدة تعاملية مهمة، لها تطبيقاتها في مختلف المجالات، ومنها: المجالات السياسية.

وليس هنا بأروع من تطبيقها اليوم، في تعاملنا مع القوى العظمى، التي تعمل على ابتلاع العالم ونهب ثرواته، وعبر بعض الأساليب الخدّاعة.

وما حادثة تحريم شراء وبيع التبغ الداخلي والخارجي لبريطانيا، من خلال تاجر انكليزي يدعى (رجي) إلّا تطبيقاً لهذه القاعدة في ايران، حيث سلّط الشاه الظالم الكافرين، على جانب اقتصادي إسلامي، وحيث أصدر الميرزا الشيرازي فتواه المعروفة القائلة:

(إن استعمال التبغ ومشتقاته حرام اليوم، وأنه يعدّ بمثابة اعلان الحرب ضد الإمام المهدي عجّل الله تعالى فرجه الشريف).

والتطبيق السياسي الثاني المعاصر: هو الموقف الحازم الذي وقفه الإمام الخميني من معاهدة الكابيتولاسيون أو الحصانة، وتعني: اشتراط أن لا تطبق على السكان الاجانب في ايران إلّا قوانين دولهم، حيث يقوم قنصل الدولة المذكورة بتطبيقها.

وما كانت تعني إلّا نوعاً من الحصانة القضائية للأجانب، وتسليطهم على رقاب المسلمين، وقد قام نظام الشاه المقبور بعقد هذه المعاهدة في عام ١٩٦٣م، فنهض العلماء الكبار ـ وفي طليعتهم الإمام القائد ـ ضد هذا العمل المنافي للإسلام والعدالة، ممّا أدّى به إلى

---

١. المنافقون: ٨.

إبعاده من قبل الحكم الطاغي إلى تركيا. والواقع أنَّ بذرة الثورة الإسلامية الكبرى غرست في ذلك اليوم. والرائع أنَّ الإمام استهل بيانه الجريء وفتواه بالآية القرآنية الشريفة: ﴿وَ لَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾[١].

ولو أنَّ الأمة الإسلامية، أو هؤلاء القائمين عليها، راعوا هذه القاعدة في تعاملهم، لما أصيبت الأمة بالحالة التي هي عليها الآن قطعاً.

ومن الجدير بالذكر أنّ العناصر الثلاثة الماضية تشكل أساساً لروح الاستقلال، والترفّع على أي نفوذ أجنبي مذل.

رابعاً: التوعية قبل أية خطوة أخرى:

الإسلام دين التوعية والتربية... وهو بمقتضى واقعيته وفطريته يقرّر لزوم القيام بتوعية أي إنسان يراد له أن ينضمَّ إلى معسكره، وأي مجتمع يراد للإسلام أن ينفذ إلى عمقه... إنَّه يعرض جوهرته الثمينة، لأنّه يعلم أن قيمتها ستنكشف بكل وضوح للجميع... ولذا فهو يرفض أي تقليد في العقيدة، ويدعو إلى البحث والبرهنة، ﴿قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ﴾[٢] وهو يرفض أية عملية إكراه عقائدي ﴿لا إِكْراهَ فِي الدِّينِ﴾[٣] كما يريد من الأمة أن تكون من أولي الأيدي والأبصار، قوية في بصرها وبصيرتها... وفي مجال التعامل مع الآخرين يأمر بالدعوة البيّنة الواضحة قبل كل شيء.

يقول القرآن الكريم: ﴿ادْعُ إِلىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[٤].

﴿فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾[٥].

﴿وَ مَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعا إِلَى اللهِ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ قالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[١].

١. النساء: ١٤١.
٢. البقرة: ١١١.
٣. البقرة: ٢٥٦.
٤. النحل: ١٢٥.
٥. الشورى: ٣٣.

﴿قُلْ هٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللهِ عَلىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَ مَنِ اتَّبَعَنِي وَ سُبْحَانَ اللهِ وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢].

وفي هذا يقول آية الله السيد محمد باقر الصدر:

والأمر الآخر: أن يبدأ الدعاة الإسلاميون ـ قبل كل شيء ـ بالإعلان عن رسالتهم الإسلامية، وايضاح معالمها الرئيسية، معززة بالحجج والبراهين، حتى إذا تمّت للإسلام حجته، ولم يبق للآخرين مجال للنقاش المنطقي السليم، وظلوا بالرغم من ذلك مصرّين على رفض النور... عند ذلك لا يوجد أمام الدعوة الإسلامية بصفتها دعوة عالمية تتبنى المصالح الحقيقية للإنسانية ـ إلّا أن تشق طريقها بالقوى المادية، بالجهاد المسلح[٣].

وقد جاء في كتاب «الكافي» للمرحوم الكليني عن الصادق عليه السلام قوله:

«قال أميرالمؤمنين عليه السلام: بعثني رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اليمن، فقال: يا علي لا تقاتلنّ أحداً حتى تدعوه إلى الإسلام، وأيم الله لأن يهدي الله عزّ وجل على يديك رجلاً خيرٌ لك ممّا طلعت عليه الشمس وغربت، ولك ولاؤه يا علي»[٤].

إنّه أسلوب القرآن قبل كل شيء، الذي علّمه الله لموسى وهارون عليهما السلام، ﴿اذْهَبَا إِلىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغىٰ * فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشىٰ﴾[٥].

إنّه الدعوة ـ حتى عند مواجهة الطواغيت ـ عسى أن يهتدوا إلى الحق.

وها نحن نجد الرسول العظيم يكرّر عبارة (ادعوك بدعاية الإسلام) في رسالته إلى شاه ايران، وقيصر امبراطور الروم تطبيقاً لهذا التعليم الإسلامي السامي.

وهكذا راح الدعاة يبثون الدعوة إلى الأقطار. وقد ذكرت أسماء بعض الدعاة إلى الله، ومنهم:

عبدالله بن حذافة السهمي ـ مبعوث الرسول صلى الله عليه وآله إلى إيران.

---

١. فصلت: ٣٣.

٢. يوسف: ١٠٨.

٣. اقتصادنا، ص٢٧٥.

٤. الكافي الكليني.، ج٥، ص٢٨.

٥. طه: ٤٣ و ٤٤.

حاطب بن أبي بلتعة ـ مبعوث الرسول ﷺ إلى مصر لدعوة المقوقس.

دحية الكلبي ـ مبعوث الرسول ﷺ إلى روما.

عمرو بن أمية ـ مبعوث الرسول ﷺ إلى الحبشة.

سليط بن عمرو ـ مبعوث الرسول ﷺ إلى اليمامة.

عمرو بن العاص ـ مبعوث الرسول ﷺ إلى عمان.

حرملة بن زيد مع وفد معه إلى مدينة (أبلة) الواقعة على ساحل البحر الأحمر.

المهاجر بن أبي أمية ـ مبعوث الرسول ﷺ إلى ملوك حِمْيَر.

خالد بن الوليد ـ مبعوث الرسول ﷺ إلى همدان (مدينة قرب بحر عمان).

علي بن أبي طالب عليه السلام ـ مبعوثه الثاني إلى هذه المدينة.

حذيفة بن اليمان ـ مبعوث الرسول ﷺ إلى الهند.

عبدالله بن عوسجة ـ مبعوث الرسول ﷺ إلى قبيلة حارثة بن قريظ.

جرير بن عبدالله البجلي ـ مبعوث الرسول ﷺ إلى قبائل ذي الكلا.

وغيرهم ممَّن حمل مهمة الدعوة إلى الشعوب.

وإذا أردنا أن نجد التطبيقات السياسية لهذا الأصل في التعامل الدولي، أمكننا أن نلحظها في بعثات الإيضاح المرسلة من هنا إلى هناك، وفي أساليب توضيح الحقيقية عبر الوسائل السمعية والبصرية. وفي مذكرات الايضاح الموجهة، والمذكرات التفسيرية المقدمة إلى المؤتمرات الدولية.

وممّا تتميّز به العلاقات الدولية الإسلامية: أنّها تنظر إلى عملية التوعية والايضاح كرسالة الهية ومبدأ ضروري يجب الالتزام به قبل القيام بأية خطوة عسكرية أو سياسية أو غيرها تجاه الدول الأخرى.

أمَّا ما نجده من السياسة الماكرة القائمة بالفعل، فهو اعتماد هذه السياسة التوضيحية باعتبارها مناورة سياسية فإذا لزم الأمر، قلبت الحقائق، وتغيرت الموازين.

خامساً: مراعاة العدالة في التعامل:

ويشكل العدل أهم أصول التصور الإسلامي عن الواقع.

﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إِلٰهَ إِلاَّ هُوَ وَ الْمَلائِكَةُ وَ أُولُوا الْعِلْمِ قائِماً بِالْقِسْطِ﴾[١].

وأهمّ الأسس عند التعامل الاجتماعي.

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَداءَ لِلّٰهِ﴾[٢].

ومن الطبيعي أن يأتي التأكيد على العدالة حين تثور الإحن والشنآن، ويكاد العدل ينسى من البين، وحينئذ تقول الآية:

﴿وَ لا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلىٰ أَلاّٰ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ﴾[٣].

وإذا لاحظنا أنّ العدل في التعامل مع الأجانب عن دار الإسلام يلحظ فيه واقعهم القائم، أدركنا البعد الإنساني في هذا الأصل، وهذا ما تؤكّده أحكام الإسلام في الجهاد والعهد والإجارة وغيرها.

وهو ما يفسّر وقوف الدولة الإسلامية إلى جانب قضايا المستضعفين والمحرومين في الأرض، ومقارعة الظلم والطغيان في كل مكان، حتى لو لم يكن الأمر يمسها من قريب، وعملها على نفي العلاقات الظالمة بين الدول.

فليس وقوفنا إلى جانبهم وقوفاً مصلحياً دعائياً، حتى إذا ما تسنّى لنا الأمر ومنحتنا المقادير أزمّتها رحنا نسومهم سوء العذاب، وهو ما نجده من القوى العظمى، شرقيّها وغربيّها وإنّما هو موقف مبدئي أصيل، قائم على أساس متين، متى ما خالفناه ـ وفي أية لحظة ـ خرجنا عن الخط الإسلامي القويم، ودخلنا في عداد المستكبرين، الذين يقول فيهم تعالى:

﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ تُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ * أُولٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللهُ فَأَصَمَّهُمْ وَ أَعْمىٰ أَبْصارَهُمْ﴾[٤].

١. آل عمران: ١٨.

٢. النساء: ١٣٥.

٣. المائدة: ٨.

٤. محمد: ٢٢ و ٢٣.

إنّ القرآن على العكس من ذلك، يعطينا صورة الجماعة المسلمة المتمكنة، بقوله: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقامُوا الصَّلاةَ وَ آتَوُا الزَّكاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلّٰهِ عاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾[1].

سادساً: مبدأ تأليف القلوب:

وهو مبدأ يمثل ايجابية الشريعة الإسلامية بكل وضوح، كما يعكس واقعيتها في نفس الوقت.

ففي الجو الذي يتم فيه تأليف القلوب، تنفتح النفوس للحقيقة، وتتقرب إلى الواقع، والأصل في هذا المبدأ هو: سهم المؤلفة قلوبهم في مصارف الزكاة، حيث فتح هذا مجالاً للعمل المنظم لتحقيق ذلك، عبر الوقوف إلى جانب كل المستضعفين، والدفاع عن قضاياهم، وجلب القلوب إلى الإسلام.

ورغم أنَّ الفقهاء يختلفون في مساحة هذه القلوب المؤلفة، وهل تختص بغير المسلمين، أم تشمل المنافقين، أم تعم بعض المسلمين ضعيفي الإيمان، إلَّا أنّ الذي يبدو من روح الإسلام واتجاهاته الاقتصادية، ومن أقوال فقهاء الشيعة والسنة ـ ومنهم الإمام الخميني القائد ـ أنّه مبدأ عام، وأصل يتيح للدولة الإسلامية أن تلحظ المصلحة أينما تكون. ومن هنا فمن الطبيعي أن يشكل عنصراً إسلامياً، له دوره في تحديد العلاقات الدولية، وتقديم المساعدات لمختلف الدول والشخصيات والجمعيات على شتى مذاهبها.

ولئن كان هناك بعض البحث في لزوم العمل بهذا المبدأ في عصر معيّن، وبالنسبة لأشخاص معيّنين، بعد وفاته ﷺ فإنّه لا شك في إسلاميته أصلاً، ولزومه في العصور الأخرى.

على أنّنا ننبّه هنا إلى أنّ هذا السهم المعطى للمؤلفة قلوبهم لا يختص مورده بباب الزكاة، وإنَّما نجد الإسلام يسمح للإمام بأن يقوم بالإنفاق بما يحقّق مصلحة الإسلام العليا من أموال الدولة، وتفصيل هذا يذكر في البحوث الاقتصادية الإسلامية.

وبانفتاح هذا الباب نجد المجال السياسي لتطبيقاته واسعاً جداً يشمل كل المعونات الاقتصادية والسياسية التي يمكن أن تقدمها الدولة في سبيل تقريب القلوب إلى مبادئها...

---

١. الحج: ٤١.

إلاّ أنّ من الواضح فيه ملاحظة مدى ما يعود به من نفع على القضية الكبرى بغض النظر عن أية منافع سياسية ضيّقة.

سابعاً: احترام العهود والعقود والاتفاقيات الدولية:

وهذا الأصل هو من أهم الأصول التي تعتمدها السياسة الإسلامية الحقّة، وكما قلنا من قبل، فإنّه يستمد من الواقعية التي تتسم بها النظرة الإسلامية من جهة، واحترام مقتضيات الحق من جهة أخرى.

فالقائد الإسلامي يفكّر ملياً في أيّ عهد أو عقد يعقده، ولكنه إذا عقد العقدة ـ مستوفية لكل شروطها ـ التزم بها تمام الالتزام.

﴿وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كانَ مَسْؤُلاً﴾[1].

والعهود التي تعطى للدول الأجنبية أو الأجانب، تارة تدخل ضمن عقود صرّح بها الإسلام، وحدّد لها قوانينها العامة، فيجب الالتزام بذلك، وأخرى تسير بمنحى مستقل، يرى وليّ الأمر أن يعقدها لأنّها تحقّق المصلحة الإسلامية العليا.

فمثال الأوّل: عقد الذمة، وعقد الهدنة، وعقد الأمان. ومثال الثاني: كل العقود الأخرى والتي تعقد على الصعيد العسكري والاقتصادي، وأمثال ذلك.

وتستمد التعاليم الإسلامية الخاصة بهذا العقد أو ذاك ـ من نصوص القرآن الشريفة، والأحاديث المباركة، وعمل الرسول ﷺ .

ففي مجال عقد الذمة: تستفاد بعض الأحكام من الآية الشريفة: ﴿قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللهُ وَ رَسُولُهُ وَ لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ﴾[2].

وهناك عقود أهل الذمة التي عقدها مع نصارى نجران وبني تغلب ومجموعات من اليهود.

ولا نريد هنا أن ندخل في تفاصيل هذه العقود، وإنّما نريد التأكيد على أنّ مسألة العهود

---

١. الإسراء: ٣٤.

٢. التوبة: ٢٩.

تحتل جانباً مهماً من الفقه الإسلامي، وتستمد خطوطها العريضة من القرآن الكريم.

ثامناً: التعامل بالمثل:

يقول تعالى: ﴿الشَّهْرُ الْحَرامُ بِالشَّهْرِ الْحَرامِ وَ الْحُرُماتُ قِصاصٌ فَمَنِ اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدىٰ عَلَيْكُمْ وَ اتَّقُوا اللهَ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[1].

وإذا كان مبدأ القصاص من جهة، ومبدأ جزاء الإحسان بالإحسان من جهة أخرى، مبدأين واقعيّين يرتضيهما المنطق الإنساني في التعامل الفردي والاجتماعي الداخلي، فإنّهما كذلك في مجال التعامل الدولي، بل ربّما عاد أحدهما من الضرورات، إمَّا لردع الإعتداء، وإمّا لجلب القلوب.

تاسعاً: نظام الجهاد بمختلف أنواعه:

وهو باب واسع الأبعاد والفروع، حاول الإسلام فيه تنظيم الأعمال الحربية، مستهدفاً تحقيق الأهداف الإسلامية العليا، من خلال رفع الموانع في سبيل الدعوة الإسلامية، والحفاظ على محورها المتحرك. كل ذلك مع ضمان أكبر لالتزام الأساليب الإنسانية الممكنة ولن نتحدث طويلاً عن هذا الباب لسعته وضيق مجالنا عنه.

كانت هذه بعض الأسس القرآنية للتعامل الدولي، أشرنا اليها في لمحات سريعة، تاركين التفصيل فيها إلى مظانه، وملاحظين أنّه قد يكون البعض فيها داخلاً في إطار البعض الآخر، كما في مسألة المبدئية في التعامل مثلاً، أو نظام الجهاد.

الاتجاهات العالمية لدى النظم

في الواقع هناك اليوم ثلاثة نظم متنافسة هي الإسلام، الاشتراكية، الرأسمالية. وهي تمتلك جميعاً توجّهات عالمية، وهنا أؤكد على أنّه لا فرق من حيث هذا التعريف بين العولمة والعالمية. وقد ذكرنا أنَّ الإسلام باعتباره آخر حلقة من حلقات الدين الإلهي فقد جاء ليصلح البشرية، باعتباره طريق خلاصها الذي أراده خالق البشرية، وهو بذلك يركّز على الفطرة الإنسانية

١. البقرة: ١٩٤.

المشتركة بين أبناء البشر، ويعتمد منطق الحوار والاقناع، ويعرض نفسه باعتباره السبيل الوحيد لخلاص البشرية. هذا الإسلام استخدم، لتحقيق أهدافه، عملية التغيير الفردي والتغيير الاجتماعي، وسعى لحذف الحدود الجغرافية والحدود اللونية واللغوية، وإقامة مجتمع عالمي يطبّق قانوناً واحداً، ويتبع قائداً واحداً، ويمتلك أحاسيس مشتركة، وأهدافاً إنسانية واحدة. وهذا الاتجاه العالمي يبدو في كثير من النصوص الإسلامية، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يا أَيُّهَا النّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَ إِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَ ما هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾[2].

وهناك نصوص كثيرة تؤكد على عالمية الإسلام منذ انطلاقته الأولى خلافاً لما يدّعيه بعض المستشرقين والمؤرخين من أن العالمية الإسلامية جاءت بالتدريج ولا مجال هنا للتفصيل في هذا المجال.

فالإسلام إذاً انطلق باتجاه عالمي وما زال، عبر العصور، يؤكد هذا الاتجاه، ويؤكد وحدة المنطلق الإنساني، والمسير والهدف، هذا هو رأي الإسلام.

أما الاشتراكية فهي أيضاً عندما طرحت فلسفتها عن التاريخ طرحت مسألة المادية التاريخية، والمراحل التي اشتهرت في هذه المادية، حيث تنتقل البشرية من مرحلة العبودية إلى المرحلة الاقطاعية، إلى الرأسمالية التجارية، إلى المرحلة الرأسمالية الصناعية، إلى المرحلة الاشتراكية، وبالتالي المرحلة الشيوعية، عبر بعض القوانين ومنها صراع الأضداد الاجتماعية. هذا التصور أعطى الاشتراكية نظرتها العالمية في ايجاد تحوّل عالمي في مسيرة الإنسانية. وواضح أنَّ الاشتراكية اعتمدت في هذا المجال قضية صراع الطبقات، والثورة والنظام الحديدي الاشتراكي، الذي يوصل المجتمع إلى الجنة التي يتصوّرها الاشتراكيون، وهي الشيوعية[3]، وقد فشلت هذه الرؤية سواء على الصعيد النظري أو على الصعيد التطبيقي في اثبات ذاتها.

---

١. الأعراف: ١٥٨.

٢. القلم: ٥١ـ٥٢.

٣. للوقوف على تفصيل هذا الأمر، راجع بحوث الشهيد الصدر في اقتصادنا، ص ٥٣ ـ ٢٣٨،حول الموضوع.

أما بالنسبة إلى الرأسمالية فقد انطلقت منذ بداية حركتها دون أساس ايديولوجي[١]، ولم تكن تهتم بالأساس الايديولوجي، وإنّما همّها تنظيم الحياة، وأقامت نظامها على أساس الحرية الفردية الرأسمالية، وعندما انطلقت وواجهت اتساع الأفكار المعادية لها، راحت تأخذ من الاشتراكية شعاراتها وتستبدلها بشعارات مقابلة، من قبيل العدالة الاجتماعية؛ حيث استبدلتها بمسألة حقوق الإنسان، والتنمية الاقتصادية حيث استبدلتها بمسألة السوق الحرة ونمو الانتاج، وبالتالي فإنّها أخذت شعار الأممية البروليتارية واستبدلته بشعار العولمة الرأسمالية، إذ عندما انطلقت انطلقت محلية وكان تركيزها على الغرب، ولم تطرح نفسها بشكل عالمي، إلّا بعد أن توفرت ظروف مناسبة لذلك.

وهنا نذكّر بالمراحل التي ذكرها «روبنسون» فقد تصوّر «روبنسون» أنَّ العولمة الرأسمالية مرّت بمراحل هي المرحلة الجنينية، وتبدأ منذ القرن الخامس عشر الميلادي وحتى منتصف القرن الثامن عشر، بسيادة القومية والجغرافية، ثم مرحلة النشوء، التي رآها تستمر حتى الثلث الأخير من القرن التاسع عشر بتبلور مفاهيم العلاقات الدولية ثم مرحلة الانطلاق في عشرينيات القرن العشرين بظهور المفاهيم الكونية، ثم مرحلة الصراع من أجل الهيمنة حتى منتصف الستينات، حيث ظهرت الأمم المتحدة، ثم مرحلة الاتصال واندماج العالم الثالث، والتعدد الثقافي، وبالتالي تصوّر أوج العولمة في الثمانينات والتسعينات[٢]. وهذا التصوّر كما نعتقد مصطنع وفرضي ولا واقع له، لأنَّ الرأسمالية لم تنطلق بنظرة عالمية مطلقاً، وإنّما كان تركيزها على الغرب والدول الغربية بشكل جغرافي لا غير، ولكن الظروف التي حصلت في القرن العشرين دعت لطرح مفهوم العولمة كما يبدو للباحث. فإنَّ تنامي القدرة الغربية وامتلاكها المعلوماتية الضخمة وقدرة الاعلام النافذ لكل أنحاء العالم من جهة، وكذلك تعاظم القدرة الإسلامية وانتشار النظرة الشمولية الإسلامية، التي شكّلت في نظر الغرب خطراً على كل الحضارة الغربية من جهة ثانية، وانهيار الاتحاد السوفيتي كقدرة منافسة، كل هذه الأمور فسحت المجال لطرح نظرية العولمة على هذا المستوى الواسع.

---

١. ن. م. ص ٢٤٧ ـ ٢٥٠.

٢. نقلاً عن سيد ياسين ـ مجلة المستقبل العربي، عدد ٢٢٨، فبراير ١٩٨٨م.

تعريف العولمة

لا ريب أنّ تعريف العولمة غامض والتعاريف المقدّمة متناقضة ومتنوعة، والحقيقة أنّ الإنسان يدرك من خلال معرفة نوع التفسيرات والتعاريف أنَّ العولمة هي محاولة نفي الحضارات غير الغربية، وتحميل الرأسمالية، ومحاولة فرض الأمركة والهيمنة على العالم. ونذكر في هذا الصدد ثلاث محاولات:

١. تعريف اللجنة الدولية عام ١٩٩٥م وهو يفسرها بالتداخل بين أمور الاقتصاد والاجتماع والسياسة والثقافة والسلوك عبر رفض الحدود والانتماء الوطني والاجراءات الحكومية[١].

٢. بعض التعاريف العربية للعولمة بأنّها حقيقة التحوّل الرأسمالي في ظل هيمنة الدول المركزية وسيادة نظام عالمي غير متكافئ، وهناك تعريفات اقتصادية أو أدبية أو تعاريف باعتبار اللوازم (للجابري) و(التيزيني) وغيرهما[٢].

٣. تعريف «روزناو» الأميركي ويطرح تساؤلات: هل تنطلق العولمة من التجانس، أو تعميق الفوارق؟ وهل لها مصادر واحدة أو متفرقة؟ وهل لها ثقافة واحدة أو متعددة؟ وبالتالي يعتبر هناك ثلاثة عناصر دخيلة في العولمة، إزالة الحدود وابراز تشابه المجتمعات الكبرى وفرض طريقة حياتها على الآخرين[٣]، ومن هنا نستطيع القول: إنَّ العولمة في الواقع هي محاولة أمركة العلاقات السياسية والحقوقية والاجتماعية، عالمياً، وفرض ثقافة الهيمنة الغربية على الآخرين، فهي من أخطر الأفكار الشيطانية. وقد استفاد الغرب من قدرته التكنولوجية والعلمية والثقافية والعسكرية لطرح هذه الفكرة، كما قام بعض الفلاسفة والكتّاب بالتمهيد النظري لها.

وكلنا يعرف نظرية «هانينغتون» التي تركز على الحضارة الغربية وتعتبرها تتميز بالتسامح والإنسانية والتعددية، في حين تصف الحضارات غير الغربية بالاستبداد والانغلاق على

---

١. مجلة النهج، عدد ٥٠، ربيع ١٩٩٨.

٢. مجلة الواحة، عدد ١٦، ص ١٥٣.

٣. جيمس روزناو ـ ديناميكية المعرفة.

الماضي، والفشل في حل المشكلات الإنسانية، كالفقر والبطالة ومستوى المعيشة، وكثرة الانجاب والديكتاتورية.

وهي تقترح على الغرب أن لا يتعاون مع غيره، ولا يصدّر التكنولوجيا، ويوحّد نفسه اقتصادياً وسياسياً وادارياً، وترى أنَّ الحضارة الغربية تعتمد على الإرث اليوناني والمسيحية الغربية والعلمانية، وسيادة القانون والتعددية الاجتماعية والمجتمع المدني وحقوق الإنسان، وهي أمور تميّزت بها الحضارة الغربية ولا تتحقق في حضارات اخرى.

ويأتي (فوكوياما) ليجعل النظام الرأسمالي غاية التاريخ، ويرى أنَّ المجتمعات كلها يجب أن تتجه نحو الرأسمالية، ويجب توفير الشروط السياسية والاجتماعية، وأهمها تطوير البنية الاجتماعية نحو المساواة واللاطبقية واللاطائفية، وايجاد تفسيرات دينية مرتبطة بهذا التطوّر، وكذلك قيام المجتمع النامي لايجاد المؤسسات الوسيطة بين الأفراد والدولة، كما يجب عدم المبالغة بالتمييز القومي ممّا يدعو للعزلة الحضارية، ويدعو إلى تفسيرات مستنيرة للنصوص الدينية، وينتقد كل الحركات المتطرفة، ويدعو لتوجّه الصفوة لدعم القيم الديمقراطية والحريات، فهو إذن يجعل المجتمع الرأسمالي الغاية التي يجب أن تسير اليها كل الحضارات[١].

كذلك نجد (بيدهام برايان) المفكر الانكليزي في سلسلة المقالات التي نشرها في مجلة الايكونومست خلال عام ١٩٩٤ يؤكّد أنَّ هناك تشابهاً بين الوضع الإسلامي في القرن الخامس عشر الهجري ووضع أوروبا في القرن الخامس عشر الميلادي، ويرى أنّ كلا الوضعين متشابهان في توفر الأرضية المناسبة للاصلاحات، وفي نوع المؤسسات الدينية لدى المسلمين ومؤسسات الكنيسة في القرن ١٥ م وفي المستوى البائس لديهم، وفي الشوق لتحسُّن الأوضاع، ويرى أنَّ هناك عاملاً خارجياً يحرك هذه الحالة ويدعمها، ففي الوقت الذي شكّل فيه المسلمون العامل الخارجي لتطوير أوروبا في حينها، فإنّ الغرب اليوم هو عامل دافع للعالم الإسلامي نحو التطور والتقدم ويرى أنَّ التحرك يبدأ من الإسلاميين المتحررين الذين يؤمنون بالديمقراطية، ولابد من التحرك بقوة لدعم هؤلاء، وفي ختام

---

١. العربي، العدد ٥١٢، الاستاذ مجد الدين خمش، ص ٣٠.

مقالاته يوجّه إلى العالم الإسلامي توصيات ثلاث لكي يتأهل للتعامل مع الغرب والدخول في ركب الحضارة الإنسانية السائدة هي:

١. الانسجام مع الاقتصاد الحديث.

٢. القبول بفكرة المساواة بين الرجل والمرأة.

٣. العمل على تمثل القواعد الديمقراطية وتطبيقها في نظم الحكم[١].

هذا وقد شملت عملية التمهيد لنظرية العولمة والأمركة المجالات المعلوماتية كما في مجال الانترنيت والفضائيات، كما شملت عملية السيطرة على المنظمات الدولية، فإن استجابت لهذا الهدف وإلاّ تمّ تجاوزها وراح التخطيط لفرض السياسة الأميركية على العالم. وقد استغلّت أميركا حوادث ١١ سبتمبر لتطرح نفسها القوة الأولى في العالم، والمسيطرة على كل مقدراته السياسية كما جاء التخطيط للسيطرة على الثقافات والقيم، والتدخل في التشريعات الاجتماعية، كما رأينا في مؤتمرات الأسرة في القاهرة وكوبنهاغن، ومكسيكو سيتي، وبكين وغيرها حيث تمّ التدخل في الأمور التشريعية الاجتماعية تحت شعار حماية حقوق الإنسان[٢].

الآثار السلبية للعولمة

لقد وضح للعالم جميعاً الآثار السلبية التي تركتها هذه الفكرة المخرّبة، ولذلك وصفت العولمة بكثير من الأوصاف منها العولمة المتوحّشة أو العولمة المجنونة أو العولمة الفخ، أو وصفت بأنّها إمّا أن تأكل أو تؤكل، وقد ذكرت الدراسات المتنوعة هذه الآثار السلبية التي نشير إلى بعضها:

١. سيطرة القوى الكبرى على حركة الاقتصاد العالمي والمصادر الانتاجية والتبادل المالي والتجارة، حتى قيل: إنَّ هناك ٥٠٠ شركة تسيطر على ٧٠٪ من حجم التجارة العالمية، وإنَّ هناك ٢٠٪ فقط يعيشون في اكتفاء ذاتي في حين يقبع ٨٠٪ في عالم التبرعات.

---

١. راجع مجلة المنهاج، عدد ٢٢، السنة السادسة، ص ٢٤٨، مقال للمؤلف حول هذا الموضوع وقد نقلناه في هذا الكتاب فيما تقدّم.

٢. راجع كتاب: مؤتمر السكان والتنمية في القاهرة وتداعياته للمؤلف.

٢. سيطرة أميركا على وسائط نقل المعرفة.

٣. كسر هيبة الدول الصغيرة، وقدرتها على النمو.

٤. التدخّل في التقنين الداخلي لباقي الشعوب كما رأينا في مؤتمرات الأسرة وغيرها.

٥. الغزو الثقافي لكل المناطق، ومحاولة استئصال الثقافات الأخرى.

٦. التقليل من شأن المحافل الدولية، واستغلالها لصالح هيمنة القوى الكبرى، وقد رأينا قبل أيام أنَّ رئيس دولة غربية هو رئيس ايطاليا يعلن أنَّ الناتو والقوى الغربية وجّهوا أكبر ضربة للنظام العالمي لاستغلالهم المحافل الدولية[١].

٧. تلويث البيئة نتيجة الجشع الذي ابتليت به القوى الكبرى، وهناك آثار سلبية كثيرة أخرىللعولمة نعرض عنها فعلاً.

موقف الأمة والخطوات العملية التي يجب أن تتّخذها تجاه العولمة

وقبل بيان هذه الخطوات نؤكد بأنَّ الرفض الانفعالي لن يؤدي إلى نتيجة، وإنَّما يجب التأمل وإتّخاذ الخطوات العملية المدروسة للوقوف بوجه هذا الغزو العالمي الكبير، فيجب علينا في هذا المجال أن نقوم بوضع استراتيجية عملية وواضحة وشاملة، ويتعاون الجميع على وضعها أوّلا، وعلى تنفيذها ثانياً، كما يجب علينا أن نقوم بفضح النظريات التي مهّدت لمثل هذه النظرة التخريبية.

وبالنسبة للاستراتيجية نطرح بعض الخطوات التي نراها مهمة في هذا المجال:

١. يجب علينا أن نعرّي الجانب الايديولوجي للهيمنة الأميركية ومقولات هذا الجانب (القرية الصغيرة، حرية السوق، حرية التدخّل وفتح الحدود وأمثال ذلك).

٢. يجب علينا حذف هيمنة السوق على الجانب السياسي.

٣. يجب تعميق قيم الإنسان الفطرية مع عرض نظرية الفطرة الإسلامية.

٤. يجب توسيع لغة الحوار بين الأديان.

---

١. وتتابع الأدلة يوماً بعد يوم على هذا الاستغلال فإذا لم تحقق لهم مصالحهم تركوها، وهذا ما شاهدناه من موقف أميركا من معاهدة كيوتو. ومن المحكمة الجنائية الدولية أخيراً.

٥. يجب التأكيد على الهويات الإقليمية وهويات الشعوب وتوعية الشعوب للاحتفاظ بهوياتها وثقافاتها.

٦. يجب الارتقاء بالقدرة العلمية والتنموية للشعوب.

٧. يجب العمل على إعطاء الحريات والحقوق الأصيلة للشعوب.

٨. يجب تقوية المؤسسات الدولية وتعميق استقلالها.

٩. يجب تعميق الثروة الثقافية المتنوّعة.

وفي الاطار الإسلامي يجب علينا بالاضافة لما سبق:

أولاً: أن نعمّق الحوار بين المذاهب اتجاهاً لتكوين الوحدة في الموقف الإسلامي.

ثانياً: يجب العمل على تقوية المؤسسات الشمولية الإسلامية وتفعيلها في الجانب السياسي والاقتصادي والثقافي.

ثالثاً: يجب أن نطوّر دراساتنا الإقليمية والعالمية والانفتاح على التاريخ.

رابعاً. علينا أن نقوّي كل عوامل الصمود والتعاون والوحدة، كمسألة اللغة العربية وتعميق هذه اللغة.

خامساً: علينا أن نجمع بين الأصالة والمعاصرة في الدراسات الدينية ونروّج للاجتهاد الجماعي، وغير ذلك ممّا يؤدّي للوقوف أمام هذا الهجوم العالمي الكبير.

تقرير موجز عن ندوة الحوار بين الإسلام والغرب[1]

تناولت هذه الندوة مواضيع مختلفة من قبيل:

١. التفاهم بين الحضارات.

٢. وضع المراة بين الإسلام والغرب.

٣. المهاجرون.

٤. العلاقة بين التجارة والأخلاق.

وقد تناولنا الكلمة في مختلف المواضيع، وهانحن نذكر فيما يلي نصوص الكلمات

---

١. المنعقدة في مقر اليونسكو في باريس ـ فرنسا، بتاريخ ١٩٩٧/٣/٥.

والتعليقات المطروحة في هذه الندوة على النحو التالي:

١. الموضوع الأوّل: فيه أربعة أحاديث:

الأوّل: كلمة حول «الحوار الثقافي».

الثاني: حول تعدد الثقافات والحوار المتبادل.

الثالث: حول الثقافة الإسلامية والثقافات القومية.

الرابع: تأكيد نزاهة الإعلام.

٢. الموضوع الثاني: وفيه تعليق واحد حول حقوق المرأة وموقعها في الإسلام.

٣. الموضوع الثالث: وفيه تعليقتان:

الأولى: حول مشكلة المهاجرين واللاجئين.

والثانية: حول العلاقة بين الشيعة والسنة.

٤. الموضوع الرابع: وفيه تعليق حول العلاقة بين الاقتصاد والأخلاق.

الموضوع الأوّل: وفيه أربعة أحاديث

الحديث الأوّل: كلمة في مطلع الحديث عن الحوار الثقافي

أشعر بكثير من الفخر وأنا أحضر هذه الجلسة العلمية الأخلاقية، وأشعر بواجب على أن أشكر السيدة الكريمة «نيكلسون» وكذلك الدكتور «مايور» أمين عام منظمة اليونسكو على ترتيب هذا اللقاء الجميل في هذه المدينة الجميلة. وحسناً فعلت السيدة نيكلسون عندما أعلنت بأنّ هدفنا من هذا الاجتماع هو تبديد الغيوم. أسأل الله أن يوفقنا لتبديد هذه الغيوم.

أعتقد أنّ شعارنا في هذا اللقاء وفي كل لقاء يجب أن يكون هو الواقعية الثقافية، أو فلنعبر عنه بالسلام الثقافي، الحقيقة أنّ علينا أن نقيم توازناً حقيقياً بين الثقافات بعد الاعتراف بتعدُّد الثقافات والتعددية الثقافية، باعتبار أنّ كل ثقافة هي نتاج إنساني ولصالح المجموع الإنساني.

علينا أن نحترم هذا الشعار وهذا التوازن، ولكن هذا طرف، والطرف الآخر الذي نقيم عليه هذا التوازن هو الثقافة الإنسانية المشتركة النابعة من الفطرة أو من الوجدان أو من الخصائص الإنسانيه التي تميز الإنسان كإنسان والتي تعطيه طابعه الإنساني، الذى يتميز به عن الحيوان ـ بطبيعة الحال ـ إن على المنظمات الإنسانية، كمنظمة (عمار) التي لها خدمات

جلّى ـ نشهد بها ـ في مناطق ابتليت بالكوارث المصائب الطبيعية والإنسانية، وكذلك من المفروض بالمنظمة العالمية الثقافية (اليونسكو) أن تعيش مع الثقافة الإنسانية المشتركة ـ في الوقت الذي نعترف فيه بثقافة الشعوب ـ هذا هو التوازن الذي ننشده. المراد إذاً هو تحقيق هذه الواقعية وهذا التوازن.

من الواقعية أن نرفض أيّة محاولة لفرض الهيمنة الثقافية بالقوة، سواء كانت هذه القوة اقتصادية أو عسكرية أو إعلامية أو سياسية. ومن الواقعية الثقافية أيضاً أن يعمل كلٌ منّا على تحسين صورته في ذهن الطرف الآخر.

أشار الأستاذ «مايور» إلى الحوار بين الحضارة الإسلامية والحضارة الأوربية، على كلا هذين الجانبين أن يحسن صورته في ذهن الآخر، وأن يثبت للآخر أنّه لايريد له إلاّ الخير، وإلاّ بقي التنافر والنزاع. هذه هي الحقيقة التي أكّدتها السيدة نيكلسون، لكني أضيف أنّ السلام المطلوب يجب أن يكون سلاماً عادلا، وإلاّ فليس من العدالة أن نهاجم شعباً هجوماً ثقافياً، ثم نمنعه من حقه في الدفاع بحجة أنّ عمله هذا يخالف السلام، وأنّه عمل إرهابى و... إلى آخره.

العدالة أيضاً هي نداء الوجدان ونداء المشتركات الإنسانية، عندما يقول القرآن: ﴿وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾[1] ويقول أيضاً: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوىٰ﴾[2]. فإنَّ العدالة مهمة في هذا المجال.

أعود فأؤكّد: أنّنا إذا آمنا بخصائص مشتركة للإنسان استطعنا أن ننقذ مفاهيمنا من الإبهام ـ كما يقول الشاعر الإسباني الذي أشار إليه السيد (مايور) ـ هناك مصطلحات نطرحها: العدالة، الحق، الإنسانية، الأخلاق، المعرفة، هذه الأمور كلها لاتستطيع أن تمتلك معنى، وتخلص من براثين الإبهام،إلاّ إذا آمنا بوجود الفطرة الإنسانية والمشتركات الإنسانية.

علينا إذاً أن نفكر في كمال الإنسان وقيمه، وعلينا أن نخرج هذا العالم من الفوضى الفكرية والتحميل الفكري.

أقول لكم ـ وكثير منكم ربما لم يسمع هذه الآية من القرآن ـ واجه النبى محمد ﷺ التهم،

---

١. الأنفال: ٦١.

٢. المائدة: ٨.

كانوا ـ من كل مكان ـ يقولون له أنت مجنون، مجنون. في هذا الجو الفوضوي ماذا يفعل الإنسان الذكي؟ عليه أن يبتكر، كما يقول السيد مايور ـ هنا ليس المجال مجال منطق واستدلال ـ كان القرآن يقول له: ﴿قُلْ إِنَّمٰا أَعِظُكُمْ بِواحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلّٰهِ مَثْنىٰ وَ فُرٰادىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مٰا بِصٰاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾[١] أخرجوا من هذه الفوضى العقلية، ثم فكروا بهدوء وستكشفون الحقيقة ويؤسفني في ختام حديثي هذا أن أقول أنّ ثقافتنا العالمية مبتلاة بأمور ثلاثة تحطّمها، الأمر الأوّل: المصالح الضيّقة لبعض القوى، والثاني: الجهل بالأهداف، الثالث: التعصب المفرط. علينا إذاً لكي نصل إلى تفاهم مشترك، أن نرفض الإصرار على المصالح الضيقة والجهل والتعصب المفرط لنبني عالماً يزخر بالجمال والسلام.

الحديث الثاني: حول تعدد الثقافات والحوار المتبادل (تعليق على إحدى الكلمات)

أعتقد ـ بكل اختصار ـ أنّ التحديات التي تواجهها عملية التفاهم الثقافي اليوم تفرض على كل الغيارى والمفكرين التوصل إلى مثل هذه الآلية المطلوبة.

و ما أود تأكيده هو أنّ علينا ما يلي:

أوّلا: أن نحدد معالم كل ثقافة.

معالم الثقافات ـ اليوم ـ عادت مبهمة مع الأسف، فلها تعاريفها المختلفة ولايستطيع الإنسان أن يقف منها على شيء محدد. فمن الطبيعي أوّلا للمفكرين الغربيين أن يحددوا معالم الثقافة الغربية، وللمفكرين أن يحددوا معالم الثقافة الإسلامية. وعندما أقول معالم فإنّي أعني بها المبادئ الأصلية وليست الأشياء التي جاءت دخيلة على الثقافة الغربية أو الثقافة الإسلامية، فإذا رأينا سلوكاً غريباً، من أمثال الطالبان أو من أمثال الكثير من أهل التطرّف فإنّه لايمكن أن يعبّر عن معلم ثقافي للأمة الإسلامية.

إذن:

أولاً: علينا أن نحدد معالم الثقافتين الإسلامية والغربية، وهما الثقافتان الكبيرتان اليوم اللتان تتنازعان الصدارة في هذا العالم.

---

١. سبأ: ٤٦.

وثانياً: علينا أن نحدد المساحات المشتركة كما نحدد نقاط الاختلاف، يعني لايمكننا أن نحدد نقاط الاتفاق إلاّ إذا حددنا نقاط الاختلاف بشكل دقيق.

وثالثاً: علينا أن نعتمد ـ واقعاً في أسلوبنا ـ مبدأ التنوع الحضاري والتنوع الثقافي. وبالتالي نرفض مسألة فرض الهيمنة الثقافية على الشعوب بمختلف أساليب القوة.

و أخيراً: علينا أن نؤكد مسألة اعتماد الموضوعية في الحوار. وأن يكون المتحاورون من ذوى التخصُّص. لايمكن أن نسلّم أمور الثقافة لأناس لاتخصُّص لهم بها، ففي الحوار هناك المبادئ الموضوعية والتخصص والهدفية في الحوار، دون العمل العشوائي. لذا أعتقد أنّ من الطبيعي لنا أن نؤكد المنطقية في الحوار كأسلوب حل سليم للوصول إلى هدفنا المطلوب.

الحديث الثالث: حول الثقافة الإسلامية والثقافات القومية

وددت أن أشير إلى نقاط ثلاث عسى أن تتم ملاحظتها:

أشار أحد المتحدثين إلى أنَّ الثقافة الإسلامية يجب أن تجزّأ إلى ثقافات عربية، فارسية وتركية، وكأنّه أراد أن ينكر أنّ الثقافة الإسلامية تتمتع بمقومات الثقافة الجامعة، والحقيقة أنّ من يطّلع على سير الحضارة الإسلامية يدرك أنَّ الإسلام عندما جاء، أحيى كل هذه الشعوب بعد أن كانت ميتة، أمّا العرب فلم يكونوا يشعرون بأنّهم أمة، حتى القبيلة لم تكن تشكّل وحدة تجمّعية، وأمّا الفرس فكانوا رغم قوتهم لايملكون ما يسمى بثقافة وحضارة بالمعنى الدقيق للكلمة، على أىّ حال، الإسلام غيّر كل هذه الشعوب وصهرها في بوتقة واحدة وأعطاها مسيرتها الكاملة، لذلك أعتقد أنّ الإسلام جدير بأن يسمّى واضعاً لأسس الثقافة الإسلامية، وأن يتم التعامل بين الثقافة الإسلامية، على اختلاف اجتهاداتها، والحضارة الأوربية لوجود المساحات المشتركة.

هذه نقطة مهمة جدا أودّ أن يتمّ تصحيحها.

النقطة الثانية: أشار الدكتور مجيد في النهاية إلى كلمة جيدة أؤيدها ـ وهي التي تم الحديث عنها ـ وهي أنّ علينا أن نحقق توازنا بين التعددية الثقافية من جهة، المساحات الإنسانية المشتركة بين الثقافات من جهة أخرى.

و النقطة الثالثة: هناك إشارة ـ تمت في البحث ـ إلى أنّ هناك عقبات تقف أمام تلاقح

الثقافات وتواصلها. هذه العقبات لخصّت بالأمور الثلاثة التالية:

أوّلا: المصالح السياسية الضيّقة؛ ثانياً: الجهل؛ وثالثاً: التعصب المفرط وأنّ علينا أن نقف ضد هذه العقبات.

الحديث الرابع: تأكيد نزاهة الإعلام (تعليق حول ما قالته الدكتورة هالة)

أودّ أن أشكر الدكتور هالة على عرضها الجميل، واستعراضها لمختلف المشكلات التي يواجهها الإعلام ـ وبالخصوص الإعلام الذي يريد أن يغطّي المساحات الثقافية المختلفة، ويريد أن يكون إنسانياً وحضارياً، وأعتبر عرضها عرضاً يستحق التقويم والدراسة، ولكن أركز على ما قاله السيد هادي، فقد كان جميلا في عرضه عندما قدّم لنا النموذج الحي لصورة تعرض في الغرب عن الإسلام، بأنّه دين إلحادي ينطوي على نفسه، وبأنّه يختلف كلياً عن الاتجاه الثقافي العام، وأنّه يشكل التهديد لكل الحضارات، وأنّ المتدين إنّما يستخدم دينه سياسياً فقط، فالدين آلة سياسية دون أن يشكّل أسلوباً لتكامل الإنسان، وأنّ الخوف من الإسلام أمر طبيعي.

والحقيقة أنّ بعض الكتّاب يقدّم صورة كالحة عن الإسلام.

و عندنا أيضاً في العالم الإسلامي من يقدم صورة كالحة وغامضة عن الغرب، ويعتبر الثقافة الغربية شراً مطلقاً، فيصفها بأنّها ثقافة ضد الإنسانية، وأنّها تكيل بمكاييل مختلفة، ولاتتعامل مع القضايا إلاّ وفق مصالحها، ويعتبر الحضارة الغربية حضارة الجنس والجسد، حيث الآلهة يجب أن تكون مجسدة للشهوة وهكذا يصف الغرب بكل هذه الأوصاف.

أنا أعتقد أنّ كلا الطرفين على خطأ، وأنّ الجوانب الإنسانية في الحضارتين جوانب ضخمة جداً، وهي جوانب مشتركة، لذلك، أنا مع السيد هادي في صعوبة العمل الصحافي، عندما يريد أن يعرض الواقع بعيداً عن هذه التصورات المتناقضة، ومن هنا اعتبر أنّ وظيفة أمثال هذه الجلسات هي وظيفة تصحيحية، وأنّ على المسلمين أن يصححوا صورتهم في ذهن الغربيين، وعلى الغربيين أن يصححوا صورتهم في أذهاننا ـ نحن المسلمين ـ حتى نقف على صخرة مشتركة، ومن الطبيعي جداً أن نؤكّد أنّ النظرات المتطرفة التي تصف الحضارتين بأنّهما شر مطلق، نظرات تنزوي أمام الواقع. عندما يطلّع الغربيون على أنّ

الإسلام دين يربّي الإنسان، وعندما يطلّع المسلمون على أنّ الغرب يحمل جوانب إنسانية، حينئذ تنفتح الجوانب المشتركة.

و أريد أن أختم حديثي بآية قرآنية، القرآن يعلّم النبي، هو أكبر المؤمنين بالإسلام، يقول القرآن عندما تحاور إنساناً من غير دينك، عليك أن تدخل في الحوار بذهن بعيد عن الخلفيات، فتقول: لعلي أنا على الخطأ وأنت على الصواب ولعلك أنت على الخطأ وأنا على الصواب، أنّ الآية القرآنية تقول: ﴿وَ إِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدىً أَوْ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾[1] إمّا نحن أو انتم على هدىً أو في ضلال مبين، بهذه الروح العالية الموضوعية يأمر القرآن النبي بالحوار، فهل يمكن أن نعتبر الإسلام ديناً يهدّد الآخرين ويعرض آراءه بعنف؟!

الموضوع الثاني: تعليق على حقوق المراة وموقعها في الإسلام

شكرا للدكتورة.... ، فقد حدثتنا عن غنى القوانين المصرية بالنسبة لحقوق المرأة إلاّ أنّ الظروف الاجتماعية ربما منعتها من تمتعها بكل حقوقها.

اعتقد أنّ على ندوتنا أن تعلن أنّها ترفض أيّة فروق بين الرجل والمرأة في المجال الإنساني بشكل مطلق، وأنّ علينا أن نؤكّد أنّ هناك اختلافاً في المجال الوظيفي، وفي مجال تكامل عمل كلٍّ من الرجل والمرأة في بناء العائلة، والعائلة هي محور التشكيلة الاجتماعية لدى كل الأديان ولدى كل الشعوب التي تحترم نفسها بشكل كامل، وعلينا أن نرفض استغلال الجنس لتحقيق مكاسب تجارية وإعلامية رخيصة.

و علينا أن نقبل بالتعليم الجنسى ولكن لهدف تحكيم الأسس العائلية، ونفي الأضرار الفيزياوية والمعنوية للاتصالات العشوائية، ثم علينا أن نعلن حماية المرأة في الحروب، أو غيرها من قبيل المرأة العاملة أو المرأة التي تعيش في السجن أو تتعاطى المخدرات، فإنّ مثل هذا الموجود يتعرض بشكل متزايد لاعتداءات أولئك الوحوش الذين يلبسون لباس الإنسانية أحياناً، وأخيراً علينا أن نؤكد حق المرأة في البناء الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للحضارة الإنسانية المشتركة.

---

١. سبأ: ٢٤.

الموضوع الثالث: وفيه تعليقان

الأوّل: حول مشكلة المهاجرين

مشكلة اللاجئين والمهاجرين والمبتلين بالحروب والمشكلات الأخرى، مشكلة إنسانية، هناك مسائل ثلاث حول هذه القضية أطرحها بسرعة.

المسألة الأولى: هناك رأي للإسلام حول المشكلة ـ باعتبارنا في حوار ثقافي ـ فبكل اختصار، أعتقد أنّ الإسلام اهتمّ بهذه المشكلة، وهو يعتبر كل مبتلى من هذه الطوائف من الفئات المحرومة أو من المساكين أو من المستضعفين أو من أبناء السبيل موضع اهتمامه، كما يوجب على كل فرد من أفراد المسلمين ـ أينما كانوا في أنحاء العالم ـ أن يهتمّوا بالقضايا الأساس لهؤلاء، ويوجب على الدولة أن تحلّ مشكلاتهم إلى حدّ رفع الاحتياجات الطبيعية لهم، ولاينظر إلى هوية اللاجئ، أهو مسلم أو غير مسلم؟ أو هو من أبناء هذه المنطقة أو تلك، لا إلى لونه ولا إلى شكله ولا إلى لغته؟ هو لاجئ وكفى، فيجب أن تؤمَّن احتياجاته، وأحكام هذا المعنى موجودة في الكتب الفقهية المعروفة، ولذلك لن أطيل في هذا المجال وأي تقصير بحق اللاجئين يعاقب عليه كل مسلم إن كان قادراً على العمل ولم يقدم على ذلك، وسورة الماعون موجودة في القرآن الكريم، ويمكن مراجعتها.

المسألة الثانية: من بين اللاجئين هناك مشكلة الفئات الأشدُّ تضرُّراً والأقل دفاعاً، وهي مشكلة النساء المهاجرات، المرأة المشرَّدة والأطفال والشيوخ، باعتبار أنَّ قدرة المقاومة لدى هذه الطبقات قليلة في قبال المشكلات. كما أركّز على حماية هذه الطبقات، سواء من الذين يشتركون في صنع المشكلة في الحروب، أو من أولئك الذين يدافعون عن هذه الطبقات وعليهم تأمين احتياجات هذه الطبقات. أيضاً بالنسبة للمرأة هناك حديث مفصَّل، أذكر أنّنا دخلنا فيه في مؤتمر القاهرة للسكان والتنمية، وكان هناك اتّفاق عالمي على لزوم الاهتمام بالمرأة المهاجرة المشردة،و لزوم حمايتها من الاعتداء الجنسي، لأنّها في موقف ضعيف في تلك الحالات، وأعتبر أنّ هذا من الجوانب الإيجابية لوثيقة القاهرة ـ كما خضنا صراعاً عنيفاً ضد اتجاه آخر يدعو إلى التحلل والقضاء على الروابط العائلية، أو الاعتراف بالروابط غير العائلية، والاعتراف بمسألة الأجهاض، وأمثال ذلك، والحمد لله وصلنا إلى نتائج مرضية

هناك في القاهرة، وفي بكين أيضاً، لا أريد أن أدخل في تلك الجوانب، فالحديث مفصَّل.

المسألة الثالثة: في إيران ـ عندنا ـ مشكلة المهاجرين مشكلة عويصة جداً، ربما ايران أكبر دولة ترعى المهاجرين في العالم، عندنا مليونان ونصف مليون مهاجر من العراق وافغانستان وفي فترة من الفترات من الكويت. ايران تحمّلت كل هذا العدد الكبير، وأنتم تعلمون أنّ إيطاليا عندما هاجر إليها مئة وخمسون ألف مهاجر ـ ربما من ألبانيا ـ ضاقت بهم ذرعاً، وهي دولة متقدمة، ولها الحق في ذلك، لأنّ الهجرة تعرقل وتفرض الفوضى في كل الترتيبات الإدارية.

على أيّ حال، ايران تحمّلت هذه الهجرة، وكانت إلى جانبها حالة أخرى، وهي حالة هجرة الإيرانيين من المناطق الحربية، بسبب الحرب التي فرضها العراق على إيران خلال ثماني سنوات. هذه الهجرة ضمت حوالى مليون مهاجر أيضا، نزحوا إلى وسط إيران، فعندنا حوالى أربعة ونصف مليون مهاجر أيضاً، والحالة لم تكن طبيعية فنحن في حالة حرب، ولكن تحمَّل الشعب ذلك، فاحتوينا هذه الهجرة، ابناؤهم دخلوا مدارسنا، وقاسمناهم لقمة العيش، ولم يشعروا إلى حدٍّ كبير بالمحنة، إضافة إلى ذلك، هجرة الأكراد من شمال العراق إلى إيران، وكان هناك مليون مهاجر هاجروا إلينا خلال أسبوعين، إذ هربوا من مناطق الحرب، واحتوينا المشكلة أيضاً وقدّمنا لهم ما نستطيع من خدمات. النقطة المهمة هو أن يشعر الشعب بواجبه.

إذاً أنا بحاجة لأن أؤكد هنا أيضاً لزوم توكيد روح الإخوّة الإنسانية، وضرورة الحماية لها كما نركز على قضية النساء المهاجرات، وأخيراً، أؤكد أنّ على مؤسسات الحماية الدولية للاجئين أن تدعم هذه القضية دونما تمييز، ودونما ملاحظة للاعتبارات السياسية. أعتقد أنّه من الطبيعي جداً أن نؤكد هذا المعنى.

و هنا أودُّ أن أشكر الدكتورة الشيخة من الكويت على توجيهها الشكر، واعتبر أنّ ما فعلناه هو من واجب أيّ مسلم تجاه أخيه. كذلك أشكر السيدة الدكتورة خديجة على كلماتها الجيدة وتحليلها الطيب حول قضية الهجرة، وربطها بالتاريخ الإسلامي المشرق في هذا المجال. وأشاطرها الرأي بأنّ الكثير من أجزاء عالمنا الإسلامي ـ مع الأسف الشديد ـ لاينسجم مع ذاته الإسلامية، ولايحيى الحياة التي يريدها القرآن الكريم.

الثاني: تعليق على ما أشار إليه الأخ الكريم من أفريقيا الجنوبية بين الشيعة والسنة

الحقيقة هي أنّ الشيعة والسنة جناحان للأمة الإسلامية لتحقيق أهدافها الكبرى.

فإذا ما وجدنا عناصر جاهلة أو عناصر مشبوهة أو ـ اسمحوا لي أن أقول ما قاله الإمام الخمينى(رحمهم الله): « إنّ الذين يفرّقون بين الشيعة والسنة ليسوا من الشيعة والسنة» عناصر مأجورة. ووجدنا بعض الحوادث المؤلمة في باكستان، مثلا، قبل أيام دخلت مجموعة مسلحة إلى محل دبلوماسي كان يسكنه مندوبنا الثقافي ـ ولي إلمام واسع بذلك حيث إنّي مسؤول عن المندوبين الثقافيين الإيرانيين في أنحاء العالم ـ فقتلوه، هو وستة من المستضعفين العاملين معه بحجة مذهبية سخيفة، أعتقد أنّ هذه الحوادث طفيفة رغم أنّها موجعة، وأنّ وعي الأمة الإسلامية سوف يقضي على مثل هذه الحوادث.

السنة والشيعة جزءان لهذه الأمة ولا أجد بينهما ما يدعو إلى مثل هذه الحالات الموسفة. أكرّر، أنّنا جميعاً مع القضية الإنسانية أينما كانت، وأنّنا جميعاً نفكر بما تفكر به مؤسسة عمار من خدمة قضية اللاجئين أينما كانت وأودُّ أن أشكر السيدة نيكلسون على خدماتها الجيدة في قضية خدمة اللاجئين، وأعتبر ماقامت به هذه السيدة ـ ضمن خدمات مؤسسة عمار ـ في جنوب العراق وجنوب ايران وجنوب لبنان، خدمات جيّدة تحتاج منّا لأن نشكرها شكراً جزيلا وحبّذا لو اثيرت في قضايا الإعلام، فكان أكثر انصافاً لهذه القضية.

الموضوع الرابع: حول العلاقة بين الاقتصاد والأخلاق

عندي تعقيب على المتحدّثين الذين سبقوني في الحديث، هو تعقيب على العلاقة التي طرحها المتحدّثون بين الاقتصاد والأخلاق، أعتقد أنّ المهم ليس توفير حرية الانتقال فقط، فحرية الانتقال بين السلع والانفتاح الاقتصادي اليوم لايمكنه أن يكون أهمّ المشاكل بشكل مطلق، كما لايمكنه أن يدخل في إطار عالمي موسَّع إلاّ ضمن قيود محددة كما نراه في منظمة التجارة العالمية. الذي اعتقده ـ إذا أردنا أن نتحدّث من الزاوية الأخلاقية ـ أنّ المهمّ هو أن تكون حلولنا للمشاكل الاقتصادية حلولا إنسانية، القرآن الكريم ـ عندما يتحدّث عن المشكلة الاقتصادية عبر التاريخ ـ يطرح السرّ الإنساني لهذه المشكلة، فهو يقول بأنّ الأرض تحوي كل ما يحتاجه الإنسان، الأرض والطبيعة أودع الله تعالى فيها كل ما يسأله الإنسان

ويحتاج إليه،المشكلة لاتكمن في شحة الموارد الطبيعية، كما يقول ماركس مثلا، وإنّما تكمن في الشح الإنساني نفسه، تكمن في عدم الاستفادة الطبيعية الجيدة من هذه النعم،عدم العدالة في التوزيع. القرآن يقول بالدقة: ﴿وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفّارٌ﴾[١].

الإنسان يظلم حينما لايشكر النعمة، حينما لايعدل في التوزيع، وكفّار حينما لايستفيد من هذه الطبيعة، إنّنا إذا استطعنا أن نؤثّر على ما اسميه بالنية، بالقصد، بالهدف. إذا استطعنا أن نربّي الإنسان ضمنّا النتيجة. الإسلام أيضاً يقول: «إنما الأعمال بالنيات»، إذا احتفظنا بالاتجاه الخلقي المادي لانستطيع أن نصل إلى نتيجة، اشبعني اشبعك، انفعني انفعك، التعامل المتبادل لايستطيع أن يؤدى إلى نتيجة مطلقاً.

عندما يتعارض الربح المادي مع الوجدان الخلقي فأيّهما الذي يقدَّم؟ هناك من كانوا يلقون كميات كبيرة من القمح في البحر لكي يحتفظوا بمستوى الأسعار،ومئات الألوف يموتون جوعا. أعتقد أنّ علينا أن نعمّق الاتجاه المعنوي بين الاقتصاديين، وهذا الاتجاه المعنوي في الإطار الديني واضح، فالدين كله توكيد المعنويات، وإذا أردنا أن نعبر الإطار الديني إلى الإطار الدولي علينا أن ندعم مؤسسات التبرّع، المؤسسات الخيرية، والحركات الأخرى التي تعمل على تنمية روح التبرّع، هذه الحركات يجب أن تدخل في إطار ميكانيكية معينة، في إطار تقنية معينة لانتشارها، كلما ربّينا في التجار روح التبرّع، ربّينا فيهم الاتجاه المعنوي، ومالم تصلحوا نيات التجار، فلا تتوقعوا ـ وليس من الطبيعي أن تتوقعوا ـ أيّة نتيجة، ولا معنى للخلق إن لم يرجع إلى النية. إذاً أقترح أن ندعو إلى تقنية لتنمية روح التبرع.

إنّ الإسلام يسمّي عملية التبرع بـ«عملية اقراض الله» أي تقديم قرض لله وإن كان ـ سبحانه ـ واهب المال، إلاّ أنّ القرآن يقول: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ وَ لَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[٢].

---

١. إبراهيم: ٣٤.

٢. الحديد: ١١.

خلاصة القول أهم القضايا العالقة بين الإسلام والغرب[١]

خمسون عاماً من الحوار واهم القضايا العالقة

مرَّ على بدء المرحلة الأخيرة من الحوار أكثر من خمسين عاماً، ذلك أنّ أخانا المرحوم الفقيد الدكتور عز الدين ابراهيم كان يصرّ على بدئه في الثلاثينيات من القرن العشرين الميلادي، وعلى أي حال فقد تنوّعت مواضيع هذا الحوار، وتعدّدت أطرافه ما بين حوار ديني فقط، أو حوار ثقافي بين العالم الإسلامي والغرب، أو حوار عالمي جامع بين مختلف الثقافات الدينية السماوية وغير السماوية،كما تعدّدت الأماكن التي تمَّ فيها، فتارة في الغرب كما في موسكو وبرلين ولندن وجنيف ومدريد وصوفيا وفينا وغيرها، وأخرى في الشرق كما في القاهرة وطهران والرياض وعمّان وبيروت والرباط وجاكارتا وكوالالامبور وطوكيو وغيرها، وكان آخرها ما تمَّ بمبادرة خادم الحرمين الشريفين في مدريد.

وكان من الضروري أن تقيِّم هذه المسيرة وحبّذا لو تمَّ التقييم بشكل جامع في مؤتمر عام.

ولا نرى مانعاً في البدء بدراسات فردية أو مجموعية حول هذا الأمر، وربما كان هذا البحث المتواضع يحوي إشارة مفيدة في هذا السبيل.

نعم لقد أثمرت هذه المسيرة التي أراها خيّره رغم ما فيها من نقائص، فصدرت على إثرها قرارات دولية كما في قرار عام ٢٠٠١ حول تسمية العام بعام حوار الحضارات، وتبعها القرار المقدم من اسبانيا وتركيا حول (تحالف الحضارات)، وربما كان للصدمة التي أحسَّ بها العالم نتيجة الفكرة الخطيرة التي كتب عنها هانتنغتون حول (صراع الحضارات) وكونها تعبّر عن نزعة لدى اليمين الحاكم آنذاك في أميركا، نعم ربما كان لها الأثر الكبير المعكوس والمنعكس في فكرة (حوار الحضارات).

كما كان لقرار الكنائس الكاثولوكية في الستينيات الأثر البالغ في دفع فكرة الحوار المسيحي مع سائر الأديان إلى الأمام.

---

١. قدم إلى المؤتمر الثالث عشر للجنة التنسيق والعمل الإسلامي المشترك التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي مكة المكرمة ١٤٢٤ هـ ق.

ويلاحظ بوضوح أنّه كانت تعرض مسيرة الحوار عموماً إشكاليات:

إحداها:الشكوك التي كانت تراود الطرف الإسلامي أو الشرقي دائماً في نوايا الطرف الغربي من هذا الانفتاح، وذلك نتيجة التاريخ الغربي المليء بالظلم والخداع والاستعمار،وكذلك نتيجة التعامل المستمر بعنجهية وازدواجية واستعلاء حتى يومنا الحاضر.

والثانية: عدم اعتراف الطرف المسيحي أو الغربي بوحيانية الإسلام أو قدرته على تقديم نظام حضاري مرموق يمكنه أن يشكّل بديلاً محترماً لكلٍّ من النظامين الاشتراكي والرأسمالي.

أمّا الثالثة: فهي عدم فسح المجال بشتّي السبل لشعوب العالم الثالث ومنه العالم الإسلامي لتطوير نفسها والخلاص من حالة التبعية المقيتة، والتخلف المريع.

هذه الإشكاليات وغيرها كانت تمنع دائماً من وصول المسيرة إلى نهايتها المنشودة.

ورغم ذلك فقد كانت هناك نتائج ايجابية تمثّلت في تحقيق تفاهمات دينية وأخلاقية وسياسية واجتماعية وحقوقية كثيرة، وهي كلّها تبرّر استمرار العملية وانتظار نتائج أكبر في المستقبل.

إلّا أنّنا إذا دخلنا في شيء من التفاصيل نجد هناك قضايا عالقة بين العالم الإسلامي والغرب تستحق الوقوف عندها بتأمل.

إذا أخذنا الغرب بمعناه العريض، وأخذنا الإسلام بمعناه الشامل للحضارة والأمة الإسلامية اليوم، فإنّنا سنجد في البين قضايا عالقة كثيرة تحتاج إلى اتخاذ موقف حضاري من قبل الطرفين عبر حوار هادئ، فأمّا التوافق، ولو على حدٍّ أدنى، وأمّا التعامل الحضاري الإنساني مع فرض إبقاء التناقض على حاله.

ورغم كثرة المسائل وتنوّعها، خصوصاً إذا ما أردنا أن ندخل المسائل الفلسفية إلى جانب المسائل الخلقية والاجتماعية بل والسياسية أيضا، إلاّ أنّنا نستطيع التعرض إجمالا إلى أهمّها.

ونحن نعتقد أنّ القرآن الكريم والسنّة الشريفة أعطتنا منهجاً تامّاً رائعاً للحوار مع الآخر، حدّدت فيه معالمه وقواعده قبل عملية الحوار وأثناءها، من حيث المقدمات والأهداف والأجواء وحتى اللغة، فإذا ما توفّر لدى عقلاء الطرف الآخر منهج سليم ونية صادقة أمكننا من خلال نقاط التماس المكتوبة والمرئية والمسموعة أن نطرح هذه القضايا على بساط البحث، آملين الوصول إلى نتائج مرضية أو على الأقل التفهّم المتبادل للموقف الآخر وبالتالي التفاهم حول الأطر الإنسانية لتغليف الخلاف إذا لم يتم حله.

كما نعتقد ـ خلافاً لبعض النظرات التي نرى فيها شيئاً من التطرّف ـ أنّ هناك مجالات كثيرة للالتقاء وتوحيد الموقف، خصوصاً مع وجود طبقة منصفة تتأثر بالموقف المنطقي وتتعامل معه بإنسانية. وأمامنا الكثير الكثير من المبدئية التي نشهدها في العالم الغربي، وهي مستعدة حتى للتضحية في مجال تأييدها لقضايانا العربية والإسلامية.

فلندخل بهذه الروح وهذا الأمل في مجال عرض أهم هذه القضايا، وكما يلي:

الأولى: النظرة العدائية والروح الصليبية والعنف

عادة ما يخيّم الحقد على هذه العلاقة من الجانبين معاً نتيجة التماس التاريخي والصراع المستمر على مدى قرون، وقد اختلط ذلك بتفسيرات دينية ومصالح قومية أخرى توسعية وعنصرية، ممّا ترك في النفوس خليطاً من العدائية المريبة، مع قدر عظيم من التعميم والتفسير بعين السخط لمختلف المواقف حتى لقد ترسّخت النظرة العدائية للغرب، بقضه وقضيضه، في نفوس المسلمين بقدر ما ترسخت الروح الصليبية تجاه المسلمين في نفوس أبناء الغرب.

ونحن نشهد ذلك في تصريحات على مستوى لدى الطرفين وتتصاعد الوتيرة بعد الحوادث الكبيرة، وهذا مانراه في الحملة العدائية الشعبية ضد المسلمين في الغرب مثلا والتي تضاعفت خلال عام واحد ١٦ مرة بشهادة الـ«FBI» الأمريكية، كما نشهده في الطرف الإسلامي الذي بدأ يرمق كل ماهو غربي بشزر ويود لو يقضى عليه بأية وسيلة حتى ولو كانت مرفوضة إسلامياً ودوليا كما نجده في انفجارات جزيرة بالي باندونيسيا مثلا.

وهنا تنطرح قضية عالقة أخرى ترتبط بهذه الروح العدائية وهي قضية (الإرهاب والعنف) فهي معلولة بلاريب لتلك الروح، وهي نار مستعرة إذا لم يتم السيطرة عليها، فهي لاتبقي ولاتذر.

فمن جهة نجد الغرب يئنُّ من جراحه في الحادي عشر من سبتمبر وغيرها، ومن جهة أخرى يئنُّ المسلمون من جراحهم في فلسطين وأفغانستان وغيرها.

و من جهة ثالثة ينصب الغرب نفسه مدّعياً وقاضياً ومنفذاً في هذه المسألة مع اعترافه بأنّ الإرهاب لم يتحدد تعريفه ولم يتم الفصل بين مصاديقه وموارد المقاومة المشروعة دينياً ودولياً بل نجده يطرح الثنائية اللامعقولة: «فإمّا أن تكون معنا أو فأنت إرهابي».

تماماً كان الشيوعيون المتشددون يطرحون ثنائية: ـ إمّا أن تكون شيوعياً أو فأنت لاتفهم الشيوعية ـ وحينئذ يغلق باب البحث ويفتح باب العنف.

الثانية: مسألة الحرية الطبيعية والاجتماعية

ربما يتصور أنّ الغرب يركّز على مسألة الحرية التي يمنحها المجتمع للإنسان ويتّهم الإسلام بتحديده لها، ولكن الحقيقة أنّ الغرب دأب على اتّهام الإسلام برفضه للحرية الطبيعية (أي التي يمتلكها الإنسان بطبيعته الإنسانية)، متّهما إيّاه بالجبرية؛ لأنّه يؤمن بالقضاء والقدر.

و كنت أحسب أنّ هناك سوء فهم فردي من قبل بعض الغربيين حينما طالعت ما نقله الدكتور محمد حسين هيكل عن الكاتب الأمريكي (واشنطن ارونك) حين ألف كتاباً عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وشرح فى خاتمته قواعد الإسلام الأساسية ومنها عقيدة الجبر، فردّ عليه المرحوم هيكل بشكل مناسب ولكنّني وجدت (ويل ديورانت) يؤكد سوء الفهم هذا ويجعل الاعتقاد بالجبرية من المظاهر الواضحة في الفكر الإسلامي[1].

بل وجدت كاتباً إنكليزياً في عصرنا الحاضر هو ابراهام برايان يكتب عن الحضارة الإسلامية متهما إيّاها بالجبرية[2].

و لا أجدني بحاجة ولا في موضع الإجابة بعد وضوح مبدأ الاختيار الإنساني في القرآن الكريم: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَ إِمَّا كَفُوراً﴾[3] ولكنّها شبهة يجب أن تزال من الذهن الغربي، وحتى المثقف منه وإلاّ كان لها آثارها التحليلية الاجتماعية أيضاً.

وعلى أيّ حال فما زال الغرب يتهم الإسلام بتحديد الحريات الاجتماعية كما يتّهم المسلمون الغرب نفسه بمنح الحريات الفردية المجال الواسع ممّا يحوّلها إلى حريات حيوانية مخرّبة فيجب إذن أن يجتمع الطرفان وتحدد المساحات المشتركة، وهو أمر ممكن إلى حدٍّ كبير.

---

١. قصة الحضارة، ج ١٣، ص ٥.

٢. سلسلة مقالات في الاكونومست اللندنية عام ١٩٩٤.

٣. الإنسان: ٣.

الثالثة: مسألة العلاقة بين السلام والعدالة

انطلقت دعوة الحوار بين الأديان على أسس منطقية سليمة، وراحت تترك أثرها الجيد في مجال تحقيق التفهمّ والتفاهم المنشود وتقليل مناطق الصدام، وتوفير مجالات التعاون المستمر على صعيد خدمة القضية الإنسانية والقضية الدينية والقيم المعنوية.

ونحن نرجو لها التوسع من مرحلة التفاهم بين المتخصصين إلى مرحلة صيرورتها ثقافة عامة تعشقها الشعوب وتتعامل على أساس منها في مختلف قضايا التماس الحضاري بعيداً عن محاولات الاستغلال والتشكيك.

و من أوليات قضية الحوار ـ أيّ حوار كان ـ ضرورة الانطلاق من قناعات متّفق عليها مسبقاً.. لتكون هذه القناعات هي الأضوية الكاشفة التي تحلُّ العقد وتفتح السبل المسدودة لعملية الحوار، وتقضي في موارد الخلاف.

وما نتصوّره أنّ الإيمان بالفطرة هو من القناعات المشتركة بين جميع الأديان السماوية:

والمقصود بالفطرة هو أنّ الإنسان مخلوق إلهي أودعت الحكمة الإلهية في وجوده وطينته الأصلية مجموعة من القضايا البديهية والقدرات العقلية والميول والغرائز، التي تضمن له سيراً طبيعياً نحو تكامله المرسوم له.

إنّ الأديان إنّما جاءت لتثير له دفائن العقول ـ كما يعبر الإمام علي عليه السلام وتهيّئ الجوّ المناسب لبروز هذه الطاقات الكامنة على سطح حياته فتهديه سبيلا إنسانياً يختلف كل الاختلاف عن السلوك الذي تسلكه الحيوانات العجماء التي لاتتمتع بما يتمتع به من طاقات.

أمّا القضايا البديهية فهي التي تمنحه القدرة على المعرفة؛ معرفة نفسه ومعرفة الكون والواقع، وفلسفة الوجود والعلاقات القائمة بين الأشياء وتلك من قبيل: الإيمان بمبدأ العلية، والإيمان بمبدأ استحالة التناقض (الجمع بين النقيضين، ارتفاع النقيضين) و(بعض القضايا الأخرى). فهذه قضايا مغروزة في القناعة والوجدان الإنساني لايحتاج للاستدلال عليها وإلاّ دخل في طريق مسدود؛ لأنّ الاستدلال نفسه يتوقف عليها كما هو واضح. أمّا القدرات العقلية فهي نفس قدرة النفس الإنسانية على التأمل والتفكير وتجريد القضايا من ملابساتها والصعود من مرحلة الجزئيات إلى مرحلة الكلّيات، والقيام بقياس الأشياء

للوصول إلى تصورات جديدة والتخطيط الذهني لمراحل غير موجودة على صعيد الواقع القائم.. أنّ هذه القدرة الذهنية هي من مختصّات الإنسان، وهي سرّ مسيرته التكاملية وإبداعه ونموّه.

و أمّا الميول الغريزية فهي التي تقوده نحو كماله وتدفعه للاستفادة من طاقاته في هذا المجال:

ومن هذه الميول: ميله نحو الكمال، والسير نحو الكمال المطلق، ومحاولة سدّ جوانب العجز في وجوده، والركون إلى هذا المطلق القادر وأداء حقّه وشكر نعمه والقيام بحق طاعته. فهذه أمور يجدها الإنسان مغروزة في الطينة الإنسانية وإن اختلفت تجلياتها وتعدّدت أساليبها. وربما غطّت الشبهات على هذه الميول وكبتتها.

ومنها أيضاً غريزة حبّ الذات والعمل على تحقيق طموحاتها، فهي من الغرائز الأصلية في الإنسان والتي لايمكن تجاوزها والقضاء عليها، كما تصوّرت الماركسية يوماً ما أنّها ظاهرة فوقية يمكن حذفها من الوجود الإنساني من خلال تحريم الملكية.

و منها: التذوق الفني والابتهاج لعناصر الجمال التي يزخربها هذا الكون.

و لسنا نريد استعراض كل العناصر الفطرية، وإنّما نريد أن نطلق هذه الحقيقة هي: أنّ الاقتناع بأنّ (العدالة شيء حسن دائماً) و(أنّ الشيء الحسن ينبغي فعله) هي من القناعات الفطرية التي لاتحتاج إلى دليل... فإذا اقتنع الإنسان بأنّ الموضوع المعين حسن اقتنع بأنّه ممّا ينبغي فعله دونما تشكيك، فهو موضوع مطلق، كما أنّ من المواضيع المطلقة حكم الوجدان الإنساني بأنّ قضية (إطاعة المنعم الحقيقي، والمالك الحقيقي للكون والإنسان) هي قضية مطلقه لاتتخلّف أيضا. هناك من القضايا التي زرعت في الوجود الإنساني كمصاديق لمسألة العدالة (أصلا) الصدق، والأمانة، والرحمة، والإيثار، والسلام.

فهذه الأمور حسنة في أصلها، ونقصد من عبارة (في أصلها) أنّها قد تطرأ عليها بعض الحالات التي تفقد معها حسنها الطبيعي الفطري وتخرج من كونها تجليات للعدالة ومصاديق واقعية لها لتعود من تجليات الظلم والتعدي.

السلام العالمي والموقف منه

قلنا لاريب في كون الأمان مطلباً إنسانياً فطرياً يستمد جذوره من أهم غريزة وجدت في

فطرة الإنسان، وهي غريزة (حب الذات). وهذه الغريزة تعمل مع باقي الغرائز بشكل متناسق لتحقيق سير إنساني متوازن نحو الأهداف التكاملية العليا للإنسان... فلا يكفي وجود الدوافع الغريزية لتأمين المسير المتوازن وإنّما يجب تأمين جوّ طبيعي للذات الفردية وللذات النوعية كي تدفعها تلك الدوافع نحو آفاقها المنشودة.

و تأكيداً من الفطرة نفسها على توفير الجو الآمن، نجد العناية الإلهية قد غرست فيها بديهيات الحكمة، والميول نحو العدل، والنفور من الظلم والاعتداء، بل ومنحتها القدرة على تعيين الكثير من مصاديق العدل والظلم، ممّا يمهّد لها السبيل للاتصال بالخالق العظيم وتقديم معاني الولاء له، وحينئذ تنفتح لها آفاق الوحي.

فيجب إذن التفاهم حول هذه العلاقة نظرياً لنصل إلى التفاهم حول المصاديق.

النقطة الرابعة: المحورية الحضارية

من الطبيعي جداً أن يقدّم الإسلام نفسه محوراً وأنموذجاً للحضارة الإنسانية باعتباره خاتمة النماذج الحضارية، التي قدّمها خالق الإنسان بمقتضى لطفه واعتبر الأمة الإسلامية النموذج والشاهد على كلّ الناس: ﴿وَ كَذٰلِكَ جَعَلْنٰاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدٰاءَ عَلَى النّٰاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾[١].

و قد قدّم الغرب نفسه ـ محوراً حضارياً ـ يجب أن تقتدي به الأمم، بل اعتبر نفسه غاية التاريخ ونهايته ـ كما يعبّر فوكوياما المفكر الأمريكي الياباني الأصل ـ ورغم أنَّ صموئيل هانينغتون قد اختلف معه في السبيل فقال بفكرة الصراع الحضاري إلاّ أنّه يتّحد معه في النتيجة، وهي انتصار الحضارة الغربية الليبرالية على كل الحضارات في النهاية. وهي فكرة ردّدها برايان الآنف الذكر ولكن عبر التوسل إلى العالم الإسلامي لكي يطوي بعض المراحل ليصل إلى هذا المستوى «وقد تصور أنّ العالم الإسلامي يمرُّ في القرن الخامس عشر الهجري بنفس ما مر به العالم الغربى في القرن الخامس عشر الميلادي من نهضة أوصلته إلى هذا المستوى اليوم».

١. البقرة: ١٤٣.

و هذه الفكرة ردّدها سياسيون وقانونيون غربيون آخرون وبشيء من الاستعلائية والمقارنة المجحفة.

وفي رأيي أنّ ترك الأمور على إجمالها والمقارنة بين المجملين لن يؤدي إلى نتيجة، فعلينا أن نحلّل كل حضارة إلى مبادئها التفصيلية، ثم نقوم بمقارنة هذه المبادئ إلى بعضها، معتمدين على المفروضات الإنسانية المشتركة والوجدان المشترك آملين الوصول إلى نتائج مشتركة وإلاّ بقينا ندور في حلقة مفرغة.

النقطة الخامسة: العالمية والعولمة

و هنا أيضاً لنسمح لكل طرف كي يطرح تصوّره، ثم لنتّفق على المبادئ الأساسية التي تعتمد القبول بالتعددية والتعاون والنظام العالمي المشترك خدمة لكل البشرية وتفادياً لإهدار طاقاتها وإمكاناتها.

في الواقع هناك اليوم ثلاثة نظم متنافسة هي الإسلام، الاشتراكية، الرأسمالية. وهي تمتلك جمعياً توجُّهات عالمية، وهنا أؤكد على أنّه لافرق من حيث هذا التعريف بين العولمة والعالمية. وقد ذكرنا أنّ الإسلام باعتباره آخر حلقة من حلقات الدين الإلهي جاء ليصلح البشرية، باعتباره طريق خلاصها الذي أراده خالق البشرية، وهو بذلك يركّز على الفطرة الإنسانية المشتركة بين أبناء البشر، ويعتمد منطق الحوار والإقناع، ويعرض نفسه باعتباره السبيل الوحيد لخلاص البشرية، هذا الإسلام استخدم، لتحقيق أهدافه، عملية التغيير الفردي والتغيير الاجتماعي، وسعى لحذف الحدود الجغرافية والحدود اللونية واللغوية، وإقامة مجتمع عالمي يطبّق قانوناً واحداً، ويتّبع قائداً واحداً، ويمتلك أحاسيس مشتركة، وأهدافاً إنسانية واحدة. هذا الاتجاه العالمي يبدو في كثير من النصوص الإسلامية، مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يا أَيُّهَا النّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿وَ إِنْ يَكادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصارِهِمْ لَمّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَ يَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ * وَ ما هُوَ إِلاّ ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ﴾[٢].

---

١. الأعراف: ١٥٨.

٢. القلم: ٥١ـ٥٢.

و هناك نصوص كثيرة تؤكد على عالمية الإسلام منذ انطلاقته الأولى، خلافاً لما يدّعيه بعض المستشرقين والمؤرخين من أنّ العالمية الإسلامية جاءت بالتدريج ولامجال هنا للتفصيل في هذا المضمار.

فالإسلام إذا انطلق باتجاه عالمي ومازال، عبر العصور، يؤكد هذا الاتجاه، يؤكد وحدة المنطلق الإنساني، والمسير والهدف، هذا هو رأي الإسلام، أمّا الاشتراكية فهي أيضاً عندما طرحت فلسفتها عن التاريخ طرحت مسألة المادية التاريخية، والمراحل التي اشتهرت في هذه المادية، حيث تنتقل البشرية من مرحلة العبودية إلى المراحل الاقطاعية، إلى الرأسمالية التجارية،المرحلة الرأسمالية الصناعية، إلى المرحلة الاشتراكية، وبالتالي إلى المرحلة الشيوعية، عبر بعض القوانين ومنها صراع الأضداد الاجتماعية.

هذا التصوّر أعطى الاشتراكية نظرتها العالمية في إيجاد تحول عالمي في مسيرة الإنسانية. وواضح أنّ الاشتراكية اعتمدت في هذا المجال قضية صراع الطبقات، والثورة والنظام الحديدي الاشتراكي، الذي يوصل المجتمع إلى الجنّة التي يتصوّرها الاشتراكيون، وهي الشيوعية[١]، وقد فشلت هذه الرؤية سواء على الصعيد النظري أو على الصعيد التطبيقي في إثبات ذاتها.

هذا بالنسبة إلى الاشتراكية، أمّا بالنسبة إلى الرأسمالية؛ فقد انطلقت منذ بداية حركتها دون أساس إيديولوجي[٢]، ولم تكن تهتمّ بالأساس الإيديولوجي، وإنما همّها تنظيم الحياة، وأقامت نظامها على أساس الحرية الفردية الرأسمالية، وعندما انطلقت وواجهت اتساع الأفكار المعادية لها، راحت تأخذ من الاشتراكية شعاراتها وتستبدلها بشعارات مقابلة، من قبيل العدالة الاجتماعية؛ حيث استبدلتها بمسألة حقوق الإنسان، والتنمية الاقتصادية، حيث استبدلتها بمسألة السوق الحرة ونمو الإنتاج،بالتالي فإنّها أخذت شعار الأممية البروليتارية واستبدلته بشعار العولمة الرأسمالية، إذ عندما انطلقت انطلقت محلية وكان تركيزها على الغرب، ولم تطرح نفسها بشكل عالمي، إلاّ بعد أن توفرت ظروف مناسبة لذلك.

---

١. للوقوف على تفصيل هذا الأمر، راجع بحوث الشهيد الصدر فى اقتصادنا، ص ٥٣ ـ ٢٣٨، حول الموضوع.

٢. ن. م، ص ٢٤٧ ـ ٢٥٠.

النقطة السادسة: العولمة الاجتماعية ومشاكل السكان والتنمية

الملاحظ في مسيرة التفكير الاجتماعي الغربى والحاكم في النهاية على مسيرة صياغة الوثائق الاجتماعية الدولية ومنها وثيقة القاهرة ووثيقة كوبنهاغن ووثيقة بكين وغيرها، أنّ هناك منطلقات تحكم هذه العقلية وأهمّها ما يلي:

أوّلا: منطلق نظرية مالتوس القائلة بأنّ معدلات النموّ الإنسانى أسرع من معدلات النمو الطبيعي للموارد والإمكانات في الطبيعة.

ثانياً: منطلق أنّه لايمكن بل لاينبغي أن توضع العقبات أمام الاستجابة الحرّة للغرائز الجنسية؛ لأنّ ذلك يؤدي للكبت، والتمرد، ويخالف حقوق الإنسان.

ثالثاً: عدم الإيمان بما يسمّى بالقيم الإنسانية أو القيم الأخلاقية الاجتماعية، بل تصوَّر أنَّ توفّر مثل هذه القيم في المجتمع يؤدّي إلى عدم الاستجابة للثقافة الغربية ـ على المستوى العالمي ـ ولذا يجب العمل على محوها اجتماعيا لكي تنفتح الشعوب أمام عملية الغزو الثقافي الجامع وفرض التصوّرات الغربية لا على الأذهان فحسب بل وحتى على القوانين الفرعية الاجتماعية في المجالات المدنية باعتبارها عملية إدخال لروح حقوق الإنسان في المجالات القانونية، وباعتبار الغرب قيّما مزعوماً على حقوق الإنسان هذه، وهي أخطر مراحل هذا الهجوم حتماً.

رابعاً: الروح العلمانية التي واجه بها الغرب سلطة الكنيسة وتخلّص من براثنها ليتّجه الاتجاه المادي ويصنع حضارته التي جمعت بين هذا الاتجاه والتقدُّم العلمي، ومن هنا فهو يتصوّر أنّ منهجه هذا هو الذي يجب أن ينفذ في شتى أنحاء العالم.

وهو بذلك يتحسّس من كل ما هو ديني أو يمتُّ إلى الدين بصلة، ومن هذه المنطلقات وأمثالها جاء هذا التخطيط الرهيب ليعتمد الأسس التالية:

١. تأييد التحرُّر الكامل من القيود الدينية وخصوصاً في المجال العائلي والاجتماعي.

٢. تقليل النمو السكاني بشتّى الوسائل، ومنها الأجهاض.

٣. فرض المفاهيم الغربية عن حقوق الإنسان على الساحات الفكرية والعملية والقانونية.

٤. التأكيد على فكرة العولمة الاجتماعية وتدخُّل الأمم المتحدة في ثقافات الشعوب وبنيتها الاجتماعية.

ونلاحظ أنّ الإسلام لايعترف بمجمل هذه المنطلقات؛ فالقرآن الكريم يؤكّد أنّ الله تعالى أودع في الطبيعة كل ما يحتاجه الإنسان، وهو أمر يستنبطه الوجدان الإنساني الذي يلاحظ كل هذا الانسجام والتخطيط في الكون.

ولكنّ الذي أوجد المشكلة في الواقع هو ظلم الإنسان في توزيع المحصول الطبيعي توزيعاً عادلا، وكفره بأنعم الله تعالى: ﴿وَ آتاكُمْ مِنْ كُلِّ ما سَأَلْتُمُوهُ وَ إِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لا تُحْصُوها إِنَّ الْإِنْسانَ لَظَلُومٌ كَفّارٌ﴾[١].

كما أنّ الغرائز هي دوافع عمياء صمِّمت في وجود الإنسان لتحقّق له المضي في المسيرة ولكن تحت هداية عقلية وتخطيط تشريعي واقعي، فلا يمكن أن يطلق لها العنان، وإلاّ تحوّلت إلى عواصف هوجاء تعصف بالوجود الإنساني، كما أنّ الإيمان بالقيم الأخلاقية نابع من الإيمان بالله تعالى وهو مقتضى الفطرة الإنسانية والوجدان، ومن طلب ما عدا ذلك فقد بخس الإنسانية حقّها وأخرجها إلى حيوانية عجماء ﴿أُولئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[٢].

وأخيراً فإنّ الإسلام دين الحياة المترابطة ولايمكن أن تنتظم الحياة إلاّ به، فالعلمانية مرفوضة جملة وتفصيلا، وعلى هذا الأساس فإنّ النتائج التي اعتمدها هؤلاء مرفوضة أيضاً.

إلاّ أنّ هناك نقطة مهمة تجب ملاحظتها أيضاً، وهي أنّ هناك بدائل مشروعة تطرح نفسها في البين فيجب توخّيها وعدم اتّخاذ الموقف السلبي الكامل، فمسألة تنظيم العائلة أمر لاحظه الإسلام وسمح به بل وربما أوجبه إذا تطلّبت المسيرة الاجتماعية ذلك نتيجة للظروف الطارئه. فإذا عاد النمو السكاني خطراً على منطقة ما وتخطيطها ـ نتيجة عوامل لا يد للدولة الإسلامية فيها ـ كان من الممكن لولي الأمر أن يأمر بذلك كما أمكن للأفراد أن ينظّموا المسيرة وفقاً لما يحقق المصلحة الاجتماعية، والأب والأم هنا أحرار في مسألة التنظيم هذه. ولكن ذلك إنّما يتمّ بالطرق المشروعة وليس الإجهاض أحدها قطعاً، فهو أمر غير مسموح به إلاّ في الحالات النادرة كتعرّض حياة الأم للخطر أو ابتلاء الجنين بمرض عضال غير قابل للعلاج مثلا.

---

١. إبراهيم: ٣٤.

٢. الأعراف: ١٧٩.

و حقوق الإنسان بمعناها الحقيقي يضمنها الإسلام ويعمل على توفيرها للأفراد في إطار واقعي سليم.

و للإسلام مفهومه الخاص عن العولمة إذ يقيمه على أساس من الفطرة الإنسانية، وهي مشتركة بين أفراد البشر لاتنمحي وإن كانت آثارها قد تضعف وتقوى.

وعلى أيّ حال فينبغي التعامل بحذر وإيجابية مع الوثائق المطروحة وإلاّ ابتلينا بسلبياتها فرضاً وخسرنا إيجابياتها.

أمّا المشكلة التعليمية (التعليم للجنسين)، فإنّه ليس للإنسان أن يتصور تحفظاً للإسلام في مجال التعليم، فالإسلام دين العلم، وهو يحبّذ تعليم الإنسان في أيّة مرحلة كانت. فلامشكلة لدينا في تعليم الإنسان حقوقه الفردية والاجتماعية، ولا مانع مطلقاً من كشف الحقائق أمام الإنسان.

إنّما الإشكال يكمن في أن يستغل التعليم وأساليبه لتحقيق أهداف لا إنسانية وحينئذ يقف الإسلام ضد هذا الاستغلال.

وتعليم مسائل الجنس والعلاقة الجنسية وآثارها من الأمور الطبيعية، للتوقّي من الآثار السلبية للجهل، وللتخطيط للإشباع الحكيم، وتحقيق هدف الخلقة الإنسانية في ضمان استمرار النوع البشري، ليقوم بإعمار الأرض وبناء المجتمع الصالح وتنظيم العلاقات الاجتماعية وكذلك لإشباع حاجته الجنسية الطبيعية والتمتُّع بالحياة.

كل ذلك أمر طبيعي، وطبيعي أن يدعو له الإسلام ويحبّذه، إلاّ أنّ الخطريكمن في عملية الاستغلال، ذلك لأنّه يمسّ جانباً حساساً مشتعلاً في حياة الإنسان خصوصاً الإنسان الشاب ومن هنا يأتي عنصر الاستغلال الأمر الذي يدعو إلى الاحتياط، ومن هنا أيضاً أصرّ الوفد الإسلامي الإيراني في كل هذه اللقاءات على أن يكون التعليم في السنّ المناسبة وتحت إشراف الوالدين مستهدفاً الحيلولة دون الانتهاء إلى نتائج سلبية فردية أو اجتماعية، جسمية أو روحية. ومن هنا فإنّ المطلوب أن توضع خطة حكيمة لتعليم أولادنا وبناتنا ما يحتاجون إليه من معلومات ترتبط بهذا الجانب، وأحكام هذا الباب متناثرة في أبواب فقهية متعدّدة مثل الطهارة، والنكاح والعقوبات وغيرها.

أمّا التستُّر على الأمر بحجة الاستحياء، وعدم هتك الأسرار فهو إلى حدٍّ ما طبيعي، ولكن لايعني أن لاتنقل المعلومات اللازمة لنوقعهم أو نعرّضهم للوقوع في هذة الخطيئة أو القلق.

و حول مشكلة الإجهاض، فهناك بعض الدول التي تبيح الإجهاض في قوانينها الداخلية بشكل طبيعي، وهناك الاتجاه الآخر الذي تقوده الكنيسة، وهي تحرّم أيّة عملية إجهاض مطلقاً بل أيّ عملية تنظيم للنسل وتخطيط للأسرة من خلال أقراص منع الحمل وأمثالها، اللّهمّ إلاّ ما كان من قبيل التخطيط للمقاربة الجنسية في الأوقات التي يقلُّ فيها احتمال انعقاد النطفة كبعض الأيام في الشهر.

وهناك الاتجاه الإسلامي الوسط، فهو يمانع فيها ويحرّم القيام بالإجهاض منذ انعقاد النطفة، ولا مانع من القيام بكل عمل يقف بوجه هذا الانعقاد كالعزل الذي أحله رسول الله ﷺ لأصحابه.

كما لا يمانع من الإجهاض إذا تعرّضت حياة الأم للخطر المحقّق، أو ابتلي الجنين بمرض عضال لايقبل العلاج، على بعض الآراء طبعاً.

و على أيّ فيجب أن لايحبّذ هذا العمل ولايعتبر وسيلة لتنظيم النسل مطلقاً.

ولكن إذا تمّ السماح لهذه العملية شرعاً فيجب أن يتمَّ بالطرق الصحيحة المأمونة بلاريب.

كما أنّ الإسلام يحرم مطلقاً أن تقوم الأم بهذه العملية لعدم الرغبة في الانجاب، أو لوجود بعض النتائج السلبية، الاقتصادية والاجتماعية.

إنّ الجنين مهما كان السبب في تكوّنه (حتى ولو كان ذلك محرماً) إنسان محترم، له حق الحياة. ولا يجوز الاعتداء عليه ويجب توفير كل الظروف الملائمة لتكامله وولادته صحيحاً سالماً.

وتبقى هناك مسألتان:

١. مشكلة الشباب: لجيل الشباب بمقتضى طبيعته الحيوية وتحولات حياته، الكثير من المشاكل، وأنماط السلوكات التي يفرط فيها أحيانا ولايجد متنفّساً لها في المجتمع أحيانا أخرى. من قبيل المشاكل الجنسية ومشكلة الزواج، والنزوع للتحرر من أيّة قيود، والتمرد على التقاليد، وانطراح التساؤلات العديدة وقلق الشخصية وتردّدها بين الطفولة والرجولة ومشاكل التعليم.

وهذه الحالات تتطلّب منا مواجهة حكيمة ـ كما أسلفنا ـ من خلال الدراسة الميدانية، واللقاءات الودية والحرة، والعمل على ملء الفراغ الشبابي بشتّى الأساليب الإيجابية والابتعاد عن جوّ العنف والتحلّل والتمرّد، وتوفير فرص التعويض الإيجابي بدلا من كبت العقد النفسية، وإشاعة الأخلاق الفاضلة بالحكمة والموعظة الحسنة، بدلا من استخدام أساليب الوأد، والإجابة على التساؤلات وأمثال ذلك.

٢. مشكلة المراة: للمرأة أيضاً مشاكلها الخاصة بها، من قبيل المشاكل الاجتماعية التي قد تعتور الزواج، كمشاكل الطلاق، ومشاكل الضعف في مواجهة الحالات العنفية كالحرب والتهجير والتقاليد المجحفة، ومشاكل الدخول في المعترك الإجتماعي الإداري والاقتصادي والسياسي والتعليمي، فينبغي إذن العمل الجاد على اكتشاف هذه المشكلات، ووضع الحلول المناسبة مسترشدين بالحلول الإسلامية الأصلية، ورافضين لكل حالات التطرّف المقيت، الذي يسلب المرأة حقوقها الإنسانية الإسلامية ويقعدها عن المساهمة في عملية البناء الاجتماعي الواسع بل في العملية الحضارية الإنسانية أسوة بالعظيمات من النساء اللواتى تركن بصماتهن على الصعيد التاريخي.

إنّها طاقة كبرى يجب أن لانكفر بنعمتها ونتركها هكذا تذوب وتنزوي، بل نعمل على أن تسخّر لصالح الإنسانية.

النقطة السابعة: الديمقراطية

إنّ الليبرالية الغربية تمنح كل السلطات للشعب، فله التقنين والتعيين للحكام.

إلاّ أنّ الديمقراطية الغربية تتحوّل إلى مجرد حقوق اسمية في كثير من الأحيان حينما يتدخّل المال والتزوير والتحالفات المصلحية.

في حين يرى الإسلام أنَّ الدين بمقتضى انطلاقه من خالق الإنسان له الحق في تعيين نوع تدخّل الإنسان في مجال التقنين والتعيين. ومن خلال هذا المبدأ قام الإسلام بالأمور التالية:

١. عالج الجانب الثابت من الحاجات الإنسانية بأحكام ثابتة لاتتناولها يد التغيير. نعم قد تتغير أساليب التطبيق باختلاف الزمان والمكان والاجتهادات، كاختلاف أساليب تطبيق التكافل والتوازن الاجتماعى باختلاف المجتمعات الإسلامية.

٢. فسح المجال للحاكم الإسلامي في التشاور مع الأمة لتحقيق المصالح المتغيرة وإشباعها بأفضل الطرق في مجال المباحات.

٣. وضع الشروط اللازمة لانتخاب الكوادر التنفيذية على كل المستويات وبالتالي نستطيع أن نعبّر عن الحكم الإسلامي بأنّه حكم الشعب ضمن الإطار الديني.

إذن فهناك نقاط إلتقاء كثيرة يمكن التوصّل فيها إلى حد مشترك مع الديمقراطية الغربية.

النقطة الثامنة: العلمانية

و هي فكرة نشأت في أحضان غربية ونتيجة صراعات بين أنصار التحرّر والتزمّت الكنسي انتهت إلى عزل الكنيسة عن الحياة الاجتماعية ـ تقريباً ـ بالتالي فصل الدين عن الحياة.

إلاّ أنّ طبيعة الإسلام وتعاليمه الحياتية وتخطيطه لأسلوب الحكم وتطبيقاته العملية تتناقض مع هذه الفكرة.. ونحن لا نرى مجالا للتفاهم على حد مشترك في هذا المجال.

النقطة التاسعة: حقوق الإنسان

وفي هذه النقطة لانجد اختلافاً كبيراً في المفهوم وفي نوعية القيود التي يجب أن تقيّد هذه الحقوق، من حيث ضرورة كون هذه الحقوق معقولة إلاّ أنّ الاختلاف قائم في مجالات أخرى من قبيل (منشأ الحقوق) وهل هو الإنسان ذاته الذي يقرّرها ويقرّر حدودها ومصاديقها وبالتالي يتبع الأمر اجتهادات الإنسان، أم هو الله خالق الإنسان ومالكه، وهو الذي يمتنّ بها على هذا المخلوق، ثم يعيّن له حدود هذه الحقوق والتي تضمن أن يكون استفادة الإنسان منها محقّقة لتكامله الفردي الاجتماعي وغير مخلّة بالتوازن المطلوب، بعد أن كان الحق ذا طرفين: من له الحق ومن عليه الحق.

و على أيّ حال فنحن نعتقد أنّ الإيمان بنظرية الفطرة الإنسانية ضروري للإيمان بالحقوق الإنسانية، فالإنسان الذي يمكن أن نتصوّر له حقوقاً هو الموجود الذي يمتلك بطبعه عناصر فطرية تولد معه وتبقى معه مادام إنسانا، فإذا انقلب إلى وحش فقد هذه الحقوق ﴿وَ لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولٰئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾[١]. والحقيقة أنّنا إذا لم نؤمن

---

١. الحشر: ١٩.

بالفطرة الإنسانية فقدنا المعيار في تشخيص الحقوق وربما كان الذين كتبوا الإعلان العالمي لحقوق الإنسان ينطلقون من هذا المنطلق ـ دون أن يشعروا أو يصرّحوا بذلك ـ حينما قرّروا في مقدمة الإعلان «ضرورة معرفة الحيثية الذاتية للإنسان لتحقيق الحرية والعدالة والسلام».

وبالتالي نجد اختلافا واسعاً بين الغرب والإسلام في مصاديق هذه الحقوق إلاّ أنّ هذا لايعني عدم إمكان الوصول إلى مساحات مشتركة كثيرة، وهذا يتّضح من المقارنة بين الإعلان العالمي والإعلان الإسلامي لحقوق الإنسان[1].

النقطة العاشرة: دعم الحركة الصهيونية

إنّ العداء بين الحركة الصهيونية والأمة الإسلامية بات قوياً لاتزيده الأيام إلاّ رسوخاً؛ نتيجة الطبيعة العنصرية من جهة والتأصُّل الاجرامي لدى الصهاينة من جهة أخرى. وها نحن نتجاوز قرناً من الزمان ملؤه التعدّي على حقوق المسلمين المعترف بها دولياً وقد تجاوزت انتهاكات العدو الصهيوني العشرات بل المئات من قرارات الأمم المتحدة وبشكل يندى له جبين الإنسانية.

إلاّ أنا نجد الغرب وعلى رأسه اليوم أمريكا يقف مدافعاً عنه وداعماً له بشتّى أنواع الدعم، بل ومتجاوزاً حتى شعاراته هو من حماية حقوق الإنسان، بل معتبراً إيّاه النظام الديمقراطي المقدّم للعالم الثالث.

و الغرب بهذا يثبت كذب منطق حمايته لحقوق الإنسان، ويكيل بمكيالين في هذا المجال، ويثير حقد العالم الإسلامي بل حقد كل إنسان يحترم إنسانيته.

هذا وقد حاول الكثيرون الوصول إلى بعض المساحات المشتركة ولكن كل هذه المحاولات تحطّمت على صخرة الطبيعة العنصرية والعدوانية الصهيونية، وهي مسألة لا نجد فيها أيّ مجال للمساومة.

---

١. راجع كتابنا حول الدستور الإسلامي.، ص ١٥٧.

فهرست

الحضارة.. ٣
من الظواهر العامة في الإسلام ٥
المقدمة.. ٧
أولاً: الظاهرة الأخلاقية المحققة للعدالة والحقوق......................... ٩
من ملامح الحياة المعنوية في الإسلام.. ١٤
نفي الشبهات حول الواقعية الإسلامية ١٦
ثانياً: ظاهرة الترابط والتعاون ١٩
أـ الترابط الكوني من وجهة نظر الإسلام.......................................١٩
بين الكون والله ٢٠
الترابط بين عالم الغيب وعالم الشهادة...٢٠
بين المخلوقات أنفسها...٢١
بين أبناء الإنسانية..٢٢
الروابط الداخلية ٢٤
بـ الترابط بين مكونات الإسلام:..٢٤
أمثلة من الترابط بين المكونات..٢٥
ج ـ الترابط بين قطاعات الأمة المسلمة وأفرادها: ٢٦
المظاهر العامة لتركيز هذا الارتباط في ذهنية الأمة ٢٧
الترابط عبر المسؤولية المتبادلة لتطبيق أحكام الله تعالى.......................٣٠

الإسلام والتعاون الدولي ٣٢
الشروط الضرورية.. ٣٢
القيم المنسجمة ٣٢
منطلقات التعاون.. ٣٣
العقبات بوجه التعاون.. ٣٤
الإسلام والتعاون ٣٥
النقطة الأولى: تحديد المجالات.................................. ٣٥
النقطة الثانية: تقوية المنطلقات ٣٦
النقطة الثالثة: توفير الشروط اللازمة.............................. ٣٧
النقطة الرابعة:... ٣٨
النقطة الخامسة: تذليل العقبات ٣٩
النقطة السادسة: فقه العلاقات الدولية ٤٠
ثالثاً: ظاهرة التوازن والوسطية في التصور من الكون والموقف من الحياة............. ٤١
التوازن العادل الحكيم.. ٤١
مجالات التوازن ٤٢
القسم الأول: التوازن في التصور الإسلامي عن الواقع ٤٣
الكلية الأولى: البناء التكويني المتوازن............................ ٤٤
الأسلوب الأول: التقدير الدقيق والتنظيم الشامل ٤٤
الأسلوب الثاني: صور التوازن والتقدير في الكون ومصاديقه ٤٥
العلم يكتشف يوماً فيوماً أنماط التوازن في الكون ٤٨
الكليَّة الثانية: التوازن بين طلاقة المشيئة الإلهية وثبات السنن الكونية ٥٠
الكلية الثالثة: التوازن بين مجال الإرادة الإلهية المطلقة ومجال الإرادة الإنسانية المحدودة ٥٣
الكلّية الرابعة: التوازن بين الرحمة الإلهية والعقوبة الشديدة ٥٤

المجموعة الأولى ـ آيات الرحمة الواسعة: ٥٤
المجموعة الثانية ـ آيات العقاب: ٥٤
الكلية الخامسة: التوازن بين صورة الدنيا وصورة الآخرة ٥٥
عالم الآخرة: عالم الانكشاف.. ٦٠
الكلّية السادسة: التوازن بين طرق الخير وطرق الشر................ ٦٢
الكليّة السابعة: التوازن بين هدف الخلقة الإنسانيّة والإمكانيات المنوحة ٦٦
الكلّية الثامنة: التوازن بين مصادر المعرفة الإنسانية ٧٠
الكلّية التاسعة: التوازن بين العوامل المحركة للتاريخ الإنساني والإرادة الإنسانية ٧٣
المجتمع، هل هو وحدة حية؟... ٧٣
ما هو العامل المحرك للتاريخ؟....................................... ٧٤
من نظريات العامل الواحد:.. ٧٤
ما هي العوامل التي تشترك مع الفطرة في صنع التاريخ؟ ٧٦
أ. التأثرات التكوينية للقوانين المحسوسة منها وغير المحسوسة: ٧٦
ب ـ التأثيرات التكوينية أيضاً للفطرة الإنسانية بما فيها من غرائز: ٧٩
ج ـ الفكر والإرادة الإنسانيان.. ٧٩
القسم الثاني من مجالات التوازن: التوازن في تعامل المسلم مَعَ الواقِع ٨٢
الفرع الأول: السمات العامَّة لتعامل المسلم مع الواقع ٨٢
أولاً: الموقف المتناسق من الكون المتناسق......................... ٨٢
ثانياً: موقف العبودية المطلقة والشكر لله مع الاعتراف بفضل المخلوق... ٨٥

ثالثاً: موقف الأمل بالله تعالى مع الاطمئنان ببقاء السنن الكونية .٨٧
رابعاً: موقف التوكل على الله والثقة بالنفس.....................٨٧
خامساً: موقف العلوّ على المشاكل التاريخية مع تقدير دور كل عامل
....٨٨
سادساً: موقف الدقة في اختيار سبيل الخير مع الحذر من سبل الشر
....٨٩
سابعاً: موقف الخوف والرجاء.................................٨٩
ثامناً: الموقف المتوازن من الدنيا والآخرة........................٩٢
تاسعاً: موقف التوازن في تقدير عمل أنواع الهداية ٩٥
عاشراً: موقف التوازن بين البرهنة والتعبد والتسليم ٩٦
الفرع الثاني: التوازن في المجال التشريعي........................١٠٣
البحث الأول: خطوط عامة في التشريع ترتبط بالتوازن: ١٠٤
الخط الأول: التوازن بين التشريع وأرضيته....................١٠٤
الخط الثاني: الوحدة والتوازن في تطبيق كل الأنظمة الإسلامية
....١٠٨
الخط الثالث: الموازنة بين الإلزام وطلب التطوع ١٠٩
الخط الرابع: الموازنة بين: التحديد في المجالات الثابتة والقواعد
العامة في المجالات المتغيرة...................................١١١
الخط الخامس: الموقف المتوازن من الحرية الإنسانية ١١٢
البحث الثاني: صُورٌ من التوازن في النُّظم الإسلامية ١١٤
أولاً: النظام التربوي يشبع الغرائز والميول اشباعاً متوازناً ..١١٥
الخط الأول ـ عدم الكبت: ١١٥
الخط الثاني تنمية الاستعدادات المعنوية، وتركيز الحب على
مجالاته الأصيلة، وتهذيب الغرائز الطاغية: ١١٥

الصفات النفسية التي هذَّبها الإسلام.................. ١٦٣
بعض الصفات النفسية المهمة المؤثرة في حياة الإنسان: . ١٦٤
المحسوس والمعقول وآثارهما وموقف الإسلام منهما... ١٦٥
تأثر ـ الإنسان ـ بمحسوساته أكثر من تأثره بمعقولاته.. ١٦٥
التأثير الإيجابي لهذه الظاهرة........................ ١٦٦
ظاهرة تكامل الغرائز الحسيَّة أسرع من تكامل العناصر الفطرية
المرتبطة بعالم المعنى................................ ١٦٧
موقف الإسلام ١٦٨
اعتراف الإسلام بهذه الظاهرة ١٦٨
القرآن يجسِّد المعاني بأساليب مختلفة.................. ١٧١
الأماكن والأزمنة التي تمثل أموراً معنوية............. ١٧٩
العبادات ودورها في عملية التقريب ١٧٩
قراءة القرآن والإكثار من الذكر...................... ١٨٠
مفهوما الدعاء والتوبة................................ ١٨٠
الاعتماد على الحسِّ في مقام الاستدلال ١٨٠
دعاء مكارم الأخلاق والتوازن الأخلاقي.............. ١٨٤
ثانياً: التوازن في النظام الجنائي الإسلامي ١٨٥
ثالثاً: التوازن في النظام الإقتصادي الإسلامي............. ١٨٧
الصورة الأولى: التوازن بين أشكال الملكية............. ١٨٧
الصورة الثانية: التوازن الاجتماعي الذي يحققه الإسلام ١٨٧
الصورة الثالثة: التوازن بين نوعيتي الانتاج والتوزيع... ١٨٩
الصورة الرابعة: التوازن بين الاسراف والتقتير والاكتناز ١٨٩
رابعاً: التوازن في نظام العبادات ١٩١
الأول: التوازن في مجال الإرتباط بالمطلق............ ١٩١

الثاني: التوازن بين الحرية الإنسانية والعبودية لله ١٩٢
الثالث: التوازن في اشباع غريزة التديّن................ ١٩٢
الرابع: التوازن بين عزل المسجد عن الحياة وحصرها فيه١٩٣
الخامس: التوازن بين المصلحة الذاتية والمصلحة العامة ١٩٣
السادس: التوازن بين الاتجاه العقلي المحض والاتجاه الحس المحض.. ١٩٣
السابع: التوازن بين الغيبة ووعي المصالح ١٩٣
البحث الثالث: التوازن والوسطية ١٩٤
رابعاً: ظاهرة العالمية ٢٠١
القسم الأول: الوضع الطبيعي.................................... ٢٠١
القسم الثاني: عناصر مهمة في العلاقات مع الآخرين في رأي الإسلام...... ٢٠٣
القسم الثالث:الاتجاهات العالمية لدى النظم............................ ٢١٣
القسم الرابع:تعريف العولمة... ٢١٦
القسم الخامس:الآثار السلبية للعولمة ٢١٨
القسم السادس: بين العالمية الإسلامية والعولمة الغربية ٢٢٠
القسم السابع:موقف الأمة والخطوات العملية التي يجب أن تتخذها اتجاه العولمة ٢٢٢
القسم الثامن: القيم الإنسانية المشتركة ودورها في تعزيز التضامن بين الشعوب والامم.. ٢٢٤
تمهيد:.. ٢٢٤
القيم المشتركة مطلقة واقتضائية:.. ٢٢٨
السلام العالمي والموقف منه: ٢٣٠
الحوار بين الديانات واسع الابعاد.. ٢٣١
الحوار بين الحضارات ودور القيم فيه ٢٣٢

نماذج من القيم المشتركة التي يجب أن تسود ٢٣٣
معاً لتعميم منطق الحوار ٢٣٤
خامساً: ظاهرة المرونة والتجديد ٢٣٧
الأمر الأول ـ عنصر المرونة في التشريع: ٢٣٨
منافذ الفكر البشري إلى المساحة المشروعة.............................. ٢٤٢
الامر الثاني ـ عنصر المرونة الإسلامية في التطبيق والتبليغ:................ ٢٤٤
مظاهر التدرج والمرونة في هذا السبيل:................................. ٢٤٤
النقطة الأولى: ٢٤٥
النقطة الثانية من نقاط التدرج هي الترتيب في توسيع رقعة الدعوة: ٢٤٧
المرحلة الأولى ـ مرحلة الدعوة الفردية السرية: ٢٤٧
المرحلة الثانية ـ رحلة إنذار العشيرة علناً ٢٤٨
المرحلة الثالثة ـ مرحلة إنذار مكة ومن حولها ٢٤٨
المرحلة الرابعة ـ مرحلة إنذار العرب................................. ٢٤٨
المرحلة الخامسة ـ مرحلة إنذار الناس جميعاً........................... ٢٤٨
النقطة الثالثة: من نقاط التدرج، الموقف من أعداء الإسلام: ٢٤٨
١ـ أسلوب الدعوة السرية:... ٢٤٨
٢. أسلوب المجادلة العلنية: ٢٤٩
٣. أسلوب الموقف السلبي: ٢٥٠
٤. أسلوب الجهاد: ٢٥١
شبهة السيف:.. ٢٥٣
٥. أسلوب الهجرة:.. ٢٥٤
٦. أسلوب المعاهدة والصلح: ٢٥٥
٧. الحرب الفكرية المضادة:... ٢٥٥
الامر الثالث ـ الإنزال التدريجي للقرآن وفوائده:........................ ٢٥٥

سادساً: ظاهرة ابقاء الأمل حياً.. ٢٦١
مقدمة: عنصر الأمل أحد معالم المبدأ الناجح.............................. ٢٦١
العلاقة بين النمو العقلي والأمل:.. ٢٦٣
التناسب الطبيعي بين نوعي الأمل والعمل.................................. ٢٦٤
الأمل في النظم الوضعية حدوده، وموهناته:................................ ٢٦٦
الإعتراض بملاحظة الواقع التطبيقي:...................................... ٢٦٧
والجواب:... ٢٦٧
لا يمكن للإغراء أن يحل محل الدين:...................................... ٢٦٨
أهم موهنات الأمل المادي:... ٢٦٩
الأمل في الإسلام... ٢٧٥
رأي بعض المراجع اللغوية:... ٢٧٥
الترابط بين أجزاء الإسلام:... ٢٧٨
الفصل الأول ـ روافد الأمل في العقيدة الإسلامية:........................... ٢٧٨
التوحيد:.. ٢٧٩
النبوة:.. ٢٨٠
الامامة:... ٢٨١
المعاد:.. ٢٨٢
الفصل الثاني ـ التصورات النابعة من العقيدة:............................... ٢٨٢
١. مسألة القضاء والقدر:... ٢٨٢
٢ ـ الحق سر الكون.. ٢٨٣
النتيجة.. ٢٨٩
الفصل الثالث ـ القوانين الفرعية.. ٢٩١
١. لا مكان للباطل... ٢٩١
٢. النصر للمؤمنين:.. ٢٩٢

٣. العاقبة للمتقين:.. ٢٩٣
٤. العمل الصالح والسيئات:.................................. ٢٩٤
النوع الأول: ٢٩٤
النوع الثاني: ٢٩٥
٥. التقدم المضاعف من قبل الله إلى العبد.......................... ٢٩٦
٦. دور الربط المستحكم بين عالم الغيب والشهادة..................... ٢٩٧
٧. نفي اليأس والقلق بشدة:.................................... ٢٩٨
٨. مفهوم التوكل:.. ٢٩٩
٩. الدعاء:.. ٣٠١
أ ـ التجسيد لكل المعنويات ٣٠٢
ب ـ تلبية الحاجات الطبيعية الغريزية للإنسان: ٣٠٢
أولاً ـ جوع الإنسان للحنان:.................................... ٣٠٣
ثانياً: مقتضيات الضمير:.. ٣٠٤
ج ـ منح السند النفسي لتحقيق الأمل:............................. ٣٠٥
دعاء الإمام الحسين: ٣٠٦
١٠. التوبة والغفران وتأثيرهما في فتح أبواب الأمل:................... ٣٠٧
النقطة الأولى ـ التوبة للمطيع والعاصي معاً:...................... ٣٠٨
أ ـ الجانب الأول:.. ٣١٠
ب ـ الجانب الثاني:... ٣١٠
ج ـ الجانب الثالث:... ٣١١
النقطة الثانية: التوبة الإسلامية تركيز لمعنى الارتباط المباشر بين المولى والعبد.. ٣١٢
النقطة الثالثة: التوبة المقبولة ٣١٣
١١. الشفاعة، ودورها كمؤكد للعفو والغفران، ودافع نحو الإسراع في تحقق

الأمل ٣١٤
١٢. مفهوم الانتظار ودوره:.. ٣١٩
مثل من القرآن الكريم ٣٢٠
١٣. الامل الذي تبعثه نوعية النظام الإسلامي ٣٢١
الأعداء يشعرون بالخطر ٣٢٢
النظام الإسلامي يسبق الفكر الوضعي:.............................. ٣٢٤
مثال اقتصادي مذهبي: ٣٢٥
الفصل الرابع ـ ضوابط الامل: ٣٢٧
في مجال القوانين القرآنية: ٣٣٦
الدعاء:... ٣٣٦
استعراض وربط.. ٣٣٨
الأقليات الإسلاميةوعلاقاتها بمجتمعاتها ٣٤٥
دور منظمة المؤتمر الإسلامي في حل مشاكل الأقليات الإسلامية ٣٤٧
أ. المشاكل الثقافية... ٣٤٧
ب. المشاكل الاجتماعية ٣٤٩
١. مشكلة التعليم ٣٥٠
٢. مشكلة التربية.. ٣٥٠
مقترحات وطرق عملية لحل المشاكل التربوية ٣٥١
توصيات عامة.. ٣٥٢
٣. مشكلة الاختلاط ٣٥٣
٤. مشكلة الاعلام ٣٥٤
الاقتراحات ٣٥٤
ج. المشاكل الاقتصادية... ٣٥٤
اقتراحات لحل المشاكل الاقتصادية للاقليات ٣٥٥

د. المشاكل السياسية للأقليات الإسلامية ٣٥٦
مقترحات سياسية ٣٥٧
حماية حقوق الأقليات المسلمة في أوربا في ضوء التشريعات الأوربية والدولية ٣٥٩
المقدمة الأولى: تعريف الأقلية من الناحية الاصطلاحية القانونية ٣٥٩
المقدمة الثانية: ميدان البحث ٣٦٠
التحديات الحقوقية التي تواجه مسلمي أوربا ٣٦٢
١. الهوية الثقافية والاجتماعية ٣٦٣
٢. التحدي التربوي والتعليمي ٣٦٥
٣. التحدي السياسي والإعلامي ٣٦٦
حقوق الأقليات المسلمة في التشريعات الأوربية والدولية ٣٦٦
تطبيق الحقوق المشروعة اوروبياً ودولياً على واقع الأقليات المسلمة ٣٦٩
١. المجال الثقافي والاجتماعي ٣٦٩
٢. المجال السياسي والإعلامي ٣٧٠
٣. المجال التربوي والتعليمي ٣٧٢
لجنة إسلامية حقوقية متخصصة ٣٧٣
الثقافة العالمية والأقليات المسلمة ٣٧٧
رسالة إلى الندوة العلمية ٣٨٥
ماذا يجب أن يفعل المسلمون؟ ٣٨٦
دور المسلمين في مجال الإحياء الديني للمجتمع في روسيا ٣٨٩
دور المسلمين في عملية الإحياء الديني ٣٩٠
الوثيقة النهائية للمؤتمر الإسلامي الدولي دور المسلمين في إحياء القيم الروحية في روسيا ٣٩٢
الأقليات المسلمة في أوربا الشرقية بين عهدين ٣٩٧

واقع المسلمين في العهد الشيوعي... ٣٩٩
المسلمون في المرحلة الانتقالية... ٤٠٢
المسلمون وتحديات العهد الجديد... ٤٠٣
الأقليات المسلمة في الغرب وتحديات الاغتيال الثقافي... ٤٠٧
تجربة منظمة المؤتمر الإسلامي في دورتها الجديدة... ٤٠٨
تحديد اطار المشكلة... ٤١٠
١ ـ التحدي التربوي والتعليمي:... ٤١١
٢ـ التحدي الإجتماعي والحقوقي:... ٤١٢
لقمة العيش... ٤١٤
٣ ـ التحدي الثقافي والاعلامي:... ٤١٤
المعالجات.. خطوط عامة... ٤١٥
١ ـ الجانب التربوي والتعليمي:... ٤١٩
٢ ـ الجانب الاجتماعي والحقوقي:... ٤٢١
إطلالة على الوضع الثقافي للدول الأفريقية... ٤٢٥
آثار التغييرات الاجتماعية على وضع النساء والشباب... ٤٣٦
التغييرات الناجمة عن التعليم... ٤٤٢
تأثير وسائل الإعلام على أفريقيا... ٤٤٤
المقترحات:... ٤٤٦
الأقليات الإسلامية في أفريقيا الحالة القائمة والمقترحات حولها... ٤٤٩
الأقليات الإسلامية بين التقيد بالثوابت والقيام بمقتضيات المواطنة... ٤٦٣
الأوضاع العامة:... ٤٦٣
أولاً: التنوع... ٤٦٣
ثانياً: الاعتزاز بالإسلام وتأصله في النفوس... ٤٦٤
ثالثاً: الشعور باللحمة التي تربطهم بالعالم الإسلامي بقوة... ٤٦٥

رابعاً: المشاكل المشتركة ٤٦٥
بعض المشاكل المشتركة........................ ٤٦٦
الثوابت الإسلامية ٤٦٦
فقه الغربة عن العالم الإسلامي........................ ٤٦٧
الاضواء الكاشفة ـ المساهمة في عملية تكوين الموقف الإسلامي ٤٦٨
العناوين الثانوية المتقدمة على العناوين الأولية ٤٧٢
الموقف من محاولات الدمج والتوطين ٤٧٢
الاسهام في الانشطة السياسية والاجتماعية وغيرها ٤٧٣
الموقف من التعددية في المجتمعات موضع البحث ٤٧٣
العولمة والتعددية: ٤٧٣
مدى مشروعية التحاكم للقضاء غير الإسلامي؟ ٤٧٦
أسس وتوصيات تجب ملاحظتها ٤٧٧
نماذج من تساؤلات الأقليات والجواب عليها........................ ٤٧٩
الحوار مع الذات والآخر ٤٨٣
الإقبال العالمي على الإسلام........................ ٤٨٥
الفصل الأول: الخطاب الإسلامي والعودة إلى الوسطية........................ ٤٩٥
النقد الذاتي لحركة المفكرين الإسلاميين اليوم........................ ٤٩٦
الفكرالإسلامي بين السطحية اللامباليةوالتعمّق اللاطبيعي ٤٩٩
الثورية بلا إيمان سراب........................ ٥٠٢
ماذا تعني الثورية؟ ٥٠٢
دور الإيمان بالله في تحقيق هذه العناصر ٥٠٥
أسس الثورية الوهمية أو الناقصة:........................ ٥٠٧
الرأي القرآني الفصل:........................ ٥٠٩
اللاموضوعية........................ ٥١٠

الإفراط في التأثر داء وبيل ٥١٤
التقدُّمية المزيّفة.. ٥١٦
التنازلات المبدئية أحد الأدواء المعاصرة ٥٢٠
اللامبالاة في الشخصية الحاضرة ٥٢٤
الطائفية: أنواعها وتطبيقاتها ٥٢٨
الفصل الثاني: الدور الحضاري للأمّة ٥٣٣
الأمّة الإسلامية وخيار السلام العالمي في إطار العلاقة المتوازنة بين الحضارات ٥٣٣
الحوار حاجة إنسانية.. ٥٣٤
الحوار مبدأ إسلامي ٥٣٥
المناخ المناسب للحوار ٥٣٦
الحوار وهدف تحقيق الأمن والسلام ٥٣٧
خيارات البشرية لتحقيق الأمن والسلام ٥٣٨
حكومة السلام العالمية والتمهيد لها ٥٤١
عالمية الإسلام وطموح تحقيق الأمن والسلام.. ٥٤٣
الأمّة الإسلامية والمسؤولية تجاه السلام العالمي ٥٤٥
قيم الحوار والتعايش في الرؤية الثقافية الإسلامية.. ٥٤٨
مجالات الحوار ٥٥٠
عناصر الحوار.. ٥٥١
التعايش في الرؤية الإسلامية.. ٥٦١
الدور الحضاري المستقبلي للأمّة وموقع منظمة المؤتمر الإسلامي.. ٥٦٤
المقدمة.. ٥٦٤
الدور الأوّل: دور الاستعمار والاحتلال.. ٥٦٥
الدور الثاني: دور الاستقلال ولكن باتجاه قومي ٥٦٥

الدور الثالث: دور الاتجاه الإسلامي الشمولي.......................... ٥٦٥
الدور الحضاري للأمّة في عالم الغد.................................. ٥٦٦
نظرة على منظمة المؤتمر الإسلامي واقتراحات لتفعيل دورها العالمي....... ٥٦٨
الحقل الأوّل: المراكز الثقافية التي تمّ ايجادها أو الدعوة لذلك ٥٧٠
الحقل الثاني: المواضيع العامة.. ٥٧٢
أ. مشروع اللائحة الإسلامية لحقوق الإنسان.......................... ٥٧٣
ب. الاستراتيجية الثقافية للعالم الإسلامي.............................. ٥٧٤
ج. مشروع وضع خطة لمكافحة المفاسد الأخلاقية ٥٧٤
د. موضوع الموقف الموحّد من التجديف والاستهانة بالمقدسات الإسلامية.. ٥٧٥
الحقل الثالث: المؤسسات المتفرعة.................................... ٥٧٦
الحقل الرابع: المؤسسات التخصُّصية التابعة لمنظمة المؤتمر الإسلامي .. ٥٧٧
كيف تتمّ عملية التفعيل؟.. ٥٧٩
دور منظمة المؤتمر الإسلامي في دورتها الحالية........................ ٥٨٠
الإيسيسكو والقرن الحادي والعشرون التحدّيات والمسؤوليات ٥٨٦
مسؤوليات الإيسيسكو في تنمية العالم الإسلامي ٥٨٦
مصادر التحدّي وعناصره.. ٥٨٧
أوّلا: التغيرات العالمية.. ٥٨٧
ثانياً: التحوّلات على مستوى الأمّة الإسلامية ٥٨٧
ثالثاً: التحوّلات على مستوى الحوار بين الأديان والحضارات ٥٨٧
رابعاً: التحولات على مستوى منظمة المؤتمر الإسلامي ٥٨٨
التحوّلات العالمية على مستوى الإعلام ٥٨٨
التحوّلات العالمية في مجال التدُّخل الدولي في عملية التقنين......... ٥٨٩
الصحوة الإسلامية ومسؤوليات الإيسيسكو.............................. ٥٩٠

الحوار الحضاري ٥٩٢
التحوّلات المستقبلية لمنظمة المؤتمر الإسلامي ٥٩٢
اقتراحات عامة ٥٩٣
القيم الإنسانية المشتركة ودورها في تعزيز التضامن بين الشعوب والامم ٥٩٤
تمهيد ٥٩٤
القيم المشتركة مطلقة واقتضائية ٥٩٨
الحوار بين الحضارات ودور القيم فيه ٦٠١
نماذج من القيم المشتركة التي يجب أن تسود ٦٠٣
معاً لتعميم منطق الحوار ٦٠٤
الفصل الثالث: العلاقة مع الأديان ٦٠٧
القيم والمصالح أساس العلاقات بين المسلمين والمسيحيين ٦٠٧
سيدنا إبراهيم عليه السلام نموذج الإنسان الحضاري الكامل ٦١٢
أهم المبادئ للنظرية الإسلامية حول الحياة الحضارية الإنسانية ٦١٣
إبراهيم عليه السلام نموذج الرجل الحضاري القائد ٦١٦
من الخصائص التي يذكرها القرآن لإبراهيم عليه السلام ٦١٧
خلاصة نظرة الإسلام إلى العلاقة بين الحق والتكليف والعدالة ٦٢٤
منشأ الحقوق: ٦٢٤
الحقوق والتكاليف والعدالة الدينية: ٦٢٥
فلسفة العلاقة بين السلام والعدالة ٦٢٩
السلام العالمي والموقف منه: ٦٣٢
الحوار بين الإسلام والمسيحية الموانع والحلول ٦٣٣
هدف الأنبياء ٦٣٤
القاعدة القرآنية للتقارب ٦٣٤

نقاط الضعف في مسيرة الحوار ٦٣٥
مساحات مشتركة للحوار ٦٣٧
أ. حقوق الإنسان........................... ٦٣٧
ب. القيادة والشورى........................... ٦٣٩
ج. الهجوم المادي الغربي........................... ٦٤٠
الحوار مع كل الأديان ٦٤٠
أسئلة ومداخلات المطران بسترس، مطران بعلبك ٦٤١
(الجواب) تطور الفقه نحو تعاون مشترك ٦٤٢
مدارس الأقليات الدينية في الجمهورية الإسلامية ٦٤٢
الحرية والكرامة ٦٤٣
هل الدين إلاّ الحبّ........................... ٦٤٦
المطران الزغبى مداخلة:........................... ٦٤٦
الحرية بالمفهوم القرآني (إشكالية)........................... ٦٤٧
الدكتور شوقي ريا، أمين عام المنبر الحر ٦٤٧
الحرية من منظور الاجتهاد الإسلامي (إجابة)........................... ٦٤٨
الفطرة في ظلّ المعايشة اليومية لأمور الحياة (سؤال) ٦٥٠
الاباتى الدكتور بولس نعمان، مؤرخ ورئيس الرهبنة اللبنانية سابقاً..... ٦٥٠
الفطرة على ضوء المنهج القرآني (إجابة)........................... ٦٥٠
وضع المسيحيين في الجمهورية الإسلامية ٦٥٢
الاستاذ ابراهيم عطوي، صحفي في جريدة النهار ٦٥٢
العقول المتنورة في مجتمع الثورة الإسلامية (استفسار) ٦٥٢
الاب الدكتور مونس، أستاذ جامعي وعميد معروف........................... ٦٥٢
ما علاقة الدين بالوحي؟ ٦٥٣
التنوّر اتجاه كبير (توضيح)........................... ٦٥٣

علاقة الوحي بالدين (إجابة) ٦٥٤
بيروت ملتقى الأديان والمذاهب والثقافات ٦٥٥
الفصل الرابع: العلاقة مع الغرب ٦٦٧
تأمّلات في رؤية غربية ٦٦٧
مضمون رؤية برايان ٦٦٨
ملاحظات على رؤية برايان ٦٧١
تساؤلات حول العلاقات بين العالم الإسلامي والغرب ٦٧٧
إجابات ٦٨١
رسالة إلى المشاركين في ندوة لندن ٦٨٦
الظروف المساعدة اليوم ٦٨٩
بين نظرية القراءات والاجتهاد الإسلامي ٦٩٠
الهرمنوطيقيا ٦٩١
العوامل التي ساعدت على انطراح هذا البحث في الغرب ٦٩٥
ما هي العلاقة بين الهرمنوطيقيا وبعض العلوم الإسلامية؟ ٦٩٦
دراسة ونقد ٦٩٩
نقاط تجب ملاحظتها: ٧٠١
نتيجة البحث ٧٠١
الأحداث الإرهابية تداعياتها والموقف الإنساني المطلوب ٧٠٢
حول تعريف الإرهاب من وجهة نظر إسلامية وإنسانية ٧٠٣
النقطة الأولى ٧٠٥
النقطة الثانية ٧٠٦
النقطة الثالثة ٧٠٦
النقطة الرابعة: التعريف المختار للإرهاب ٧٠٩
النقطة الخامسة ٧١١

احداث ١١ سبتمبر والهجمة ضد الأمة الإسلامية........................ ٧١٢
الموقف الصحيح على المستوى الدولي.. ٧١٤
الحل على مستوى الأمة ٧١٦
العولمة وموقف الأمة.. ٧١٨
الوضع الطبيعي ٧١٨
عناصر مهمة في العلاقات مع الآخرين في رأى الإسلام ٧١٩
أوّلا: العمل على إبقاء الأمة نموذجاً أعلى للمجتمعات البشرية: ... ٧٢٠
ثانياً: المبدئية في التعامل:.. ٧٢٠
ثالثاً: نفي السبيل على المؤمنين: ٧٢١
رابعاً: التوعية قبل أية خطوة أخرى: ٧٢٣
خامساً: مراعاة العدالة في التعامل:...................................... ٧٢٦
سادساً: مبدأ تأليف القلوب: ٧٢٧
سابعاً: احترام العهود والعقود والاتفاقيات الدولية:.................. ٧٢٨
ثامناً: التعامل بالمثل: ٧٢٩
تاسعاً: نظام الجهاد بمختلف أنواعه:.................................... ٧٢٩
الاتجاهات العالمية لدى النظم ٧٢٩
تعريف العولمة.. ٧٣٢
الآثار السلبية للعولمة ٧٣٤
موقف الأمة والخطوات العملية التي يجب أن تتّخذها تجاه العولمة...... ٧٣٥
تقرير موجز عن ندوة الحوار بين الإسلام والغرب ٧٣٦
الموضوع الأوّل: وفيه أربعة أحاديث.................................... ٧٣٧
الحديث الأوّل: كلمة في مطلع الحديث عن الحوار الثقافي ٧٣٧
الحديث الثاني: حول تعدد الثقافات والحوار المتبادل (تعليق على إحدى الكلمات).. ٧٣٩

الحديث الثالث: حول الثقافة الإسلامية والثقافات القومية ٧٤٠
الحديث الرابع: تأكيد نزاهة الإعلام (تعليق حول ما قالته الدكتورة هالة)
.... ٧٤١
الموضوع الثاني: تعليق على حقوق المراة وموقعها في الإسلام ٧٤٢
الموضوع الثالث: وفيه تعليقان.................................. ٧٤٣
الأوّل: حول مشكلة المهاجرين ٧٤٣
الثاني: تعليق على ما أشار إليه الأخ الكريم من أفريقيا الجنوبية بين الشيعة والسنة ٧٤٥
الموضوع الرابع: حول العلاقة بين الاقتصاد والأخلاق.............. ٧٤٥
خلاصة القول أهم القضايا العالقة بين الإسلام والغرب ٧٤٧
خمسون عاماً من الحوار واهم القضايا العالقة.......................... ٧٤٧
الأولى: النظرة العدائية والروح الصليبية والعنف...................... ٧٤٩
الثانية: مسألة الحرية الطبيعية والاجتماعية............................ ٧٥٠
الثالثة: مسألة العلاقة بين السلام والعدالة............................. ٧٥١
السلام العالمي والموقف منه.. ٧٥٢
النقطة الرابعة: المحورية الحضارية ٧٥٣
النقطة الخامسة: العالمية والعولمة..................................... ٧٥٤
النقطة السادسة: العولمة الاجتماعية ومشاكل السكان والتنمية ٧٥٦
النقطة السابعة: الديمقراطية.. ٧٦٠
النقطة الثامنة: العلمانية ٧٦١
النقطة التاسعة: حقوق الإنسان....................................... ٧٦١
النقطة العاشرة: دعم الحركة الصهيونية ٧٦٢
فهرست.. ٧٦٣